

د. رفعت السعيد

الأجزاء الثلاثة لـ..

مجرد ذكريات

مجـــرد ذكريـــات

د٠ رفعت السعيد

شــركة الأمــل للطباعــة والنشــر
١٩ محمد رياض
أرض شريف - عابدين
الإدارة :
(+202) 23904096
فاكس:
(+202) 23952496
e-mail
al_amal@alamalprintshop.com

مجـــرد ذكريـــات

تأليف :
د. رفعت السعيد

رقم الإيداع: ٢٠٠٢٣/ ٢٠١٠
الترقيم الدولى : 977-5130-95-6

الطبعة الأولى: 2010
(ثلاث مجلدات فى مجلد واحد)

السعيد، رفعت
مجـــرد ذكريـــات
تأليف: د. رفعت السعيد
القاهرة: شركة الأمل للطباعة والنشر
٢٠١٠.
مج ٩٩٢ ص: ٢٤سم.
تدمك ٦ ٩٥ ٥١٣٠ ٩٧٧
رقم الإيداع بدار الكتب ٢٠٠٢٣/ ٢٠١٠
977-5130-95-6
ديوى ٩٢٠

مجـــرد ذكريـــات

الجزء الأول

ما قبل البداية

شيئان لا يعرفهما الإنسان - أى إنسان - لحظة الابتداء ، ولحظة الانتهاء .

ولست أدرى ، وحتى بعد أن غالبت نفسى وغالبتها ، فتغلبت على تمردها إزاء هذا الأمر ، هل سيكون الأمر ممكنا أم لا ؟

فكيف يمكنك أن تمتلك جسارة الادعاء بإمكانية استدعاء ما كان فى تراكمات هذا الزمن القديم ، استدعاءً يمنحك شجاعة الكتابة عنه ؟ والذاكرة تمتلك دوما نعمة أزلية ، فهى دوماً ذات ثقوب ، وإلا اكتظت بما يُثقلها ويهددها بالتبدد بين ما هو مهم وما هو غير ذلك .

والبشر كالمجتمعات ، الفرد كالجماعة ؛ فى حياته ما هو جدير بالاستدعاء ، وما هو غير ذلك .

ولهذا فإن الحكمة الإغريقية القديمة والحكيمة تبقى دوما لِتُلْقى بظلها المهيمن على أية كتابة تاريخية ، أو حتى كتابة عن الماضى ، وهى ذاتها التى تواوثناها كتعريف حاكم ومحكم لعلم التاريخ ، يقول : « إنه علم التعرف على الأشياء الجديرة بالمعرفة التى وقعت فى الماضى » .

فكيف لى أن أمتطى ثقوب الذاكرة هذه ، وأن أتراجع معها وبها إلى

أعمق أعماق البدايات الأولى ، لأتذكر ما كان أو بعضا منه ، ثم أنتقى ما أعتقد أنه جدير بالمعرفة ؟

« جدير بالمعرفة »... أية عبارة كبيرة ؟

فهى تطرح أولاً تساؤلاً : « جدير » بالنسبة لمن ؟

لى... أم للآخرين ؟

وأصلا... هل من حقى أن أعتقد أن ثمة شيئاً مما كان بالنسبة لى سيكون جديرا بالمعرفة بالنسبة للآخرين ؟ وهل يعنى مثل هذا الاعتقاد... ترفعا أو ادعاء ما كان لمثلى أن يفترضه ؟

ويتواصل التردد ، إزاء تواصل الإلحاح المتواصل ، وهو إلحاح ثنائى المصدر ، الأنا فى داخلى ، والعديد من الأصدقاء ورفاق الدرب الممتد عبر العمر بأكمله .

وأستشعر الوقائع والعبارات وكأنها تناوشنى ، تغالبنى فتغلبنى وتفرض نفسها علىّ وعلى سطح الذاكرة ، وتفترض أنه قد آن لها أن تخاطب الآخرين ، حتى ولو لم يكن ثمة مهتم بالاستماع .

وأهزُّ رأسى أكثر من مرة ، وكأنى أنفض عنها هذه الفكرة المتسمة بالمبالغة فيما كان ، محاولا إبعادها واستبعادها من سجل ما أنوى القيام به فيما تبقى من أيام ، وأكاد أقنع نفسى بأنه ما من شىء يمتلك الاستحقاق فى أن يسجل ، أو إن شئنا العودة للحكمة الإغريقية ، ما من شىء « جدير بالمعرفة » بالنسبة للقارئ أو لمن يفترض أنه سيكون قارئا .

لكن البعض من الأصدقاء يُلِحّ ، ويفترض أن ثمة زوايا مهمة تستحق أن تسجل ، وأنا نفسى أعانى من إلحاح داخلى . وهموم الأيام ودواماتها... والسياسة . والكتابة . وقضايا مهمة تتفجر ويتواصل تفجرها ليحول اهتمامى للاهتمام بها ، وليتباعد بى عن هذا الأمر الحرج والمحرج .

وتمسك بعض المسائل بتلابيبى : كل ما كان ، وما هو كائن الآن فى ذلك الذى كان يسمى بالمعسكر الاشتراكى ، وتلاحقنى إلحاحات عدة كى أحاول أن ألحق بمحاولة فهم ولو أولية لما كان وما سيكون .

وأحاصر نفسى لأكتب بعض الأفكار أضمنها كتاب «ماركسية المستقبل» وألاحقه بكتاب آخر «كتابات عن الماركسية» لكنها جميعا ليست سوى محاولة للابتداء ، وتحتاج بالحتم إلى مواصلة .

ثم همٌ آخر مهم . هو مسألة «الوحدة الوطنية» وما تغرسه فى نفسى من إحساس مخيف بالخطر ، ويتضاعف الإحساس والارتباك والخوف ؛ إذ تجد نفسك وأنت ترتجف وحدك من هذا الخوف... أن تكون فى سفينة مهددة - أو هذا ما تعتقد - وأنت وحدك الخائف ، والآخرون لا يعبأون ، بل - وأحيانا - يتهكمون ، أو يتهمون بأن هذا الافتراض مفتعل ، أو وهمى ، أو مصنوع .

وما أبأس أن تبدو كحيوان من ذلك النوع الذى يستشعر خطر الزلزال قبل أن يقع ، فيصرخ ، لكن الآخرين يواصلون الغياب .

وأظل رغم هدوء الآخرين وإنكارهم مستشعرا خطر الزلزال الآتى ، مدركا - أو متوهما فى نظر البعض - خطورته على مصر وعلى مصريتنا . وأشعر بمصريتى وهى توجعنى ، وأخوض مياه البحيرة الراكدة محاولا استثارة أية قدر أو قدرة على الحركة فيها ، ومحاولا تحريك الساكن ، والمطمئن ، والهادئ ، والمفتعل الهدوء ، والخائف ، والمتباعد ، والمتشاغل ، ومتحديا أخطاء الحكم وغضبه ، وتهديدات المتأسلمين ووعيدهم . وتأخذ هذه المعركة بخناقى ، تُمسك بى ولا تتركنى ، وتنتزع الكثير الكثير من وقتى وجهدى وقراءتى وكتابتى ، لكننى ، برغم كل المتاعب أستشعر أننى بهذه المعركة أصبح أفضل ، وأكثر توازنا مع ذاتى ، وضميرى ، ومصريتى ، وأبدو فى لحظة ما وكأننى أجهد نفسى كى أجلو ذلك الصدأ الذى يتراكم بفعل

الخيمة السوداء التى تخيم علي المناخ العام فى بلادنا فتجعله كئيبا وموحشا وغير إنسانى . أجلوه كى أزيحه عن نفسى ، ومحاولا إزاحته عن المناخ العام أو بعضا منه كى أصبح أكثر مصرية .

وفى خضم ذلك كله ، وإذ تتصاعد المسئوليات الحزبية لتنهك ما تبقى من حياة وحيوية وتستهلكها ، يصبح الحلم باستعادة ما كان مجبراً على الإرجاء . فكيف تستعيد هدوء بالك ومقدرتك على محاولة التطلع إلى بئر الماضى ، وأنت فى خضم ما يعصف بك ، وفى أكثر من اتجاه . ولا تمتلك إزاء ذلك كله إلا التجاوب بقدر ما تستطيع ، والتوازن بقدر ما هو متاح .

فالعمل السياسى ـ الكتابة ـ هموم الوحدة الوطنية ؛كل منها تحتاج إلى حياة كاملة ، فكيف توازن بينها ، ثم تتسرب من براثنها ، ومن دورانك مع دواماتها التى تتعاكس اتجاهاتها ، لتجد قدرا من هدوء البال يمكنك من الكتابة عما كان .

ويظل التردد يغلفنى ويستحثنى أن أتناسى الأمر كله .

ولكن ...

وبرغم كل شىء أبدأ بالكتابة .

غير أنه... وحتى بعد أن سطرت الأسطر السابقة ، تتبدى لى هموم الحياة وكأنها تتحدانى بقدرتها على اختطافى بعيدا عن التواصل أو المواصلة . ويصبح ـ ممكنا ومحتملا ـ ألا تكتمل هذه الصفحات ، أو أن تخرج مبتسرة وعاجزة عن الإرواء... بالنسبة لى ، أو للآخرين .

لكننى واحد من الناس ، اعتاد أن يتحدى نفسه ، واعتاد على إكراهها ـ أحيانا ـ على فعل ما يريد . فهل أستطيع هذه المرة ؟

ذلك هو السؤال ؟ بل هو التحدى الذى أعتزم أن أخوضه ضد نفسى .

* * *

وابتداء...

فإننى لا أنوى أن أسكب على الصفحات القادمة... مذكراتى... فلا أنا أرغب ، ولا أنا قادر ، ولا أنا بمستحق أن أفعلها إزاء القارئ .

هى فقط بعض ذكريات . والمساحة شاسعة بين المذكرات والذكريات . وتزداد اتساعا إذا ما أخضعت لعملية انتقاء صارمة بأمل أن تتجاوب مع ما هو «جدير بالمعرفة» بالنسبة للقارئ ، أو من أفترض أنا أنه سيكون قارئا ؟

وهكذا سيقف هذا التعريف الإغريقى العريق حائلا بينى وبين البوح بكل شيء ، ولعله سوف يشجع بعضا من نوازع تتنازعنى بأن ثمة ما يجب ألا يقال . ليس لخشية أو تنصل ، وإنما لتشكك فى مدى صحة تقويمى للملابسات التى لابست هذا الفعل ؛ خاصة أن اختلاف المواقع قد يغاير بين الرؤى التى قد تتبدى - بالنسبة لأصحابها على الأقل - وكأنها صحيحة .

وأود أن أقرر ، وأن أُلِحَّ ، وأن أكرر ، أننى لا أريد إيذاء أحد ، ولا الوشاية بأحد همساً فى أذن التاريخ ، أو علنا على الورق .

وحتى ما آلمنى أو أغضبنى فى الماضى فإنه يضحكنى الآن .

إنها حكمة بليغة يلقنها لنفسه السجين المعتاد على السجن المستمر ، وعلى الظلم الظالم : «ما قد يحزنك اليوم... قطعا سيضحكك غدا... سيضحكك عندما تتذكره أو ترويه وقد تحررت من عبئه» .

ولكننى لست قديسا ولا أدعى البراءة المسطحة ، ولا أزعم ذلك ، ومن ثم فقد أروى - وقطعا سيحدث ذلك - رواية ما من زاوية نظرى إليها ، أو تفسيرى الشخصى لها... وتلك نوازع يصعب منازعتها مهما ادعيت لنفسك البراءة والحياد .

ومن ثَمَّ ، فإننى أحذر ومنذ البداية بأننى سأروى الوقائع مستندا إلى

رؤيتى لها ، ومستمدا انطباعاتى الخاصة عنها وعن أصحابها ، ولقد تكون للآخر رؤية أخرى ، وانطباعات ، وحتى تفسيرات معاكسة وهذا حقه وحقى... ولقد تكون لدى الآخر مبررات أو دوافع أو حتى حقائق خَفِيتْ عنى أو غابت ، ولعله يستند إليها فى تبرير ما كان... وهذا حقه أيضا .

ومن هنا فإننى أورد وفقط رؤيتى وما أتيح لى من معلومات... ومن ثم فلقد يكون حكمى ناقصا ، أو حتى ظالما فى بعض الأحيان . لكن ما من مخرج آخر... سوى أن أتكلم... وأن يتكلم الآخرون . حتى تكتمل حلقة المعرفة بالحدث ، أو الواقعة . لهذا فإن ما سأرويه فى الصفحات القادمة ليس الحقيقة المصفاة ، لا أنا أزعم ذلك ، ولا هو كذلك فى واقع الأمر .

فما سأرويه هو رؤيتى الشخصية للحدث... فى حدود ما رأيت وعلمت وسمعت وفهمت ، أو حتى فى حدود ما توهمت أنا أنه حقيقة... وربما يكون ذلك كله ناقصا... أو غير محكم ، أو حتى غير صحيح .

لكن ما أعد به هو أننى أروى ما كان... فعلا... دون تحيز أو إضافة أو تزويق .

وهكذا تتحدد ملامح ما أنا مُقْدِم عليه من كتابة... فهى لوحات غير متلاحقة وهى تحمل أو تحتمل فقط رؤيتى أنا... للواقعة ، وعلى القارئ - إن وجد ذلك ضروريا - أن يبذل بعضا من الجهد ، إذا ما أراد التعرف على الكاتب ، أن يُعْمِل خياله حتى يضم الصور إلى بعضها ويُكْمِل من عنده ما يكمل الصورة . ولوحات السيراميك فى يد الفنان أدوات تشكيل... وهى كذلك فى يد القارئ . فبإمكانه أن يتعرف عليها قطعة قطعة أو ينثرها كلها أو بعضها ليعيد تشكيل رؤيته للكاتب... وتقويمه لما كتب .

ولقد عانيتُ فى حياتى ثلاثة أنواع من الكتابة : كتابة التاريخ - والكتابة السياسية - ومحاولتين يتيمتين لكتابة الرواية .

ثم هذه هى المعاناة الجديدة تماما .

فها أنت مجبر على الحديث عن نفسك ، وهو أكثر ما تباعدت عنه دوما ، ليس تمنعا أو ترفعا ، لكن خوفا من أن أنحاز أو أتحيز أو أتجاوز أو حتى أن أنسى حق الآخرين .

وعندما كتبت المجلدات الخمسة لتاريخ الحركة الشيوعية المصرية (أربعة آلاف وخمسمائة صفحة) حاذرت وتعمدت ألا يرد اسمى فى أى منها .

تعمدت الغياب غيابا أخلَّ بالصورة أحيانا ، وتعمدتُ تناسى أشخاصٍ لعبوا ما هو مهم من مهام ، وذنبهم أنهم شاركونى أو زاملونى فى هذا الفعل .

فقد كنت أكتب منحازا فقط ضد نفسى ، ومتجاهلا إياها ، ومحاذرا من أن أصبح مثل هؤلاء الذين كتبوا ما أسموه تاريخ الحركة الشيوعية فجاء الأمر تأريخا لأنفسهم ، وجعلوا من ذواتهم فرسانا لكل حدث ، ولكل حديث . وإذا كان هذا البعض قد بالغ فى الحديث عن دوره ، فلقد فعلت النقيض ، وربما كان ذلك خطأً من وجهة النظر العلمية على الأقل . بل وظلما لآخرين زاملونى فى الفعل القديم فطويت صفحتهم عمدا كى أطوى صفحة نفسى ، حذرا أو مبالغة فى الحذر من أن تتحول الكتابة عن الحدث إلى كتابة عن الذات كما فعل البعض .

لكن ها أنا أقع فيما حاولتُ أن أتباعد عنه ، وها أنا أضطر للكتابة عن نفسى ، فماذا أفعل بها... وبالقارئ... وبالكتابة ذاتها ؟

هذا ما سأتعلمه وأنا أجاهد مع المقبل من الصفحات... معتذرا للقارئ مقدما بأن ما سأرويه قد لا يكون مغريا وقد لا يكون مستحقا عناء المتابعة .

بل ومعتذرا على تجاسرى بمجرد التفكير فى هذه الكتابة ، فلقد تكون

فى الأمر كله مبالغة فى قيمة الحدث ، بل وفى قيمة كل ما حدث . أو حتى فى قيمة الكاتب ، فليس لمثلى أن يفترض أو أن يفرض على الآخرين أنه فعل ما يمكن اعتباره جديرا بالمعرفة بالنسبة للآخرين .

فإن فعل وهو غير مستحق لذلك ، فلن يستحق إلا تجاهلهم وهذا ما أخشاه .

وعلى أية حال ، فليس لنا أن نفترض مسبقا قيمة للشيء قد لا يستحقها ، كما أنه ليس لنا أن نفرض على كل ما كان حصارا من النسيان ، فلقد يحمل أو يحتمل ما يستحق الاهتمام .

وبين الافتراضين شق... سنحاول النفاذ منه ، أو خيط رفيع سنتعلق به .

ويبقى بعد ذلك سؤال لا أعرف إجابته :

هل سأتجاسر بعد ذلك كله على مواصلة كتابة الصفحات المقبلة ؟

وأجيب... لستُ متأكداً... ولكن ربما...

البدايات

... وكانت المدينة جميلة ، أجمل كثيراً من أن تقارن بما هى عليه الآن . كانت تبدو كزهرة لوتس حملها النيل معه إلى هذا الموقع الفريد . لم أزل أستعيد عطرها الهادئ الوديع . ولم أزل أحلم بهذا الملتقى بين النيل والبحر الصغير ، الذى اختفى ليحل محله شارع ملىء بالضجيج والُحفر .

كلما قرأتُ أشعار على محمود طه - ابن بلدتى - أحسست وكأنه قد نسجها وهو جالس على سور الكورنيش عند نقطة الملتقى هذه .

كانت أحياؤها الأرستقراطية ونصف الأرستقراطية تحاول التشبه بالمدن الأوروبية نظافة وأناقة .

ولم أزل أذكر كشك الموسيقى فى منتزه الكنانى حيث تعزف فرقة موسيقى المطافئ ألحانا مخملية ، عصر كل جمعة وكل أحد .

والناس يجلسون... رجالا ونساء وأطفالا ، يجلسون حول الكشك فى خشوع من يعرف كيف يُنصت لهذه الألحان السماوية .

أين ذهب كل هذا ؟ وأينَ ذهب هؤلاء الناس ؟ وكيف يمكن لمدينة وأناس أن يتقدموا مع الزمن كى يتراجعوا فى المحتوى إلى الخلف ؟

هى إذن مدينة المنصورة ، وُلِدتُ فيها فى ذات يوم بكت فيه مصر

أمير شعرائها أحمد شوقى (١١ أكتوبر ١٩٣٢) وفى شارع القهوجى تستقر ورشة عتيدة (هى ورشة ميكانيكية كان الفلاحون وأغنياء الريف يتراكمون فيها ليصلحوا كل ما يدور لديهم . وابورات طحين ، ماكينات ضرب الأرز ، آلات حلج ، طلمبات...) ولعلها كانت الأقدم فى هذه المدينة (عثرتُ فيما بعد على عقد بيع مساحة كذا ذراع فى أطراف المنصورة من وَقْف الست عزيزة القريعى ابنة على باشا القريعى إلى الأسطى محمد البيومى وهو أبو جدى ، ويرجع تاريخ العقد إلى عديد من السنوات قبل نهاية القرن الـ١٩) .

والجد ـ الذى أذكره جيدا ، وأتذكره دوما ـ هو ابن مؤسس هذه الورشة التى ظلت دوما ، وحتى وفاة أبى محور حياة الأسرة كلها . وكان الجد المؤسس أسطى مرموقاً فى ورشة هى الأولى فى كل الدلتا ، أسسها أجنبى هو الخواجة موردوخ فى زمن يمتد ـ كما يقال ـ إلى عصر محمد على .

وكم من مباراة حامية وقعت ـ ونحن صغار لم نزل ـ بين جدتى لأمى ، وعمة أبى .

كانت جدتى تتباهى أن أباها الحاج الفضالى كان عمدة المنصورة وأن أملاكه افترشت كل المساحة الممتدة من سيدى ياسين وحتى شارع البحر (ولم نزل نمتلك بقايا قليلة بقيت من أيام العز هذه) وكانت تحكى عن مهابته وهو يمتطى حصانا ذا لجام معدنه من ذهب خالص . كانت ابتسامة عمة أبى الست فهيمة تُوحى لنا حتى ونحن صغار أن فى الأمر مبالغة ، لكنها كانت وبهدوء تدخل المباراة ، فليس الثراء هو المهم ، فالأهم هو الأصل . وبيت البيومى بيتَ أصول . كنا نفغر أفواهنا إلى حد البكاء وهى تحكى كيف التهبت النار فى بيت الأسرة القديم فى شارع سيدى حاله ، وكيف رفضت نساء الأسرة كل توسلات الجيران أن يخرجن ليهربن من اللهيب ، وكيف

كن يصرخن «النار ولا العار»... والعار أن يخرجن من بيتهن ، ورحن جميعا مع النار خوفا من العار ، وكانت تحكى عن أبيها الأسطى محمد الذى ابتكر أو اخترع ماكينة جديدة لضرب الأرز فكافأه الخواجة موردوخ بما يملأ طربوشه جنيهات مجيدية ، ويطير خيالنا الصغير وراء وصفها للموكب الاحتفالى حيث قام الأقرباء والأصدقاء بعمل زفة تصحبها فرق الموسيقى والنقرزان للأسطى وهو يحمل بين يديه طربوشه الممتلئ ذهبا .

وبالجائزة استقل الأسطى محمد عن أبيه واشترى الأرض وبنى الورشة وبنى إلى جوارها منزلا من ثلاثة طوابق عاشت فيه الأسرة وأولادها معا زمنا طويلا .

أما جدى فهو شخصية مميزة ومحيرة . جلباب صوف ، وطربوش ، وورشة... مخارط ، مثاقب ، مقشطة... وثقافة رفيعة .

هل تتصور ؟ ثقافة رفيعة (عندما قاربت الثالثة عشرة وبعد وفاته مباشرة عبثتُ كثيراً بمكتبته وتجاسرت فاستحوذت على بعضٍ من أكوامها المهملة التى بيعت بالكوم لبائع الروبابيكيا)... صحيح البخارى - كتب الجاحظ جميعا - دواوين المتنبى ، لزوم ما لا يلزم لأبى العلاء المعرى ، كتاب الأغانى بمجلداته جميعا - لماذا أنا ملحد لإسماعيل أدهم - نظرية داروين لإسماعيل مظهر - نقد الفكر المادى لمحمد فريد وجدى ، وكتب بلا نهاية لشبلى شميل ، وولى الدين يكن ، والعقاد ، وطه حسين ، ومجموعات المقتطف والجامعة والرسالة والثقافة واللطائف المصورة ، أى قارئ هذا ؟ بالتأكيد هو لم يواصل دراسته لأكثر من الفصول الأولى ، ثم نادته الورشة الأكثر جاذبية للابن الأكبر على الأقل ، لم أزل أذكره ، وهو يصعد إلى شقته عندما يتوقف عزف الماكينات ، ويتوضأ ويصلى المغرب... ثم إلى غرفته . خادمة تسرع إليه بالشيشة وتبقى راكعة إلى جوارها

تمنحها دوما ما يمنحه دخانا متصاعدا وقراءة مستغرقة لساعات طويلة ، لكنها تفرض عليه تباعدا غريبا عن الأسرة وأحوالها .

الأب أفندى لم يتقبل لقب أسطى ولا الجلباب ، لكنه لم يكن بمثل ثقافة أبيه... فما بعد توقف عزف الماكينات ، مخصص ويوميا للجلوس على قهوة أبو مسلم شتاء ، وقهوة أندريا على ضفاف النيل الذى كان دوما ممتلئا بعطر خاص صيفا ، لقد واصل مهنة أبيه ، وواصل أسلوبه فى تسيد الحى ، الناس يهابونه ، وإليه يلجأون إن احتاجوا معونة ، أو مشورة ، أو تحكيما فيما يشتجرون .

الجد كان يترك حنفية كبيرة بالورشة سبيلا للسكان المجاورين ، بنات وأولاد وسيدات يملأن صفائح وحللا كل صباح وطوال النهار ، طفاية سجاير كبيرة من البنور تمتلئ كل صباح بقروش لا عدد لها ، يفرغ فيها جيبه ، ودرج المكتب وما يجده من « فكة » عند البقال المواجه... الشيشة مشتعلة وعيناه تقرآن بنهم فى كومة الصحف المتراكمة أمامه ، وطابوران يصطفان... واحد للماء وآخر للقروش أو للاثنين معا... ويستمر تدفق الطابور حتى تنتهى القروش وإلى الغد .

وما أن تقارب الشمس الانحناء نحو المغيب ، فى تلك السويعات التى تسمى العصر... ينتقل جدى ليجلس أمام باب آخر للورشة يطل على شارع آخر... يحملون له الكرسى والشيشة وما تبقى من صحف ليواصل تواصله المعتاد ولكن مع نسمات هادئة تتهادى فى هذه السويعات... فى المواجهة سور من طوب وردى لملجأ البنات . مساحة منه مغطاة بلون أبيض يفترشها إعلانان بخط جيد... وكبير .

« حسن فريد هو الوحيد للروائح والصبغة » ، ثم صورة لرجل طويل الشعر كثيف اللحية ، نصف شعره أبيض والآخر أسود (بعد صباغته) » .

والآخر : «اقصدوا محلات محمد المهدى لتجارة الدقيق بسيدى حاله ، فقد كان قسيسا وأسلم فشجعوه» .

... كنت أتدحرج خلف جدى فى وجل خائف ، فقد كان الجميع كبارا وصغارا يهابونه ، وأستمدُ من طفولتى بعضا من شجاعة لأقترب منه... كان - ودوما - يتأمل الإعلانين أحدهما يرقد فوق الآخر... يتأملهما وكأنه يراهما للمرة الأولى... يمط شفتيه امتعاضا (كان يفعلها كل يوم دون ملل... وكل يوم أيضا ودون ملل يتمتم... لعله كان يخاطبنى ، أو يخاطب نفسه قائلا : كذب فوق كذب) . لم أفهم أبدا . ولم أتجاسر أبدا أن أسأل... فيما بعد سألت أبى... ضحك بهدوء وقال : فعلا هو كذب فوق كذب... فصباغة شعر الرجل كذب وخداع للنفس وللغير... أما محمد المهدى هذا فهو نصاب ، غريب ليس من المنصورة ، احتال على الناس بحيلة أنه كان قسيسا وأسلم... وبعدها اكتشف الناس أنه لم يكن قسيسا ولا حتى مسيحيا... فقط استخدم هذه الحيلة محاولا اجتذاب الزبائن لمحله .

الأب واصل الشىء ذاته ولكن بلا شيشة وبلا قراءة ، مع الاحتفاظ بذات الترفع ، وذات القدرة على إخافة الآخرين (كنا كغيرنا من الأطفال نلعب أنا وأخى سعيد فى الشارع بالكرة الشراب ، أمام بيتنا ، فجأة يطل أبى من طرف الشارع ، يترك الأطفال كل حماسهم ، ومعه الكرة ، ويركضون بعيدا ونحن معهم... ولعله كان يسعد بذلك) .

كذلك فى البيت ، كنا ستة من الأخوة ، الأم طيبة ، مقهورة ومسالمة ، ومستسلمة كعادة نساء هذا الزمان ، قهرها الزمان ، والزوج ، ونحن . كنا كالعفاريت ، ستة ومعهم شغالة أو اثنتين نقيم الدنيا ونقعدها طوال الوقت ، بلا توقف ولا ملل . فجأة نسمع وقع حذاء الأب على السلم . كيف كنا نلتقطه وسط غابة الضجيج ؟ لا أدرى . لكننا لم نخطئ يوما فى التقاطه ، وما أن

نستقبل وقع أول خبطة حذاء على السلم حتى يهبط ستار من سكون صامت ، الكل يسـرع ، نحن إلى غـرفنا نذاكـر ، أو نتظاهر بذلك ، والشـغالات إلى المطبخ ويبدو المنزل فى وقار وهدوء إحدى دور العبادة .

* * *

والمستوى الاجتماعى يصعد من المتوسط إلى ما هو أعلى... لكن شارعا واحدا يفصل بين مساكن الأسر المتوسطة وحى فقير لا أدرى لماذا أسموه « كفـر الغجر » هنا عـالم آخر . مسـاكن أخـرى تفـوح منها رائحـة الفـقـر ، متلاصقة كأنما يدفعها الخوف من التداعى إلى التلاصق ، كما يقول شوقى : « ممسكات بعضها من الذعر بعضا » ؛ الحوارى ضيقة ، أخْصِنَة « العربجية » تسد عليك الطريق ، لكنها تقف فى وداعة تمنحك جرأة العبور دون خوف ، عربات الكارو والحنطور ، تُجَاوِر البيوت لتشى بمهنة صاحب الدار ، أو تتراخى أمام باب متراخ عربة فول أو مراجيح تنتظر كل منها صاحبها كى يدفع بها نحو انطلاقة العمل .

كنا نعبر شارع المستوصف لنصبح فى حياة أخرى ، ملابس مختلفة ومنازل أكثر اختلافا ، ونساء يجلسن بلا تستر على أبواب بيوتهن يتبادلن وبأسلوب عار تماما كل أسرار حياتهن ، والأطفال هنا بلا قيود ، يلعبون طوال النهـار ، وطوال مـا يريدون من سـاعـات الليل . لا أحـد يأمـر وينهى ، ولا مذاكرة ، ولا ضوابط ، كنا ننغمس معهم فى لعبهم المحموم ، ونحاذر من أن نردد ألفاظهم المكشوفة ، وشتائمهم المبتذلة التى يتبادلونها فى مودة حانية .

كانوا فقراء ، وكنا نشعر بالفارق الشاسع ، لكننا كنا نغبطهم فهم أكثر حرية وانطلاقا ، ويحيون بلا قيود ، وكأنهم بلا آباء يفرضون عليهم طقوس الخوف والرهبة .

كانت أسرتنا غير راضية عن اختلاطنا مع هؤلاء السوقة (كما كانوا يحاولون إقناعنا) ، لكننا كنا ننزلق فى حذر عبر الشارع الفاصل لنعيش ساعات مبهرة ، نلعب بانطلاق غير محدود ، ونتأمل بانبهار فتوات الحى ، حُمَاته والمدافعين عنه . ولم تزل الأسماء عالقة بذاكرتى فقد صاغوا منها أغانٍ ظللنا نرددها طويلا... سعد الحسنى ومحمد عسران . فتواتٌ هادئون يمتلكون وداعة بلا حساب ، ثم عند الضرورة تجتمع حولهما وحوش الحى وتلمع سكاكين وعصى وتبدأ معارك مع أى معتدٍ من حى آخر ، أما المخطئ من أبناء الكفر فعقابه أليم ، دون أن يتجاسر بأية مقاومة .

وتكتمل البهجة فى ليالى الجمعة حيث تقام الأفراح ونسير مع الزفة التى تقطع حوارى الكفر الضيقة ، الرجال يرقصون بالعصى ، والنساء بالصاجات . ثم هناك الفرح حيث يعزف المعلم بطرس على آلة تشبه الأورج وتكفى لكل الأغراض ، فهو يصاحب بها المغنى الأشهر «أبو سرارى» وراقصات ومغنيات من تلميذات كبيرة عوالم المنطقة الحاجة «حميدة أم زيتون» .

والراقصات بلا أى قيود ، يتمادين بلا حدود ، والغناء مكشوف وغير مستور .

ولم أزل أذكر مقطعا اشتهر به «أبو سرارى» :

عزيزة تقول ليونس
يايونس قوم قلب الرمان
شوفو استوى يايونس
ولا لسه أخضر على العيدان

... لكن صحبة أصدقاء هذا الزمان لم تدم طويلا ، فما أن نكبر قليلا ، ويكبرون هم ، حتى نتمايز ، نحن إلى المدرسة وهم ما بين صبى عربجى ،

ونشال وما شابه ذلك وتتفرق السبل ، ونكتفى أحيانا بتحية من بعيد أو بتجاهل متعمد ، مع الاحتفاظ بمودة صامتة .

* * *

والتركيبة الأسرية معقدة بعض الشى .

الجد تزوج وأنجب أبى ثم ماتت زوجته .

الجدة تزوجت وولدت أمى ثم طلقت .

تزوجا... ثم بعد فترة ، زوجا الابن من الابنة .

وعندما كان لهما أولاد ، كانوا إخوة غير أشقاء لكل من الأب والأم .

ويكونون بالنسبة لنا نحن الأحفاد أعماما وأخوالا فى آن واحد .

... وفى بلدتنا ، كانوا يتصورون فى هذا الزمان ، أن من كان عمه خاله فى آن واحد ، فهو (ربما بسبب الندرة) ولى من أولياء الله ، ويكشف عنه الحجاب ، ويده مبروكة ما أن يلمس بها جسد مريض حتى يبرأ .

ولأننى كنت أكثر طاعة من أخى سعيد ، فقد حملتنى أمى كثيرا على أن أرضخ لتوسلات الجارات ، والقادمات عبر الشارع من « كفر الغجر » سائلات فقط أن أمنح أبنائهن لمسات من يدى ، أو أدعك بعضا من جسدهم بزيت كافور دافئ . وكانت يدى فيها الشفاء أو هذا هو المفترض . وأشهد أننى لعبت هذا الدور بامتثال ، وأحيانا كنت أعتقد فعلا بامتلاكى هذه القدرة الخارقة . فكثيرا ما كان الشفاء الطبيعي يمنحنى شهرة وسط الجارات .

وفى البداية كنا نعيش جميعا فى بيت الأسرة الملاصق للورشة .

وأذكر أن شجارا كثيرا كان يقع بين الجدة وأبى . وأمى تقف مع أبى ، فامتد لهيب الغضب إليها ؛ خاصة أن الابن الأكبر (أبى) ينتهز فرصة كبر سن الأب وعكوفه على القراءة ليفرض هيمنته على شريان حياة الأسرة ـ الورشة .

وذات يوم كنت أجلس على رجل جدتى مستمتعا بجلسة وثيرة وحانية ، وسألتها فجأة : «نينة إحنا حنعزل إمتى ؟» ، دهشت الجدة وقالت : «تعزل ليه ياحبيبى ، ده بيتك وبيت أبوك وبيت جدك ؟» .

لكن الغريب هو أن الأب كان يدبر سرا مع أبيه كيف يفلت من إسار الجدة وشجارها الدائم ، واتفقا على مباغتة الجميع بالانتقال لبيت آخر .

وذات يوم باغت الأب أمى والجميع بالعزال . فجأة هبط على شقتنا كل أسطوات الورشة ، ومعهم عم عباس نوار (النجار المجاور لنا) وفى دقائق فوجئ الجميع بالأثاث وهو يهبط ، ورتل من عربات الكارو يتحرك . ونركب نحن حنطورا إلى بيت جديد .

امتد العتاب بين أمى وجدتى لسنوات . فكيف للابنة أن تدبر لهذا الانتقال من خلف ظهرها ؟

وأمى تقسم أنها فوجئت ، والجدة تستشهد بى ، وتعيد وتكرر أننى سألتها : «حنعزل امتى ؟» يعنى سمعكم وأنتم بتتفقوا . وتقسم الأم . ولا تجد مخرجا سوى الحكاية القديمة «الولد مبروك ، ومكشوف عنه الحجاب» ، وأصبحت شيخا مثيرا للارتباك .

وللأسرة حكمة قديمة ، كل شىء يمكن أن يقتسم إلا الورشة ، يأخذها الابن الأكبر وحده . ولأن عمى (وخالى أيضا) كان أخا غير شقيق فقد أصبح الأمر محرجا ، ولعل أحدا من الأسرة لم يعرف لماذا تحمس جدى لبناء «وابور طحين» هناك فى الأطراف البعيدة للمنصورة فى نهاية ما أسمى بـ«سكة سندوب» إلى جوار ورشة لصناعة السواقى اسمها «ورشة مشعل» ، ولماذا اشترى بيتا أو أكثر .

وعندما مات اكتشف الجميع أنه قد رتب الأمر : الورشة للأكبر ،

ووابور الطحين أغلبه للأصغر والبيوت للبنات ، رتبه بيعا مسجلا فى المحكمة المختلطة بحيث يصبح واقعا لا فكاك منه .

صرخت الجدة ، دفاعا عن حقوق ابنها ولكن دون جدوى ، فالأمر رتب بيعا مسجلا... ولا مناص .

* * *

وعندما تمضى فى شارع المستوصف تواجهك مخازن القاضى (وهو واحد من أكبر تجار المنصورة) ومخازن الجمل وهو أيضا كبير تجارها وزعيم وفدييها ، ولم أزل أذكره وهو يضجع سمينا بشكل مفرط ، ذو وجه مشرب بالحمرة ، فى الكارتة التى تمرق به فى الطريق إلى مخازنه ، وأولاد كفر الغجر يلاحقونه : «يعيش الحاج على الجمل» وهو يتجاهل تحيتهم ، لكنه يرد عليها بحفنة من القروش يلقيها إلى الهاتفين فينسون هتافهم وينشغلون بالارتماء على القروش المبعثرة .

وبعد المخازن... نهاية أطراف المدينة المقابر... فى ناحية مقابر للمسلمين ، وفى مقابلها أخرى للأقباط يميزها سور محكم وصلبان عديدة متناثرة .

كأن المنصورة كانت تؤكد شعر أحمد شوقى عن الوحدة الوطنية .

«متجاورين جماجما وعظاماً» .

وداخل مقابر الأقباط كانت كنيسة صغيرة للست دميانة ، والغريب أن أغلب زوارها كانوا من المسلمين ، يأتون سائلين شفاء مرضاهم ، ومتشفعين فى حل ما يعترضهم من مشكلات .

كانت جدتى تصمم أن الست دميانة مسلمة . وأن لصوصا طاردوها عند أطراف المدينة فأخذت تجرى حتى أنقذها القسيس القابع فى

المقابر ، لكنها لاحظت أن اللصوص يقتربون فصاحت فى خوف : «جم يانه... آهه يانه» ثم أسلمت الروح ، فتصور القسيس أن اسمها دميانة وأنها مسيحية ودفنها فى مقابرهم ، لكن كراماتها بدأت فى الذيوع عندما كانت تتجلى لتضىء طريق المقابر أمام الخائفين ، ولتحميهم من اللصوص فبنوا لها كنيسة . (ذات مرة كنت جالسا فى قهوة أندريا مع أبى وأتى رجل ضئيل الحجم يلبس طربوشا طويلا ويمسك فى يده منشة شعرها من ذيل الحصان... كان يتهادى فى هدوء ويبتسم للجميع فى مودة . قال أبى إنه الشاعر على أحمد باكثير وكان مدرسا فى مدرسة النهضة بالمنصورة ، شرب الشاعر القهوة ، وطاف الحديث بالجميع دورات عديدة حتى أتى إلى الست دميانة ، حاول الشاعر أن يشرح أن كل المقابر تتصاعد منها شرارات ضوء بسبب تحلل العظام ووجود مادة فوسفورية فيها... امتعض الجميع ، فهذا الأفندى الغريب فى البلدة (هو قادم من بعيد من حضرموت) يريد أن يسلبهم واحدا من أجمل ما يعتزون به... «الست دميانة» .

وكان مولد الست دميانة مناسبة صاخبة ، تفتح أبواب المقابر القبطية أمام الوافدين ، وأغلبهم من المسلمين ومعهم كل مستلزمات المولد... مراجيح ، ألعاب نارية ، حواة ، أراجوز ، بائعو ترمس ، ولب وأم الخلول وحب العزيز ، وطراطير وزمامير... وعيد حقيقى .

لكن المسيحيين وحدهم مسموح لهم بحضور القداس داخل الكنيسة ، وربما من باب حب الاستطلاع تسلل بى الأسطى على (العامل بالورشة والذى كلف باصطحابى للمولد بعد إلحاح طويل من جانبى ، وظلت قبضته محكمة على معصمى خوفا من أن أتوه ويخطفنى الغجر القادمون من « طهواك » وهى قرية قريبة ، ثم يحولوننى إلى لص مثلهم أو نشال)... تسلل

بى إلى داخل الكنيسة ، وتابعت مراسم القداس ولغته الغريبة والبخور والتراتيل والشموع والأزياء بانبهار لم أنسه حتى الآن .

وفجأة ، وكأن أحداً قد لاحظ أن هناك مسلمين... صاح أحد الأقباط «وحدوه» فردعليه الأسطى على بصوت مرتفع «لا إله إلا الله» وأمسكوا بتلابيبه وجروه وهو يجرنى بقبضته الحديدية إلى القسيس الذى كان وديعا ولاحظ أننى أنتفض خوفا فمنحنى قطعة حلوى وصرفنا بسلام .

* * *

وهل يعنى القارئ بمزيد من التفاصيل ؟

الأم ابنة شهيد ، تاجر أقطان اسمه عوض سلامة ، كان وفديا متحمسا ، وعندما حضر النحاس باشا إلى المنصورة فى زيارته الشهيرة التى انتهت بمأساة وصدام عنيف ، خرج عوض أفندى مع آلاف غيره يتحدون حكومة الطاغية صدقى ويعلنون تمسكهم بدستور ١٩٢٣ ، ويهتفون «يحيا النحاس باشا» «يحيا الدستور» ثم رصاص وعصى وسناكى وخيول تدهس المشاغبين ، ويفقد عوض أفندى ما تبقى من حياته من زمن (يذكر التاريخ المكتوب اسم سينوت حنا كبطل لهذه الواقعة لأن يده أصيبت بطعنة سونكى فقد كان واحدا من الصفوة ، أما عوض أفندى سلامة وعديد مثله من الأفندية فقد أشاح التاريخ بذاكرته عنهم) .

غاب عوض أفندى عن البيت أياما ، ولم يعرف أحدٌ ماذا حدث له . فالبوليس بعد أن فرق المتظاهرين حمل الجرحى إلى السجن ، والموتى إلى مقابر مجهولة . وبعد عذاب طويل عثروا على قبره ، وتجاسر البعض فوضع على القبر قطعة رخام عليها اسمه وتسبقه كلمة شهيد .

وأتت حكومة الوفد . وفى عام ١٩٣٦ أقاموا فى منتزه الكنانى القريب

من بيتنا وبجوار كشك الموسيقى الجميل ، نصبا تذكاريا من رخام أبيض مشرب بالحمرة... وكثيرا ما كانت الأم تصحبنا فى وقار إلى المنتزه القريب من بيتنا لتصعد أعيننا الصغيرة إلى أعلى وتقرأ «فى سبيل الوطن والحرية استشهدوا» ثم قائمة بالأسماء من بينها «عوض سلامة» .

وفيما بعد فهمت القيمة والمغزى ، وترددت كثيرا أطالع الاسم... أقرأ القائمة ، وأراجع الأحرف لأتأكد أنهم نسجوها بدقة وحنان .

وجاء الطاغية صدقى ليحكم مصر من جديد عام ١٩٤٦ ، وذات يوم مررت عبر المنتزه لأجد النصب التذكارى وقد أصبح كومة من رخام ممزق ، وكأن يدا همجية دمرته بضربة واحدة ولم تعن حتى برفع بقاياه .

وبقدر ما انقبض قلبى فقد اتسعت عيناى إلى أقصى مدى... ولمحت بين الركام قطعة صغيرة «عـ» ثم «ض» ثم «سلا...» ولا أمل . لقد قتلوا جدى مرتين .

ولعل المرارة التى تراكمت فى صدرى وفمى ، كانت أحد بواعث انغماسى فى مظاهرات ١٩٤٦... ومن ثم انغماسى فى السياسة .

* * *

وفى مدرسة صغيرة جدا تحتل الدور الأرضى من مبنى فى حى الحسينية يقبع خلف مدرسة الفرير اسمها «روضة التوفيقية» بدأت أول التقاط لقطرات العلم .

أحمد أفندى صاحب وناظر المدرسة ومدرسها الوحيد ، وكان نشيطا وحاسما ولا يتحرك دون عصا رفيعة يهزها ليرعبنا لكنه أبدا لم يستعملها ، وكانت تساعده كمدرسة أبلة سوسن... وتعلمت على يديهما قدرا من العلم ، وقدرا هائلا من محبة التعلم . كانت أعيننا تتسلل عبر النافذة ، لتنبهر بمنظر

الآباء الجزويت إذ يتهادون فى الطريق الملاصق لمدرستهم وثيابهم السوداء تمنحهم رهبة لا تمحوها إلا ابتساماتهم الوديعة ، وكنا نتابع عند انطلاقة جرس اليوم المدرسى تلاميذ أكبر منا بكثير يتدافعون بمرايل سوداء تشى أيضا بمدرستهم ذات المسلك الجزويتى الملتزم ونحلم أن نكبر لنرتدى المريلة ذاتها... لكن رحلتى إلى التعليم أخذت مسارا آخر .

إلى مدرسة الأمريكان فى حارة الصيادين قرب السكة الجديدة ، حيث قضيت عامين . كانت المدرسة بروتستانتية ، ويحتشد طلاب أكثرهم مسلمون وكثير أيضا مسيحيون وعديد من اليهود ، وذات يوم وكنا أطفالا فى السنة الأولى الابتدائية تهكم طفل بروتستانتى على آخر كاثوليكى . وبكى الكاثوليكى ووصل الأمر إلى « سدراك أفندى » ناظر المدرسة ، وقامت الدنيا ولم تقعد ، وحضر المدرسون جميعا بمن فيهم الشيخ خليفة مدرس اللغة العربية والقس ، وتحدث القس طويلا وكان بروتستانتيا بطبيعة الحال... والناظر... والشيخ ونحن صامتون فى حزن لا ندرى كيف صبوه فوقنا ، وخرجنا من هذه الجلسة وقد تعلمنا أن الدين لله... وأن احترام « الآخر » حتمى .

لكن القس البروتستانتى ظل طوال أيام المدرسة يرقب العلاقة بين الطفلين وينميها بحنان ورفق . لكنه وبرغم تسامحه الظاهر فقد ظل يلقننا كل صباح أن كل واحد منا خاطئ أمام الرب ، وكم تمردت على هذا الاختيار ، فأنا لم أخطئ فى شيء... « كلنا خطاة أمام الرب » أكدها لكنه لم يستطع أن يقنع عقلى الصغير بها ، حتى كان تمرداً سأرويه فى مكان آخر .

وفى العام الثالث الابتدائى - ولست أذكر لماذا - انتقلت إلى « مدرسة المنصورة الابتدائية الأميرية » كنت طفلا لم أزل ، وكان أبى مشغولا فى شيء ما... وحملت أوراقى فى مظروف كبير احتضنته بحرص بالغ ودخلت إلى ساحة المدرسة العريقة منبهرا ، وعبرتُ الحوش الممتلئ خضرة وورودا

وأرشدنى البواب إلى غرفة سكرتير المدرسة . دهش «البادى أفندى الطوخى» (بعد سنوات عرفت أنه شقيق عبدالله الطوخى) من منظر الطفل القادم ليقدم أوراقه بنفسه ، وسألنى بحنان لم أزل أتذكره حتى الآن : «فين بابا ياشاطر ؟» وأجبت «فى الورشة» ، وضحك الرجل من أعماقه وتسلم الأوراق ، وأنهى كل شىء ، وانتقلت إلى مدرسة جديدة . وهناك خليط من الطلاب... فلاحون ينزلقون عبر البوابة فى حذر ، وعندما ينتهى اليوم الدراسى نكتشف أن رتلا من الحمير فى انتظارهم لينقل كل منهم إلى قريته .

وميسورو الحال مثلنا يسيرون إلى المدرسة لنقطع نصف المدينة سيرا على أقدام صغيرة لا يزعجها أى شىء فى مدينة متسعة الشوارع ، هادئة بل وديعة الحركة ، ونعبر شارع السكة الجديدة ثم عبر النفق أو كما كنا نسميه «الكوبرى السفلى»... وننعم بهذه الرحلة ، فقد كنا نقطعها جماعة ذهابا وعودة . وكان هناك أرستقراطيون يحضرون بسيارات فخمة (فيما بعد علمنا أن إحداها رولزرويس) وحتى عندما نذهب فى فسحة الظهر إلى «اليمخانة» أى المطعم لنتناول وجبة غداء كاملة ، كان واحد من هؤلاء الأرستقراطيين (إنه ابن الحاج على الجمل الذى كان ينثر القروش على أبناء كفر الغجر) يجلس على مائدة منفصلة ليتناول طعاما أتاه من بيتهم .

ولم يكن ناظر المدرسة «الراوى بك» راضيا عن ذلك التفريق ، ويبدو أنه قد فرض عليه ، فكان يعوضه بقليل من الحزم المتشدد ضد الطفل المدلل ، أما نحن فقد أنهكنا هذا الولد عدوانا ، وافترسناه افتراسا . وازداد هو انزواء ، ربما فسره هو على أنه ترفع عن هؤلاء الغوغاء ، لكننا بتراصنا معا ولعبنا معا كنا نشعر ، بل ونقنع أنفسنا أننا الأفضل .

ثم سنتين وأحصل على «الابتدائية» ، ولست أدرى لماذا تشبث أبى

بإدخالى مدرسة الزراعة الثانوية واعدا إياى بأن يشترى لى عزبة عندما أحصل على البكالوريوس .

وفى المدرسة كنت غريبا بين مجموعة من طلاب فلاحين ، ودراسة أرهق نفسى للتعرف على معالمها بينما هم يتحدثون عنها بلهجة الخبير المدرب ، فهى حياتهم اليومية .

وبعد عامين تراجعت الحكومة عن وعدها بأن نكمل دراستنا الثانوية لندخل كلية الزراعة ، فرح الطلاب الفلاحون فسوف يدرسون فقط ما يحبون وما يعرفون من علوم زراعية ، ولا حاجة إلى تاريخ أو جغرافيا أو رياضيات ، وسوف يتخرجون سريعا... ويحملون لقب « معاون زراعة » .

حزن الأب والأم... أما أنا فقد حملت أوراقى بنفسى بعد أن حصلت على كارت توصية من أحد أقاربى ، وأصبحت طالبا فى «مدرسة الملك الكامل الثانوية » (وهى مدرسة جديدة احتلت ذات المبنى الذى كانت تشغله مدرسة الفرير فى شارع حسين بك ، وهكذا اقتحمت المبنى الذى حلمت طويلا وأنا طفل أن أرتاده... ولكن دون مريلة سوداء ، فقد ذهب الآباء الجزويت بتقاليدهم الصارمة) .

لكننى أظل حتى الآن قادرا على استعادة مناقشاتى الحادة فى مدرسة الزراعة مع الطلاب القادمين من الريف بكل ما يحملون من فقر وغضب وحنق لا يعرفون أين يصوبونه... فكانوا أحيانا يلاحقون به أبناء المدينة المرفهين وفى أحيان أخرى ينجح «عبدالعليم المرسى» وكان يسبقنى بعام فى أن يوجه دفة الحديث عبر منعرجات متقنة ليتحدث عن الفقر... الأغنياء... الظلم... الطبقات... الإنجليز... الملك... الوطن... الاستقلال... الاشتراكية... وكنت أشارك فى النقاش وأقترب دون أن أدرى لماذا ، من مساندة عبدالعليم ، كان حديثه عن الوطن يوجعنى ويوقظ فى متاهات النفس صورة جدى عوض أفندى وهو

ملقى تحت أحذية الناس فى انتظار من يلتقطه ليدفنه ، وإلى جوارها صورة صارخة للرخام المتناثر من بقايا النصب التذكارى .

... وذات يوم تسارعت دقات قلبى عندما انحنى بى خلف جدار وفتح أمامى جريدة «الجماهير» وقرأت فى انبهار عنوانا صارخا : «نعم... يريد الشعب حزبا من نوع جديد» ، واستعرت الجريدة لأعيدها غدا ، ومعها خمسة قروش (فقد طلب منى تبرعا) .

لكن علاقتى بعبد العليم انقطعت ، فقد كنا فى نهاية العام الدراسي ، وانتقلت بعدها إلى مدرسة الملك الكامل .

وتكبر الأيام ...

وأكبر معها .

مظاهرات ١٩٤٦ تفيض بى حماسا وأشارك فيها مندفعا... اندفاع طفل فى الرابعة عشرة ، يكره صدقى الذى قتل جدي مرتين .

وقد سبقت هذه المظاهرات حملة كتابة على الجدران استعدادا للعام الدراسى الحاسم .

جماعتان ظهرتا على جدران المنصورة... «الله أكبر ولله الحمد... القرآن دستورنا والرسول زعيمنا» حاول «الإخوان» أن يفرضوا أو يفترضوا وجودهم فى المدينة عبر غزوهم للجدران بهذه الشعارات . وفجأة أصبح لهم مقر أو كما أسموه «شعبة» فى شارع السكة القديمة ، ثم مكتب لجريدتهم فى ميدان المحطة ، ثم ناد رياضى فى حى الحسينية أمام مدرسة الملك الكامل .

وكانت «مصر الفتاة» هى المنافس الآخر على الجدران «ياشباب ٤٦ كن كشباب ١٩» «يسقط الاستعمار» «عاشت وحدة وادى النيل» «الله أكبر والمجد لمصر» .

واتخذت الجماعة مقرا لها ؛ كان أيضا فى شارع السكة القديمة غير بعيد عن شعبة الإخوان .

والغريب أننى لم أعرف للوفد مقرا . لكن السيادة السياسية ظلت للوفد برغم منافسة الجماعتين له .

وفجأة قرر الإخوان إدخال المنصورة فى اختبار القوة .

زار حسن البنا المدينة ودخلها فى موكب يشبه مواكب الغزاة ، تسبقه جيوش الجوالة بملابسهم الكاكى... قميص وشورت ، كانوا كثيرين جدا ، وكلهم فلاحون يلبسون الشورت ربما لأول مرة ، ويرتبون خطاهم المرتبكة لأول مرة أيضا ، وتتدلى من الشورت أطراف ملابسهم الداخلية التى لا تتلاءم مع هذا الزى ، وأثار المنظر ضحكنا نحن أبناء المدينة ، لكن الحشد كان كبيرا ومخيفا... وبعد الجوالة فرق الموسيقى وقارعو الطبول . إنها محاولة لإظهار القوة... وفيما نحن نتفرج ، ندهش ، نتضاحك ، ننتقى واحدا من الجوالة المرتبكى الخطى... لنسكب باتجاهه تعليقا لاذعا ، هجمت جموع وفدية متربصة فى بعض الشوارع الجانبية ، تدافع الجمعان قليلا ، لكن الإخوان - ربما بسبب عنصر المفاجأة - تناثروا بما أثار سخرية الناس عليهم ، أما حسن البنا فقد اختفى بعد أن فشلت مظاهرته ، وعلمنا فيما بعد أنهم نقلوه إلى النادى الرياضى ، خوفا من أن يلاحقه الوفديون إلى مقر «الشعبة» .

وقد أحاطت جموع وفدية بالشعبة وصوبت باتجاهها شعارات معادية ، ودفعات متلاحقة من الأحجار ، أما الإخوان فقد صمتوا تماما عن أى رد ، لعلهم آثروا السلامة ، وآثروا عدم استثارة الموج العارم ضدهم .

لكن ذلك كله لم يمنع المنصورة من أن تمتلك قدرا كبيرا من الدهشة إزاء هذا الصيدلى الوديع الهادئ ، منخفض الصوت د . خميس حميدة ، الذى

فاجأ الجميع بأنه يمتلك جيشا من الأتباع ، الذى تبدى فجأة كواحد من قادة جماعة الإخوان .

... وأنا لم أزل أراوح مكانى .

فى البداية لاحقنى نجيب أبو خضرة ابن صاحب الفرن المجاور لبيتنا ، ودعانى لأمارس الرياضة فى نادى الإخوان الرياضى . جربت حظى مع رفع حمل خفيف من الأثقال ، لعبت بنج بونج ، صليت العشاء ، اشتريت مصحف جيب حملته زمنا طويلا ، حاولت أن أفهم من نجيب شيئا ، وحاول هو أن يفهمنى... لكن الجمل العامة المطاطة لم تعلمنى أى قدر من الاقتناع ، وهو لم يكن يملك غيرها . وحاول المسكين جهد طاقته وفشل . لم أجد لديه أية إجابة محددة عن أى مما يجرى حولنا ، وحتى عندما ألح علىّ فى زيارة الشعبة... لم أجد هناك أية إجابة مقنعة . صليت العصر والمغرب والعشاء ، وتأخرت عن الموعد الصارم المحدد لعودتى إلى البيت... نلت بعض التأنيب اللاذع من أبى ، لكننى لم أنل أية إجابة من أصحاب اللحى الذين كانوا فى الشعبة .

تمشيتُ نحو الطرف الآخر من السكة القديمة إلى مقر شعبة مصر الفتاة ، وجدت زميل دراسة يلعب بنج بونج ؛ لعبت معه ، سألته واكتشفت أنه أتى فقط ليلعب ، وسألت آخر فاندفع سيل من الجمل العامة والرنانة فى آن واحد... لم يكن يمتلك أى فهم يمنحه لى ، أما رجل مصر الفتاة الأول فلم أجده أبدا هناك ، كان مشغولا فى مكتبه دائما ، إنه المحامى محمود المليجى الذى سرعان ما أصبح واحدا من قادة العمل السياسى فى المدينة .

... وأتانى بعض الوقت .

حتى اكتشفت ملامح جديدة تطل من كلمات أحد شلة الأصدقاء «أحمد فرج» وأذكر أمامه اسم عبد العليم المرسى . يبتسم وبعد يومين

يحضر لى نسخة من الجماهير وتشتعل أعماقى برغبة عارمة من التعرف .

لكنه تعامل بحذر شديد مع هذا الطفل الذى لم يزل بعد صغيرا على امتلاك الأسرار الكهنوتية التى كان يمتلكها .

* * *

وهكذا تعالى ضجيج المنافسة ؛ خاصة فى صفوف المدارس الثانوية بين الإخوان بزعامة الصيدلى خميس حميدة ، ومصر الفتاة بزعامة المحامى محمود المليجى ، والشباب الوفدى الذى تصدى لزعامته محام تقدمى (أصبح شيوعيا فيما بعد ، وربما كان كذلك منذ البداية) هو الأستاذ محمود ندا .

لكن منافسا خطيرا ما لبث أن أصبح ملء السمع والبصر ، فى المنصورة اندلع لهيب هادئ وسريع الانتشار هو : «الحركة الديمقراطية للتحرر الوطنى» (حدتو) ، وامتد خيط الشيوعية ليتشعب فى أكثر من مكان .

فى المنصورة ماهر قنديل (مدرس) استطاع أن يقيم مجموعة لا بأس بها ، ومن كلية الحقوق (جامعة فؤاد الأول ـ القاهرة) يفد شعاع من ضوء إلى قرية «طناح» على يد أحمد الرفاعى... فلاحون يقتربون من الماركسية ، ويفهمونها على طريقتهم الخاصة ، وربما على حقيقتها الحقيقية . وفى الطرف الآخر من الدقهلية فى قرية «كفر غنام» يتكاتف الأخوة الثلاثة : أحمد ومصطفى وفتحى هيكل ، ومعهم مزارع من صنف مميز تماما (عبدالله عبدالحفيظ) لإقامة ركيزة شيوعية هناك ، وفى «ميت الحلوج» (دكرنس) يعود الفتى عبدالسلام الخشان الذى يدرس العلم الشريف فى المعهد الدينى بالزقازيق ، بعد أن يلتقى بعسكرى مطافئ شيوعى (رزق سرور) ليرفع همسا راية الشيوعية فتضىء عديدا من قرى دكرنس ، ويلقن الشيخ الشاب أسرار معرفته إلى شيخ من السرو (حامد الموجى) ومن السرو إلى دقهلة حيث

ينبت عامل زراعى مناضل (أحمد سليم) وفى ميت غمر كمسارى أوتوبيس (عطية الصيرفى) وطالب أزهرى (محمد عراقى) .

وفى بساط كريم الدين (على ورشدى عبد البارى وشوقى العريان) وفى شربين (طاهر البدرى وأحمد دعبس) .

وهكذا وكأنك لا تجد ثقبا يخلو من الشيوعية على مساحة الدقهلية الممتدة .

وتصبح الشيوعية فى ١٩٤٨ واقعا فعليا هناك . أما فى ١٩٥٠ - ١٩٥٢ فهى تصبح ملء السمع والبصر ، وتصبح منافسا للجميع ، إلى درجة أن الأمن (بعد ثورة يوليو مباشرة) بدأ يتحسب من تجنيد أبناء قرى بأكملها حتى لا تتسرب الشيوعية - من جديد - إلى صفوف الجيش .

وذات يوم أتي فلاح مسكين إلى ورشة أبى ، وبعد حديث فلاحى ماكر ومغلف بالشكوى من أحواله السيئة ، وابنه الذى هو عائل الأسرة الوحيد ، بعد دورة كاملة وماكرة أفصح الفلاح عن مطلبه... «أن يعطى البيه الصغير (الذى هو أنا) شهادة لابنه بأنه شيوعى علشان ما يخدوهوش الجهادية» .

وانفجر الأب مرتين ، مرة فى الفلاح المسكين ، ومرة فى «البيه الصغير» .

* * *

أما كيف التقيت أنا مع هذا الموج... فلذلك قصة مثيرة .

مبكراً جداً

منذ طفولتي المبكرة كنت أمتلك إعجابا خاصا بابن خالة والدى ، كان «يوسف بدير» يكبرنا بسنوات عدة وكانت يداه ماهرتان ، قادرتان على إصلاح أى شىء ، بل وصناعة أشياء مدهشة .

وعندما انتقلنا من بيت الأسرة ، كنا نسكن فى شقة بالدور الأرضى بحى الحسينية ، وفى الإجازات كنا نمرح فى الصباح المبكر فى الفراندة القريبة من الشارع ، وكان يمر علينا دوما وهو فى طريقه إلى عمله ليوزع علينا فُلاً وياسمينا وورودا من تلك التى كان يستنبتها فى بيتهم .

وتمضى أيام كثيرة ، يرحل هو مع أسرته إلى القاهرة ، ونكبر نحن . ثم يهبط نبأ صاعق على الأسرة «أنكل يوسف» قبض عليه فى قضية شيوعية .

لم أزل أذكر حالتى وأنا منزو فى حوش مدرسة الملك الكامل الثانوية حاملا فى يدى نسخة من أخبار اليوم وفى صفحتها الأولى خبر بارز : «القبض على شيوعى خطر... يوسف بدير مفتش موازين الجمالية... الذراع اليمنى لهنرى كورييل» .

... وتعلق عقلى بالحدث والحديث عن الشيوعية ، وتذكرت محاوراتى

المحدودة مع «عبدالعليم المرسى» ثم مع أحمد فرج ، وتطلعت باحثا عن مزيد .

وفى هذه الأثناء (بعد ١٥ مايو ١٩٤٨) تفجرت مظاهرات مساندة للفلسطينيين ، وتسيد طلاب الإخوان ومصر الفتاة جولاتها ، واعتدنا على هتافات تقول :

فلسطين بايعناك   وبالأرواح نفديك
وعين الله ترعاك   وشباب النيل يحميك

واعتادت المظاهرات إذ تتدفق من باب المدرسة فتجد فى مواجهتها محل «عزرا دويك» الحلوانى ، أن تقذفه بغضبها ، وتصب تجاهه أكواما من الأحجار معبرة عن تضامنها مع فلسطين .

وكان عزرا دويك شابا يهوديا مرحا يصنع فى محله حلاوة فولية وسمسمية ثم يقسمها بمهارة فائقة بسكين يشبه سكين النقاش إلى مستطيلات صغيرة ، ثم يلفها بمهارة أكثر فى ورق السوليفان لينطلق بها باعة جائلون ينادون على بضاعتهم مكتفين باسم الصانع الماهر «عزرا دويك» ، وكثيرا ما توقفنا عنده نشترى ونثرثر . وأصبحنا أصدقاء .

واعتبر الإخوان ومصر الفتاة أن عزرا دويك تجسيد للعدو الصهيونى ، بينما لم أشعر نحوه سوى بالرثاء ، وهو يسرع مضطربا ليغلق على نفسه باب المحل خوفا من المتظاهرين ، توقيا لحجارة تنطلق نحوه ، ولهتافات ربما أشد إثارة للفزع من الحجارة .

وفى اليوم التالى انفلت عدد من الطلاب من ثنايا المظاهرة تشابكت أيديهم ليمنعوا المتظاهرين من الاعتداء على المحل ، بلا قرار مسبق ، ولكن بلا تردد ، وقفت معهم وتشابكت يدى مع أيديهم ، فلم يكن ثمة مبرر فى نظرى لأن نضرب صديقا قديما لمجرد أنه يهودى .

ساعتها لاحظت أن عم « مصطفى » المخبر المقيم أمام المدرسة قد أمسك ورقة وقلماً كوبيا وبدأ يرسم بخط بدائى مرتبك أسماء الواقفين ، وافترشت نظرتى مساحة الورقة لأجد اسمى بين الأسماء .

بعدها بدأ زملائى فى الفصل (ثالثة ثالث) يتعاملون معى على أننى شيوعى . نفيت ولم يصدقوا ، (فالجميع ينفون احتراما لقواعد العمل السرى)... (وبعدها أيضا تعلمت أن الشيوعيين امتلكوا موقفا فاصلا ، إذ مايزوا بين اليهود كيهود وبين الصهيونية ، وإذ اعتقدوا أن اضطهاد اليهود فى مصر هو خدمة للصهيونية التى تلح عليهم ، وتحاول أن تستدرجهم للهجرة إلى إسرائيل ، فنحن بهذه المطاردة نطردهم من أرض ولدوا فيها ، ليقعوا فى براثن الصهيونية وليصبحوا عتادا لها ضدنا) .

وبعد أيام ازداد جارنا أحمد فرج تقاربا منى . وذكرنى بأننى تحدثت أمامه يوما عن عبدالعليم المرسى ، وبعد محاورات عدة أعطانى منشورا صادرا عن « الحركة الديمقراطية للتحرر الوطنى ـ حدتو » . تدفقت دماء كثيرة وأنا ألتهم كلمات هذا المنشور ، صباح اليوم التالى تسللت إلى الفصل مبكرا وألصقته ببساطة على السبورة . وتطلعت أعين عديدة نحوى ، بعضها فى مودة وأخرى فى استنكار . ثم أعطانى كتيبا مطبوعا عنوانه : « لينين... رسائل إلى الشباب » . قرأته عدة مرات ولم أفهم منه شيئا . كانت التعبيرات والألفاظ غريبة ، والترجمة شامية اللهجة... والموضوع غائب عن ذهنى... وباختصار أحسست بغربة شديدة عن الكلمات ، لكننى ـ ويالغرابة ـ تعلقت بها .

أمسكت بالكتيب باحثا عن مكان أخفيه فيه عن الأنظار (هكذا نبه على أحمد) . وشعرت بحيرة غريبة عندما ضاق المنزل الشديد الاتساع بورقة صغيرة ، لكننى وبعد تفكير وجدت لها مكانا آمنا فوق السطح . أخفيته فى

شق مستطيل بين جدارين متلاصقين ، واحد لمنزلنا والآخر لمنزل جارنا صاحب فرن أبو خضرة... وبقى قابعا فى هذا المخبأ لزمن طويل .

بعدها بأيام قال أحمد : اختر لك اسما حركيا (شرح لى لماذا) وتدفقت الأسماء ، تزاحمت ، وارتبكت .

قلت : أى حاجة . قال : المسئول يطلب ورقة منك بها اسمك واسمك الحركى . قلت : اكتبها أنت (لم يكن فى الأمر حرص ، لكن شعرت أن المطلب لا معنى له) .

وفى يوم الجمعة التالى وعند الظهر ، كنت أقف أمام بيتنا مع أحد الأصدقاء ، فجأة توقفت عربة حنطور ، قفز منها «سعد» كونستابل المباحث الذى يعرفه الجميع جيدا ، ومخبران ، اندفعوا إلى بيتنا واندفعت خلفهم .

كان الرجل محرجا ، فليس منَ السهل اقتحام منزل رجل كأبى ، وكان مرتبكا ، فهو لا يعرف تحديدا عما يبحث ، وسألته بينما يداه تقلبان فى كراريس المدرسة : بتدور على إيه ؟ فقال : أى حاجة شيوعية . وطار عقلى إلى ذلك الكتيب المستقر فى شق غائر من بين جدارى بيتنا وبيت «أبوخضرة» (طبعا لم يعثروا عليه ، بل وبقى مكانه حتى عدت إليه من المعتقل) . المهم قلب الرجل فى أشياء كثيرة ، نال «شخطات» عديدة من أختى الكبيرة «فوزية» احتمل بتململ ، ثم اصطحبنى معه فى الحنطور ذاته .

لم يكن الأمر سهلا ، كنت أقل من أن أكمل السادسة عشرة ، ولم أكن حتى قد فعلت شيئا جديا ، أو عرفت شيئا جادا .

(بعدها علمت أن المسئول عن القسم الذى ينتسب إليه أحمد فرج

واسمه «سعد زغلول مصيلحى» كان عميلا للبوليس منذ البداية ، وأنه تظاهر بالنشاط والتفانى فى العمل حتى صعد إلى لجنة المنطقة ، وأنه لما علم بقرب القبض علينا طلب من كل عضو ورقة بخطه فيها اسمه واسمه الحركى لتصبح دليلا كتابيا ضده... وأنا لم أفعل فلم يجدوا دليلا ضدى) .

كنت مأخوذا ، ولولا بقية من تماسك لبللت دموعى كل شيء ، وفيما الحنطور يتهادى فى طريقه إلى البندر (قسم البوليس) لمح الكونستابل ارتباكى فحاول ، مراعيا خاطر أبى ، أن يشجعنى وقال : «متخافش أنت مفيش حاجة ضدك ، ومفيش عندك مضبوطات» . وحتى هذه لم أفهمها .

وفى البندر كان كل شيء مرتبكا وبدائيا . لأول مرة قضية شيوعية ، وكل شيء تكسوه الدهشة ويحاول دون جدوى أن يبدو جادا . وأن يعرف ما يجب فعله .

الحناطير تتوالى... والمقبوض عليهم يتوافدون ، كثير من الوجوه أعرفها ، وبعضها أدهش إذ أراه بين الشيوعيين . ولأن رجال البوليس لم يكونوا قد تعلموا بعد فن التعامل فى قضايا كهذه ، فقد جرى ترصيصنا إلى جوار بعضنا البعض فى ردهة الدور الثانى... كنا كثيرين ، أغلبنا من المنصورة ، والغالبية طلاب ، باستثناء عبدالله الخطيب صاحب المكتبة الذى نعرفه جميعا ، ونتعامل معه جميعا ، وعم محمود عامل تليفون المركز ، وشخص آخر مثير للدهشة اسمه «إبراهيم الصيرفى» وكان صاحب مكتبة صغيرة لتداول روايات الجيب . كان مثقفا ، ويتحدث فى ألوان عديدة من المعرفة ، وكنا نستمتع بحواراته أكثر مما نستمتع بروايات أرسين لوبين التى نستعيرها منه مقابل قرش تعريفة لنعيدها ونحصل على أخرى . (حصل إبراهيم الصيرفى فيما بعد على دكتوراه فى الأدب) .

... وبعد قليل تخلص البعض من بعض المفاجأة ، وبدأت التحيات والسلامات ، وتغير ترتيب الصف أكثر من مرة دون اعتراض من الشاويش الواقف ، تفاهم الجميع مع الجميع ، واتفقوا على تفسيرات موحدة لبعض ما يعتقدون أنه سيكون محل سؤال .

وفيما يستعد رئيس النيابة ؛ أكثر الجميع ارتباكا للتحقيق فيما لا يعرفه ، سمعنا قليلا من الضجيج : «اطلع ياوله... ياابن الكلب» وأطل علينا ما أثار دهشتنا : فوج من الفلاحين ، وسمعت واحدا يهمس لجاره : «طناح» .

ثم فوج آخر من الفلاحين... وهمسة أخرى «كفر غنام» .

وجرى التحقيق بدائيا ، فرئيس النيابة لا يعرف شيئا عن التهمة ، ولا أركان توافرها ، ولا الأدلة عليها ، ولا حتى كيف يسأل المتهمين . استدعانا جميعا إلى غرفته ، وجرى ترصيصنا مرة أخرى بمحاذاة جدران الغرفة ، وهكذا حقق مع الجميع أمام الجميع . وأشار رئيس النيابة إلىَ (كان صديقا لأبى) كنت صغيرا بشكل لافت للنظر ، والشورت الذى ألبسه يثير الدهشة والإشفاق معا ، بل كنت بطبيعتى أبدو أصغر من سنى بكثير ، فبدوت أمام الجميع طفلا فعلا .

قال تعالَ أنت . نظر إلىَ رئيس المباحث ، وقال متأففا بصوت سمعه الجميع : أنتم جايبين عيال ؟

تقدمت مأخوذا .

وسألنى ...

ـ إنت شيوعى ؟

ـ لا .

ـ تعرف سعد زغلول مصيلحى ؟

ـ لا .

ـ تعرف أحمد فرج ؟

ـ أيوه... جارنا .

ثم أمسك بورقة صغيرة وقال : ده خطك ؟

على الورقة كان اسمى مكتوبا وأمامه اسم حركى : شكرى (إنها الورقة ذاتها التى لم أجد مبررا لكتابتها فكتبها أحمد فرج نيابة عنى) .

قلت : لا مش خطي .

قال : اكتب اسمك .

وكتبت بلا تردد فجاء الخط مغايرا . رأى رئيس المباحث الورقة وهز رأسه فى دهشة .

وصاح رئيس النيابة : يخلى سبيله بلا ضمان من سراى البندر . وأكمل : «ارجع مكانك» . ورجعت .

وجاء غيرى . سأله ذات الأسئلة تقريبا ، ثم : «يحبس أربعة أيام على ذمة التحقيق ويراعى التجديد» .

ثم جاء الدور على واحد من الفلاحين ، فكانت المناسبة لقطع التكرار الممل .

فالفلاحون كانوا صنفا آخر تماما ، تملق ماكر ، ودهاء يتظاهر بالضعف ، ويتلاعبون حتى فى ضعفهم بأعتى الأحكام .

قال رئيس النيابة فى ملل ظاهر : تعالَ أنت ، وأشار إلى واحد من أصحاب الجلاليب . انحنى على الفور خلع البلغة من قدميه ، نفضها بصوت عال لكنه محسوب ، وضعها تحت إبطه . اندفع نحو «الباشا النيابة» ثم فرمل عند المسافة الملائمة .

أمره رئيس النيابة أن يلبس البلغة ، رفض بإصرار فليس من الأدب أن يلبس شيئا فى قدميه أمام الباشا النيابة .

ورغم خبرته الطويلة فقد خدع رئيس النيابة فى هذا الفتى المراوغ .

سأله :اسمك ؟

- سيد العوضى .

- إنت شيوعى ؟

- شيوعى يعنى إيه ياباشا .

- شيوعى والا لأ ؟

- مش بس نفهم يعنى إيه شيوعى دى .

- تعرف ماهر قنديل ؟ (المتهم الأول ومسئول المنطقة) .

- أعرفه ياباشا .

(وامتدت نظرة هامسة من الشاب المتكئ على الحائط فى استرخاء مترفع.. امتدت لتتلقاها فى تفاهم متكامل عينى الفلاح وكأنهما كانا فى انتظارها . عادت نظرة مماثلة وكأنها رسالة جوابية تقول : فهمت) .

وسأله رئيس النيابة فى فرح ظاهر : تعرفه منين ياابنى ؟

فأجاب فى سلاسة لم تزل تثير دهشتى : بيمر فى بلدنا .

- بيمر يعمل إيه ؟

- يروى الغيطان ياباشا .

- ياابنى ماهر قنديل كان بيمر فى البلد يعمل إيه ؟

- ماهر قنديل مين ده يابيه ، إحنا منعرفش حد بره بلدنا ، أنا بحكى لسعادتك عن نهر النيل .

وفقد رئيس النيابة صوابه وبدأ فى استخدام قاموس السباب لأول مرة .

ثم سأله : تعرف سعد زغلول مصيلحى ؟

(كانت الهمسات قد وصلته بأنه بوليس) فأجاب : مين ده ياباشا ؟ أفندى كده... وسفروت ؟ وبعين ونصف (كان يصف الجاسوس وصفا متقناً) ثم أعطى ظهره للباشا النيابة ملتفتا إلى أكبر الفلاحين سنا ، وكان مستندا إلى جوار الشباك وقال : مش هو يا أبا حامد الواد الأفندى المعفن إللى جه نصب علينا ، وقال إنه جاى من عند الحكومة يلم تبرعات للفلسطينيين ، وصدقناه وطفحناه أكل لما قال ياكفى ولمينا ليه جنيه وربع ؟

كان رئيس النيابة يصرخ : كلمنى أنا .

والتفت الفلاح الماكر للباشا النيابة... لكن بعد أن لقن الجميع الرواية التى سيحكونها جميعا مبررين زيارة الجاسوس لهم فى بيت أحدهم . (فيما بعد ، وفى معتقل الهايكستب تعرفت على سيد العوضى ، كان مزارعا بسيطا يمتلك بضعة قراريط ، لكنه كان ابن ليل ، ومغنى فى الأفراح ، ينسج تلقائيا مواويل خضر ، ويقارب فيها ببراعة تلقائية وسرعة بديهة عبقرية بين الأسماء والأماكن والمناسبات ، ذلك النوع من المقاربة الذى مكنه وفى لمح البصر من اختصار مسافة النطق بين ماهر قنديل ونهر النيل) .

وكان رئيس النيابة قد نال ما يكفى ، وأحس أنه أمام فلاح ماكر وقادر على أن يتلاعب به ، وبعشرة مثله ، فأنهى التحقيق بلا مقدمات صائحا : «يحبس أربعة أيام على ذمة التحقيق ويراعى التجديد» وأضاف للمرة الأولى ما يعبر عن عصبيته «ارجع مكانك ياابن الكلب» .

وجاء الرد هادئا ومطيعا : «ربنا يخليك لنا ياسعادة الباشا النيابة» .

وكان التحقيق مع سيد العوضى بداية لحالة من الانفراج... الواقفون لصق الحائط بدأوا فى التنفس فقدوا توترهم المشحون ، وعلت وجوههم ابتسامات

متنوعة المساحات ، لكنها ابتسامات على أية حال ، وبدأوا يستعيدون حيويتهم كطلاب نصف مشاغبين فى فصل ، وليس فى تحقيق أمام «الباشا النيابة» .

وأدرك رئيس النيابة بخبرته الموقف ، فأنهى التحقيقات سريعا واكتفى : باسمك ، سنك ، عنوانك ؟ أنت شيوعى ؟ ثم : يحبس أربعة أيام... ويراعى...

ولم ينج من قرار الحبس سوى خمسة .

الأستاذ أمين تكلا مدرس أول الطبيعة (وكان ليبراليا مثقفا ثقافة موسوعية ، يهب كل حياته للقراءة ، كان من تلاميذ سلامة موسى) ، لم يكن شيوعيا ، لكن الجاسوس وشى به لأنه سمع ماهر قنديل وهو يمتدحه . ثم أربعة طلاب تقل سنهم عن ثمانية عشرة عاما : رمضان عجينة (طالب فى مدرسة المعلمين الأولية وكان أبوه بائع جاز سريح) ومحمود حسان (طالب فى المدرسة نفسها وأبوه نجار) ثم طالب أرستقراطى هو فوزى القصبى وأنا ، وكنت الأصغر سنا فقد كنت لم أزل أقطع المسافة بين الخامسة والسادسة عشرة .

الباقون رحلوا إلى سجن المنصورة ، ونحن الخمسة أخليت لنا إحدى غرف الحجز لنبقى فيها طويلا ، فقد صمم الباشا مدير المديرية ، على أن يرسل أسماءنا للقاهرة طالبا من الحاكم العسكرى أمرا باعتقالنا .

* * *

تراكمت فى غرفة الحجز المخصصة لنا بطاطين وملابس وأطعمة أسرع الأهل بإحضارها ، وعلى الباب مباشرة كان باشاويش الحجز عم عبده الذى تلقى منحا خاصة من أبى ومن أسرة فوزى القصبى وتلقى معها

تعليمات بحسن المعاملة . وكان عم محمود الجرسون فى كازينو البلدية المجاور يختال دوما فى كل طرقات المبنى حاملا القهوة والماء المثلج للبيه المأمور والبهوات الضباط . وكان قد نال هو أيضا منحا نصبته المندوب الدائم للأسرة ، فعن طريقه نتراسل ونتلقى الصحف والمشروبات والأنباء .

وفور أن أغلق الباب علينا نحن الخمسة أمضينا بعضا من الوقت نتأمل فيه بعضنا البعض ، ويبدو أن الأستاذ أمين (وهو الذى لم يتزوج رغم كبر سنه) قرر أن يلعب دور الأب والمسئول والمربى فى آن واحد... وقد لعبه بكفاءة .

وفى هذه الغرفة أقمنا عدة أشهر . كان أبى يحضر لزيارتى ، يذهب إلى غرفة رئيس النيابة ويأخذنى عم عبده إليه ، يتركون الغرفة لنا ، ولا أجد ما أقول ، ولا يجد هو ما يقول ، سوى إزيك ، عايز حاجة ، صحتك كويسة ، ثم ينصرف .

وألحت جدتى أن تزورنى وبمجهود شديد أقنعوا البيه المأمور ، ووافق وهو يتلفت رعبا ، كانت الغرفة تضم بعض الضيوف الذين صمموا أن يبقوا كى يتفرجوا على أحد الشيوعيين . ويبدو أن أحدهم قد صدم وصاح : ده عيل صغير . وصدمت أنا أيضا . أما جدتى فلم تجد ما تقول سوى أن صرخت بصوت يلم علينا الدنيا :

- «ما تخافشى ياحبيبى ، متزعلش ، سعد باشا انسجن» . واعتبر المأمور ذلك تحريضا وأنهى الزيارة سريعا .

كان الشاويش عبده يجلس على الباب قريبا من المدخل ، وكان رئيس النيابة قد بدأ فى إتقان عمله ، فأخذ يحضر المتهمين فى مجموعات... كل يوم ثلاثة أو أربعة . وعم عبده يفتح الباب لنشم الهواء ، ويستدعى الأستاذ

أمين ليقترب أكثر منا من الباب فيكون فى وضع مميز... هواء أكثر ، وإمكانية رؤية أوسع . وتستمر الدردشة بينهما... لا تنقطع أبدا ، وأثنائها يمرر عم عبده المعلومات «الواد فلان وفلان حضرا للتحقيق . أخذا أمر حبس ١٥ يوما . الواد فلان اتخانق مع رئيس النيابة»... وهكذا ذات يوم قال وكأنه لا يكلم أحدا : «الواد رزق بتاع الزقازيق بياكل كباب فى أودة المباحث» لم نفهم نحن ، لكن الأستاذ أمين فهمها . وبدأ يسألنا : عن رزق بتاع الزقازيق . ولم يعرفه أحد منا . لكن عم محمود الجرسون سرعان ما عاد حاملا لنا الرد مكتوبا على رسالة شفوية حمَّلها لأحد الذين أحضروا للتحقيق معهم (رزق سرور عسكرى مطافئ بالزقازيق . كان مسئول اتصال بحري . وشى به الجاسوس وقبض عليه) .

وفى اليوم التالى قطعنا شريطا صغيرا من ورقة جورنال . كتبت عليها وقلبى يدق بعنف «رزق سرور يعترف» . توقفت قليلا ثم أضفت : «مزق الورقة فورا» . ضحك الأستاذ أمين قائلا : «برافو بدأت تتعلم قواعد الأمان» . ولم يكن أمانا بل خوفا .

خمس دقائق وحضر عم محمود الجرسون حاملا زجاجات كوكاكولا (كان أبى يسدد ثمنها أضعافا مضاعفة) وهمس فيما يفتح زجاجتى : أحمد فرج بيسلم عليك ، وفهمت أن رسالتى وصلت .

وكان رزق هذا قد بدأ مسلسل اعترافات لا ينتهى حكى كل ما يعرف ، وكل ما سمع ، وكل ما تخيل . لكنه كان فى الوقت نفسه يمارس لعبة غريبة ، فقد بدأ يكتب على حوائط دورة المياه «رزق لم ولن يعترف يارفاق... اثبتوا... واحذروا أكاذيب العدو الطبقى» (كنا قد بدأنا فى استخدام دورات المياه أداة تخاطب مع الرفاق الحاضرين للتحقيق) .

... لكنه مع ذلك ظل يعتصر ذهنه بحثا عن معلومات تساقطت من

ذاكرته كى يعترف بها ، ومن بين من تذكرهم فجأة طبيب من شبرا اسمه د . فريد حداد . حمل إليه يوما رسالة .

وتم إحضار الطبيب ولم يثبت عليه شيء ، وأفرج عنه ، وانضم إلينا منتظرا معنا أمر الاعتقال ، وأصبحنا ستة . تعارفنا . سأله أمين بك «هل تقرب لنقولا حداد ؟» فقال : عمى .

ورد أمين بيك : «أنا فخور أن أتعرف بك» .

ولم أفهم لماذا . لكننى فهمت فيما بعد ، إذ تذكرت هذه العبارة وأنا أعد كتابى عن نقولا حداد .

لكن العبارة التى لم أنسها أبدا كانت رد د . فريد عندما قال : «نحن الاثنين سنفخر يوما أننا سجنا مع هؤلاء الشبان» .

وأحسسنا نحن الصغار بالزهو .

وذات يوم سمعت صوتا ينادينى من غرفة الحجز المجاورة ، يفصل بيننا جدار أعلاه فتحتان مغلفتان بالقضبان .

حملنى زميلان ، ومن الشباك وجدت «صلاح» زميلى فى الفصل ، سألته : «مسكوك ليه ؟» قال : «كنت بأوزع منشورات» .

عندما نزلت لاحظت حوارا جادا بين أمين بك ود . فريد حول استمرار النضال ، وأن الحملة البوليسية لم توقف النشاط .

كان أمين بيك لم يزل يمتلك وحده متعة الجلوس قرب الباب نصف المفتوح الذى سرعان ما يغلق لدى مرور أى مسئول ، قال أمين بيك : «ياشاويش عبده الشاب إللى اسمه صلاح شيوعى هاته معانا هنا أحسن» . زغده عم عبده إلى الداخل بينما يده الأخرى تغلق الباب فى عنف غاضب فيما تتسلل كلماته المستنكرة : «والنبى ما أنت فاهم حاجة يا أمين بيك» .

وأحاط بنا صمت غاضب . فلم نعتد من عم عبده هذه المعاملة ، خاصة لأمين بيك .

بعد ساعات سمعنا صوت عم عبده يصرخ وهو يفتح باب غرفة الحجز الأخرى : «فين ألواد اللى ضبطوه مع العيل تحت السلم ؟ » ثم «فين الواد صلاح ؟» .

وأخذوه . وفهمنا . وصمتنا .

وفى المساء أفرج عن صلاح ، صاح مودعا فى فرح صاخب . أثار دهشتنا وغيظنا . وبعد فترة عاد أمين بيك إلى جلسته قرب فتحة الباب ، وعادت دردشته مع عم عبده . ولعله حاول أن يفسر غضبه ، أو أن يستثير عم عبده ضد النظام فقال : «شايف ياشاويش عبده . الولد إللى عملها مع ابن الجيران يخرج ، والأولاد إللى بيحبوا مصر يفضلوا مسجونين» .

وللمرة الثانية يفقد عم عبده صبره ويصيح : «والنبى يا أمين بيه ما أنت فاهم حاجة ، ده عملها فى عيل وخلاص ، إنما دول عايزين يعملوها فى جلالة الملك» .

وكعادته . وتعبيرا عن عدم رضائه عن غبائنا أغلق الباب بعنف ، وتركه مغلقا .

قال أمين بيك للدكتور فريد : «الراجل فاهم الصراع الطبقى أحسن مننا» .

وذات يوم أعلنت حالة الطوارئ فى المبنى ، أحاط الحراس بالمكان ، جرى التمام عليهم مائة مرة . وتعالى صراخهم : نمرة واحد تمام ، ثم نمرة اثنين تمام . وهكذا . عساكر من الخيالة يمنعون المرور على الرصيف المجاور . وحتى باب القسم الذى لا يغلق أبدا أغلقوه بإحكام .

وحمل عم عبده الأخبار . كان يتحدث فى انبهار مرتجف . محمد أبو إبراهيم جاى (كان شقيا شهيرا اشتهر باسم ابن بمبة . قتل تسعة واختفى فى المزارع مروعا الجميع . ثم ولأسباب انتخابية اتفق مع أحد أقارب الباشا إبراهيم عبدالهادى رئيس الوزراء أن يسلم نفسه ، مع ضمان أن تسقط عنه التهم ويفرج عنه ، ويكون من رجال الحزب السعدى) .

كنا فى الحوش فى وقت الفسحة ودخل علينا هذا الرجل المرعب الذى أخاف كل سكان المديرية وما أحاط بها... شاب . نحيل . أسمر . هادئ . وديع . شارب مبروم بعناية غير مبالغ فيها . جلابية صوف . كوفية ضخمة تلف رأسه كعمامة وما تبقى منها يحيط بعنقه . حيّانا بهدوء : أهلا ياأفندية . كان الجميع يخافونه فى مبالغة زائدة ، وأوامره تصدر لتنفذ فورا ، وحتى عم عبده تضاءل أمامه ، وأصبح مجرد منفذ لتعليماته . جلسنا معا فى الحوش لنشرب معه الشاى ، أسرع أكثر من عسكرى ليحضر الكراسى والشاى ، لم يتجاسر عم عبده على إعادتنا للحجز ، فقد بدأ ابن بمبة الحديث ولا أحد يستطيع أن ينهيه إلا هو .

سأل السؤال المعتاد : يعنى إيه شيوعية ؟ وتبادل أمين بيك ود . فريد محاولة الشرح المبسط ، وهو يهز رأسه كمن يحاول أن يفهم ويتفهم . كانت سطوته الآمرة وغير المفتعلة تهيمن على المكان ، ونحن ننظر إليه فى انبهار ، بينما كان ينظر إلينا فى دهشة مندهشة .

أسرع شاويش ليهمس فى أذنه . نهض واقفا . فقد حضرت أمه لزيارته .

وتطلعنا جميعا لنرى الست بمبة التى اكتسبت شهرتها من شهرة ابنها .

سمراء . عجفاء . دقيقة الحجم . جلبابها الأسود يكنس الأرض . ملامحها صارمة . اندفع نحوها ليقبل يدها ، رفعت يدها وصفعته صفعة مدوية ، وانهالت شتائمها مع صفعاتها على الرأس المنكس فى طاعة مستمتعة : فضحتنا ياكلب . عامل شقى وابن ليل . طيب خد . وانهالت عليه ضربا وركلا ، وهو خاضع كقط أليف يستمتع بقسوة حنان الأم . ولم تتوقف إلا عندما بدأ يستعطفها : خلاص ياأمه . أبوس إيدك ياأمه . تبت ياأمه .

قبلت توبته . وتوقفت . عدل عمامته وجلس سعيدا مع أمه . وانسحبنا نحن .

* * *

كان إحضار محمد ابن بمبة إلى المنصورة إعلانا بقرب ترحيلنا إلى المعتقل ، تلقى الشاويش عبده أول الأنباء ، ونقلها سريعا إلى عم محمود الجرسون الذى أسرع ليبلغ أبى ويعود بأكوام من الملابس والمأكولات .

وفى الفجر أيقظونا . حملنا ممتلكاتنا وفى الحوش كانت سلسلة غليظة ممددة على الأرض وعلى مسافات متباعدة مثبت فيها كلبش من الناحيتين ، بحيث يربط كل اثنين معا ، ونبقى جميعا مربوطين فى سلسلة واحدة . إنه الاختراع المسمى بـ« الحجلة » .

وجاء نصيبى مع محمد ابن بمَبة فى كلبش واحد .

كنت مأخوذا ـ كعادتى ـ فى صمت خائف . وحاول ابن بمبة أن يشجعنى : « خليك راجل . متخافش » كان يتكلم فى هدوء فارس مقبل على معركة .

... وبعد أن ربطونا جميعا فى ذات السلسلة ، وجرى التمام علينا عدة مرات ، تحركنا إلى السيارة وكان أقاربنا فى أقصى الطرف الآخر من الرصيف المقابل ، أشاروا لنا ، ولم نستطع نحن ، فيد مربوطة فى الكلبش ، والأخرى تحمل الأمتعة . تعثرنا ونحن نصعد إلى سيارة الترحيلة .

وانطلقت السيارة إلى المجهول .

إلى ذلك الذى يسمونه «المعتقل» .

ومبكراً جداً ... أيضاً

كانت السيارة العجوز المترهلة تتأرجح بنا وهى تخترق شوارع المنصورة .

العين المشتاقة تتسلل عبر الحواجز والقضبان كى تمرق لتتابع ألوانا باهتة ، وشخوصا حرمت منها أياما وأسابيع بدت وكأنها سنوات .

كم تبدو جميلة الآن تلك الأشياء التى ملت الأبصار منها ، وتململت من تكرارها فى زمن سابق .

اليد الصغيرة ، المبرومة كنواة بلح ، مشدودة إلى ذات الحجلة ، وذات الكلبش وذات اليد الأخرى الصارمة كقطعة جرانيت نحتها الفراعنة القدامى ، سمراء فى حزم قاطع ، وكل تلامس معها يعطيك الإحساس بأنها صلبة بأكثر مما تبدو ، وكانت عينا محمد ابن بمبة لا تزالان معلقتان بالصبى المشدود معه ، وتحاولان أن تمنحاه بعضا من احتمال .

والحجلة تلتوى بنا ، ونلتوى معها ، ولا نملك غير ذلك ، وألمح بين الحشد المحتشد داخل الصندوق المتحرك أمين بيك هادئا كعادته وكأنه يلقن نفسه فنونا وشجونا لا يبوح بها لأحد . ود . فريد حداد باسما هادئا هدوءا رزينا وجميلا ، وآخرين لم أعرفهم... فلاحين من طناح أفرجت عنهم

النيابة لعدم كفاية الأدلة وكان نصيبهم الاعتقال... من بين الرؤوس المتراصة لمحت سيد العوضى .

... وإذا أحاول أن أنسى هواجسى - إزاء ذلك المجهول فى غمرة الاحتواء الحميم من ركاب الصندوق معتقلين وجنودا ، أنستهم الرحلة الفوارق ، ونبتت رياحين إنسانية دفعتهم جميعا للاهتمام بهذا الصبى الصغير - وهو اهتمام كان يؤلمنى تماما كالتجاهل .

وفيما كنت أحاول أن أبدو مكتسيا بهدوء غير منفعل ، لعله كان مزيجا من الخوف ، ومحاولة التماسك ، هطل علينا كرذاذ حميم فى حر قائظ موال جميل :

السجن مش عيب مادام القضا اتحكم

واتسلطن الندل فى ابن الأصل واتحكمً .

إنه سيد العوضى يمارس هوايته ، صوته قوى ومعبر ، يخيل إليك أنه نابع من القلب مباشرة ، ويتجه إلى القلب مباشرة ، إنه فنان محترف يعرف كيف يهز مشاعرك لينال منها إعجابك ، تماما كما كنا نهز شجرة التوت لننال ثمارها الحلوة .

وتنتقل إليه الهمسات بأسمائنا لينسج لكل اسم « كوبليه رائق » يتلاعب فيه باللفظ والمعنى معا .

وفيما نحن منغمسون فى هذه الهالة المبهرة ، أنهت السيارة رحلتها دون أن ندرى ، وعبرت القاهرة ثم خاضت بنا فى بحر صحراوى ، لا يشوب أمواجه الصفراء المترامية بلا نهاية سوى بعض العشب الشائك الجاف ، الذى يبدو وكأنه قد ولد جافا ، ثم مجموعات من معسكرات الجيش .

وأخيرا توقف سيد ، فقد توقفت السيارة ، مجموعات من الهناجر (من بقايا الجيش الإنجليزى) كل منها محاط بسلك شائك ، يحيط به سور من الحراس .

وعندما فتح باب الصندوق ، وأطلق الجنود سراح أيدينا كنت أول من انطلق قافزا... محاولا أن أشفى هواجسى عن هذا المسمى «معتقل» ، رأيت أناسا يتدافعون نحو السور الشائك بحثا عن وجه يعرفونه أو يتعرفون عليه بين القادمين الجدد . فجأة قفز أمامهم صبى يرتدى الشورت ، فصاح أحدهم - ربما فى دهشة ، وربما فى استنكار ، لكن قطعا بلا حصافة - «الحكاية عيلت ياجدعان» ، أوجعتنى الكلمة لكن اليد الجرانيتية ربتت على كتفي قائلة : «ولا يهمك أنت أجدع من أجدع جدع فيهم»... لكن الوجع ظل متربعا فى أعماقى .

ثم نزل الفلاحون ، وأتى ذات الصوت المستهزئ أو المستنكر «الفلاحين وصلوا» .

وبهذا الاستقبال غير المفهوم وغير المبرر دخل طابورنا المغلف بالدهشة إلى عنبر ٢ فى معتقل الهايكستب .

تراجعت إلى آخر الطابور... لكن يد أمين بيك ونظرة محمد ابن بمبة دفعتانى إلى الأمام .

تمهل الطابور ، لم يرحب أحدٌ بنا ، أحد لم يعرف أحدا منا ، ولم يكن أحد منهم يمتلك حصافة الاهتمام بمن لا يعرف . تمهلنا ثم تقدمنا ، فى المقدمة طفل بالشورت ثم مدرس عجوز هادئ القسمات ثم شجرة سنط باسقة ذات جلباب فضفاض وعمامة ضخمة يتدلى منها ما يخفى نصف الوجه (إنها عادة الرجل الهارب دوما)... وطلاب ثم كومة من الفلاحين يتلاصقون ببعضهم البعض بحثا عن دفء مفتقد .

وكأن محمد ابن بمبة قد أحس بخبرته أننا بحاجة إلى مقدرته الاقتحامية ، فرد قامته فبدت أطول كثيرا مما اعتدنا عليه... حَبَكَ عمامته ،

وبقدمه أزاح بعنف مفتعل باباً نصف مغلق ، وقال بلهجة آمرة : فين يا أفندي أنت وهوه مطارحنا .

وأشاروا إلى عدة غرف خالية... توزعنا عليها .

اثنان فقط أمكن لسكان هذا المكان أن يتعرفا عليهما... أمين بيك ود . فريد وحاول الاثنان جهد طاقتهما أن ينسجا علاقة ما ، بين القادمين الجدد والمستقرين القدامى .

كان هؤلاء المستقرون مجموعات متشرذمة من عدة انقسامات انقسمت عن حدتو ، وما أن سمعوا أننا متهمون فى قضية حدتو حتى تباعدوا عنا فنحن انتهازيون ويونسيون (نسبة إلى يونس الاسم الحركى لهنرى كورييل) دون أن يدركوا أن الوافدين مناضلون حسنو النية لم يعرفوا شيئا عن الخلافات ، ولا الانقسامات . والمستقرون مجموعات من البرجوازيين الصغار يقضون وقتهم كله فى مناقشات يسودها التكاذب المتبادل ، أو مشاحنات تلوك عبارات من الماركسية أفرغت تماما من مضمونها... ونحن مادة أولية لا تصلح لمثل هذا النقاش... طلبة صغار السن ، وفلاحون ، ومن ثم فلا شيء فينا يغرى بنقاش... ومادام النقاش مفتقدا ، فالاهتمام مفتقد .

ولم يكن فى عنبر ٢ من أعضاء حدتو سوى شاب أسمر عارى الصدر لا يرتدى سوى شورت متآكل هو مبارك عبده فضل . وقد حاول جهده أن يتعامل معنا وأن يوفر لنا ما نحتاج ، لكنه ما لبث أن ضبط محاولا الاتصال بعنبر الإدارة ربما ليبلغ قيادة حدتو هناك بوصولنا... ونقل إلى هناك ليودع فى التأديب .

وبقينا وحدنا .

* * *

ذكرياتى عن هذه الفترة باهتة وغير مريحة ، بل وغير مستريحة ، فكل الذين أتوا معى من المنصورة رحلوا بعد أيام إلى معتقل الطور وتركونى وحدى (فيما بعد علمت أن استجوابا قدم فى مجلس الشيوخ عن الأسباب التى حدت بالحكومة إلى اعتقال أطفال ، وصممت الحكومة على خطورة الأطفال وإن تعهدت بعدم ترحيلهم إلى الطور) .

لكنهم وقبل ترحيلهم تركوا مساحة واسعة باعدت بينى وبين سكان هذا المكان .

ففى اللحظة الأولى لدخولنا غرفنا... كان معى مجموعة من فلاحى طناح فى غرفتى ، منهم ولد شقي كالعفريت اسمه الشحات ، ما أن رأى سريرا ومرتبة ومخدة وبطانية وقالوا له هذا لك... حتى جن جنونه ، كان يقفز على السرير كالقرد «ياحلاوة ياأمه ، سرير بمرتبة قطن ياأمه ، ومخدة كمان ياأولاد »... والبرجوازيون الصغار يتجمعون ، ويتندرون ، ويتضاحكون ، وأنا أصرخ إهمد ياشحات ، إسكت ياوله .

وعندما أتوا لنا بالطعام نط الشحات كالعفريت مرة أخرى ، «ياحلاوة ياأولاد ، عيش فينو يا أولاد ، وحلاوة طحينية ياأولاد » . والبهوات يضحكون ويطلقون نكاتهم... لتنغرس كل منها فى قلبى حجرا يبنى سدا بينى وبينهم .

وأتى المساء... كنا متعبين من رحلة طويلة قطعناها واقفين نتأرجح داخل صندوق مغلق ، تمددنا على أسرتنا ، والشحات لم يزل يقفز من سرير لآخر ، وأخيرا قال عم سيد : إتخمد ياشحات . وانصاع الشحات وقرر أن ينخمد ، وحاول أن يتمدد على سريره ليسجل لحظة تاريخية فى حياته : أن ينام على سرير ، لكني قلت : إطفى النور ياشحات... كان سريره بجوار الحائط وهو الأقرب لمفتاح النور . انتهزها الشحات فرصة ليقفز من جديد ،

تأمل اللمبة جيدا ، ثم قفز فأحضر كرسيا ، وقفز فوقه ، ونفخ في اللمبة كي تنطفئ لكنها ولدهشته البالغة لم تنطفئ ، وزادت دهشته عندما لاحقته ضحكات القدامى فى المكان ، ونكاتهم الصغيرة .

توتر الفلاحون ، فقد تجمعت في حلوقهم مرارة يوم من الصلف البرجوازى الصغير الذى عاملهم به هؤلاء الأفندية ، وكادت تقع مشادة لكنها انطفأت ، إذ أسرعت فأطفأت النور .

وفى اليوم التالى... ودون اتفاق مسبق - وجدنا أنفسنا ونحن نتحرك معا... كتلة واحدة تخشى أن تنفرط ، فينفرد بأحد منها هؤلاء الأوغاد الذين نجحوا وببراعة مثيرة للدهشة فى تحقيق حالة من الاغتراب عنهم . لكن الشحات انفلت كالقرد يجرى فى أنحاء المعسكر ، يتطلع إلى العنابر البعيدة ، حيث أناس آخرون ، يشير إليهم بيديه فينزلق عنهما كم الجلباب الواسع فتبدوان كعودى قصب أحمقين .

وفجأة تفجرت مشكلة .

سعد زغلول فؤاد ، المشاغب الأكبر فى العنبر ، وكان معتقلا فى أعقاب اتهامه في قضية إرهابية ، حضر فى المساء قصة إطفاء النور ، وقرر - وربما بحسن نية - أن يواصل شغبه المتواصل .

أتى بقلة مملوءة ماء وأوصلها بسلك كهرباء عار ، وتمدد قريبا منها مدعيا أن ساقه بها ألم ما... نادى على الشحات « يازميل... من فضلك ناولنى القلة دى » ، قفز الشحات بلا تردد وما أن تلامست يده مع القلة حتى اندفع صارخا فى فزع حقيقى ، بينما تلاحقه ضحكات غير حكيمة من الواقفين ، والذين توقفوا عمدا ليتفرجوا مرة أخرى على فلاح لم يسمع فى حياته عن الكهرباء . وتصور أن في « القلة » عفريتا .

أثار ضحكهم عم سيد العوضى ، واعتبرها مسخرة وقلة أدب ، وشتم

الواقفين شتائم قاسية . وفيما تتجمع بوادر اشتباك تقدم عم محمد ابن بمبة بقامته المهيبة ليقول فى صوت هادئ وعميق كان قادرا على إلقاء الرعب فى قلوب هؤلاء الأفندية ، وكان ممسكا فى يده بقطعة خشب سميكة يتكئ عليها... فمثله لا يمشى بغير سلاح ما... قال فى هدوء بارد... وقاس : «عيب يا أفندى إنت وهو المسخرة دى ، كل واحد يتلم ويدخل أودته» ، والغريب أن الجميع اتلموا ، تسحبوا فى هدوء ودخلوا غرفهم ، وبقوا فيها ساعات عدة وانفردنا نحن بالحوش نمرح فيه محاولين أن نواسى الشحات الذى كان يبكى بحرقة ليس من الفزع ، وإنما من القهر .

وبعد يوم آخر... رحل الجميع إلى الطور ، وتركونى وحيدا فى هذه الغابة اللاإنسانية . تركونى بعد أن أقاموا حاجزا بينى وبين سكانها... ومهما استطال الوقت لم يكن من الممكن إزالة هذا الحاجز .

لا أنا أردت ، ولا هم حاولوا .

* * *

كان «أنكل يوسف» فى تأديب عنبر الإدارة ، وكان يبعث إلى برسائل شفوية مشجعا ، وكثيرا ما حاول أن يوصى سكان العنبر بى ، دون جدوى ، فهو من قيادات حدتو ، وقرابتى له باعدت هى أيضاً بينى وبينهم .

وذات يوم أخذوه للمحاكمة ، ولم يعد ، عاد لنا خبر يقول : حكم عليه بخمس سنوات سجن وخمس سنوات مراقبة .

وانزويت فوق سريرى أبكى فى صمت .

كانت المرة الأولى التى أسمح فيها لدموعى أن تنساب منذ القبض على ، ويبدو أن كثيرا من الحزن والقهر كان قد تراكم ، أو يبدو أن رحيل من أعرف قد تركنى وحدى ووحيدا فى وحدة موجعة ، فانهمرت دموع

صامتة بلا توقف . ظللت أبكى طويلا ، لم يلحظ أحد ، أو ربما لم يهتم أحد أن يلاحظ . فمن يهتم بهذا الصبي الصغير الهادئ الذى لا يجيد النقاش ولا يردد الألفاظ الكبيرة (الانتهازية . الإصلاحية . المنشفية . البلشفية . التكتل الثورى . النقاء البروليتارى... إلخ) ولا أحد فيهم يمتلك الإحساس الإنسانى بالأبوة ، إزاء هذا الصبي الصغير . أخيرا... أتى مراد القليوبى... جلس ليناقشنى ؛ وربما ليحاسبنى دون أي قدر من الحنان ـ وقال فى حسم ثورى جاد : «لا تخف ، فالأمر بسيط ولن تمضى سوى سنة أو اثنتين على الأكثر إلا وتنفجر الثورة الشعبية ، وتستولى الجماهير على السلطة... ويخرج يوسف من السجن» .

لم أجد سبيلا للمناقشة ، لكنى لم أصدقه . فقط مسحت دموعى ، واكتفيت .

* * *

وفى هذا المكان تعلم الصبى المبتدئ أشياء كثيرة ، وتلقن دروسا ترسخت فى وجدانه دون أن تستطيع أية أمواج أن تمحوها مهما تراكمت .

كانت هناك وقائع تكسر القلب ، وتستعصى على الفهم ، ولقد حاولت وبإخلاص ـ أثناء تدوينى هذه الصفحات ـ أن أستعيد من ذاكرتى ، ذكرى لهؤلاء الرجال الذين قضيت بينهم هذه الفترة المريرة دون جدوى ، كل شيء باهت ، ومثير للشجن .

كانوا كثيرين ، ينطلقون فى حماس مشتعل . منقسمون إلى حد التشرذم ، كل منهم يعتقد أنه يمتلك مطلق الصحة ، والآخر مطلق الخطأ ، يقولون وبأعلى صوت كلاما كبيرا ، وعبارات متخمة بالترفع عن كل من عداهم ، يتبادلون التكاذب ، يترفعون ، يلوكون ألفاظا صعبة الفهم ،

ويستريحون كلما كانت ألفاظهم أكثر غموضا وأكثر استعصاء على الفهم (مارسوا هواية الانقسام حتى الثمالة ، وبرروها بألفاظ وأقاويل متقنة ، تدافعت ثوريتهم كالسيل ، لكنها كانت بلا عمق حقيقى . بعد أن كبرت اكتشفت فيهم التعبير الحقيقى للبرجوازى الصغير . وظللت أتذكر دوما محاولات أمين بيك أن يشرح لى وبتبسيط شديد رؤيته لهؤلاء الرجال فقال : دى نظرية الأستك ، تشده جامد ناحية اليسار وأول ما تسيبه يندفع بسرعة نحو اليمين) .

والغريب أن أغلبهم قد فعلها ، فبعد أن أنهكوا حزبهم انقساما ونقدا وانتقادا ، وبعد أن صرخوا بأعلى صوت بأعلى الشعارات ثورية ، فإنهم وما أن أفرج عنهم حتى أخلوا سبيل أنفسهم من النضال ، وعادوا أدراجهم متجنبين أى تلامس مع اليسار .

لكن أحدا من هؤلاء لم يكلف خاطره بأن يهتم بهذا الصبى الذى ألقت به المقادير بين أرجلهم المتصارعة ، كانوا يفتقدون روح الأبوة ، أنا لست معهم... إذن لا مبرر للاهتمام بى ، ناسين أننى لم أكن أعرف حتى ذلك الحين... مع من أنا ؟ بل هل أنا مع أحد أصلا ؟ وأننى لم أكن بحاجة إلى أكثر من قدر من الرعاية .

كنت أسير فى هدوء بين أقدامهم كقطة بلا صاحب ، لا يلحظها أحد ، ولا أحد يكلف خاطره بأن يشعر بوجودها أو أن يشعر إزاءها بأية مشاعر .

حتى الآن لا أعرف كيف مضت بى هذه الأشهر الطويلة ، ولا كيف أمضيتها ، لا أذكر منها شيئا ذا بال ، فقط تساقطت هذه الأيام الواحد تلو الآخر... حتى أفرج عنى .

لكن هذه الأيام علمتنى الكثير .

وعندما أعود بالذاكرة إلى هذه المساحة... أكتشف أن فترة التجاهل غير الإنسانية لهذا الصبى قد علمتنى درسا يظل يؤرقنى دوما ، أن السياسى

إنسان قبل أى شيء آخر ، واشتققت من هذه الأيام الصعبة إحساسا بالأبوة نحو الآخرين ، واهتماما مستديما بهم وبمشاكلهم .

وعندما أستعيد شريط الكلمات المتخمة بالرنين الثورى ، وأستعيد كيف أفلت أصحابها بجلدهم من مسيرة العمل الصعب ، أتذكر أمين بيك ونظرية الأستك . وأظل أتذكرها دوما كلما تابعت واحدا أو جماعة من هؤلاء الذين يستمتعون بالاستعلاء على الواقع بألفاظ وعبارات رنانة .

وعندما أراجع أسماء الذين كانوا خلال هذه المساحة الأكثر سخونة ، وتشنجا ، وأكتشف أن غالبيتهم العظمى توقفت عن أي نشاط سياسى فور الإفراج عنهم ، أتعلم كيف أتعامل بحرص مع مثل هذه الشعارات وأصحابها .

* * *

لكن أشياء مثيرة للدهشة لفتت أنظار هذا الصبى فى فترة اعتقاله الأولى .

كانت منطقة هايكستب منطقة عسكرية ، كل السيارات وكل البشر ممنوعون من الخطو نحوها ، فالبلد تحارب إسرائيل والمنطقة عسكرية ، سيارة وحيدة كانت تحمل تصريحا دائما للمرور هى سيارة الحاخامخانة اليهودية ، وهى سيارة نقل ضخمة تحضر كل يوم إلى عنبر المعتقلين الصهاينة تحمل لهم طعاما طازجا وملابس وصحفا وكل ما يحتاجون (ولاحظت حتى وأنا طفل هذه المفارقة ، ولاحظت أيضا أن التصريح منح فقط لمعتقلى عنبر الصهيونية . بينما كان هناك يهود شيوعيون فى عنابر أخرى ولم يحظوا بهذا الاهتمام) .

وكان قومندان المعتقل ضابط صعيدى اسمه عبدالحفيظ أبو ستيت ، كان يعامل المعتقلين بغلظة ، متطاولا عليهم دوما ، مذكرا البعض منهم بأنهم يأكلون فى المعتقل أفضل مما يأكلون فى بيوتهم . لكن غلظته هذه كانت

تتحول إلى أدب جم إذ يتعامل مع أوفاديا سالم المليونير وزعيم الصهيونيين فى مصر . وشاهدتُ بنفسى (وأنا أتردد على العيادة فى عنبر « ١ ») كيف كان أوفاديا باشا يجلس أنيقا ومترفعا على مكتب القومندان متحدثا دوما فى التليفون ليدير أعماله المتشعبة ، بينما السيد القومندان يتحاشى الدخول إلى غرفته حتى ينهى الباشا الصهيونى إدارة أعماله .

وبعد الظهر كان أوفاديا باشا يرتدى بدلة أنيقة ثم يركب مع القومندان سيارته وبلا حراسة ليعود معه قرب المساء ، وقيل إنه عقد اتفاقا مع أحد كبار الكبار ليمضى نصف اليوم في بيته (وفيما بعد ، وخلال دراستى لتاريخ هذه الفترة وجدت ما يشير إلى أن أوفاديا سالم هو ومن يمثلهم قد دفعوا لرئيس الوزراء رشوة كبيرة لتسهيل إجراءات ترحيل العديد من اليهود المصريين إلى الخارج تمهيدا لإرسالهم إلى إسرائيل . والحجة التى استخدمها رئيس الوزراء كانت : تطهير مصر من اليهود) .

* * *

ويأتى هذا الفصل قصيرا ، لأنه لا ذكريات فيه ، فالقطة التى انسابت داخل المعتقل لا أسهمت فى شىء ولا تعلمت شيئا ، ولا شاركت فى أى شىء .

ويبقى غريبا ومثيرا للدهشة أن هذا الفتى ما أن أفرج عنه ، وبرغم تحذيرات شديدة ، وحصار أكثر شدة من أسرته لمنعه من أى عمل سياسى ، إلا أنه ما أن التقى أحمد فرج - بعد أن أفرج عنه هو أيضا - حتى ألحَّ فى أن يواصل أو بالدقة فى أن يبدأ علاقة جادة مع حدتو . لقد تعلم الصبى درسا مثيرا للدهشة تشبث به طوال حياته (لقنه له بإتقان شديد الأستاذ أمين تكلا) هو : أن يمايز بين الأفراد وما يفعلون ، وبين الفكرة وما تهدف إليه .

عند أم بدير

ولا تمضى سوى أشهر قليلة من عام ١٩٥٠ . ويسافر أحمد فرج إلى القاهرة ليلتحق بالجامعة . تقلب علينا بعده عدة مسئولين ، يأتى الواحد منهم مرورا ليوم أو نصف يوم . يستمع إلى تقرير عن نشاطنا ، ويعطينا جرعة من المعلومات السياسية والتعليمات التنظيمية .

كنا نتلقى طرودا بالبريد تحمل أعداد مجلة "البشير" كانت تأتى على عنوان بقال مجاور لبيتنا اسمه سيد خليل جندته ببساطة شديدة . بعد مناقشة طويلة فى السياسة ، وإجابات على أسئلة محددة عن الشيوعية ، قلت له :

«تبقى شيوعى ياعم سيد ؟» «أبقى شيوعى يا ابنى بس اشرح لى إيه العبارة ؟» . وشرحت له على قدر فهميس المحدود جدا... وانضم لنا بهدوء ، وعندما انسحب ، انسحب بهدوء أيضا ، وظل أمينا على بريدنا يتلقاه ويحافظ عليه حتى يسلمه لى سليما .

أعدادنا تزايدت بصورة ملفتة للنظر ، وتكاثرت لجان أنصار السلام ، واجهتنا العلنية ، وأصبحنا قوة حقيقية فى مدينة المنصورة .

وأتى رفيق محترف ليستقر معنا فى المدينة هو الرفيق فاروق (فؤاد

حبشى . وكان مسئول قطاع بحرى لكنه استقر حيث النشاط الأكثر تدفقا) .

ذات يوم استقبلنى الرفيق فاروق هو والرفيق فوزى (مسئول التنظيم بالدقهلية) وطلبا منى أن أستأجر غرفة فى بيت ما ، لأقوم بمسئولية الطباعة السرية فيها .

كان الأمر شاقا ، فأنا ابن رجل يعرفه الكثيرون فى البلدة ، وسيكون مثيرا للارتياب أن أستأجر غرفة مستقلة . كما أننى سبق اعتقالى ولابد أن الأمن سيراقبنى من حين لآخر . لكن الرفيقين أكدا أنهما درسا هذين الاحتمالين ، وأنهما بحاجة إلى شخص مؤتمن ، وقدرا أن بإمكانى أن أفعلها دون أخطاء .

وبدأت أصطحب أحد زملائى فى الفصل من الفلاحين الآتين من قرى بعيدة ويحتاجون لاستئجار غرف يقيمون فيها . تعلمت منه كيف يساومون فى الإيجار ، وكيف يكتبون العقد . وذات يوم فعلتها . تسحبت إلى بيت حدده لى صديق فيه غرفة للإيجار ، وصعدت على سلم خشبى يترنح تحت أية ضغطة غير محاذرة ، قابلت الست أم بدير صاحبة المنزل القابع قريبا من جامع سيدى البياع ، وساومتها حتى أرهقتها وحكيت لها أننى من دكرنس ، ويرهقنى السفر يوميا بين المدرسة والقرية ، ولهذا أحتاج لغرفة آتى إليها يوما أو يومين لأذاكر وأستريح من السفر . وبهذا وجدت مبررا لئلا أحضر كل يوم . الست طيبة . قبلت جنيها واحدا كإيجار ، واشترطت فقط الهدوء عند الظهيرة لأن «سى بدير» ابنها الكبير بيحب ينام الظهر . واتفقنا .

... وكانت التجربة مثيرة حقا ، أن تتسلق السلالم الخشبية الضيقة ، وأن تلتوى معها دون دبيب كى لا تقلق «سى بدير» وأن تتعايش مع ساكنى السطح... مجدى (دبلوم صنايع ؛ يعمل فى محطة المياه ، وهو أيضاً موسيقار ، عازف كمان مميز . يعشق الكمان ، يتدرب طوال مابعد الظهر ،

وفى المساء يقدم عزفه مزة لسكارى النادى اللبنانى ، كما يقول هو) وعم محمد (وهو رجل كبير السن يعمل حاويا ، يمر بحقيبته ، وألعابه السحرية على المقاهى ليلتقط رزقه) . أحاطنى الاثنان بأعين ودودة ، ولكن متشككة ، لم يبتلعا أبدا قصة هذا الطالب المرفه الذى يدفع جنيها كاملا فى الشهر ليحضر بضع ساعات كل عدة أيام . لكننا تعايشنا فى مودة متباعدة ، وأفسحت بينى وبينهم مسافة ، لا تقطع العلاقة ولا تسمح لهم بإفساد مهمتى .

كان الهم الأول الذى لاحقنى هو ضمان أمنى وأمن المكان ، وبمعاونة من الرفيق أحمد أركو (الأب من أصل إيطالى استقر فى مصر وتزوج مصرية ، ولم يكمل أحمد تعليمه لأن الأب سيق إلى معتقل الإيطاليين طوال فترة الحرب الثانية ، وأصبح أحمد أسطى استرجى ، وانضم لحدتو هو وصاحب ورشة النجارة التى يعمل بها وهو الرفيق محمد الأخضر ، وكانت الورشة غير بعيدة عن بيت الست أم بدير) بمعاونة منه تعرفت– دون إفصاح عن السبب– على عبد السلام الفلسطينى(وهو سمكرى يسكن فى المحل الملاصق لباب الست أم بدير ، وكان مهاجرا فلسطينيا) والهدف من هذا التعارف أن أحييه صاعدا ونازلا ، فهو قابع بالقرب من الباب ، وربما تلمست منه عند الضرورة إن كانت عين ما تترقبنى ، أو شخص ما يترصدنى ، أو يتشكك فى .

كان الاسم الذى اخترته لنفسى "شكرى" وبه عشت وتعايشت لأشهر عدة فى بيت لايبعد كثيرا جدا عن بيت أسرتى . وبرغم صعوبة التجربة ، واحتمالات أن تلتقطنى أى عين تعرفنى وأنا أنفلت إلى البيت ، وأنفلت منه ، فقد تواصلت معها . وتعمدت أن أصادق "إبراهيم" الابن الأصغر لصاحبة البيت لعله يكون مبررا لترددى على المنزل إذا ما التقطتنى عين تعرفنى .

وعندما تسلمت الجهاز أصبت بإحباط شديد . مجرد برواز من الخشب ، وقطعة حرير مشدودة عليه ، وأسطوانة كاوتشوك . وقلم للكتابة على الاستنسل . وكان على أن أشترى من مصروفى (وربما كان هذا هو سر اختيارى) كل المستلزمات الأخرى ، ورق الاستنسل ، وأنبوبة الحبر ، ورزم الورق وهو من نوع خاص اسمه : ورق يتشرب (أى يتشرب الحبر) وهو ورق خشن ولونه يميل إلى الصفرة .

ولكن... وبرغم الإحباط ، والانشغال بالمذاكرة ، وحصار الأسرة ، كنت أجد ساعات كافية أقضيها فى الكتابة الحريصة على الاستنسل ، ثم فى طباعة الأوراق بالطريقة البدائية ، التى إن أتقنتها أثمرت لك أوراقا مطبوعة طباعة جيدة . ودون مدرب ، وفقط بتعليمات شفوية (فقد حرص الرفيقان فاروق وفوزى على ألا يعرفا مكان الجهاز ، لأتحمل وحدى المسئولية ، ولأتلقن درسا بألا أخبر أحدا أيا كان بمكانه) استطعت رويدا رويدا أن أتقن هذا الفن البدائى إتقانا جيدا ، وأن أنتج ثمارا حسنة الطبع وسريعة التوافر .

لكن الأمر لم يكن بهذه البساطة ، فثمة عيون ست (عم محمد ، مجدى ، إبراهيم) تلاحقك فى تساؤل غير مرهق ، لكنه مثير للقلق ، وكان العبء الأكبر هو التعايش مع هؤلاء الجيران ، فليس طبيعيا أن تأتى بعد غياب عدة أيام لتغلق بابك عليك ، من الضرورى أن تجلس ، وتحكى ، وتشرب شايا ثم تتسحب بحجة المذاكرة ، وبرغم القفل المتربع فى منتصف باب الحجرة ، فقد كان من السهل أن أكتشف أن الغرفة قد فتحت وفتشت أكثر من مرة . لكنهم لم يجدوا سوى كتب مدرسية عليها اسم «شكرى إبراهيم الموافى» . أما الجهاز فقد كنت أخفيه فى مخبأ بالكنبة الاستامبولى التى صنعها ودبر مخبأها الماكر رفيقنا النجار محمد الأخضر .

وعندما كنت أنجح فى الإفلات من حصار الجيران ، وأنجح فى إغلاق

الغرفة... اعتدت أن أنتظر بعض الوقت ، فغالبا ماكانوا يدقون الباب ، فالأعين المتشككة تفترش الغرفة فى تلصص واضح وبرىء ، أما الحجة فهى متوافرة للحاوى الذى يأتى بأطواقه الخمس متداخله ليسأل : تقدر تفك الأطواق ياباشا (كان من المستحيل فكها . لكنه سرعان مايفكها . وقد رفض أن يبوح لى بالسر بحجة أنه أقسم على المصحف لمعلمه) أو متوافرة لمجدى «تحب تسمع المقطوعة الجديدة ؟» وأستمع ، وأتضاحك ، وأنا أكاد أن أنفجر ، فالعمل يجب أن ينجز ، ولا أريد أن أبقى طويلا تجنبا لشكوك أسرتى التى كانت تحاصر كل تحركاتى . وبعد انتهاء المماحكات... أو بعد خروج الحاوى إلى سرحته (كما كان يسميها) وانهماك مجدى فى عزفه كنت أخرج كنزى وأبدأ .

وأذكر أننى طبعت عديدا من المحاضرات ، وطبعات خاصة ببحرى من مجلة الكفاح ، وكورس تثقيفى كامل للمبتدئين : «عيوب المجتمع» ، «تطور المجتمع» ثم «المسألة اللينينية» و «المادية الجدلية والتاريخية» . كنت أكتب بسرعة وإتقان غريبين ، ثم أطبع وأدبس المحاضرات أو المجلة ، وأحملها فى حقيبة المدرسة لأسلمها فى محل محمد الأخضر ، وأعود إلى بيتى لأواصل مذاكرتى .

وكانت المشكلة التى تواجهنى هى الورق الدشت ، فهذه الطريقة البدائية فى الطبع يتخلف منها دشت كثير . وكنت أنتظر خلو المكان تماما لأحرقه ورقة ورقة ، مطاردا بفوطة كبيرة آثار الدخان من حين لآخر ، ثم أجمع الرماد بحرص شديد دون أن أترك منه أى فتات ، وأحمله فى حقيبتى لأسقطه وبحرص بالغ فى الطريق ، متباعدا عن البيتين... بيت الجهاز ، وبيتى .

وتواصل العمل لأشهر طويلة دون أخطاء تذكر ، فقط كان يحدث

أحيانا أن ألتقى وأنا أسير مع بعض الأصدقاء بمجدى أو عم محمد فأحيى تحية عابرة دون توقف ، ودون تقارب حتى لا تنفضح المسألة ، وكثيرا ما كانا يعاتبانى لأننى أتجاهلهما . وذات يوم كنت متجها لأقابل أبى فى قهوة أندريا لأجد الحاوى واقفا ممسكا بأطواقه المتداخلة ، صائحا بذات اللهجة المستجدية «تقدر تفك الأطواق دى يا باشا» تسحبت مسرعا خارج القهوة قبل أن يرانى أبى ، وتخيلت أن عم محمد لم يرنى هو أيضاً ، لكنه عاتبنى بعدها ، وبررت الأمر بأننى لم أشأ أن أحرجه ، أو أقطع عليه عمله .

لكن المشكلة الحقيقية أتت فى الإجازة المدرسية ، فالرفيق المسئول ضاعف العمل المطلوب ، فنحن فى إجازة ووقت الفراغ كثير ، كما ضاعف مسئولياتى الحزبية الأخرى ، ومضاعفة الطبع تتطلب وجوداً أطول ، والمفروض أننى أقضى الإجازة فى بلدتى ، بل الطبيعى أن أخلى الغرفة وأوفر جنيها كاملا كل شهر ، وكانت الحجة الجديدة هى أن زوج خالتى يمتلك محلا لتجارة الأقمشة فى سوق الخواجات ، وأننى أحضر لمساعدته... وبالطبع لاحقتنى أسئلة كثيرة... اسمه إيه ؟ محله فين ؟

وتمضى الأشهر تتلاحق دون مشكلات ، حتى كان يوم أهبط فيه على السلم حاملا لفافة مطبوعات ضخمة ، كنت أتسحب كالعادة دون دبيب ، لكننى سمعت صوت أقدام صاعدة ، هى أقدام واثقة تدب فى هدوء ، ونصبت قامتى كى ألتقى بالصاعد بعد ثنية السلم القادمة ونقلت اللفافة إلى يدى الملاصقة للحائط كى لا يبين منها إلا أقل مساحة ممكنة ، ثم ... وجدت أمامى الرفيق فوزى . سألنى فى ابتسامة مندهشة : بتعمل إيه هنا ؟ قلتِ : أنت جاى هنا ليه ؟ فقال ببساطة : أنا ساكن هنا ، وصاحب البيت ده . فقط الآن اكتشفت أن الرفيق فوزى هو سى بدير (بدير النحاس وكان موظفا

بشركة الأتوبيس)... أنت إذن سى بدير ؟ قال : نعم . ضحكت فى ذهول ، وحكيت له القصة . قلت : أنا هنا من سنة تقريبا ، والجهاز فوقك من سنة أيضاً .

قال بهدوء يليق بمسئول تنظيم مدرب : ياسى شكرى خذ حاجتك وامشى خلال ساعة واحدة . ولم أحتج لساعة ، فالعفش لن آخذه ، فلن أغامر بذلك ، وليس لدىّ مكان له ، فقط لففت الجهاز ، مزقت الاسم المستعار المكتوب على الكتب ، وتركت كل شىء ، ورحلت بلا عودة .

سلمت اللفافة لمحمد الأخضر ليعيدها مع مسئول الاتصال . وتعمدت ألا أقترب من هذا الحى فترة طويلة .

وانتظارا للبحث عن غرفة جديدة ، والتقاطا للأنفاس طلبت إجازة لألحق بأسرتى فى رأس البر . وذات مساء كنت وإخوتى نسهر فى فندق البوريڤاج لنتفرج على عروض مبهرة نفتقدها فى المنصورة ، فتيات متفرنجات وأجنبيات يملأن المكان ، وفيما أنا مشدود إلى من هن حولى بأكثر مما أنا ملتفت إلى المسرح ومن عليه ، حضر الجرسون ومعه مشروبات لنا جميعا ، وقال : من الأستاذ مجدى للأستاذ شكرى . لسعنى نطق الاسمين . تطلعت على المسرح لأجد مجدى زميل السكن محتضنا الكمان وهز رأسه بالتحية ، وفيما كان رأسى يدور بحثا عن مخرج أمام إخوتى ، دون أن أجد تفسيرا عاقلا أو معقولا ، كنت أتعجل الإفلات قبل أن ينهى عزفه ويحضر فتكون الكارثة ، لعله أدرك ارتباكى ، ولعل عيناى أرسلتا له رسالة استعطاف تلقاها فى تفهم ، وأرسل مع الجرسون ورقة يطلب موعدا ، وحددت موعدا فى الغد . (استعرت شخصية مجدى وهذه الواقعة مع تصرف كبير فى روايتى السكن فى الأدوار العليا) .

وفى صباح اليوم التالى تقابلنا ، وصحبنى إلى مكتبه فى محطة المياه ،

انتدب إلى هناك فى الصيف وكالعادة اصطحب معشوقته الكمان ، ليجعلها كما يردد دائما "مزة" للسكارى مقابل أجر أو بعض أجر .

جلست مرتديا شورتا أنيقا وقميصا أكثر أناقة ، لقد فقدت حرصى إزاءه ، أو لم أعد أجد له مبررا ، مسحتنى عيناه بدهشة متأكدة من أن هذه ليست ملابس ابن فلاح من دكرنس ، ولا المكان الذى كنت فيه بالأمس ، ولا من كانوا معى يمكن أن تكون لهم علاقة بدكرنس...

وفيما نشرب الشاى ونتشاغل بثرثرة مصطنعة ، انقض على بسؤالى مباغت : أنت مين ؟

ضحكت ولم أجب ، قلت أريد أن أعرف أولا ماذا تصورتنى ؟ وبعد فترة من المماحكة وعدته أن أفسر له كل شىء فقط بعد أن يبوح لى بهواجسه واستنتاجاته...

قال إن أول المتشككين كان عم محمد الحاوى ، عيناه اليقظتان قالتا إن يدىَّ الناعمتين ليستا يدىَ ابن فلاح ولا ملابسى أيضا ، وأذناه صممتا أن لهجتى ليست لهجة فلاح من دكرنس ، بل هى لهجة من وُلِدَ فى المنصورة وعاش فيها ، فليس فيها أية شائبة ريفية .

وكانت هذه الملاحظات بداية لخيط الشكوك ، فتحوا غرفتى فى غيابى أكثر من مرة ، الحاوى يعالج القفل بيديه البارعتين ، وإبراهيم يجلس فى قمة السلم يراقب احتمالات حضورى . لكنهما أبدا لم يصلا إلى المخبأ الماكر . ذات يوم لاحظا فى دهشة نقطة حبر طباعة ، ويوما آخر فتات من ورق محروق ؛ تساءلا دون إجابة هل هى عصابة لتزييف النقود ؟ ولكن أين المطبعة ؟ وبقيت الشكوك معلقة لتستثير رغبتهما فى التعرف على حقيقتى ، حتى جاء يوم صعد فيه الأستاذ بدير بنفسه ليخلى الغرفة معلنا أننى عزلت (طلبت منه أن يفعل ذلك ليتأكد من أننى لم أترك أى أثر ضار بالأمن) .

بعد أن أكمل ، تجمعت الدهشة فى عينيه تنتظر إجابتى على سؤاله المحدد . بهدوء وبعد أن رشفت آخر ماتبقى فى كوب الشاى قلت ضاحكا : أنا شيوعى .

خبط رأسه بيده وانفجر ضاحكاً وقال : أنا من الأول قلت كده ، قلت يمكن يكون سياسى ، شيوعى أو إخوان ، لكن عم محمد رفض بشدة قائلا : لاء ياسيدى ، شعوعى إيه ، ده بيه ابن بيه .

ومن جديد ... إلى المعتقل

كانت مصر كلها تغلى ، النحاس ألغى معاهدة ١٩٣٦ ، استعدنا طويلا صوته المتحدى « من أجل مصر وقعتُ معاهدة ٣٦ ، ومن أجل مصر أطالبكم اليوم بإلغائها »... هذه العبارة تلخص دروسا كثيرة ، وفنونا عدة فى معايير وأدوات العمل السياسى . فما تقبله بالأمس قد ترفضه اليوم . وتفجرت مصر وتفجرنا معها حماسا مدويا لا يهدأ .

ويأتى العام الدراسى ٥١ ـ ١٩٥٢ ليجد حدتو منظمة قوية التكوين ممتلكة لأدوات عمل جماهيرى متسع ومتشعب ، فى مدينة المنصورة ، وتمتلك قدرة التقدم بمرشح فى انتخابات المجلس البلدى هناك ، يكاد أن ينجح لولا تحالف الجميع ضد هذا الشيوعى الذى يتحدى الجميع . (كان الأستاذ عوض طه عبدالقادر المحامى سكرتير لجنة أنصار السلام بالدقهلية) .

ومع تفجر العمل الفدائى بدأت مجموعات من الشيوعيين فى السفر إلى القناة لتواجه الاحتلال ، ولتؤكد الشعار الذى رفعته حدتو منذ ١٩٤٥ «الكفاح المسلح طريق الخلاص» .

والمظاهرات لا تتوقف ، لكنها تتفجر بشكل أكثر حدة بعد مذبحة قوات الأمن فى الإسماعيلية .

وانفجرت المنصورة كلها فى مظاهرات عارمة تطالب بالانتقام ، وفيما كانت القاهرة تحترق صباح ٢٦ يناير ، كانت حملة اعتقالات واسعة تشن ضد مختلف القوى السياسية فى المنصورة ، وقبل أن يصلنا نبأ الحريق ، وحتى قبل أن تعلن الأحكام العرفية (فهل كان الأمر مجرد مصادفة ؟) .

وكالعادة... المقبوض عليهم كثيرون ، لكن الكثيرين منهم يخلى سبيلهم ويبقى البعض ، تحديدا يبقى أربعة .

محمود المليجى المحامى رئيس الحزب الاشتراكى بالدقهلية ، محمود ندا المحامى رئيس الشباب الوفدى بالدقهلية ، عوض طه عبدالقادر سكرتير حركة أنصار السلام بالدقهلية ، وطالب فى السنة التوجيهية فى الثامنة عشرة من عمره... هو أنا .

واحتاس حكمدار البوليس بنا... أين يضعنا حتى يستصدر أمر اعتقال من الحاكم العسكرى ، فى نظام يسوده الارتباك وتتغير فيه الوزارة بسرعة خاطفة .

وقرر إبعادنا عن المنصورة خوفا من أى تأثير لنا على هدوء المدينة ، وفجأة وجدنا أنفسنا نرحل لنودع فى حجز مركز ميت غمر .

وبقينا فى ميت غمر زمنا معزولين عن كل شىء ، والطالب الصغير السن يكتفى طوال الفترة بالإنصات إلى مشاحنات ودودة بين المحامين الثلاثة .

كان محمود المليجى نموذجا لجيل مصر الفتاة الصاخب والمتقلب ، وعوض طه يحاول أن يخفى قدرا من الماركسية ليتلاءم مع كونه سكرتيرا لحركة أنصار السلام ، أما محمود ندا فكان شخصا مميزا ، كان وفدياً أو من المفترض أنه كذلك ، لكنه كان فى واقع الأمر يتكلم كماركسى ، يمزج ماركسيته بالوفدية ، أو يمزج وفديته بالماركسية... وكانت حوارات ممتعة

وشيقة ومفيدة ، وإلى هؤلاء الثلاثة سأظل دوما أشعر بامتنان عميق ، فقد تعلمت منهم الكثير ، وتعاملوا معى برفق ومودة .

وتنتهى هذه الصحبة بعد عدة أسابيع حيث نرحل من جديد إلى القاهرة ، وفى الطريق إلى معتقل الماظة تعلقت أبصارنا وأنفاسنا فى دهشة غاضبة بالمبانى المحترقة التى ملأت صدر العاصمة بلون رمادى كئيب .

* * *

ومعتقل الماظة مبنى صغير كان « كارنتينا » للمطار القديم ، وعندما توقفت الحاجة إليه ، وأعلنت الأحكام العرفية على عجل ، تحول - على عجل أيضا - إلى معتقل .

والمعتقلون خليط غريب . إخوان ، اشتراكيون (مصر الفتاة) ، نقابيون ، فدائيون ، شبيحة (وهو لفظ كان يطلق على لصوص تخصصوا فى سرقة معسكرات الإنجليز فى القنال ، وقد تعاون بعضهم ومنهم الأكثر شهرة واسمه « الباشا » مع الفدائيين فاستحقوا الاعتقال) ، وشيوعيون ، وبعض الطلاب من قادة المظاهرات .

وقد تواءم الجميع للعيش معا دون منغصات ، وإن لم يخل الجو من مناقشات متشددة فى بعض الأحيان ، لكنها أبدا لم تخرج عن إطار التواؤم .

أنا فى هذا المعترك مختلف تماما عن المرة السابقة ، فأنا أكبر سنا ، وأكثر خبرة ، وأجد ما أقول ، وما أفعل ، وثمة رفاق ، عملنا معا لنجعل الحياة فى المعتقل أكثر فعالية .

الزمن محدود ، والذكريات محدودة ، لكننى أذكر أن رفيقا هو عبدالغنى النشرتى (وقد اشتهر عام ٤٨ بتزعمه لإضراب ممرضى قصر

العينى) أتى يوما بشاب صغير السن من معتقلى الحزب الاشتراكى ، وقال إنه قد أجرى معه مناقشات جانبية وأقنعه بالانضمام إلى حدتو .

كان الشاب واسمه محمد الزبير (أب نوبى وأم مصرية) يتقد حماسا ويريد أن يصدر بيانا يعلن فيه إدانته للحزب الاشتراكى ، ويذيع فيه بعض الأسرار عن علاقة الحزب بحريق القاهرة (كان يؤكد أنه قد استدعى إلى مقر الحزب الاشتراكى فى عابدين مساء يوم ٢٥ يناير حيث أصدر لهم مسئول من الحزب اسمه فؤاد نصحى - فيما أذكر - تعليمات بإشعال حرائق فى قلب العاصمة ، ووزعت عليهم زجاجات بنزين وكرات من القماش لاستخدامها فى إشعال الحريق) ثم يعلن فى بيانه انضمامه لحدتو .

عقدنا اجتماعا ، وأذكر أن الحاضرين فى الاجتماع كانوا شحاتة النشار ، يعقوب بطمانيان وأنا وقد اتفقنا بالإجماع على خطورة هذا الأمر ، ففضلا عن تداعياته السياسية ، وتأثيره القانونى على مركز الحزب الاشتراكى الذى كان زعيمه وعديد من قادته مقبوضا عليهم بتهمة إحراق القاهرة ، فإنه سوف يحدث شقا خطيرا فى وضع المعتقلين عموما ، وقد يسبب تصادمات لا مبرر لها ، أو يسبب حالة اعتزال عنا إذ ستتصور الأحزاب الأخرى أننا قررنا اجتياز حواجزهم وتجنيد أعضائهم .

وأخيرا تقرر قبول عضوية محمد الزبير سراً على أن يبقى كما هو عضوا فى الحزب الاشتراكى حتى يفرج عنه (فيما بعد أصبح محمد الزبير كادرا أساسيا فى حدتو ، وعمل لفترة طويلة وبكفاءة عالية مسئولا لجهاز الطباعة المركزى) .

ومن النوادر الطريفة أننا ومع أحد التغييرات الوزارية المتتالية فوجئنا بشحاتة النشار (كان آنذاك تاجرا بسيطا فى شارع السد بالسيدة ، وأصبح فيما بعد رجل أعمال ناجحاً) فوجئنا به يقول بهدوء هادئ ويقينى : «أنا حا

أخرج النهارده» .

ودون أن نعنى بالسؤال : لماذا ؟ أجاب هو عن السؤال المفترض ، مرتضى المراغى أصبح وزيرا للداخلية ، وخالى يعمل طباخا فى بيته .

انهمر سيل من السخرية والنكت والقفشات أسكت الرجل ، وربما أقنعه باستحالة هذا الخاطر... وظللنا لساعات عدة نلاحقه بالتريقة الرائقة والنكت التى لا تنقطع ، لكنه سرعان ما ألجمنا جميعا... فى العصر استيقظ الضابط النوبتجى على رنين تليفون ، وتلقى أمرا فوريا بالإفراج عن شحاتة النشار ، وأن يخلى سبيله من المعتقل . ولم نجد ما نداري به خجلنا سوى أن نرتمى فى أحضان شحاتة مهنئين وهو يوزع علينا سبابا حانيا ينتقم به من ساعات ملاحقة مرهقة أرهقناه بها .

وجمع شحاتة متعلقاته ، وبقى أن نجمع له قروشا كى يركب بها «تاكسى» إلى بيته ؛ فأمر الإفراج فورى ، والضابط المرتجف ، يأبى أن ينتظر حتى تحضر سيارة من الحكمدارية ، أو حتى يتصل بأهله كى يحضر أحد منهم .

وبعد دقائق كان شحاتة يقف على الرصيف الآخر ، يلوح لنا بيده .

ونحن ننشد بأنفاس متلاحقة ومنفعلة نشيدا كنا نتمنى دوما أن ننشده :

إذ يترك السجن رفيقى
إذ ينطلق من قيدنا
كالريح فى الطليق
إذهب إلى رفاقنا
قل لهم إننا ننتظر
كر الليالى والنهار

حقدنا كاد أن ينفجر

والفجر يبدو ينادى

هيا ارفعوا أعلامنا

قد خضبت من دمنا

واستوقف شحاتة تاكسيا ، لكنه أوقفه حتى اكتمل النشيد ، وكأنه يستكمل مراسم وداع رسمى ، ثم مضى .

* * *

وبعد فترة انتقل كل من بالمعتقل إلى المعتقل الرئيسى «هايكستب» .

من جديد هذا المكان الذى لم أحب .

ومن جديد إلى ذات العنبر ، عنبر ٢ .

وأحسست بانقباض وأنا أخطو إلى داخل العنبر ، لكن الوضع كان مختلفا تماما ، الناس مختلفون ، وأنا مختلف ، وعلى أية حال لم أبق طويلا .

كان أشد ما يقلق أبى هو استكمال دراستى ، وكان يقلقه أننى فقدت عاما دراسيا فى الاعتقال الأول ، وها هو عام آخر يوشك أن يضيع . وعبر شبكة اتصالات تلقى أبى الإشارة بأنه من الممكن الإفراج عنى بسرعة لألحق بامتحان العام الدراسى الحاسم قبل أن يفلت .

توسط فى الأمر تاجر شديد الثراء وواسع الاتصالات كان صديقا حميما لأبى اسمه فهمى سيد أحمد وتوصل إلى تاجر فى الحمزاوى اشتهر بأنه صديق حميم لحافظ باشا عفيفى رئيس الديوان الملكى . وكان حافظ باشا يحرص أن يمر كل يوم على محل التاجر ويتوقف بسيارة القصر الملكى ليجلس مع الرجل بضع دقائق ، لعلها كافية ليعلن للكافة

صدق ما يقوله الرجل... وهو أنه حلقة الاتصال ، ومنظم الوساطات لدى حافظ باشا .

أبى وصديقه شدا رحالهما إلى القاهرة ، فالحمزاوى ، فالتاجر ، تكلما كتجار محترفين وعقدت الصفقة أن يفرج عنى خلال أيام مقابل خمسمائة جنيه (وهو مبلغ كبير بمعايير هذا الزمان) ، وبالفعل وبعد يومين أتت سيارة من الشرطة ومعها قرار بالإفراج عنى .

كنا فى مايو ولا يتبقى على امتحان التوجيهية (الثانوية العامة) سوى أربعة أسابيع ، ودخلت التحدى مع نفسى ، ومع أسرتى ، ونجحت .

دفع أبى الخمسمائة جنيه ، وبعدها بأسابيع كانت ثورة يوليو... وكان الإفراج عن جميع المعتقلين .

مجرد قطرات من الملح

... ومع محاولات استدعاء الذاكرة ، والاكتساء بألوان وأدوات الغوص فى أعمق أعماقها ، استدعاءً لما كان ، فإن رداء المؤرخ يفرض نفسه على محاولات الاختيار... ألسنا ومنذ البداية قد كبلنا أنفسنا بالقيد الإغريقى العتيد... «البحث عن الوقائع الجديدة بالمعرفة» ؟ وتبدأ رحلة الانتقاء... ونفى كل ما نعتقد أنه ليس جديرا بالمعرفة . لكن البعض من قطرات الذاكرة يزاحم ، ويحاول رفض تجاهله ، ويفترض ضرورة أن يفرض نفسه .

وتدور فى أعمق الأعماق معركة الاختيار والانتقاء ومع إصرار بعض هذه القطرات على فرض نفسها ، تبدو الوجبة بأكملها وكأنها تنقص شيئا ، بضع قطرات من الملح كى يتلون المذاق وفق القدرة على التذوق .

وتتزاحم الأسطر ترفض أن تفسح مساحة لما يفرض عليها بعد أن استقرت... واستراحت .

ولا مفر... يحتاج الأمر لبضع قطرات من الملح ربما لأنها تكمل بعضا من البعد الغائب كمكونات اللوحة التى يحاول الكاتب أن يرسمها لنفسه . أو ربما ليكتشف هو نفسه بعضا مما تكون فى غير المرئى من مكونات تكوينه .

ولا مفر... من التوقف لضبط إيقاع المذاق... ببضع قطرات من الملح .

...في بداية البراعم الأولى لأيام الدراسة ، كنت في مدرسة الإرسالية الأمريكية أو كما كان الناس في بلدتنا يسمونها « مدرسة الأمريكان » ، تلك المدرسة العتيدة التي استقرت في منحنى من شارع السكة الجديدة اسمه « حارة الصيادين » بجوار مبنى صغير عتيق هو مقام سيدى الشيخ شِنِّك .

والقس البروتستانتي المختلف بزيه وباختفاء لحيته ، كان يداعبنا كلما تجولنا في الكنيسة الصغيرة الملحقة بالمدرسة التي كنا نسميها « تشابل » ، لكنه كان يصمم رغم تسامحه الظاهر على أن يستنطق طفولتنا بما لا تعرف ، وبما لا تعترف .

فقد كان يوقفنا طابورا كل صباح ليمر على كل منا قائلا : « أنت خاطئ » ؟ وترد البراءة الطفلة دون تفكير « أنا خاطئ » . (أليس الكل خطاة قدام الرب ؟) . وذات صباح - ولست أدرى لماذا - لمعت في رأسى المشاكس فكرة... أنا لم أخطئ في شيء . وسألنى القس في رتابته المبتسمة « أنت خاطئ » ؟ وأجبت « لا » .

شحنة كهربائية تمددت لتكسو المكان الهادئ هدوءا خاشعا ، وأصر القس في هدوئه البارد على أننا جميعا خطاة ، وحاول أن يفهمنى بكلمات متراخية أنها مسألة عادية ، وربما روتينية ، وأن أحدا لن يعاقبنى ، بل على العكس فأنا أصبح أقرب إلى الرب إذ أعترف... لكن الإصرار العنيد تلبس طفلا عنيدا بطبعه ، واكتفى بأن انهمرت دموعه... شحنة الكهرباء تمددت نحو صديقى « ديفيد » ابن حضرة الناظر « الأستاذ سدراك » غضب لدموعى وأسرع باكيا هو أيضا إلى أبيه .

تفاهم الكبار الناظر والقس همسا ، ثم أتيا إلىّ ليمنحاني حنانا دافئا... وتوقف طابور الاعتراف الصباحي نهائيا . وحتى في يوم الأحد... ترك حضور

الـ«تشابل» حرا لمن شاء ، وكثيرا ما كان حوش المدرسة يمتلئ بشغبنا نحن الأطفال... بينما ترانيم القداس تتهادى ، وكان «ديفيد» يشاركنى اللعب... وعينا والده المبتسمتان دوما تمنحانه حرية الاختيار .

* * *

وفى الشارع الرئيسى المجاور لشارعنا الذى تلقب بأهم ما فيه من مبان «شارع المستوصف» وفى عمارة «القاضى» كان هناك شيخ مثير للدهشة منذ ولدنا... أو بالدقة منذ سمح لنا بالانطلاق إلى الشارع . كنا نتابعه فى رهبة... طويل القامة يرتدى جبة خضراء فاقعة اللون ، وعمامة خضراء ، وشعره طويل للغاية ، مرتب فى ضفائر أربع تتدلى خلف ظهره فى وقار وقور .

وعلى ناحية صدره اليمنى ثمة مخدة صغيرة مثبتة فى القفطان وراحته اليمنى مستندة عليها وكأنها تسندها أو تحاول تثبيتها... لكنها ـ فى الواقع ـ كانت تعطى يده وضع الاستعداد المستديم كى ينحنى المارة فيقبلونها دونما حاجة إلى أن يحركها كلما التقى بأحد المريدين .

فى البداية ، كنا نخاف منه . وحتى فى أعمق لحظات انهماكنا فى لعب الكرة الشراب فى شارع القهوجى كنا نفزع لصيحة أحدنا «الشيخ أبو ضفاير» ونترك كل شىء ، حتى الكرة ، وحتى «الجون» الذى كان يوشك أن يتحقق... لنسرع بعيدا ، ونتطلع إليه من بعيد ، وهو يتهادى مترفعا لا ينظر إلى أحد ، موحيا للجميع أنه فى حالة تأمل ، أو تجلى ، وعمال فرن أبو خضرة يتدافعون ليقبلوا يده... يفعلونها مرات عدة كل يوم دون ملل ، ويزدادون سعادة كلما فعلوها أكثر ، وكذلك كان الناس جميعا باستثناءات قليلة ، فأبى مثلا لم يفعلها أبدا... وعندما كبرنا قليلا وأصبحنا نقلد الرجال فى تدافعهم لنقبل يد الشيخ أبو ضفاير... جذبنى أبى من أذنى مرة وقال :

«لا تفعلها مرة ثانية... ده راجل نصاب» . لكننى رغم هذا التحذير كنت أتلفت لأتأكد من أن أبى ليس واقفا على أحد أبواب الورشة ، وأسرع لأقبل يد الشيخ... وكانت ابتسامة راضية ترتسم على شفتى الشيخ ، ربما لأنه انتزع من «الحاج» المترفع ولاء ابنه .

وكانت المنصورة تعانى فى هذه الأيام من تراكم «المهاجرين» من أبناء الإسكندرية الذين طاردتهم غارات الألمان والطليان فطردتهم بعيدا إلى مدينتنا ، وكانت تعانى من سلسلة لا تنقطع من صفارات الإنذار ، وكان متطوعون ينطلقون إلى الشوارع وهم يلبسون كمامات مخيفة ويصرخون بمبرر وبلا مبرر «طَفِيَ النور» ، حتى يخيل لكل بيت أن الشمعة الصغيرة التى أشعلها كى لا يتخبط الناس فى الجدران هى التى تستدعى طائرات الأعداء... وتطلب الأمر ضبطا وربطا شديدين كى لا يختل الأمن فى مدينة هادئة . وأتى ضابط متشدد ، أشعر الجميع بسطوته ، كان يمر فى الشارع فيسرع الناس بالانزواء كى لا يحتك أحد به . فالويل لمن يحتك بالضابط «موسولينى»... «هكذا أسماه الناس» .

كانت سطوة «موسولينى» حديث الناس ، فسعدوا بأن أطلقوا عليه هذا الاسم ، والغريب أنه سعد أيضا بهذا الاسم .

وذات يوم توقف «البوكس» هكذا كنا نسمى سيارة الشرطة... وتهادى موسولينى فى شارع القهوجى ، اختفى عمال الفرن... وقف أبى على باب الورشة ربما ليثبت لنفسه وللآخرين أنه ليس كالآخرين ، مر موسولينى محييا فى مودة ، ورد أبى التحية فى تراخ يحاول أن يوحى أنه مترفع .

وفيما ينحنى نحو شارع المستوصف ظهر الشيخ أبو ضفاير متهاديا فى كبريائه المعهود ، ويده مستريحة على المخدة تنتظر تقبيلها... صرخ موسولينى «تعالَ ياواد أنت» تجاهل الشيخ الدعوة . فعاد الصوت الصارخ :

« أنت ياواد ياأبو شعر زى شعر النسوان » ، وقرر الشيخ أن يدافع عن سطوته التى هى مصدر رزقه (فقد كانت الهدايا والأموال تتراكم فى بيته وهو يقبلها متأففا ، بل لا يتقبلها إلا ممن يخضع فيقبل يده ، فذات يوم ضحك أبى عاليا لأن الشيخ أبو ضفاير رفض عطيته لأنه لا يقبل يده) .

صاح الشيخ « إخرس يافاسق » . « فاسق ياإبن... » واندفع « موسولينى » بنفسه نحو الشيخ واقتاده من قفاه ومنحه عشرات من الصفعات ، والناس الخائفون يتوقعون فى كل لحظة أن يسقط موسولينى مشلولا ، لكنه لم يسقط... بل سقط الشيخ على الأرض مستعطفا حضرة الضابط الذى سحبه نحو صالون الحلاق القابع فى أحد منحنيات الشارع ملاصقا لجامع الشيخة حليمة المهجور . خشى الحلاق أن ينفذ أمر موسولينى بقص شعر الشيخ ، صاح مستعطفا « إيدى تنشل يابيه » تناول الضابط المقص وتهاوت الضفائر على الأرض ، وكذلك العمامة لتمضى ماكينة الحلاق فى يد الحلاق الذى تشجع قليلا ، لتزيح كل شعر الشيخ... وتحلق له كما كنا نقول « زيرو » .

لم يفعل موسولينى أكثر من ذلك ، أنهى الأسطورة ، وترك المسكين ومضى .

واختفى الشيخ... لم يخرج من بيته قط... وقيل إنه رحل ليلا هو وأسرته إلى مدينة أخرى .

* * *

فى مدرسة الملك الكامل ، وفى السنة الأولى لى هناك ، جلس إلى جوارى « جوزيف »... وأصبحنا أصدقاء ، تبادلنا الهمسات المعتادة أثناء انحناء المدرس نحو السبورة ، تلاصقنا معا أثناء الفسحة ، حكينا كثيرا

وطويلا... عن كل تفاصيل حياتنا ، تبادلنا همساً أسراراً كان أكثرها من صنع خيالنا المراهق ، وباختصار امتلك كل منا نحو الآخر صداقة خضراء غضة يندر أن تنمو فى عالم الكبار .

وذات يوم ، وفيما يتدفق مدرس اللغة العربية شارحا إحدى الآيات القرآنية استدرجه طالب إخوانى اسمه لاشين... بأسئلة متدرجة ، وربما ماكرة ، وانسجم الأستاذ محاولا استعراض معلوماته أمام فهم غض للدين يغلف عقولنا جميعا... باختصار استدرج لاشين الأستاذ نحو موضوع المسيح ومريم والأب ، والابن ، والروح القدس... وفيما قدما الأستاذ تجتازان الخطوط الحمراء... تدفق اللون الأحمر إلى وجه جوزيف ، وانتفض صارخا «لا » ، كانت «لا » التى صرخها حادة وجارحة ، أو بالدقة مجروحة جرحا عميقا وداميا . صعق الجميع ، وأولهم الأستاذ الذى ما كاد يحاول أن يستوعب ما يجرى ، حتى وجدت نفسى أصرخ فى وجه الأستاذ «حضرتك غلطان» حاول الأستاذ أن يسكتنى قائلا : «اقعد أنت ، هو أنا ناقصك ؟» ، وكأنه يحاول أن يذكرنى أننى مسلم... لكننى صرخت أكثر ، ربما فى محاولة غير مرتبة لإقناع جوزيف أنه ليس وحده . (كان فى الفصل طالب مسيحى آخر لا أذكر اسمه الأول وإنما أتذكر أن أباه هو صبحى بانوب صاحب محل النظارات فى السكة الجديدة ، ولم ينطق هذا الآخر واكتفى بصمت منزو ولا مبال... ولعل هذا ما دفعنى إلى مساندة جوزيف ، كى لا أشعره بالعزلة) .

على أية حال استعاد الأستاذ سيطرته على الفصل المتوتر... بيد حازمة أسكت لاشين الذى كان مصمما بحماقة أن يدس مزيدا من الملح فى الجرح... وبنظرة حانية أسكتنى وأسكت جوزيف . وبعد أن سكت الجميع تكلم هو... اعتذر بإخلاص لجوزيف ، بل كان واعيا فاعتذر لنا جميعا...

تحدث طويلا ودموع توشك أن تغلف عينيه ، أوجعه ألا يكون حريصا فيوجع واحدا من أبنائه ، أمسك قطعة طباشير ، كتب على السبورة ودعانا جميعا أن نكتب فى كراريسنا آية من القرآن : « كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله » ، كتبنا جميعا ، أنا كتبتها بخط كبير لأغيظ لاشين الذى كان الوحيد الذى لم يلب دعوة الأستاذ للكتابة ، بعدها وعندما تندرنا عليه بالتهكم المعتاد لمن هم فى سننا برر عدم كتابته بأنه يحفظ القرآن . أى بأنه أكثر إسلاما منا جميعا .

* * *

... عدت ذات يوم فى نهاية عام ١٩٥٢ إلى المنصورة فى إجازة . (كنت قد التحقت بكلية حقوق جامعة إبراهيم) وفيما أجلس إلى أبى فى مكتبه بالورشة نتجاذب الحديث ، دخل شخصان... رحب أبى بأحدهما كصديق قديم ، وبالآخر فى تحفظ من يتقابل لأول مرة .

القديم منهما هو أحد نظار زراعة البدراوى عاشور ، وكان أبى وطوال سنوات عديدة متعهدا بإصلاح كل ماكينات ضرب الأرز ، ومطاحن ، وجرارات دائرة البدراوى باشا .

وكان الإصلاح الزراعى قد أتى... استولى على الأرض وعلى كثير من الماكينات ومنها مطحن كبير . بعد التحيات والسلامات قال الصديق القديم : « كرنك ماكينة الطحين ماركة (كروسلى) إللى عندنا يساوى كام »... قال الحاج : « ده إذا لقيتوه » ، فالطراز قديم ، والكرنك لا يمكن تصنيعه فى مصر ، وقد يحتاج الأمر لاستيراده من الخارج .

فكر أبى قليلا وقال : « هناك ماكينة من ذات الطراز فى المنيا وأصحابها عايزين يبيعوها ، ممكن تشتروها وتاخدوا منها الكرنك » .

وبعد محاورات ماكرة أفصح الرجل عن الحقيقة ، الكرنك سليم ، لكن البيه مفتش الإصلاح الزراعى الجالس صامتا طوال الوقت يقترح عمل محضر إنه كسر... ثم فاتورة من الحاج بثمن باهظ جدا ، ثم يقتسم الثمن على ثلاثة .

صرخ أبى بشتائم عالية وطرد الاثنين ، وفى ثورة الغضب لم نلحظ أن الاثنين انسحبا وانسحب خلفهما صديق قديم لأبى كان يجلس معنا ، ويمتلك ورشة صغيرة جدا فى شارع سيدى عبدالقادر اسمه «الأسطى محمود شحاتة» .

وما أن اختفى الضيوف حتى انحنى أبى نحوى قائلا : «آدى ياسيدى الثورة بتاعتك» .

كان أبى مع الإصلاح الزراعى ، لكن هذا الفساد المبكر أفزعه ، وأفزعه أن يلتصق الفساد بالشيء الجميل «الإصلاح الزراعى» .

وتمضى الأيام ، فقد أبى أهم زبائنه لأنه رفض اللعبة الجديدة مع أكثر من زبون ، وتمددت ورشة الأسطى محمود لتتحول إلى منجم ذهب ، وتوالت العمارات التى يمتلكها... وظهرت سيارة بويك أمام ورشته الجديدة .

ويزداد أبى عداء لعبدالناصر .

ليس غيرة من الأسطى محمود فقد ظل دوما قادرا على أن يفعل مثله وأكثر... وإنما رفضا لما توالى من فساد . وتعبت كثيرا - دون جدوى - فى مناقشات امتدت حتى آخر الأيام كى أفرق بين «الإصلاح الزراعى» كعدل اجتماعى ضرورى... وبين الفساد الذى ظهر وتكاثر فأفسد مذاق كل شىء .

لكن أبى ظل رافضا ومؤكدا «أن كلهم حرامية» ، ورغم إصرارى أن بعضا من الديمقراطية يمكنه أن يقلل من الفساد ، لم يقتنع أبى ، وظل على

عداء لعبدالناصر إلى درجة أنه كان لديه خادماًفى المنزل اسمه جمال... فكان يناديه «ياواد ياعبدالناصر ياابن... .» واعتاد منه الخادم هذه المناداة الودودة . وحتى رحل أبى كنا دوما على خلاف حول هذا الموضوع... لكن تعاظم ثراء الأسطى محمود كان دوما يفرض حالة من التآكل على ما أطرح من حُجج .

وعام جامعي وحيد...

... رغم الاعتقال نجحت ، وأمكننى أن أنطلق إلى الجامعة .

إنها مرحلة تحرر جديدة تماما ، فأنا أقيم منفردا ، بعيدا عن نظرات الحرص المتشككة من أسرتى .

لا جامعة فى المنصورة ، ولا مفر من الاستقلال . لكن الآباء يمتلكون دهاءهم الخاص . أبى وصديقه الحميم الحاج عبدالغنى اتفقا أن يقيم ابناهما معاً .

والتركيبة تبدو قادرة على أن تتوازن ، فأنا مَنْ تعرفون ويعرفون ، أما سعيد ابن الحاج عبدالغنى فكان من الإخوان المسلمين - أو هو يدعى ذلك - ورأى الأبوان أن سكننا معا سيقيد حركة كل منا بالآخر على طريقة وداونى بالتى كانت هى الداء .

... وفى شقة أنيقة فى شارع هادئ وجميل (شارع سبيل الخازندار بالعباسية) بدأت حياتى الجامعية المستقلة . أيام محدودة كان كل منا ؛ أنا وسعيد نتربص ببعضنا البعض . ثم كشف كل منا أوراقه للآخر . هو رجل يريد الحرية لنفسه ، وهو ليس متدينا كما يدعى ، بل هو غطاء يتعامل به مع أسرته ، وبما أننا نسكن سويا فقد استأذن فى بعض

الحرية... أن يأتى لغرفته بأصدقاء وصديقات أو حتى فتيات عابرات... وأنا أحتاج لغرفتى فى عقد اجتماعات حزبية ، وبقية الشقة المتسعة منطقة محايدة .

وكان زميلى فى الشقة نموذجا غريبا ، فالتمثيلية المتقنة كانت تمتد مساحتها إلى الكثيرين ، وكثيرا ما كانت سهراته تمتد طويلا ، ثم ما أن ينتهى منها حتى يتوضأ ليصلى... وبصوت عال جدا . كأنما ليذكّر نفسه بأنه الآن أفضل مما كان منذ ساعات .

وذات يوم هبط الأبوان معا ليقيما معنا ، لعلها فترة رقابة ، أو فترة من الاستمتاع بالقاهرة وملاهيها... كان يخرجان معا ولا يعودان إلا متأخرا جدا فى جو يناير بارد .

وأحسسنا منذ اليوم الأول بمخاطر الهجوم المفاجئ ، فقد تزوره فجأة واحدة من صديقاته ، وقد يزورنى فجأة رفاقا ، وتعهد سعيد بأن يخلصنا من الضيفين ، وفى الليلة الأولى ضبط المنبه على موعد صلاة الفجر ، ثم صمم على أن يوقظهما ليصليا الفجر حاضرا ، حاولا التخلص لكنه صمم ، وصمم على أنها «سنة شريفة» أن توقظ جارك ليصلى الفجر حاضرا .

تململ الأبوان وصليّا الفجر حاضرا ، والإرهاق يغلفهما إثر سهرة طويلة فى كازينو صفية حلمى ، المكان المفضل لأعيان الأقاليم .

ليلتان فقط وقرر الأبوان الإفلات من إلحاح هذا الشاب السنى المتشدد .

* * *

... وكانت أيامى الأولى فى الجامعة (حقوق جامعة إبراهيم باشا الكبير - عين شمس حاليا) مبهرة . عالم جديد تماما ، يموج بالسياسة بلا تحفظ .

كنا فى سبتمبر ، وثورة يوليو لم يمض على قيامها سوى أقل من شهرين وقبضتها لم تكن قد استبانت بعد .

انطلقت كجواد جامح تحرر حديثا من قيوده ، وتلقيت من التنظيم عددا من الأعضاء نظمتهم سريعا ، وبدأنا عملا واسعا أربك الجميع .

كان حدتو قد شكلت من طلابها جناحا شبه مستقل أُسمِي «رابطة الطلبة الشيوعيين ـ حدتو» ، واندفع هذا الجناح فى نشاط طلابى عارم . ولم تمض سوى عدة أسابيع حتى بدأ عددنا في الازدياد... عشرة ، عشرون ، ثلاثون ، وتصاعد الرقم بصورة فلكية ، وامتلأت ردهات الكلية بمجلات حائط (كانت لم تزل ابتكارا جديدا) ، وتبلور الفعل السياسى الناتج عن بداية التناقض بين حدتو وحركة الجيش فى عمل جبهوى داخل الكلية ضم الوفد والحزب الاشتراكى ونحن تحت مسمى «الجبهة الوطنية الديمقراطية لطلاب حقوق جامعة إبراهيم» .

وبدأت التصادمات .

طلاب قليلون ينتمون إلى «هيئة التحرير» ، وكثيرون ينتمون للإخوان المسلمين تحالفوا ضدنا وبدأت حرب مجلات حائط ، وبيانات ومؤتمرات .

لم يحتمل الإخوان وجود قوة منافسة لهم فبدأوا كالعادة فى التحرش البدنى ، اعتداءات بالضرب على بعض زملائنا . كرد عليهم قررنا أن نضرب فى النقطة الموجعة ، ضربنا ابن المرشد العام وكان زميلا لنا فى الكلية . وتأدب الإخوان تماما .

ولم يكن ثوار يوليو بقادرين على الصبر على وضع كهذا ، وبدأت حملة اعتقالات وسط قيادات الطلاب وخصص لهم معتقل فى مدرسة عسكرية اسمها مدرسة الصناعات الميكانيكية بالعباسية . ويبقى المشاغبون مشاغبون ، وكان من أساتذة الشغب فى المعتقل (الذى أفلت أنا منه هذه

المرة ، فأنا جديد فى القاهرة ، ومعلوماتهم عنى محدودة) سعد زغلول فؤاد . الذى اصطنع قصة ادعاء الشروع فى الانتحار كسبيل لنقله إلى المستشفى ليبقى هناك عدة أيام .

وقلده البعض ؛ زجاجة صبغة يود يبلل شفتيه بها ويصرخ... وإلى المستشفى . وتلقت إدارة المعتقل من المستشفى ما يفيد بأنها محاولات مفتعلة وليس فيها لا انتحارٍ ولا شروعٍ فى الانتحار . لكن أحدهم فعلها . لم يكن يعرف الحيلة وشرب فعلا زجاجة صبغة يود كاملة ، وقيادة المعتقل تجاهلت صراخه وصراخ زملائه ظنا منها بأنه يمثل مثل الآخرين... ومات الشاب .

والتهبت الجامعة لوفاة الشهيد عصام سرى ، وعقدت لجنة الجبهة الوطنية الديمقراطية اجتماعا عاجلا ، وقررنا أن نصدر منشورا وأن نوزعه فى الكلية . وتعهدنا نحن بطبع المنشور والتوزيع ، كما قمنا فى حالة تحد واضحة بنشر نعى فى جريدة المصرى باسم الجبهة للشهيد ، وانزعج الحكام العسكريون من النشر . وبما أن قرار طبع المنشور وتوزيعه قد اتخذ فى اجتماع واسع فقد وصلت المعلومات مفصلة إلى الأمن . وكان ضابط الحرس الجامعى «جمال» ويناديه الأصدقاء «جيمى» قد استعد لنا استعدادا خاصاً ، بينما تسلل إلى داخل الكلية منشوران ، وليس منشورا واحدا ، واحد باسم الجبهة ، والآخر باسم رابطة طلاب حدتو .

وبقيت المشكلة ، كيف نوزعهما فى حالة الاستنفار العام... حيث كان كل خرم فى الكلية مزدحما بجنود الحرس الجامعى .

كان المسئول عن التوزيع رفيق جديد لا يعرفه أحد (فؤاد قنديل) صعد إلى الفراندة المستديرة المطلة على حوش الكلية الواسع وأسرع لجندى الحرس الجامعى الموجود هناك كمراقب لهذا الموقع الاستراتيجى وسأله :

إنت الشاويش فلان ؟ فقال : نعم . قال : اجرى بسرعة الضابط جيمى عايزك علشان فيه منشورات اتوزعت ، وأسرع الرجل وقبل أن يصل إلى أسفل كان المنشوران يطيران فى الهواء لتتلقفهما أيدى طلاب الكليتين : الحقوق والهندسة ، وكانتا فى مبنى واحد... هو مبنى كلية الهندسة الحالى .

واختفى الرفيق الذى ظل الجندى يحملق فى كل الوجوه ولأمد طويل بحثا عنه .

* * *

لكن الأمر لم يمر بهذه السهولة... فقد بدأت حملة اعتقالات جديدة ، وتحتم علىّ أن أنقطع عن الكلية لفترة ، رغم أننى حرصت أنا وقادة لجنة الجبهة أن نكون فى مكتب ضابط الحرس لحظة توزيع المنشور .

... كذلك لم يمر الأمر بسهولة لدى قيادة حدتو ، فأنا كمسئول عن قسم جامعة إبراهيم كتبت المنشور وطبعته ووزعته دون إذن من أحد... والأكثر من ذلك أن عنوان المنشور الصادر عن الرابطة كان « يسقط نجيب قاتل عصام » .

و « يسقط » هذه أثارت مشكلة داخل حدتو ، ولعلها فجرت خلافا كان كامنا فى القيادة حول كيفية التعامل مع ثوار يوليو فى ظل خيمة الخلافات المتراكمة معها .

وثار سؤال من قرر رفع شعار الإسقاط . نحن مختلفون معها... نعم ، ننتقد تصرفاتها المنافية للديمقراطية نعم... لكن « يسقط » هذه لم يقررها أحد .

والصحيح أن أحدا لم يقررها ، أنا وحدى فعلتها ، لكن أحدا من المعارضين لهذا الموقف لم يصدق ، أن شابا هو مجرد مسئول لجنة قسم فى

رابطة الطلبة يمكنه أن يتجاسر فيفعلها ، وتصور البعض أن أحد القادة المتشددين هو تحديدا الرفيق بدر (سيد سليمان رفاعى) قد دفعنى إلى ذلك . لكننى فعلتها ببساطة ، ودون تحريض ، أو حتى إذن من أحد .

واحتاج الأمر نقاشات عدة... ومحاسبة تنظيمية .

واحتاج أيضا عدة أشهر كى تتخذ حدتو موقفها الحاسم معلنة «تسقط الديكتاتورية العسكرية» .

ويوشك العام الدراسى أن ينفلت ونحن غارقون تماما فى العمل السياسى ، وكان سعيد زميلى فى السكن قد ترك الشقة بل ترك مصر كلها ليدرس فى الخارج...

وانفردت بالشقة لتتحول إلى ملتقى لاجتماعاتنا ، وأحيانا لطباعة أوراقنا .

وبعد فترة أحسست بمراقبة شديدة عليها فتركتها .

* * *

واصطحبنى محمود العطار إلى شقة طلابية فى منية السيرج يسكن فيها عديد من الطلاب ، لست أدرى حتى الآن كيف كان المكان يتسع لهم... ثم لنا .

وفى هذه الشقة قضينا فقط عدة أسابيع هى المتبقية من العام الدراسى .

إنه عام دراسى وحيد ، فبعده لم أكن أبدا طالبا جامعيا بالمعنى المفهوم .

ففى العام التالى انغمست نهائيا فى العمل السرى حتى قبض علىَّ .
وبعدها أكملت دراستى دون تردد على الجامعة .

وتظل ذكريات هذا العام الملئ بالحيوية عالقة بالذاكرة .

ذات يوم أتى رفيق فى عجلة من أمره يحمل رسالة من مسئول قسم جامعة فؤاد (القاهرة) علموا بالصدفة أن عبدالناصر سيزور كلية الحقوق وأن الإخوان قد استعدوا بحشود ضخمة معلنين تأييدهم له . وأنهم سيستعدون لهذه الزيارة بتمشيط جامعة فؤاد من كل خصومهم ، جمعنا حوالى مائة طالب من أعضائنا وأعضاء الجبهة لنصل إلى حقوق القاهرة قرب الظهر ، فنجد رفاقنا وأصدقاءهم وقد تعرضوا لمذبحة حقيقية ، ونجد حسن دوح قائد الطلاب الإخوانيين ممسكا بالميكروفون فى حشد يضم آلاف الطلاب وعبدالناصر واقف إلى جواره هو وبعض أعضاء مجلس الثورة .

كان حسن دوح يصرخ متحديا : «يارجل الثورة أعطنا حرية فى العمل وساعتها سنقول للشيوعية الملحدة اخرجى من بلادنا ، ونصيح فيهم : يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم ليحطمنكم سليمان وجنوده» .

توقفنا نستمع ، فما من مجال لفعل أو شبه فعل ، وانتهت المظاهرة المصنوعة وتفرق الجميع إلا نحن ، بينما دخل قادة الثورة إلى مكتب د . مورو رئيس الجامعة . بقوا هناك بعض الوقت يكفى كى نستجمع قوانا ونستجمع أنفاسنا... وبينما عبدالناصر والضباط يخرجون ليركبوا سياراتهم ، وجدونا نسد عليهم الطريق هاتفين... مطالبين بالديمقراطية... وبالدستور... وبكل نقاط الخلاف بيننا وبين حركة الجيش .

ارتبك عبدالناصر ، توقف ، تأملنا مليا ، لعله تساءل من أين أتوا بعد كل ما كان ؟ لم نقف طويلا ؛ فقط أسمعناه صوتنا ورأينا ثم تنحينا (بعد زمن طويل علمت أن خالد محيى الدين كان بين ضباط القيادة الحاضرين وإنه ركب السيارة مع عبدالناصر الذى التفت إليه قائلا : برضه العيال بتوعكم

جدعان) . كان عبدالناصر قد اتفق مع الإخوان ليتظاهر بقوتهم ، وليحرج مركز خالد محيى الدين ، فجاءت هتافاتنا - غير المخططة - سندا لخالد لم يتوقعه جمال .

وكان عملنا فى الكلية نشيطا بل ومتفجرا... وحتى بعد أن قبض عليّ ظل متماسكا ، ونفذ رفاقنا اعتصاما شهيرا فى الكلية خلال أحداث مارس ١٩٥٤ . وانتهى بالطبع بحملة اعتقالات واسعة .

إلى درجة أننا عندما ذهبنا لنؤدى الامتحان ونحن فى السجن ، كان هناك سرادق يضم مئات من المعتقلين ، وأتى د . سليمان الطماوى ، وكان أيامها واحدا من رجال هيئة التحرير ، ليصرخ فى وجهى محملا إياى مسئولية اعتقال كل هذا الحشد .

وللدكتور سليمان قصة تستحق أن تروى... فبينما كنا نصّعد من عملنا فى الكلية ، ويتزايد نشاطنا ، عقد اجتماع فى مقر هيئة التحرير لمناقشة الوضع فى الكلية وحضره د . سليمان الطماوى وعدد من الطلاب كان من بينهم صديق لى هو طاهر القاضى ، وكان عضوا حديثا فى تنظيمنا وطلبنا منه أن يستمر فى نشاطه فى هيئة التحرير حتى نعرف ما يجرى هناك ، وذات ليلة أتى طاهر القاضى إلى بيتى ليوقظنى فى منتصف الليل عائدا لتوه من الاجتماع ، كان منزعجا غاية الانزعاج ، فالدكتور الطماوى قدم نصيحته للحكام ، لقد أعدمتم اثنين من العمال فسكت العمال جميعا ، ويحتاج الأمر إلى إعدام اثنين من الطلاب كى يصمت الجميع .

ولست أدرى كيف أقنعت طاهر بأن يعلن ذلك فى الكلية (وكان عملا يفتقد الحكمة بكل المعايير)... وفى اليوم التالى عقدنا مؤتمرا طلابيا وتحدث طاهر القاضى بما كان... (بعدها بفترة قبض عليه متهما بالتآمر لقلب نظام الحكم وسجن خمس سنوات) .

وكان بالطبع معنا فى السرادق يؤدى الامتحان .

وكانت فرصة للدكتور الطماوى كى يتشفى فيه... وفيّ ، وفينا جميعا .

* * *

ولعله من المثير للدهشة تلك السرعة التى نمى بها عملنا الجامعى ، الناس كانت جاهزة تماما للاستماع إلينا ، الكثيرون انضموا إلينا بمجرد التلامس ، تذكرت حكاية الورق الذى يتشرب الحبر ، كنا مثله ، نستجمع الكثيرين حولنا بسرعة فائقة .

لم أزل أذكر كيف جندت طالبا أصبح شاعرا موهوبا فيما بعد... نجيب سرور ، أتى إليَّ يحمل فى يده قصيدة صارخة فى دفاعها عن الفاشية ، مؤكدا أن شعب مصر لن ينصلح حاله إلا على يد هتلر جديد... طلب أن أنشرها فى مجلة الحائط... رفضت . ناقشته طويلا ، لم يبد تفهما كافيا ، أمهلته للغد ، أعطيته ديوان « إصرار » لكمال عبدالحليم . فى اليوم التالى أتى وهو يقطر انبهارا ، سألنى من هو ، قلت إنه واحد من زعمائنا... قال ببساطة : أنا معه حيث يكون ، وانضم إلينا .

ولم أزل أذكر قصة فؤاد قنديل ، ويحيى عبدالرشيد ، ومحمد توكل ، وكيف تركتهم حين سجنت وهم لم يزالوا نبتا غضا ، لكنهم ملأوا الكلية ضجيجا ، وأسهموا فى قيادة الاعتصام عام ١٩٥٤... وبعدها قبض عليهم بتهمة الشروع فى مؤامرة لاغتيال عبدالناصر . (عندما التقينا فى السجن أكدوا لى أن عميلا للمباحث حاول استدراجهم موحيا إليهم أن هذا هو الطريق الوحيد للخلاص من حكومة الضباط ، لكن فؤاد شرد بذهنه قليلا وقال : أذكر أن الرفيق مجدى (أنا) قال : إن الماركسيين يجب أن يرفضوا الإرهاب الفردى) ورفضوا ، ومع ذلك قبض عليهم ، عذبوا فى السجن الحربى

تعذيبا يليق بمتهمين بمحاولة اغتيال عبدالناصر ، وحاولوا انتزاع أى اعتراف منهم يمكن أن يمنح ماكينة الإرهاب الوحشى مبرر الاستدارة الحاسمة ضد الشيوعيين ، وضد حدتو تحديدا ، لكنهم رغم حداثة السن وحداثة التجربة كانوا رجالا ، ثم أكملوا طقوس رجولتهم إذ وقفوا أمام محكمة الثورة ليقدموا الأدلة على تعذيبهم تعذيبا وحشيا (كان السجناء من الإخوان يعذبون لكنهم أبدا لم يعلنوا ذلك أثناء المحاكمات أملا فى العفو أو تخفيف العقوبة ، أو حتى تجنبا لتعذيب أشد)... وحكم على كل منهم بالسجن خمسة عشر عاما أشغالاً شاقة . لكن وقفتهم هذه أعادت ملفات قضايا الشيوعية من محكمة الثورة... إلى القضاء العادى ، بعد أن كانت قد أرسلت إليها فعلا .

ولقد قضى هؤلاء الرفاق فترة سجن صعبة فى ليمان طره... وحتى عندما أفرج عن الشيوعيين جميعا عام ١٩٦٤ ، لم يفرج عنهم بحجة أنهم متهمون فى قضية «اغتيال» وليس فى قضية شيوعية . وبقوا زمنا حتى تمكنا من الإفراج عنهم .

الرفيق... رئيس النيابة العسكرية

عدت مشتاقا إلى المنصورة . كما يعود العاشق لمعشوقته .

كانت الأسابيع الأخيرة فى القاهرة خانقة . حصار أمنى متشدد ، وانقسام مفزع فى قيادة حدتو .

فيروس الانقسامية تفشى ، وكل طرف يمارس كل ما يمتلك من ضغوط ليضمن ولاء كل رفيق .

ونسى البعض الخطر الداهم ، وسيطرت عليه غواية الانقسام ، نفدت بجلدى من هذا كله وعدت إلى معشوقتى .

أن يعود الإنسان إلى بيته ، إلى أسرته ، يعود إلى رفاقه الذين عرفهم ، عمل معهم ، خاض معهم عملا متواصلا وجميلا ، يشعرونك بدفء الاقتراب الحانى ، وبقدرة العمل معا بلا حدود .

لحظة وصولى ، وكأنه كان ينتظرنى أتى «ألبير جندى» ليدفعنى دفعا كى أقابل مسئولا على عجل .

كان جمال غالى ، وكان هاربا ، ويتولى مسئوليات عدة فى بحرى ، وينتظر أن أحضر ليسلمنى نشاط المنصورة ويمضى هو إلى عمل آخر .

ومن بين المسئوليات التى تسلمتها فى أوائل يونية ١٩٥٢ خلية ذات

تركيب مثير للدهشة ، جلست أنا والمسئول فى كازينو منيرفا ، نتوارى عن الأنظار فى ظلال شجرة وارفة على نيل المنصورة الذى كان جميلا . بدأ يشرح لى طبيعة الخلية التى سأتسلمها... رفاق أكبر منى سنا بكثير ، وذوى مواقع مرموقة ، و من ثم يتعين التعامل معهم باحتراس . ثم أتوا... كانوا ثلاثة :

مزارع ثرى ذو طبيعة أرستقراطية ، وهو أشهر زارعى الخوخ فى مصر ، ويمتلك غراما لا ينقطع بالحديث عن الخوخ وعن اكتشافاته فى كيفية تطوير زراعته وحمايته من الآفات ، وهو يخترق كل حديث فى السياسة ، أو الاقتصاد ، أو العمل الحزبى ليتحدث عن الخوخ (إبراهيم أبو حليقة) . والثانى صيدلى مناضل شيوعى قديم ، أتى حديثا إلى المنصورة ليفتح صيدلية فى شارع المديرية (د . محمود الخفيف) . أما الثالث فهو - وياللدهشة - رئيس النيابة العسكرية بالدقهلية (ناهيد أبوزهرة) (الشقيق الأكبر للفنان عبدالرحمن أبو زهرة) .

عندما توقفت سيارتهم جذبوا كل الأنظار بمشاكستهم لبعضهم البعض . وضحكاتهم عالية الصوت ، (كانوا هكذا دوما حتى فى أكثر الاجتماعات جدية) .

لم أشعر أن أحدا منهم قد تململ من أن يكون مسئولهم فتى فى العشرين . لكن المفارقة ألجمتنى ، طالب فى السنة الأولى بكلية الحقوق مسئول عن رئيس النيابة العسكرية ، بل إن انضمام رئيس النيابة العسكرية إلى حدتو وقبوله هذه المغامرة قد ألجمنى هو أيضا .

انسحب المسئول ليتركنى معهم ، لكنهم كانوا أكثر من رائعين ، قاربوا بينى وبينهم بحماس وحنان ، وببساطة نجحوا ومنذ اللحظة الأولى فى أن يجعلونى واحدا منهم ، متخطين - عن طيب خاطر - حاجز السن ، وحاجز الموقع الاجتماعى ، بل وحاجز الأقدمية فى النضال السياسى .

اقترب الجرسون تعرف عليَّ ، مد يده بالسلام سائلا عن الحاج (أبى) ، ثم أتى صاحب الكازينو ليسلم ويسأل عن الحاج ، ويتعرف على رئيس النيابة فيسلم باحترام مندهش عن الذى يجمع هذا بذاك . فمن يعرفنى يعرف أنى شيوعى ، فماذا يجمعنى مع رئيس النيابة ؟

وقفت فجأة طالبا أن نترك المكان ، لم يسألنى أحد منهم لماذا ، انصاعوا وعندما دارت السيارة سأل أبوحليقة إلى أين ؟ تقدم كل منهم باقتراح ، وأوشكوا أن يتفقوا على الذهاب إلى فيلا أبو حليقة فى بشلا (على بعد حوالى ساعة بالسيارة من المنصورة) لكننى قلت فى هدوء هادئ سنعقد اجتماعاتنا فى السيارة ، وشرحت لهم وجهة نظرى فى ضرورة مراعاة أكبر قدر من الأمن فى مقابلاتنا حماية للرفيق ناهيد... ووافقوا .

وبعد مرة أو مرتين من الاجتماعات المتحركة ، وبعد مناقشة الموقف السياسى الملتهب ، والذى يزداد التهابا ، والتصادم الحاد بين حدتو والحكم ، قال الرفيق ناهيد إنه هو الذى يصدر أوامر التفتيش والقبض ، وأن رجال الأمن عادة ما يحصلون منه على أوامر القبض قبل مغادرته المكتب عند الظهر ولا ينفذونها إلا بعد منتصف الليل . وقال إنه يعلم أنهم بصدد شن سلسلة من حملات القبض على أعضاء حدتو فى الدقهلية (لقد وجهوا ضربة قاصمة لمنطقة القاهرة ، وآن للدقهلية أن تسدد فاتورة نشاطها المتصاعد ، وسمعتها المترامية التى أطلقت عليها حيناً : المحافظة الحمراء) .

وبدأنا نناقش المسألة ، أو بالدقة ننسج وبشكل جماعى كيفية الاستفادة من هذا الوضع النادر ، وقدم كل منا رأيه فيما السيارة تنطلق بنا عبر الطريق الزراعى المترب المتجه نحو المحلة ، والغريب أن الرفيق أبو حليقة - ورغم انشغاله بالقيادة فى طريق وعر وغير مرصوف ، كان الأكثر إسهاما فى نسج خيوط خطة العمل .

ـ تقليل اجتماعات الخلية إلى مرة واحدة فى الشهر .

ـ قطع علاقة الخلية بشبكة الاتصال الحزبية التى توصل لها المطبوعات . وأن أقوم أنا بتوصيل المطبوعات إلى أجزاخانة د . الخفيف متحججا بشراء دواء .

ـ كان الرفيق ناهيد يسكن فى شقة أعلى الأجزاخانة ، ومن ثم فإنه إذا ما وقَّع أمرا بالقبض على أى من الرفاق فإنه يسجل قائمة بالأسماء ، ثم يمر كعادته دوما على صديقه صاحب الأجزاخانة ليترك له ورقة بالأسماء .

ـ يتصل د . الخفيف بى فى المنزل الساعة الثانية والنصف وهو موعد عودة رئيس النيابة لبيته ليبلغنى أن دواء التركيب الذى طلبته جاهز . لأقطع المسافة بين بيتى والأجزاخانة فى أقل من خمس دقائق ، وأتناول منه زجاجة دواء ملفوفة ، تكون الأسماء مكتوبة على ورقة اللف من داخلها .

ـ ثم يكون علىَّ أن أحذر الرفاق المطلوب القبض عليهم منبهاً إما بالهرب إذا تطلب الأمر ، أو بتنظيف مسكنهم من أية أوراق حزبية .

ـ يكون أبو حليقة منتظرا فى بيته ببشلا كل يوم الساعة الثالثة ، وفى حالة حاجتنا لسيارة أتصل به لأسأل عن ابن أخيه ، وما أن أذكر له اسما محددا حتى يحضر بالسيارة وينتظر فى مكان محدد . فقد نحتاج إلى سفر عاجل لنبلغ أحد خلايانا فى القرى المتناثرة بنية القبض على أحد منهم .

* * *

مضت عدة أيام .

ثم فى الثانية والنصف تماما رن التليفون فى بيتى... «دواء التركيب جاهز» تركت الغداء قفزت إلى الأجزاخانة . تسلمت زجاجة دواء تركيب

فعلا ملفوفة . كنت قلقا ومتلهفا ، لكن قواعد الأمن تقتضى أن أحتفظ بها ملفوفة طوال الطريق فقد أكون مراقبا . على سلم بيتنا فتحت الورقة لأجد اسما واحدا .

« ... خليفة » طالب فى كلية الحقوق مقيم فى المنصورة ، ولكنه ليس عضوا فى حدتو ، بل فى منظمة أخرى .

واحترت ، هل نبلغه أم نتركه لمصيره ؟ وإن أبلغناه فكيف ؟ وماذا نقول له ؟

فى إطار التنظيم يمكن إصدار قرار حاسم « نظف بيتك فورا من أى أوراق » أو « نظف بيتك واهرب » .

لكن كيف سنبلغ الأمر لهذا « الآخر » ؟

ترددت طويلا ، وأخيرا حسمت أمرى ، لنبذل جهدا كى ننقذ هذا الرجل . أدركت أن ضميرى سيظل يؤنبنى لو لم أحذره .

وفى العصر ، أرسلت له رفيقا يعرفه ليبلغه قصة ملفقة مؤداها أنه سمع عن طريق قريب له يعمل فى الأمن أن ثمة حملة قبض ستتم الليلة ، وأننا نحذر الجميع بتنظيف بيوتهم من أية أوراق شيوعية .

تلقى الرجل التحذير بسخف شديد ، وسأل ودقق ، ولماذا أنا ؟ ومن قال لكم إننى شيوعى ؟ ومن هو قريبك هذا ؟ واكتفى رفيقنا بما قال ، لكن السخف تصاعد... « أنتم بتتجسسوا على الناس وتعرفوا همه شيوعيين أم لا ؟ » قال رفيقنا « نظف بيتك الليلة ولن تخسر شيئا » .

وفى المساء هاجم البوليس بيت الرجل ليجده نظيفا من أية أوراق . ويُعرض على النيابة لِيُخْلَى سبيله .

وتبقى علينا عبء إسكات هذا الرجل الذى ظل يثرثر... بأن بتوع حدتو

على علاقة بالأمن وأنهم يجمعون قوائم بأسماء الشيوعيين . ولم يسكت إلا بعد أن هددناه تهديدا شديدا اما أن يصمت أو نستخدم القوة لإسكاته .

وخاف الرجل ...

* * *

لكن الأمر لم يكن بهذه البساطة .

فوريث التعامل الفلاحى الماكر ، والذى كنا نسميه فى اجتماعاتنا المتحركة «مجمع الدهاء الريفى» الرفيق أبو حليقة ، سألنا ذات مرة : هل من المعقول أن يذهب البوليس فى كل مرة ليجد البيت نظيفا ، وأن المطلوب القبض عليه قد هرب ؟ وأكد أنه بعد مرة أو مرتين ستتجمع سحب من الشك ، سيبدأون بالشك فى سكرتير النيابة ، وقد يتواصل شكهم ليصل إلى رئيس النيابة .

تأملنا هذه الفكرة ووجدناها معقولة ، والمطلوب إذن أن نترك لهم بعض الرفاق كى يصطادوهم دون عناء . ومن يختار ؟ سألت وأنا أعرف الإجابة ، ففى نفس واحد أتت الإجابة من الثلاثة معا : أنت ، فأنت تعرفهم جميعا ، وتعرف الوضع السياسى والتنظيمى والظرف الاجتماعى لكل منهم .

قلت : وضميرى كيف يسمح لى ؟ ورد ناهيد «وأنا كيف يسمح لى ضميرى أن أوقع كل أوامر القبض هذه ؟» .

فى هذه اللحظة أدركت وبألم عميق صعوبة أن تكون مسئولا... أن يكون أمامك ثلاثة أسماء تنقذ اثنين ، وتترك الثالث - وبقلب بارد - للسجن الذى قد يطول .

واكتشفت - فى هذه السن الصغيرة - أن المسئولية عبء ثقيل ، وأنها تتطلب من المسئول قلبا حانيا ، وباردا ، وجافا ، فى آن واحد .

وسارت العملية كما اتفقنا . كانت حركة رجال الأمن حادة ومتسارعة ومتوترة . حملات القبض والتفتيش لا تتوقف ، وتمتد عبر مراكز المحافظة كلها... وأغلبها يطيش فإما لا يوجد ورق ، وإما لا يوجد ورق ولا طير يمكن اصطياده ، وكثيرا ما كان ضميرى يثقلنى وأنا أترك رفيقا مثقلا بأوراق سرية كثيرة ، وتشكل ضده دليلا قاصما قد يؤدى إلى الحكم عليه بسنوات طويلة ، فكنت أرسل له رفيقا يسحب بعضا مما لديه من أوراق حزبية ونترك لديه -دون أن يدرى- القليل الذى يرضى شهوة البوليس ، لكنه لا يشكل دليلا قضائيا كافيا .

والغريب أننا كنا نواصل نشاطنا فى تحد ، وازداد التحدى عندما أحسست أننا فى مأمن ، وأننا سنعرف بالقطع متى ، وكيف ، وأين سيوجه الخصم ضربته .

ولعلى وبعد فترة ـ عندما انفردت بنفسى فى السجن ـ تأملت هذا الأسلوب الصاخب والمتحدى فى العمل السرى ، وسألت نفسى ألف مرة : هل كان من المفيد أن نحارب بكل هذا التحدى وحتى آخر رجل ؟ أم كان الأفضل أن نعمل بهدوء ، وتواضع ، ودون استفزاز لنمر هو مستفز بطبعه ، حتى يأمن بعض كوادرنا ، أو ندخرهم للزمن المقبل ، عندما تخف حدة التصادم ، ويصبح بالإمكان أن نتنفس ؟

(وقد ظل هذا السؤال يُحلِّق فى مُخَيِّلَتِى طويلا ، وبعد سنوات عديدة أمكن لى أن أقارن بين أسلوبنا وبين أسلوب أحزاب أخرى ، أسلوبنا الذى نندفع فيه نحو التصادم كخيول جامحة ، تظل مندفعة حتى تتساقط جميعا ـ سقوط أوراق الخريف الحتمى ـ فى أيدى الخصم ، ولا يبقى من حدتو سوى بعض الذكرى ، وبعض القواعد المتناثرة ، ثم تأتى فترات هدوء ، أو فترات تصالح ، فلا تجد من يتصالح ، ولا من ينشط فى فترة الهدوء . ظل

هذا السؤال يحلق ويؤرق ويوجع... حتى التقيت بالرفيق خالد بكداش ، وقبل أن يستغرقنا الحديث - في بيته الجميل والبدائي في حي ركن الدين بدمشق - فيما هو مفترض من موضوعات ، أطلقت نحوه السؤال الذى يحيرنى . كيف واجهتم فترة الضغط الناصرى ؟ كانت الإجابة بسيطة : القيادة الأساسية تركت البلاد ، والتعليمات صدرت بدفن جهاز الطباعة في الصحراء (لم يعثروا عليه بعد ذلك) وتوقفت الاتصالات والاجتماعات ، وتبقت علاقات واهية ذات طابع عائلى وشخصى بين الأعضاء ، ويرتفع صوت الحزب من خارج البلاد . منهجان... أعتقد أن ثمة إمكانية لمصالحة وسطية بينهما) .

لكننا بهذا نبتعد جدا ، فلنعد إلى الطالب الصغير السن ، القليل الخبرة ، وإلى النشاط الذى يغلى ، وإلى خلية الكبار .

واستمرت الأمور تسير كما رسمها «مجمع الدهاء الريفى»... فأنا أرابط بجوار التليفون من الثانية والنصف حتى الثالثة ممسكا بقلبى ، ولا أعرف على مَنْ سيكون الدور .

واضطررت في هذا الصيف أن أخوض معركة الإفلات من البقاء مع الأسرة في رأس البر ، حيث اعتادت أن تستقر لأشهر عدة ، وأبى يتردد عليها عدة أيام فى الأسبوع .

* * *

كان خريف القاهرة أشد سخونة من صيف المنصورة ، فهنا المطاردات الأمنية مسعورة ، وأكثر إتقانا ، ولا يوجد رفيق رئيس نيابة .

أما الرفيق ناهيد ، فقد رتبت وسيلة لتلقى المعلومات منه ، وظل يؤدى واجبه الحزبى بشجاعة نادرة لا يمكن نسيانها ، وربما لا يمكن تكرارها .

وفيما أنا فى السجن ، سمعت أنه اصطدم صداما عنيفا مع رجال الأمن السياسى . فقد أصابهم الملل من كثرة الضربات الطائشة ، فبدأوا يفضون الأحراز القديمة ليسرقوا منها مطبوعات حزبية ، ثم يدسونها كمضبوطات للمتهمين الجدد .

ولأنه رفيق ، ولأنه يعرف أن هذه المطبوعات قديمة ، ويعرف أن ثمة أحرازاً تحتوى على مطبوعات مماثلة ، فقد اكتشف اللعبة ، وأصدر أمرا بجرد الأحراز القديمة.. وافتضح الأمر ، وهدد بالقبض على الضابط المسئول بتهمة سرقة الأحراز ، ودسها لعدد من المتهمين .

ومع هذا التصعيد غير المفترض ، والذى يفتقر إلى خبرة «مجمع الدهاء الريفى» صدر قرار بالتخلص من السيد رئيس النيابة العسكرية.. وتمت ترقيته إلى قاضٍ بمحكمة مرور الإسكندرية .

... واستقر ناهيد هناك يكتب شعرا جميلا.. يسلى به وحدته حتى يلتقى برفاق جدد .

مشاغبون في غمرة النضال

... كان صيف ١٩٥٣ ساخنا . وربما أكثر مما يجب .

فالتصادم بين حدتو وحركة الجيش بلغ مداه ، وربما كانت حدته نابعة من أنه تصادم بين أصدقاء سابقين ؛ كل منهما يعرف الآخر جيدا . وربما كان عبدالناصر يتحسب ويخشى من وجود نفوذ ، أو بقايا نفوذ لحدتو فى الجيش (عندما انضم ضباط من حدتو إلى حركة الضباط الأحرار ، تصور عبدالناصر أن هذا هو كل رصيد حدتو فى الجيش ، واطمأن إلى أنه قد عرفهم حصرا ، لكنه فوجئ بعد ليلة الثورة بأن لحدتو ضباطا آخرين وذوى رتب رفيعة وفى مواقع حساسة ، ولم يكن هو يعرف أية علاقة لهم بحدتو ، مثل القائمقام يوسف صديق ، ومثل عبدالمجيد نعمان ضابط لاسلكى الطائرة الخاصة بالملك . ولم يعرف عبدالناصر أنه شيوعى إلا عندما قبض عليه كواحد من الضباط الموالين للملك ، فإذا بحدتو تطلب الإفراج عنه لأنه عضو فيها ، وقد أثار ذلك هواجس عديدة ظلت تطارد عبدالناصر لفترة طويلة فإذا كان بإمكان شيوعى أن يكمن فى طائرة الملك ، فلم لا يتمكن غيره من أن يكمن فى أعشاش الحكام الجدد) .

وربما لأن قيادة حدتو كانت تستشعر بعضا من عقدة الذنب ، فقد

شاركت ، ونظمت ، وأسهمت ، وأيدت هذا الذى أصبح الآن ديكتاتورية عسكرية .

والمثير للدهشة أن عبدالناصر قد ركز أكثر هجومه على حدتو... دون غيرها من المنظمات الشيوعية التى كانت هى الأخرى تهاجمه ، وربما بألفاظ أكثر جسامة مما تفعل حدتو .

... انتهى العام الدراسي الأول ، وكان الجو كئيبا ، فحدتو توشك على الانقسام ، ومن يقود الانقسام ؟ السكرتير العام الرفيق بدر (سيد سليمان رفاعي) ومعه قيادى آخر الرفيق مسلم (سيد خليل ترك) ، وثالث هو مسئول رابطة الطلبة الرفيق على (فتح الله ناجح) ، وأوشكت قدمى أن تنحاز إليهم فى نطاق الموقف السياسى... خطوة أو خطوتين باتجاههم ، لكن عندما أحسست بنُذُر الانقسام تراجعت ، فقد جرى تطعيمنا منذ الطفولة ضد خطر الانقسامية .

ولعل رغبتى فى هذا الانسحاب هى التى دفعت بى للإسراع عائدا للمنصورة فور الانتهاء من الامتحان ، كى أبتعد عن ضغوط المسئول ، وضغوط الصداقات ، وعن ميدان الصراع أصلا ، وأنتظم فى عمل هادئ ومنتظم فى المنصورة ، لم يشعر القائمون به بأن ثمة أزمة طاحنة هناك فى القاهرة .

وقبل أن أسافر ، كان عليَّ أنا ومحمود العطار أن نجد حلا لمشكلة الرفيق ضياء بدر الذى هرب ضمن عملية الهروب المُدوىّ من معتقل روض الفرج (نظمت حدتو عملية تهريب ثمانية من أهم كوادرها ، ونجحت فيها موجهة ضربة شديدة لكبرياء النظام ، وقد أسهم فى تدبير أدوات الهروب : منشار ومفكات وغيرها ، النبيل عباس حليم الذى كان معتقلا معهم ، وإن كان يتمتع بمزايا خاصة سخرها لتوفير المعدات المطلوبة)... قفز ضياء قفزة

خاطئة وهو يهرب فكسرت ساقه ، ولم يلحق بالسيارة المنتظرة ، لكنه تحامل على نفسه واستقل تاكسيا ظل يجوب به أحياء القاهرة حتى عثر على أحد الرفاق تلقفه فى بيته ، وسدد أجرة التاكسى . (كان عبدالرحمن الخميسى ، وكان واحدا من أشهر كتاب وشعراء مصر فى ذلك الحين) .

وأتوا به إلينا وساقه فى الجبس ، كى يقيم معنا .

لكننا كنا بصدد الانتقال من المنزل الطلابى فى منية السيرج ، صدرت لنا تعليمات غامضة بذلك (فيما بعد علمنا أننا أقمنا بالمصادفة البحتة فى المنزل المقابل مباشرة لمنزل يختبئ فيه الرفيقان بدر ومسلم ، وكان علينا أن نتباعد عن المكان حتى لا نثير حوله أية شبهة أمنية) .

حملنا عفش محمود على عربة كارو ، وتسلقت عليها ، بينما أتى محمود بضياء فى تاكسى . واخترق سائق الكارو - دون أن نطلب إليه - طريقا مختصرا وآمنا جدا وسط الحقول لنصل إلى شقة جديدة استأجرها محمود فى دير الملاك .

أقام «خالنا» (هكذا أفهمنا أصحاب البيت) فى الشقة ، بعد أن ملأناها بكل ما يحتاج تحسبا لقلة حركته... فهو هارب وساقه فى الجبس معا . ورتبنا أحد الرفاق لرعايته ، ثم أسرعنا إلى المنصورة .

ويأتى أغسطس الساخن ويفاجئنى محمود بهبوط مبكر ومفاجئ ، ومعه تلغراف : «لا تحضر . خالك فى المستشفى» ، والتلغراف مرسل من مكتب بريد القلعة .

ولم نحتج إلى ذكاء لفك الرموز الأربعة :

لا تحضر = البوليس هاجم الشقة فى دير الملاك ، خالك = ضياء بدر ، فى المستشفى = فى السجن ، مكتب بريد القلعة = إنه سجن مصر الملاصق للقلعة .

كان محمود قلقا فقد تذكر أن اسمه مكتوب بالبوية على ظهر الدولاب الموجود بالشقة (شحن الدولاب من المنصورة وكتب الشاحن الاسم بالبوية) وبعد فترة من القلق قررنا أن نمنح أنفسنا قدرا من الطمأنينة ، فأحد لن يفكر فى زحزحة الدولاب الثقيل ليرى ماذا خلفه ، وبعد فترة طويلة سيعتبر المالك الدولاب ملكا له ، فلن يطالب به أحد .

* * *

وفى سبتمبر ، ومع بدء العام الدراسى ، تجمعنا من جديد فى القاهرة .

قمت أنا باستنجار شقة جديدة بالدور الأرضى فى ١١ شارع رضوان شكرى (متفرع من أحمد سعيد) . اخترت الدور الأرضى بأمل أن نتمكن من عمل مخبأ كبير فى أرض الشقة ، وقد نجحنا فعلا فى ذلك .

وفور عودتنا اكتشفنا أن الحملة التى قبض على خالنا «ضياء» فيها كانت شاملة ومتسعة ، بل وساحقة ، حيث قبض فيها على عدد كبير من كوادر منطقة المعز (القاهرة)... ويمكن القول إن هذه الحملة قد شلت نشاط المنطقة تماما .

كنا نعرف أن عددا من القياديين مازالوا طلقاء ، لكن الحملة حاصرتهم ، وقطعت اتصالهم بنا على الأقل .

وباختصار وجدت نفسى ومعى حوالى الخمسين عضوا أو أكثر... هم أعضاء قسم جامعة إبراهيم (وأغلبهم من كلية الحقوق) معزولين عن القيادة ، ولا علاقة لنا بأحد .

وكنت المسئول عن هذه المجموعة ، وعن مجموعة أخرى من الطلبة السودانيين (فقد كنت مسئولا أيضا عن مجموعة سودانية منظمة فى بيت السودان بالمنيل) .

أنا المسئول إذن... فماذا أفعل ؟ بل وماذا أفعل بكل هؤلاء الرفاق ؟

أتى الرفيق سامى برهام لمقابلتى ومعه رواية سوفيتية التقطها من سور الأزبكية اسمها «الأوبكوم السرى فى غمرة العمل» (الأوبكوم هى لجنة المنطقة) ، وتحكى الرواية قصة مجموعة من الرفاق حاصرهم الغزو الألمانى المفاجئ لأوكرانيا ، فانطلقوا إلى الغابة ، وبدأوا نضالا بدائيا لا علاقة له بأية قيادة ولا اتصال له بالوطن الأم ، تحت شعار «النضال ضد العدو لا يحتاج إلى أوامر أو توجيهات من أحد» ، سهرت طول الليل أقرأ فى انبهار شاب كيف تحولت المجموعة الصغيرة إلى جيش كبير يحارب العدو... وانتهى الليل وأنا أنهى آخر الصفحات من رواية أمكنها أن تتملكنى طويلا ، وأن تجعل قلبى يسرع بدقاته لتستحثنى أن أفعل شيئا .

وفى الصباح كان قرار حاسم قد تملكنى .

أن نفعل شيئا .

وقررت أن أبتعد تماما عن الكلية ، وشكلت لقيادة العمل فيها مجموعة من ثلاثة : سامى برهام ونجيب سرور وفؤاد قنديل .

وتفرغت تماما لقيادة مجموعات الطلاب المستعدين لفعل أى شىء ، وبحماس لا يعرف الهدوء .

واستمعت إلى اقتراحاتهم... والفتى الذى لم يزل فى العشرين لا يتقن فن الاختيار ، ولا فن القيادة ، ومن ثم قبلت كل الاقتراحات .

أن نكتب على الجدران ، وأحضر أحدنا كميات كبيرة من زيت البرافين من حكيمة يعرفها فى قصر العينى ، وحوّل محمود العطار شقتنا إلى مصنع لأصابع من شمع البرافين تصلح للكتابة على الجدران ، (يغلى البرافين فى حمام مائى ثم تضاف إليه بودرة اللون ، وبعد التبريد يتحول إلى أصابع من الطباشير الملون... والماء لا يمحوه مهما غسلوا الجدران بل يزداد لمعاناً) .

وقسّمنا أنفسنا إلى مجموعات توزعت على الأحياء البعيدة عن نقطة تجمع أغلبنا وهو حى العباسية ، وضجت جدران القاهرة بشعارات صاخبة وحادة «تسقط الديكتاتورية العسكرية» «ليعد الجيش إلى ثكناته» «تحيا الديمقراطية» والتوقيع : حدتو .

(وفيما بعد علمنا أن إحدى مجموعاتنا كتبت شعاراتها على جدران ذات المنزل الذى يهرب فيه ثلاثة من أهم رفاق حُدتو القياديين : حميدو (محمد شطا) وناشد (زكى مراد) وعاكف (محمد خليل قاسم) . وبقدر ما أزعجهم ذلك ، فقد أدهشهم هذا النشاط الذى لا يعرفون عنه شيئا) .

ثم أتى اقتراح مشاغب آخر : اقترح نهاد أنور أن نشترى مجموعة من مسدسات الماء وأن نملأها حبرا ونرش بها صور محمد نجيب وجمال عبدالناصر التى كانت تتنافس لتغطى المساحات الأكبر من حوائط القاهرة .

وبدأنا فى تلطيخ الصور بحماس وزهو... وضجت القاهرة بمحاولات لصق صور جديدة ، لكننا تابعناها بحبرنا الأسود .

وطريقة أخرى للشغب أتى بها رفيق من كلية الزراعة : أن نذيب سمادا فى ماء ثم نرشه على مسطحات النجيل الضخمة التى كانت تحيط بقصر الزعفران كاتبين بمياه الرش شعاراتنا .

وبالفعل... وبعد عدة أيام وجد الناس شعارا مكتوبا على النجيل الذى نمى أكثر من غيره «تسقط الديكتاتورية العسكرية... حدتو» ولا أمل فى التخلص منه ، فكلما قصوه نما أكثر ، ولم يجدوا حلا سوى حرث مساحة النجيل كلها .

واقتراح غريب آخر... نفذه أحد الرفاق ، حيث توجه لكلية آداب القاهرة ، وصعد إلى أعلى السطح وعلى الجدار المواجه للحوش الرئيسى وضع لوحا قصيرا من الخشب ثم مجموعة كبيرة من المنشورات بذات وزن

علبة مملوءة بالرمل . فتح العلبة ليتسرب الرمل من أسفل وترك هو المكان . وبعد أن وصل إلى مكان آمن كان تسرب الرمل قد أدى إلى اختلال توازن الخشبة ، لتسقط المنشورات فى الحوش ، متطايرة فوق رءوس الطلاب المندهشين .

وعشرات من الاقتراحات الأخرى... ملأتنا حماسا ونحن نقوم بها... وملأت القاهرة ضجيجا وصخبا ، يوحى بأن آلاف الشيوعيين يعملون ، ويتحركون فى كل مكان .

* * *

ويبدو أن هذا الشغب الناجح قد جعلنا نصدق أنفسنا ، فمارسنا شغبنا على نطاق أوسع... أحد الرفاق من كلية الطب ، طلب مقابلة المسئول لأمر مهم . وقابلته . قال : إن قريبا له وهو ضابط بالجيش فقد الاتصال بالتنظيم ، ويريد مقابلة عاجلة لأمر مهم .

قابلت الضابط . كان يرتدى ملابس مدنية ، وكان يكبرنى فى السن بكثير ، لكنه انصاع لتعليماتى كى ننساب فى حوارى العباسية بأمل أن نظل بعيدا عن أية أنظار متلصصة . كنا فى المساء ، وكان ينتهز أية بقعة من ضوء لتتسلل نظراته نحوى فى محاولة للتعرف على ملامح هذا المسئول... الصغير السن ، والذى يتصنع الجد فى كلماته وحركاته .

قال إنه يعمل فى سكرتارية مجلس قيادة الثورة... وقدم لى مجموعة بالغة الأهمية من الأخبار الخاصة بمفاوضات الجلاء ، وأخبارا أخرى بالغة الأهمية ، وبالمصادفة وفيما ندردش ونحن فى طريق العودة ، قال إن عبدالناصر كان سعيدا جدا بعد حملة أغسطس ضد حدتو ، وأنه قال لأعضاء المجلس : «هنئوا زكريا ، لقد ضرب حدتو فى مقتل» .

استثارت هذه العبارة ، الشاب المشاغب الكامن فى أعماقى ، نهض وتحرك منفعلا .

رتبت مع الضابط أن يضع داخل ملفات المجتمعين فى مجلس الثورة نشرات ومنشورات حدتو... كتعبير عن التحدى لعبارة عبدالناصر . والغريب أن الرجل وافق بلا تردد .

كانت مطبوعاتنا قد بدأت فى الانتظام ، أرسلت مجموعات منها مع قريبة ، وتسللت مطبوعاتنا إلى ملفات أعضاء مجلس قيادة الثورة ، وكانت لطمة شديدة لكبرياء الجميع . إذ اصطفوا حول مائدة القيادة ليجدوا منشوراتنا وقد اخترقت دفاعاتهم... رفيقنا الضابط قال بعدها : إن أكثرهم شماتة فى جمال وزكريا كان عبداللطيف بغدادى .

وآن لنا جميعا أن ندفع ثمن خدش هذا الكبرياء ، وثمن هذا الشغب ، وصدرت فى اليوم ذاته تعليمات للمخابرات العامة التى كانت لم تزل وليدة أن تسهم فى الحملة ضد حدتو . وتعين على حدتو أن تتحمل ليس فقط الضربات من خصمين ، وإنما عبء المنافسة بينهما . (ولعلى قد احتجت لسنوات أخرى عديدة كى أتلقن من بين فنون العمل السياسى ، ألا تشاغب فى السياسة ، وألا تفعل ما يستثير فى الخصم ما لا تحتمل) .

وسرعان ما يوضع المسئول المحدود الخبرة فى امتحان صعب آخر .

كان يوسف صديق قد أبعد عن موقعه فى مجلس قيادة الثورة . وبعدها بفترة اتصل بى رفيق من إحدى خلايا كلية الحقوق اسمه محمد حلاوة ، وكان على علاقة قرابة بيوسف صديق أو بأحد أصهاره... وقال العبارة ذاتها : «أحد كبار الضباط يريد أن يقابل الرفيق المسئول» .

ورتبنا اللقاء فى فيلا أحد رفاقنا بالعباسية . وفى غرفة الصالون تبدى

الفارس الشامخ شخصا أسطوريا... شعيرات بيضاء تكسو فوديه فتمنحه مهابة خاصة .

كدت أرتجف وأنا أصافحه ، لولا نظرة حانية استقرت فى عينيه لتمنحانى القدرة والشجاعة كى أتعامل معه .

أغلقت باب الصالون ، ونهض هو ليقطع الغرفة كأسد محاصر . التفت إلىّ وسألنى : أنت المسئول ؟ قلت له الحكاية... أنا محاصر مثله ، وجدت نفسى فى هذا الوضع ، ولا أعرف إن كانت قراراتى صائبة أم لا ، أكدت أننى بحاجة إلى استشارة رجل مجرب مثله .

سألنى من الذى دبر وضع المنشورات فى ملفات ضباط القيادة ؟ قلت وأنا أرتجف خوفا : أنا ، وقلت إننا نحن الذين شاغبنا برش صور نجيب وجمال عبدالناصر بالحبر الأسود... وحكيت له كل ما فعلنا . انتظرت منه لوما... أو تعليقا ، لكنه اكتفى بأن احتوانى فى أحضانه فى حنان دافق . كنت متوترا وأوشكت أن أبكى .

وفوجئت به وهو يعاملنى كمسئول حقيقى .

بدأ من جديد يخطو فى الغرفة بعصبية واضحة ، كانت الكلمات المتقنة الصياغة تخرج من فمه كالشعر (فقد كان شاعرا مبدعا) وحكى :

بعد إبعاده عن مجلس القيادة ، وبعد فترة من التجاهل المتباعد ، استدعاه جمال منذ أيام ، تعاتبا طويلا ، شكا له جمال من نشاط زوجته علية (كانت عضوة فى حدتو) ، وشكا له من خلافاته مع أعضاء المجلس الآخرين ، ثم فجأة بدأ يتحدث عن مشكلاته وطموحاته ، وتصوراته للمستقبل ، وضيقه بالضغوط الخارجية ، وطموحه لأن ينسج نهجا خارجيا مثمرا ، وروى له بعض ما سمع عن سياسة نهرو الخارجية التى تتسق - أو

تحاول ـ فى توازن متزن بين أمريكا والاتحاد السوفيتى ، وسأله رأيه فى سياسة كهذه (أسميت فيما بعد الحياد الإيجابى) ، وهل يمكن أن تحقق شيئا مفيدا لمصر ؟ وهل هو شخصيا مستعد لأن يؤيد سياسة كهذه ؟ وترى ماذا سيكون رأى «الرفاق» فى سياسة كهذه ؟ وما أن أبدى «القائمقام» بادرة موافقة أو تأييد لموقف كهذا ، حتى بادره باقتراح أن يتولى منصب السفير فى الهند ليقوم من هناك من موقع التلامس المباشر ، بتقديم المعلومات والخبرة ، ونسج العلاقات (ولعل الأمر كان جدا ، ولعله كان إغراء سياسيا للفارس الذى يصعب إغراؤه بالمناصب ، فيسافر بعيدا عما تبقى له من نفوذ وسط الضباط ، ويريح ويستريح) .

صمت الفارس . وانتظر القرار . ألم أقل إن الأمر كان أكبر بكثير من طاقة فتى فى العشرين ؟ لكننى كنت صريحا ، ولم أخف ارتباكى أمام الفارس ذى الملامح الأبوية الطيبة ، شكوت له حقيقة المأزق الذى أجد نفسى فيه ، وأن ما يطرحه هو أعقد كثيرا من كتابة منشور ساخط ، أو كتابة مكثفة على الجدران ، أو صبغ صور الرئيس بمكياج أسود .

ولكننى مع ذلك اقترحت .

وقلت إنه ليس حلا بل مهربا .

«الرفاق القياديون فى السجن ، فليفرج عبدالناصر عنهم ، وليبحث الأمر معهم» .

وافق الفارس بلا نقاش ، ولعله لم يكتشف ، كما لم أكتشف أنا أنها كانت مجرد إضافة للمشاغبات المتعددة الأطراف . فها نحن نملى شروطنا الصعبة ، ونمليها فى الوقت الخطأ ، وبالأسلوب الخطأ ، وعن الطريق الخطأ . (علمت فيما بعد أن عبدالناصر ثار غاضبا عندما استمع لرد يوسف صديق ، صاح فى وجهه أنت لسه بتسمع كلام الناس دول . وكان رد الفعل مزيدا من

القيود عليه ، والقبض على زوجته الرفيقة علية توفيق ، لتبقى فى السجن بعضا من الوقت) .

ولم أزل - وبرغم مضى سنوات عدة - مندهشا من هذا الرباط السحرى الذى جعل فارسا كيوسف صديق يستمع فى طاعة لما يقوله فتى فى العشرين ، وينفذه دون نقاش .

* * *

وآن للحيرة الحيرى أن تختفى . كما آن الوقت للتحاسب .

فعبر دورة من الاتصالات الهامسة تلقيت رسالة عاجلة ، رفيق - عضو فى اللجنة المركزية - هارب منذ فترة يطلب الاتصال بنا ، ويريد سكنا آمنا .

سألت من هو . أجابوا عاكف الأسمر (كان هناك عاكف آخر هو أحمد الرفاعي وللتمييز سمى الآخر بالأسمر) ، أسرعت بنفسى إلى الموعد ، كنت متعجلا كى ألتقى بمن ألقى على كتفيه بأثقالى ، كما أننى قررت أن أستضيفه فى بيتى .

كان الموعد فى ليلة ممطرة من ليالى نوفمبر ، والمكان بقعة منزوية على كورنيش النيل بالجيزة . فى الموعد تماما استبان من ثنايا الظلام شبحان ، أحدهما الرفيق الذى يعرفنى والمكلف بإيصال عاكف إلىّ... ما أن اقتربا حتى أفلت الأول بعيدا ، واقترب شخص واحد ، تبقى أمامى رجل أسمر يكاد لا يتميز من سمرة ما بعد الغروب الشتوى ، لمحت أمامى ملامح متجهمة خالية من التسامح ، ولفافة من ورق الجرائد بللها المطر ، وملابس فقيرة ، هى ليست فقط غير لائقة به ، وإنما غير لائقة بالجو الذى تغلفه برودة مبكرة .

سلمت عليه بحماس مندفع ، تفحصنى بعين ثابتة متحفظة ، كأنى فى

كشف هينة . سألنى : البيت بعيد ؟ قلت : جدا . وأضفت : نأخذ «تاكسى» . ورفعت يدى لأشير لتاكسى ، لكن الرجل المتجهم شد ذراعى بعنف أوشك أن يخلعه . وقال فى حزم : لا تركب أول تاكسى تراه ، فقد يكون البوليس قد وجهه إليك عن عمد ، وأردف بترفع من يترحم على أيام زمان : هذه مسألة مفهومة من أيام ح .م (الحركة المصرية للتحرر الوطنى ٤٣ ـ ١٩٤٧) ، وانتظرت حتى استراح هو إلى تاكسى مسرع واتجهنا إلى البيت . كان طوال الطريق صامتا ، وصارما ، وملامحه التى حاولت أن ألتقط لها صورة متعجلة عبر بقع الضوء المسرعة مع التاكسى كانت جافة ، يخيل إليك أنها نحتت هكذا ، وهكذا ستبقى .

فى البيت ، تلفت ، جلس على أول كرسى ، وقال : كل سنة وأنت طيب . وجهت إليه نظرة مستفهمة ، فقال : النهارده ٧ نوفمبر عيد الثورة البلشفية . أحسست بخجل إزاء هذا الوجه الصخرى ، هو إذن يعرف معنى البهجة . وقلت : لنحتفل . ناديت البقال الملاصق للشباك ، ناولنى عدة زجاجات من البيرة .

وقبل أن نبدأ احتفالنا خلع البلوفر المبلل والذى ما أن جف حتى تبدى وكأنه بلا لون تقريبا من فرط قدمه ، تناول اللفافة الورقة ليخرج منها بيجاما ممزقة ، صيفية ، وبنصف كم . أسرعت إلى الدولاب ، أحضرت بيجاما صوف جديدة ، وصلتْ من المنصورة مع إطلالة الشتاء . فرح بها كطفل ، انحشر فيها رغم أنفها ، وبدا سعيدا ودافئا (فيما بعد قال إنه دفء العلاقة الرفاقية) .

فجأة استقام كمحقق... وسألنى : اسمك إيه ؟ قلت : شكرى .

هز رأسه وكأنه سمع بالاسم من قبل . وسأل : أنت المسئول ؟ قلت فى خوف : نعم .

قال ببساطة جافة لا تعرف كم ما تتركه من ألم : لقد أخطأتم كثيرا . سافر لون وجهى بعيدا ، وانطفأت فى عينى مساحات الاعتداد بالنفس ، والاعتداد بما فعلنا . وبدأ فى عملية تشريح قاسية... الشعارات متشددة ، لا تتعامل مع الواقع ، تلويث الصور عمل صبيانى ، ثم... لا أحد يعرف أننا نحن الذين نفعله . منشوراتكم مليئة بالحماس لكنها لا تقدم رؤية محددة واضحة . وفيم القسوة تتناثر من بين شفتين غليظتين ، وفم أسنانه مرتبكة ، وفيم الكلمات تستحيل طعنات قاسية ، انفجر الوجه الصارم ضاحكا ليتبدى الرجل الجرانيتى كطفل مرح . هو إذن يعرف الضحك ، وهذه الملامح ليست منحوتة فى صخر . وبعد ضحكة متفجرة قال : يخرب عقلك ، قلبت الدنيا ، برافو عليك ، أربكت حسابات البوليس الذى تصور أنه أسكت صوتنا ، بس قلبت الدنيا على رأسنا ، تعرف إنكم كتبتم بالضبط على جدار البدروم إللى كنا ساكنين فيه . حكى فى مرح طفولى كيف استيقظوا على صراخ البوابين الذين أحضروا جرادل ماء ليمسحوا شعارات تتألق مع محاولة غسيلها ، وكيف تطلب الأمر عدة أيام حتى حضر المخبرون ومعهم جرادل بوية يطمسون بها الشعارات . ثم فوجئ الجميع بأننا كتبنا فى تحد سخيف على الجدار ذاته بعدها بأيام .

ضحك مرة أخرى... وقال : أنتم ولاد جدعان ، لا تتصور كم كنا فخورين بكم ونحن محاصرون فى مخبئنا ، لقد أحسسنا أن الدنيا كلها معنا .

واستعدت بعضا من لونى ، وبعضا من ثقتى فى نفسى .

وعندما حضر محمود العطار (زميلى فى الشقة) قررنا أن نبدأ احتفالنا بعيد الثورة البلشفية . اصطفت زجاجات البيرة ، وبقايا طعام آت من المنصورة ، وثلاث تفاحات . أفلتت منه صيحة مندهشة : تفاح ؟ وعندما لاحظ أننا لاحظنا دهشته ، قال : فى بساطة : أنتم لا تعرفون فقر النوبيين .

تلاقت أعيننا أنا ومحمود وتركنا له التفاح ، حاول هو أن يقتسم... واحدة لكل واحد ، لكننا تحججنا بأقوال واهية وتركناها له .

بعد زجاجة البيرة الثانية بدأت أتلو عليهم قصيدة حفظتها في معتقل هايكستب (١٩٤٩) عن عيد الثورة البلشفية كانت القراءة مرتبكة ، ومليئة بالأخطاء ، وبثغرات حفرها النسيان ، سألني لمن هذه القصيدة قلت : لمحمد خليل قاسم . وقلت إنني حفظتها وأنا طفل عندما اعتقلت بالهايكستب ، قفز واقفا ليحتضنني : إذن أنت رفعت الذي كان أول من دخل المعتقل بالشورت ؟ (عندما وصلت أنا إلى الهايكستب ، كان هو قد غادره إلى السجن فقد حكم عليه بخمس سنوات سجن) . وفي المساء وعندما تمددنا على سرير واحد ، وفيما أحاول أن أفسح له مكانا أوسع ليستريح في نومه ، همس في أذني «مرة ثانية متلخبطش في الشعر بتاعي» .

هو إذن محمد خليل قاسم .

وفي الصباح ألقيت على كاهله عبء القيادة . ناقشني طويلا في خططنا وأساليب عملنا ، أفصح عن فنون بديعة في العمل السياسي ، وعن كيفية اتخاذ قرار سياسي ، ومعايير الأمن ، وبدأت أستمتع بصحبة ممتعة ومفيدة (ظللنا دوماً وحتى رحيله المبكر الأكثر صداقة ، والأكثر ارتباطا) .

جلس طويلا على المكتب . كتب منشورا . وافتتاحية نشرة الكفاح ، ورسالة دورية للرفاق عن أساليب العمل ، ودراسة عن قواعد الأمان . كل ذلك في سيل واحد يتدفق عبر يوم واحد ، وكأنه كان يختزنه انتظارا لهذه الفرصة .

كان يكتب... بإتقان غريب على ورق البافرة (ورق لف السجاير) وتتحول الكتابة إلى لفافات صغيرة جدا يسرع بها أحد الرفاق (من جهاز الاتصال) إلى جهاز الطباعة البدائي الذي صنعناه بأنفسنا (إطار خشب .

تشد عليه قطعة حرير . ثم أسطوانة من المطاط ، نفس موديل الجهاز الذى عملت عليه فى المنصورة) لتصدر سريعا نشرات ومنشورات .

واستقام الأمر . هدأت الأنفاس . وشعرنا كأننا نستقر .

وجاءت رسالة من رفيق . هناك رفيق قيادى هرب من سجن بنى سويف . وذهبت لأقابله (كان أحمد طه) وأخذته إلى بيت رفيقنا على مجاهد .

وبدأت أحوالنا وكأنها توشك على الاستقرار . كان كل منهما يمتلك خيوطا كثيرة ، وممكنات قيادية ، وعن طريقهما توصلنا إلى إمكانيات مالية ، واتصلنا بالجهاز المركزى للطباعة ، الذى كان يعزف عليه باقتدار كادر مبدع هو صابر زايد (ظل يعمل على الجهاز الفنى السرى وينتقل به من مدينة لأخرى طوال الفترة من ٥٢ حتى ١٩٥٩)... وتدفقت نشرات جميلة الطباعة ، متقنة الكتابة ، صائبة التوجه .

وتبدى الفارق واضحا أمام عينى... بين النضال والشغب .

* * *

وتسلمت رسالة من المنصورة تفيد أن أبى سيحضر للزيارة ، أو ربما للتفتيش الدورى ، وكان على عاكف أن يغادرنا مؤقتا . دبرت له مسكنا آخر . نظفنا المنزل من كل الأوراق الحزبية . وحضر أبى . وفى الليلة ذاتها (٢٥ ديسمبر ١٩٥٣) دق الباب ، تلك الدقات العنيفة التى نعرفها جيدا . قبضوا علىّ وعلى أبى معى .

وجدها ضابط المباحث «عبدالرحمن عشوب» فرصة لمحاولة الضغط علىّ ، وليهددنى بسجن أبى ما لم أعترف . عاملته بقسوة ، أما أبى فقد كان وياللدهشة متماسكا ، رافع الرأس ، يتعامل مع الجميع بترفع إلى درجة أن

بعض الرفاق السودانيين تهامسوا : إنه السكرتير العام للحزب . ووصلت الهمسة إلىّ... وانتزعت ابتسامة حزينة مكاناً لها على شفتى . وعندما أتى الصباح متثاقلا طلب أبى من الضابط أن يجرى اتصالا تليفونيا . بعدها جرت اتصالات عدة ، تدخلت الأسرة لإنقاذ عميدها وخرج هو على الفور صباح اليوم التالى . أما أنا فقد بقيت . لخمس سنوات وحتى ٢٥ ديسمبر ١٩٥٨ .

لمحات سجنية

... والسجن مختلف تماما عن كل تجارب الماضى .

المعتقل شىء آخر ، هناك الوعاء سياسى بحت ، أو فى أغلبه . هنا العكس . يتجمع الشيوعيون معا ، ولكن فى وعاء من قاع المجتمع ، أو ممن يفترض أنهم كذلك .

... وسنوات خمس فى السجن يستحيل تسجيلها ، لا هو ممكن ، ولا أنا أريد .

فالبعض توقف طويلا أمام فترات سجنه ، اجترَّ فيها كل ما كان ، وجعلها محور كل حدث ، وكل حديث . ولست مثل هؤلاء ، ولا أريد أن أكون .

فقط لمحات خاطفة ، كى لا ينقطع تواصل الصورة .

وكان سجن مصر أو كما أسمى قديما «قرة ميدان» قابعا فى قلب العاصمة ، تقريبا فى ذات المكان الذى توجد فيه نهاية كوبرى السيدة عائشة . وفى إطار وعاء لا يرحم ، ولا يفترض فيه معرفة الرحمة كوّن الشيوعيون بؤرة تجمع لهم . لكنهم كانوا هم أيضا منقسمين ، فتجمع كل فصيل فى بؤرته الخاصة .

وإلى الغروب... لتغلق الزنازين ويلتصق الناس داخلها ، يلتصقون بكل ما تعنيه الكلمة ، فكل الدخائل تتداخل ، ولا خصوصية ولا قدرة على الانفراد بذاتك .

وإذ تتداخل المشاعر تعرف كل الآخر ، كل شيء عنه . وتكتشف أن المناضل الذى يضحى بأغلى سنوات حياته فى سبيل قضية ، هو بشر ، إنسان عادى تماما ، فقط اكتسب زاوية رؤية جديدة . بشر عادى بكل ما يمتلك البشر العاديون من أخطاء وخطايا ، وأشياء صغيرة... ففى الزنزانة المغلقة يذوب الغلاف الذى يصنعه الإنسان لنفسه ، ويرتضيه لها . ويتبدى منه كل شيء ، حتى ما لا يرضى أن يعرفه أحد عنه .

وسأكتفى بهذه الأسطر فهى تغنى عن كل شيء . وهى تعطى صورة إنسان يعرف عن الناس ما لا يرغبون ، ويعرفون عنه ما لا يرغب... إنها وباختصار شديد صورة السجين .

وفى السجن نماذج مذهلة فى غرابتها ، كأن يدا مدت نفسها ، وتمددت حتى قاع المجتمع لتصل إلى أعمق أعماقه وتستخرج منها عجائبها وغرائبها ، وغير الأسوياء فيها .

لكن نماذج أخرى كانت أكثر غرابة ، رغم أنها فوق سطح المجتمع . بل وأعلى بكثير من سطحه .

أرستقراطى ضخم يفوح منه عطر يملأ حوش السجن ، مطلق السراح دوما ، لا قيود ولا حواجز ، ربما بسبب ما يغدق ، أو بتعليمات عليا .

البرنس محمود ناموق ، شخصية غريبة . آخر بقايا مستحقى العرش فى الأسرة المالكة . رجل واسع الثراء ، وثرواته منطلقة فى أرجاء عدة من العالم ؛ تركيا ، فرنسا ، أسبانيا ، وقصوره وخدمه وحاشيته كذلك ، لكن

مقره الرسمى جنيف ، يعيش حياة لاهية ، لا يتوقف عن إمتاع نفسه ، بكل ما يريد وكل ما تريد .

فى حديث صحفى لأحد أمراء الأسرة المالكة الهاربين فى الخارج أدلى به لصحفى أجنبى ، ردد اسمه باعتباره الوريث الشرعى للعرش المصرى ، ودعا الغرب إلى فعل شىء للإطاحة بحكم العسكريين وتنصيب صاحب العرش على عرشه .

ناموق لم يسمع بالتصريح ، ولم يهتم بشجرة العائلة ، ولا بمسلسل الوراثة ، الرجل مشغول بنفسه وبتدليلها . لكن حكام مصر اعتبروه خطرا داهما .

بالمصادفة البحتة - وعلى إثر تعطل طائرته وهو فى طريقه إلى موعد غرامى فى تايلاند - (كم يبدو مثيرا للدهشة أن يسافر شخص مهما كان مرفها وثريا ومنعما من جنيف إلى تايلاند من أجل موعد غرامى) . واضطرار الطائرة للهبوط فى مطار لم يكن مقررا لها أن تهبط فيه ، بهذه المصادفة وحدها وقع «البرنس» فى يد المخابرات المصرية .

وعلى عجل حوكم ، ظل مندهشا طوال المحاكمة ، وعلى عجل صدر الحكم بسجنه خمسة عشر عاما ، وظل مندهشا طوال فترة سجنة .

والتقيت بالبرنس فى مستشفى السجن حيث أتاحت لى وساطة عائلية إقامة هناك لفترة ليست بالقصيرة . كان ضخما ، ومترفعا ، ومثقفا ثقافة رفيعة ، كم أدهشنى بفيض معلوماته ، كان من هؤلاء الذين يعتبرون الثقافة متعة ، وأمتع نفسه كثيرا ، وطويلا جلسنا معا يحدثنى عن حياته ومغامراته الغرامية (من بينها علاقة حب مع الممثلة جريس كيلى التى أصبحت أميرة موناكو . من أجلها دفع كامل نفقات إنشاء سينما فى السجن ، واشترى كل أفلامها لتعرض تقريبا كل يوم) ، وكان فيض ثقافته الرفيعة فى الفن ، والشعر ، والأدب ، والأديان

المقارنة ، يتدفق مثيرا انبهارى ، كان الآخرون فى المستشفى يفضلون الثرثرة المتجردة من أية جدية ، فهموم السجن تكفى ، ووجد فىَّ مستمعا دائما ، وأتقنت معه فن الاستماع ، واستمتعت فعلا باستماعى إليه . ولعل أكثر ما أبهرنى هو دراسته العميقة لتاريخ الفراعنة ، وكان يقرأ الخراطيش الهيروغليفية ببراعة أثارت دهشتى ومتعتى فى آن واحد .

كان أكولا يأكل بشراهة مثيرة للدهشة ، يقتسم معك أى شىء ، إلا الطعام الهائل الكمية ؛ الذى يأتيه يوميا من الخارج .

تولت الأميرة نسل شاه رعايته ، أمر بتحويل قدر من أمواله إليها ، وأنفقت عليه بسخاء ، وكانت تمتلك حظوة واضحة (بررتها الهمسات المتبادلة بأنها على علاقة بأحد قادة الثورة) ، وبفضل هذه الحظوة عومل البرنس كبرنس . طعام يومى من الخارج ، إقامة دائمة بالمستشفى ، حقوق لا يتمتع بها أى سجين ، بما فيها حقه فى التجول فى السجن فى أى وقت ، وأى مكان ، وكان سيل أمواله المتدفق يكفل له إرضاء الجميع .

وكانت أيام زيارة البرنسيسة له مشهودة ، قطعة جميلة من المرمر الوردى ، تتدفق جمالا وحيوية وترفعا ، كأنها واحدة من آلهة الأوليمب ، يصحبها شماشرجى يفسح أمامها الطريق هامسا «البرنسيسة» ولم تكن بحاجة إلى من يفسح لها الطريق ، فعطرها الذى يظلل المكان كله ، ومشيتها المترفعة كانت كفيلة بذلك .

وتمضى سنوات دون أن يفارق البرنس بقامته المهيبة ، وثقافته الراقية الموسوعية مُخَيلَتى... وأحزن - ولم أزل - إذ أتذكر أنه مات فى السجن ، دون أن يحقق حلمه الأخير . أن يخرج من السجن بأى ثمن ، ليتم رحلته إلى تايلاند ، ويحقق لقاءه المنشود بفتاة تايلاندية ضرب لها موعدا غراميا .

* * *

وفى زمن آخر ألتقى فى السجن بمرفهين آخرين تسجنهم حكومة الثورة وتأمر بمعاملتهم معاملة مميزة... د . راشد البراوى الذى كان أثيرا لدى رجال الثورة ، وتصور البعض ، أو حاول هو أن يصور للناس أنه المفكر والمدبر لهؤلاء الشبان العسكريين ، ما لبث العسكريون أن انقضوا عليه ، عبثا حاولت أن أخدش وعاء معلوماته ، أو حتى أعرف منه سر هذا الانقضاض ، لكن المسكين كان مذعورا ، وكان ذعره مستديما ، يخيم عليه فى كل لحظة ، وفى كل تصرف ، ينسى أى شىء إلا الخوف ، لم ينطق بحرف ، ولم يتفوه بلفظ ، وكان يتصور ، أن خلف كل حائط ميكروفون للتسجيل ، وأن كل رجل هو بالضرورة جاسوس للحكام... وظل هكذا دوما .

وكان هناك الغريمان الشهيران د . يوسف رشاد ومصطفى كمال صدقى ، كان رشاد يتكلم بلا انقطاع... نافورة دائمة من المعلومات المثيرة للدهشة ، عن الملك وعن الضباط ، وكان يتحدث عنهم بأسمائهم المجردة ، وأحيانا بتهكم واضح ، ويروى عنهم ما يثير السخرية منهم ، دون تحفظ أو خوف ، وكان أغلب حديثه منصبا على أنور السادات ، وعلاقتهما المشتركة ، ودهشته كيف استطاع «أنور» أن يركبَ الجوادين معا ، وحتى آخر لحظة .

والعلاقة بين الغريمين الشهيرين تظل حميمة فى الظاهر ، ويتبادلان الطعنات من الخلف دوما ، أما الأكثر شهرة منهما معا... ناهد رشاد فكانت تحضر يوميا تقريبا لتقتسم الوقت المخصص للزيارة بينهما ، لكنها قسمة غير عادلة فلمصطفى النصيب الأكبر دوما .

* * *

وفيما تتراكم أيام السجن الواحد فوق الآخر ، وقع الزلزال . انفجر لغم شديد الانفجار . فالرفاق القياديون الذين كانوا فى السجن الحربى رحلوا إلى حيث نحن فى سجن مصر .

الأسماء اللامعة كلها أتت... محمد شطا ، زكى مراد ، محمد خليل قاسم ، أحمد طه... إلخ ، ولست أتذكر كيف انفجر اللغم ، المهم أنه انفجر ليهز وجداننا جميعا .

واللغم هو ما أسمى فى تاريخ هذه الحقبة «ببيان السجن الحربى» . ففى خلال فترة وجودهم فى السجن الحربى وقعت تطورات غير مهمة لكنها ملموسة لمن يريد أن يتلمسها ، وفد اقتصادى إلى الاتحاد السوفيتى ، تصريحات انتقادية ـ ولو بقدر مخفف ـ ضد السياسة الأمريكية... ونفخ رفاق حدتو (الذين ربما كان البعض منهم يتمنى التخلص من عقدة انتقاد تأييده لحركة الجيش ، بتأكيد أنها تستحق تأييداً ما) ، نفخوا فى بالونة هذه التطورات ليضخموها ، ويجعلوا منها ما يستحق مراجعة الموقف من نظام «الديكتاتورية العسكرية» .

وصياغة البيان ليست مستحقة للتجريم فى حد ذاته ، فالجمل جرى ـ كالمعتاد ـ اختيارها بعناية ، لكنها ـ وكانت هذه هى الجريمة فى نظر الكثيرين ـ تفتح الباب ـ وإن كان مواربا ـ لتفاهم أو شبه تفاهم ، أو احتمال تفاهم مع حكومة يتخذ الجميع موقف التسابق فى إظهار مدى العداء غير المتأنى ، أو غير القابل للتعديل إزائها . وتتخذ هى ذات الموقف منهم .

انفجر اللغم فى وجوه كثيرة ، وعادت حدتو من جديد لتصاب بذات الفيروس القديم الذى سبب لها مشكلات تنساب بلا توقف ، وتراكم نفسها ككرة ثلج أبدية المسار ، فيروس الاتهام بتأييد حركة الجيش .

انفجر اللغم فى وجوه الجميع ، فحدتو الآن تشنق بعضها بعضا ، تقتل بعضها بعضا .

بلغ الأمر مداه عندما انتحى بى أحمد مصطفى (بدأ حياته السياسية فى النشاط الإرهابى ضد قوات الاحتلال بالإسكندرية) وسألنى عن رأيى ، كنت فى حالة حيرة حقيقية ، فلست أوافق على البيان ، ولست أوافق على حملة الاغتيال المشرعة فى وجوه القادة الموقعين عليه ، خاصة أن قلبى كان منحازا تماما لصديقى محمد خليل قاسم ، ولم أكن لأسمح باغتياله هكذا .

انتحى بى أحمد مصطفى ، وقلبى يرفض الاغتيال المعنوى ، فإذا به بهدوئه الصامت يعرض فكرة الاغتيال الفعلى ، وكاد أن يغمى علىَّ . سددت الباب فى وجهه ، تأكدت أنه سد تماما... وأغلقته بمفتاح لا يفتح ، وبعد أن تأكدت أنه تخلى عن هذه الفكرة ، قررت أن أعتزل الجميع .

فلست أريد أن أشارك فى حملة التهجم المفترسة ، كما لا أريد أن أنحاز لمن ارتكبوا الخطأ . حملت فراشى ورتبت أن أسكن وحيدا فى زنزانة انفرادية ، مدعيا أننى أريد أن أتفرغ قليلا للمذاكرة (كان من حقنا أن نحضر الامتحانات ، وما لبثنا أن فقدنا هذا الحق) . الوحيد الذى كان يتابع حركتى هو محمد خليل قاسم ، جاء إلى زنزانتى وصمم أن يفتح نوافذ النقاش فى الموضوع .

تجنبت فى البداية فلست أريد أن أمنحه أى قدر من الحرج ، لكنه ألح ، بل وبادر بهجوم مستفز كى يخرجنى من مكمنى وأرد عليه ، ونجح ، وبدأ نقاش طويل فى سبب اعتزالى .

ولقننى درسا أو بالدقة درسين :

إن كنت تحبنا فأنقذنا ، وأوضح للآخرين أسلوبا أفضل للنقد والانتقاد .

والثانى : خذ موقفا ، أيا كان ، فهذا أفضل من أن تنسحب من ميدان معركة مشتعل .

وخضت معركة... بل معركتين ، معركة ضد موقعى البيان ، ومعركة ضد من يمارسون معركتهم بأسلوب خاطئ ، وغير سياسى ، وغير متحضر ، بل وغير إنسانى .

وحملت فراشى... تاركا الزنزانة الانفرادية ، لألقى بنفسى فى بيت النار المشتعلة .

* * *

وفيما تتواتر أيام السجن ، وتتوتر ، تنفجر أزمة مارس ١٩٥٤ .

وكانت حدتو على عادتها القديمة ، تصادمت حتى ترجل أكثر فرسانها فى ساحة السجن أو المعتقل ، وأتت الانتفاضة الجماهيرية ، والانتفاضة المضادة ، لتجد كل لجنتها المركزية بلا استثناء فى السجن وأغلب كوادرها كذلك (واحتاج الأمر بعضا من الوقت كى يتداوى هذا الجرح أو يحاول ، وتشكلت لجنة مركزية مؤقتة من ثلاثة : محمود توفيق . إبراهيم خلاف . صلاح حافظ) .

وهكذا وجد المحاصرون فى السجن أنفسهم فى حصار مزدوج ، لعله الأشد قسوة ، أن تكون فى السجن ، وتجد الدنيا كلها تتفجر من حولك ، لكن جيشك رغم وجوده ، مبعثر وعاجز عن الامتثال للضرورة الملحة .

وتعلقت أبصارنا وأنفاسنا وربما مصائرنا بأنباء تتوالى ، تأتى عبر النوافذ المطلة على الشارع... ليست مطلة تماما فثمة مساحة فاصلة وسور مرتفع ، لكنك على أية حال ترى أشباحا ، وتسمع رذاذا من الكلمات هو

طبعا لا يفى بالغرض ، ولا يبل ريق المتلهف لكل تفاصيل المعطيات ، لكنه خير من لا شيء .

ويتوقف الأمر ـ بطبيعة الحال ـ على مصدر المعلومة ، فالأغلب فى هذه المصادر أمهات مسكينات أتين يسألن عن صحة الولد ، وإن كان بخير ، أو كان يحتاج شيئا ، فما كان لرفيق أن يقف هذا الموقف حيث الأعين الأمنية تتلصص على كل كلمة وكل شخص .

والأمهات المسكينات يجدن الشوارع وقد أثمرت مظاهرات صاخبة ، ولا يفرقن بين تلك التى تعارض حكم العسكر ، أو تلك التى تهتف « تسقط الديمقراطية » .

وفى عصر واحد من هذه الأيام انتصبت خيزرانه بنية اللون (إن وجدت نوعا من الخيزران كهذا) أو ساق نخلة ملساء وبلا تضاريس (إن وجدت نخلة كهذه) نادت على ابنها بلكنتها النوبية المميزة « يانور » وترددت فى أرجاء العنبر أكثر من صيحة « يانور » وتدافع إلى زنزانة مطلة على طاقة الأنباء كثيرون ممن تعلقت أنفاسهم بما يجرى فى الخارج عبر ما أسميناه فيما بعد « وكالة الأنباء النوبية » . تعلق نور جاسر بالشباك المتشابك القضبان وألقى ببضعة جمل باللغة النوبية ، تأملت الخيزرانة البنية فى الأسئلة ثم أجابت .

هبط « نور » من فوق أكتاف الرفاق ، وألقى أمام الحاضرين بالإجابة عما يجرى خارج الأسوار... « دنيا أويالامنجا » هز زكى مراد رأسه بإمعان وعبثت أصابعه بشاربه كما اعتاد دوما ، ثم التفت إلى مبارك عبده فضل ، ومحمد خليل قاسم قائلا : « دنيا أويالامنجا »... وهزوا رؤوسهم بإمعان .

وبالشرح... فهمنا أن الست أم نور لخصت الأمر كله فى عبارة نوبية تقول «الدنيا تقف على إصبع واحد من قدمها» .

ويتبقى أن نقيم تحليلا سياسيا عبر هذه العبارة .

* * *

ومن سجن مصر إلى سجن القناطر ، وهو واحد من أسوأ السجون السيئة . فالرطوبة هناك أعلى من أى مكان آخر ، الجدران دوما ترتدى قطرات من الماء تخنقك فى الصيف ، وتصيبك بالرعشة فى الشتاء .

لكن الأمور تمضى خاصة إذا ما كانت الظروف متحسنة ، ولا تداخل يتدخل فى حياة السجناء الذين سرعان - وبأقل قدر من الحرية - ما يستطيعون أن يدبروا أحوالهم .

وكنا نقترب من زمن المحاكمة . والقاضى هو المستشار «م .ع» . عرف الجميع عنه أنه يتلقى قائمة الأحكام من الأمن ، ويجلس فى الجلسات غير منصت ، ثم يتلو ما تلقاه من أحكام .

وطبعا .

«من يهن يسهل الهوان عليه» .

فإذا كان قادرا على أن يتقبل أوامر من الغير ، فلم لا يفعلها لحسابه . واختار من بين الأسماء من كان يستطيع أن يدفع . وبلا مقدمات زارت محامية شهيرة تمت له بصلة القرابة أبى لتعرض عليه صفقة غريبة .

الإفراج بدلا من خمس سنوات سجن أشغال . مقابل خمسة آلاف جنيه . السنة بألف جنيه (وبمعيار هذا الزمان يبدو المبلغ مبالغا فيه) ، واشترطت أن يصمت الفتى أثناء المحاكمة فلا ينطق بخير أو بشر (كانت حدتو لم تزل تعانى من عقدة تأييدها لحركة الجيش ، فمارس شبابها هواية

الدفاع السياسى بمناسبة وبلا مناسبة ، يهاجمون الحكم ، يفرغون من أعماقهم غضبا غاضبا يتخذ بذاته دليلا لإدانة من لا دليل قضائى ضده)... حضرت أمى لزيارتى تحمل البشرى وتلح فى القبول . أسرعت هامسا لمسئولى طالبا منه قرارا .

كان المسئول هو الرفيق سعد رحمى ، كان وترا مشدودا بأشد ما يمكن من تشدد ، وما أن تتلمسه حتى تنطلق معزوفات الهجوم والإدانة للحكم ولتصرفاته .

انتفض المسئول لمجرد سماع الفكرة ، فإذا كان الأغنياء يفلتون بجلدهم فما حال الفقراء ؟ ثم ومن سيدافع عن خط الحزب وسياسته إذا كان الكادر الأساسى فى القضية سيصمت ؟ (كان مثل هذا الدفاع مجرد تسجيل موقف ، بل يوشك إذ أنظر إليه بعينى اليوم أن يكون عملا طائشا . فالجلسات سرية ، فإن خاطبت ستخاطب قاضيا لا يختلف فى كثير أو قليل عن رجال الأمن ، بل إنه لم يكن ليسمح لنا بالقول ليستدرجنا كى نكتب ، فيريح نفسه من الاستماع ، ويضمن ألا يسمعنا أحد ، ثم ها هو يتلقى دليلا خطيا قدمناه نحن ضد أنفسنا ، والغريب أننا من فرط حماسنا كنا نقضى الليل منحنين ونحن جالسين القرفصاء مستخدمين غطاء جردل المياه لنستند إليه فى الكتابة ، ثم نتسارع فى بداية الجلسة لنقدم أوراقا لن يقرأها أحد ، لكنها تضفى على أحكام سبق وضعها قبل المحاكمة ، صفة المشروعية) .

انتفض الوتر المشدود ، عزف كل المعزوفات التى تعزف كل يوم ، ولم أجد مجالا لنطق ، فلو تعلق الأمر بغيرى لقلتُ حُججاً كثيرة... أن يفلت واحد ، فى زمن تحتاج فيه حدتو إلى أى جهد بالخارج ، وعشرات من حجج تمتلك قدرا من المعقولية لمن يمتلك عقلا عاقلا أو يمكنه أن يتيح لهذا

العقل مساحة من الفعل ، لكن الأمر يتعلق بى ، وما أسهل أن أتهم بالضعف... والتخاذل وأشياء كثيرة أخرى .

فتحليت بالصمت المحكم وغير الحكيم ، وضاعت الفرصة . وبالفعل كان الحكم كما وعد سيادة المستشار أو كما توعد .

خمس سنوات أشغال شاقة .

* * *

ونذهب للمحاكمة . فنبقى لفترة فى سجن الاستئناف . وهو سجن غريب . فبقدر ما فيه من تسيب تاريخى ، بقدر ما يحتشد فيه المحكومون بالإعدام .

ويكاد يتلامس معه بيت الست أم حسن ، التى اكتشفت أن فى بلكونتها كنزا ، فهى تؤجرها بالدقيقة لراغبى التخاطب مع السجناء ، زوجة أو أم أو حبيبة ، أو حتى محام يرتب أمور القضية مع موكله .

وهناك التقيت بشخصية فريدة ، الأستاذ إبراهيم هلال رئيس جمعية الأمة القبطية ، وللمرة الأولى والأخيرة ألتقى بمن يمكن تسميته أصولى مسيحى ، وكان يعرض أطروحاته بحماس متزن ، فهو لا يعرف مدى ومساحة رد الفعل لدينا ، لكن أغلب انتقاداته كانت موجهة للبطريرك آنذاك (الأنبا يوساب ولمعاونه... ملك) ، ولأسلوب الكنيسة فى إدارة نفسها ، وفى إدارة حركة مطالبتها بمطالب الأقباط .

وذات يوم طلبوه للزيارة ، حضر صامتا ثم انتحى بى ليحكى لى القصة . زاره إبراهيم المنياوى باشا ـ أحد أقطاب الأقباط ـ ليبلغه رسالة من الحكام : هو سيمثل غدا أمام المحكمة (القاضى هو... ذات القاضى المستشار م .ع ، والترتيبات هى ذات الترتيبات) والمساومة هى : أن

يذهب للمحكمة ليعلن تأييده للحكومة ، وأنه بتحركه فى محاولة اختطاف البطريرك كان يمارس عملا قبطيا صرفا ، وأن يعلن تأكيده على حل جماعة الأمة القبطية ، وإلا فإن القاضى مكلف بالحكم عليه بالسجن خمس سنوات أشغال شاقة .

استشارنى ، وانتابتنى حيرة ، فأنا لم أزل أعانى من قرار المسئول المتشدد ، وأعرف معنى تنفيذى لهذا القرار ، لكننى لا أستطيع أن أدفعه دفعا إلى التخلى عما يعتقد . راوغته طويلا واعتذرت فى النهاية عن تقديم أية مشورة ، قلت له : فكر طويلا ، وحكّم ضميرك . صمت وقال : سأقضى الليل أصلى ، وسيمنحنى يسوع القرار الصائب .

فى الصباح عجلوا وأخذوه قبل أن نلتقى . عاد بعد الظهر... ترافع عن نفسه ودافع عما فعل (كان محاميا) فاجأ الجميع بأن حكى قصة زيارة المنياوى باشا ، والمساومة التى عرضها عليه... وأكد أنه سوف يحكم عليه بخمس سنوات أشغال شاقة .

استمع القاضى فى هدوء ، والمحامون فى ذهول... وفى الغد أصدر القاضى الحكم المقرر ، لم يتجاسر أن يغيره حتى ولو من قبيل إثبات خطأ المتهم ، أو خطأ التهم التى ساقها إليه من أنه يتلقى أوامر من الأمن .

* * *

وأتت محاكمتنا فى اليوم التالى . كانت هزلية وهزيلة . نحن نصرخ ، ندين القاضى وندين الحكام ، وهو يعرف أننا نعرف أنه ينفذ ما يصدر إليه من تعليمات .

لكن مشكلة حقيقية واجهته من الناحية القانونية... أكثر من ثلث المتهمين كانوا من السودانيين وكانت خيوط الأدلة - إن وجدت - متشابكة

معهم بالأساس ، لكنهم وبدون قرار من النيابة بل وحتى دون إخطارها ، أخلى سبيلهم ورحلوا إلى السودان .

سأل القاضى فين المتهمين ؟ أجابت النيابة : لا نعرف .

(كانت ضغوط السودانيين قد تصاعدت على صلاح سالم مطالبة بالإفراج عن المقبوض عليهم ، كان يعد ولا يفى ، وفى كل مرة يعاود الوعد ، ويراوغ . وذات مرة أتى وفد من شيوخ القبائل السودانية ؛ كنا قبل عيد الأضحى بعدة أيام ، وصمم أحد المشايخ أن يفرج عن الأولاد قبل العيد ليعودوا معهم . وفاجأ الجميع بأن أقسم بالطلاق بأنه لن يغادر إلا ومعه الأولاد . أسقط فى يد صلاح سالم ، وفى المساء أتوا وأخذوا الأولاد ليسافروا على ذات الطائرة مع المشايخ . ولم يهتم أحد بأن يبلغ النيابة بذلك . وفيما القاضى مستفز ، أو متظاهر بذلك ، روينا له القصة أو بعضا منها ، كنا نضحك ، والمحامون كذلك . واكتفى هو والنيابة بمزيد من الحرج) .

على أية حال ، نفذنا أوامر المسئول . تشددنا فى هجومنا الشديد على القاضى وعلى النظام ، ووقعنا - وبرضاء شغوف - فى فخ كتابة دفاعاتنا ، مقدمين أدلة خطية ضد أنفسنا ، وجدها هو سببا سهلا لإنفاذ الأحكام التى صدرت له ، ضد متهمين لم تكن ثمة أدلة جنائية ضدهم .

وصدرت الأحكام... ذات الأحكام التى عرفنا بعضا منها قبل أن تصدر . لم يجد القاضى أى مبرر يدفعه للخجل ، فيدفعه ليغير ولو طفيفا . ففعل ما أمر به .

... وبعد التصديق على الحكم رحلنا إلى ليمان طره حيث عالم مختلف تماما... ومنه إلى سجن جناح فى قلب صحراء الواحات الخارجة .

أحلام ... سجن جناح

... ومن ليمان طره إلى سجن جناح . هل ثمة سجن رومانسي ؟ إن وجد ، فهو هذا السجن الذى تلاشى . ويندر أن يتكرر .

هناك بعيدا عن أى شيء وكل شىء . فى أعمق أعماق الصحراء ، أقاموا حاجزا هشا من الأسلاك الشائكة وخياما .

وما من مهرب أو سبيل إليه ، كل شيء ممكن نظريا ، أن تجتاز السلك ، هذا ممكن وسهل . فهو فعليا بلا حراسة ، ولكن أين وكيف تذهب ؟ مئات الكيلو مترات من الرمال تفصلك عن البشر . أى بشر . وكما أقام السجانون حاجزا رمزيا من الأسلاك الشائكة ، كذلك فعل السجناء ، كانوا أما إخواناً وأما شيوعيين ، ووجد الإخوان أن الاختلاط أمر غير مرغوب فيه .

وإذا كان سلك السجانين يمكن اجتيازه ، فالسلك الآخر غير ممكن ، فثمة عيون إخوانية متشككة تترصد كل من يقترب منه .

والناس منطلقون هنا ، كلٌ يفعل ما يحلو له فى حدود هذه العزلة التى تعزلنا عن العالم ، وساعات الشروق الصحراوى المبهر والأجمل من أى شروق آخر ، والغروب أيضاً ، ومساءات الصيف المسائية الصافية كمياه بحر

رائق ، حيث النجوم نجوما ، قادرة دوما على التألق ، كل ذلك متاح . وكل يوم .

والمتعة الأكثر امتاعا ، كانت ذلك النبع الصغير الذى يبتعد عن موقع السجن حوالى كيلو مترين . كنت أذهب مع السيارة الفنطاس ، وأضع ماسورة على فوهة النبع والأخرى فى فتحة الفنطاس الذى يجد لنفسه مكانا منخفضا تماما أعدته الطبيعية لنا ، أو بالدقة لتجعل الارتواء من ماء هذا النبع الرائق أمرا ميسورا .

ساعات طوال قضيتها بجوار هذا النبع وأشجار السيسبان تمنحنى ظلا وتكمل اللوحة البديعة... كثبان رمال لا نهائية الامتداد ، وماء يتدفق فى تأن ولكن بلا انتهاء . وخضرة خضراء حقا . ساعتها كنت أحلق بعيدا عن السجن وأدرك المعنى الحقيقى لأن تكون إنسانا .

وفى جناح يمكنك الانزواء بنفسك ولو قليلا ، وهو ما يحتاجه بعض السجناء الذين يرهقهم هذا التداخل المتداخل... بين أكوام البشر المحتشدين فى مكان واحد .

وهناك أمكننى أن أقرأ كثيرا . فكثيرا ما كنت أنتزع نفسى إلى أقصى نقطة تتلامس مع حدود مملكتنا لأنزوى وأقرأ . ولأستمتع بمتعة اعتزال هذا الاحتكاك المنغمس مع الآخرين .

وهناك أيضاً امتلكت ما ميزنى عن الجميع ، ومنحنى فرصة زيادة الجرعة الرومانسية . فبعد أيام من وصولى إلى هناك . توليت مسئولية مبهرة . كان الرفيق ألبير قد نجح فى تهريب راديو ضخم (فى هذه الأيام كانت ضخامة الراديو دليلا على مساحة إمكانياته) وبه كان يمكن الاستماع إلى مئات المحطات .

تسلمت مسئولية إخفاء الراديو حتى عن أعين الرفاق (أعددنا له

صندوقا محكما ينام فى حفرة عميقة داخل خيمتي ، وما أن أنتهى من حاجتى إليه حتى يختفى الصندوق تحت ستار من رمال كثيفة) ومسئولية الاستماع إلى نشرات الأخبار . لأسجلها وأعد نشرة إخبارية يومية ، ولعلها كانت أهم رباط بيننا وبين العالم .

وكنت استمع لعشرات من نشرات الأخبار لندن - واشنطون - موسكو - القاهرة... ونشرات أخرى لا تخطر على بال أحد... وأعد نشرة محكمة بكل ما يمكن أن يعرفه إنسان عن أخبار هذا الكون ، ولكن كانت المتعة الحقيقية أن أستمتع بموسيقى وأغنيات اشتقت إليها . وامتلكت متعة الانسياب معها فى هدوء منفرد .

وبين جلسات النبع المسترخية ، التى اعتدت أن أطلق فيها خيالى بلا حدود ، وجلسات الاستماع المستمتع لبرامج موسيقية وغنائية ، وجلسات القراءة المنزوية بعيدا عن شغب الصخب الجماعى كانت جناح بالنسبة لى سجنا مثاليا .

* * *

وتأتى أيام تصبح فيها الأخبار خبزا حتميا... تأميم القناة ، عدوان ١٩٥٦ ، ويعمل الراديو فترات إضافية ، وأحيانا بلا انقطاع تقريبا .

وكان رد فعل عدوان ١٩٥٦ غريبا على المعسكرين المتجاورين ، أو المتواجهين .

الإخوان كان شعارهم لهذه الأيام "لا عدوان إلا على الظالمين" ، والشيوعيون رفعوا شعار "الدفاع عن الوطن" وفى أحيان ما ، يتحول السياسى ؛ إذ يطلق شعاراته إلى ممثل يتلبسه الدور المسرحى فيفعل المستحيل كى يتقن أداء الدور . ومن هنا ... فأنت قد ترفع شعارا سياسيا لا

يلبث أن يتلبسك فيستبد بك ، وهكذا انهمك الشيوعيون فى إعداد أنفسهم وهم على بعد بعيد من أى عمران ، دون أى أمل أو حتى بصيص أمل فى الإفراج عنهم – جندوا أنفسهم ، وتدربوا ، حملوا بنادق خشبية واصطفوا طوابير تولى تدريبها الرفيق محمد مختار جمعة (شاويش تعليمجى بالجيش – سابقا طبعا) واستعاد الرجل أيام مجده ، وأخذ الحكاية جدا ، وصمم أن يذخلنا فى سلك العسكرية ، وكل ما امتلكه وما امتلكنا ، أن يعلمنا الخطوة العسكرية ومشتقاتها .

وأتأمل ما فعلنا ، لعله يثير الضحك . صفوف من مئات السجناء يوقظون فجراً بأمر عسكرى ، يصطفون ، يمشون ، يُحْكِمون الخطو... صفا ، انتباه . كتفان سلاح... وفقط . ويفعلون ذلك بحماس متحمس وكأنهم فى الغد متجهون لقتال العدو ، ولعلهم كانوا بذلك يفرغون شحنة عاطفية نحو الوطن المشدود إلى حبل العدوان ، أو لعلهم كانوا يوضحون لأنفسهم وللآخر (الإخوان) الفارق بينهم وبين هذا الآخر .

أتأمل ذلك . أى حالة تلك التى تلبستنا جماعيا ، وأمتعتنا وبحماس منقطع بالامتثال لأوامر وتعليمات الشاويش مختار جمعة . وكأننا قد سكبنا كل محبتنا للوطن فى خطونا العسكرى المفتقد طبعا لأصول الصنعة .

إنها حالة لا يمكن وصفها... ولا الحديث عنها . هى هكذا وفقط .

أما الإخوان فقد كانت أحداث العدوان إيذانا بإحداث شق فى صفوفهم .

وربما لم يكن مصادفة أن يتزعم هذا الشق سجناء منهم ضباط سابقون فى الجيش (فؤاد جاسر – حسين حمودة – جمال ربيع) أوجعتهم عقيدتهم العسكرية إذ وجدوا قيادتهم الإخوانية تمتلئ سرورا بالعدوان على جيشهم ووطنهم ، وبطبيعة الحال اتخذ الخلاف أشكالا ومساحات عدة وتباعد بعيدا

عن هذا التصرف الصغير المتمثل فى الشماتة فى العدوان على مصر ، ليتواصل حتى جذور الجماعة ، وفكرها ، والجهاز السري ، والاغتيالات ، وهل هى "جماعة المسلمين "أم" جماعة من المسلمين" ؟

وباختصار... وقع المحظور ، وانقسمت الجماعة التى لم تعان من انقسام حقيقى وواسع كهذا داخل السجون من قبل... مؤيدون ، ومعارضون هكذا كانت الأسماء . والتأييد والمعارضة يتوجهان إلى الحكم .

وانسكبت مرارات غزيرة بين الطرفين ، وتصاعدت صيحات ، وأحيانا مشاجرات ، كنا نسمع ضجيجها من على البعد ، فلم نكن نريد ، ولا نستطيع أن نصبح طرفا .

وفجر ذات يوم ، تفجرت هتافات أيقظت المعسكر ، وهزت سكون ليل الصحراء الذى لا يهتز . "الله أكبر ولله الحمد" تفتحت الأعين والآذان والعقول ، ثم تسللت همسات عبر المؤيدين...

الشيخ شريت أحد قادة الجماعة ومفسر أحلامها ، أغفى قبيل الفجر فانساق إليه حلم "عجل يرتدى تاجا من الذهب ، ويجلس على عرش من ذهب ثم يسقط" والحلم لا يحتاج إلى تفسير لكنهم فسروه سريعا... العجل عبد الناصر ، وسقوط التاج يعنى سقوطه ، وسقوط النظام معا .

سمعنا القصة ، ونسيناها على الفور ، فما كان لنا أن نهتم بأمر كهذا .

فقط يومان ، ثمانى وأربعون ساعة لا أكثر ، أتى الصباح ومعه حالة من الارتباك التى نعرف معناها ، ثم بروجى يدوى "سلام اللواء" .

هو إذن تفتيش على مستوى عال ، حاولنا أن نتطلع ناحية مبنى الإدارة لكن الإجابة أطلت دونما حاجة لسؤال .

هذا الجسم القصير النحيل الذى ينتشى بزيه العسكرى ، وانحناءات الجميع ، هذا الوجه التركى القسمات ، المترفع الملامح الذى نعرفه جميعا ،

ونكرهه جميعا "همت باشا" أو "اللواء إسماعيل همت نائب مدير عام مصلحة السجون" .

أطل من باب الإدارة متجها فى كوكبة من الضباط والجنود ناحية المعسكر . تحسبنا أن يتجه نحونا ، لكنه انزاح إلى الناحية الأخرى .

والإخوان هم أكثر من يعرف همت ، وأكثر من عانى من شراسته ووحشيته ، وما أن سمعوا الاسم حتى تراجعوا إلى خيامهم ، فقدوا كل جسارتهم ، وقدراتهم على التحدي ، واختفوا .

والتركى المظهر والتكوين ، والاندفاع يمضى وكأنه يعرف طريقه تماما ، اجتاز حاجز الأسلاك الفاصل بيننا وبين الإخوان ، وابتعد .

لم يبق طويلا ، أقل من عشر دقائق ، ثم عاد الموكب متضاحكا فى خشوع ملتفا حول "الباشا" الذى لم يزل مترفعا ، ثم دوى البروجى مرة أخرى وانتهت زيارة لم تستغرق أكثر من عشر دقائق وتجمع حب الاستطلاع ليتركز فى سؤال واحد .

وسريعا... تدحرج نحونا عم الشيخ توفيق . (كان واحداً من قادة الإخوان المؤيدين ، وكان يكتسى بمهابة خاصة ، فهو واحد من جيل مؤسسى الجماعة ، ومن رعيل الحواريين الذين عملوا والتفوا فى الأيام الأولى حول المرشد الأول) .

وكان الشيخ توفيق صديقا لنا ، ويجرى معنا حوارات سياسية عميقة ، جعلته يقترب منا... ربما بأكثر مما هو مفترض .

تدحرج عم الشيخ توفيق نحونا ، وتجمعنا جميعا حوله فى إحدى خيامنا وحكى لنا ما حدث .

همت باشا ومن معه ، يعرفون طريقهم جيدا ، تجاوز خياما عديدة ، واتجه نحو واحدة بالذات إنها خيمة الشيخ شريت .

كان المسكين قابعا فى ركن الخيمة ، خائفا كغيره من الخائفين .

رفع الباشا باب الخيمة ، وأطل برأسه...

"إزيك يا شيخ شريت" وقبل أن يستجمع المسكين قدرته على رد التحية ، باغته الغول التركى الواقف على باب الخيمة "سيادة الريس بيسلم عليك ، وبيقولك ابقى اتغطى كويس وأنت نايم ، علشان تحلم صح" .

وبقى سؤال معلق .

كيف وصل نبأ الحلم ؟ . وما الذى دفع الباشا كى يقطع كل هذه المسافات كى يأتى ويلقى بهذه العبارة ؟

لكن المؤكد أن هذه الزيارة قد تركت علامة غائرة فى الشق الإخوانى من المعسكر ، فثمة اختراق ، وثمة اهتمام رسمى بتأكيد وجود هذا الاختراق .

وسادت داخل الجماعة حالة من التوجس المتوتر ، والخوف الخائف ظلت تلاحقهم حتى فى خلواتهم .

وانقطعت أحلام الشيخ شريت .

* * *

وكان التأمل الإنسانى المبدع قد دفع أحدنا إلى ملاحظة أن الرمل الهش الذى تغوص فيه أقدامنا والذى طالما حذرونا مما يكمن فيه عقارب وحيات تسمى الطريشه أن هذا الرمل يكسو أرضاً متمساكة فأزحنا الرمال وحفرنا فى الطبقة المتماسكة غرفاً أو بالدقة كهوفا نكمن فيها لتقينا من حرارة شمس صاعقة... وفى إحدى هذه الغرف أقام منصور زكى ورشة للتجليد . وبدأت تتدفق على السجن معدات للتجليد... تكفى لورشة تجليد كاملة . وكانت الحجة هى تجليد كتبنا التى بدأت فى التراكم لتكّون مكتبة لا بأس بها .

وظل منصور زكى يلح على أن أتتلمذ على يديه فى مهنة تجليد الكتب... وأنا أراوغه ، فما حاجتى إلى شىء كهذا ؟ لكن قراراً حزبيا صدر لى همساً... وانصعت . وما أن بدأت فى إدراك أسرار المهنة حتى أدركت سر هذا الاهتمام المفاجئ بفنون التجليد . كان المطلوب تجليدا من نوع خاص جدا ، فالغلاف المكون من كرتون يكسوه ورق التجليد... يتحول تحت أيدينا التى أصبحت ماهرة إلى طبقتى كرتون بينهما أوراق حزبية ؛ رسائل ، دراسات ، مطبوعات... إلخ . وعندما يكتمل تجليد الكتاب يصبح صعبا إن لم يكن مستحيلا اكتشاف الخدعة . ومع نجاح التجارب الأولى بدأت دورة غريبة للغاية... فالمطبوعات الحزبية والرسائل التنظيمية المطلوب سفرها إلى رفاقنا فى باريس تقطع مئات الكيلو مترات من القاهرة إلى جناح حيث يجرى إخفاؤها فى كتب وروايات بريئة المظهر ... ثم تعود الكتب إلى القاهرة ومنها إلى باريس...

سنوات عديدة مضت . وعندما بدأت فى دراسة تاريخ الحركة الشيوعية المصرية لجأت إلى أرشيف رفاق باريس... وهناك وجدت أن المطبوعات والأوراق التى اخفيناها فى أغلفة الكتب قد تراكمت لتصبح أرشيفاً متكاملا أو شبه متكامل... أفادنى فائدة لا تقدر ، وكأننى كنت أدخر هذه الأوراق من أجل دراستى الأكاديمية .

... وتكمل هذه الأوراق رحلتها العجيبة... القاهرة - جناح - القاهرة - باريس... تكملها لتستقر الآن محفوظة فى مهابة فى مركز الأرشيف الدولى التابع للمعهد العالمى للتاريخ الاجتماعى بأمستردام .

جماعتان ... مجتمعتان

ولم أزل تتملكنى الدهشة من تلك المقدرة الأمنية والجغرافية التى امتلكها هذا الذى استعرض قارة الرمال المصرية المنبسطة بلا حدود ، وأمسك قلما أحمر . ووضع نقطة . مجرد علامة بين أمواج الرمال... وقرر ، هنا سجن .

ولم زل أدهش من دقة الاختيار . جوارك نبع كى تشرب . ولا توجد طرق... أى طرق كى تهرب... والطريق الوحيد الذى يعلق «جناح» بمدينة الخارجة لا تمر فيه سوى ثلاث سيارات معروفة ، محدودة ، محددة .

سيارة المأمور (مأمور السجن) ، وسيارة نصف نقل خاصة أيضا بالسجن . وسيارة ضابط مخابرات المنطقة وفقط .

المهم... وبرغم الدهشة المندهشة ، عشنا وتعايشنا (مع المكان... وليس مع الجيران) فجيراننا كانوا من سجناء جماعة الإخوان . ومنذ البداية قرروا أن الصحراء أقرب إليهم منا . فأقاموا حاجزا من سلك شائك فعلا بيننا وبينهم . وبقيت نقاط تماس : الفرن ، سيارة الماء (الفنطاس)... والمأمور ، والسجانة .

وبرغم الحاجز رأينا وشاهدنا ودهشنا من عالمهم ومجتمعهم .

الشيوعيون - كالعادة - أقاموا مجتمعهم ، ربما كانوا مبالغين بعض الشيء ، لكنهم طبقوا ما نادوا به ، وبما أن «الثروة» أو «رأس المال» تتلخص في : الأمانات (كل ما يصل إلى السجين من أموال يوضع أمانات لدى إدارة السجن ، ليشترى منه ما هو مسموح به) وفى الطرود (فحيث الزيارات كانت صعبة للغاية فقد حل محلها فى أحيان كثيرة ما يرسله الأهل من طرود بريدية محملة بما يمكن أن يحتمله بعد المسافة ، ومشقة السفر من أطعمة جافة ولوازم محدودة)... فإن «رأس المال» هذا قد جرى تأميمه . ليس قسرا . ولا إعمالا لما فى الكتب من نصوص . وإنما لنوازع فطرية ، ففى مكان كهذا هل يطاوعك قلبك أن تنزوى فى ركن خيمة يعيش فيها عشرة أشخاص لتأكل منفردا ، أو تشرب شايا وحدك ، أو حتى تدخن سيجارة دون غيرك .

لكن المجتمع الآخر ، كان الآخر . سواء فى المشاعر ، أو الأحاسيس ، أو حتى القيم التقليدية التى تختفى تماما ليحل محلها وفقط ، وفى ظل جفاف مطلق ، منطق «الحلال والحرام» .

فكل ما تمتلك تدفع عنه زكاة ، قرشاً ونصف قرش عن كل جنيه كل عام... والباقى لك . والزكاة تخصص للجماعة وليس للفقراء . وقام مجتمع غريب . تمايز الجمع إلى جمعين أغنياء ، وفقراء . كان هناك - كمثال - ضباط سابقون فى الجيش ، أحيلوا للاستيداع وكانت معاشاتهم تصلهم بحوالات بريدية ، لتتراكم عبر السنوات المتراكمة فتتحول إلى ألوف من الجنيهات ، لا يستطيع السجين أن يفعل بها شيئا ، لكنها شهوة الاكتناز ، رغم أن الأحكام الصادرة ضدهم كانت السجن مدى الحياة . وكان هناك أبناء كبار ملاك ، وتجار... تتدفق عليهم إنعامات الأقارب .

والأغنياء يبقون أغنياء... فماذا يفعل الفقراء ؟

سريعا أعاد المجتمع المنعزل فى بئر الصحراء صياغة نفسه ، «سادة وخدماً» . (وصل الأمر بالأستاذ حامد أبو النصر (المرشد العام للإخوان فيما بعد) ، بأن اكترى خادما من بين «إخوته» السجناء ، ألبسه طربوشا وحزاما أحمر ، وأوقفه بباب خيمته ليلبى كل ما يأمر به . (أليس هذا حلالا فى الإسلام ؟) ونبت فى داخل المجتمع الجديد (مجتمع «الإخوان») شوك مستسلم يعمل فى كل المهن المفترضة وغير المفترضة ، حتى من يغسل الملابس بأجر وآخر يكويها ، وثالث يعد الطعام للسادة... باختصار أقام الإخوان متسلحين بمنطق الحلال والحرام مجتمعا طبقيا وحشيا... بل ومخيفا... ففى جب كهذا الذى كنا نعيش فيه كان التكافل الاجتماعى أمرا ضروريا ، لكن الأغنياء تسلحوا بالحلال والحرام فعاشوا سادة ، وأجبروا «إخوانهم فى الله» وفى «الدعوة» على أن يعيشوا خدما .

وإذ ساد منطق الحلال والحرام افتقدت بعض التصرفات إمكانية التلاؤم حتى مع القيم . فواحد من قادتهم زارته زوجته ، وبجوار غرفة المأمور ، أى بجوارنا جميعا أقاموا خيمة متعجلة ، وأوقفوا أمامها حارسا كى يختلى الرجل بزوجته ، أليس هذا حلالا ؟ ولست أدرى بأى وجه واجهت زوجته بعد ذلك الآخرين المتطلعين .

وككل المجتمعات الطبقية احتاج الأمر إلى جهاز أمن ، ورجال الجهاز السرى لجماعة الإخوان جاهزون ، يراقبون الحاجز المتمدد بيننا وبينهم ليمنع أياً من الطرفين من الاقتراب من الآخر . وهو أيضا كفيل بحفظ الدعوة من أية محاولات للنيل منها .

ذات مساء سمعنا صراخا صارخا بصوت متألم ، وتطلعت أعيننا عبر الحاجز لترى أو تلتقط ولو لمحة ، لتتسمع ولو همسة ، ولم تنل شيئا ، حتى زارنا الشيخ توفيق ، صديقنا من بينهم ، الذى لم يستطع جبروت أمنهم أن

يحول بينه وبيننا ، فهو واحد من أوائل مؤسسى الدعوة ، وكان وثيق الصلة بالمرشد الأول ، وقد تقارب الرجل منا ، لأنه تقارب من موقفنا إزاء عبدالناصر (كنا نؤيد سياسات عبدالناصر حتى ونحن فى السجن ، وكان هو أيضا) زارنا الشيخ توفيق ليحكى لنا لحكاية . مفتى الجماعة ومفسر أحلام رجالها ، وصاحب القول الشرعى فيما يعرض من مشكلات فقهية ، الشيخ شريت ، دخل داخل المسجد (كان أيضا فى خيمة) فى حوار حاد مع واحد من مؤسسى الجماعة ـ أيضا ـ الشيخ فارس . ودار الجدل حول : هل نحن (أى هم) جماعة المسلمين ، أم مجرد جماعة من المسلمين ؟ (والفارق هنا ليس لغوى : تضاف «من» أو تحذف ، فبها يتكون فارق حاسم ، فجماعة المسلمين هى أهل الحل والعقد فى الإسلام من والاها فقد والى صحيح الدين ، ومفارقها مفارق للإسلام ، ثم... ومن خرج على الجماعة فاضربوه بحد السيف ، أما الجماعة «من» المسلمين فليس لها من سلطان سوى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر) .

الشيخ شريت قال : إن جماعة الإخوان المسلمين هى جماعة المسلمين ، مبررا بذلك كل ما فعلت ، وحتى ما ارتكبت من فعل إرهابى (فمن خرج على الجماعة فاضربوه بحد السيف) ، والشيخ فارس قال : بل نحن جماعة من المسلمين (فى واحدة من الإرهاصات المحاولة للتخلص من الزى والجوهر الإرهابى) ، واحتدم النقاش ، واحتد . وكان لابد أن يحسم ، أو بالدقة أن يقمع ، كى لا يتطاول أحد ، فيتجاسر على مجرد التفكير بأن ثمة خطأ ما فى منهج الجماعة أو موقفها من الإرهاب والعنف . وقام جهاز الأمن بتطبيق المبدأ الحاسم : من خرج على الجماعة فاضربوه بحد السيف . وتولى الأخ مهدى عاكف (أحد قادة الجهاز السرى ، ولم يزل قائدا فى صفوف الجماعة حتى الآن) إقامة الحد . لا يوجد سيف كى يضرب بحده ،

فانتزع من الأرض وتدا من ذلك الذى يثبتون فيه الخيام وشج به رأس المارق الشيخ فارس .

واستقام الأمر ، أو بالدقة أصبح أكثر اعوجاجا ، فقد صمت الجميع ، ولم يتجاسر أحد بقول أو نقد ، حتى انفجر المجتمع منقسما على نفسه (إثر همسات ومؤامرات سرية) إلى مؤيدين لعبدالناصر (البعض عن قناعة ، والبعض بأمل الإفلات) وإلى معارضين... أو ثابتين على معارضتهم لعبدالناصر ، وهم الأكثرية .

وحتى فيما يمس الوطن ، اختلف الجمعان أو المجتمعان .

كان العدوان الثلاثى (١٩٥٦) ونحن هناك ، انفلتت أعصابنا فى وجع مؤلم خوفا على الوطن ، قمنا بما يشبه الجنون ، قررنا أن نتدرب كجزء من المشاركة الوجدانية للوطن الذى يتدرب رجاله ونساؤه للدفاع عنه ، وأمسك بنا الرفيق مختار جمعة ليصقلنا كجنود . أما هم فقد كانوا يعولون بهتافات مدوية كلما استمعوا عبر الراديو (الذى يملكونه سرا... مثلنا) ما يفيد بانتصار العدو ، كانوا سعداء بهزيمة الوطن ، ويهتفون من أعماقهم فى سرور فاضح «الله أكبر ، ولا عدوان إلا على الظالمين» . وهذا الفعل الفاضح ضد الوطن كان إيذانا بانقسامهم إلى مؤيدين ومعارضين . (تذكرت هذا الفعل الفاضح عندما قرر متأسلم آخر فى حديث تليفزيونى ودون خجل أنه سجد لله شكرا عند سماعه هزيمة عبدالناصر فى ١٩٦٧) .

وهكذا... وكما تجاورت جماعتان دونما أمل فى اللقاء ، تجاور مجتمعان متناقضان ، وأيضا دونما أمل فى اللقاء .

الاغتراب

تراكمت الأيام حتى انتهت . فسنوات السجن مثل خيط ، مهما استطال فهو إلى نهاية . ولكنها إذ تآكلت أوصلتنى إلى نهاية غير منتهية ، فإذ اقتربت أيام السنوات الخمس من نهايتها كان الرثاء يخيم على كل الرفاق . فهاهو الجو السياسى يكفهر بغيوم وصواعق ، ظل جميلا ومشمسا وربيعيا طوال أعوام ١٩٥٥ ـ ١٩٥٨ ، وطوال هذا الجو الربيعى مع الحكم ، أفرج عن المعتقلين (وبقى السجناء فى سجنهم) وأمضى رفاقنا خارج السجن رحلة عمل نضالى ممتع ومثمر . وعندما يقترب موعد خروجى يكون التصادم .

مضت السنوات الخمس وزادت يومين فى الإجراءات . طلب الرفاق إلىَّ أن أطلب إلى أهلى تدبير مسكن فى حى السيدة ، فالصول المكلف بمتابعة الخاضعين للرقابة الليلية (يبقون فى منازلهم من الغروب إلى الشروق نفاذا لحكم المحكمة . خمس سنوات سجن ، وخمس سنوات مراقبة) ، هذا الصول أمكن تطويعه بحيث أصبح ممكنا ترتيب قدر من الإفلات لبعض الوقت .

وتقبلت الأسرة هذا المطلب الغريب ، كما تقبلت أشياء وأوضاعاً غريبة أخرى .

السنوات الخمس تنتهى... امتطت بى صهوة تجارب حادة وجافة ، علمتنى عن البشر أكثر ما تعلمت طوال حياتى ، ففى السجن يتلاصق الناس دوما وبلا انقطاع ، فتتعرف ودون حاجة لمقدرة خاصة ، على أدق دقائق جارك .

كنا فى المساء . تسلمنى أخى سعيد من قسم بوليس السيدة زينب ، وكأنه يتسلم طردا من مكتب بريد . وأسرعت بنا السيارة إلى البيت القريب (فى شارع مصطفى كامل . ذات البيت وذات الشقة التى تحتلها الآن مكاتب الشهر العقارى) .

ليقطع الصمت القابع فى السيارة أدار مفتاح الراديو ، كان عبدالناصر يقذف بخطابه الهجومى الشهير مساء ٢٦ ديسمبر ١٩٥٨ . وانهمرت جمله الغاضبة تنصب على رؤوس «الشيوعيين العملاء» . انقبض قلبى الذى لم يفتح بعد ، قذف أخى نحوى بنظرة مركبة فيها تحذير ، وفيها رثاء ، وفيها استعطاف ، وربما تأنيب . تشاغلت عن نظرته فقد كنت مشغولا بالزحام ، وأضواء المحلات فى ميدان السيدة زينب الصاخب والممتلئ حيوية . أن تكون طليقا ، وفى الشارع ، وفى المساء ، أن تكون كالبشر الآخرين . هذا شىء مبهر ويملؤك بخدر لذيذ .

والشىء الغريب فى السجن أنك ما أن تدخله حتى تشعر وكأنك به منذ ولدت ، وما أن تخرج منه حتى تحس وكأنك خلعت عنك كل جراحه وندوبه من زمن بعيد . بعد دقائق وصلنا ، فالبيت من حسن الترتيب قريب من القسم الذى يتعين علىَّ أن أذهب إليه صباح كل جمعة لأقف فى طابور المراقبين ، وأحصل على ختم فى دفتر المراقبة ، يؤكد انتظامى طوال ليالى الأسبوع خاضعا للمراقبة .

من البلكونة تألقت رؤوس عديدة ، لم تصعد عيناى إلى أعلى لتميز بينها . فالأقدام انطلقت بأسرع من البصر لتلتقى بالأحضان المشتاقة .

الأم ، الأخوات الثلاث ، انغمست فى أحضانهن معا ، انهالت قبلات ، ودموع ، ودعوات أن يهدينى الله (وكأننى عاصٍ) ، وأن يمنحنى بعضا من تعقل (وكأننى مجنون) ، كان الأب راقدا فى فراش المرض . أجرى جراحة ، لكن خطأ ما أعاق الجرح عن الالتئام ، وكان لابد من البحث عن سبب ، ومن الآن صاعدا سأكتشف أننى ، ووجودى فى السجن السبب فى كل الأمراض والأوجاع... الطبيب قال (وربما كان صائبا) عدم التئام الجرح سببه ضعف عام... وهل من سبب للضعف سواى ؟ والأم تعانى من روماتيزم مزمن «أنا كنت طوال عمرى كويسة متعبتش إلا لما أنت دخلت السجن» .

ويتوالى التأنيب تلو التأنيب ، والتحذير تلو التحذير ، واللوم فوق اللوم... ويغلف ذلك كله بدعوات ودودة وحانية ، ويتراكم ذلك كله ليبنى مساحة فاصلة ، وليفرض علىَّ حالة انطواء... واغتراب .

فلم أمتلك لا القدرة ، ولا حتى الرغبة ، فى أن أجادل حول سبب الروماتيزم أو غيره ، فبالنسبة لهم أنا ملوم... شئتُ أم أبيتُ .

وعيناى تتبعان ما طرأ من متغيرات . كل شىء تغير . البنات تغيرن ، تزوجن ، وأكتشف الفارق فى الكلمات والتصرفات والاهتمامات . وسعيد عائد من ألمانيا ، سافر ليدرس ، بقى عامين هناك ، عاد وقد ترك قلبه مع فتاة أحبها ، وأتى بدلا منه بكل العادات الألمانية (بعد فترة وجيزة عاد لألمانيا وتزوج . وبرر سفره بوضعى ، وما أثرت من ارتباك فى صفوف الأسرة) .

وإذ أتقارب أكثر ، تتباعد المسافات . حشرت نفسى وسط الجمع الذى احتاط بسرير الأب المريض ، عيناه أرسلتا عتابا مريرا ، تأوهاته كانت مرسلة نحوى أو بالدقة على موجتى... سهرنا طويلا ، ثرثروا تكلموا ، قالوا ، ضحكوا ، تندروا ، وأنا أزداد اغترابا . أبتسم ، وأضحك ، وأرد باقتضاب

بإجابات بلهاء . فلست فى هذه الليلة وبالذات مؤهلا لأى فهم أو تفاهم ، فقط أريد أن أعتاد . فالفارق واسع بين ثرثرات الزنزانة ، وثرثرات الأسرة ، والمسافة لا يتم اجتيازها بسهولة . وأكتشف أننى نسيت هذا النوع من الحديث الإنسانى العادى ، واعتدت على ما يسميه الناس رطانا أو لغوا سياسيا .

الأم جاهرت من الوهلة الأولى بأنها أعدت لى ما أحب من طعام ، نسيت أننى نسيت ما اعتدت أن أحب ، هى لم تنس ، صينية الرقاق ، بط محشو بالأرز والبصل ، والحلو عاشوراء : «ده مش موسمها ، لكن عملتها لأنك بتحبها» ، ويستطيل الحديث وتروى واحدة من الأخوات كيف أن الأم حرمت عليهم أكل ما أحب طوال فترة غيابى... آه... نأتى مرة أخرى للحديث الموجع ، والتنهدات ، ودموع تنساب ، لتفسد مذاق الطعام ، وغصة تسد حلقى ، وتوشك أن تخنق قدرتى على التواجد معهم . فما أصعب هذا الإلحاح الودود والحميم والخانق معا .

امتدت المائدة ، وتصور الجميع أنهم سيرون (كما يحدث فى السينما) شرها يهجم فى همجية على الطعام ، ولعلهم أفسحوا لى طريق الهجوم ، لكننى لم أستطع إلا تواصلا محدودا للغاية مع الطعام فأنا لم أفقد حواجزى بعد مع هذا الجديد ، وامتدت يدى فقط بالقدر الذى تتخلص فيه من الإلحاح الملح . مساحة التباعد . طريقة الجلوس المهذب ، مائدة وكراسى ، أطباق صينى ، شوك ، سكاكين ، ملاعق ، مفرش ، فوط ، اصطفاف الطعام فى أناقة ، كل ذلك أشعرنى بغربة ضيف... مجرد ضيف .

وزاد الأمر حرجا أننى ما أن جلست إلى المائدة ، حتى لسعنى جرس الباب ، كنت أعرف أن هناك الصول ذا الصوت الأجش ، يأتى ليوقع فى دفتر المراقبة ، مؤكدا أننى ممتثل لها . عيناه المتلصصتان تسلقتا من فوق كتفى

لتلاحق رائحة الطعام... تمحك ، وأسرعت لأحضر له بعضا منه ، فأفسدت ترتيب الطعام واصطفافه ، وحاولت بعض الأعين أن تخفى نظرة غير مستريحة . لكن الأكل كان شهيا ، ومعه فقط شعرت بتعاسة السنوات الخمس ، وتعاسة ما كنا نأكل . وعندما أمسكت بطبق العاشوراء انسابت دموع أمى فى صمت ، لتجعل المذاق مستحيلا .

دخلت غرفتى ، تمددت على سريرى ، سرير حقيقى ، ومرتبة ، ولحاف ، وبطانية ، وملاءات ، ومخدة ، وكل ما نسيت بالاعتياد على البرش الخشن والبطانية الأكثر خشونة منه ، كنت أتوقع أن أنام فورا مستمتعا براحة المكان ، ومتخلصا من تعب الأيام السابقة ، لكن النوم تمنع ، وأبى أن يأتى ، استعدت كل ما كان ، المشاعر الدافقة ، والأحضان الدافئة ، والدعاء الممزوج بالإلحاح ، والحب الممتزج بالتوجع ، والرجاء بأن أرحم الجميع فأكف عن الخوض فى هذا الطريق . وتخيلت نفسى وأنا أرجوهم وأتوسل إليهم بأن يرفعوا عن كاهلى عبء محبتهم الدافقة ، وحنانهم الكثيف ، وإلحاحهم غير المجدى ، وإرهاقهم لضميرى ، إذ يجعلون من التزامى بما أعتقد... عبئا عليهم ، وعذابا لهم .

وفى الصباح الذى انتظرته طويلا تأهبت للخروج . وانسابت نظرات متسائلة فى صمت... إلى أين ؟ وكل النظرات ، وكل الأسئلة تتجمد فى حدود محدودة : هل ستذهب إليهم ؟ إلى رفاقك ؟ أم ستنساهم وتتجاهلهم ؟ كان الراديو مفتوحا ، وكان مصمما على إفساد كل شىء ، فهو يستعيد للمرة العاشرة (وربما أكثر) خطاب عبدالناصر ، ويختار وبإلحاح وتكرار ضاغط هجماته على «الشيوعيين العملاء» وكنت محتاجا أن أفلت من ذلك كله . من حصار الأعين ، والصوت الحقود المتصاعد من الراديو... وتركت المكان .

لكن سؤالا من أمى لدغنى وأوجعنى بشكل مباشر ، ولعلها قالته فى براءة بريئة : هل ستذهب للجامعة ؟ وهكذا يكتسب الوجع عمقا حقيقيا . فأنا فى السادسة والعشرين ، ولم أزل متعلقا بالسنة الثالثة فى كلية الحقوق (فى السجن امتحنت مرة واحدة ونجحت ، وبعدها حرمونا من حق الامتحان ، بسبب إصرار بعض الرفاق من منظمة الراية على الهتاف طوال الطريق إلى الكليات ، وكذلك فى غرف الامتحان بسقوط عبدالناصر الفاشى ، وفقدت ، وفقدنا جميعا فرصة أن نواصل دراستنا ونحن فى السجن) وخزنى سؤال أمى ، وقلت سأذهب غدا لأبحث إمكانية إعادة قيدى ، أما اليوم فسأمشى لأرى هذا العالم الجديد الذى غبت عنه طويلا .

فى الطريق تأرجحت ، وكأنى قادم من عالم آخر له توازنه الخاص... الصحف تتمدد على الرصيف . آه كم كنا نجن من أجل تهريب جريدة ، ونطير فرحا إذا التقطنا واحدة تنتمى إلى شهر أو شهرين مضيا ، تجاوزت الصحف فهى فى البيت ، والتقطت واحدة من المجلات ، عيناى بحثتا بسرعة سريعة عن ثمنها فلم تجده ، ولم أجد شجاعة الغشيم الذى يسأل عن ثمن صحيفة ، فأخرجت جنيها ، قال البائع بقرف : مفيش فكة . تركت المجلة ومضيت .

دققت باب محمد حجازى (كان يسكن فى الشارع المجاور) خرجنا معا ، دون أن أطلب منه عرف ما أريد ، فلعله قد مر بذات التجربة من قبل ، الحاجة إلى شخص يتولى تقديمك للحياة الجديدة ، ويغرسك فى التربة الجديدة ، فوحدك لن تستطيع . بدأ يحكى ، أذناى تلتهمان الكلمات وعيناى تلتهمان الطريق ، وعقلى موزع بينهما ، السياسة حاصرت كلماته جميعا ، حكى تفاصيل كثيرة انغمست بى فيما أنا مقبل عليه ، كل باب من أبواب السياسة طرقه ، أو اقتحمه حتى دون أن يطرقه ، نحن ، أوضاعنا ، الآخرون

(الذين كنا نسميهم التكتل) وماذا فعلوا ، ومن معهم ، ومن معنا ، عبدالناصر وعلاقاتنا معه (أدهشنى الحديث الودى عنه ، رغم هجومه العنيف على الشيوعيين ، أكد هو أنها غيمة عابرة) .

نجح وبامتياز فى غرسى منذ الوهلة الأولى فيما أريد أن أعرف . كنت مستغرقا معه بكليتى ، ومستغرقا فى متابعة المارة والطريق والمحلات والنساء . وكان يعرف إلى أين يجب أن يقتادنى .

وجدت نفسى فى أسانسير وصعدنا . انزلق من باب مفتوح ؛ إنها «دار الفكر» ، تلفت الجالسون بين أكوام الكتب ، قدمنى لهم سلموا بحرارة ، المدير إبراهيم عبدالحليم فتح ذراعيه إلى أقصى ما تستطيعان ، شربنا قهوة ، تحدثنا عن السجن وعن خارج السجن ، وانطلق بى محمد حجازى من مكان لآخر ، وكأنه مكلف بأن يمنحنى فرصة التعرف أو التطبع مع عالمى الجديد ، مع رفاقه الذين لم أعرف الكثير منهم بعد .

ساعات مضت ونحن نمشى ، وهو لم يزل يحكى ، وأنا لم أزل متلهفا ومشتاقا . أماكن عدة تلامست معها (إنها حيلة حدتو التقليدية ، يكون لها دوما نقاط ارتكاز ، وحيثما أردت اتصالا ، أو علاقة ، أو إبلاغ رسالة عاجلة تلامس مع واحدة منها) وقد تعمد محمد أن يمد بينى وبين هذه الشبكة تواصلاً عاجلاً ، بل ومتعجلاً .

وفى الموسكى التف من حارة إلى باب إلى سلم إلى شقة مفتوحة ، مدخلها مزدحم ببالات وأكياس ولفافات ، ثم مكتب ينتفض من جواره رجل طويل القامة حلو الابتسامة ، سلم واحتضن ، ومنحنى قبلا عديدة ، وكأنه يعرفنى من زمن ، لكن المؤكد أنه كان ينتظرنى ، فهو يعرف الاسم ، ويعرف أنى انزلقت إلى هذا العالم بالأمس... اسمه محمد الزعفرانى (تاجر تريكو وأصبح فيما بعد واحدا من كبار رجال صناعة التريكو) تركناه إلى

شارع حسن الأكبر هناك ورشة نجارة الأسطى أحمد (هنا قال حجازى إذا أردت كمال عبدالحليم فى أية لحظة ، أو أردت أن تبلغه رسالة ، فالأسطى أحمد كفيل بذلك) ، ثم مضى بى بعد ذلك إلى شارع السد وبالأحضان التقيت شحاتة النشار ، جلسنا على باب محله ، وفيما نحن جالسون بدأوا فى ملء حوالات بريدية بأسماء عديد من السجناء (إنها محاولة من الحزب لتحسين معيشة سجنائه) ثم حوالات أخرى لبعض عائلات المسجونين . (وفق التقاليد الحزبية أبعدت مقعدى قليلا كى لا أسمع أو أرى ما ليس مفترضا أن أعرف ، ضحكا ، وأفهمانى أن قرارا قد صدر بأن أصبح مسئول مكتب السجناء والعائلات) .

وفيما نحن منهمكون وصل مبارك عبده فضل (كان محل شحاتة واحدا من نقاط الارتكاز الأساسية) انتحى بى جانبا ، وحدد موعدا : سنلتقى فى السادسة من صباح أول يناير فى اجتماع اللجنة المركزية فى بيتى . شرح لى عنوان بيته بالتفصيل الممل ثم قال : مبروك عضوية اللجنة المركزية . وتركنى .

* * *

هى مجرد أربعة أيام .

أربعة أيام لم تزد ، تلت خمس سنوات ويومين .

حاولت خلال هذه الأيام أن أتلاءم أو حتى أتجاور مع هذه الأشياء الجديدة ، أمى وأبى وأخوتى ، حنانهم الدافق ، والملتصق بتوسلات دائمة ، أن أحاذر ، وأن أبتعد عن طريق العذاب لى ولهم . وأشياء أخرى جديدة لم تكن عندما كنت قبل السجن . الأذان بالميكروفون . فى الليلة الأولى ، وفيما أنا مسهد أتقلب فى قلب فراش لم أعتد عليه ، انفجر صوت أذان

الفجر ، فزعت ، فى الصباح قالوا ضاحكين كل المساجد استغنت عن المآذن واستخدمت ضجيج الميكروفونات . وأستعيد فى ليالىَّ المسهدة صوت الأذان الإنسانى الجميل ، كم كان رقيقا وشجيا وموحيا وروحانيا ، كان ضراعة إلى الله وليس صراخا ، كان تراتيلاً وتسابيحَ تنساب إلى القلب فى نغم إنسانى وبصوت إنسانى هادئ . وفى كثير من الأحيان كان المؤذنون متطوعون (أذكر وأنا طفل كيف كان عمي يربط منديلا على رأسه ، ويصعد على أعلى مئذنة جامع القهوجى المواجه لبيتنا ، عماتى يشرن إليه فى سعادة ، وصوته الذى لم يكن فى العادة جميلا يأتى من على البعد ومن أعلى المئذنة رقيقا وشجيا)... زمان كان الأذان دعوة روحية رقيقة وراقية ، والآن أصبح ضجيجا ، صارما ، ومتوعدا .

وفى اليوم الثانى... وفيما أنا عائد ظهرا لاحظت مجموعة كبيرة من الرجال والصبية تحيط بالراديو فى أحد المحلات ، ثم فى محل آخر ، وآخر... وتصورت أنه عبدالناصر من جديد ، وتقاربت من مجموعة ، وبحذر اندسست وسطهم ، كان الصوت الآتى صراخا وهتافا ، وحديثا تتراكم كلماته بسرعة متلهفة وملهوفة كمدفع رشاش ينطلق بلا وعى... إنها مباراة كرة قدم . دهشت لهذا الحماس المهتم إلى حد الجنون بما لم يكن يستثير أى اهتمام على زماننا . وفى البيت كان البواب منغمسا أمام الراديو فى توتر ملهوف ، ألهاه عن الرد على تحيتى ، وعندنا كان الجميع يلاحق وصف المباراة فى شغف مثير .

(حاول محمد حجازى أن يشرح لى الأمر مستخدما غلافا سياسيا : الحكم يريد أن يشغل الناس عن مشاكلهم الطبقية ، وبدلا من انحيازهم الطبقى ، يقدم لهم انحيازا بديلا) .

وأبدأ أول مهام مسئوليتى الجديدة أصطحب سهير زوجة الرفيق محمود

توفيق لزيارته فى سجن مصر (كان يستمتع بمميزات مميزة ، فسهير زوجته هى ابنة يوسف صديق)... فارق كبير أن تدخل السجن سجينا ، وبين أن تدخله زائرا ، حملت له علبة شوكولاتة ضخمة ، أعدها الرفيق محمد الزبير بإتقان ، ففى قاعها المزدوج ، ماهو أهم وأحلى من الشوكولاتة ، إنه كم كبير من المطبوعات الحزبية . إنها واحدة من ابتكارات ورشة التجليد فى سجن جناح . وانغمست مع الرفيق محمود فى حوار سياسى ، لكنه الآن ذو مذاق خاص ، أنا فى الخارج أنقل معلومات طازجة ، وتعليمات القيادة ، وأتلقى أسئلة وأعطى أجوبة .

* * *

وتتمهل الأيام الأربعة ، أو لعلها أسرعت ، فالمساحة محدودة بالضرورة ، حاولت خلالها وبإخلاص أن أتعايش مع أسرتى ، وأتقارب معها ، ومع هذا الكون .

وتأتى ليلة رأس السنة ، الجميع التصقوا بالبيت مراعاة لوضعى ، فالمراقبة تحرمنى الخروج بعد الغروب ، سجنت نفسى فى غرفة النوم مبكرا ، لكننى قضيت طوال الليل أبحث عن مبرر للخروج مبكرا ، دون أن أستثير هموم أمى الخائفة دوما ، والمتوجسة دوما ، والمتوسلة دوما . استخدمت المفتاح السحرى سأذهب للكلية لبحث إعادة قيدى ، امتلأت بهجة ، فالأسرة كلها تعلق أبصارها فى أسى بهذا «الشحط» الذى وصل إلى محطة السادسة والعشرين ، ولم يزل معطلا فى محطة الثالثة حقوق .

ركبت ترامواى ٤ من شارع خيرت ، وتركت لنفسى مساحة تأمل وتفكير فى الاجتماع الذى أنا مقبل عليه ، أعرف الأكثر منهم ، سنوات السجن فرقتنا ، المعتقلون منهم أفرج عنهم عام ١٩٥٥ . وبقينا نحن ،

أحكمت عقلى وأمرى على ما سوف أثير من مسائل ، لقد حملنى رفاق السجن بالكثير ، وقررت أن أكتفى بالأهم .

أنحدر من الترام ، أتمهل ، فمعى وقت كاف ، لأتأمل شوارع حى القللى النائمة ، بل كل القاهرة نائمة ، فقد سهرت طويلا ، زكى الذى اختار هذا الموعد لاجتماع مهم كهذا . تعرفت على البيت بسهولة ، دققت باب الشقة برفق ، فتحت طفلة سمراء فى فزع ودموعها تسابقها ، سألت عن الأستاذ مبارك ، انطلقت مرتدة إلى الداخل ، وجاءت امرأة سمراء سمينة وباكية هى أيضا ، يداها تشير أن أبتعد ، ولكنتها النوبية تقول : «امشى ، امشي ، البوليس جه ومسكوه فى الفجر» .

سقط قلبى فى أقدامى ، تدحرج سريعا على السلم ، وتدحرجت خلفه ، همست أقدامى المسرعة على سلم البيت العتيق ، وتنفست فقط عندما أصبحت فى الطريق .

تزاحمت أسئلة بسيطة... لماذا قبضوا عليه ؟ ولماذا هو ؟ وهل أقف لأحذر الرفاق الآتين ؟ وأقنعت نفسى أننى آخر من يصلح لذلك ، فلست أعرف سوى البعض ، والآخر أعرف بعضه بالاسم فقط .

تشبثت بالترام . ذات الترام رقم ٤ فبه أعود إلى شارع خيرت ، فأنا لا أعرف شبكة المواصلات ، ومن شارع خيرت إلى شارع الجامع الإسماعيلى حيث بيت محمد حجازى ، أذهب إليه ، أبلغه ، فهو أقدر على الاتصال بالرفاق .

قبل أن أقترب من البيت لمحت أحمد شقيقه واقفا فى ركن مغمور فى الشارع وكأنه قد أعد كمينا ، أشار إلىَّ ، وعندما ابتعدنا قال فى صوت تغلفه الدهشة والخوف معا : «قبضوا على محمد ، وأنا عارف أن فيه ناس جاية البيت فوقفت لأحذرهم» ، وتركنى سريعا ليعود إلى مكمنه .

آه . أحسست أننى فى قفص ضيق . ضاقت الدنيا ، وكأنها تلخصت كلها فى مبارك وحجازى . وبحس خفى قررت أن أبحث عن خيط اتصال عبر نقطة من نقاط الارتكاز .

إلى دار الفكر اتجهت ، بصعوبة وصلت إلى شارع عماد الدين ، القاهرة لم تزل تضن على بمعالمها . قبل أن أخطو من باب العمارة ، لمحت البواب النوبى متجهما ، منذ أيام أربعة كان بشوشا ، وكان يندفع بالتحية ، سأل هامسا فى تجهم حازم : على فين ؟ قلت وقلبى يدق بصوت أخاف أن يسمعه المارة : «دار الفكر» شخط فى حدة ممزوجة بالحنان : «امشى . امشى بسرعة ، البوليس قاعد فوق مستنى يقبض على أى واحد يطلع»... وانطلقت قدماى إلى البيت الأقرب ، بيت فاروق ثابت فوق جروبى عدلى ، كان لم يزل نائما من آثار سهرة رأس السنة . الحمدلله ، أخيرا وجدت رفيقا واحدا ، استمع فى دهشة متعجلة للأخبار ، انشغل بإخفاء ما لديه من أوراق فى غرفة فوق السطح . سألته عن كمال عبدالحليم ، قال : لم يبت فى بيته ، ليكون قريبا من سجن القناطر فقد توجه لزيارة ماجدة زوجته . وقال : فى ورشة الأسطى أحمد يمكن تتبع أخباره .

تواصلت رحلتى بين نقاط الارتكاز بحثا عن معلومات ، أو بالدقة بحثا عن مخرج لنفسى من القفص الذى وجدت نفسى فيه . إلى الموسكى اتجهت قدماى - ربما دون قرار مسبق - ومن الباب المفتوح دوما تقدمت رأسى لتطل فى حذر محاذر ، كانت كريمة زوجة محمد تجلس فى وقار امرأة أعمال ، رحبت بى فى حماس يقطر فرحا ، فرح يوخى بأنها لم تلتقط بعد الأخبار السيئة ، وأتى محمد ، ولم يكن يعرف بعد أيضا . استمع إلى معلوماتى التى كانت تتزاحم مع أنفاسى المتزاحمة ، ترك كل المعلومات والتقط سؤالا غريبا ، لم يكن قد خطر على بالى بعد... وأنت ماذا ستفعل ؟ سقط السؤال

كقطعة من حجر ثقيل فوق رأسي . سقط فى هذه البركة الهادئة ، أو التى كنت أهدئها عن عمد ، لتنزاح منه دوائر تتسع وتزداد اتساعا .

وبدأت أسأل نفسي : وأنت ماذا ستفعل ؟

انغرس هذا السؤال فى عمقى ليطرح وبسرعة غريبة مئات أخرى من الأسئلة ، أية بكتيريا هذه التى تتكاثر بسرعة سريعة . أسئلة من نوع : الحزب وحاجته لجهودى (ولم أكن أعرف بعد مدى اتساع حملة القبض ، ومن ثم مدى الحاجة إلى) المهمة الموكولة إلى : السجناء وعائلاتهم ، هاهى عائلات أخرى تضاف إلى تلك المعلقة فى عنقى ، ترى كم عددها ؟ المراقبة وهل أخضع لها ؟ وماذا لو استرخيت فى البيت فأتوا بعد يوم أو يومين ليأخذونى ؟ وفى زمن الملاحقة هذه هل يجوز لمسئول أن يبقى فى بيته ، ثم يخرج محملا باحتمالات مراقبة بوليسية ليقابل الآخرين ناقلا إليهم جرثومة الوباء البوليسى ؟ أبى وأمى وأخوتى ؟ أقاربى الذين تستعد وفودهم أن تفد من المنصورة للتهنئة ، تركوا لنا الأيام الأولى ويستعدون الآن للمجىء . جلال أخى الذى تركته صغيرا جدا ولم أره بعد . هذا العبدالناصر لماذا فعلها ؟ ولماذا حدد هذا الموعد بالذات... الذى يضعنى شخصياً فى مأزق جارح ؟ ولماذا اختار التصادم العنيف ؟ (ألقى بأكثر من خطاب صارخ العداء ، لكن رفاق حدتو كانوا مطمئنين ، ألم يخاصموا بعض رفاقهم دفاعا عن الدفاع عن عبدالناصر ، والغريب بل والمريب أن حملة القبض طالت رفاق حدتو بأكثر مما طالت غيرهم ، وفسرها المفسرون منهم فى تمسك بحسن النية الذى كان يغلف كل موقف لحدتو إزاء عبدالناصر... بأن جهاز الأمن يريد الوقيعة بين القوى الوطنية ، ناسين حملة عبدالناصر ، وناسين قبضته المحكمة والمتحكمة فى كل قرار) ، وتعود صورة أبى المريض ، وأمى الخائفة دوما ، لتتشابك مع صور رفاقى فى السجن ، القدامى منهم والجدد ،

تتشاجر الصور مع بعضها ، وكأن إحداها تريد أن تفرض نفسها على الأخرى ، وتخرجنى من شبكة الصور المتشابكة سيدة انطلقت من الباب كرصاصة غير محاذرة « كمال ورشاد اتمسكوا » ، إنها زوجة كمال الشلودى (عضو المكتب السياسى ، أما شقيقه رشاد فكان محترفا فى الجهاز الفنى المركزى) ، تحدثت كثيرا عن القبض عليهما أخذوا كمال من البيت ، ورشاد من بيت الجهاز ومعه مطبعة... وأوراق (آه... الحملة عميقة إذن) ، ثم قالت فجأة : لم يقبضا مرتبيهما بعد (كان الاثنان محترفان) «مين حيدينا المرتب ؟» حجر ثقيل دق قلبى . هاهى أسر جديدة تعلق فى عنقى ، وتأرجح سؤال : هل ستعود لبيتك تاركا هؤلاء جميعا بلا رعاية ؟

ماذا سأفعل ؟ كرر السؤال نفسه ، وعادت ذات الصور ، إلى ذات التشابك المضنى والمعذب ، وتوالت الأسماء . لم يعد مهماً الآن - بعد كل هذا الاتساع لحملة القبض - أن تحسب من قبض عليه ، بل الأهم أن تبحث عمن أفلت .

للمرة الألف أسأل نفسى ذات السؤال .

فجأة قفز محمد وقال تعالَ... انطلقنا إلى باب الشعرية وهناك فى قهوة يتعين عليك أن تنحدر إليها بعدة درجات كانت نقطة ارتكاز لعدد من الرفاق العمال ومنهم أحمد خضر .

فعلا كان أحمد هناك جالسا بقامته القصيرة والعريضة ووجهه الضخم وابتسامته المتربعة دوما... شكله يوحى بأنه لم يعرف ، احتضننى بتلقائية وأطلق اسمى أمام جميع الجالسين وبلا حذر (أليس الحذر مطلوبا الآن ؟) انتحيت به جانبا ، حكيت له ، كنت أهمس ، بينما صوته غير المعتاد على أى قدر من الانضباط يعلو بسباب ضد عبدالناصر ويعلن قبول التحدى ، والجالسين يتساءلون وهو يلقى بالإجابات . لمحت وجوها فى ركن القهوة

غير مستريحة وغير مريحة ، كانت إبر من عيونهم تنغرس فى وجهى . ندمت على الحضور إلى هذا المكان ، وخلعت محمد من فوق الكرسى وانطلقت . كنت أريد أن أسأل أحمد ماذا أفعل . طريقته ، جلسته المسترخية ، تصرفاته دفعتنى إلى كتمان السؤال المرير فى فمى الذى تزداد مرارته مع كل لحظة من لحظات هذا اليوم الشقى .

فى الطريق كان محمد يستحثنى أن أترك المراقبة والبيت ، وأن أتفرغ لبناء ما تهدم . تراجعت ذاكرتى إلى سبتمبر ١٩٥٣ ، الزمن تغير . أنا تغيرت ، والرفاق لا أعرف أكثرهم ، وما من خيوط كافية فى يدى ، وحتى الخصم تغير ، والأسرة لم تكن عائقا كما هى الآن . ولم أصل إلى قرار .

تركت محمد واتجهت إلى شارع حسن الأكبر ، وكان الأسطى أحمد جالسا يشرب الشاى أمام ورشته ، لم يكن يعرف شيئا ، ولم أقل له شيئا ، سألت عن كمال ، قال : اقعد . زمانه جاى .

وحضر كمال عبدالحليم ، لم يكن يعرف هو أيضا ، حرثنا شوارع عابدين الضيقة من تكرار تجولنا فيها . حكيت له معلوماتى . كان صامتا تماما . سألته : أنا ماذا أفعل ؟ رفض كمال بإصرار غريب أن يشير على بشىء . قال ببرود : القرار قرارك أنت . قلت بإخلاص : أحتاج لمشورة أو نصيحة . ورفض أن يشير أو أن ينصح (رغم غضبى المندهش منه فى ذلك الحين ، إلا أننى فيما بعد أدركت كم كان من الصعب عليه أن يصدر قرارا أو فتوى تؤثر وبحسم فى كامل مصير إنسان آخر) .

كانت الساعة تتجاوز الرابعة بقليل . أقل من ساعة يتبقى كى أحزم أمرى . لو عدت إلى البيت ثم صدرت صحف الغد وفيها أنباء القبض على الرفاق ستفزع الأسرة وتحملنى حملا إلى المنصورة لأراقب هناك ليلا وأبقى تحت مراقبتهم نهارا ، ولتؤجل الدراسة كما تأجلت لسنوات .

قررت أن أعود إلى الزعفراني لأتمم تشاوري معه . في الطريق تمهلت خطاي بالرغم مني ، ليس تعبا ، بل شيء آخر . لم تعد بها رغبة أن تسابق الدقائق المتبقية لتكون في البيت قبل الخامسة ، تراخت خطاي أكثر . لست أريد أن ألحق بموعد الخامسة . ثمة نداء مهيب يسيطر على داخلي ، ويستدعيني إلى تلك الساحة المتداعية لعلي أستطيع أن أفعل شيئا . لعلي أقدم إسهاماً ما ، لعلي أمد يدا لهذه الأسر التي لم يتعود أكثرها على هذا النوع من الحياة المستعصية ، لعلي أكون مفيدا لأحد .

عندما دخلت كانت الخامسة إلا ربعا . بتاكسي أستطيع أن أسبق الخامسة وأنتظر الصول كأن شيئا لم يحدث طوال النهار . سأل محمد : عايز تاكسي ؟ قلت في هدوء لم أدر من أين استعترته : لا . عايز ورقة وقلم . انفجرت أساريره . ألقيت على الورقة بضع كلمات سخيفة وغبية ، لكنني لم أجد غيرها . أو لعلي لم أكن في حالة تسمح باختيار غيرها . فمهما قلت : الكارثة هي الكارثة . وكتبت رسالة لأمي .

تطوعت كريمة بأن تحمل الرسالة . استرحت لأول مرة منذ تركت السجن ، لقد خلعت هذا الرداء الغريب عني ، وعدت كما أحب أن أكون . كل دقيقة تعني أن قراري بغير رجعة . فالصول سيبلغ بهروبي من المراقبة . والعقوبة السجن . وبعد السجن المعتقل .

ثم أتت الخامسة . وانتهى الأمر .

عادت كريمة متورمة العينين من البكاء ، دموعها تسد الطريق أمام الكلمات . قالت كل ما كنت أتوقع وأكثر . الأم فزعت ، صاحت : أبوه سيموت من الحزن . الأخوات تعالى صراخهن . سعيد قال : أبلغيه أنني لن أحتمل الحياة في هذا الجو ، سأسافر إلى ألمانيا فورا . امتلأ قلبي وفاض بحزن حقيقي ، انغرس الألم عميقا وموجعا . للمرة الأولى صدقت أمي .

فالحزن يوجع أحيانا وجعا حقيقيا . أودعت كل هذه الكومة من الهموم فى قلبى بلا نسيان . احتفظت بها لتلازمنى طويلا ، وحتى الآن . فكم قسوت على أسرتى وعلى نفسى .

* * *

أغلق محمد المكتب ، وخرجنا . منذ زمن بعيد لم أر مساء مسترخيا هادئا وحزينا كهذا المساء الينايرى البارد . خرجت فى الصباح وأنا أرتدى «بلوفر» ، كل البدل ضاقت أو تبددت ، وكنت أستعد لأشترى عددا منها . منحنى محمد جاكت جميلاً لكنه واسع ، غرقت فيه ، تذكرت كيف حشر محمد خليل قاسم فى بيجامتى فى مساء نوفمبرى مماثل عام ١٩٥٣ . أدركت الفارق بين عام ٥٣ وعام ١٩٥٩ .

تمشينا ، فالمشى يهدئ أعصابى غير الهادئة ، تحدث معى عن خيوط يمكن تجميعها... كنت قد سألت كمال قبل أن أتركه متى سنلتقى ، ولم يعطنى موعدا . هو غير مستعجل . لماذا أنا مستعجل هكذا ؟ سألت نفسى . وأتانى الرد بسؤال : ولماذا تعجلت إذن وتركت البيت ، والمراقبة ؟

تحدث محمد عن أسماء ومجموعات يعرفها . وأنا كنت قد التقيت بمكتب السجون والعائلات : يتبقى منه خارج السجن مارى بابادوبلو (مصرية من أصل يونانى) وليلى الشال ، وقدرى شعراوى ، وثمة موعد معهم بعد عدة أيام .

الجهاز الفنى ضاع ، نحن بحاجة إلى أى جهاز طباعة ، خطر على بالى واحد يستطيع أن يسعفنا . عم برق «محمد حسن جاد» ، وأجاب محمد : موجود وسوف أحضره غدا... أحسست بعد فترة أن ثمة شيئاً يمكن فعله ،

ولكن كيف ؟ وبمن ؟ والناس لا أعرفهم . ولا أعرف مدى استعدادهم... وهم لا يعرفونني . قررت أن أترك كل شيء للغد ، فقد أرهقني المشي طوال اليوم ، وأريد أن أستريح .

فجأة تذكرت . أين سأنام ؟ وأجاب محمد : عندى .

وأخذنى إلى بيته . هناك فى مواجهة القلعة فى شارع طلعة الرفاعى .

رحبت بى كريمة . وتعرفت على شخصين ظلا دوما قريبين إلى قلبى... أمه الست مريم ، وابنه أحمد الذى كان طفلا مشاكسا أمتعنى بمشاكساته طوال أيام بقائى معهم .

ولم أزل حتى اليوم ، أرى هذا البيت فى طريقى إلى بيتى وأتذكر هذه الأسرة... وما قدمته لى من حنان ورعاية فى أيام صعبة... لا تنسى . لأنه لا يمكن نسيانها .

هذه المرة ... بلا شغب

... هذه المـرة أنا هارب ، مطلوب . ويتـعـين على أن أختـفى . إنهـا الممارسة الأولى من هذا النوع أن تواجه خصمك ، وأنت غائب عن عينيه ، وحذار أن يلمحك .

... وهذه المرة ، الأمر مختلف تماما ، أنا مختلف... أحاول أن أبدو أكثر عقلا وأقل اندفاعا . والرفاق مختلفون... أنا لا أعرفهم ، ولا هم يعرفون من هذا القـادم من الغـيب ليرتب ، ويأمـر ، وينهى ، ويقـرر . عـلاقتى بهم لا تسمح بهذا ، وعلاقاتهم أيضا .

وهم تغيروا ، فترة الاسترخاء المريح والهتاف الذى يجرى تقبله من الطرف الآخرى بترفع مرير بحياة القائد والزعيم ضخ فى عروقهم خدراً من نوع خاص . وحتى فى أحلك الظروف ، كانوا يبحثون عن قدر من الحنان يغلفون به كفاحهم ضد الحكم . وهم مختلفون عن رفاق الزمن القديم ، فهؤلاء كنت أعرفهم فى المنصورة ، نعرف بعضنا بعضا... نعرف الأسرة وكل تفاصيل الحياة ، ويصعب أن يندس بيننا من لا نستريح إليه ، أو من يكون مدسوسا علينا... ورفاق الجامعة هم أيضاً فقد اندمجوا معاً فى ذلك المناخ الطلابى المشبع بالمرح والجدية ، عرفنا بعضنا بأكثر مما نعرف أقاربنا

وأسرنا . عشنا معا ، تكونوا وتعلموا معى ، وتكونت وتعلمت معهم ، وعملنا معا... وامتلكنا ثقة فى بعضنا البعض . أما هؤلاء الجدد فلا أعرفهم ، يأتون لى برفيق أستشعر فى عينيه سحابة خاصة ، كأنها توحى بالخصومة أو التربص ، أو التلصص . ولا أعرف إن كنت أقبل التعامل معه أم لا... هل أخضع لحدسى ، وهواجسى ، أم لابتسامات الرفاق المؤكدة أن كل شىء تمام .

والناس جميعا تغيروا ، كم تجولت فى الشوارع الخلفية للقاهرة أتطلع إلى عيونهم لأكتشف اختفاء ذلك اللمعان الملهم ، والذى كان قادرا أن يحفزنى فى الماضى . ويشعرنى أننى بما أفعل لست غريبا عنهم .

أين ذهب هذا التألق ، هل اختفى خوفا من القائد ؟ أم يقينا به ؟

ومع ذلك... وبرغم ذلك لابد من عمل شىء ما .

منذ تركت كمال عبد الحليم فى الخامسة إلا الربع مساء يوم اختفائى ، لم أسمع عنه . اختفى هو أيضا . (لكننى حرصت أن أبقى خيطا واهيا من تلامس مع الأسطى أحمد ، الذى أصبح الآن يؤكد بابتسامته الماكرة أنه لا يعرف شيئا عن هذا الرجل . هو مجرد زبون ، أخذ «الموبيليا» وذهب) ، وكنت ، قبل أن نفترق ، رتبت معه على أسلوب للاتصال بى كلما أراد ، لكنه لم يفعل .

كنت مطمئنا من هذه الناحية . فكمال بطبيعته لا يحب التلامس المباشر مع العمل التنظيمى ، لكن طرف إصبعه سيظهر حتما عندما تبدأ المطبوعات فى الظهور . فحتما سيكون له رأى وتوجيهات . وحتما سنختلف ، فقد حذرنى وأنا أتركه من أنه لا مصلحة لنا فى تصعيد الهجوم على عبد الناصر... أو بالدقة وفق ما أذكره من كلمته «يجب ألا تقع فى مصيدة استفزاز نصبتها لنا دوائر الأمن» . ومن ثم قررت أن أترك أمر الاتصال به إلى حين .

ولأن موج الرفاق كثير ، فإنك ما أن تهز الشجرة حتى يأتيك الثمر . تحركنا فى أكثر من اتجاه وتجمع رفاق كثيرون ، عم برق ومعه عدد من العمال ، مجموعة العائلات (مارى . ليلى . قدرى شعراوى) بتلامساتهم فى أماكن عدة تحركت مضختهم لتأتى باتصالات عديدة .

ثم مجموعة طلاب بلا حصر (فتحى مجاهد ـ حسين عبد ربه ـ سمير عبد الباقى... وأعداد أخرى لم أتعرف على أسمائها ولا عددها) والغريب أن طلابنا كانوا منهمكين حتى بعد حملة القبض فى تنسيق حركتهم مع ممثلى الحكم استعدادا لمؤتمر باندونج الطلابى .

وشاب صغير عنيد يذكرنى بأيام طفولتى اسمه «علي حنيطر» ، قابلته فى سجن جناح ، أتى محكوما عليه بعامين بتهمة أنه انطلق إلى الشارع فى ذات يوم تأميم القناة ليوزع منشورا أصدره الحزب ليؤيد قرار التأميم ، ويهتف بحياة عبد الناصر بطل تأميم القناة (عبارات المنشور كلها تأييد للحاكم ، وإشادة به ، لكن توزيع منشور هو بذاته جريمة) .

... وكان على حنيطر يمتلك قصة طريفة سكبها فى أذنى ونحن نتباعد عن ضجيج السجن متجهين بمحازاة السلك الشائك (أبوه وهو مدير مكتب بريد كان صديقا حميما وزميلا قديما لعم عبد الناصر حسين والد الرئيس . وكان عم أحمد حنيطر هو ولى أمر الطالب جمال بالقاهرة عندما كان طالبا فى الكلية الحربية . وكان بيت عم أحمد هو مهبط الفتى جمال كل خميس ليقضى الأجازة الأسبوعية ، كان يتحاشى السفر لبيت أبيه حيث زوجة الأب . وكانت الست أم على ـ ولم يكن قد ولد بعد ـ تطعم ، وتأوى ، وتغسل ملابس الفتى اليتيم الأم ، بحنان يحاول أن يعوضه عما فقد . ثم تخرج الفتى وأصبح ضابطا ، وتباعدت السبل ، ثم ظهرت صورته فجأة فى الصحف . ثم أصبح رئيسا . حاولت الست أم على أن تقنع عم أحمد حنيطر بأن يتصل

بجمال لعله يحصل على ترقية... أو قدر من اهتمام ، لكن الرجل عنيد ، والولد عاق ، لم يهتم بأى اتصال منذ تخرج وأصبح ضابطا فكيف نطلب منه شيئا وقد أصبح رئيساً ، . ومرت الأيام حتى قبضوا على آخر العنقود ، والابن الوحيد فى مسلسل بنات تواصل زمنا ، وآخر العنقود مجرد شاب فى السابعة عشرة . وقررت أم على أن تضرب بعناد الأب وترفعه متحججة بقلب الأم . وأن جمال طيب ومش حيقول لأ . وبمعجزة حصلت على رقم من الأرقام التى قد توصل إلى الرئيس . دق قلبها عندما دق رنين التليفون تصورت أنها ستندفع قائلة : إزيك ياجمال . أخبارك إيه ؟ ولكن صوتا خشنا وعدوانيا رد عليها قالت ببساطة : عايزة الرئيس ، قوله مدام عمك أحمد حنيطر : هو عارفنى كويس . تنقلت المكالمة من صوت إلى صوت ، وفى كل مرة يزداد الصوت خشونة وعدوانية ، وهى تكرر وبلا ملل ذات العبارة . أخيرا جاءها الرد : إذا فيه حاجة ابعتى طلباً مكتوباً على مكتب الرئيس . انهارت بجوار التليفون . وأقسم عم أحمد بالطلاق ألا يرسل أى طلب...) .

هذا الشاب الصغير التقيته أيضا ، وكان دافق الحماس ، وذكرتنى اقتراحاته بأيام الشغب القديمة التى ولى زمانها .

وتتراكم اتصالات عديدة ، وأصبح بالإمكان أن نفعل شيئا .

* * *

لكن الأمر لم يكن بهذه البساطة .

فأعين البوليس ليست غائبة . وأنا أعرف ذلك جيدا ، وربما كنت أعرفه بقدر غير قليل من المبالغة لعله أربكنى (كمستجد على مثل هذه العلاقات) وأربك أيضا من تعاملت معهم .

ولم تزل تلمع فى ذاكرتى تلك النظرة المسترخية ذات المذاق الذئبى

التى لاحت من عين « محمد » العامل الذى أتوا به من لجنة قسم الزيتون ليتولى مسئولية الجهاز الفنى (المطبعة) الذى نجح عم برق فى توفيره بمجموعة من القفزات غير المتوقعة بين الزقازيق وطنطا والقاهرة ، وبمجموعة من الاتصالات وبقدر قليل من المال .

تلقيت النظرة بحذر ولم أتجاوب معها . سألته أين نذهب ؟ اقتادنى إلى كازينو قريب بحديقة الأزبكية ، ما أن جلسنا حتى جلس غير بعيد ، آخران يتظاهران بالتشاغل عنا ، لكنهما حتى بأنفاسهما كانا حاضرين .

حاول أن يتلاعب بى ، وأسلمت نفسى له عن عمد ، وعيناى قسمتهما نصفين ، نصف لخلجات وجهه ، ولنظرته التى لا تستطيع التوقف عن الذهاب نحو الاثنين . والنصف الآخر أعطيته أنا أيضا للاثنين .

فجأة باغته بسؤال من الذى ضمك للحزب ؟ قال كمن تلقن درسا حفظ إجابته : عبد المنعم الغزالى . متى ؟ (سؤال لم يكن متوقعا) وأجاب : سنة ١٩٥٤ . استعدت فى ذاكرتى أن الغزالى كان فى المعتقل فى هذا الوقت .

مرة ثانية باغته معاك أى فلوس سلف ؟ وأخرج من جيبه بضع عشرات من الجنيهات هى قليلة بالنسبة لى ، لكنها بالنسبة له كثيرة جدا (أكد لى قبلها أنه متعطل منذ فترة ، ومن ثم هو جاهز للتفرغ للعمل على المطبعة) .

ما أن انزلقت النقود من جيبه بسرعة غير حصيفة ، حتى أدرك أنه أخطأ . لكنه مدرب . لم يعلق . وبعد دورة كاملة من الحديث قال إن سعاد (زوجته) اضطرت أن تعمل خادمة لدى أسرة سعودية . ضحك ، وتمددت من شفتيه كلمات بلا مذاق : فلوسهم كتير .

أبديت حماسا شديدا للتعاون معه . قلت له إننى أقيم فى طنطا وأن العمل سيكون هناك ، رحب بلا تردد ، واستأذن فى أن يحضر سعاد معه ، قلت بشرط أن تعمل فى الاتصال . وافق بلا تردد ، ومددت له حبالا من أمل

ومودة ، أراحته تماما . وحددنا موعدنا بجوار مسجد السيد البدوى بعد يومين .

طبعا لم أره بعد ذلك . لكن الغريب أن بعض الرفاق صمموا على أنه موثوق به . وأنا صممت على العكس دون أن أدلى بأية تفاصيل . فأنت حتى لا تعرف هل تثق بهذا المتحدث أم لا .

والغريب أيضا أن الاثنين اللذين أتيا معه لم يتابعانى . تأكدت من ذلك وبحرص مبالغ فيه ، ويبدو أن إشارة من محمد أقنعتهما بعدم ضرورة ذلك فأنا فى القفص فعلا . ولا داعى لإثارة شكوكى بمراقبة قد أكتشفها .

(بعد أن قبض علىَّ ، صمم أحد الرفاق على منح هذا الشخص مساحة لا يستحقها من الثقة ، وثبت أنه وزوجته عنصران بوليسيان) .

والأمر لم يكن سهلا أيضا ، فالاختراقات عقب فترة من التحالف والعمل المفتوح كانت واسعة . ويقيد هذا خطوى ، ويقلل من إمكانيات الشغب التى كنت أحلم بها .

لكن العمل تواصل بقدر ما من الجهد . واستقرت قاعدة ـ لا بأس بها ـ من العمل الحزبى المنتظم .

ودارت المطبعة ، عمل عليها رفيق دقيق الحجم ، شديد الحماس يتكلم ويعيش فى هدوء بارد وممل ، لكنك ما أن تخدش قشرة الهدوء ، حتى تكتشف ينابيع حماس جميل ومتأن . عامل نسيج لم يتقن فنون التفلسف والكلام المنسق ، لكن يداه قادرتان على أن تفعلا أى شىء ، طلبت إليه أن يتدرب على الطباعة ، استغل صغر حجمه وانزلق كصبى إلى مطبعة صغيرة تعلم فيها . وبعد أسبوعين أتى جاهزا . وكان عم برق قد أعد المطبعة... والتقى الصاحبان الآلة والمناضل . الآلة... مطبعة بدائية تماما ، والمناضل عامل نسيج بسيط اسمه طه دياب .

ووصلنى أول منشور يحمل توقيع «الحزب الشيوعى المصرى - حدتو»... كان جميلا وأنيقا رغم بدائية الآلة ، وامتلكتنى سعادة يندر تكرارها .

* * *

وبقليل من الخبث كان بالإمكان استدراج طرف إصبع الرفيق كمال عبد الحليم . نسخة من المنشور تسللت تحت باب ورشة الأسطى أحمد المغلق مساء . وعبارات المنشور كانت تحمل - ولو بقدر ما - هجوما أو ردا على هجوم عبد الناصر غير المحدود على الشيوعيين .

وامتد طرف الإصبع فعلا . لم أزل أذكر عبارات رسالته الحادة «أن حزبنا يقع الآن بين فكى كسارة البندق ، بين ضربات الأمن العنيفة ، وتشدد بعض الرفاق» .

وكتبت ردا أشرح فيه وجهة نظرى . وأطلب أن نجلس معا ، أو أن نعقد جلسة للقياديين الأربعة الموجودين خارج السجن : هو ومحمد الجندى وأحمد خضر وأنا .

وتعثر الرد طويلا... وبقينا كما نحن هو ومحمد الجندى يلتقيان ويعملان معا . وأحمد خضر يعمل مع مجموعة من العمال وأنا مع مجموعتى ، وربما كان هذا أفضل أمنيا . وإذ تواصلت مع العمل اكتشفت أن مخاوفى وترددى كانا بلا معنى ، فثمة كنوز من الرفاق والرفيقات نسجت من خيوط واهية عملا متسقا ومحكما... ودارت الأرض بنا دورانها الطبيعى ، والمنتظم ، وعدنا من جديد جزءا من هذا الكون .

لنا صوت . ورأى . وموقف . وقدرة لا بأس بها على إعلان هذا الرأى ، وإعلاء هذا الصوت .

وحتى فى انتخابات الاتحاد الاشتراكى ، اشترك العديد من الرفاق فى محاولة لشق قنوات فى الأرض الصخرية ، قد تسمح بتدفق علاقات جماهيرية . وأذكر كيف رشح رفاق لنا أنفسهم فى انتخابات الدرب الأحمر (أحمد عز الدين ـ عبد الله إسماعيل... وغيرهما لا أذكر أسماءهم) وتركت موضوع الانتخابات فى هذه المساحة لمحمد الزعفرانى ، وتباعدت إلى هموم أخرى ، لأعود فأجد ضجيجا حول مرشحينا ، لقد نسوا... الزمن ، والحال ، والمآل ، وتفجروا بنشاط أثار انتباه الكثيرين .

وتهادت مواهب انتخابية ، فخبير التريكو استخدم آلياته . وأمطرت مواكب رفاقنا شوارع الحى بشباب يركبون الدراجات ويلبسون «تى شيرتات» تحمل شعارات موحدة (لعلها أعلى مما يجب فى هذا الزمان) وأسماء مرشحينا .

وعندما تلقيت تقريرا عما حدث ، أوشكت أن أتوجه بانتقاد ، حول مساحة ومقدار الاندفاع... وتداعت إلى ذهنى صورة قديمة ، عن أيام الشغب القديم ، وصعوبة ابتلاعى يومها لانتقاد الرفيق المسئول ، ابتلعت أنا انتقادى . وأيدت ما فعلوا . وبعدها بأسابيع دفعوا ثمنا باهظا . فقد اعتقلوا .

* * *

وبعد إقامة قصيرة فى بيت محمد الزعفرانى ، استطاعت خالتى مريم وكريمة أن تمنحاها دفئا كافيا لأن يمنح الحياة كلها حنانا ناعما ورقيقا وإنسانيا ، دبر قدرى شعراوى سكنا لى .

فما كان بالإمكان (من الناحية الأمنية) أن أستمر فى نشاطى ، وأن يستمر هو فى نشاطه الحزبى ، بينما أقيم فى بيته .

ومع قدرى ذهبت إلى مسكنى الجديد ، غرفة أقل كثيرا من متواضعة فى

سطح منزل عجوز ومتهالك ينزوى فى عطفة مأخوذة بطريقة شبه سرية من شارع الرويعى ، تنحنى إليها دون أن تلحظ أو يلحظك أحد ، لتجد نفسك فى مسلك ضيق يفضى فى عبقرية نادرة إلى دروب غريبة كقنوات المرور فى الغابات ، تقتادك إن أتقنت فن التعامل معها إلى باب الشعرية من ناحية ، وإلى الفجالة من ناحية أخرى .

المكان مثالى إذن ، وكان بالفعل ملاذا آمناً .

ومعه صعدت خائفا إلى تجربتى الجديدة حيث الست أم لوزة (بائعة هوى سابقة منحت كل ما ادخرت لامتلاك هذا البيت) ولوزة ، وأم نادية ونادية وإخوتها (الأب لص محكوم عليه بخمس سنوات) ، وسونيا وزوجها البرنس (صانع أحذية)... وأنا ، «مدحت» ابن عمه ، هو سيسافر ، وأنا طالب فى كلية الحقوق وأعمل فى المساء... بالنهار أذاكر (كمبرر لبقائى نهارا خوفا من أعين البوليس ، وأعمل ليلا كمبرر لخروجى كل مساء لأمارس نشاطى الحزبى) .

ولن أتحدث طويلا عن تجربتى الغريبة والشيقة فى دوامة الاغتراب هذه (لعلى سجلتها فى صورة درامية فى روايتى : السكن فى الأدوار العليا ، ومن ثم لا مبرر لتكرارها) ، لكن المدهش والمحير حقا ، هو أن يعيش الإنسان بثلاثة أبعاد ، لا يستطيع أن يفلت من أى منها ، ومقدار نجاته معلق بإتقان فن إخفاء أو إبراز البعد الذى يريد ، فى وقته الملائم تماما .

فأنا ، أنا... تواريت تماما ، لكن الفتى المدلل لا يمكنه أن يتجاوز قفزا حدوده القديمة إلى غابات جديدة . فالكلمات والنسيج اللغوى مختلف ، هنا نساء (وأنا أقيم نهارا مع النساء فقط) ينسجن كلماتهن من خيوط خاصة جدا ، الجنس المرح ، والحار ، والحاد كسكين يغلف كل لفظ ، ويكوِّن الجمل والمقاطع ، والأصوات ، والإيماءات ، والحركات ، والمفترض أن

أكون أكثر منهن تشبثا بهذا التعامل الوحشى مع اللغة ، لكننى ويالدهشتهن أخجل ، ويقلن ضاحكات إن وجهى الأسمر يتورد خجلا كبنت صغيرة خجولة . وهن لا يفعلن ذلك عمدا ، إنما هو أسلوب حياة .

وأنا ، أنا لست معتادا على هذه الملابس ، ولا على أن أنتظر كل صباح حتى ينتهى البرنس من حمامه اليومى الصاخب فى الثقب الوحيد المخصص لنا جميعا كحمام ودورة مياه ، ثم تليه سونيا (تبينا فيما بعد أن صخب الاستحمام الصباحى كان مفتعلا ليوحى البرنس للجميع بفحولته ، وأن زوجته عينها مليانة... وتبين أن الأمر على العكس) ويمتد الطابور المنتظر من نادية وأخواتها . واعتدت أن أتوارى فى غرفتى حتى ينتهى الجميع من طقوسهم الحقيقية والمفتعلة . كذلك فإن طعامى يجب أن يكون كطعامهم نوعا وأسلوبا ، ونهم أم نادية يجبرنى دوما على أن يشاركونى فيه... وكنت أتقبل ذلك برضاء ، فقد تعلق قلبى بأطفالها الجوعى دائما ، جوعى إلى درجة أننى تمنيت يوما أن أطعمهم حتى يشبعوا ، وحاولت ، وبالغت دون جدوى ، فقد كانوا يأكلون بنهم من يعوض الأمس ، ومن يخشى الغد .

إذن أنا ، أنا ، أتلبس الآن دور «سى مدحت» طالب فقير (ومن هناك كان يتعين أن أضع حدودا لإغداقى) أتى من طنطا . يذاكر ، ويعمل ، ويعول نفسه .

لكننى فى المساء أنسى الاثنين لأرتدى ثياب الرفيق «شكرى» أحيانا ، و «حسن» فى أحيان ، و «مجدى» فى أحيان ثالثة ، وكان علىَّ دوما أن أتذكر جدول الأسماء الحركية لأستخدم كل اسم ـ ودون خطأ ـ وفق ما تعاملت به مع الرفاق .

كانت هذه الحالة الثلاثية الأبعاد تجربة مرهقة ، وممتعة ، ولو أننى أتقن بيقين فن كتابة الرواية لكتبت طويلا وكثيرا عن هذه التجربة .

وحتى أبى تلبسته الحالة أيضا ، فقد طلبت إليه أن يرسل نقودا شهرية فى حوالة بريدية باسم كريمة ، ووافق ، والغريب أنه بدا هو أيضا يتكشف عن ماكر يتقن أساليب العمل السرى ، فالحوالات مرسلة من مكتب بريد بعيد عن الورشة وعن البيت ، والخطابات تخلو تماما من الأسماء... ولدى... بابا... ماما ، وج (جلال) كويس ، وس (سعيد) سيسافر إلى ألمانيا... وهكذا امتلك الرجل فن التعامل مع حالة الهرب .

لكن الشىء الأكثر قسوة ، كان بالدقة قياس مساحة العلاقات مع سكان السطح والبيت قياسا دقيقا .

فهم بسطاء ، عاديون ، يحبونك سريعا ، ينسكبون نحوك بتلقائية لا يعرفها أبناء الطبقة التى أتيت منها ، وهم فى انسكابهم هذا يجتاحون كل خصوصياتك ، وكل خصوصياتهم . فأية خصوصية يمكنها أن تنبت فى سطح مزدحم بالغرف ، والغرف مزدحمة بالبشر ، والأبواب لا تغلق إلا بالكاد ، وكثيرا ما تفتح لدى أول تلامس ، أو حتى من تلقاء نفسها ، أبواب انتهى عمرها الافتراضى منذ زمن بعيد ، وتكاد لا تستريح إلا مفتوحة . وأية خصوصية... وأنت ترى البنات مندفعات إلى الحمام ، أو منه فى نصف أو ربع ملابسهن أو أقل ، وأنت تسمع شجارهن وضحكاتهن وهمساتهن ، وكلماتهن المغموسة دوما بالجنس العارى من أى غلاف .

وأنت . كيف تقيس علاقتك مع هؤلاء الناس ؟ من الخطأ أن تتباعد ، فسوف يفسر على أنه خوف ، أو إخفاء لشىء ، أو ترفع ، ومن الخطأ أن تنسكب أنت أيضا ، فلك خصوصياتك . لك أوراق يجب ألا يراها أحد ، والغرفة لا تحتوى على أثاث أو حتى شقوق يمكن أن تصلح كى تختبئ أوراقك فيها . وأنت تحتاج انفرادا كى تكتب تقارير حزبية ، ونشرات ، ومنشورات ، وأوراقاً إعلامية ، وتوجيهات أمنية . والكتابة يجب أن تكون

محاذرة ، فيجب ألا تكتب بخطك الحقيقى حتى لا تتحول إلى دليل ضدك إذا ما ضبطت (بتقرير من خبير الخطوط) ، ومن ثم تكون كتابة الأحرف بخطوط مستقيمة كأنك ترسم مربعات غير مكتملة . ويحتاج الأمر تركيزاً مضاعفا ، ويحتاج أيضا ألا يراه أحد .

وظللت أتعلم فى كل لحظة كيف أقيس محاور علاقتى مع الجميع ، خاصة عندما نشبت معركة صامتة ، لكنها خشنة وشرسة ، بين لوزة (بنت صاحبة البيت) وبين نادية جارتى فى السطح... وكنت أنا دون أن أدرى (حتى لفتت سونيا نظرى) محور هذه المعركة . وتحولت المعركة إلى منافسة . ففى جلسات صاخبة يتجمع الجميع لنتغدى معا ، ثم تدور الجوزة على الجميع بما فيهم أنا (وقد حاولت جهد طاقتى أن أتعامل مع هذه الجوزة اللعينة ولو بمقدرة قريبة من لوزة أو نادية دون جدوى) . كانت نظراتهما تمطر نحوى ، وتنتهز لوزة أية فرصة لترقص كأى محترفة ، وتنافسها نادية فى دلال هادئ ومثير ، يتجاوز بك كل حدود الصخب المفتعل .

وأنا ـ وبعد تأمل ـ قررت أن أتعامل بحياد ، وبقدر من البرود والتغاضى ، فوضعى قد ينكسر إذا أشعلت المنافسة ، أو تجاوزت حدود المعاكسات المعتادة فى هذا المناخ ، وهى أكثر بكثير مما نعرفه نحن ، أو نحتمله نحن . لكن أكثر من ذلك ، وبرغم أنه متاح ، سوف يؤدى إلى ما لا أريد من مشكلات .

* * *

وبدأ طه دياب يمطرنا بالمطبوعات ، وبدأت خطب عبد الناصر الاستفزازية تزيد من استفزازنا ، وتفرض علينا (فيما اعتقدت أنا) أن نتصاعد بموقفنا ، خاصة أن أجهزة الإعلام كانت تخوض ضدنا معركة

وحشية ومتوحشة ، خلطت فيها بين معركتها معنا ، ومعركتها مع الرفيق خروتشوف ، ومعركتها المريرة مع نظام قاسم فى العراق ، وجرى عن عمد خلط الأوراق ، وجرى التعامل بانحطاط سياسى وخلقى لم تعرف له مصر مثيلا ، والأمن كان يواصل هجومه الشرس وضرباته المليئة بحقد لا حدود لكميته .

وهنا تمتد من جديد إصبع كمال عبد الحليم ، لكنها فى هذه المرة ترتفع كسبابة لتحذر ، وتقرر أن نعقد اجتماعا .

وحدد الموعد ، وكلفت أن أحضر معى أحمد خضر . وفهمت من البداية . فكمال الماكر يدرك أكثر منى أن الرفيق أحمد خضر لا يتقن أسلوب العمل السرى . فقرر استخدامى كمصفاة ، أنا ألتقى بأحمد أولا ، وبعد فترة تأمين كافية ، نقابله معا . وكان على حق فى مخاوفه .

طلبت موعدا من الرفيق أحمد . أرسل إلىَّ من يأخذنى إليه . انزلقت أنا مع رسوله عبر مسارات ودروب الغابة التى أتقنتها تماما ، بعد أن التقينا فى شارع الفجالة . تململ الرسول كثيرا لكنه دهش عندما وجد نفسه فى حى باب الشعرية ، كما أراد... وكم كانت دهشتى مغلفة بالمرارة إذ وجدت المرسال يحاول أن يدفعنى نحو قهوة شارع بورسعيد ، ذات القهوة التى كان يجلس عليها عندما قابلته يوم أول يناير ، والتى كان يجلس عليها دوما فى فترة العمل العلنى . إنه لم يغير عاداته . ذات الناس وذات المكان . ولابد أن هناك أيضا ذات الأعين التى تترصده ، وتترصد كل من يتصل به .

لقد كنت محقا عندما أرسلت له رسالة حملها رفيق كى يقرأها ويعيدها معه لأمزقها بنفسى (غضب جدا من هذا الاحتياط المبالغ فيه) ، واقترحت عليه فيها لأسباب أمنية أن يعمل كل منا منفصلا . أن أزوده وأزود مجموعته بالمطبوعات المطلوبة . والرفيق أحمد رفيق طيب القلب ، ومناضل حقيقى ،

وكادر عمالى شجاع ، لكنه كان بسيطا فى حياته ، وبسيطا فى تعامله مع الحياة ، ولا يمتلك خبرة العمل السرى المتقن ، فقد عاش أغلب وقته فى تنظيم صغير ومحدود العدد اسمه «النجم الأحمر» ومن ثم كانت الاحتياطات الأمنية وسط العدد المحدود الذى يتقن معرفة بعضه بعضا غير مفترضة ، أو غير ضرورية . وكان يمتلك نظرية قد تبدو ذات غلاف ثورى لكنها خاطئة فى اعتقادى ، وهى : أن الجماهير هى التى تحمى الكادر . ومن ثم فكلما عاش مع الجماهير كلما أمكنه أن يحمى نفسه من البوليس ، ناسيا أيضا أن البوليس يمكنه أن يتواجد وسط الجماهير .

حاول الرفيق أن يدفعنى نحو القهوة ، رفضت ، وقفزت بعيدا إلى الرصيف الآخر هناك ارتطم نظرى بوجه سمين أحمر وجسم ممتلئ ، كان جالسا على مقعد أمام محل . التقطت من عينيه نظرة غريبة ومريبة . فقفزت بعيدا . وأبلغت الرفيق موعدا فى السادسة مساء .

وكنت قد اعتدت أن أختار أماكن أدرسها بعناية ، فثمة شوارع طويلة ومستقيمة وخالية ، فإن وقفت متواريا فى طرفها يمكنك أن تلحظ القادم من الطرف الآخر ، وتعطى نفسك مسافة عدة دقائق تلاحظ فيها إن كان ثمة من يتبعه أم لا .

اخترت المكان الملائم . الشارع الممتد بين مكتب البريد فى العتبة ، وبين مكتب مديرية الصحة . عندما يتوقف العمل النهارى فى المكتبين يصبح الشارع خاليا تماما ، وصامتا تماما (أو هكذا كان فى هذه الأيام) وقلت له أن يحضر من ناحية العتبة .

وعلى الطرف الآخر انتظرت... كان المكان هادئا... نظيفا من أى شكوك ، وفى السادسة انطلق الرفيق أحمد من ناحية العتبة ، كان يتهادى كمروحة من تلك التى تحملها الأرستقراطيات . مربع التكوين هو . قصير

وسمين وقدماه القصيرتان تحملانه رغما عنهما ، فيمشى متأرجحا يميل مرتين فى كل خطوة ، عيناى تعلقتا بطرف الطريق ، وفيما كان يقترب لاحظت اثنين يمتلكان أول الطريق...

كما هو مفترض قررت أن أمر من أمامه دون أن أكلمه فيفهم أن واحدا منا مراقب ، ويمضى لحاله وأمضى أنا ، لنحدد موعدا آخر فيما بعد .

لكنه ما أن رآنى حتى صاح فى وجهى : «إيه ياعم الحركات إللى أنت عاملها دى . أنت مالك خايف كده ؟» ، وفيما كنت أحاول أن أفهمه همسا أنه مراقب ، محاولا الابتعاد عنه سريعا ، كان صوته يعلو : «هو كل واحد ماشى فى الشارع يبقى بيراقبنا» . قررت ألا أجادل ، وأن أتخلص منه وأمضى . لكن الاثنان أصبحا فجأة أربعة وانقضوا علينا .

* * *

كنت قد أطلت شعرى بطريقة الصنايعية سكان شارع الرويعى وامتلكت شاربا شرسا وفقدت كثيرا من وزنى ، وتغير شكلى إلى حد ما .

ورجال الأمن بالقاهرة لم يتعاملوا معى منذ الزمن القديم ، وظللت ليلة ويوما كاملا يسألوننى عن اسمى وأنا أسألهم : إذا كنتم لا تعرفوننى فلماذا تقبضون علىَّ ؟

الوجه السمين الأحمر أطل باسما . فى الصباح علمت أنه ضابط اسمه «البهى» قال : تقابلنا بالأمس . قلت : أهلا وسهلا .

انتظرت فترة كافية كى يعرف رفاقى فيها أننى قبض علىّ... فيرتبون ما يجب ترتيبه... ثم قلت لهم اسمى . الصاغ عبدالرحمن عشوب صاح : أنت هنا وأنا أبحث عنك فى بحرى ؟

* * *

وقبل أن أعود ثانية إلى السجن أود أن أتوقف

فأنا لم أزل أعيش حنين أيام غرفة شارع الرويعى الدافئة والدافقة الإنسانية ، ولم أزل أمتلك امتنانا دائما للرفيقات والرفاق الذين رأيت فى عيونهم ذلك البريق المعطر بالحلم الثورى ، والذين منحونى عونهم بلا حدود : محمد- مارى - ليلى - قدرى - على وعشرات عشرات لا أذكر أسماءهم ، نسجوا بأعمالهم الشجاعة ملحمة جميلة وحميمة ، ودافقة الحيوية والحماس .

حوارات مستبدة

... ولعلى قد حرصت دوما أن أتجنب الحديث عن الحوارات الناصرية ، وهى حوارات ذات مذاق خاص... مرير ومتوحش . فقد أدمن عبد الناصر حوارا مع خصومه- أياً كانوا- عبر أدوات من التعذيب شبه النازى .

ولقد تجنبت ، وسأظل ، الحديث عن هذا الحوار . ليس إشفاقا على عبد الناصر وعلى الناصرية ، وإنما ترفعا عن شكاية فات أوانها ، ويكفى الإشارة إليها كواحد لما يجب أن تتلقنه الناصرية من دروس . ولقد شعرت دوما بعزوف عن تلك الكتابات التى أمعنت فى الوصف المترهل لما حدث ، فبدت وكأنها شكايات تتخذ طابع الاستعداء ، وأحيانا الاستجداء...

لكنني لم أزل أمتلك سؤالا محيرا أتمنى لو أن أحداً يمنحنى متعة التعرف على إجابته .

لماذا كان ذلك كله ؟ فالبعض يعذب سجناءه بحثا عن معلومات مختزنة فى أعماقهم ، أو استكشافا لنوايا ، أو توصلا لاعتراف... لكن عبد الناصر كان يعذب وفقط من أجل متعة تعذيب خصمه ، وإذلاله ، وتنقيته من أية شوائب للقدرة الجسدية أو النفسية أو العقلية على أن يتواصل مع : لا . التى قالها أو همس بها أو انتوى أن يهمس بها يوما .

فهل كان عبد الناصر أو الناصرية بحاجة إلى ذلك بينما كان التفاف الناس حولهما كافيا... وموحيا ، وقادرا على القيام بهذه التنقية ؟

إن وجد أحد من خبراء الناصرية أو أنصارها أو خصومها إجابة ممكنة الفهم... سأكون له ممتنا .

... وكانت بداية الحوار المستبد- بالنسبة لى- فى سجن القناطر . فبعد فترة من التعامل السجنى العادى ، تمددت فى مساحات عنبر الشيوعية صيحة "انتباه" مختلفة عن كل ماعداها .

واندفعت المفاتيح إلى مكانها كى تفتح الزنازين بتعجل ومع كل "تك" يندفع الباب المثقل بهموم سجناء عصور مختلفة ، وكلمة آمرة مرتجفة من سجان يحاول أن يبدو منضبطا ومتشددا "اخرج" وتخرج ، ونصطف فى امتثال متوقع . وتصطف أمامنا كل مفردات السجن مأموراً وضباطا فى تظاهر ظاهرى بالحزم والتشدد ، وأمام الجميع "شىء" يغمره التباهى والترفع المصطنع ، وتلمح قطع النحاس اللامع فوق الكتفين والشريط الأحمر فوق الكاب ، ونظارة طبية على مساحة جسدية قصيرة ربما أقصر بكثير من المقاس المفترض للضابط ، وهو يعوض ذلك بمحاولة للزهو تطغى على كل تصرفاته .

المأمور قال فى نبرة غير مستقرة «سعادة همت باشا عايز يكلمكم»

وتمددت ابتسامة مترفعة على وجه تركى اللون (أبيض مشرب بالحمرة) ، وتناثرت كلماته الآمرة بتعليمات جديدة ، بدأ بعبارة يؤكد فيها أنه يعرف أننا رجال ، ومادمنا قد اخترنا ، فلنتحمل نتائج اختيارنا... وتدافعت الأوامر ، كل منها يحاول أن يسبق الآخر ليدق بثقلة فوق قلوبنا المثقلة سلفا : الملابس المدنية (يقصد غير السجنية) : ممنوعة ، الملابس الداخلية : ممنوعة ، الأحذية والشباشب : ممنوعة ، الجرائد والكتب : ممنوعة ، الزيارات : ممنوعة ، فتح الزنازين : ممنوع ، التحدث مع بعضنا البعض :

ممنوع ، الإضاءة مساء : ممنوعة... ويتبقى لنا فقط ربع ساعة صباحا لدورة المياه لكل سجين ، وزميل له وبقدر مساحته فى المساء ، وطابور عند الظهر .

حاولت أن أناقش ، فقط قلت : بس يا أفندم . ولعلى كنت أنوى أن أذكره بلائحة السجون أو بالقانون أو حتى بالنزعة الإنسانية ، لكنه على أية حال أنقذنى من مثل هذا اللغو . قال فى حزم : مفيش بس . وبحزم مترفع : نفذ .

ودون أن يحاول أحد منا أن يقاوم ، فقد تلاقت نظراتنا فى خيوط متفاهمة على أنه لا جدوى من الاعتراض ، حاولت العصى المتراكمة حولنا أن تنشب نفسها فى أجسادنا ، لكننا بدأنا في التنفيذ .

خمس دقائق أو أقل وكانت الملابس تتراكم فى مسلسل متنوع وغريب ويوحى بالمكون الطبقى المتسع للمصطفين فى الطابور ، وبعد البيجامات والجلاليب تمدد التردد إلينا جميعا ، لكن سهما آمرا انطلق من العيون المتراصة أمامنا دفعنا وبتردد إلى أن نتنزع ما تبقى . ووقفنا عراة ، ولمعت عينا اللواء وهو يستعرض رجولتنا الخائفة (وفيما بعد تناثرت نحونا همسات منقولة عن ضباطه توحى بأنه كان يستمتع باستعراضه هذا)... وفيما نحن منهمكون فى انتزاع آخر ما تبقى من ملابسنا ، امتدت يدٌ مبرومة كخيزرانة رفيعة متشققة لتلتقط "سليب" ألقى به واحد منا . وترتفع به الخيزرانه فى دهشة مندهشة فعلا ودون اصطناع «إيه ده ، هو ده إلى اسمه سوتيان» وتماوجت ابتسامات حزينة ، تجاسر بعضها ليصل إلى ما يشبه الضحك ، لكن أمرا أتى من واحد من الأفواه المتراصة «اخرس ياعسكرى» .

وخرس الشاويش أحمد الدهشورى ، الذى كان مندهشا دوما ، فهو لم ير أبدا سجناء من هذا الصنف .

ثم أتى الحلاقون ليزيلوا كل ما لدينا من شعر ويتبدى الجميع وكأنهم متشابهون ، إذ نكتشف أن الشعر والملابس من العلامات المميزة للأفراد .

كان ذلك فى وقت لم يزل البرد يملأ أجواء المكان . وتربعت فى جسد كل منا رعشة لم نستطع إخفاءها ، وأتوا لنا بالملابس... قطع ذات مقاس موحد من خيش أبيض تهدلت فوق أجسادنا لتزيدها برودة . وتظل الأقدام الحافية منبعا لرجفة تتراجع من أسفلت الزنزانة المثلج إلى كل ثنايا الجسد . وكانت حوائط الزنازين الرطبة مبللة دوما ، وكأنها تسهم معنا فى تأكيد أحزاننا المتصلة ، فتبكى بدمع متواصل التدفق ، فتضيف على ذلك الصندوق الذى أغلق علينا كآبة وبرودة لا تنقطع .

وتمضى الدقائق ببطء لا ينقطع ، وتظلم الدنيا مبكرا لندور فى الصندوق بلا إبصار... ويحاول طبيب هادئ وشجاع أن يناوش بما يشبه الاحتجاج أو أن يبدى تعاطفا معنا ، فإذا ساقونى إليه مرتجفا وحرارتى تصل إلى ٣٩ ، لم يكتب دواء وإنما كتب فى دفتر العلاج « كوب لبن يوميا وحذاء »... ويبدو هذا التحدى صارخا بما يدفع المأمور إلى كتابة تأشيرة إضافية « تستأذن المباحث العامة » ، ويصمم الطبيب على تكرار التأشيرة يوميا فى تحد إنسانى هادئ ، ويصمم المأمور على إضافة عبارته التقليدية . ويتكرر التحدى ولا يأتى أبدا الإذن من المباحث العامة .

ذات صباح ضحك الطبيب الهادئ والصامت دائما « حذاؤك يهدد أمن الدولة » وواصل تأشيرته .

(كان الدكتور صادق نموذجا للإنسان العادى الذى صعنته قسوة الحوار الناصرى فدفعته على غير إرادة مسبقة إلى اتخاذ موقف يشبه التحدى ، وتدرج تعاطفه من « كوب لبن وحذاء » إلى تلمس الوسيلة لنقل رسائل الزوجات والخطيبات من سجن النساء الملاصق إلينا ومن بينها رسائل ليلى

إلىّ ،... وبكل المعايير كان الرجل يرتكب شجاعة نادرة فى هذا الزمان الموجع) .

وفى الصيف يكون التعمد أن يتحدد موعد الطابور (الفرصة الوحيدة للانطلاق من القفص ، إلى قفص أوسع قليلا) فى عز الظهر .

ويكون الفرن الأغسطسى المذاق متقدا بما يمنح الأجساد حماما غير حميم من العرق ، ويمنح الرؤوس دواراً ملتهبا ، والحصى المتكاثر فى أرض الحوش المحدود والمسقوف بسماء ملتهبة ومتجهمة يختزن لهيبا مكثفا يغدق به على الأرجل العارية ويضيف إليه لسعات مدببة لم نكن لنشعر بها ؛ فالأقدام تمرست ، واعتادت ، ورؤية السماء والهواء ، وقدرة العين على امتداد بالبصر لأمتار أبعد ، ووجوه الرفاق ، وإمكانية تناقل الهمسات أو البسمات ، كانت تغطى على أى شىء آخر ، بل وتقيم خيمة علينا فتنسينا هجير الظهيرة الأغسطسية القاسى .

وفيما يترنح الطابور فى تثاقل متظاهر بالنشاط انتفض الحوش كله إذ لسعته "انتباه" عالية وحاسمة توحى بأن القادم شخصية مهمة... وأتى ذات الطابور من الضباط ، وذات "الشىء" القصير ذو الكاب الأحمر . وقفنا ، ووقفوا . نحن تحت مظلة الشمس القاسية وهم فى ساحة ظل يلقيها بناء ورشة السجن . لم يبح أحد منا للآخر بمدى خوفه فى هذه اللحظات الصامتة ، فاللواء همت لم يأت أبداً إلا محملا بالشر الشرير . كنا نتصارح بكل شىء عندما يأوينا الصندوق المظلم ، إلا الخوف . ربما خوفا من الخوف ذاته ، وهو يعدى كأنه ميكروب سريع التجوال . لكننى أعترف الآن بالخوف الذى يتسلل عبر المسام ليسرع نحو القلب فيعطيه نبضات متعجلة ، وضربات إضافية تجبر الأنفاس على أن تتراكم فى محاولة لملاحقتها ، وأفواج من النمل البارد تنساب عبر العمود الفقرى لتمنح الجسد كله قشعريرة شريرة المذاق .

ارتفعت يد همت وتمدد أصبعه الأنيق وأشار "إنت"... تمنى كل منا ألا يكون "هو" . وحاولت الأعين أن تتحاشى اتجاه الأصبع . لكن الإصبع يعرف اتجاهه . ويعيد تصويب نفسه بشكل أكثر دقة... "أنت" ويكون"أنا".

وأتقدم خطوة للأمام... ويدعونى هو إلى خطوة أخرى...

- اسمك ؟ مهنتك ؟ ثم...
- هل أنت شيوعى ؟
- نعم
- يعنى عميل .
- لا (الإجابات المختصرة فن يتقنه السجين فى وضع كهذا) .
- لماذا تهاجمون الرئيس عبد الناصر ؟

هنا يتسع ثقب الإبرة الذى تنفذ منه الإجابات وأتنفس من العبارات عن موقفنا المؤيد لسياسات عبد الناصر المعادية للاستعمار والصهيونية والقوى الرجعية... ولكن نحن مختلفون حول قضية الديمقراطية .

لم يدعنى أكمل . بدا وكأنه لم يسمع كل مابعد "ولكن" .

وقال : كويس . أنتم أولاد كويسين . ومادمتم تؤيدون الرئيس عايزك تهتف كده مع زملائك «عاش الرئيس عبد الناصر» .

(وأشعر بالموقف المركب والمعقد وهو يلتف حول عنقى ليفقدنى القدرة على الإقناع ، فإن كنت تؤيد حتى فى السجن وحتى فى ظل الحوارات الشرسة ، فلم لا تعلن تأييدك هتافا . لكن التبسيط الساذج والمفتعل لا يكفى ، فعاش عبد الناصر هنا ذات مذاق ذليل لا نقبله ، وهناك فى الشارع قد تمتلك مذاقا آخر... ربما يمكن وصفه تبركا أو تبريرا بأنه نضالى أو شىء كهذا) .

وترتبك المحاولة فى تفسير الموقف . وأعترف (الآن) أن الكلمات

كانت غير قادرة على الإقناع وابتسم "همت" متباهيا ، ثم قال «طيب رأيك إيه فى الواد خرتشوف إللى بيشتم الريس ويقول عليه شاب طائش» .

اتسع ثقب الإبرة قليلا وتحدثت عن أهمية توحيد كل القوى التقدمية فى العالم ضد عدونا المشترك «الاستعمار والصهيونية» ، فقال دون أن يفسح مجالا للكلمات كى تتسق ... خلاص . خلاص . أهتف لنا يسقط خروتشوف .

(تماما كالأحلام المتعجلة انفلت شعاع ممتد أمام عينى . وحاولت أن ألتقط منه حججا تصلح لموقف كهذا ، ولرجل كهذا ، فلم أجد) ولم أجد سوى "لا" انفلتت (محاولة أن تكسو نفسها ببعض من الحسم ، لعله كان ضروريا كى ألتزم أنا بلا هذه) .

صعق الجميع ضباطا ورفاقاً ، والعينان الباردتان كعينىْ أفعى اكتستا برائحة زجاجية غائمة ، بينما الكاب ذو الشريط الأحمر يهتز فوقها ، واكتفت النظرة الزجاجية بإشارة غاضبة... ولم يستغرق الأمر وقتا... إرسال الـ "لا" ، انطلاق النظرة ، ثم ... بدأ الحوار الناصرى يصل إلى ذروته ، العصى والأحزمة والشوم واللكمات وصفعات الأحذية الميرى الثقيلة... وبغريزة صِرفة تلتف يداك حول رأسك تاركا كل الجسد الآخر للركلات والحوارات والحوار الثقيل . والذى يخوض تجربة كهذه يعرف أنها- فى وقتها- ليست صعبة ، فبعد بضع عشرات أو مئات من الضربات ينفصل الجسد من منطقة الإحساس بالألم ، ويبدو وكأنك تلاحق حوارا مع جسد آخر ، وتكون منفصلا إلى درجة أنك تشفق عليه . لكن الآلام الحقيقية تأتى فيما بعد عندما يحملون هذا الجسد غير القابل للحركة إلى الصندوق ... والكاب الأحمر أصدر قرارا : يحبس "انفراديا" و"انفراديا" هذه تعنى أن مرارة السجن تتضاعف مرات ومرات ، فكيف يمكنك أن

تغالب الوقت كي يمضى ، فيغلبك ولا يمضى ، يتراخى ، يتباطأ ، يجثم على صدرك ، يلتف حول عنقك ويأبى أن يمضى ، ويصيح النهار داخل الصندوق المغلق مغموسا بالملل ، وعندما يتلون الصندوق بالسواد يصبح المساء عذابا...

لكن الليلة الأولى بعد الحوار الناصرى المكثف فاضت بموجات من الألم وبعديد من التساؤلات عن الموقف ، ولِمَ كانت الحجج لا تعرف طريقها للإقناع... ولِمَ تبدى الاتجاه السياسى غير مقنع لا للذئب ، ولا حتى لى ؟...

وبعد زمن لا يمكن حسابه ، لأن معايير الحساب مختلفة ، سمح لى بمصحف وإنجيل فكانا سلوة فريدة من نوعها ، ومثارا لتأمل عميق ، ودراسة متأنية .

وأحيانا ومن فرط إشفاقه على هذا المنفرد فى صندوقه كان الشاويش أحمد الدهشورى يتلفت فى حذر ليفتح الباب . ، ثم يتركه مواربا ، وكأنه يخجل أو يخشى أن يتباعد عن موضعه المستديم .

والذى يعانى من انغلاق دائم للصندوق يعرف قيمة سنتيمتر واحد من ضوء متسع وهواء متدفق ، ويتمشى الدهشورى فى حذر مشفقا على نفسه من أن يضبط وقد أتاح لهذا المشاغب فرصة أن يتنفس . كان طويلا ومبروما وجافا ، رأسه يشبه رأس ديك شرس ،وأنفه مندفع للأمام فيجر الرأس كله خلفه . فقير ، وقديم ، يزهو بأنه عاصر كوكس باشا مديرا لمصلحة السجون (كانت أيامها السجون سجون) ، وكان يكسو كل تفاصيل وجهه بحالة من الترفع لا تتلاءم مع خضوعه العبودى النزعة لأى ضابط... لكن حالة الترفع كانت تحفظ له المسافة الواجبة بين السجان والسجين ، وهى مسافة لا يمكن قياسها من فرط اتساعها .

كان يمشى فى حزم لكنه من فرط هزاله يكاد يشعرك أنه سوف يتفكك

فى واحدة من الخطوات القادمة ، وبرغم هذا الإيحاء بالتفكك المترتب على مستوى المعيشة ، كانت له قبضة من حجر ، ويل لمن يذق طرقاتها...

وذات يوم اشتبك مع رفيق وضربه ضربا موجعا ، ثم تمشى أمام صندوقى ، ثم فتح غلاف الصندوق وأطل برأسه المهاجم... وترك الباب مفتوحا ومضى .

وبعدها أتى . ربما أحس أنه بحاجة إلى تبريرُ ما فعل ... أو تفسيره ، لكنه وبرغم تقاربه معنا ، وربما إشفاقه علينا ، لم يكن يمتلك المفردات الأدبية للتبرير أو التقارب أو الإشفاق . هو سجان أصيل يعرف فقط أن يكون سجانا...

ووجدتها فرصة لأحاوره... ربما لأتفهمه ، وربما لأستمتع لأطول وقت ممكن بانفراج غطاء الصندوق ، أو حتى لأدرب نفسى على الكلام الذى لم أعد أمارسه فى زنزانتى الانفرادية .

اتكأ هو على السور الحديد ، عيناه مصوبتان إلى بوابة العنبر كى لا يفاجئه أحد ، لكن الكلمات كانت مصوبة إلىَّ...

- ياعم أحمد أنت إيه رأيك فى الحكومة ؟

- الحكومة طول عمرها بنت كلب .

- أى حكومة ؟

- أى حكومة...

- وعبد الناصر ؟

- راجل جدع .

- بتحبه ؟

- (باستنكار) إيه بحبه دى هو أنا حاتجوزه ؟

- ورأيك إيه فينا ؟

- عيال طيبين ولاد حلال .

- طيب بتضربنا له ؟

- شغلتي . أكل عيشي . والحكومة قالت أضربكم يبقى لازم أضربكم .

- بس الحكومة بنت كلب ؟

- بس أنا باشتغل عندها .

- لكن بصراحة كده ياعم أحمد إحنا نستحق الضرب ؟

- (بإخلاص شديد) طبعا .

- ليه ياعم أحمد إحنا بندافع عن الشعب ؟

- ماهو كل الناس بتقول كده . هو الكلام بفلوس . يا ابنى أنتم أفندية وبهوات ، زيكم زى البهوات التانيين بس انتو يعنى بتقولوا إنكم مع الفقراء . هو فيه غنى ممكن يبقى مع الفقراء ؟

وأوجعتنى الكلمات بأكثر ما توجع القبضة الصخرية ، وأحسست أن طرقاتها فى أكثر الأماكن إيلاما ، كانت غيظا وتساؤلا هل نحن فعلا مع الفقراء... أم كذابون كغيرنا ؟

... ومنذ هذا النقاش يتبقى لدىّ دوما تساؤلا ماذا نفعل بالضبط ، وماذا نقول بالضبط ، كى يصدقنا عم أحمد... والناس الآخرون ؟

الحب عبر القضبان

... وكما اتفقنا من قبل ، سنحتاج أحيانا إلى محاولة اجتياز حاجز « ماهو جدير بالمعرفة » بالمعنى السياسى ، وبالمعنى الأكاديمى... ونتحدث عما هو خاص... ربما لأنه يقترب بى أكثر فأكثر من القارئ . وربما لأننى أستشعر أحيانا الحاجة الملحة للحديث عما هو قريب من نفسى أو من ذاتى .

وليس مجرد الحديث عن السياسة... وتوابعها .

وطوال فترات السجن تحاشى السجانون اعتقال النساء ، لكن محاولة الافتراس الناصرى للشيوعيين فى مطلع عام ١٩٥٩ ، لم تترك مجالا لأى عقل ، أو أى إحساس إنسانى بالإنسانية .

وهكذا امتلأ سجن القناطر (نساء) بعديد من المعتقلات ، بينما سجن القناطر (رجال) ممتلئ أيضا بالسجناء تحت التحقيق .

والفاصل جدار واحد ، لكن الجدار سميك ، عازل ، مانع ، قادر على أن يثير غيظك لأنه يحجبك بالفعل عن أية علاقة بمن تحب .

ولو أنك بعيد ، لما شعرت بذات الإحساس ، لكن الاقتراب القريب جدا يلهب خيالك بتلقى رسالة ، أو كلمة أو همسة وتكاد فى فترات الانفلات المحدود جدا من الزنزانة ، تكاد أن تشم رائحة من تحب .

وكل شيء مشترك ، السجن ، الإدارة ، الهواء إن وجد ، والشمس إن تراخت حتى يصل بعض من خيوطها إليك . والراديو (الذى سمح به وفق تطوير جديد ، يعطى «سماعة» هنا وأخرى هناك لنسمع معا ذات الأغنيات) يعطيك تواصلا خاصة عندما تتهادى عبر قضبان الزنزانة أغنية عاطفية... ومفتاح الراديو فى يد قاسية لا تسمعك إلا ماتشاء ، وبالتأكيد لا تسمعك نشرة الأخبار ، فقط برامج سخيفة كى تغيظك ، وما أن تتعلق أنفاسك بشيء مفيد أو ممتع... تصمت السماعات ، عن عمد . لكن يوما ما أفلتت أغنية كانت جديدة تشدو «أحبك فوق ما تتصور» فالتهب الحنين المشترك ، بالسماع المشترك... وتصور كل من كانت قطعة من قلبه مودعة فى القسم الآخر... أنه يقولها بنفسه ، أو أنه يتلقاها لنفسه .

وكان هناك العديد من الأزواج والزوجات ، هنا يصبح الهم هو العنصر المشترك ، أخذوا الأب والأم وأحيانا الطفل الرضيع... وبقى باقى الأولاد خارج حدود التلامس ، وحتى بعيداً عن تتبع كل ما يكون عنهم... أو لهم .

وكنت الوحيد غير المتزوج لكننى أمتلك مثل الأزواج - وربما أكثر منهم - حنينا لتخطى حاجز الزمان والمكان . كانت الأوضاع داخل السجن صعبة للغاية ، والزنازين مغلقة طوال الوقت ، ولا قدرة ، أو فرصة ، لإيجاد حتى ثقب إبرة تنفذ منه أشواقك .

ذات صباح وبينما يدور الطابور فى الحوش تحت الحراسة المشددة ، والمتشددة عن عمد ، صرخ التمرجى «العيادة ياواد أنت وهو إللى طالب عيادة» ، خرج بعض المرضى الذين سجلوا أسماءهم عند شاويش الدور ، التمرجى يعد... ثم يصرخ مناديا «ناقص واحد عيادة ياأولاد الـ...» ثم يعد ، ثم يصرخ ، وأخيرا راجع الكشف وصرخ باسمى مصحوبا ببعض الشتائم ،

ولم أكن قد طلبت عرضى على الطبيب فى هذا اليوم ، لكننى لم أكن أملك الاعتراض ، وهى فرصة على الأقل كى أفلت لبضع دقائق من مناخ الزنزانة القاتم . وامتثلت فى طابور العيادة ، متصورا أن ثمة خطأ ما . وما أن وصلنا بالقرب من غرفة الطبيب حتى استدعانى . إنه ذات الطبيب الإنسان ، والاستثنائى «د . صادق» الذى خاض - أو حاول - معركة منحى حذاء ، وصمم على تأشيرة متكررة «يصرف له حذاء» وصمم المأمور على تأشيرة مضادة «للعرض على المباحث العامة» واستمرت المعركة الصامتة زمنا... دون جدوى .

دخلت على د . صادق . نظر إلىَّ... وضع يده فى جيبه وأخرج منديلا ناوله لى قائلا : «ليلى بتسلم عليك» والتهبت خيالات وأشواق... وجنون . وخرجت مسرعا . المنديل مشغول بيديها ومطرز عليه حرف «R» .

* * *

كانت البداية بعد يوم أو اثنين من اختفائى فى بيت محمد الزعفرانى... لجنة العائلات . مارى باباداوبلو ، قدرى شعراوى... وليلى . وكانت غيوم كثيفة تحلق دوما فى رأسى ، فالمسئول الهارب ليس من حقه أى شىء... لا الحب ، ولا الإعجاب ، ولا حتى التأمل . لكننى امتلكت رغبة للتأمل قاومتها بشدة عنيفة .

وتوالت لقاءاتنا لنقترب أكثر... فأكثر . وفقط . فالغيوم المستبدة بى تفرض حاجزا مدببا يدمينى كلما حاولت اجتيازه... لكننى بدأت أشعر بأننى أفتعل المقابلات . أفتعل تقاربا منها ، وأفتعل أن نكون منفردين ، ولكن ذلك كله كان يتم فى إطار من الحماس للعمل ، ودون أى انفلات من القالب المحايد الذى يغلف تصرفات وكلمات المسئول .

وقبض علىَّ . كانت أول وخزة شعرت بها عندما استقرت أنفاسى أن موعدها كان فى الغد . ستأتى ولن تجدنى . فهل ستتهمنى بالتقصير ؟ حتما ستعرف أننى قبض علىَّ ، فهم يعرفون التزامى بدقة المواعيد .

وفى سجن مصر زارتنى كريمة (زوجة محمد الزعفرانى)... همست عبر السلك الفاصل ببعض معلومات عن العمل التنظيمى ، ووجدت نفسى أوجهها للاتصال بليلى... وترتيب أمر ما معها ، ثم وجدتنى أطلب منها أن تحضرها معها فى الزيارة القادمة .

ولمحت ابتسامة ماكرة تطفو على وجه كريمة .

وبعدها بأيام حضرت كريمة ومعها ليلى ، وتباعدت كريمة فى مكر مضاعف... ولم أجد ما أقول لكننى أحسست بسعادة غامرة ، وأحسست أنها أحست بذلك . كلفتها ببعض الاتصالات المهمة . وطلبت أن تحضر ثانية . ولم تحضر... هى أيضا تخلفت كما تخلفت... وأتى نبأ اعتقالها .

* * *

الآن... هذا المنديل الذى اخترق حاجزا لم يكن أحد يعتقد أن بإمكانه اختراقه ، أشعل فىَّ الرغبة فى التحدى . وأحسست أنه من الضرورى أن نتراسل .

والحقيقة أننا كنا بحاجة ملحة (حزبيا) للاتصال برفيقاتنا فى قسم النساء ، فبحكم كونهن نساء كانت أوضاعهن أفضل ولديهن ظروف أفضل ، ومن ثم فيمكن عن طريقهن ترتيب اتصال برفاقنا بالخارج .

ويمتزج العام بالخاص فى تفاعل حميم وغير متزاحم ، ويمتزج الشوق بالتحدى . ويتصاعد إحساس بضرورة أن أرد على الرسالة التى وصلتنى .

وفى جلسة تأمل فى الزنزانة استبعدت احتمال أن أبعث برسالة مع د . صادق ويكفى الرجل ما يخوضه من معركة متحدية محاولا أن يلقن سجانى الناصرية درسا فى الإنسانية .

وانغمست في مزيد من التأمل . لابد أن هناك أفرادا مسموح لهم بالانتقال بين السجنين . السجناء العاملون فى الفرن ، حيث ينقلون الخبز من سجن الرجال للنساء... وهناك أيضا واحد يعمل فى تسليك المجارى ، هنا وهناك . واكتشفت أنه يسكن فى زنزانة واحدة مع «نبطشى» الدور عندنا .

ورتبت الأمر رسالة مقابل علبة سجائر . وأتقن عامل المجارى لعبته . فكان قادرا دوما على سد المجارى كي يستدعوه سريعا لتسليكها .

وبقيت أدوات التراسل . أوراق البافرة (ورق لف السجائر) تملأ زنانين السجناء العاديين ، وعليها نكتب رسائلنا بمنمنمات غاية فى الدقة . والقلم الرصاص وهو الممنوع الأكبر والأغلى ثمنا فى السجن يفقد غلافه الخشبى وتبقى ساق نحيلة جدا من الجرافيك احترنا كيف نخفيها ثم ببساطة وضعتها فى ركن الزنزانة فوق الأسفلت فما من عين يمكن أن تلحظها . ويبقى بعد ذلك أن تمتلك المثابرة والقدرة على التدرب... أن تسند قطعة البافرة على غطاء جردل الماء... وبأصابعك تمسك قطعة الجرافيك... وتكتب . والغريب أن كلاما ملهما أمكن كتابته . رسائل سياسية... تقارير... أخبار . وكلمات حب ملتهب .

استقام خط اتصال منتظم . وانهمرت رسائل ملتهبة غراما... وأحيانا حماسا وثورية .

وتمدد النشاط ليقدم خدماته للمتزوجين... وللمجموعات الحزبية الأخرى .

وكالعادة ما أن تجد ثقب إبرة ، حتى يتسع ليحمل هدايا وخصلات شعر ورسائل أو حتى نشرات حزبية وصلت إلى سجن النساء ثم عبرت المستحيل لتصل إلينا... وكان كل شيء يتجمع عندى ليتم توزيعه فى هدوء... وسرية على أصحابه .

* * *

وبعد سنوات من الإفراج... التقيت د . صادق .

كنا فى الأيام الحزينة التى تلت هزيمة يونية ٦٧ . وكان نشاطنا فى المجلس المصرى للسلام مركزا على إدانة العدوان الإسرائيلى ومحاولة حشد رأى عالمى ضده ، وفيما كان وفد أجنبى يزورنا... تم ترتيب زيارة لنقابة الأطباء لنستمع إلى تقرير عن سوء معاملة إسرائيل للأسرى المصريين . هناك كان د . صادق هو المتحدث الأساسى . كان صوته لم يزل هادئا ولكنه اكتسى بمسحة حزينة... تحدث عن تقارير طبية لنتيجة الكشف عن الأسرى العائدين ، وكيف تعرضوا لتعذيب وحشى ، قدم صورا بشعة ، وأفلاما مفزعة . كانت عباراته الهادئة تستثير إنسانية الإنسان ، وتمنحه مساحة غامرة من الأسى لكل ما جرى . ضمن الوفد كانت برلمانية فرنسية أثار نحيبها المرتفع شجن الطبيب ، ففاضت دموعه ، واعتذر عن مواصلة الكلام ، قائلا إنه لا يستطيع . وكان فى صمته أكثر تأثيرا .

بعد أن انتهينا وأوشكنا على الانصراف ، انتحيت به... عرفته بنفسى ابتسم فى بهجة ، حاولت أن أشكره ، أسكتنى متوسلا قائلا : لا تفسد كل شيء بهذا الشكر... توجهت عيناى نحوه بنظرة امتنان عميق .

بعدها بفترة تلقيت نبأ وفاته : مات فى طائرة متجهة إلى جنيف

ليحاول أن يشرح فى ندوة لمجلس الكنائس العالمى... جرائم إسرائيل ضد الأسرى .

تسللت دمعة حزينة ، وعندما سألنى من رآنى... لماذا هذا الحزن على شخص ليس قريبا إلى هذا الحد... لم أجد إجابة . فكيف يمكن للمحات إنسانية أن توصف بالكلمات .

حوار في الوقت الخاطىء

آن الأوان لمواجهة مع القضاة . تسربت المعلومات عن تشكيل مجلس عسكرى عال لمحاكمتنا .

واختار القاضى - وربما الأمن - مدينة الإسكندرية كمقر للمحكمة . وانتقلنا إلى هناك . إلى سجن الحضرة ، فتكون مناسبة لنكمل دورتنا عبر السجون .

ومع اقتراب موعدنا مع القضاة عادت الأمور إلى طبيعتها ، الملابس الإنسانية والأحذية ، حيث اكتشفنا صعوبة أن تتقبل أقدامنا الشرسة أية أحذية .

وكالمعتاد ندور فى طابور تحت حراسة مشددة كى لا نتهامس ، أو نتلامس ، أو نختلط ببعضنا البعض ، ثم يعود كل إلى صندوقه .

وذات يوم تولى الحراسة ضابط شاب رقيق دقيق الجسم ، يتكلم ، ويصرخ يشتم مثل كل الآخرين ولكن فى نعومة مفرطة . اسمه سامى وأسميناه فى همساتنا سمسم . سمعنى وأنا أفلت همسة إلى جارى فى الطابور «لو فيه ضرب سأختاره كى يضربنى» . لست أدرى كيف التقطت أذناه الهمسة ، لمعت عيناه تلقيت منها رسالة تتوعدنى .

ثم كان حوار ناصرى غير متوقع . ففى اليوم السابق مباشرة لبدء المحاكمة ، تفجر الحوار الشرس ، بلا مبرر وبلا مقدمات ، وبلا منطق ، تفتح الصناديق بعنف لتندفع إليها وحوش تحمل العصى والشوم وأسياخ من الحديد يضربون بوحشية لا تتوافر حتى لدى الوحوش المتوحشة ، وحين يتهاوى الجميع يغلق صندوق ليفتح الآخر .

وفيما نتساقط فى دهشة مندهشة تحت رنين الركلات والضربات وصدى الشتائم اندفع باب صندوقنا وأتى المتوحشون... سمسم فى الطليعة عيناه تبحثان عنى ، تواريت ناحية أحد المتحاورين ، لكن عينيه تابعتانى حتى نلت ما يكفى ويزيد ، ثم تناولنى فى حوار خاص . ألصقنى بالحائط ، وتراكمت لكماته فوق صفحة الوجه المفتوحة ، لكنها وبرغم قساوتها كانت رقيقة بالمقارنة مع مطارق السجانة . يبدو أن لمحة ما أو نظرة ما انفلتت رغم أنفى ، ويالها من نظرة غبية أبلغته بمدى استهزائى بضرباته . صاح سمسم : ياشاويش جمعة... وأتى الرد الأجش « أفندم » ، فقال : شوف ابن الكلب ده .

وتسلم جمعة ابن الكلب... الذى هو أنا . كفه انهمرت على وجهى . دارت الدنيا وأحسست بها تنقلب ، لمحت كفه سميكا كمطرقة ، أطبقت مطرقة على عنقى... وتحولت الأخرى إلى قبضة تدق فوق عنقى . ولم أشعر بشىء ، أفقت بعد ساعات ملقى على بلاط الممر فى انتظار طبيب . الطبيب قال : مفيش حاجة . حاولت أن أقوم شعرت برقبتى تشتعل بألم لا يمكن لإنسان أن يتوقعه ، أو يتخيله ، أو يحتمله ، (ولم يزل هذا الألم المؤلم يلازمنى حتى الآن... كسر فى إحدى الفقرات ، نظر طبيب أوروبى فى صورة الأشعة وقال : حادث تصادم عنيف ، قلت : ضربة بقبضة يد . قال : مستحيل إنه تصادم حاد جدا... قبضة الشاويش جمعة لم ترد فى كتب الطب الأوروبية ، والحوارات الناصرية خارج إطار تصورهم) .

... وفى اليوم التالى يحملوننا حملا مغلفين بالقطن والشاش إلى المحكمة . وتكون المهزلة ، فالجلسة الافتتاحية يحضرها الأقارب والصحفيون ويحضرها أيضا مندوبان للجنة حقوق الإنسان العالمية ولاتحاد الحقوقيين العالمى أرسلهما رفاقنا الباريسيون . ويفزع الجميع ، يتعالى صراخهم ، الأهل لا يستطيعون التفتيش عمن يخصهم بين أكوام القطن والجبائر المتشابهة . سيادة الفريق أركان حرب رئيس المحكمة يقطر خجلا وهو يصيح : ترفع الجلسة ويسرع خارجا وخلفه بقية الحاشية العسكرية .

ونعود للسجن ليتلقى المأمور تأنيبا شديدا ، ويأتى وعلى الفور اللواء محمود صاحب أحد قادة مصلحة السجون ليحاول أن يمحو آثار هذا الحوار غير الملائم ، والذى أتى فى وقت غير ملائم .

فتح صاحب باشا الصناديق واحدا بعد الآخر ، وواسانا فى رقة ، معلهش . أنتم رجالة . استحملتم كتير . استحملوا دى كمان علشان خاطرى . غلطة ومش حتتكرر .

وكان اللواء صاحب معروفا بهدوئه وابتعاده المتعمد عن الحوارات الشرسة والتعذيب ، ورفضه له . ولهذا شعرنا دوما بقدر من الاحترام له ، وكانوا يعرفون ذلك ، فأتوا به ليهدئ من ثائرتنا ، وليعدنا ومن جديد للمحاكمة التى تقرر أن تبدأ سرا بعد أسبوع .

كنا نتقبل مواساة اللواء هادئين ؛ فماذا يمكن أن نفعل أو أن نقول ؟ انتهزت الفرصة وطلبت منه بعض المطالب الصغيرة فوافق على الفور آمرا المأمور بسرعة التنفيذ . لاحظ أننى أقف بصعوبة وسألنى عما بى أشرت إلى رقبتى تحسسها فى حنان ، وقال ضاحكا : العب شوية رياضة . وأمر المأمور أن يترك الصندوق مفتوحا لأتمشى فى الممر .

وفيما أبدأ أولى خطواتى المحاذرة والتى كانت كل منها تشع بألم

خاطف كماس كهربائى صاعق ، وجدت اللواء الهادئ ينفجر كوحش شرس . وشتائم بذيئة تتسارع نحو الصندوق التالى ثم قبضة حديدية لشاويش شرس تقبض على عنق نوبى نحيل لتجره ، بينما الباشا يصيح خد الكلب ده على التأديب . فتى نوبى ضئيل كنواة البلح ، وأسمر مثلها اسمه سيد حسن عبده .

وفيما أحاول تجربة المشى من جديد كان الباشا عائداً ، ابتسم فى مودة : شد حيلك . تجاسرت وعاتبته . انتحى بى جانبا وسألنى : الولد ده شيوعى معاكم ؟ قلت : نعم .

- لازم تطردوه .

- ليه ؟

- عشان حمار وابن كلب .

وأخيرا حكى لى القصة . فتح صندوقهم وأطل عليهم بابتسامته محاولا مواساتهم . لكن الفتى النوبى النزق ، صدق الرجل ، فقال : إن ما فعلوه فينا مخالف للقانون ولحقوق الإنسان .

ويمضى الباشا مفسرا سر معاقبته للرفيق... تصور بعد كل إللى جرى لكم لسه بيتكلم عن القانون وعن حقوق الإنسان... حيفهم امتى إن البلد دى ما فيهاش قانون... ده لازم تطردوه من عندكم... عيب يبقى معاكم واحد مبيفهمش .

ولم أجد ما أجيب به الباشا .

فقط رجوته ألا يبقيه فى التأديب .

واستجاب الباشا .

سيادة الفريق أركان حرب... قاضياً

... ولم يكن الفريق هلال عبدالله هلال قائد سلاح المدفعية ، شريرا ، ولا كان طيبا . هو مجرد واحد من خيوط العنكبوت الناصرى ، يؤمر فيطيع ، فيجزل له العطاء لقاء طاعته .

وبالنسبة لنا كان مسكينا . فحتى وهو يتشدد ، ويستبد ، ويصدر قرارات عسكرية صارمة وآمرة ، كنا نعرف أنه مجرد منفذ للأوامر .

وكان الفريق رغم استبداده المفترض ، وكونه واحداً من أقرب المقربين للمشير عامر ، مسكينا بمعنى الكلمة .

فهو جاهل بأولويات القانون الذى يفترض أنه سيطبقه ، وهو من ذلك الصنف الذى يعتقد أنه قد تجاوز مساحة التعلم .

ولكنه كان يخفى جهله بتكشيرة مستعصية على الانفراج ، وبتجهم يوحى بالجدية ، وبأوامر عسكرية آمرة... ولا شيء بعد ذلك . وهو لم يكن يعرف طبيعة القضية التى سينغمس فيها... تصور أننا مجرد أولاد مشاغبين ، ضد الثورة ، وينبغى تأديبهم بأحكام رادعة . لكنه فوجئ بمسألة معقدة غاية التعقيد ، فالمتهمون يؤيدون حكم عبدالناصر ،

ومنغمسون فى كأس هذا التأييد حتى الثمالة . لكنهم فقط يختلفون حول مسألة الديمقراطية .

وزاد الأمر مشاكسة ، أن يأتى له المتهمون فى الجلسة الأولى كومة مغلفة بالقطن والشاش والجبائر .

ولعله أدرك الفخ ، فبوليس أمن الدولة خشى،أن يتأثر القاضى العسكرى غير المدرب بمقولات التأييد لزعيمه ، فدمر المتهمين بأمل أن يذهبوا إليه ساخطين ، شاتمين ، معارضين... ولكن حتى هذا لم يحدث .

وعلى المنصة اصطف أربعة من قادة الجيش ، هو... (تركى الملامح ، بشرة بيضاء سرعان ما ينسكب عليها لون أحمر صارخ مع كل انفعال... وما أكثر ما ينفعل) . وضابطان عظيمان آخران ؛ واحد من سلاح الطيران ، وآخر لا أتذكر من أين أتوا به... هم جميعا من حواريى المشير أتى بهم مكرمة منه ، حيث استمرت جلسات محكمتهم بالإسكندرية لعديد من الأشهر حاكموا فيها ثلاث مجموعات ونالوا آلافا عديدة من الجنيهات كبدل سفر .

ثم المدعى العام العسكرى ، وهو الوحيد اليقظ ، المدرك ، القادر على التعامل مع ابتكارات المحامين .

وعندما فوجئ الفريق بمتهميه فى الجلسة الأولى مضروبين بوحشية مدمرة ، ارتبك . وتعالى صراخ عائلاتنا ، وتراكمت احتجاجات المحامين ، ووقف شهدى عطية ليتحدث عما حدث مؤكدا أننا لم نزل نؤيد الرئيس ، وتداخلت الأصوات بصورة مربكة ومرتبكة . وتبدى واضحا أن « الفريق » فقد السيطرة على السفينة التى يجلس فى صدرها ، وهنا مال المدعى العسكرى على أذن عضو اليمين ، الأقرب إليه ، فمال بدوره على أذن

الفريق... وفتح الله عليه بـ «ترفع الجلسة» ومضى مهرولا لدرجة أنه خيل إلينا أنه لن يعود .

وبعد خمس دقائق ، كان الفريق جالسا على منصته من جديد ، وقد استعاد كفاءته المفترضة ، وبكلمات آمرة كطلقات المدفعية التى يتقن بالطبع إطلاقها قال : «قررت المحكمة تأجيل المحاكمة أسبوعا ، على أن تعقد الجلسات سرية» .

وانفرد بنا العسكريون ، بعيدا عن أية أعين أخرى .

وتستمر المحكمة أشهرا... والقاضى لا يتعلم ، والمحامون وأكثرهم محترف للدفاع فى القضايا السياسية يقبضون أموالا كثيرة ، ويترافعون مجرد أداء للواجب ، دون أى توقع لإمكانية التأثير فى القاضى... الذى كان يتركهم يصرخون بينما يبتعد هو بعيدا بأفكاره ، وحتى بنظراته ، وزاد من سخافة اللعبة أن القاضى قد أبدى جهلا مستعصيا على فهم أوليات القانون .

أحد المحامين حاول أن يجد ما يقول... فسأل هل الجريمة المنسوبة للمتهمين جنحة أم جناية ؟ كان القاضى بعيدا ، فألح المحامى فى السؤال حتى استعاده إلى ساحة المحكمة... ونكتشف أنه لا يعرف... هو فقط يعرف أننا متهمون... أما هذه المسائل المستعصية على فهمه فهى صعبة عليه ومن ثم فقد صرخ صرخة آمرة «اسأل المدعى... أو اقرأ الملف... أنت جاى تمتحنى ؟» .

وأدركنا جميعا - متهمين ومحامين - عمق الورطة التى أوقع فيها المشير رجله المفضل .

لكن الأمر لا يمر بسهولة ، فأحد المحامين يكتشف أمرا غاية فى الغرابة والبساطة . نسى الحكام أن يصدروا مرسوما بتجديد إعلان حالة

الطوارئ... فظلت مصر لشهر أو شهرين - رسميا وليس واقعيا - خالية من ميكروب الطوارئ . تذكروا الأمر بعدها . وجددوا إعلان الحالة . لكن الغريب أن المرسوم الجمهورى الذى أصدره عبدالناصر بتشكيل المحكمة قد صدر خلال فترة الثغرة هذه . والمرسوم يستند إلى حق الرئيس فى حالة الطوارئ فى الأمر بتشكيل محاكم عسكرية لمحاكمة مدنيين . وبهذا الاكتشاف المثير تلاعب المحامى بالمحكمة... فقرار تشكيلها باطل . والتصحيح اللاحق غير مجد . ولا مفر من أن تنسحب المحكمة انتظارا لمرسوم جديد .

كان الفريق شبه نائم... امتدت الهمسة المدركة لخطورة ما يقال من المدعى إلى عضو اليمين لتوقظ سيادة الفريق . استيقظ ، انتبه ، تابع المحامى المتحمس فى اندهاش واضح ، لكنه لم يفهم .

وتطلب الأمر همسة أخرى ممتدة كى يدرك حقيقة الورطة .

ولكن ، هل يمكنك أن تحاصر الذئب بحبال المنطق ؟

فجأة انطلقت دفعات من الطلقات من رئيس المحكمة... « إيه يا أستاذ ، أنت عايز إيه بالضبط ؟ عايزنا نقوم نروح بيوتنا... هو لعب عيال... مرفوض يا أستاذ » .

حاول المحامى أن ينطق . فإذا بانطلاقة مدفع ثقيل الوطأة تدوى بكلمة واحدة « اسكت » .

وسكت المحامى ، خلع روبه التقليدى وخرج من الجلسة ربما احتجاجا ، وربما اعترافا بأنه لا جدوى ، وقبل أن يصل إلى باب القاعة ، امتدت يد إلى كتفه فى هدوء وحنان . واصطحبه أحد رجال أمن الدولة إلى المعتقل .

ولا يحتاج الأمر بعد ذلك أن نصف خريطة الدفاع... كانوا يتكلمون «أداء واجب» وتبدى الأمر كمسرحية غير مقنعة الإخراج .

لكن القاضى مسكين . ألم أقل من البداية إنه مسكين وسيئ الحظ .

فأثناء المحاكمة صدر أول قرارات التأميم... تأميم الصحافة والبنوك .

والتهمة الموجهة إلينا وفق نص المادة ٩٧أ من قانون العقوبات هى : الدعوة للاعتداء على ملكية الغير والمناداة بالتأميم .

وتنفس المحامون بعضا من المشاغبة .

وأخذوا يدافعون عن التأميم (والاعتداء على ملكية الغير) باعتباره سياسة رسمية مقررة... والقاضى مرتبك ، وحتى المدعى العام المدرب حاول أن يسد هذه الثغرة فتحدث طويلا... فزاد الأمر ارتباكا ، كان يهاجمنا فيبدو وكأنه يهاجم عبدالناصر . ويدافع عن عبدالناصر ، فيبدو وكأنه يدافع عنا . وشعر الفريق بملل وارتباك فأسكته . وسكت .

ومضت المحاكمة مرتبكة ، وزاد ارتباكها عندما بدأ المتهمون فى الدفاع عن أنفسهم ، وفى استدعاء شهود النفى ، حيث وقف أبطال معركة بورسعيد (١٩٥٦) ليشهدوا أن بعض المتهمين كانوا أول من اقتحم بورسعيد المحتلة ، ونظموا المقاومة الشعبية فيها .

وزاد من ارتباك المسكين أن تعالت نبرة التأييد مستندة إلى حائط التأميمات الجديدة .

* * *

أخيرا تنفس الفريق الصعداء ، وأنهى المحاكمة .

وعدنا مرة أخرى إلى سجوننا وإلى ما كنا عليه ، سلبوا منا ملابسنا وأحذيتنا ، باختصار عدنا كما كنا . ولم يجرؤ القاضى على أن يواجهنا ليتلو علينا أحكامه وفق نص القانون ، فالمتهم الأول فى القضية (شهدى عطية) استشهد فى غمار حوار ناصرى ذى طبيعة نازية جرى فى واحد من أبشع سجون الناصرية أوردى أبوزعبل . وكان الفريق يعرف أننا سنحمله المسئولية ، فقد حذرناه أكثر مرة ، لكنه أكد أن المحكمة تأمر «أن يعامل المتهمون معاملة حسنة» .

وابتكروا شيئا غريبا . أن ينتقل المدعى العسكرى وحده إلى السجن ليبلغ كل متهم بالحكم الصادر ضده . وذات يوم ، تعالت صرخات السجانة بانتباهات متعددة ووقف ضابط ينادى علينا واحدا ، واحدا .

فالمدعى لم يتجاسر على مواجهتنا مجتمعين... ولكن واحدا... واحدا .

ونودى علىَّ... صفان من العسكر يحملون العصى لكنهم لا يستخدمونها : اجرى... اجرى ، كل منهم يأمر ، وأجرى فى المجرى بين ضفتى العسكر لأجد نفسى فى غرفة المأمور ، والمدعى العسكرى واقف بقامة مستقيمة كأنه فى طابور عرض . نادى الاسم ، قلت : نعم . قال : خمس سنوات أشغال شاقة .

ربما لم أدهش ، رغم أن المحامين أكدوا وببساطة شديدة أننى سأنال البراءة . فقد ضبطت فى الشارع ، وليس معى أى مضبوطات .

أنا على الأقل لم أكن أتوقع البراءة .

وعندما قال : خمس سنوات أشغال شاقة .

كـان يجب أن أقـول شـيـئـا . وأفلتت منى ـ لا أدرى كـيف ـ كلمـة... متشكر .

واستدرت لأمضى . لكن المدعى أحس أننى أتهكم عليه ، فصاح صارخا تعالَ هنا... واستدرت إليه فسأل غاضبا : متشكر على إيه... أنت بتتريق حضرتك .

تدخل المأمور مستعطفا : لا يا أفندم ، ده أصله مؤدب وابن ناس .

لكن المدعى صرخ : ودوه التأديب .

وبقيت فى التأديب بعضا من زمن .

ثم رحلنا إلى المحاريق .

المحاريق

... وبعد جولة دائرية أعود من جديد إلى بحار الرمال .

من سجن مصر إلى القناطر ثم إلى الإسكندرية فالقناطر ؛ ثم تنتهى الدائرة إلى ذات المكان القديم ، حيث أفق الرمال الممتد بلا نهاية... ومن جميع اتجاهاته .

لكنه ليس ذات المكان الرومانسى القديم جناح... إنه موقع أكثر عزلة ، وهو أيضا بلا رومانسية .

فهنا أسوار سجن حقيقى ، وزنازين من حجر وأبواب وقضبان ، والأهم من ذلك أن الماء يأتيه عبر مواسير عادية ، وليس عبر هذا النبع الأبدى الإغراء بالتأمل ، وأن الزنازين أحلت محل الخيام المفتوحة دوما حتى فى أمسيات الصحراء الرائعة . وسجن المحاريق نموذج خاص ، أسوار لكنها مفتوحة . مرة أخرى تسود نظرية «لا مهرب» ، وفتحتها تقتادك إلى مزرعة جميلة بذلنا فيها أنهارا من عرقنا وجهدنا حتى أصبحت خضراء ، ترويها بئر صغيرة لكنها تكفى .

كان اختراع الزراعة حلا حكوميا سعيدا ، فهو يرفع عنها عبء إطعام سجنائها . وهو يمنح السجناء الشيوعيين إمكانية أن يسكبوا آخر قطرات

جهدهم من أجل التفوق على الصحراء . أربعون فدانا تم استصلاحها ظلت ولفترة طويلة ، وحتى بعد إغلاق السجن نموذجا يتفرج عليه زوار الوادى الجديد وظلت لأمد طويل تسمى مزرعة الشيوعيين . (كان سجناء الإخوان موجودين أيضا فى عنابر مستقلة) وما أن تودعنا الشمس متجهة إلى الغروب حتى نعود طوعيا ، وكأن خيوطها إذ تنحدر تلقى شباكها علينا ، وتجمعنا كل إلى زنزانته... وتغلق الأبواب كأى سجن... وإلى الصباح .

وكان الزمن فى سجن المحاريق غريبا هو أيضا . عبدالناصر فى أوج مجده السياسى . يصعد ويصعد ، وأطروحاته تصعد معه... والصحف التى أصبحت متاحة ، وإن متأخرة لأسبوع أو أكثر تحمل أرقاما ومعلومات ومقالات وتحقيقات عن متغيرات تقلب الواقع المصرى الذى عرفناه ، وعايشناه ، وأقمنا كل بنائنا الفكرى على أساسه .

الصحف تتحدث الآن وبحماس عن التأميمات ، والاشتراكية والاتحاد السوفيتى الصديق ، والزراعة التعاونية ، والقطاع العام ، ومشاركة العمال فى الأرباح والإدارة ، والزيادة المتسارعة للإنتاج ، وحقوق المرأة العاملة ، وهى تصرخ بالعداء لأمريكا والإمبريالية والصهيونية... و... و... وكل ما كنا نقول به ، وأحيانا أكثر .

والبعد بعيد جدا ، والكلمات المطبوعة على ورق حكومى التوجيه ، هى الثقب الوحيد الذى تستقى منه ما تعرف ، أو ما يجب أن تعرف . وانقسم الشيوعيون إزاء ما يتدفق من هذا الثقب قسمان .

قسم صدقه تصديقا كاملا باعتباره الصدق الصادق ، وقسم أنكره إنكارا شاملا باعتباره الكذب الكاذب . ورفاق حدتو أو كما كانوا يسمون أنفسهم فى هذا الوقت (الحزب الشيوعى المصرى - حدتو) كانوا يستلهمون كل ما

يتدفق إليهم من معلومات رسمية فيرتلونه ترتيلا . أليس هذا تأكيدا لصحة موقفهم القديم جدا من حركة الجيش ، بل وتأكيد لتلك الفكرة التى نبتت وياللغرابة داخل زنازين سجن القناطر الموحشة والمتوحشة عن وجود مجموعة اشتراكية فى قمة السلطة .

ولعل هذا الترتيل الصوفى النزعة كان يستمد بعضا من مصدره من روح تستعذب العذاب على يد الصديق «الاشتراكى» . وتستشهد بالموقف على حالة التأييد إلى حد الاستشهاد ، رغم السجن والتعذيب (الذى كانت حدته قد خفت كثيرا بعد حادث استشهاد شهدى عطية فى أوردى أبى زعبل) .

المهم بدأت تتكون فى عمق عقل حدتو ، وفى وجدانها حالة من التصديق لكل ما يقال ، بل وإقامة أبنية فكرية عالية الطموح على تحليلات مستمدة ، أو مبنية وفقط على ما يتدفق عبر هذا الثقب الإعلامى ، ناسية أن الواقع الواقعى هو شىء آخر تماما ، وأن الجهاز الإدارى الناصرى قد نجح فيما لم ندركه إلا بعد الإفراج عنا بزمن ليس بالقصير ، وهو ابتداع أرقام ، وإحصاءات ومعطيات ، لا تتطابق مع الواقع ، وأن الواقع الواقعى كان مختلفا فى كثير من جوانبه ونتائجه عن الخطط والمشروعات والمقالات والخطب التى تتربع على مساحات غير محدودة من الصحف الحكومية... وهى فى هذا الزمان... الصحف الوحيدة .

ومن عمق هذا العقل نبتت تحليلات وأفكار تقدم صورة وردية تماما لكل ما يجرى خارج السجن على يد الصديق... الحليف الذى يسجننا .

وعلى النقيض كانت المجموعة الأخرى التى كانت تتسمى (الحزب الشيوعى المصرى) ترفض الثقب الإعلامى وكل ما يأتى به ، لا تصدقه ، ولا أى حرف منه ، بل تكذبه تكذيبا غير علمى وغير متوافق مع الواقع . ومن

عمق هذا التكذيب الذى استمد بعضه من عدم الرغبة فى إعطاء الخصم (حدتو) أية ميزة تاريخية تؤكد صحة موقفه القديم ، أو أية مقدرة استشرافية له . ومن ثم تدين الموقف النقيض الذى هو موقفه .

ولست ـ فيما أعتقد ـ بحاجة إلى استعادة مقولات نظرية تفترض خطأ الانسكاب غير الموضوعى نحو مقولات لم تختبر فى الواقع . وأيضا خطأ مجابهة غير واقعية وإنكار ما حدث من متغيرات ، والاكتفاء بترديد عبارات أثبتت الأيام حمقها مثل « رأسمالية الدولة الاحتكارية » .

ولست أريد أن أجمع الموقفين فى سلة واحدة ، فبدون أية رغبة فى تحيز ـ لم يعد له مبرر الآن ـ فإننى أعتقد أن موقف « حدتو » كان الأقرب إلى الصحة... الأقرب إلى الصحة... ولم أقل الصحيح ، فقد كانت مجابهتنا للواقع ـ بعد الإفراج عنا ـ مريرة ليس فقط لأن الواقع رغم إبهاره المبهر ، وجسارته الجسورة كان مريرا ، وكان يكشف للعين المتأنية عن خداع مخادع ؛ خاصة فى مجال الأرقام ، أنه المعترك الصعب الذى خاضته الشعارات الوردية أو الثورية (سيان) ، ومهما كان قدر الإخلاص والحماس الذى تحتويه ، كى تخترق الجدر السميكة لجهاز دولة مخضرم ، لم يدخل عليه منذ الثورة سوى تغيير شكلى ، وإرادة سياسية تريد للجماهير أن تلعب فقط دور الكومبارس الذى يساند البطل ، ويبرز بطولته .

ولابد أن أشير هنا إلى تجربة مريرة... فهناك أيضا كنت مسئولا عن ثقب آخر للنظر نحو العالم الخارجى ، جهاز راديو ـ هو الآن صغير على خلاف راديو سجن جناح ، فقد أتى عصر الترانزستور ، ويمكن أن يختبئ تحت واحدة من بلاط الزنزانة ويمكن فقط أن يتسلل سلك السماعة الملتصقة بالأذن لتسمع الأخبار فى صمت غير صاخب ، وأنت متظاهر بالنوم تحت البطانية السميكة .

وكانت ممارسة الاستماع إلى راديو موسكو (الملهم) أمرا شاقا . فمعدو النشرة العربية مصممون على إكراه المصممين على الاستماع ، على التباعد عن مجال إذاعتهم . فأنت مكره على سماع ما لا تهتم به : كولخوز أول مايو فى طاجكستان أنتج قمحا أزيد... ومصنع لينين للصلب أنتج صلبا أشد صلابة (ولم نكن نتوقع ، أو نتصور أنها هى الأخرى أرقام كالأرقام الناصرية) وبعد إرهاق مدمر للأعصاب المتعجلة لاستماع ماقد يفيد ، فى ظل توتر صعب الاحتمال خوفا من انكشاف أمر الراديو... بعد أن أرهق وأكاد أسد هذا الثقب مللاً ، يأتى خبر أو خبران يهتم الرفاق بهما ، وأحيانا يقرأون مقالا كاملا نقلا عن «البرافدا» .

وذات يوم وقعت مصادمة مع إدارة السجن ، طبعا مصادمة من طرف واحد . فبلا مبرر ولا مقدمات ، وربما قطعا للملل الذى لابد أنه قد أرهق أعصاب المأمور - هو أيضا - فهو مثلنا محاصر بين أمواج الرمال اللانهائية ، وربما حصاره أشد مرارة ، فنحن ندفئ بعضنا البعض ونقطع ملل بعضنا البعض ، أما هو فبعد الغروب يغرب عنه كل أمل فى الإفلات من شِبَاك الملل .

المهم - ولأى سبب لكنه سبب مفتعل وغير مبرر - أتى الرجل بحراسه مدججين بالعصى والقوايش (أحزمتهم الغليظة والموجعة جدا) لينهالوا ضربا ، علينا طبعا . وبعد أن أفرغ شحنة الملل عاد هادئا إلى استراحته .

وتحاملت أنا على أحمال الألم المتراكم وأخرجت الراديو لأستمع - «هنا موسكو» وبعد الطقوس المملة قرأ المذيع ترجمة مقال نشرته «البرافدا» صباح ذات اليوم عنوانه «الأفراح على ضفاف النيل» للكاتبين إيجور

بيلاييف ويفجيني بريماكوف (الأول تلاشى ، والثانى هو ذاته الذى أصبح فيما بعد رئيس الوزراء الروسى ، والذى كان يتباهى خلال حواراتى الصاخبة معه فى نهايات الستينيات بأنه ناصرى يسارى ، وبأننا متطرفون متشددون لأننا نطالب ، أو طالبنا ببعض أو حتى بقليل من الديمقراطية) .

هذا المساء بالذات ، والألم المؤلم يؤلم بغير احتمال... «الأفراح على ضفاف النيل» وأستمع إلى تحليلات وردية عن آفاق المستقبل الاشتراكى لمصر .

وتتزاحم مع كلمات الراديو ، أسئلة تتراكم فى إلحاح ممض... وماذا عنا نحن ؟ وماذا عن ملاحظاتنا أو انتقاداتنا أو سمها ما شئت ، وإذا كان السوفيت معه (عبدالناصر) إلى هذا الحد ، والناس معه ، فمع مَنْ نحن ؟ ومَنْ معنا نحن ؟ وتتزاحم الكلمات والأسئلة وكأنه شجار . وأغلق الراديو ، ولا أكمل المقال فهو ممل إلى درجة الوجع ، ولدىّ ما يكفى من وجع مؤلم .

وتظل هذه اللحظة الدرامية معلقة فى ذهنى ، إنها لحظة التناقض التاريخى بين معطيات موقف شديد التعقيد ، والاشتباك مع خيط واحد مع شبكة الخيوط المتشابكة خطأ فادح ، ومن ثم لقنتنى هذه اللحظة الدرامية فى هذا المساء البائس ، وفيما بعده ، وحتى الآن ، أن الموقف المعقد يحتاج إلى رؤية معقدة هى أيضا... ولا تكتفى بنعم أو بلا ، وإنما أن تنظر إليه بالعينين معا ، وليس بعين واحدة .

* * *

وكان السجن مضاعفا ، والعزلة المتواصلة عن العالم والناس استمرت بالبعض لعشر سنوات أو أكثر ، والتطورات المتلاحقة ، التى لا تراها وإنما -

وفقط تسمع عنها - أو بالدقة تقرأ عنها ، (وليس من قرأ كمن رأى) تدفع بالسجين إلى حالة من العطش المعرفى يحاول البعض أن يرويها بادعاء المعرفة ، والبعض الآخر باجترار ذات أطروحاته السابقة ، فإن حاول التجديد استخدم ذات الخيوط القديمة لينسج موقفا جديدا ، فيأتى الجديد لا هو كالسابق ، ولا هو ملائم للحاضر .

وكم أرهقتنى اجتماعات حزبية مطولة ؛ بل تكاد تصبح مستديمة تستمر ليالى متتالية بأكملها... تستعاد فيها وبتطويل ممل ، وتكرار ذات المقولات التى تحاول أن تفسر واقعا غير معاش ، فتبدو باهتة وعلى غير مقاس الحقيقة .

وقررت أن أبحث لنفسى عن مخرج ، ونظمت لنفسى « ورشة » للقراءة ، الكتب متراكمة ، فهى لم تعد ممنوعة ؛ وهى منوعة ومتنوعة . وانغمستُ لساعاتٍ طوال فى قراءة منعزلة ومعتزلة . أنسحب إلى أقصى نهاية المدى السجنى حيث السور الحجرى ، وأفترش بطانية قديمة ، وتصطف الكتب أمامى . أيامها تعلقت بالتاريخ وقرأت فى الأدب وحفظت أشعارا وعلمت نفسى الإنجليزية .

وكان السؤال : كيف ؟ كانت معى نسخة من الموسوعة الفلسفية بالعربية ، وأرسلت إلى أسرتى طالبا النسخة الإنجليزية . وأقرأ النص العربى مرات عدة ، ثم الإنجليزى مرات ثم أمسك بالإنجليزى لأترجمه للعربية وأراجعه ، وأصححه على الأصل ، وأعود لأفعل ذات الشىء لذات الفقرة مرات ومرات... فالوقت هنا بلا نهاية ، وكلما ضيعته كان أفضل .

تقريبا طوال النهار كنت أقضيه هناك إلى جوار السور ، أنتقل فقط مع انتقال الظل . والغريب أن كثيرا من الرفاق كانوا يشفقون علىَّ ،

ويتصورون فى الأمر إعياء من استطالة السجن ، لكننى كنت أمتلك إحساسا غريبا بحاجتى أن أكسب شيئا من هذا السجن ، وهذه فرصتى الوحيدة للكسب منه . ولعل اندفاع سنوات العمر (كنت فى هذه الأيام أتجاسر فأتجاوز الثلاثين) وأنا لم أزل طالبا فى الثالثة بكلية الحقوق كان يدفعنى ، كى أندفع أنا فى تثقيف نفسى لعلى بهذا أسدد بعض الدين لنفسى . وبعد معرفة لا بأس بها بالإنجليزية أغرقت نفسى فى ترجمة كتاب جميل عن النضال الفيتنامى المبهر اسمه «أضواء على الهند الصينية» والترجمة هنا ليست كأية ترجمة ، فأنت تترجم على ورق من أكياس كبيرة بنية اللون تماما كأكياس الأسمنت ؛ كان يأتينا فيها لبن مجفف مقدم لمصر من المعونة الأمريكية فرأت الحكومة أن تبعثه إلينا ، ربما إشفاقا ، أو استكمالا لوجبات غذائية غير كافية... وربما تشفيا... ثم تنسخ ما ترجمت على ورق البافرة (ورق لف السجائر) كى يستطيع أن يتسلل ليقطع بحار الرمل ويقبع منتظرا عند ليلى (كانت قد أفرج عنها) ، وعندما خرجت من السجن أعدت كتابته على ورق عادى ، ليصدر فى كتاب جميل ، كان أول ما أصدرت من كتب .

* * *

ويمتد حبل الأيام فينسج أشهرا وسنين خمس . وتنتهى فترة السجن . لكن السجناء فى هذه الأيام لا يفرج عنهم .

فى أشهر سابقة كانوا يرحلون إلى القاهرة حيث يطلب إليهم كتابة أسطر يستنكرون فيها الشيوعية ويؤيدون الرئيس عبدالناصر . ورفض الجميع ، وبعدها أراحوا أنفسهم من عناء الترحيل ، وعناء نقاش لا جدوى منه ، وتعدلت الخطة . مَنْ يريد أن يكتب ، يفعل ذلك عند مأمور السجن ،

ولم يفعل أحد . فكان نصيبى - لأننى لم أفعلها - بدلة معتقل بيضاء ، بدلا من بدلة سجين زرقاء ، وفقط .

ثم تقع تطورات سياسية ، متلاحقة .

عبدالناصر يصرح لأريك رولو (جريدة الموند) بأنه ينوى الإفراج عن الشيوعيين ، ثم بدأت حملة إفراج واسعة... ثم أصبحت شاملة .

وأعود مرة أخرى إلى الاغتراب .

الرجوع

... ومهما تستطيل حبال السجن وتتمدد فلابد من نهاية . وأتت هذه النهاية فجأة ، لكن الأسرة هذه المرة لم تتقبل تعلأت الإقامة بالقاهرة لاستكمال الدراسة ، وتحتم أن أعود إلى المنصورة .

وإذ أحاول أن أعيش الحياة المفترضة وأتعايش معها ، تبدو الأمور فى المنصورة وهى أكثر تعقيدا .

فالأعين تتوجه إلىّ بعشرات من الأسئلة المندهشة... فيم كان ذلك كله ؟ غبت أحد عشر عاما كاملة ، ذهبت وأنت تقنع الناس ، أو تحاول ، بأن عبد الناصر ديكتاتور ومعاد للديمقراطية ، وعدت بعد كل هذه الرحلة ، وأنت تمتدح عبد الناصر وتؤيده ، ففيم كان ذلك كله ؟

وفى وقت كهذا تتمنى أن تنفلت دون أن تصافحك الابتسامات أو النظرات ، أو يستوقفك صديق ، أو قريب ، أو واحد من المعارف ليواسيك ، ويغلف مواساته بعشرات من الأسئلة التى قد تبدو حانية لكنها موجعة وجعاً مؤلما... كيف ؟ وماذا فعلوا بكم ؟ وماذا تنوى ؟ وما رأيك فيهم ؟ وألف ماذا ، وكيف ، وما... ، كل منها تمتلك سنا مدببا ينساق إليك

ويقتحمك فيوجعك ، ويوجعك أكثر أن إجاباتك تتعثر فلا تجد سبيلا لا لإقناع ، أو حتى شبه إقناع .

فإن أفضت فى الحديث عن السجن خنقت الحديث عن تأييدك للرئيس ، وإن أفسحت للتأييد مجالا ، ففيم كان كل ذلك ؟

وزملاء الزمن القديم أسرعت بهم الحياة فى مجراها المعتاد... استكملوا دراستهم . توظفوا . تزوجوا . وفى المساء يسترخون فى الجلسات المعتادة على قهوة أندريا أو قهوة مسلم أو غيرها... ولا مجال لمشاركتهم ... فالسجن تلحق به خمس سنوات مراقبة .

أى بقاء من الغروب حتى الشروق رهن الإقامة الجبرية . والأقارب توافدوا أفواجا ، الكل تغير ، أحد عشر عاما غيرت الناس جميعا . إلا أنا . وكم عانيت من نصائحهم وأسئلتهم ودعواتهم المغلفة بنقد مرير . وتظل تعانى فى صمت محاذر ، فإن تسحبت كلمة من فمك ، حاذرت ألا تفتح بها نقاشا قد يستدرجك إلى ما لا تحب .

والويل لى وللأسرة من ضيوف ما بعد الغروب عندما يلاحظون دقات الصول الذى ما أن يستشعر ازدحاماً مقابل البيت بسيارات الزائرين ، حتى يرفع صوته سائلا عن دفتر المراقبة كى تسرع إليه بما يسد فمه ويدفع الكلمات كى تصبح همسات...

والمدينة نفسها تغيرت . لست أدرى ماذا حدث لها ، شوارعها ضاقت ، انكمشت ، واختفت منها كل مظاهر التحضر والنظافة ، والناس تلهيهم الرغبة فى الكسب . والمعركة فى هذه المدينة التجارية هى أن تخفى ثروتك . وتسرى شائعات غريبة عن المخابرات التى تتجسس لدى الجزارين «فلان يشترى كم كيلو من اللحم أسبوعيا» ربما حدث ذلك مرة ، لكنه انتشر بسرعة البرق بحيث اعتاد أبى وأصدقاؤه على أن يشتروا اللحم من

أكثر من جزار . ومعركة إخفاء الثروة كانت أكبر هموم تجار المنصورة . ومن هذه النافذة كان عداؤهم لعبد الناصر يطل فى كل لحظة ، وكانت نظرات أقاربى تحتوى قدرا من الرفض لهذا الفتى الذى عارض عندما كانوا يؤيدون ، ويؤيد عندما أصبحوا يعارضون .

وبعد يوم أو يومين أراد صاحب هذه الضيعة المسماة بالدقهلية أن يتعرف على الوافدين الجدد . مدير مكتب المحافظ اتصل تليفونيا محددا موعدا...« وهات زملاءك معاك » .

وذهبنا ... مجموعة من المفرج عنهم . المحافظ ضابط (إسماعيل فريد) لم يكف عن الحديث عن دوره البارز فى الثورة وتصميمه على حمايتها . وسكرتير عام المحافظة ضابط (عقيل مظهر) أبدى اشمئزازه عندما تحدثت (فى محاولة لتغيير مجرى الحديث) عن والده وأفكاره المتحررة (إسماعيل مظهر) ... واكتفى بأن هز رأسه بحركة لا تعرف منها إن كان موافقا أم محتجا ، وعيناه مضبوطتان على اتجاه موجة عينيَ المحافظ .

* * *

تحدثت عن الجميع إلا الرفاق القدامى الذين غادرتهم زمنا طويلا... وظلوا فى أحيان كثيرة كشجيرات تلقائية النمو والفعل ، لاتجد من يمنحها ماءً أو إرشادا أو معرفة ، ومع ذلك تواصلوا منتظرين أن أعود . وعدت . وكانت مقابلاتى معهم تعويضا عما أعانيه من الآخرين ، كل الآخرين . وكانت محاولتى أن أبدو لائقا أمامهم ، دافعا لى كى أستعيد بعضا من كفاءة قديمة مفترضة .

ومن جديد تبدأ روح المشاغبة القديمة فى استعادة أنفاسها غير متناسية الزمن الجديد والقبضة الجديدة . واتخذت المشاغبة طابعا فرديا ، فواحد من

بصاصى رفيقنا "أحمد أركو" أبلغه أن ساكنا جديدا أتى إلى بيتهم هو ضابط فى قوات الأمن منقول من مصلحة السجون ، زوجته تشكو لجارتها ما حاق به من ظلم . «قالوا له اضرب ضرب ، وبعدين عاقبوه ونقلوه» .

(ولم أحتج حتى إلى قليل من الذاكرة ، فمن الكلمات الأولى عرفت أنه سامى (سمسم)... إنه الوحيد الذى سأظل أذكره دوما... كلما آلمتنى رقبتى ، وهى دوما تؤلمنى) . وأفسحت لأحمد أركو مساحة من الشغب يبدو أنه بالغ فيها...

(رسائل تهديد إلى بيته . ومكالمات تليفونية تهدده . يخرج من بيته ليجد موتوسيكلا يندفع نحوه بسرعة جنونية ثم يتفاداه فى آخر همسة...إلخ)

وتباعدت عن الأمر لعدة أيام ، فما كان لى أن أفقد الحذر منسكبا نحو الرفاق القدامى دون حرص .

وذات صباح استدعانى مكتب المحافظ ، دخلت لأجد "سمسم" واقفا . مد يده ليسلم ، يدى رفضت بإصرار أن تصافحه رغم إلحاح المحافظ . كان المسكين مفزوعا ، ومرتبكا ، ويكاد يبكى ، ويحكى قصصا خرافية عن محاولة اغتياله ، ومحاولة اختطاف ابنه الصغير ، والمحافظ يحاول أن يهدئ من مخاوفه مؤكدا أننا لسنا دعاة عنف ، لكن سمسم يستعيد قصة زميله عبد اللطيف رشدى (كان قائد فرقة التعذيب فى ليمان أبى زعبل ، ومن هناك وبعد حادث اغتيال شهدى عطية ، نقل إلى أمن أسيوط حيث أطلق عليه مجهول دفعة من رشاش... ليموت) . كل ذلك وأنا مكتف بالصمت . كان الفزع فى عينى سمسم يؤلمنى ، وحديثه عن زوجته وابنه يؤلمنى أكثر . وكانت رقبتى هى أيضاً تؤلمنى . ولعل موجات من الألم قد تراكمت فى هذه اللحظة بالذات لتذكرنى بكل ما كان . لكننى وبصدق كنت أشعر إزاءه بالرثاء . فالذين حرضوه تخلوا عنه ، وتركوه للفزع .

لاحظ المحافظ أننى لم أنطق ، ولم أصافح ، ولم أبتسم ، فتوجه إلىّ مُلِحّاً أن أصافح الرجل الذى علق كل شىء على مصافحة ، قد تحمل معنى العفو أو المصالحة . أما المصافحة فلا ، وأما الشغب فيجب أن يوقف(هكذا أكدت لنفسى) . ثم اقترحت على المحافظ أن ينقل الضابط . وتساهل المحافظ وقال : اختر أنت... أنقله إلى أى مركز . فقلت وكأنى أملى تعليمات... أحسن ينقل خارج المحافظة . ونقل سمسم خلال أيام . وفقد رفاقنا لذة المشاغبة .

وبعد أسبوعين تقريبا زارنى رفيق ، حكى مايجرى فى القاهرة . البعض اندفع إلى مصيدة التنظيم الطليعى (تنظيم سرى أقامه عبد الناصر) وقبل شرطا أساسيا هو أن يقطع علاقته بحدتو ، والبعض يتطلع إلى الطليعى ، والبعض ينتظر . كانت خطة القيادة واضحة ، فقد قالتْ منذ زمان السجن بوجود مجموعة اشتراكية فى قمة السلطة ، ومن ثم فلا بأس من السعى للتوحد معها . وكان المنضمون للطليعى مجرد طليعة ، تستكشف الطريق تمهيدا لدخول الجميع . (فى البداية انساق نحو الطليعى زكى مراد . محمد شطا . شريف حتاته . وآخرون) ولم يكن فى الأمر ضعفا ولاعيبا . كان اتساقا مع موقف عام . لكن حدتو هى التى فقدت اتساقها ، فلها ساق داخل النظام وساق خارجه ، وما كان لأمر كهذا أن يستقيم طويلا .

وإذ تحدثت طويلا عن معاناة فردية فى مواجهة الناس ، سأفسح أسطراً لمعاناة من نوع آخر . خرجنا لنجد عبد الناصر فى قمة مجده (إبريل ١٩٦٤)... الجماهير التى اعتدنا التحدث عنها أو باسمها تلتف حوله فى حالة من الوجد الصوفى المتوهج ، والخصوم الذين حاربناهم يرفضونه ، والبرنامج الذى أعددناه يتحقق الكثير منه (لعل هذا التحقق كان شكليا . فما أن تتلامس مع مكوناته حتى تكتشف خواء وفسادا) وعبد الناصر وكأنه يشكو

حقا ، أو كأنه يوجه الحديث الشاكى نحونا ، يتأوه فى كثير من أحاديثه «أنا أبنى اشتراكية بدون اشتراكيين» وتلهب هذه العبارة خيال الكثيرين منا ، فها هى الاشتراكية تريد أن تبنى نفسها على أرض الوطن ، فقط هى بحاجة إلينا . لكنك ما أن تضع قدمك عندهم حتى تضيع فى متاهات من التسلط العلوى ، والعمل الشكلى ، والعيون المتلصصة على كل حركة (وهو ما كان من الصعب اكتشافه عند البدء) .

والوضع أصبح معقدا... نصفك عند الطرف الآخر . نصفك الآخر يبقى معك ، يحاول أن يفرض وجوده ، أو يفترضه ، لكن عقله معلق بالآخر ، يسعى كى يتعلق بأذياله . وحتى وإن أراد الاستمرار مستقلا فإنه لايجد مايقوله سوى أنه يؤيد الرئيس .

وأتذكر اجتماع المنطقة الأول .

قررت بناء على طلب من المركز دعوة لجنة منطقة الدقهلية إلى اجتماع . وكان واسعا... حوالى الثلاثين من الكوادر بعضهم سايرنا فى رحلة السجن والبعض أفلت ، وبقى يحاول أن ينبت ذات الأفكار فى تربة تغير مذاقها ، وتغيرت قوانين الفعل فيها .

لكن الجميع كان منفعلا بفعل اللحظة الجميلة... أن نلتقى مرة أخرى على ذات المسار . كرئيس للاجتماع تأملت هذه المجموعة وطاف بخاطرى خيال باهت... بهؤلاء يمكننا أن نبدأ وأن نهز الدنيا . (أى دنيا ؟ وفى أى اتجاه تهزها ؟ . ظل هذا السؤال شوكة فى حلقى)... تحدث الجميع بانفعال ، والبعض بافتعال ومبالغة ؟ (فى بعض الأحيان تكون المبالغة علاجا للتردد أو الخوف) . العائدون من السجن قدموا تصوراتهم ، وتحدثوا عن رفاق وأرقام لم تزل تنتظر مياه الرى القيادية لتعود فتزهر وتنشط . والذين نجوا من السجن تحدثوا عما فعلوا ، وعمن بقى ، وكيف بقى . وفى خضم الإحساس

المزدهر بأننا كثيرون لم نزل ، ومستعدون لم نزل ، كى نقول ونفعل ، لاحظت أن الأكبر سنا فينا لم ينطق منذ تراكمنا مع بعضنا البعض . (عم الحاج سيد ، فلاح من إحدى قرى نبروه ، من قادة انتفاضة الفلاحين فى بهوت ١٩٥٠ . نال أرضا من الإصلاح وانهمك فى مسار العمل التعاونى ليصبح واحدا من قادة التعاون الزراعى)... عم سيد لم ينطق . واستدعيته للحديث .

كان باردا على غير العادة . تركته زمان وهو يتقد حماسا . إخلاصه بقى كما هو ، لكنه اكتسى بمذاق خاص جدا... بهدوء سأل : إيه ده اللى إحنا عاملينه ؟

- ده اجتماع .
- اجتماع إيه ؟
- لجنة المنطقة .
- منطقة إيه ؟
- منطقة الحزب الشيوعى المصرى "حدتو" بالدقهلية .
- ليه ؟
- عشان نعيد تنظيم أنفسنا .
- ليه ؟

واستمرت أسئلته الموجزة التى تشبه كل منها وخزة إبرة فى مكان موجع . لكنه كان يختزن قدرا كافيا من الحكمة ومن الحب لنا دفعه إلى تقسيط الوخزات قطرة قطرة...

استمرت... ليه ؟ وأنا أجيب بحرص من يعرف طبيعة المنزلق .

- ليه ؟
- لنواصل عملنا الحزبى .

– ليه ؟

– لنحقق أهدافنا .

– ليه ؟

آه . وقع المحظور . حاصرنى الماكر بسؤاله الساذج والمتكرر حتى قلت : لنؤيد ونحمي ونواصل منجزات عبد الناصر .

وابتسم الفلاح الهادئ الماكر... وسأل : ودى تساوى إننا نقعد فى جلسة سرية ولو مسكونا نتسجن كل واحد عشر سنين . عايزين نؤيد . نؤيد علنا . إنما سرى لما نكون حنعارض . وبدأ عم سيد يعدد لنا أبوابا للمعارضة ضد الفساد المتراكم ، والتحكم ، وافتقاد الديمقراطية . كان مغروسا حتى عنقه فى الاتحاد الاشتراكى (واحد من قادة المحافظة) ومغروسا بذات المساحة فى التنظيم التعاونى ، ويرى ويعانى كل يوم ما لا نلاحظه نحن من على السطح ، أو على صفحات الصحف الخاضعة لعملية تنظيف تجريها رقابة صارمة ومستديمة .

أحسست أن الرجل يوشك أن يغير مسار الاجتماع بعد أن سكب أمواجا من ماء بارد على حماسنا السابق وجعلنى شخصيا بحاجة إلى إعادة تفكير فى كل مانفعل . وبصعوبة نجحت فى إنهاء الاجتماع بأقل قدر من الارتباك ، وفيما الرفاق ينصرفون أطبقت أصابع عم سيد على ذراعى ، انتزعنى من حفل التوديع الملئ بالسلامات ليهمس فى أذنى « عايز تتسجن كام سنة كمان علشان تتعلم ؟ لسه برضه طايش ؟ إذا نفسك قوى تؤيد عبد الناصر روح الاتحاد الاشتراكى . وإذ عايز تعمل « تنظيم سرى حقيقى » يبقى بلاش المظاهرة دى... كفاية ثلاثة أو أربعة » . ثم قال « فكّر . وأنا جاهز » .

"فكّر" أية دعوة هذه ؟ سهلة هذه الكلمة ، ولكن الأصعب أن تمرق بها عبر تعقيدات الوضع الناصرى ، وعبر مواقفنا المعقدة منه .

لكن الأمور تزداد ارتباكا ، عندما يتحدث معى شريف حتاته تليفونيا من القاهرة قائلا إنه سيصل إلى المنصورة ويريد أن يجتمع مع "الزملاء" . أدهشنى أن يتم ذلك تليفونيا . وأدهشنى أنه لم يحدد أى زملاء .

حلَّق عم سيد مرة أخرى فى خيالى المرتبك ، دعوت فقط من كانوا فى السجن . كنت وحدى فى بيتنا ، الجميع فى رأس البر يصيفون ، وأنا مرهون بزيازات الصول المسائية . وطبقا لنصائح عم سيد لا غلاف سرى... المكالمة أتت عبر تليفون مراقب فلنلتقى علنا وفى بيتى .

والتقينا . كان شريف يتحدث بلهجة جديدة ، وأسلوب جديد ، فى يده ورقة وقلم يسجل الأسماء ، والعناوين ، والمهن ، والسن ، والحالة الاجتماعية . وبعد مساحة من الزمن اقتربنا من الفهم . إنه اجتماع للتنظيم الطليعى . وهو لا يعد بشىء ، فقط سيرشح اسماءنا والقيادة تختار من تنعم عليه بالعضوية .

وتذكرت عم سيد وأدركت أنه أكثر حكمة مما كنت أعتقد . مرر لى أحد الرفاق ورقة مطوية تقول «هل قررنا الانضمام للطليعى ؟ ومن قرر ؟ ومتى ؟ وماذا لو رفضت أنا ؟» أومأت إليه أن يصمت... فلا مجال لقول أو لسؤال . فقط نسرع بإنهاء هذا الاجتماع . وانتهى . وبعدها بدأ التفرق . البعض استشعر مذاقا غريبا فتردد . والبعض لاحق شريف كى ينعم بنعمة التنظيم الآمر والحاكم... والبعض لم يزل ساذجا مثلى ينتظر موقفا حزبيا موحدا وواحدا .

إنها البوادر الفعلية لقرار الحل .

وكانت حياتى الأخرى مضنية هى أيضاً . أستيقظ فلا أجد ما أفعل . أشغل نفسى أو أتشاغل بترجمة رواية بدأت معها فى المحاريق (الأرض- لأميل زولا) وبعد ذلك جلسات ثرثرة متباعدة فى كازينو منيرفا مع بعض

رفاق السجن ، الذين بدأوا يتسربون الواحد تلو الآخر إلى القاهرة بحثا عن عمل . وأنا لم أزل متعلقا بالسنة الثالثة فى الكلية... أحاول إعادة قيدى عبر رحلات مكوكية ، أنطلق فجرا للقاهرة وأحاول إعادة القيد ، وألتقى بليلى ، وأعود حتما قبل الغروب .

وبعد فترة اختنقت من المنصورة . النظرات المتسائلة . ماذا ستفعل بنفسك ؟ ونظرات الرفاق من الصنفين الذين أمضوا معك زمنا مريرا فى السجن ، والذين أمضوا زمنا مريرا فى انتظارك... هى أيضاً تسأل ماذا سنفعل ؟

وماذا ستفعل بنا ؟ وأنا بلا إجابة على هؤلاء ... أو أولئك .

ونجحت فى إعادة قيدى بعد لقاء عاصف مع مسئول الأمن بوزارة التعليم واسمه طه ربيع (كان ضابطا هو أيضاً وتابع بتفصيل استعادة كل المعلومات عن نشاطى فى حقوق عين شمس... من بداية العمل حتى الاعتصام الشهير ، وبعد شد وجذب قبل إعادة قيدى شريطة أن أتعهد بعدم الذهاب للكلية إلا للامتحان... ووافقت ، بل لعل هذا كان أفضل فقد كنت أبحث عن عمل كى لا أظل معلقا بما منحنى أبى إياه... وأنا الآن فى الثانية والثلاثين من العمر) .

وبإعادة قيدى فى الكلية ، وحصولى على فرصة للعمل فى جريدة الأخبار عبر وساطة ملحة من محمود المناسترلى لدى صديقه القديم خالد محيى الدين أمكننى أن أنتقل للقاهرة .

وأبى رفع يده قليلا عن العون ، لعله أراد أن يتفرج ماذا سيفعل هذا المشاكس بعمله فى صحيفة حكومية... وشاركت عادل حسين فى غرفة ببنسيون بشارع التحرير .

وبدأت أذاكر كطالب ، وأعمل كصحفى فى قسم الأبحاث... وأحسست بحالة مريرة من الرغبة فى الاستعجال ، لقد ضاع الكثير من العمر ولا مفر

من الإسراع المتسارع فى إنجاز أشياء كثيرة ، تراكمت عبر غياب طويل . وبدأت ألهث محاولا تحويل هذا الفتى المتعثر فى كل شيء ... إلى شيء ما .

وذات يوم تلقيت دعوة ملحة لحضور كونفرنس عاجل لحدتو . سألت الداعي... عن الداعى للاجتماع فقال هامسا : استصدار قرار بحل التنظيم .

ولست أدرى أيه حكمة حكيمةٍ هبطت عليَّ فرفضت الحضور ورفضت إرسال تأييد للقرار من بعيد فإذا كان ثمة قرار مسبق بالحل... فلا مبرر لحضورى وتوقيعى عليه...

ولكى أكون منصفا فأنا لا أزعم أننى كنت ضد الحل . بل كان الحل يتجسد أمام عينى كحالة تفرض نفسها . لكننى - ربما بحس من دراسة التاريخ دراسة متأنية - أردت ألا يذكر اسمى ضمن من اتخذوا القرار .

وهكذا انفرط العقد .

تبددت آمال تعلقنا بها ، وعلقنا عليها كل حياتنا وكل مستقبلنا . وعلقنا الكثيرين غيرنا بها... فتحملنا عنهم وزر ما فعلنا بهم ، إن خيرا فخير ، وإن شرا فشر .

وفى المساء عندما وصل الخبر للجريدة . • صدر قرار بمنع النشر (حتى نشر قرار الحل استكثروه عليهم) وأتى بلاغ عاجل من مكتب عبد الفتاح أبو الفضل (نائب مدير المخابرات السابق ومسئول الرقابة فى الاتحاد الاشتراكى) ليحذر تحت خاتم «سرى جدا» من الاطمئنان لهؤلاء الشيوعيين فهم وإن حلوا التنظيم فلا زالوا يتمسكون بما هو أخطر وهو الفكر الماركسى .

عرضت الخطاب على خالد محيى الدين رئيس مجلس الإدارة- فهو موجه له بصفته عضوا فى الأمانة العامة للاتحاد الاشتراكى (كنت قد أصبحت مديرا لمكتبه) ... قرأ . نظر إليَّ . نظرت إليه . ولم ينطق أحد منا .

فى سريرى فى البنسيون أحسست بقطعة حجر تسحق قلبى ، وبركام يتهاوى فوق رأسى... وانسابت دموع صامتة موجعة . لعلها أرادت أن تؤكد لى أن قرار الحل ليس نهاية المطاف إلا لمن أراد ذلك . وإن بالإمكان تجاوزه... وتخطيه .

وهو ما كان فيما بعد .

الرحيل إلى أخبار اليوم

فجأة ، وبعد انتظار لم يطل طويلا ، إلا أن كل لحظة فيه كانت مغموسة بملل ممل ، تلقيت مكالمة تليفونية دفعتنى كقذيفة متعجلة من المنصورة إلى دار أخبار اليوم .

دخل الفتى الذى اقتحم الثلاثينيات من عمره (ولم يزل طالبا) والمغلف دوما بحالة من الاندهاش نبتت فى أعماقه منذ انسحاب حالة السجن الطويل الأمد ، إلى قلعة الصحافة البرجوازية التى ظل طوال حياته يقتات الانتقاد ، بل والازدراء لكل ما تقول .

من الاستعلامات ، إلى الأسانسير إلى الدور التاسع ، (حتى عامل الأسانسير كان مندهشا ، فالدور التاسع فى الزمن القديم لا يصعد إليه إلا شخصيات مرموقة ، أو صحفيون كبار . والصغار يمتنع عليهم التطلع إلى قدس أقداس الصحافة المصرية) .

فى الدور التاسع كان هناك رفيق قديم ، أتى مع الموجة الجديدة ، وعمل سكرتيرا لنائب رئيس مجلس الإدارة على الشلقانى .

الرفيق السكرتير استقبلنى بتحفظ تام ، وكأنه يخشى أن يلحظ أحد أننا نعرف بعضنا ، أو أنه يسكب نحوى بعضا من المجاملة . انتظرت فترة

ليست بالقصيرة ، سألنى خلالها سؤالا واحدا : «عايز تقابل الأستاذ على ليه ، فيه حاجة ؟» استعنت باستعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان ، وقلت : أبدا ، مسألة شخصية .

وبعد انتظار وإن طال ، إلا أننى تقبلته بصدر رحب وتقبلت معه التشاغل المصطنع الذى استعان به «الرفيق» كى يتجاهلنى ، دعيت لمقابلة الأستاذ علي... كان مبتسما ومترفعا ومنهمكا فى آن واحد ، نسى أن يطلب إلىَّ أن أجلس ، سلم بيد وهو يمسك بالتليفون صارخا باليد الأخرى . نقل التليفون إلى يده اليسرى ، وباليمنى سحب ورقة صغيرة وكتب سطرا واحدا بخط عشوائى ، ثم وقع بحسم ، ناولنى الورقة ، مشيرا إلى مكتب آخر ووجه حديثه إلىَّ مبتسما للمرة الأولى : أشوفك بكره .

هذه الورقة الصغيرة وكلماتها المنكوشة غيرت مجرى حياتى «يعمل... . بمكافأة شهرية ثلاثون جنيها من اليوم» والتاريخ ٢٦ ديسمبر ١٩٦٤ .

ثلاثون جنيها مبلغ ليس بالقليل بمعايير هذا الزمان ، ربما كان قليلا بالنسبة لى ، ولما اعتاد أبى أن يمنحنى إياه ، لكنه يفتح لى باب الخلاص من سجن المنصورة المتخم بمواجهة يومية مع أعين الأسرة الصارمة فى حنان متحفظ ، والمتسائلة فى صمت «وماذا بعد ؟» ، وإلى متى سيظل هذا «الشحط» طالبا ؟

كنت قد قد استعدت مهنتى القديمة «طالب بكلية الحقوق» لكنها لم تعد كافية ، لا فى الشكل ولا فى الموضوع .

وكانت هذه الورقة مخرجى إلى حياة جديدة فى صرح الصحافة العتيد .

فى المنصورة كنت قد التقيت بصديق قديم «أنور عبدالفتاح المحامى» وكان رئيسا لتحرير مجلة المنصورة ، وهى مجلة تصدر عن السلطة المحلية .

وامتلك الرجل جسارة أن يمنحنى مساحة للعمل والكتابة ، وأن أنفذ من خلال ثقب الإبرة أنا وحسين عبدربه ، وكان هناك أيضا رسام مبدع عاش محاصرا فى المنصورة ثم انطلق منها فيما بعد «محمد حجى» ، وكان يساريا هو الآخر . وبدأنا نفعل شيئا فى مجلة المنصورة... أو خيل إلينا أننا نفعل شيئا... لكن الفارق كبير ، بل لا يمكن قياسه بين صرح صحفى هائل ، ودكان صغير كمجلة المنصورة .

وأسهم وجود بعض الرفاق فى تخفيف عزلتى ودهشتى وسط هذا الجيش من صحفيين محترفين ومستريبين ومعادين أيضا . فقد سبقنى إلى دار أخبار اليوم عدد من الرفاق أسرع خالد محيى الدين بتعيينهم ربما ليضمن لنفسه إمكانية الفعل والنفاذ ، وتحقيق قدر ما من التوازن (على الشلقانى ـ أسعد حليم ـ محمد سيد أحمد ـ جمال الشرقاوى ـ أحمد طه-محمد مستجير ـ عادل حسين ـ نبيل زكى ـ مصطفى طيبة ـ مجدى فهمى ـ محمد حجازى ، وربما تساقط اسم أو اسمين من شجرة الذاكرة) ، وكنت الأخير ، فحتى ذلك الحين كان خالد محيى الدين يحمل تحفظات وجدانية مبهمة ضد حدتو ورفاقها ، ربما بسبب تجربة أو تجارب شخصية مع هذا الشخص أو ذاك ، وربما بسبب انسكاب علاقات شخصية حميمة مع رموز الطرف الآخر أو المتعاطفين معه (د . فؤاد مرسى ـ د . إسماعيل صبرى ـ لطفى الخولى ـ على الشلقانى) . وظل قرار إلحاقى أو لحاقى بهذه المجموعة متعثرا بسبب شكوك وجدانية تجاه هذا المنتمى إلى «حدتو» ، وربما بسبب تحفظات من الطرف الآخر . لكن إلحاح محمود المناسترلى (صديق خالد القديم ، وزميله فى سلاح الفرسان) نجح فى اختراق «مصدات» الآخرين .

وكنت الأخير ، فأنا القطرة التى جعلت الكوب يمتلئ ، ليس لأى سبب شخصى ، وإنما لأن الحرص الناصرى ، ودسائس خصوم اليسار قد ملأت

الكأس بما يكفى ويزيد من هؤلاء الشيوعيين الذين يأتون فى اندفاع إلى حصون الصحافة . فأصدر عبدالناصر بعد تعيينى مباشرة أمرا تليفونيا بعدم تعيين أى شخص آخر فى دار أخبار اليوم .

ودخلت كوكبة الشيوعيين إلى حصن الرجعية المصرية ، الجميع هنا... متوجسون ، رافضون ، مستريبون ، يتبادلون الهمسات غير الشجاعة ، ويضعون العراقيل الخفية ، ويشنون حملات متلاحقة من «المقالب» ، وينثرون الشكوك عبر تلامسهم المحكم مع كل قنوات الحياة الفاعلة حول هؤلاء «البلاشفة الحمر» الذين يغزون صروح الإعلام المصرى ، وحول خطرهم على الفكر والعقل والنظام .

الجسد القديم الذى استنبت فى ظلال الرجعية القديمة يرفض التوافق مع القادمين ، الأنسجة متناقضة ، وكذلك الخلايا ، ومن ثم تبدت محاولات زرع الشيوعيين فى هذا الجسد المعادى والمتوتر بعداء قديم ومتجدد تبدو وكأنها مستحيلة .

وحتى «الرفاق» كانوا فى أغلبهم من الطرف الآخر . وبرغم حرارة الاستقبال المخلصة بالفعل ، إلا أن حواجز القديم ظلت قائمة ، وظللت دوما فى حالة اغتراب ، وخيم علىَّ إحساس بأننا لاجئون بلا مأوى ، فبينما كان النبت القديم يصورنا كغزاة همج قادمين على أسنة رماح حمراء ، فإننا فى واقع الأمر لا نمتلك الخبرة ولا الكفاءة ، وإنما نفرض أنفسنا ، أو تفرضنا سطوة رئيس مجلس إدارة «أحمر» ، هو أيضا . كنا نذهب ونجىء ، نتلقى التحيات من الجميع ، والنفاق المحموم من البعض ، وإعلانات معجبة بمجهودنا المتفانى (وكان متفانيا حقا) لكن ذلك كله كان من خلف ظهر قلوب رافضة ، لأنها مفعمة بعداء قديم ، شحنت بطارياته عبر سنوات عدة ، ولم يكن لا مستعدا ولا قابلا لأن يتبدد...

وخيل إلى أن محاولة غرسنا فى هذا المكان تماثل محاولة غرس زهور البانسيه الرقيقة فى صخر صلد .

(لكن الغريب أن أكثر هؤلاء القادمين الجدد قد دقوا جذورهم بكفاءتهم الشخصية فى غابة الصحافة المصرية ، واكتسبوا مكانة لا بأس بها...) .

وكان لابد من الاستقرار فى القاهرة . سافرت إلى المنصورة فى رحلة وداع ، غضب الكثير من الرفاق من هذه النزعة (البرجوازية) للبحث عن مهرب شخصى ، ولأننى سأتركهم مرة أخرى للرياح العاصفة بلا تفسيرات . أبى لم يبد ارتياحا ، وأكد أن الشيء المهم هو أن أكمل دراستى ، وكانت الجنيهات الثلاثون شيئا تافها بالنسبة لما يمكن أن يقدمه لى ، لكن الأمر بالنسبة لى كان أكبر من مجرد بضعة جنيهات . ومن المنصورة عدت محملا ببعض الدعم المالى وبكثير من التوجسات التى سكبتها الأسرة صراحة . كانت الرقابة البوليسية من الغروب قد سقطت بسقوط كل الأحكام السابقة ، نتيجة لعفو عام أصدره عبدالناصر ، وأصبحت أمسياتى حرة لأول مرة منذ اثنى عشر عاما . ولن أستطيع مهما حاولت أن أصف مشاعرى وأنا أتجول فى ليل القاهرة مستمتعا ، ومستعيدا دوما تعبيرا كان سامى جوهر (صحفى فى الأخبار) يردده دوما وهو يغرينى أن أصطحبه إلى سهراته بعد أن ننهى عملنا فى الطبعة الثانية (حوالى الثانية بعد منتصف الليل) ، تعبير يقول : «القاهرة مدينة ليلية» . وكان سامى جوهر ينسب هذا التعبير الرائق إلى كامل الشناوى . وكمسكن اتخذت حجرة فى بنسيون قرب ميدان التحرير مشاركة مع عادل حسين ، فما كانت الجنيهات الثلاثون تكفى غرفة مستقلة .

وفى البداية كانت مهمتى فى الأخبار سمجة وغير خلاقة ، بل وغير مشجعة ، فقد ألحقونى بقسم اسمه «قسم الأبحاث» والاسم مغر للغاية

بالنسبة لمثلي ، لكن المهمة لا علاقة لها بالاسم... كان هناك شابان ممتازان : رفعت طنطاوى وحنفى سليمان تلخصت مهمتهما فى مراجعة شرائح من الورق تسمى «السلخ» هى كل ما سينشر فى الغد ، وتمتد المراجعة من مراجعة المعلومات والأسماء وتدقيقها إلى مراجعة قواعد اللغة ، وأشهد أنهما كانا بارعين ، ويمتلكان ذاكرة قاموسية فيما يتعلق بالأسماء (المسئولين والوزراء والكتاب والأماكن فى بلدان العالم) والجغرافيا والتاريخ... أما مهمتى فهى مراجعة المراجعة وتدقيقها سياسيا . كان محررو أخبار اليوم لا يزالون يقاومون السياسة الناصرية الجديدة ـ ربما بحكم العادة ـ عبر استخدام ذات التعبيرات القديمة ، وكان ذلك يغيظ عبدالناصر ويحرجه مع صداقاته الجديدة... فعبارات مثل : عصابات إيوكا القبرصية ، وعصابات فيتنام ، والصين الشيوعية ، ودول الستار الحديدى ، كان من المتعين إعادة ترجمتها بلغة التوجه الجديد : ثوار إيوكا وكذلك ثوار فيتنام ، والصين الشعبية ، والمعسكر الاشتراكى .

لكن الأمر لم يكن يقتصر على ترجمة المصطلحات باللهجة الجديدة ، بل إعادة النظر فى الموضوعات ومدى ملاءمتها وتمشيها مع التوجه الجديد ، الذى لم يكن الكثيرون فى «الأخبار» قادرين ـ أو بالدقة كانوا غير راغبين ـ فى التعامل معه رغم مقدرتهم العالية على التلاؤم مع الجديد... أى جديد .

وكان هناك ـ لم يزل ـ على ومصطفى أمين ، صاحبا الدار ، وصاحبى المدرسة الصحفية التى أسميت باسمهما . وصاحبا النفوذ والعلاقات الحميمة بكل مفاتيح العمل فى الدار ، وكانا يروجان أن هؤلاء التتار الحمر إلى زوال ، ويدسون فى السر والعلن ضد كامل التجربة . وكان خالد محيى الدين يحتملهما بصبر مثير للدهشة (فيما بعد علمت أن تعليمات عبدالناصر

الصريحة كانت تقول بضرورة عدم التصادم معهما... فقد كان بحاجة إليهما في قمة الاطمئنان ، إذ كان يستعد لهما بضربته القاصمة في قضية التجسس) .

ولعل الحادث الذى سبق التحاقى بالمؤسسة بيوم أو اثنين كان السبب في تعييني سريعا ، فقد نشرت «الأخبار» نبأ وصول حسين الشافعي نائب رئيس الجمهورية إلى مطار القاهرة قادما من الخارج ثم : «وكان في استقباله عدد من كبار الشيوعيين» . وفزع الرجل ، وفزع كثيرون غيره ، وأجرى تحقيق عاجل واكتشف أن يدا في المطبعة غيرت «كبار المسئولين» إلى كبار الشيوعيين ، وبرغم دقة التحقيق وإلحاحه لم يتم التوصل إلى الفاعل .

وتطلب ذلك من خالد محيي الدين عيونا أكثر لتراجع كل كلمة تنشر .

باختصار كانت أخبار اليوم تقاوم هؤلاء «الوافدين الحمر» ، أو كما كنا نسمي في همساتهم «الهنود الحمر» وتغرس الألغام في طريقهم ، وخالد محيي الدين يحاول أن يتلاءم مع القدامى بتسامح غير مصطنع ، ويعالج خطاياهم بنقاش متمهل كان يثير غيظي قبل أن يستثير دهشتي ، وكان موسى صبرى يشاركني (وياللدهشة) غيظي ودهشتي فأطلق على خالد محيي الدين لقب «أسقف كنتربرى» (كان يسمى بالأسقف الأحمر . وكان موسى يحاول وصف خالد بأنه أحمر لكنه متسامح تسامح الأساقفة) ،وصمم خالد محيي الدين على أسلوبه ، محاولا أن يبارك الجميع وأن يدعوهم للهداية ، بل وأن يصلى من أجلهم . وكنت والرفاق الآخرون نلح في المطالبة بالحسم الحاسم لكنني وبعد فترة من التلامس أيقنت أنه كان الأكثر التحاقا بالموقف الصائب . فقد كسب كل من لديه قليل من وجدان حي ، ودفع حتى أعتى الخصوم إلى الحياد ، وبقى دوما - وحتى الآن

ـ في وجدان كل من تعامل معه فى هذه الفترة . لقد نجح تسامحه فى أن يكسر حدة عداء جارف .

ولعل الأمر كان أكبر من ذلك ، فهو بفهمه الأكثر انغماسا فى تضاريس السحب العليا للنظام كان يعرف أن ضربة صارمة فى الأخبار سوف تهز شبكات العداء الظاهرة والمستترة لوجوده على رأس هذه المؤسسة ، كان يعرف مع من يتعامل . فحتى أصغر الصحفيين فى المؤسسة له علاقة علوية ما ، ظاهرة أو مستترة . (أذكر يوما أن أحد المديرين بالدار استدرجه إلى اتخاذ قرار بإنهاء التعامل مع مراسل الأخبار فى بلد أوروبى بحجة أنه يكلف المؤسسة كثيرا من العملة الصعبة بلا عائد حقيقى ، وسرعان ما دق التليفون ومدير المخابرات يطلب إلغاء القرار فهو بحاجة إليه هناك ، وحتى محرر كسول وغير فاعل ومراوغ فى قسم الأخبار متخصص فى الحركة العمالية ما أن فكر خالد فى بحث أمر معاقبته حتى دق رنين أمنى... يمنع ويحذر)... كانت التجربة شائكة . وكان خالد وحده يتقن فن فهم هذا الشوك والتعامل معه .

ولشهر واحد بعد عملى... ظللت أقوم بالمهمة التى أسماها عميد صالة التحرير وأستاذها القدير عم فهمى عبداللطيف «ترجمان الثورة» .

وهى مهمة سمجة وروتينية وليس مسموحا فيها بالخطأ ، فالخطأ مهما كان تافها يهز سحبا رعدية بصواعق غير محسوبة... والرئيس عبدالناصر لا ينام قبل أن يسرع موتوسيكل خاص إلى بيته بأول نسخ من الطبعة الأولى ليعطى توجيهاته وتصحيحاته للطبعات التالية... والويل لنا إذ يدق التليفون بتعليمات أو ملاحظات التقتطها عين الرئيس الفاحصة .

* * *

لم تزد الأيام عن شهر أو أقل قليلا ، واستدعيت للدور التاسع لأقابل خالد محيى الدين . كانت المرة الثانية . فى الأولى تعرف علىَّ عرضا ، وقال ضاحكا : «الحمدلله إنك اتعينت علشان محمود المناسترلى يبطل زن» . فى المرة الثانية وفيما أعبر الممر ذا السجادة الحمراء إلى غرفته همس أحد الرفاق فى أذنى «خالد عايزك تبقى مدير مكتبه» .

تدحرج قلبى بعيدا ، خيل إلى أنى أراه يجرئ أمامى سابحا فى ارتجاف على البساط الأحمر المبهر الذى يغلف أرضية الدور التاسع ليشى لكل قادم بمقدار الأهمية... ليس فقط لسكان المكان ، وإنما لكل من يسمح له بأن يقترب .

ولست أدرى حتى الآن لماذا رفض القلب والعقل معا وبسرعة خاطفة هذا الأمر ، ربما خوفا ، أو حتى ترفعا ، أو تمسكا بمهنة الصحافة المبهرة .

دخلت إلى الغرفة الممتدة وكأنها بلا نهاية... ووقف خالد محيى الدين تسبقه ابتسامة حانية وآسرة معا . وخزنى خاطر مُلِحّ لا تخدعك ابتسامة هؤلاء الكبار .

تحدث خالد ببساطة فأحدهم خدعه بشكل رخيص ، فبرغم تعليمات مشددة من عبدالناصر بعدم تعيين أى صحفى... (كنت أنا القشة التى أثقلت الميزان) دس هو بين أكوام أوراق مطلوب توقيعها قرار تعيين لسيدة أذكر أن اسمها سهير لتعين صحفية فى غفلة من الجميع . وأسرعت الإدارة المشتاقة للإيقاع بكامل التجربة بإتمام إجراءات التعيين ، ثم بتسريب الخبر إلى عبدالناصر ، الذى ثار مرتين... الأولى لأن أوامره لم تستمتع بالقدرة على إخافة الآخرين ، والثانية كانت مغلفة بالتهكم على انفلات الأمور إلى درجة أن تعين صحفية دون علم رئيس مجلس الإدارة .

وأبعد الرجل . وجرى البحث عن شخص مؤتمن ، منظم ، هادئ .

كنت عصبيا بطريقة غير مهذبة ، ورفضت الموقع وكأننى أترفع... عملت كصحفى وأريد أن أبقى صحفيا ، ولست أصلح للعمل كسكرتير لأحد ، ثم من أكد أننى مؤتمن ومنظم وهادئ ؟

والبسمة المستقرة بهدوء غير مصطنع كانت تؤلمنى إذ تعلمنى أن الرفض المتعجل خاطئ ، وأن موقع مدير المكتب مهم... وأن بإمكانى الاستمرار فى الكتابة... وتجلى «أسقف كنتربرى» عندما تجاوز كل ردودى السخيفة بأن قال : «فكر كويس وأشوفك بكره» .

وبينما كنت أنفلت مسرعا محاولا أن أستنشق هواء مختلفا تصادمت مع قادمين ثلاثة... د . فؤاد مرسى ، ود . إسماعيل صبري ، ومعهما رفيق ثالث هو «ك .أ» (وهو رفيق ممتاز عمل فيما بعد بالأهرام وقام بعمله ولم يزل بكفاءة) . لقد سمعت المجموعة الأخرى بنبأ ترشيحى... فوقعت الصاعقة ، فكيف يقترب واحد من حدتو من هذا الرجل ومن هذا الموقع ؟ كانت العداوات لم تزل مشتعلة بين تنظيمين يوشك كل منهما أن ينهدم على رأس أصحابه ، أو بالدقة يوشك أصحاب كل منهما على التخلص منه والاستحمام من كل آثاره ، يستحمون منه ، لكنهم لا يستطيعون الاستحمام من بغضاء متبادلة . فأتوا بالرفيق (ك .أ) كمرشح بديل مدعوم منهم .

صافحت الوجوه المكفهرة ، والأيدى الممتدة فى استرخاء ، وأسرعت لتتلقفنى أيدى وألسنة الرفاق الذين ألحوا وألقوا أمامى وفى وجهى بكلمات كبيرة... التجربة (تجربة سيطرة اليسار على أكبر مؤسسة صحفية فى الشرق الأوسط) ستفشل ، نحن بحاجة إلى شخص مؤتمن إلى جوار هذا الرجل ، ماذا لو دسوا له ورقة أخرى ؟ وألف حجة وحجة... وألف ماذا...

وحتى الآن لم أعرف اسم من رشحنى له هذا الترشيح الحاسم ؟

ولم أتلق إجابة على سؤال قذفت به إلى الرفاق المتشددين فى

الإلحاح : لماذا لا يصعد واحد منكم إلى الدور التاسع بدلا منى ؟ أجابوا يومها بما لم يقنعنى : هو لم يطلب أحدا منا... طلبك أنت .

وحتى الآن لا أعرف لماذا صمم خالد على التمسك بشخص لا يعرفه... وهو أيضا من مجموعة لا يحبها ولا يحب التعامل معها ؟

ربما لأن التعليمات كانت تقضى بعدم تعيين أى جديد . وربما لأن الخلافات داخل المجموعة الأخرى قد أفرزت وشاية ضد المرشح الآخر ، وربما تمسكا منه بالحديث النبوى الشريف «نحن لانولى هذا الأمر أحداً يطلبه» . وبعد هذه السنين من علاقة حميمة ومندمجة أقول ، ربما ، لأن خالد من ذلك النوع الذى لا يحب من يندفع لتقديم نفسه ، ويفضل من لا يفعل ذلك . على أية حال وبرغم كل هذه المساحة من العلاقة المغموسة بحب وثقة كاملة لم أتجاسر وربما لم أشأ أن أسأله ، لكن الشئ المؤكد أن عملى مع خالد محيى الدين قد فتح لى آفاقاً من الصداقة والمعرفة ، وفرصا من التقدم لم أكن أحلم بها .

وفى الغد صعدت إلى التاسع ، ولم أنزل ، دخلت نحو الابتسامة الحانية ، بينما كنت أبحث عن كلمات أبرر بها ترددى أو حتى رفضى ، انتزع هو الكلمة الأولى وقال : «أنا عندى اقتراح : نشتغل مع بعض (لاحظ نشتغل مع بعض) ونجرب بعض فترة . وبعدها تقرر زى ما أنت غايز . إيه رأيك ؟» قلت : وهل ثمة رأى آخر بعد ذلك ؟

وقام بنفسه وفتح باب غرفة جميلة مشبوكة مع غرفته بباب جانبى وقال : هذا مكتبك .

تأملت المكان الأنيق ، هذا المكتب جلس عليه طويلا «على أمين» . وعلى الأرفف كتب مبهرة منها عشرات المجلدات عن تاريخ مصر ، آه كم أحب أن أقرأ فى تاريخ مصر . وتعلقت بالأرفف قبل أن أتعلق بالمكتب .

وجلست . ورن التليفون : تعال . وفتحت الباب الجانبى وجلست ، وبدأت فى ممارسة عمل غريب . فأنا الآن مجمع أسرار كثيرة ، وأجلس على حافة قمة متفجرة بالأهمية والتناقضات والألغام . واتضحت أمامى ملامح كانت غائبة أو غير مرئية أو غامضة . وأفضى خالد بكل ما لديه . وتمثلت ولم أزل حتى الآن... حكمته ، ومعلوماته... وأسلوبه فى التعامل مع الأشياء... والأصدقاء والخصوم معا .

وكل صباح ومساء يتمدد أمامى بريد رئيس مجلس الإدارة... وعضو الأمانة العامة للاتحاد الاشتراكى . وهو بريد غريب ، أسرار ، فقط تقرأ ، وليس مسموحا لك أن تقول أو تهمس . ففى قمة أخبار اليوم تقليد غريب ابتدعه (ربما) مصطفى وعلى أمين ، وهو أن محرريهم ، وأخطبوطهم المنتشر فى مختلف الأجهزة والوزارات والإدارات وأقسام البوليس والمأذونين الشرعيين ، وكل ما يخطر على البال أو لا يخطر من مصادر للمعلومات ، كان مطلوبا منهم فى حالة الحصول على معلومة سرية حتى ولو كانت شخصية صرفة ، سواء كانت تمس تصرفا سياسيا أو ماليا أو أخلاقيا أو أى شيء يمكن أن يكون محلا للثرثرة ، أو مثارا للاهتمام ، تدون فى ورقة تغلق ، ويكتب عليها «للعلم» وتعنى هذه الكلمة أنها ليست للنشر . وتتراكم مظاريف «للعلم» هذه أمامى لتقدم كل يوم عشرات ومئات المعلومات المثيرة للدهشة والاستغراب والتى اعتاد مصطفى أمين أن يتقرب بها من الرئيس عبدالناصر ، إذ يمتعه كل صباح بأكوام من المعلومات «فلان تزوج فلانة سرا خوفا من زوجته» ، «فلانة شوهدت فى نادى كذا بصحبة فلان» «فلان اشترى أرضا باسم زوجته» «فلان قابل فلاناً» وعشرات أخرى من نماذج المعلومات التى قد تكون سخيفة أو شخصية صرفة ، لكن مصطفى أمين كان يعشق أن يستجمعها عنده ليتقرب من الرئيس بها ، أو يثرثر بها

متباهيا فى جلساته الخاصة . (ولم أزل أذكر يوما أن خالد محيى الدين استدعانى شاكيا من أن لديه معلومات تقول إن صلاح حافظ - وكان أيامها رئيسا ناجحا جدا لتحرير آخر ساعة - ينوى أن يتزوج للمرة الثالثة ، وقال : هو صديقك ، حاول أن تنصحه ، خاصة أن الرئيس لا يحب أن يكون رؤساء التحرير محلا لمثل هذه الأقاويل ، كلمت صلاح وانتظرنى حتى انتهيت من متابعتى للطبعة الأولى كى ترسل للرئيس ، وبعدها بساعة أو أكثر قليلا أبقى متوترا منتظرا لأى تليفون من مكتبه يحمل تعليمات أو تعديلات أو حتى تأنيباً ، وفى الواحدة مساء خرجنا معا تمشينا على كورنيش النيل نقلت له رسالة خالد ، وحاولت أن أنقل له مشاعرى أو آرائى ، وبقى صامتا ومحتفظا بابتسامته المتربعة دوما على وجهه الذى يشبه وجه طفل جميل وبرئ ، وبينما نسير ونسير أخذ يقتادنى نحو شارع فؤاد وهناك وكنا قرابة الساعة الثالثة فجرا اشترى من بقال بجوار سينما ريفولى زجاجة كونياك ثمينة . سلم على بحماس مفعم بصداقة قديمة ، ولم يقل شيئا . فى الصباح كنت فى الأسانسير فى الساعة التاسعة مؤملا ألا أتأخر عن اجتماع مجلس التحرير ، وبينما أندفع كان بالأسانسير مصطفى أمين ، قلت صباح الخير ، فأجاب باسما : مبروك . لم أفهم مبروك على ماذا ولم أجب ، فقال : شربت الشربات ، قلت : شربات مين ؟ قال : صلاح وهالة . قلت صلاح مين ؟ أجاب : صلاح حافظ . وعلمت منه أنه تركنى ليتوجه مع هالة إلى المأذون ليتزوجا فى الفجر... وظللت لفترة مندهشا حتى علمت أن من بين أذرع الاخطبوط الإخبارى لأخبار اليوم : المأذونون الشرعيون ، كانت أخبار اليوم تهدى كل منهم اشتراكا مجانيا فى كل صحفها ، وبعضهم مثل مأذونى الزمالك وجاردن سيتى ومختلف الأحياء الراقية يتلقى راتبا شهريا بسيطا ، والمقابل أن يبلغ مصطفى أمين شخصيا بالزيجات المهمة التى يعقدها .

(وعلمت أنه بهذا الأسلوب كان مصطفى أمين أول من عرف بزواج المشير عبدالحكيم عامر . وأول من همس به فى أذن الرئيس) .

وباختصار . لم تمض على إقامتى فى الدور التاسع سوى بضعة أيام حتى أصبحت مخزن أسرار متحركاً... دون أية قدرة على الهمس . لكننى كنت أعانى كثيرا من قلة الخبرة ، فالفتى الريفى غاص فى بئر السجن طويلا وعميقا ، وافتقد حتى خبرة التعامل العادى وخبرة الحياة . ولم تكن لى أية خبرة إدارية... من السجن إلى الدور التاسع . ولم تكن لى دراية بفنون التعامل مع هذه الديناصورات التى تتربع فى المستوى الأوسط من المؤسسة ، والذين كان أكثرهم يكرهنا ويتآمر ضدنا .

وربما بسبب ذلك كنت أتعامل مع الجميع ببساطة وأدب ، وهم لم يعتادوا على ذلك ، فقد حكم المؤسسة وتحكم فيها قبل خالد محيى الدين عدد من العسكريين كانوا وكان مساعدوهم يفتقدون القدرة على التعامل الهادئ مع الآخرين .

وربما بسبب ذلك أيضا رفضت - دون قصد - أية امتيازات ، أو استثناءات يمكن للجالس فى موقعى أن ينالها . فلى الحق فى سيارة من المؤسسة ، وببساطة رفضت ، فالمؤسسة قرب محطة المترو . وبرغم أن المساحة التى تركها لى خالد محيى الدين كان تعطينى حقوقا كثيرة ، وحتى حق أن أقول نعم ولا فى أشياء كثيرة ، إلا أننى تحاشيت ذلك .

وبدأ السكان القدامى فى المؤسسة يعربون عن دهشتهم من التصرفات الهادئة والوديعة لرئيس مجلس الإدارة ، ومن هدوء مدير مكتبه الذى يتصرف دوما كريفى ساذج . (لكنهم كانوا واثقين أننى لست ساذجا وتصرفوا معى على أننى شخص بالغ الخطورة) .

وبدأت أنغمس بحذر فى هذه الحياة الجديدة ، ولم أزل أذكر تحذيرات

خالد : «حذار فالجميع سيحاولون استدراجك أو الإيقاع بك ، لن يستطيعوا الإيقاع بى... ولهذا سيركزون عليك» ، واعتدت أن أستمع بحذر ، وأتعامل بحذر . فخالد يحرسه موقعه وماضيه وعلاقته المباشرة بالرئيس ، أما أنا فمن السهل الإيقاع بى ، وبى يمكن الإيقاع به .

ويمتلئ مكتبى بصحفيين مرموقين ، وكبار كبار الكتاب يسكبون ماء وجوههم تملقا للفتى الساذج ، أو المتظاهر بالسذاجة ، يتقربون ، يفتعلون صداقات ، ينثرون إعجابهم بما أفعل وبما أكتب ، ثم يدسون عبارة أو عبارتين عن أمل فى ترقية إلى موقع نائب رئيس تحرير ، أو رئيس تحرير ، أو يدسون ضد كاتب آخر... أو... أو... وأنا صامت ، وحتى لا أصدر أى إشعاع يوحى بالتفهم ، أو التقبل ، أو المشاركة .

كانت تجربة قصير جدا ، وغنية جدا ، وجميلة جدا ، ومليئة بألاعيب وتلاعبات وحكايات لا تنتهى . ولعل ما تساقط من الذاكرة أكثر مما تبقى منها... لكن حتى هذا القليل الذى تبقى يكفى لكتاب أو كتب أكبر بكثير من هذا الذى بين يديك .

* * *

ولعل الكثيرين لم يدركوا بعد عمق وخصوبة وصعوبة هذه التجربة .

فالصاغ الأحمر يأتى من فترة إبعاد واستبعاد ليتربع فوق قمة إفرست الصحفية ، وإلى جواره فتى ريفى خارج لتوه من سجن طويل ، والمؤسسة كلها اعتادت أن تقتات العداء للشيوعية ، ولكل من يتلامس معها ، بل لعلها تأسست منذ البدء كى تفعل ذلك .

ولا يستطيع إلا من مارس هذه اللعبة ، وعرف أخبار اليوم من عمقها ، أن يعرف صعوبة هذا المعترك ، وكم ما يختزنه من متناقضات وغليان . وأنت

فى هذه الدار تتعامل مع صحفيين للكثير منهم علاقاته المعلنة والسرية ، وتداخله أو تسلله إلى دهاليز النظام ، وكأن فم كل منهم متصل بأذن رسمية يهمس فيها بما هو صحيح أو مغرض .

وكانت ضغوط كثيرة مرئية وغير مرئية تتراكم فوق رءوسنا ، والرئيس يبدى على الدوام تململا من ضغوط ووشايات لعله لم يكن يتوقعها ، أو لم يكن يتوقع أن تكون بهذه الحدة . وكان هيكل يسهم بالوشاية والإلحاح... مستفزا وبشدة من تصاعد توزيع الأخبار ليزيد بكثير عن توزيع الأهرام ، رغم ما كان يحظى به من انفراد خبرى مصدره الرئيس ، بل وانفراد يحميه ويصمم عليه الرئيس (أذكر يوما أن اندفع الأستاذ جنيدى خلف الله رئيس قسم الشئون العربية مسرعا يطلب مقابلة خالد محيى الدين ، كنا حوالى الساعة السابعة مساء ، وقال وهو يحاول ترتيب أنفاسه وكلماته : خبر مؤكد . الريس الليلة مسافر للسعودية من ميناء كذا . كانت السعودية تقف على طرف الخصومة الحاد ، وكانت تساند الطرف الذى نحاربه ويحاربنا فى حرب اليمن ، أسرعنا إلى غرفة خالد وأسرع باستدعاء رئيس التحرير وكبار المحررين . كان الأستاذ جنيدي واثقا من الخبر ولديه اسم ميناء سعودى غير معروف إلى درجة أننا استعنا بخريطة كى نتعرف عليه ، ولديه أيضا اسم القطعة البحرية التى سيستقلها الرئيس ، وبسرعة جرى إعداد المانشيت الجديد «الرئيس فى السعودية» ، وفيما يعكف موسى صبرى على صياغة الخبر... دق التليفون على مكتب خالد ، يمنع نشر خبر رحلة الرئيس... دش بارد أغرق الجميع ، وفى غيظ صامت انفض الجمع بعد أن نفض عن نفسه كل حماس .

وبعد فترة أتت الطبعة الأولى من الأهرام لتزيد الغيظ اشتعالا ، وتزيد من موقف خالد حرجا ، فالمفترض أنه مقرب من الرئيس ، وأنه يستمد من

هذا القرب نفوذا كبيرا... كان مانشيت الأهرام «عبدالناصر فى السعودية» .

وكان خالد يستشعر حرجا بالغا ، ففضلا عن تعرض المؤسسة لمنافسة غير شريفة ، فإن مركزه يهتز أمام القمم الصحفية والإدارية فى المؤسسة ، وتتوالى وبكثرة أحداث مماثلة) . ووصل الأمر أننا نجحنا فى اختراق دفاعات هيكل داخل مؤسسته ، وكنا نعرف مانشيت الأهرام ، وإذ تأتينا أوامر منع النشر كنت أرد بأن معلوماتنا أن الأهرام سينشر الخبر ، ويصمم المتحدث : التعليمات عندى منع النشر .

كانت هناك خطة آمرة حاسمة بإعطاء الأهرام مساحة للنشر محرمة على الآخرين . لكن الغريب فى الأمر أن توزيع الأخبار كان يتصاعد دوما ليتفوق على الأهرام . بما يدفع هيكل لإعطاء الرئيس أرقاما غير صحيحة... لكن ذلك كان يسهل كشفه... وربما كانت هذه الخطة تستهدف مجاملة هيكل... أو إعطاء الأهرام مسحة المتحدث الرسمى... أو حتى إحراج خالد...

* * *

لكن الغريب فى الأمر أن البعض خاصة من الرفاق القدامى ، لم يكن مدركا لصعوبة هذه التناقضات والتربصات والمعوقات ، فكان يتصرف بأخطاء تعطى الآخرين ممكنات الدس... والوقيعة . فقد كان هذا البعض يحلل الوضع العالمى ، ومستوى العلاقات المصرية ـ السوفيتية ، ومستوى العلاقة (المفترضة وليس الواقعية) بين خالد وعبدالناصر ، فيتصور أننا فى القمة أو بالقرب منها . ويتصرف على هذا الأساس ، متخليا عن أى حذر ، ومستبعدا أى حرج .

فمثلا الرفاق السودانيون ألحوا فى أن يكون منهم مراسل للأخبار فى الخرطوم ، وخالد يمتلك حنينا خاصا للرفاق السودانيين ووافق على الفور ،

لكن الرفيق المراسل (فيما أذكر كان اسمه عبدالله آدم) لم يكن يعرف الفارق فى المذاق بين جريدة شيوعية كجريدتهم «الميدان» وبين «الأخبار» مهما كان من يتولى رئاستها . فكان يرسل أخبارا لا يمكن نشرها ، وإنما كانت فقط تصلح كمادة لتقارير الدس علينا لدى الرئيس أو المشير أو غيرهما . وكانت مراسلات هذا المراسل تمثل بالنسبة لى ارتباكا ، فقد كنت أبذل مجهودا خاصا كى أحتاط على رسائله وتمزيقها قبل أن تصل إلى يد تجعل منها مضمونا لتقرير أو لوقيعة .

وكان المراسل حسن النية ويتصرف على سجيته ، وقد أرسلت له أكثر من مرة رسائل شفوية أحذره فيها ، لكنه لم يستطع استقبال التحذيرات ، وذات يوم أرسل برقية تقول : «يصلكم الرفيق عبدالخالق محجوب السكرتير العام للحزب الشيوعى ، رجاء تسليمه مرتبى للأشهر الثلاثة القادمة» . حملت البرقية إلى خالد وقلت ثائرا طبعا كل من قرأها فى الإدارة سوف يرسل تقريرا . فأجاب بغيظ : التقرير سيصل من مكتب التلغراف .

وألح الرفاق السودانيون على أن نطبع لهم فى مطبعة الأخبار كتابا عن تاريخ الحزب الشيوعى السودانى . ولست أدرى كيف عرف أنور سلامة وزير العمل بذلك ، وأسرع فأبلغ الرئيس ، وأثار الرئيس الموضوع فى اجتماع الأمانة العامة للاتحاد الاشتراكى (كان خالد عضوا فيها أمينا للصحافة) ، وتعهد خالد ألا تتسرب نسخة من الكتاب إلى مصر ، وألا يشار فيه إلى اسم الطابع .

ولم تكن الضغوط سودانية فحسب ، بل كانت من كل نوع... السوفيت كانوا يخصصون لنا واحدا من أكفأ رجالهم فى مصر «نيكولاى كوتساريف» (مدير وكالة نوفستى) ، وكان يتردد علىَّ يوميا تقريبا ، ويلح فى نشر شىء ، أو عدم نشر شىء ، ويشير بالتركيز على شىء ما... كل ذلك وفق

حسابات غير دقيقة (مصريا على الأقل) ، ومع ابتسامات متبادلة اعتدت ألا أعير « إرشاداته » اهتماما خاصا .

وكان للحركة الكردية مندوبُ مقيم فى مصر هو د . شوكت عقراوى ، وكان رجلا مهذبا وفى غاية الرقة ، لكنه كان يتفحص الأخبار كل يوم حرفا حرفا ، ثم يأتى وبأدب جم شاكيا من إهمال القضية الكردية ، أو من تعد عليها... من جانب جريدة « الرفاق » المصريين ناسيا كل دعاوى القومية العربية ، وكل العلاقات مع العراق ، وكل التحفظات والحساسيات .

وباختصار كان البعض يرى فقط خالد على قمة أخبار اليوم ، لكنه لا يرى عبدالناصر على قمة السلطة .

وحتى بعض الرفاق العاملين معنا فى الأخبار لم يتقنوا فن التعامل مع هذا الوضع الملغوم بمحاذير قاسية ، واستبدت بالبعض منهم منافسات متبادلة ، كتلك التى وقعت بين على الشلقانى وسعد التائه ، وكل منهما صديق حميم وقديم لخالد ، وكلاهما وافد إلى المؤسسة مع خالد ، وأراد خالد أن يذيب الخلافات بأسلوبه السمح فدعا كل القادمين معه إلى اجتماع يحاول التوفيق بين القطبين . فأثار التقاء هذا الجمع فى غرفته هواجس وشائعات وأقاويل كنا فى غنى عنها .

والحقيقة أن على الشلقانى كان إداريا ممتازا لكن بعضاً من حدة كانت تغلف تصرفاته ، ربما كان مبعثها عدم قدرته على التعرف على حقيقة الوضع... وحقيقة المؤسسة ، وحقيقة التوازنات (أذكر أنه فى فترة كان خالد مسافرا فيها للخارج واصطدم بموسى صبرى ، وقرر إيقافه عن العمل . وهلل الرفاق فى المؤسسة وخارجها للضربة الموجهة للخصم الطبقى العتيد ، لكننى كنت على الضفة الأخرى ، فمعرفتى المحدودة جداً بالتضاريس العلوية تؤكد أن أحدا مهما كان لا يستطيع أن يمس رئيس تحرير دون إذن من الرئيس ،

ولم يكن الشلقانى يمتلك قناة كهذه . وإن كان يستشعر أن الرئيس لا يحب موسى صبرى ، ولكن الأمر يختلف فى حسابات الرئيس ، فسواء وافق الإجراء هواه ، أو لم يوافقه ، فهو خاطئ مادام أنه لم يأذن به . ألححت طالبا من على الشلقانى أن يؤجل الصدام إلى حين عودة خالد ، فرفض ، حذرته صراحة فرفض . وفيما يبدو - وهذا مجرد تخمين - أنه استشار أحد الرفاق المقربين من هيكل ، فأعطى هيكل الضوء الأخضر ، ليس فقط ليسوى حسابات قديمة مع موسى صبرى ، وإنما ليربك تجربة خالد فى الأخبار ، ويوسع مساحة الوقيعة عند الرئيس . وفور عودة خالد عاد موسى صبرى ، وصرنا صديقين حميمين ، فقد عرف - لا أعرف من أين - أننى دافعت عنه دفاعا مستميتا أوقعنى فى خلاف حاد مع على الشلقانى . ولعله من الضرورى أن أشير إلى أن الرئيس الذى أبلغ خالد شديد غضبه ، وضرورة عودة موسى صبرى ، ما لبث بعد فترة أن أمر بإبعاد موسى صبرى إلى الجمهورية) .

ولم يكن الرفاق داخل المؤسسة أو خارجها يتقنون فن التعامل مع هذا الوضع المعقد ، وزاد الأمر تعقيدا أن هيكل أحاط نفسه بمجموعة أخرى من الرفاق الأهراميين وعن طريقهم حاول اختراق مجموعتنا ، وبدأت عملية إغراء البعض بالانحياز لهيكل فى صراعه ضد خالد على أساس أن هيكل هو الصاعد إلى أعلى ، وهو الأقرب إلى الرئيس ، وهو الذى أصدر مجلة الطليعة... إلخ . وحاول أحدهم معى . استدعانى إلى بيته أنا وأسعد حليم ، وتناقش فى التواء... استعدت دور الفتى الريفى ، وتحصنت بأننى لا أفهم إيحاءاته وإيماءاته... ولم يكن قادرا بحكم موقعه فى الأخبار على الإفصاح ، خوفا من أن أشى به .

وفشلت الجلسة ، فلا أنا ولا أسعد قبلنا الطعم المقدم إلينا . ولم أبلغ خالد بالأمر ، فقط بدأت أحتاط وأحاذر وأحصن موقعنا فى المؤسسة من مثل

هذا الغزو . وربما كان هذا الرفض الصامت ، للعرض الصامت ، قد أبلغ لهيكل الذى كان متلهفا على عين له فى قلعة خالد محيى الدين ، بل فى مكتبه ، وربما كان هذا سر محاولة هيكل لافتراسى بعد إبعاد خالد من المؤسسة .

* * *

لكن محاولات اصطيادى لم تكن كلها من هذا الصنف ، بل أتت عبر قنوات عديدة ، يصعب الحديث عنها جميعا ، فلأحاول الاختيار من بينها .

ذات مساء متأخر كنت أقطع ملل انتظار وصول الطبعة الأولى لبيت الرئيس بمحاولة المذاكرة فى كتب كلية الحقوق بينما ينساب فى الحجرة صوت نجاة يشدو «لا تكذبى» ودخل علىّ أحد رؤوساء التحرير تحدثنا قليلا . سألنى : هل تحب صوت نجاة ؟ قلت : أحب بالذات هذه الأغنية... بعد يومين أتى مبتسما : إيه رأيك أنا عامل حفلة صغيرة فى البيت ، نجاة ستغنى وعبدالوهاب سيصاحبها على العود ، سأكون سعيدا لو حضرت .

وقبل أن أنطق بموافقة متحمسة على ما لم أكن أحلم به أبدا ، امتد شىء ما ليقرصنى محذرا : تنبه . تذكر . هم يحاولون الإيقاع بك . استدراجك . لست منهم . ولا أنت مثلهم . فمن أنت حتى يسترضيك رئيس تحرير شهير بدعوة كهذه ، لا يحضرها إلا عِلْية القوم... وتحولت هذه الكلمات إلى هواجس متلاحقة خيمت على فى أقل من لمح البصر . وتزاحم الاعتذار مع الخجل ليزاحمه ، ويؤكد مع الامتنان أننى مشغول بعمل لا ينتهى ، وبمذاكرة لا ألحق بها .

لكن هذا الصحفى الكبير جدا كان مصمما على اصطيادى ، فإذا لم آت من باب السهرات المخملية فلآت من باب السياسة... بعدها بأيام أتى إلى

مكتبى تحدث فى أشياء كثيرة ، فجأة قال : يا أخى الواحد مخه امتلأ بالصدأ ، من زمان لم أقرأ شيئا مفيدا . لدرجة أننى نسيت كل ما قرأت فى الماركسية . ومن لا يقرأ الماركسية جاهل . أرجوك اكتب أسماء بعض كتب مهمة فى الماركسية . امتدت يدى لتحضر ورقة وقلما ، وبدأت أكتب عناوين بعض كتب اشتريت مثلها من مكتبة الشرق . ذات الشىء الخفى الذى يسرى مسرى الكهرباء ، ويأتى فى اللحظة المناسبة... امتد نحوى ليوقف يدى عن الكتابة . سهم ملتهب أمام عينى... تصور هذه الورقة وهى ترسل إلى الرئيس بخط يدى ، ومعها شكوى من أن مدير مكتب خالد محيي الدين يفرض على الصحفيين فى المؤسسة قوائم كتب ماركسية كى يقرأوها . التوت أصابعى على الورقة لتمزقها ، وقلت بابتسامة باردة : اكتب وأنا أمليك . وأمليته اسم كتابين أو ثلاثة ، والغريب أنه حرص فى اليوم التالى على إحضار هذه الكتب معه ، ليؤكد لى أنه اشتراها فعلا .

... وتتواصل محاولات اصطياد الفتى الريفى المظهر... يتصل صباحا بمدير كبير جدا فى المؤسسة (مسئول عن الشئون الإدارية) يقول : صباح الخير ، يأتيه الرد : أوامرك تنفذ يا أفندم... يرتبك ويصبح ريفيا فعلا ويقول فى بلاهة : سيادتك زى والدى . أرجوك تعامل معى على هذا الأساس . واستقر فى ذهنهم أننى ريفى فعلا .

... ومن «لم يمت بالسيف مات بغيره» . أو هكذا تصوروا .

وبدأت تجربة الإغراء المالى .

كان الصحفى «ع .ح» شهيرا بخبطاته الصحفية ذات المذاق الخاص . فقد جلس كشحات فى ميدان محطة الرمل لأيام عدة ، وعمل كعامل تراحيل بينما الكاميرا تلاحقه خفية ، ليصعد بأرقام التوزيع عبر ريبورتاجات متقنة توحى بأنه قد انغمس فعلا فى هذه المهنة .

لكننى وبعد الجلوس على حافة القمة عرفت أنها ريبورتاجات مفبركة ، وأن أغلبها يتم تصويره بعيدا عن المسرح الحقيقى للحدث ، وأن الحدث تتم تغطيته ليس من خلال الملامسة الفعلية ، وإنما عبر بعض المعلومات والمشاهدات... والباقى مبالغات يتقنها كل من تدرب على العمل وفق مدرسة أخبار اليوم . لكنها كانت رغم ذلك خبطات ناجحة . والغريب أنه كان يتقن اللعبة حتى على المؤسسة ذاتها ، فينال هو والمصور بدلات سفر على رحلات لم تتم... ونفقات كبيرة لم تنفق فعلا .

وذات يوم أتانى مظروف مغلق من مكتب المدير الكبير صاحب «أوامر سيادتكم تنفذ ياأفندم» ، وبداخله إيصال تسلم نقدية : تسلمت أنا رفعت السعيد مبلغ... قيمة بدل انتقال ومبيت لعشرة أيام فى مرسى مطروح للمشاركة مع الأستاذ (...) فى عمل تحقيق صحفى عن عمليات التهريب عبر الحدود المصرية ـ الليبية . (كان عبدالناصر قد تحدث فى إحدى خطبه عن أفواج الحمير المدربة التى تعرف طريقها إلى ليبيا وتعود وحدها محملة ببضائع مهربة ، والتقط الصحفى المدرب الخيط ، وفى فضاء المقطم ، صور عشرات الصور لحمير محملة بالبضائع ، وأعد بمقدرة فذة تحقيقا صحفيا جميلا عن التهريب عبر الحدود) .

كان المطلوب منى فقط أن أوقع ، وأتسلم مبلغا كبيرا ، وأستمتع فوق ذلك باسمى منشورا كشريك فى تحرير الموضوع .

أمسكت بالقلم وكتبت «لم أسافر إلى مرسى مطروح ، ولا أعتقد أن الأستاذ (...) سافر ، ولم أشارك فى إعداد موضوع كهذا ، ومن ثم فالصرف تم بطريق الخطأ . ووقعت» .

وارتجت المؤسسة فى صمت ، فالتحقيق فى المطبعة وعليه اسمى ، وطلب الصرف اعتمد رسميا من رئيس القسم هو والمدير الكبير الذى يتصل

بى ، وأتصل به عشرات المرات كل يوم من الأيام المفترض أننى مسافر فيها إلى مرسى مطروح ، والصحفى والمصور صرفا فعلا مستحقاتهما المفترضة عن الرحلة .

... لكن عبقرية الإدارة الممسكة بكل خيوط المؤسسة عالجت الأمر فى صمت . والغريب أن أحدا لم يفاتحنى فى الأمر . وكأن شيئا لم يحدث . فقط رفعوا اسمى من الريبورتاج .

كانت محاولة لتقديم طعم فإن تجاوبت كان بها... ولم أتجاوب .

ومرة أخرى ـ وليست أخيرة ـ من لم يمت بالسيف مات بغيره .

محررة فى الأخبار سأرمز لها بـ «ف» كانت تتهادى فى المؤسسة بقوام فارع يتظاهر بالرشاقة والحيوية . ويبدو أن أحدا أقنعها بأن عينيها جميلتان ـ وكانتا كذلك ـ فأحاطتهما بإطار سميك من الكحل... فضجت البشرة البيضاء من الكحل الأسود... (سمعت واحدا من كبار المحررين يقول عنها ضاحكا : إنها تمارس الجنس بعينيها) .

بدأت «ف» تتردد على الدور التاسع مفتعلة فى كل مرة سببا ، مرة تشكو من زميل لها ، أو تشكو من اضطهاد قديم بسبب اتهامها باليسارية (وهذا غير صحيح فلا هى يسارية ولا اتهمت بذلك لكن موضوع «اليسارية» كان الطعم الساذج الذى يقدم لنا دوما) . وتارة تشكو من قلة مرتبها . وتطيل جلساتها عن عمد ، فى البداية كنت أتشاغل عنها عامدا بأمل أن تنسحب . لكننى اكتشفت أنها فقط تريد أن تبقى لأطول وقت ، وربما لتقنع الباقين بأنها ضيف مرغوب فيه... أو أكثر من ذلك .

ولم أكن أمتلك جسارة طردها ، فهى على أية حال محررة بالمؤسسة ومن حقها أن تشكو ، وأن تتصاعد بالشكوى إلى حد البكاء وهى تؤكد أن

مرتبها لا يكفى لمطالبات المكياج والكوافير . وكنت أستجمع هدوءا لا أعرف من أين أستمده ، وبرودا غامض المصدر ، وأطلب منها فى كل مرة أن تكتب مذكرة لعرضها على رئيس مجلس الإدارة .

أعطيها ورقة وقلماً وأتشاغل عنها بعمل كثير لا ينقطع . ومنعا لأية تداعيات أو ادعاءات فقد أمرت الساعى بأن يظل باب غرفتى مفتوحا كلما أتت . والباب يغلق ذاتيا بمفصلة من أعلى ، فكان على الساعى أن يأتى بكرسى ليجلس مستندا على الباب المفتوح فيكون تقريبا داخل الحجرة . كانت تستفز من ذلك صائحة بصوتها المصطنع «اقفل الباب ياولد» وأقول وأنا منكفئ على عملى «خليك زى ما أنت ياحنفى» .

غابت «ف» لفترة وتعالت الأقاويل بأنها سافرت مع الرئيس الموريتانى على طائرته الخاصة دون إذن من أحد ، وحتى دون باسبور ، ببساطة اصطحبها السفير بناء على أمر من رئيسه إلى الطائرة مباشرة (وربما لم يغضب المسئولون المصريون لذلك ، بل وربما رتبوا ذلك)... وذات يوم وصل مظروف «سرى جدا» من وزارة الخارجية يقول إن سفارتنا فى أسبانيا استقبلتها بعد أن أبعدت فجأة على طائرة عسكرية بقرار من وزير الدفاع ، بعد شكوى من زوجة الرئيس الموريتانى ، وأنها وصلت مدريد بلا جواز سفر... وتم ترتيب عودتها للقاهرة -رجاء العلم) .

وبعد يوم أو يومين أتت «ف» إلى غرفتى فى المساء المتأخر ، وأطالت الجلسة ، وحنفى المسكين يتساقط رأسه نعاسا وهو جالس مستندا على الباب المفتوح . تململت لكنها أطالت الجلسة متعمدة ، أعلنت أننى مغادر ، فغادرت معى ، وفى الأسانسير كانت معى . امتدت نظرة من عامل الأسانسير فهمت معناها . وفيما أتجه نحو باب الخروج وجدتها تتجه معى وهى تحاول أن تصطنع ما تتحدث به... رافعة صوتها وضاحكة ربما لتلفت نظر

الجميع أننا نخرج سويا فى هذا الوقت المتأخر . ذلك الشيء السحرى الذى يحذرني - دوما - لدغني بشدة استدرت لأصعد على السلم إلى صالة التحرير ، فاستدارت ودخلت معى ، فمجرد خروجها معى سيطلق أقاويل لعلها تنتظر ترددها ، كى تؤكدها هى . توجهت إلى حامد زيدان وشرحت له الأمر . ضحك حامد ضحكة طيبة ، لكنها توحى بأن مثل هذه الألاعيب مغتادة... وناداها بصوت عال يسمعه الجميع : تُعالى يا «ف» متتعبيش نفسك ، دول شيوعيين عبط ما يفهموش فى الحاجات دى» .

وبينما هى ترد عليه بشتائم غير مهذبة وغير مفترضة ، وجدت الفرصة لأفلت وحدى .

والغريب أن شكوكى قد تأكدت فى الصباح عندما قال لى أحد الصحفيين الكبار «أنت أعصابك حديد ، برافو عليك أفلتت من مقلب دبره لك فلان» وفلان هذا صحفى كبير آخر ، لكن ما أدهشنى ، أن هذا الذى أتى ليهنئنى لم يكلف خاطره بتحذيرى ، بل تركنى ، فإن وقعت فى المصيدة كان خيرا ، وإن نجحت فى الإفلات وشى بزميله .

هم يتناقضون معا ، يكرهون بعضهم البعض ، لكنهم جميعا ضدنا .

* * *

والحكايات لا تنتهى ، وأعترف بأننى قابلتها أو أغلبها بعفوية ، ولولا تحذيرات من خالد محيي الدين لما كنت قادرا على التعامل معها ، فخبرتى كانت محدودة ومحددة ، وخبرتى فى التعامل مع هذه الأوساط كانت شبه منعدمة .

وكنت أكتفى إزاءها بالإفلات ، لكننى ذات يوم اكتشفت أن لى مخالب قد نبتت لتتلاءم مع هذا المناخ المتوحش .

اتصل عبدالناصر ليسأل خالد عن الأحوال المادية للمؤسسة ، وعندما أجاب خالد : إنها كويسة ، رد عبدالناصر بحسم : أنا سامع إنها مش كويسة (كان هيكل قد اخترق جهاز الإدارة الأعلى فى أخبار اليوم ورتب معه أمرا - أو على الأقل هذا ما اعتقدته فى ذلك الحين) . طلب خالد تقريرا سريعا عن الأوضاع المالية للمؤسسة... وبسرعة توحى بالريبة ، وكأن المسئولين كانوا يعرفون فأعدوه سلفا ، أتى التقرير . فتحت المظروف لأصعق... أرقام الخسائر صاعقة . بدرجة تكفى لصعق كامل التجربة .

فجأة أحسست بمخالبى توجعنى ، لم أعد بعد هذا الفتى الريفى الذى يحاول فقط الإفلات من محاولات اصطياده ، آن لهم أن يروا مخالبنا . قلت بصوت عال وأنا أقدم الأوراق لخالد... أنت لست مسئولا . أنت لا تتدخل فى الإدارة ، فإذا خسرت المؤسسة فهم المسئولون ، وعليهم أن يستقيلوا .

وكلفت بأن أدعو مجلس المديرين إلى اجتماع عاجل . اصطفوا حول مائدة الاجتماعات وفى صدرها جلس خالد هادئا هدوءا أثارنى ، لكنه من خلال هدوئه فجر القنبلة : المؤسسة خاسرة .أنتم المسئولون ، وعليكم أن تبرروا ذلك وتحددوا المسئول .

آن لهم الآن أن يصعقوا . تشابكت نظراتهم وقال كبيرهم د . قاسم فرحات : خسائر إزاى ياأفندم ؟ لا يمكن المؤسسة دى تكون خسرانة ، من فضلك أشوف الورق كده يا أفندم... وأمسك بالورق وكأنه لم يره من قبل... وبخبرة منقطعة النظير استخرج المبالغ المخبأة . «شوف ياأفندم فيه مبالغ كبيرة من حصيلة الإعلانات لم تحصل ، ومبالغ من حصيلة التوزيع لم تحصل ، وحصيلة اشتراكات لم تثبت ، وثمن طباعة للغير لم يحصل»... وصاح بحماس هادئ إزاى ياجماعة كل المبالغ دى لم تحصل حتى الآن ؟

وتكشفت اللعبة ، فالأمر بسيط للغاية التباطؤ فى تحصيل المستحقات لعدة أشهر ، فتبدو المؤسسة خاسرة ويطير الخبر للرئيس ، بينما هى متخمة بالربح .

وأعدت ميزانية جديدة... صحيحة ومتخمة بالأرباح ، وأرسلت للرئيس ليتأكد من كذب ما سرب إليه من معلومات .

ولم تكن الضغوط آتية من خارج المؤسسة فقط بل من داخلها أيضا .

كانت تعليمات عبدالناصر لخالد أن يشعر مصطفى وعلى أمين بالاسترخاء الهادئ ، ولا يتصادم معهما (فقد كان يستعد لهما بقضية التجسس الشهيرة) ، وكان على ومصطفى أمين يمتلكان نفوذا طاغيا على كل محرر أو عامل أو حتى حجر فى المؤسسة . وبرغم كل الدفاعات الممكنة كانا يستطيعان اختراقها . ويفعلان ما يشاءان أو بعضا منه على الأقل .

صباح ذات سبت كانت أخبار اليوم تحمل على يسار الصفحة الأولى صور عبدالناصر يستقبل ضيفه تيتو ، وفى مجلس التحرير . ضحك مصطفى أمين عاليا «مين حط الصورة دى ؟» كانت أخبار اليوم قد اعتادت أن تنشر صورة من ماتش كرة القدم الذى يقام يوم الجمعة ، لكن محاولة من جانبنا لفرض نسق جديد رفعت صورة الماتش ووضعت صورة عبدالناصر . وقال مصطفى أمين : التوزيع سينقص ٤٠ ألفا . وبالفعل نقص التوزيع ، لكن همسة تسللت نحوى من موظف متوسط المكانة بأن ترتيبا ما قد تم لتخفيض التوزيع بإيعاز من مصطفى أمين .

ورويدا رويدا بدأت خطوط حمراء تتشابك بين مكتبى فى الدور التاسع وعاملين فى المطبعة والتوزيع والاشتراكات والإدارة والمخازن وغيرها . وتدفق سيل من معلومات يمكننا من ضبط إيقاع العمل .

لكن الاختراقات ظلت ممكنة . برغم أنه كان هناك نظام لمتابعة كل ما ينشر ، قبل أن ينشر .

فمثلا استطاع على أمين بدهائه المعروف أن يمرر قصة مسلسلة فى مجلة «هى» التى كان يرأس تحريرها ، وكان عنوانها : «مصنع الشموع» .

وظلت حلقات القصة تتوالى دون أن يلتفت إليها أحد ، أو حتى يهتم بقراءتها . ثم جاء مظروف من مكتب الرئيس وبه حلقات القصة وخطوط حمراء تحت أسطر محددة... وكانت مجرد محاولة الربط بين هذه الأسطر كافية لحل كل الرمز . وبدأت أقرأ الحلقات من بدايتها . ودقات قلبى تسرع لتسبق عينىّ . وملخص القصة بسيط وواضح ، لكنه يزداد وضوحا إذا ما خلصته من الرتوش المتعمدة وبعض التفاصيل المفتعلة... شقيقان (على ومصطفى أمين) أحزنهما أن القرية مظلمة فى كل مساء فقررا إنشاء مصنع للشموع (أخبار اليوم) لكن العمدة المستبد (عبدالناصر) لا يحب لأبناء القرية أن يعيشوا فى النور ، فأبعد الشقيقين وأتى مكانهما بشيخ الخفر (خالد محيى الدين) ليدير المصنع ، وأتى شيخ الخفر ومعه مجموعة من الأجلاف سيئى النية وقليلى الخبرة والذين يضمرون شرا للقرية (نحن) ويوشك المصنع أن يدمر حتى يعود الظلام من جديد .

ولم نفعل شيئا . فالتعليمات لا تصادم مع مصطفى أمين .

* * *

وكان خالد محيى الدين مكلفا من الرئيس بتأسيس مجموعة للتنظيم الطليعى . وتم تجميع عدد من الصحفيين فى مجموعات أذكر منها : الأمير العطار - أحمد طه - جمال بدوى - إسماعيل يونس - إبراهيم يونس - حامد

زيدان ـ سعيد حبيب... وأنا... إلخ ، وكان هناك عاملون فى المطبعة وبعض الإدارات الأخرى .

وكان خالد حريصا على أن يستجمع شتات بعض المحررين ، وأن يكسبهم إلى صف خط يوليو ، وخاصة هؤلاء الذين اشتهر عنهم انتماؤهم لجماعة الإخوان (حسن دوح - إبراهيم مصبح -عبدالمنعم سليم- جمال بدوى وغيرهم) ، وامتدت جلساته معهم طويلا... وهكذا ورويدا رويدا بدأ هذا النبت الذى كان مرفوضا من جسد المؤسسة ، يتعايش ويكتسب أرضا ومحبة ، والهدوء الهادئ والترفع عن الصغائر ، واحترام الجميع ، اخترق الجهاز المناعى للعاملين بالمؤسسة والذى كان مفعما بالكراهية نحونا ، وتحولت الكراهية إلى رضاء ، والرضاء إلى احترام ، والاحترام إلى محبة .

ولعل هذا أزعج الكثيرين .

وكانت قضية التجسس قد نضجت وقبض على مصطفى أمين متلبسا ، وقدمت ضده تسجيلات صوتية عدة .

وأصبحت ساحة المؤسسة خالية من مصطفى وعلى أمين اللذين كان هيكل لا يستطيع مواجهتهما . وتصاعدت مطامعه فى استبعاد خالد وأن يحل محله فيتولى رئاسة الأخبار والأهرام معا... فى واحدة من أغرب غرائب الصحافة الناصرية .

وبدأت سحب كثيرة فى التراكم . ومحاولات لاصطياد أى خطأ ، وتلويح دائم بأن المشير والجيش غير راضين عن وجود خالد على رأس أخبار اليوم ، وهيكل يغذى ذلك كله بحماس متحمس .

وفجأة أخذت السحب فى الاستعداد كى يهطل المطر .

وفى جلسة الأمانة العامة للاتحاد الاشتراكى تحدث الرئيس مطولا عن تسابق الصحف فى زيادة عدد صفحاتها بحثا عن توزيع أزيد ؛ خاصة للأعداد

الأسبوعية (أهرام الجمعة ـ أخبار اليوم السبت ـ جمهورية الخميس) ، وشدد الرئيس موجها حديثه لخالد على ضرورة تقليل الصفحات لتوفير ما ينفق من العملة الصعبة على الورق المستورد .

وفى اجتماع أمانة الصحافة حيث كل رؤساء مجلس الإدارة ومنهم هيكل ، عرض خالد رأى الرئيس . وتم التوصل إلى قرار أو بالدقة كمين . أتفق على ألا يزيد عدد الصفحات عن ثمانى . وتعهد خالد بأن يبدأ هو بأخبار اليوم (السبت) على أن يتلوه الجميع... وتعهد الجميع وفى مقدمتهم هيكل بالالتزام . وفى ديسك تحريرأخباراليوم كان صراع مرير لتقليص الصفحات ، وخرجت أخبار اليوم ـ رغم أنفها ـ متجردة من عديد من أبوابها وموضوعاتها ، وكانت الحجة : قرار الرئيس ، وكانت أيضا : أن القرار سيسرى على الجميع .

لكن الجميع يفاجأ بأن عدد الأهرام العادى عاد ليصدر فى ١٦ صفحة .

صعق كل صحفيى أخبار اليوم فهى منافسة غير شريفة . أما خالد فقد اعتبرها إهانة لمكانته الشخصية ، وكأمين للصحافة فى الاتحاد الاشتراكى ، ولمنصبه كرئيس للمؤسسة . وأسرع خالد للتحدث مع الرئيس الذى كان منتظرا هذه المكالمة... كان الكمين معدا ، فعبدالناصر رد ببرود وتحدث بعيدا عن الموضوع ، عن حكيم (عبدالحكيم عامر) الغاضب من بقائه على رأس مؤسسة أخبار اليوم ، وأن المشاكسات مع هيكل غير مقبولة .

قال خالد : إذن أستقيل . وببرود قال عبدالناصر : أوكى .

واتفقا على أن يرسل استقالته معى .

وجلس ليكتب استقالة من عدة أسطر .

وحملت الرسالة إلى عبدالناصر فى بيته .

* * *

ويبقى بعد ذلك أن أنفى عن مؤسسة أخبار اليوم شبهة أنها كنت جميعا مثل من ذكرت أو تذكرت . فالمؤسسة تستمتع فى وجدانى باحترام... ولقد تعاملت فيها مع عشرات من أفضل الصحفيين والإداريين . فقط أردت أن أقدم نماذج من صراع عناصر سلبية ضدنا . وهذا لا يعنى على الإطلاق إنكار وجود عناصر إيجابية كثيرة... رسمت على تضاريس الحياة الصحفية علامات بارزة . واستحقت احترامى ومحبتى وصداقتى .

الرحيل عن أخبار اليوم

لعلها كانت أصعب الأيام...

لكننى لم أزل أعتقد أننى محظوظ ، إذ عايشتها ، واكتويت بها... فقد تعلمت كثيرا منها . وبها نجح الفتى الريفى ، المتباعد عن خبرة الحياة ، فى أن يستحم من سذاجته ويصبح أكثر خبرة بالناس ، وبالحياة ، وبحقيقة التجربة الناصرية . المهم . حملت المظروف الصغير والمغلق بعناية مبالغ فيها وأسرعت بى سيارة من الأخبار إلى بيت الرئيس . الاتفاق أن يسلم المظروف للرئيس .

عند الحاجز كان اسمى مفتاحا ، انفتح الحاجز . عند الباب كانوا أيضا منتظرين ، تنحى الحاجز واصطحبنى شخص إلى حديقة نصف معتنى بها . وغرف متعجلة التجهيز تتربع فى أرجائها . الرجل الذى يتقدمنى يعرف حدوده ، على بعد أمتار محسوبة من باب إحدى غرف الحديقة أشار بيده صامتا نحو الباب وتلاشى . وبدأت أعد الخطوات الحذرة... دخلت ، لأفاجأ بشخص مهيب ، واقف على قدميه - على المكتب أمامه كومة من ثمار مشمش غير مصرى الحجم واللون ، يتفحص الواحدة تلو الأخرى بعناية مستغرقة كأنه يفحص قطعة من الماس .

هذا الاستغراق الصوفى مع حبات المشمش أدهشنى ، أوشك أن يضحكنى ، تماسكت . احتفظت بالسمات الواجبة الارتسام على الوجه... فى مثل هذه المراسم .

حبتان أو ثلاث من المشمش ، وانتبه الرجل . رفع بصره أو بالدقة خفضه (فقد كان طويلا ومهيبا) نحوى . سألت نظراته دون أن ينطق... خرج اسمى من فمى متلصصا .

كان هو أيضا ينتظر ، ترك المشمش ، سرت وراءه . فى الطريق نحو السلم الصاعد شعر بالحاجة إلى إيضاح ، قال فى جدية غير مبتسمة : «سيادة الريس بيحب المشمش» .

ولم أنطق . درجات السلم محدودة . أدخلنى إلى غرفة بها رجل يمتلك أذنين مميزتين (علمت فيما بعد أنه محمود فهيم . السكرتير الخاص) . همساً قال رجل المشمش شيئا ، خيل إلى أن أجهزة استقبالى المرهفة التقطت كلمة «خالد» . تناول الرجل ذو الاذنين المظروف... أحكم أزرار الجاكت... استقام... دق بابا مقابلا بحنان مرتجف ، انفلت للداخل من فتحة الباب لمحت عبدالناصر يتناول المظروف .

خرج ذو الاذنين وهمس «الرسالة فى إيد الريس» . دخل غرفته دون أن يتذكر أن يودعنى ، لم أجد فرصة كى أتلفت... انبثق شخص فجأة ليصحبنى للخارج .

كنا بعد ظهر الخميس . عدت إلى بيتى القريب من بيت عبدالناصر ، متشاغلا عن الموضوع ، معتقدا أن الأمر سيمر عبر بعض الوقت . لكن عبدالناصر كان متعجلا بل متلهفا ، فلم تمض سوى بضع ساعات حتى كان الأمر قد رتب تماما .

قبلت الاستقالة . تولى هيكل رئاسة مجلس إدارة أخبار اليوم بالإضافة إلى الأهرام... فى واحدة من أغرب نوادر الصحافة الناصرية .

اتُفق على أن يسافر خالد إلى لندن ليستكمل علاج ابنته ، ولكى لا يكون مجبرا على استقبال هيكل فى الأخبار . واتُفق أيضا على أن يكتب خالد - وباستمرار - مقاله الأسبوعى يوم السبت فى أخبار اليوم .

كانت الساعات التى قضاها خالد صباح السبت ليودع من يريدون وداعه حزينة وباكية من البعض . وودعه الكثيرون بحرارة غير مفتعلة .

لكن اللحظات التالية فجرت معها تداعيات عديدة ، أوضحت للفتى الريفى ثنايا لم يكن يتوقعها فى تضاريس البشر... حتى المُنْحَنى دوما (هكذا أسميناه) هذا الذى كان يدخل منحنيا فى شكل علامة استفهام ، ويخرج متراجعا بظهره متمسكا بذات الانحناءة ، حتى هذا تخلى عن انحناءاته ، وبدأ فى الحديث المرح عن الخلاص من «الشيوعيين الحمر» .

(هذا المنحنى أصبح فيما بعد مديرا مهما فى المؤسسة) . ومسكين آخر ، كان رجلا كبير السن ويعمل محررا فى القسم القضائى وكان مسكينا حقا ، ويطرح مشاكل متواضعة كنت أحلها من باب الشفقة واحترام السن ، دخلت صالة التحرير لأجده واقفا خطيبا يهاجمنا بحماس مفتعل ، بعد أن كان يمتدحنا بذات الحماس . المحررون يتابعونه ، البعض شامتا فينا ، والبعض شامتا فيه ، وعم فهمى عبداللطيف الذى تقلبت عليه عهود عدة وهو يقود صالة التحرير بكفاءة الربان المتقن لحرفته ، والذى لا يهتم بغيرها... عم فهمى يصيح فيه «وطى صوتك يامنافق» ، ثم «وطى نفاقك» ، تلفت الجميع نحوى إلا المحرر المسكين ، كان يصرخ محاولا أن يمسح عن نفسه تهمة أنه كان يمتدحنا ، كان ظهره نحوى ولم يرنى ، وعندما لفتوا نظره ، ورآنى

أمامه... انهار باكيا وقال بذات الانفعال : «أعمل إيه... الحياة مرة ، وعايزه كده»... وانسحبت دون كلمة .

يوم الأحد... أتى هيكل عبر الممر متباهيا والسيجار يتدلى من بين أصابعه ، بابتسامة مترفعة صافحنى ، تأملنى ببطء سينمائى مفتعل ، كأنه يقول من هذا الذى تكلموا عنه كثيرا . وكأنه يقيس كم يساوى هذا الشخص فى سوق البضاعة الحاضرة .

اصطحبنى إلى المكتب . بدلا من خالد كان هو . أما أنا فجلست فى ذات مكانى . سأل أسئلة روتينية عدة . طلب أن أختار له سكرتيرة . ثم فاجأنى : مرتبك كام ؟ قلت : خمسون جنيها (كان المرتب قد زاد) .

أبدى إشارات اشمئزاز ، أتبعها بانتقاد لاذع لخالد الذى لم يعطنى ما أستحق . ولم أعلق .

سألنى : هل ترك خالد مقاله ؟ قلت : نعم . سأل عن المقال فقلت : فى المطبعة . سأل : راجعته ؟ قلت ببرود : مقالات الأستاذ خالد ترسل إلى المطبعة دون مراجعة .

سأل بهدوء : من يكتب لخالد مقالاته ؟

قلت بهدوء : لا أحد... هو يكتب مقالاته بنفسه وبخطه .

لم تعجبه الإجابة فطلب أن أعود إلى غرفتى ، قلت أى غرفة ، قال : نفس الغرفة .

بعد عشر دقائق دق التليفون كان هو . قال بلهجة آمرة : رفعت ، انزل المطبعة واختصر مقال خالد .

قلت : مقالات الأستاذ خالد لا تختصر . وهو معتاد على أن يكتبها فى ذات المساحة دون زيادة .

فقال : معلهش . فيه إعلانات . اختصر المقال . قلت : آسف .

دعانى إلى غرفته وجرى نقاش لعله أراد أن يختبر به مدى علاقتى بخالد ، ومدى استعدادى للتنازل عنها .

- أليس الأفضل أن تختصره بنفسك بدلا من أن يختصره غيرك .

- الأفضل ألا يختصر أصلا .

- إذا لم تختصره سأضطر إلى تكليف شخصٍ آخر .

- بالنسبة لى الأفضل ألا يختصر .

كنا يوم الأحد... والمقال سينشر السبت القادم . ولم يكن قد جمع بعد . ولم يكن ماكيت الصفحة قد أعد بحيث يعرف هيكل مدى الحاجة للاختصار . لكنه كان يريد - وعلى عجل - أن يختبر مدى استعدادى للتعامل معه على أساس أن أخلع قميص علاقتى بخالد . وفى السبت التالى لم ينشر مقال خالد أصلا .

مضى يوم آخر وأنا فى مكتبى . لا أفعل شيئا . يبدو أننى سقطت فى الاختبار . كنت هادئا ، وبدأت ألاحظ البريد يمرق عبر الباب الآخر ، والداخلون والخارجون يستخدمون بابا آخر . وأنا أستخدم الوقت الخالى فى المذاكرة .

يوم آخر ، ثم دخل «م .س» وقال : إن هناك موعدا مع هيكل . كان يمشى فى الغرفة بخطوات حاسمة يقطعها فى ثلاث أو أربع خطوات ثم يعود . سألته لماذا هو قلق ؟ قال : أنا أفكر بعمق .

والتقينا بهيكل معا . وجه هيكل حديثه لـ(م) : إيه يا(...) ، ناوى على إيه ؟ بدأ (م) فى عرض مشروع طموح لإنشاء بنك للمعلومات فى الأهرام يستجمع البيانات والمعلومات لتكون تحت أيدى الصحفيين والكتاب ، استمع هيكل مبتسما ، يده متشبثة بالسيجار ، وجلسته تكتسى بحالة من الترفع ،

ثم فجأة قرر أن ينهى استماعه ، وباغتنى : وأنت ؟ ناوى على إيه ؟ قلت : أنا أفضل أن أرجع إلى التحرير .

قال : يعنى مش عايز تشتغل معى . وبأدب مفتعل بدأت أشرح له أن علاقتى مع الأستاذ خالد كانت علاقة خاصة . وأننى منذ البداية كنت أتحاشى أن أعمل فى موقع كهذا ، فأنا لا أصلح لمهنة مدير المكتب .

هز رأسه فى صمت... وانصرفنا .

وفى اليوم التالى كان الأسانسير يتهادى إلى الدور التاسع ليتلقفنى معاون المبنى ـ كان مسكينا ومؤدبا وربما حزينا ـ وهو يبلغنى أن مكتبى قد نقل من التاسع إلى الرابع . واقتادنى إلى سطح المبنى الملحق حيث غرف خشبية متواضعة ومتهالكة... مكتب إيديال صغير بلا أدراج ويكتسى بمسحة من صدأ قديم... وكرسى عجوز التقطوه من مخزن المخلفات . لم أشعر بأى غضاضة . لقد اخترت أنا ما أريد ، وها هم الرفاق يحتشدون فى الغرف المجاورة ، يُنزعون من مهامهم ، ويحشرون فوق السطح... انتظارا لما سيقرره رئيس مجلس الإدارة الجديد .

وعانينا ، وعانيت أنا بالذات ، حالة الإنكار الشرس ، والتجاهل المرير ممن كانوا يتملقون ويلاحقون بالتحية ، وما هو أكثر من التحية .

وبدأ البعض يحاول أن يحشر نفسه فى موقع ما ، ليضمن بقاءه فى المؤسسة حتى كبيرنا أسعد حليم الذى كان مستمتعا باحترام الجميع ، وتألق فى الفترة الأخيرة فى عامود بالصفحة الأخيرة من الأخبار (بعد قضية التجسس واختفاء عمود «فكرة» وقع صراع مفتوح حول العمود... أنيس منصور طلب أن يكتبه يوميا . حادثت رئيس التحرير موسى صبرى فرفض لحسابات قديمة ومريرة بينهما . ثم أتى جليل البندارى وهو أشهر محرر فنى عرفته الصحافة ربما حتى الآن ، أتى يسبقه ضجيجه المرح طالبا أن أعرض

على الأستاذ خالد مشروع العمر ، وهو أن يحرر العمود كل يوم فنان كبير... مرة عبدالوهاب ومرة أم كلثوم ومرة نجاة... ورفض موسى صبرى ضاحكا حيبقى عمود إعلانات مدفوعة... واستقر الأمر على أن يتبادل عدد من الكتاب منهم أسعد حليم كتابة العمود) حتى أسعد زارنى فى بيتى طالبا أن أوصله بمحمود المناسترلى كلاعب شطرنج موهوب لأنه يريد أن يستعير منه كتبا عن ألعاب الشطرنج ، بعد أن عرض عليه عبدالمجيد نعمان مسئول صفحة الرياضة (وأكثر محررى الأخبار ارتباطا بنا) أن يحرر بابا عن الشطرنج .

ولم يكن أمامى أنا سوى الانتظار .

... عاد خالد من لندن وفى المطار كان البعض فى انتظاره . عبدالمجيد نعمان - أسعد حليم - الأمير العطار - وأنا ، واعتبر ذلك نوعً من التحدى .

لكن الأمور كانت قد تجاوزت مثل هذه المسائل الصغيرة... فقد قرر هيكل التخلص منا... أو أغلبنا .

* * *

وفيما كنت أعبر باب المؤسسة فاجأنى رجل الاستعلامات الذى اعتدت مؤخرا على استقباله المتجهم بدلا من ترحيبه المنحنى فى الأيام السابقة ، فاجأنى بأن السيد المدير العام ينتظرنى فى مكتبه . طرقت الباب وأنا أتذكر «أوامر سيادتك تنفذ ياأفندم»... كنت واثقا أننى سألقى معاملة مختلفة . كان الرجل حزينا أو هكذا تصورت ، أقسم معتذرا أنه يكن لى حبا وصداقة... ولكن ، ثم توقف وناولنى خطابا فى مظروف غير مغلق... فيما كانت عيناى تسرعان عبر الكلمات ، كان يقسم ثلاثة بالله العظيم أنه عبد المأمور (كنت أكثر من يعرف أنه عبد المأمور) ، وأنه حرص على أن يسلمنى الخطاب

بنفسه احتراما للعلاقة بيننا ، وأن الآخرين سيتسلمون خطاباتهم من شئون العاملين . سلمت بذات المودة القديمة ، وفيما كنت أخرج تذكرت أنه لم يطلب منى ولو من باب المجاملة أن أجلس ، كل شيء تم سريعا ، وفي الوضع واقفا .

بهدوء بدأت أتأمل كلمات الخطاب .

«السيد رفعت السعيد

حيث تقرر نقلكم لعمل فى جهة أخرى ، نرجوكم عدم الحضور إلى المؤسسة مرة ثانية .

والتوقيع : محمد حسنين هيكل» .

تلقى الآخرون أو أغلبهم (استثنى البعض الذى رتب علاقات مسبقة مع هيكل) ذات النص غير المهذب . لكن البعض ما لبث أن عاد للمؤسسة عبر علاقات خاصة مثل الأمير العطار - وعادل حسين وغيرهما .

أما أنا فلم أرغب فى العودة ، ولم أحاول ، ولست أعتقد أن هذا كان ممكنا .

وضعت الخطاب فى جيبى ، وبهدوء تمشيت حتى ميدان سليمان باشا ، وفى جروبى طلبت كابتشينو . كانت زوجتى فى المستشفى تستعد لاستقبال ابننا خالد ، والمجهول لم يزل مجهولا . لكننى شعرت بقدر من الطمأنينة ، فإذا أغلقت كل الأبواب سيبقى باب المنصورة مفتوحا .

وفيما أشرب الكابتشينو لمحت خالد محيى الدين . إنها مصادفة غريبة ، كنت أفكر قبلها كيف ومتى سأنقل إليه الخبر ، لكنه دخل بالمصادفة ليشترى شيئا من جروبى .

- بتعمل إيه هنا ؟

- بأشرب كابتشينو .

ولكى لا أفتح الباب لكلام كثير ناولته الخطاب . واستحم وجهه الهادئ بسحابة حزن أحزننى أن أراها ، الابتسامة الدائمة الإشراق تلاشت ، قال كلمات لن أنساها طوال حياتى : «لا تهتم ، ولو اقتضى الأمر سأقتسم معك معاشي» ، الكلمات هزتني من أعماقي وارتبكت وأنا أقول : «الفلوس ممكن تيجى من المنصورة ، المهم العمل» .

لم يتركني ، صمم أن يأخذنى معه إلى بيته بعد أن اشترى ما كان ينوى شراءه .

فور دخولنا أمسك بالتليفون أدار رقما من الذاكرة ، ومن الحديث عرفت أن عبدالناصر على الطرف الآخر . أحسست أن كلمات عبدالناصر باردة ، وقاتمة . فقط نقل خالد لى عبارة واحدة من عبارات عبدالناصر : «هو رفعت بتاعك نزل من بطن أمه صحفي ، يشوف لنفسه شغلانة تانية ، اتصل بسامي يشوف له شغلانة» .

واتصل خالد بسامى شرف ، قال سامى : يختار واحدا من ثلاثة اختيارات :

- ملحق إعلامى .
- وكالة أنباء الشرق الأوسط - أ .ش .أ .
- المؤسسة المصرية للكتاب .

تأملت الاقتراحات . قلت فى نفسى «ملحق إعلامى»... مستحيل أن يعطوها لى . إذن أ .ش .أ .

وأسرع خالد ليبلغ سامى شرف باختيارى . وبعدها بأيام جاءنى خطاب التعيين فى مؤسسة الكتاب .

لعله أراد أن يعرف رغبتى كى يقدم لى عكسها .

* * *

وصمم خالد أن يصطحبنى بنفسه إلى مؤسسة الكتاب ، فالمدير العام (عبدالواحد الوكيل) صديق له ، وضابط سابق فى الجيش ، دخنا إلى مكتبه وكانت السكرتيرة متعجرفة بقدر ما هى جاهلة .

سمعتْ اسم خالد محيى الدين للمرة الأولى فى حياتها وسألت : فيه موعد ؟ فقال : لا .

قالت : هل يعرفك ؟ قال خالد بهدوء : أيوه .

وفيما يبدو أنها نقلت الحوار للرجل الذى اندفع فى ترحيب شديد ليصطحبنا إلى مكتبه .

كان محرجا من سكرتيرته . اعتذر مرات عدة . ثم جَسَّدَ اعتذاره فى إصرار على إنهاء كل إجراءات التعيين فى لحظات .

ثم استقبلتنى رئيسة المؤسسة د . سهير القلماوى . كانت حانية ورقيقة . سألت عن سر التعيين القادم بأمر من الرئاسة . ابتسمت فى تحفظ مقدما إجابة موجزة تفهمتها هى بذكاء لماح ، وسألتنى : ماذا يريحك بالضبط ؟

أشعرتنى بتعاطف صامت وحميم . قلت : أنا منهمك فى مذاكرتى لأستكمل دراستى ، وإننى أحاول أن أكتب كتابا عن الثورة العرابية . قالت : إذن أعينك فى وظيفة باحث ، ولن يطلب منك الحضور إلا لتسلم مرتبك .

وإذ امتلكت وقتا متسعا... وكان خالد كذلك . اتفقنا أن أمر عليه التاسعة صباح كل يوم لنقرأ معا ، وكان أوان توثق علاقتنا معا . فهى لم تعد علاقة عمل . إنها صداقة حميمة .

* * *

لكن الأمور لم تمض بيسر . وهيكل لم يكف عن سعيه لافتراس خصمه أو من يعتقد أنه خصمه (خالد محيى الدين) .

... عندما وقع خطابات فصلنا من الأخبار سافر على الفور إلى الهند - فيما أعتقد - ولعل غيابه قد شجع بعض الزملاء - من أعضاء التنظيم الطليعى بالمؤسسة - على إرسال برقية احتجاج إلى عبدالناصر ، تحتج على فصلنا ، وذلك فى سابقة لم تحدث من قبل وأثارت لغطا شديدا ، وأثارت معه غضبا شديدا لدى البعض ، إذ أوحى ذلك بأن لخالد ولنا أصدقاء عديدين فى المؤسسة ، وهو ما قلب كل ادعاءات وحسابات هيكل . (عقدت مجموعة التنظيم الطليعى وكانت تضم الأمير العطار - حامد زيدان - إسماعيل يونس - جمال بدوى - سعيد حبيب - وأنا ، اجتماعها الدورى ، وأثير موضوعنا ، واقترح البعض أن نرسل برقية احتجاج ، واتفقنا على صياغة عاصفة ، وفجأة صمم حامد زيدان أن نذهب معا لنرسل التلغراف . كان الاجتماع فى بيت حامد بالعجوزة وتمشينا إلى مكتب تلغراف الزمالك ، وأرسل التلغراف أمامنا جميعا وبمعرفتنا جميعا . وبطبيعة الحال كنت محرجا ولم أشارك فى الحوار ، ولكننا ونحن نغادر المكتب ، التقطنى حامد بعيدا عن الآخرين قائلا : لو لم نرسله مع بعضنا البعض ، لما أرسل أصلا) .

وازداد غضب هيكل عقب عودته ، فما اعتاد هو ، ولا اعتاد النظام على مثل هذه الاحتجاجات ، خاصة أنها تأتى من التنظيم الطليعى ضد هيكل بما أشعل حساسيات كامنة . وتصور البعض أننى خلفها . وهذا غير صحيح .

لكن الأمور كانت تتطور بما هو أعمق وأكثر حدة .

وذات يوم زارنى فى بيتى على غير انتظار خالد محيى الدين . كان وجهه صارما على غير العادة . ما أن جلس حتى سألنى ماذا حدث بينك وبين هيكل عندما قابلك فى مكتبه ؟ (كنت قد تحاشيت محرجا رواية ماحدث .

وحتى لا أصور نفسى فى صورة الذى يقدم تضحية من أجل صداقته) حكيت ماحدث بالضبط . لكنه عاد ليقول بالإنجليزية : تذكر جيدا ؟

قلت : أنا متذكر جيدا ، فهذه أشياء لا تنسى . قال مرة ثالثة ورابعة وربما أكثر : « ...تذكر جيدا »... وأجبت بملل ظاهر إننى متذكر .

فقال : هيكل قال لعبدالناصر إنك ألححت عليه أن تعمل كمدير لمكتبه ، لكنه رفض لكى لا أشعر بأن أقرب الناس إلى يتخلون عنى .

لست أدرى من أين واتتنى هذه الفكرة الهادئة... وأنا فى قمة الغليان . أمسكت بالتليفون دون أن أقول شيئا ، طلبت « م .س » فقط قلت له : أرجوك تعالَ إلى بيتى . وفيما نحن فى الانتظار تحاشينا العودة إلى هذا الموضوع . كنت أستشعر قدرا غير محدود من الغيظ وأكثر ما كان يغيظنى هو أننى أصبحت أداة فى صراع كبير . وتذكرت القول القديم «الأفيال تتصارع والعشب يتكسر» ، وقررت ألا أسمح لأى صراع بأن يكسرنى .

وصل (م) وعلى الفور قلت له : من فضلك احك مادار بينى وبين هيكل من حديث .

وحكى بأمانة وبذاكرة قوية ، ما كان بالضبط ، قاله مرتبا ودقيقا بما يوحى أنه حكاه أكثر من مرة .

نظرت إلى خالد محيى الدين الذى أشرق وجهه بابتسامة مرتاحة ولم أقل شيئا . هو قال لـ(م) : مستعد تشهد بكده ؟ قال : طبعا . وحكينا له الموضوع ، وعندما غادر (م) منزلى قلت عبارة واحدة لخالد : أنت لم تعرفنى بعد . صمت ولم يجب ، لكنه التقط التليفون وأدار ذات الرقم من الذاكرة وعلى الطرف الآخر كان عبدالناصر . حكى له كل ما حدث... ما قلت ، وما قاله (م)... لسبب ما كان عبدالناصر غير مرتاح أو هذا ما استقر فى ذاكرتى... وقال إنه سيطلب إلى السادات أن يحقق فى الأمر .

وعندما غادرنى خالد محيى الدين فوجئت بـ(م) يعود إلى بيتى ، قال بصراحة محمودة إنه اتجه من عندى إلى (ل) وأنه نصحه ألا يشهد ، حتى لايفسد مستقبله الصحفى بالأهرام . أجبته بهدوء إن الشئ الأهم عندى هو شهادته أمام خالد أما الشهادات الأخرى فهى لا تعنينى .

ولم يهتم أحد بالتحقيق . ففيما يبدو أن عبدالناصر كان يعرف الحقيقة ، وليس بحاجة إلى تحقيق .

* * *

لكن قصتى مع الأخبار لم تنته .

فبعد فترة ، وفيما أنا فى مكتبى بمجلس السلام (أعيد تشكيل المجلس باتفاق مع عبدالناصر ، وأصبح لنا مقر بالدور التاسع فى مبنى أمانة الاتحاد الاشتراكى) . تلقيت مكالمة من سكرتيرة هيكل فى الأخبار أبلغتنى أن أحضر فورا لمقابلته .

من جديد آتى إلى هذا المكان . من جديد أمشى فى ردهة الدور التاسع . هذه المرة أمشى حذرا ، فلست من سكان المكان . ما أن رأتنى السكرتيرة حتى فتحت باب الغرفة لأدخل إلى هيكل لأجد المديرين جميعا فى اجتماع ، سلّم الجميع بدرجة محدودة من الحماس . قال هيكل : أنا حاسس إن فيه وضع لازم يتصلح ، ولهذا قررت أن تعود لعملك فى الأخبار . وأملى . وكتب المدير العام ـ ذات المدير العام ـ : «يعود رفعت السعيد إلى عمله بمؤسسة أخبار اليوم بذات شروط العمل السابقة» ، ووقع هو ووقع المديرون كل فيما يخصه .

واكتملت الإجراءات فى لمح البصر .

لم أفهم سر هذا الحماس المتعجل ، بعدها بساعات فهمت . هيكل ترك الأخبار ليحل محله محمود العالم .

وعندما أتى محمود ليجدنى قد سبقته بساعات ، استشعر أن هيكل ربما أعادنى لأحرجه ، وليشاع فى المؤسسة أن محمود كخالد سيعيد الآخرين .

ولم يمتلك محمود أية رغبة فى الحرج ، وكان أول قرار اتخذه هو إلغاء قرار عودتى للمؤسسة .

وهكذا ومن جديد أتذكر وبألم «الأفيال تتصارع والعشب يتكسر» .

لكن هيكل كان ودوداً إلى درجة أنه أصدر فى ذات اليوم قراراً بتعيينى فى الأهرام (فى مجلة الطليعة)... البعض فسرها بسوء نية قائلا إنها رسالة ساخنة لليسار كله إن لم تكن لصالح هيكل ، فهى ضد محمود . لكننى فضلت أن أعتبر الأمر أكثر نقاء من ذلك وأن الرغبة الحسنة هى الدافع ، وأنا على أية حال لم أعد أمثل بالنسبة له سوى شخص مظلوم يتعين رفع الظلم عنه ، فضلا عن أن علاقة هيكل بخالد كانت قد تحسنت وعادت إلى صفائها المعتاد والممتد .

لينين ... احتفالات الميلاد

في بعض الاحيان يصبح النفاق سبيلا وأداة ، ثم يستقر ليصبح خلقا سائدا . يمارسه الأفراد لتملق الأنظمة ، وتمارسه الأنظمة لتتملق أنظمة أخرى .

ذات يوم حكى لي صديق سوفيتي (فاليرى سوخين) كان دبلوماسيا ، ويجيد العربية . حكى كيف اندس في حشود أعضاء منظمة الشباب المحشودة حشدا(أو كما أسماها هو بالمنطوق العسكرى السائد في هذه الأيام... المنقولة جوا) وكانت محتشدة لتصفق للرئيس السوفيتي الزائر... كيف أنه سمع قائد الجمع يصيح فيهم محمسا إياهم... "صفقوا واهتفوا فكل هتاف بطيارة جديدة" .

ويصبح النفاق المكشوف ، والمكتشف من الجميع وأمام الجميع ، شريعة شرعية لاغضاضة فيها .

ويتنفس الناس النفاق ، والحاكم يعرف أنهم ينافقونه ، ويرضى بذلك ويسعد ، فالتعامل مع هؤلاء وبهم أسهل ، وأفضل .

... وذات يوم تم استدعائى على عجل إلى مكتب ضياء الدين داود(عضو اللجنة التنفيذية العليا للاتحاد الاشتراكى) هناك عرفت أننى أمثل

"المجلس المصرى للسلام" فى اجتماع مهم . وفى الغرفة المفرطة فى الأناقة وجدت تركيبة غريبة من الحاضرين... يوسف السباعى(وكان سكرتيرا عاما لمؤتمر التضامن الأفريقي- الآسيوى) ، أنيس منصور ، وعدداً آخر ، منهم أمين الاتحاد الاشتراكى فى الإسكندرية . كل منا ألقى بنظرة متسائلة للآخر . لم نعرف بعد سبب حضورنا . فقط احضر ، وحضرنا .

قطعنا الوقت فى ثرثرة لاهية مشحونة بفكاهات يتقنها أنيس منصور عندما يأنس للجالسين معه . لم يسأل أحد منا عن هذه الرابطة التى يمكن أن تجمعنا . طرحت أشجار هواجسنا ألف احتمال واحتمال... أبدا لم نصل الى ما هو محتمل .

أخيرا حضر ضياء الدين داود... وبدأ الحديث . هذه اللجنة شكلت بقرار من السيد الرئيس لبحث موضوع الاحتفال بالعيد المائة لميلاد لينين... لم يكمل الرجل الجملة... انطلق صاروخ هادر ، حاسم ، بكلمات راسخة مستقرة يعلوها زهو منتصر" إحنا ياأفندم صاحيين تمام فى الإسكندرية ، رصدنا كل المحاولات التى يقوم بها الشيوعيون ، وحددنا المصدر ، المصدر هو المركز الثقافى السوفيتى ، وأبلغنا أمن الدولة ، بالوقائع والأسماء والتحركات التى يحاولون بها إقامة مثل هذه الاحتفالات غير المشروعة . سكت قليلا ليلتقط بعضا من أنفاسه المتدفقة وقال : "إحنا عملنا إللى علينا كتنظيم سياسى . الباقى على الأمن" (كان المسكين يعيش الماضى . ولم تتعلق أبصاره بالحاضر ، ولم يحاول حتى أن يتفهمه . ولعله كان يستقى معلوماته وتعليماته من ضباط أمن الدولة ، الذين كانوا يتابعون" الحليف" بحرص وكراهية تفوق متابعة العدو)... لم تهتز عضلة فى وجه ضياء داود... ومضى- وكأنه لم يسمع شيئا- ليواصل حديثه ،" الرئيس شايف انه من المناسب مجاملة الأصدقاء السوفيت بتنظيم احتفالات واسعة بهذه المناسبة" .

انفلتت رغم أنفى نظرات ساخرة لكنها صامتة وإن كانت مغلفة بشماتة متشفية تتجه نحو امين الإسكندرية الذى لم يُبد عليه أى قدر من الارتباك . كان مدربا فيما يبدو على مثل هذه المواقف .

وبدأ توزيع المهام . عبء المجلس المصرى للسلام هين ، مجموعة من برقيات التهنئة ، وحفل استقبال .

أما العبء الأكبر فقد توجه نحو يوسف السباعى... مؤتمر جماهيرى . والرجل مدرب ، حسن التدريب ، ويتقن هذا الدور من فرط تكراره . ولهذا فلقد بدأ بصوته الهادئ الذى يصلح لإلقاء شعر عاطفى ، وليس لحديث مرتبك كهذا ، بدأ بتوجيه أسئلة مربكة عن حجم ومساحة ومدى التحرك المطلوب ، وظل يسأل وبتدقيق دقيق ، وضياء داود لا يجد الإجابة المحددة والمتقنة التى اعتاد عليها يوسف السباعى ، ربما لأنه لم يتعود بعد على تنظيم المؤتمرات الجماهيرية المبرمجة سلفا .

وعندما تاهت الإجابات فى محتوى الأسئلة الدقيقة ، ارتفع صوت السباعى قليلا :

" ياأفندم بصراحة لازم أعرف مقاس الاحتفال" .

دهشنا جميعا من هذا التعبير المثير للدهشة ، لكن أكثرنا دهشة - ربما لأنه الأكثر مسئولية- كان ضياء الدين داود الذى قال بحدة : "يعنى إيه مقاس يايوسف ، مطلوب مؤتمر جماهيرى وخلاص" ، ورد يوسف السباعى المحنك والمدرب تدريبا كاملا ليلقننا بعض أسرار المهنة" ، ياأفندم كل مؤتمر أو احتفال له مقاس ، متفق عليه من قبل . مثلا مطلوب احتفال شكلى... سد خانه يعنى ، نعقده فى اتحاد الأدباء ، القاعة سعتها سبعون مقعد ، نجمع أعضاء السكرتارية الدولية للتضامن ، والموظفين والمترجمين والسعاة...

القاعة تمتلئ ، وتبقى تمام . عايزين احتفال نص نص نعقده فى قاعة اللجنة المركزية ، ونزود شوية مدعوين دبلوماسيين وممثلى حركات التحرر ، وبرضة القاعة تمتلئ . عايزين مؤتمراً جماهيرياً كبيراً نعمله فى قاعة الشعب (بمبنى الاتحاد الاشتراكى أيضا) أو بقاعة الغرفة التجارية ونتصل بمنظمة الشباب تبعت شبان من عندها وتبقى هيصة كبيرة" .

وكانت الإجابة غير جاهزة ، وحلت محلها كلمة" بعدين... بعدين" .

وفى أثناء هذا الجدل كان أمين الإسكندرية قد استعاد أنفاسه ، واسترد لياقته وبدأ فى الحديث" بالنسبة لينا فى الإسكندرية إحنا جاهزين ياأفندم ، بل إننا ـ كما قلت لسيادتكم من قبل- قد امتلكنا زمام المبادرة ، وبدأنا الاحتفالات فعلا بالتعاون مع الأصدقاء فى المركز الثقافى السوفيتى ، وسنواصل الاحتفالات إنشاء الله" .

... إلى هنا ولم أستطع أن أمسك نفسى لكننى غالبتها فغلبتها ، ولخصت كل شئ فى ابتسامة حزينة ارتسمت رغم إرادتى . كان أنيس منصور إلى جوارى ، لمح ابتسامتى التى تتسلل رغم أنفى فبادلنى بواحدة من عنده ممتلئة سخرية لاذعة ليس من المتحدث وحده وإنما من كل شئ .

وكان وجود أنيس منصور فى هذا الاجتماع محيرا ، ولم أعرف ، وهو لم يعرف لماذا أتوا به ؟ . هل ليبلغوا السوفيت بتشكيل لائق للجنة العليا للاحتفالات... وأنها تضم ممثلا مهماً للكتاب والصحفيين ؟

أم أتوا به لتطويعه والنكاية فيه .

وظل الرجل صامتا طوال الحوار . ويكتفى بابتسامات ساخرة ، وسخرية باطنية ، لكن روح الدعابة التى تفرض نفسها دوما ، استطاعت أخيرا أن تتغلب عليه . لم تكن الدعابة الصارخة أو المنطوقة مسموحا بها فى اجتماعات كهذه . لكنه انتهز فرصة الحوار المثقل بالحرج حول" مقاس

الاحتفال" ، ومال على ليسكب فى أذنى همسات مصوبة تصويبا متقنا لا يسمح بتسلل أى شئ منها إلى آذان أخرى... قال : "أنا عندى اقتراح لاحتفال هايل ، أحسن من كل الهيصه دى واللخبطة إللى مالهاش لازمة" ، همست مستجيبا" إيه اقتراحك ؟" فقال بذات الهمسات المحاذرة بينما نظراته تتقلص لترى إذا ما كانت أعين أخرى تلاحقنا أم لا" : أقترح أن يصدر قرار لعبد الوهاب بأنه يغير أغنية" لمين هواك أنا ما أعرفشى" الى" لينين هواك أنا ما أعرفشى"...

ولم أستطع ، انفلتت ضحكة نصف عالية ، كادت أن تسبب لى كارثة . لكننى لم أزل أذكر هذه الدعابة المحكمة... التى لخصت كل شىء... كل شىء .

مكتوبجى

... «والمكتوبجى» فى الأساس مهنة ، فهى تطلق على من يحترف مهنة الكتابة (فى الزمن القديم حيث الكاتبون قلة ، كان الناس يلجأون فى كتابة ما يحتاجونه إلى من يستطيع) .

لكن لفظ «الكتابة» والفعل «كتب» اتخذا أكثر من معنى مع تغير الأزمنة . وفى الزمن الناصرى حيث المعتقلات المغلقة الأبواب ، مفتوحة أبوابها أمام كل من يستنكر عقيدته ويشى بزملائه ، وحيث الأوراق والأقلام مسجلة فى باب المحرمات ، بحيث تستحيل الكتابة بغير سماح رسمى ، اتخذ الفعل «كتب» معنى جديدا ، فقد أصبح يشى ، بالوشاة ، والمستنكرين .

وفى خارج السجون الناصرية ، خاصة فى التنظيمات الناصرية وجد الفعل «كتب» استعمالا جديدا كى يستطيع التعبير عن هؤلاء «البصاصين» المندسين فى كل لقاء أو اجتماع ، ويتسلقون على جدران حياتنا من حيث لا نحتسب ، يتسقطون كل ما يتساقط من ألفاظ ، أو نقد ، أو شكوى ، أو تأوه ، أو همسة ، أو لمسة ، أو نكتة ليسوّدوا بها تقارير ترفع إلى المسئولين المنتظرين دوما فى تطفل نهم .

وكان المكتوبجية كثيرون ، أغلبهم متطوعون ، فقد أصبحت هذه المهنة مشاعا ، لكل من يرغب فى طرق الأبواب الذهبية لتملق الحكام ، وتسلق جدران السلطة ولو فوق رقاب البشر .

ولأن مفاتيح الأبواب الذهبية كانت محدودة ومحددة ، فقد تسارع الناس نحو فعل « كتب » كمفتاح ذهبى للأبواب الذهبية .

تكاثروا بحيث لم يعد بالإمكان استخدام الفراسة وحدها للتعرف عليهم... فلقد يكون المرء نقيا وحسن النية ، لكن قولا ما يقال أمامه وأمام آخرين ، ويخاف أن يكتب الآخرون ، فيعتبر هو متواطئا ، أو متخليا عن واجبات الإخلاص وموجباته ، أو حتى غير حريص على « الثورة » حرصا كافيا... ويخاف من ذلك أو حتى من أقل منه ، فيسرع هو أيضا كى يصبح « مكتوبجيا » .

والغريب أن أصحاب الأمر كانوا يعتبرون مثل هذه الكتابة واجبا لا يتم الولاء بدونه ، والسكوت عنه يعتبر من مبطلات الفرائض ، فلا يغنى عن الكتابة إخلاص ، أو تفان ، أو كفاءة .

وكان المكتوبجية يتبارون في الإسراف فى الكتابة ، فلقد ينسى أحدهم فقرة أو عبارة ترد فى كتابة أخرى فيتهم الأول بالتقصير أو الإخفاء... أو التواطؤ... أو الانحياز... أو الغفلة .

وبرغم أن الموطن الأصلى لهذه السلالة كان « التنظيم الطليعى »... (المسمى رسميا : طليعة الاشتراكيين) ، ومنظمة الشباب « الاشتراكى » ، إلا أن هذه السلالة تكاثرت بحيث أتى زمن صار الجميع فيه يتشككون فى الجميع ، بل وكان الجميع فيه يكتبون ضد الجميع... وبهذا لم ينج حتى المكتوبجية أنفسهم من الفعل « كتب » .

وكانت أكثر مواقع تكاثر هذه السلالة هى الوفود المسافرة للمؤتمرات

الخارجية ، حيث يرشق فيها كل جهاز ممثليه ، وحيث يسرع الكل بالاحتراز من الكل ، والكتابة السريعة فور العودة ، وربما قبل العودة .

وشخص مثلى يتحلى بإثمين ، إثم ماضيه الذى لم يغفر له ، لأنه لم يتنكر له ، وإثم امتناعه عن ممارسة المهنة المحببة والمفضلة مهنة «المكتوبجية» . ومن ثم كنت أغرى الكثيرين دوما بالكتابة ضدى ، حتى ولو لم أنطق ، فللكاتب ضدى ثوابان : ثواب الكُتابة ، وثواب الوقيعة بمن يُستحب الإيقاع به .

ومن هنا فقد استحققت من خالد محيي الدين تحذيرا مكررا ومتكررا ، إذ كنت أقبل على رحلتي الأولى فى وفد للمجلس المصرى للسلام... من المكتوبجية ومما يكتبون .

جرح النكسة كان يدمى لم يزل ، فنحن لم نزل فى يوليو من العام الحزين ذاته . والوفد متجه أساسا إلى استكهولم ليسهم فى مؤتمر تضامنى مع من لا يزال يقاوم مقاومة تغرى بمقارنة موجعة... شعب فيتنام .

كانت أغلب الرحلات السلامية تمر عبر موسكو لضمان رحلات أرخص وإن استطالت زمانا ، ولأيام أكثر . وكانت المرة الأولى التى يركب فيها هذا الفلاح (المندهش دوما ، والذى باعدت سنوات السجن بينه وبين منطلقات شتى للحياة) ، طائرة . وتبدت حتى طائرة «الايروفلوت» البدائية والمتأرجحة دوما ، حلما ورديا بهيجا... ورفاق الرحلة كثيرون محام شهير ، وضابط سابق أصبح لفترة ما محافظا يسمى نفسه وبلا تردد «السيد الوزير المستشار» ثم طويت صفحته فى هدوء وانزوى بعيدا عن أية لمسة ضوء ، وطبيب غامض الهوية يقول إنه يمثل منظمة الشباب بالجيزة رغم أن الشيب كان يغمر رأسه ، وآخرون .

وأخيرا تحقق الحلم القديم... خفق القلب طويلا... وعنيفا والطائرة تهبط

إلى موسكو... أخيراً ها أنت تشم رياح الاشتراكية الخالصة فى عاصمة لينين . وموسكو جميلة ، كغانية تعرف كيف تتزين فتبدو أكثر جمالا وإبهارا . (وإن لم أكن بحاجة إلى ما يبهرنى فأنا منبهر أصلا) . ومن موسكو إلى استكهولم... ثم مرة أخرى إلى الحلم المبهر .

وتقترب رحلة العودة ، هم سيعودون ، وأن أسافر إلى كوبا لأمثل مجلس السلام العالمى فى مؤتمر القارات الثلاث . وكان سعيد خيال قد انطلق إلى براغ حيث صديقنا مجدى حسنين سفيرا . وبقى خمسة أنا واحد منهم .

وفى ليلتنا الأخيرة بموسكو دعانا سفيرنا هناك د . مراد غالب إلى العشاء فى بيته داخل حصن السفارة . ولأن الرجل ودود ، دافئ ويتعامل على سجيته فقد استشعرنا دفئا عائليا خاصا ، وتراكمت الثرثرة طبقة فوق طبقة ، والكئوس هى أيضا تراكمت ، وفجأة انفلت من بينها سؤال حاول صاحبه (طبيب منظمة الشباب ذو الشعر الأبيض) أن يكسوه ببراءة بريئة : لماذا الهزيمة ، ومن المسئول عنها ؟ تبخر كل ما شربت ، وخيل إلى أن يد خالد محيى الدين تأتى متعجلة لتحذرنى : «احذر ، فالأسئلة البريئة هى الأكثر ضراوة ، وأنت بالذات محل أنظارهم ومحط انتظار من ينتظرون التقارير» .

تحليت بالصمت اليقظ وأنا أحاول أن أكتم كلماتى بداخلى . قال المحامى : هو الجيش... المسئول... ووجه نقدا مريرا لأسلوب بناء المؤسسة العسكرية وتدليلها واستمالتها . وقال الضابط السابق وقد أوجعه نقد المؤسسة التى لم يزل يتشبث بالزهو بها ، ويحاول التسلق على هذا الزهو (وكانت معركة عبدالناصر والمشير لم تحسم بعد ، وبعض الضباط سابقين أو غير سابقين يتعلقون بالتعلق بأذيال المشير كمؤسسة أو حتى كفرد)... قال بحدة : المسئول هو المسئول الأكبر... والجيش فقط ينفذ التعليمات .

وتشجع البعض أكثر ومضت الكلمات فى هذا الاتجاه . الطبيب الصامت التفت إلىَّ بنظرة كأنها تأمرنى بالبوح ، وإلا اعتبرت متسترا على خبيئة من الأفكار المخبأة ، لم أكن بحاجة إلى دفع من أحد ، فتحذير خالد لم يكن كافيا ولا قادرا ، واندفعت بحماس ، ودون افتعال لأنتقد أسلوب قيادة المشير للجيش ، ووجدتنى أقول : الرئيس يتخذ قراره السياسى بناء على معلومات ، فماذا لو زوده بمعلومات خاطئة عن قدرات الجيش واستعداده ، خاصة أنه أعطى المشير كل ما يريد من سلاح ودعم وامتيازات... نظرة هادئة من عين السفير تسللت إلىَّ وحدى لتشجعنى فى هدوء صامت ، لكننى وجدت يد خالد محيى الدين تشدد قبضتها على عنقى ، فالتزمت الصمت الصامت . احتج الضابط فى خضوع من استشعر أنه أخطأ التصويب . وتململ البعض وكل منهم يسترجع ما أفلت من كلمات . راجع كل منهم ما قال ، وتخيل ما سيقال ، فتساقطت أحجار ثقيلة على الجالسين وتبدى التململ على الجميع ، وانفضت الجلسة .

وبعد ظهر اليوم التالى كان الآخرون يستعدون للعودة للقاهرة . أنا سأنتظر حتى المساء لأعبر المحيط إلى حلم آخر كان أكثر تألقا فى مُخَيلَتى .

على غير العادة (ولسوء الحظ) حضر ثلاثة من كبار المسئولين فى حركة السلام السوفيتية لوداع المسافرين (وإذ لمح الرفيق فيدوروف دهشتى لحضوره... ناول المترجم كلمات تقول : إنهم عائدون إلى أرض معركة ساخنة ، وفهمت أنا لفتة سوفيتية لدعم الصمود المصرى بعد الهزيمة القاسية) . أمام مدخل فندق «سافيتيسكايا» الصغير والشديد الفخامة كانت سيارتان «تشايكا»... كل واحدة منهما فى حجم عربة القطار تنتظر العائدين إلى أرض المعركة .

فجأة أطل علينا المسافرون... ثم حقائب . حقائب . صناديق كرتون . أكوام من الأشياء اشتراها اثنان : الضابط السابق ، والطبيب ، بل إن الضابط رص أمامه عدة ماكينات خياطة . كل منها مستقرة فى كرتونة محكمة وهو لا يكف عن تكرار تحذيره غير المحاذر للمترجم بالحرص عليها . والحقيقة أن موسكو كانت تُفقد الناس صوابهم . فالسلع رخيصة بصورة مضحكة ومربكة ، فماكينة الخياطة كانت بتسعة روبلات (الدولارُ كان يساوى فى زمانها ثمانين قرشا كان يصرف فى السوق السوداء بخمسة روبلات) . ألقيت نظرة حزينة وصامتة على الأكوام المربكة... لاحظ الضابط نظرتى الغاضبة فقال ضاحكا وهامسا : لقيت الماكينة بمية وسبعين قرشا ، مقدرتش أمسك نفسى . قلت : وماذا عن الوزن ؟ قال : ولا يهمك أولاد الكلب الشيوعيين يحلو المشكلة .

لكن المشكلة كانت كيف يمكن حشر حمولة لورى فى حقيبتى سيارتى ركوب . المحامى استدعى حقيبته الواحدة بعيدا ليتمايز عن هذه الكومة المثيرة للحرج... وموظفو الفندق... والمترجم تزاحموا يحاولون حشر الصناديق والحقائق فى السيارتين دون جدوى ، السياسيون الكبار تخلوا عن وقارهم المفروض المفترض وبدأوا فى إصدار تعليمات عن كيفية حشر الأشياء ثم بأيديهم حاولوا هم أيضا... والضابط السابق (دون أن يشعر بأية قطرة من الخجل) يحذر صارخا طالبا الحرص على كرتونة مليئة بالكريستال .

ارتبكت عتبات الفندق وفشلت المحاولات . أبدى رجال الأمن المرافقين عن بعد لكبار القادة الحاضرين تذمرا صامتا ثم صاخبا من انفلات الأمور... أسرع البعض منهم ليحضر عددا من سيارات التاكسى... اقترحت لأتحلل من الوضع الشديد الحرج ، ولأتيح الفرصة لكبار المسئولين كى

ينصرفوا . فيقل الحرج الذى يغلف المكان والزمان ، ولكى يلحق الركاب بطائرتهم بأن يذهبوا ، وتعهدت أن أرسل خلفهم كل مقتنياتهم بسيارات التاكسى فور حضورها . صرخ الضابط السابق : مش حا أمشى إلا مع حاجتى كلها .

أخيرا... وبعد أن استخدم رجال الحزب ومبعوثو الأمن نفوذ بطاقاتهم الحمراء التى نادرا ما يبرزونها ، اصطفت ثلاث سيارات تاكسى ، وتم تحميل البضاعة بأكملها... وانزاح المسافرون إلى المطار وبقى المسئولون... فلا مكان لهم فى سيارات امتلأت نصف مقاعدها بصناديق وحقائب . أحدهم نظر إلىَّ موشكا أن ينطق . أرسلت بصرى بعيدا ، وتسحبت إلى غرفتى .

وفى المساء اتصل المرافق متهكما : هل سنحتاج لأكثر من سيارة لحمل متاعك ؟ قذفت السماعة فى وجهه ، وفى الموعد كنت مع حقيبتى الصغيرة والوحيدة فى طريقى إلى المطار ، رافضا أن أستمع إلى تعليقات المرافق ، وإلى تعليقات المستشار بالسفارة المصرية الذى حضر واقعة ما بعد الظهر... وهو يقطر خجلا .

* * *

إلى كوبا سافرت... ثم عدت . وأمام سلم الطائرة قال المرافق حتى قبل أن يرحب بى... سفيركم اتصل عدة مرات ويلح فى الاتصال به فور وصولك الفندق . كانت الساعة السادسة صباحا وأنا أخطو فى الردهات الأنيقة لفندق «سافيتيسكايا» ، وبينما المرافق يذكرنى برغبة السفير ، كانت موظفة الاستعلامات تلقى محاضرة طويلة عليه ، ترجمها فى عبارة واحدة «سفيركم اتصل هنا أيضا ، ويرجوكم الاتصال به فور حضورك» .

قلت : طيب .

لكننى لست مجنونا حتى أوقظ الرجل فى السادسة صباحا . لكن لم

يمض وقت طويل وحتى قبل أن أتهيأ لتناول إفطار مبكر... أسرعت موظفة الاستعلامات لتهمس فى أذن المرافق... الذى قال : سفيركم على التليفون .

وجاء صوت د . مراد : عايزك . متى ؟ بأسرع ما يمكن . وفى الثامنة صباحا كنت فى مكتبه . بدأ حديثا دبلوماسيا هادئا ، بينما قلق مقلق يقلقنى . لماذا يلح هكذا فى مقابلتى ؟ هل حدث مكروه لأحد ؟ (ألسنا دوما نبدأ بالهواجس الأكثر سوءا ؟) لكن الدبلوماسى الهادئ يبقى هادئا ، ولم يرح تلك الحزمة المتوترة من أعصابى . سألنى عن كوبا ، أحوالها ، أوضاعها ، ثم بأسلوب المحترفين المتمكنين باغتنى بسؤال عن سفيرنا هناك . كنت أجيب باقتضاب سخيف متعجلا التعرف على سبب استدعائى ، فلما بدأ الحديث يوغل نحو تقويم السفير الآخر تحليت بالصمت . لكنه ألح ، فقلت بصراحة غير مستحبة : أنا لم أكد أعرفه ، قابلته خمس دقائق ولم أطل معه فى تعارف أو حديث ، ورويت كيف اشتكى منه الكوبيون واتهموه بالإتجار بالعملة ، وبالإسهام المباشر فى تهريب أموال خصوم الحكم الهاربين للخارج ، وكانت الحكومة تسمح لهم بالمغادرة شرط ترك ممتلكاتهم ، وكان سفيرنا الهمام يناولهم أموالهم عبر الحدود .

ثم حكيت له قصة الدقائق الخمس التى قابلته فيها . ولم يبد فيها ذكاء كافيا (وردت فى فصل آخر)... ابتسم د . مراد وسألنى متى قابلته أول مرة ؟ دقق فى السؤال تدقيقا شديدا . استدعيت ذاكرتى لأتذكر... رابع يوم بعد وصولى... فقد تأجل المؤتمر لثلاثة أيام انتظارا لوصول تشى جيفارا ، ويوم أن بدأ المؤتمر ظهر مستشار السفارة على باب الفندق (كان لا يمتلك تصريحا للدخول) وطلب مقابلتى وأخذنى لأقابل السفير . اتسعت ابتسامة د .مراد وقال : إذن أنت براءة .

ولما وجدنى لم أفهم ، حكى لى الحكاية : الرئيس عبدالناصر وجه له

رسالة غاضبة مضمونها : لقد شتموني في بيتك وأنت لم تدافع عني ولم تبلغني... وأيضا : الوحيد الذي دافع عنه هو رفعت .

فهمت معنى كلمة براءة . فأنا الوحيد الذي لم أعد للقاهرة ، وعلاقتي بسفيرنا في كوبا لا تسمح بنقل تقارير إلى القاهرة . ثم إنها تمت بعد أن وصلت رسالة عبدالناصر الغاضبة . إذن أنا لم «أكتب» .

قلت في سذاجة : هل كتب أحدهم ؟

قال ضاحكا في غضب : ثلاثة يا أستاذ . كل واحد كتب ناسبا الخطأ للآخرين .

ثم قال : وهناك تقارير كمان عن العفش الزيادة .

وقال : أنا قدرت أن الظرف صعب ، وأن الناس متوترة ، ومن الطبيعي أن يفلت منها كلام غاضب ، ثم أنكم كنتم في بيتي . ولهذا لم أرسل أي تقرير عن المقابلة ، فهل يمكن أن يكون نصيبي ثلاثة تقارير محرجة ؟

وكان هذا درسي الأول مع المكتوبجية .

وإن لم يكن الأخير .

الجزء الثانى

كلمة لا بد منها!

عزيزي القارئ ...

هل حاولت... أن تقسم نفسك قسمين أو أكثر ؟ وهل حاول أحد أن يجعل منك نصفين أو ما يزيد ؟

هذا ما أشعر به . إذ تمددت بذكرياتي عبر صفحات..لعلها تكاثرت فصارت أكثر من أن تُغلف في غلاف واحد... لأسباب فنية أو سعرية أو أي سبب آخر... وتمتد يدي المرغمة لتشق الصفحات نصفين .

يفلت أولهما... وهاك الثاني .

وما من حيلة أخرى لي ، أو لك .

والصفحات الأولى التي أفلتت ، لمن لم تدركه في سعيها نحوه ، أو يدركها في سعيه نحوها ، أمسكت بقدر من ذكريات البدايات ، بعضها شخصي والبعض الآخر عن أدوات وحادثات الفعل السياسي ، وأكثرها حديث عن أيام في السجون ، أراد السجان لها أن تكون باهتة فإذا بها تضج بألوان صاخبة ، وأراد لها أن تكون مجدبة ، بحيث تمحو عن السجين وعن عقله وذاته كل ما قد يثمر أو ما قد يفيد ، فإذا بالسجناء يتحدون القهر... ويقهرونه... ويعودون ، يكونون ، يصبحون... بينما يغرب الآخر ولا يتبقى منه إلا ما يستثير الشفقة .

ثم خطوة أو خطوتين في طريق حياة ما بعد السجن .

ثم...

ها نحن نلتقي من جديد .

وما من جديد أبرر به هذه الكتابة ، أو هذا الاجتراء على الكتابة عن نفسي متوهماً أن يكون فيها ما قد يفيد وما قد يصلح لإطلاع الغير .

اتجاسر فأسرع بالثاني دون أن أتمعن في صدى الأول . لكن ما سمعت ـ ولعله مبالغة أو مجاملة ـ شجعني أن أشجع الناشر على متابعة النشر .

أتجاسر ـ ربما دون ترو ـ فأعود للقارىء لأضع على كاهله عبء متابعة ما كان . لكنه هذه المرة يختلف كثيراً عما كان في القسم الأول . هنا يكون قد خاض تجارب عدة ، ويتحدث عن اشتباكات مع ما هو عام... في مصر... والبلاد العربية والعالم... من الاتحاد السوفيتي ـ هذا الذي كان ملء السمع والبصر ـ وعبر عواصم عربية وعالمية عدة ، فيكون بهذه المحاولة ، محاولاً أن يقدم شهادته على أحداث شغلت البال كثيراً ولم تزل . ولعلها نسجت وعلى مدى طويل وممتد ودون أن نلحظ ، تلك الثياب القاتمة التي تغلفنا الآن وتثير أسانا ودهشتنا معاً .

أحاول أن أقدم شهادتي... كما رأيتها... أو كما تصورتها ، ولقد تكون لآخرين مشاهدة مختلفة أو رأي مخالف... ذلك شأنهم... وإنما هذا هو شأني أنا ، ورؤيتي أنا ، أحملها وأتحملها دون أن أضعها عقبة أمام رأي الآخر ورؤيته .

ويكفيني أمام ضميري أنني لم أقل إلا ما أعتقد أنه صحيح... وحقيقي .

ويكفيني أمام القارىء أنني لم أحاول ـ ولو بأقل قدر ـ أن أتقول على أحد ، أو أسكب على الورق رأياً أو رؤية لم تقع... وأنني اكتفيت بما كان...

فقط ما كان ، لكن وبالطبع يأتي « ما كان » مصطحباً رؤيتي أنا له... ولست أنكر ولا أرفض أن تكون ثمة رؤية أو رؤى آخرى .

... ولقد يكون ممكناً فيما بقي من أيام أن أجد وقتاً أو جهداً أو قدرة على تذكر ما كان من ذكريات في السبعينيات وما بعدها . فهي غنية بأحداث سياسية ، خاصة فيما يتعلق بالتجمع... ومنحنيات الفعل الحزبي والسياسي في هذه الأيام... وهي أحداث إنغمست فيها حتى تكاد تكون قطعة مني وأكون قطعة منها... ولعلها تكون مهمة للتعرف على الحدث الذي كان ، والذي منه يجري نسيج ما سيكون... وهنا تكمن أهميتها...

فإن أتيحت لنا أيام تكفي كان بها... وإلا فهي متروكة لمن هو أجدر... أو أقدر .

لكنها وأياً كان من هو مقدر له أن يقوم بها... تبقى وستظل واجباً... واجب الأداء .

فإلى لقاء... إن كان هذا ممكناً .

رفعت السعيد

القاهرة ١٩٩٩/٢/١١

بدايات... منتصف الطريق

كان الأمر مجرد مصادفة . صدر كتابي الأول ، تحقق واحدمن أحلام تراكمت في مساحات السجن الممتدة ، ونال «الأساس الاجتماعي للثورة العرابية» اهتماماً لم أحلم به ، وما كان ممكناً أن أحلم به .

أنيس منصور خصص له عموده اليومي بالأخبار ، د . عبد القادر القط كتب عنه دراسة مستفيضة كانت فوق طاقتي وطاقة أحلامي ، وتوالت مقالات عديدة ، وأفرد راديو لندن برنامجاً (لم أسمعه لكن حدثني عنه بعض الأصدقاء) في إذاعته العربية عن هذا الكتاب المثير للدهشة . نفد سريعاً ، وتكررت طبعاته سريعاً أيضاً .

... تشجعت وأعددت كتاباً آخر . كانت دار الهلال قد تراخت في إصدار أول ما كتبت ، وكان عن «رفاعة الطهطاوي» ، وكاد التراخي أن يقنعني بلا جدوى محاولة الكتابة... لولا إنقاذ «عرابي» لي . استعدت كتابي من دار الهلال (كنت مبتدئاً ، وأسلمتهم المخطوط دون أن أحتفظ بأي أثر له عندي) وأضفت له فصولاً عديدة... وصدر كتابي الثاني «تاريخ الفكر الاشتراكي في مصر» وحظى هو أيضاً باهتمام باعث .

... وذات مساء وبغير موعد ، هبط «بهيج نصار» على منزلي في منشية

البكري محتضناً كتاباً سميكاً... دون مقدمات قال إننا بحاجة إلى من يكتب تاريخنا ، الحزب جرى حله... وبعد سنوات سيندثر كل شيء ، وينسى الناس وإلى الأبد ما كان .

ولا بد من أن يتفرغ شخص لكتابة هذا التاريخ . ثم ناولني الكتاب صائحاً (ربما ليستفزني) : انظر كيف يشوهون صورة نضالنا ، إن لم نكتب تاريخنا بأيدينا ، لن تبقى سوى هذه الصورة المشوهة وأمثالها . تأملت الكتاب «والتر لاكور» «الشيوعية والقومية في الشرق الأوسط» ، أسرعت عيني غير المدربة على بعض الصفحات المطوية أطرافها عن عمد ، الأسطر الإنجليزية تداخلت مع أنفاس لم تكن بحاجة إلى استفزاز ، ووعدته بمحاولة أن أخوض هذه التجربة .

كان الوقت متوافراً ، ألم أطرد من أخبار اليوم... وسمحت لي د . سهير القلماوي بالإفلات اليومي من وظيفتي الجديدة في مؤسسة النشر !

وبدأت رحلة اصطياد المعلومات ، تركز اهتمامي المبدئي على دار الكتب بباب الخلق ، ودار الوثائق بالقلعة . عشت هناك تقريباً كل يوم ولساعات طويلة ، وكان طارق البشري صاحبي في مشوار الصعود اليومي إلى أعلى القلعة . يوماً ما قال عبارة منحتني مزيداً من الحماسة... «لنكثف جهدنا ونحن نمتلك القدرة على الصعود ، فبعد سنوات سيتقدم بنا العمر ولا نستطيع» .

ولم أكن بحاجة إلى استعجال ، فأنا متعجل بطبعي ، إنه ذلك النوع من العجلة الذي يستحثك على الإسراع لتعويض ما ضاع «ألم يضع الكثير من أخصب السنوات في السجن ؟» .

وكان نشاطي في حركة السلام المصرية يتيح لي أسفاراً عدة ، وبدأت في استثمارها في إجراء حوارات مع الشيوعيين القدامى الذين أسهموا في

النشاط المصري (في فرنسا ، قبرص ، اليونان ، السودان ، لبنان... الخ) .

وأثناء زيارة لبراغ حيث المركز الأممي الذي كان يصدر «مجلة السلم والاشتراكية» ، التقيت بممثلي العديد من الأحزاب الشيوعية الموجودين في مقر المجلة . أحدهم لفت نظري إلى أرشيف متكامل لمجلة «المراسلات الدولية» في ألمانيا الديمقراطية .

لم أضع وقتاً ، رتبت سفراً مباشراً إلى برلين الشرقية باتصال تليفوني مع الرفيق «رومبل» سكرتير حركة السلام هناك ، وكنا أصدقاء حميمين .

... وتبدأ المصادفات ، في المطار ، المرافق طوال الرحلة هو صديق قديم لمحته سريعاً في معتقل هايكستب ، لكنني سمعت عنه كثيراً وقرأت له أكثر : د . مصطفى هيكل . اندفع كالمدفع الرشاش يرحب بحماسة ، يحتويني بأحضان وقبلات ودفء مصري مشتاق لمصر ، وبدأت به ، سجلت معه محضر نقاش . ثم اصطحبني إلى معهد الماركسية ـ اللينينية ، وهناك ـ بالمصادفة أيضاً ـ نلتقي بباحث متخصص من معهد الدراسات الشرقية في جامعة ليبزج هو د . شينوفيلدر ، أبهرني بفيض الوثائق المتراكمة عندهم ، كل ما حلمت به ، وكل ما لم أتخيل ومن ثم لم أحلم به ، ثم دعاني إلى ليبزج . هناك التقيت بأستاذ أثر فيَّ تأثيراً لن يُمحى ، ولن أنساه ، البروفيسور لوثر راتمان . جلسنا ، تناقشنا ، حول موضوع الحلم الذي تعلقت به ، أبدى اهتماماً أثار اهتمامي ، دعاني إلى لقاء مع مجلس المعهد ، تراكمت اهتمامات عديدة ، فجأة سألني : لِمَ لا تسجل رسالة دكتوراه هنا ؟ قلت : أنا حاصل على ليسانس حقوق فكيف أعد رسالة دكتوراه في التاريخ ؟! قال مبتسماً : تقاليد جامعتنا تسمح لك بذلك ، ففي إطار العلوم الإنسانية كلها يمكنك التنقل والاختيار . وقلت : اللغة الألمانية صعبة ، وتحتاج عدة سنوات حتى أستطيع الكتابة بها ، قال : سأحصل لك على إذن

من وزير التعليم العالي كي تكتب رسالتك وتدافع عنها بالإنجليزية ، قال : الموضوع الذي طرحته مهم ، وهذه هي المرة الأولى التي تجري فيها محاولة كتابة تاريخ الحركة الاشتراكية في بلد كمصر ، وأنا متحمس كي يكون لجامعتنا هذا السبق .

كنت لم أزل متفقداً الحماسة... (فجأة تذكرت كلمات حزينة انفلتت مني ونحن نتمشى في ممرات سجن المحاريق أنا وفاروق ثابت ، كنت أقترب من الثلاثين ولم أزل طالباً لم أكمل بعد دراستي... قال ربما كي يُهَوِّنَ عليَّ : سيغطي كل هذا التأخير أن تحصل على الدكتوراه ، فيها ستسبق كل من سبقوك) . وتراكم بعض من حماسة ، لكن زيارة ـ غير مقصودة ـ لمكتبة ليبزج المركزية أفقدتني أية ذرة من التردد ، هناك تسترخي على الأرفف المخصصة لمصر آلاف من الوثائق... والكتب والنشرات التي لا يحلم بها باحث . تدافع انبهاري وأنا أمسك بخطابات من محمد فريد إلى مدام روشبيرون ، وتقارير البوليس الألماني عن نشاطه خلال إقامته في ألمانيا ، وتقارير عن النشاط الثوري لمصريين كانت أسماؤهم قد تجمعت لدي : مجد الدين حفني ناصف ، د . عبد الفتاح القاضي... حسني العرابي .

منشورات شيوعية بالعربية صدرت في القاهرة في مطلع العشرينيات... وكانت محاولات الترجمة المتعجلة من مصطفى وفتحي هيكل تتجاذب انتباهي... وتتدافع بي نحو انبهار لا يقاوم... هنا يوجد الكثير من ممكنات الحلم . وبدأت إجراءات تسجيل الدكتوراه عن « تاريخ الحركة الاشتراكية في مصر ١٩٠٠ ـ ١٩٢٥ » .

* * *

... جلست طويلاً أستمع وأستمتع في انبهار متجدد إلى شعائر البحث الأكاديمي في علم التاريخ ، كان راتمان متحمساً... ربما أكثر مني للمشروع... وكان يعرف أنني أقتحم ميدان البحث الأكاديمي في علم التاريخ بلا ذخيرة سابقة ، ومن ثم أثقل على نفسه وزملائه في المعهد بمهمة ملاحقتي بفيض معلوماتهم ، وتكنيكهم ، وتقاليدهم في البحث والكتابة . كنت أذهب إليهم كل صباح متمسكاً كتلميذ صغير بكراسة وأعود بعد أن يتبادلوني فيما بينهم وقد امتلأت الكراسة بالأفكار والمقترحات ، والتعليمات ، والمعلومات ، والمراجع ، والمصادر ، وفنون البحث الأكاديمي... وبعد عشرة أيام من شحن بطاريات المعرفة العلمية ، خيل إلي وإليهم أنني أصبحت جاهزاً .

رتبنا الأمر على أن أزورهم مرة كل أربعة أشهر في الأقل وأن أرسل لراتمان ما أكتب أولاً بأول .

عدت أفور حماسة جمعت كتبي ووثائقي وبدأت أتخلص من كل تجاربي القيمة . الآن المادة الخام للبحث تستقر في كروت مرتبة ذات ألوان ، كل لون يميز فصلاً عن الآخر ، وتسرعت ، وكتبت فصلاً كبروفة وأرسلته متهللاً للأستاذ .

أسبوع أو أكثر قليلاً تلقيت برقية : إحضر للتشاور .

وسافرت... كنت قد قفزت عند مرحلة تأسيس الحزب الاشتراكي عام ١٩٢١ . فهي المساحة التي تزاحمت حولها معلومات ووثائق عدة .

نقلت عن شهدي عطية ـ تطور الحركة الوطنية ـ ط ١ (١٩٥٧ ص ٤٢) ما قال إنه برنامج الحزب الاشتراكي المصري . وما قال إنه نقله عن الأهرام ١٤ فبراير ١٩٢١ .

تململت طويلاً وراتمان يستعيد ما سبق أن كرره عن معلومات الدرجة

الأولى ، وعن الحذر عند النقل من مرجع آخر ، وعن ضرورة المطابقة ـ كلما كان ذلك ممكناً .

فجأة سألني هل أنت واثق أن شهدي لم يخطىء . قلت بحماسة من يتعلق بذكرى شهيد عزيز : طبعاً . قال ببرود ألماني غير مصطنع ، مجموعة «الأهرام» هناك في المكتبة أذهب وأبحث ، وتأكد ، ثم تعال كي نكتب في الهامش كيف ، وبأي أسلوب قدمت جريدة محافظة كالأهرام برنامج الحزب الاشتراكي .

قفزت إلى المكتبة ، قفز قلبي خارجا عندما بحثت ودققت وأعدت البحث والتدقيق لأكتشف أن عدد الأهرام ١٤ فبراير ١٩٢١ خال تماماً من هذه الوثيقة (اكتشفت بعدها أن شهدي الذي كان يخضع خضوعاً مريراً لنظام المراقبة القضائية الذي يفرض عليه التزام البقاء بالمنزل منذ لحظة الغروب وحتى الصباح ، كان لا يجد ما يكفي من وقت للنضال والبحث العلمي معاً ، ومن ثم فقد كلف طالباً أزهرياً بجمع معلومات من الصحف عن موضوع كتابه ، ولا بد أن الشيخ حسن ـ هذا ـ قد أخطأ في كتابة تاريخ نشر الوثيقة ، فهي برنامج الحزب عندما غير اسمه ليصبح الحزب الشيوعي والتاريخ الصحيح للنشر هو ١٩٢٤ وليس ١٩٢١ .

عدت يملؤني خجل بلا حدود . جلست صامتاً . قال : ماذا وجدت ؟ قلت : لا شيء . قال : كنت أعرف . أنت متسرع . لِمَ تلتزم لا بقواعد البحث الأكاديمي ، ولا بالتأني المطلوب في فحص أية وثيقة . وقال : أنا لم أرجع إلى الأهرام ، وإنما توقفت أمام نص في البرنامج يقول : «تعديل الدستور وقانون الانتخاب حتى تصبح الأمة مصدر السلطة الحقيقية» والدستور صدر في عام ١٩٢٣ ، فكيف بطالب برنامج منشور عام ١٩٢١ بتعديله ؟

انهمرت سيول الخجل . لكن الرجل كان بسيطاً بقدر ما كان حاسماً

وقال : كنت أستطيع أن أصحح الأمر برسالة ، لكنني أحضرتك لتعرف أن الأمر ليس سهلاً... ودقق في كتابتك .

وتلقنت درساً لم ، ولن أنساه .

* * *

وعندما قررت أن أعد دكتوراه العلوم... تأملني بهدوء ، وقال : حسناً تريد أن تصبح مثلي... وستدفع ثمناً غالياً .

ودفعت أربعة عشر عاماً ، كنت أواصل فيها فقط إعداد دراسات كي أصبح مؤهلاً لتسجيل الرسالة (تقاليد الجامعة خمسة عشر بحثاً أكاديمياً منشوراً)... وهكذا ظل راتمان يلاحقني : أريد دراسة عن الإخوان المسلمين ، عن مصر الفتاة ، عن الوفد ، عن الحزب الوطني ، عن الناصرية . وظللت أنا ألاحق نفسي وتنشر الأبحاث في كتب... ويحيلها راتمان إلى مساعديه ليعلقوا عليها وينتقدوها... وأتعلم... أتعلم... أتعلم ، وأكتب ... أكتب... أكتب كي أصبح مؤهلاً لأسجل دكتوراه العلوم عن «الحركة الماركسية في مصر عبر القرن العشرين ، كيف أثرت في مصر ، وكيف تأثرت بمصر» .

* * *

وعبر زيارات لا يمكن تعدادها لألمانيا الديمقراطية ، امتلكت علاقات وصداقات حميمة ، وحباً جارفاً لهذا البلد ، كان يتجمل أمام عيني كل يوم ، وكنت أكتشفت في كل زيارة أنه يزداد جمالاً... المباني التي هدمتها الحرب تحل محلها تشكيلات رائعة من مبان تشبه إبداعات الفن التشكيلي... والمعاهد العلمية تتقدم بصورة مذهلة .

والأسعار رخيصة إلى درجة الاستفزاز .

أذكر ذات يوم وكنت في ليبزج أن زارني أستاذ جامعي ومعه مسئول أمني . قال المسئول الأمني لدينا وفد من الحركة التعاونية الزراعية في بلدكم... أربعون فلاحاً ، فجأة بدأوا جمعياً في شراء أمواس الحلاقة بكميات كبيرة ومثيرة للدهشة والتشكيك (كان موس الحلاقة الذي يستخدمه الحلاقون يباع في مصر بحوالي ثلاثين جنيهاً ، بينما هو هنا بماركين (الدولار في السوق السوداء التي يتعامل بها المصريون كان يساوي ١٣ ماركاً ويساوي في مصر ثمانين قرشاً) اكتشف الفلاحون الفارق المذهل واشتروا كل ما تمتلك ليبزج من أمواس حلاقة .

شرحت الأمر ببساطة لرجل الأمن . قال : هذه مسألة سهلة . لقد خشينا أنهم يجمعون أسلحة لمعركة سيخوضونها فيما بينهم ، أو ضد بعض الألمان .

* * *

الإيجابي هنا يبهرك ويمنحك حصانة ضد كل ما هو سلبي .

كنت أقيم دوماً في فندق صغير خاص بضيوف الجامعة من الأساتذة اسمه «بيت العلماء» ، ذات يوم قالت مديرة البيت : لي أمنية واحدة قبل أن أموت ، أن أسافر إلى الخارج . قالتها بحذر خائف ، وتوسلت ألا أنقل حلمها لأحد .

حتى هذا لم يؤثر فيَّ . كيف تصبح الرغبة في مغادرة الجنة حلماً .

... عدة سنوات ، وفي زيارة تقترب من موعد دفاعي عن دكتوراه العلوم... تأملت ما تحت قدمي... الثلج أسود... أو هو بالدقة رمادي .

سألت مرافقي ، قال بقرف : إنهم يلوثون البيئة .

وأيضاً لم أهتم .

« وعين الرضا عن كل عيب كليلة » .

* * *

تمكنت صداقة حميمة مع كثير من الرفاق الألمان ، ومنهم دبلوماسيون في سفارتهم في القاهرة ، فقد كان الكثيرون منهم دارسين في معهد الدراسات الشرقية .

وذات يوم ـ وعلى غير موعد ـ دق بابي في منشية البكري الرفيق بورنمان السكرتير الأول في السفارة ، ومسئول العلاقة مع الاتحاد الاشتراكي .

كان يلهث من الارتباك الممتع . قبل أن يجلس أو أن يلتقط أنفاسه قال : لدي مسألة مهمة ، خبر مذهل . أنا قادم من عند شعراوي جمعة (كان وزير الداخلية ، مسئول التنظيم الطليعي ، وكان يبدي صداقة حميمة للألمان الذين يقدمون له خبرات وتكنولوجيا أمنية)... هناك تعديل وزاري قريب جداً ، استدعاني ، وطلب مني أن أقدم له أسماء مرشحين من أصدقائنا ليتولوا مناصب وزارية ، السفير طلب مني أن آتي لأتشاور معك في الأسماء .

انفلت قلبي هلعاً ، فلقد نظرت للأمر من زاوية مختلفة . قلت هل تعرف المثل الشعبي « علمناهم الشحاتة سبقونا على الأبواب » أنهكت نفسي في البحث عن ترجمة انجليزية لائقة وقلت : أنتم قدمتم للمصريين خبراتكم في إتقان فنون التجسس ، وها هم يستخدمونها ضدكم ، هرب الأحمر من وجهه ، واحتل الأصفر كامل المساحة . وقال : ماذا تقصد ؟ قلت : أليس من المحتمل أن يكون قد راقبك ليعرف مع من ستتشاور ؟

نسي بورنمان ما كان قد جاء من أجله ، وانفلت معتذراً ، ومتعثراً .

وفي الصباح أتى إلى مكتبي راجياً ألا أنقل أي شيء مما كان لأي أحد... فالعقاب عندهم على مثل هذه الأخطاء شديد .

* * *

والفارق بين هذه البرلين ، والأخرى فواصل غير مرئية ، لكنها صارمة ، حاسمة ، حازمة .

فالسور يبدو مجرد حائط بسيط ، والمعابر هي مجرد فواصل خشبية تقطع شارعاً بالعرض . والمتطلع في أماكن عدة ، من بوابة جراندنبرج ، وغيرها يمكنه أن يرى العالم الآخر بهدوء وبساطة ، بل ويمكنه أن يطالع نشرات الأخبار الضوئية التي تمر أمام الأعين بكلماتها المتتابعة فوق واجهات المباني... هناك ، حيث برلين الغربية .

لكن هذه البساطة تخفي نظاماً صارماً... لا بد أن تمر عبره كي تعرفه .

أخي سعيد المقيم في ألمانيا الغربية تواعد معي أن نلتقي في برلين الغربية ، صاح عبر التليفون وأنا في القاهرة «أهي فرصة تشوف الدنيا»... صدم «الرفيق جلودة» أحد مسئولي قسم الشرق الأوسط في وزارة الخارجية عندما أبلغته أنني أريد أن أعبر إلى... الضفة الأخرى . تلقى الطعنة صامتاً ، شرحت له كيف أن أخي يرفض أن يعبر . ومن ثم فلكي أراه يجب أن أعبر أنا . في اليوم التالي أبدى الموافقة ، وفي الموعد المرتقب اصطحبني بالسيارة إلى درج خشبي لا يعلو عن الأرض سوى درجتين أو ثلاث ، «تفضل» قالها مشيراً إلى الدرج ، قلت : «وأنت» ، قال : هذه حدودي وليس مسموحاً لي بأكثر من ذلك .

تمهلت فوق الدرج لأوكد عليه ـ وهو يحرص على الحفاظ على مسافة متباعدة ـ سأعود في الخامسة بالضبط . قال : «سأكون هنا» .

مررت بلا ممانعة (قيل لي إن عشرات الكاميرات المثبتة تراقب حتى الأنفاس التي تعبر) ، جندي «ألماني شرقي» لمح الباسبور دون حتى أن يفحصه ، وأشار لي بالمرور بأصبع مترفعة ، ومشيت عبر الممر الخشبي بضعة أمتار لأجد درجاً هبطت لأجد نفسي في الشارع وسعيد واقف في انتظاري . لا أحد من «الغربية» يسألك من أنت ، ربما عن عمد (وبالطبع هناك أيضاً غير المرئي الذي يُحصي الأنفاس) .

قضيت مع سعيد يوماً سعيداً ، حاول دون جدوى أن يلفت أنظاري إلى ما قد يُغري أو يُبهر في «هذه الغربية» دونما فائدة . عيناي العنيدتان ، ثبتتا النظرات على أسعار الطعام ، وعمليات القسمة والضرب تجري سريعاً لتلقنني أن الأسعار «هنا» أضعاف أضعاف الأسعار هناك .

إذن... هناك هو الأفضل .

وآذن اليوم بالانتهاء ، وأوصلني إلى ذات الدرج .

أدهشني طابور صامت هادىء ممتد بلا نهاية ، وهو أيضاً لا يتحرك ، وأصوات أغلبها بلهجة فلسطينية تشكو من هذا العذاب اليومي . ودعت سعيد زاعماً أن ترتيباً خاصاً سيمرق بي عبر هذا الطابور المضني ، وهو على أية حال كان على موعد مع طائرته ليطير إلى دوسلدورف .

سريعاً عرفت الحكاية . ما دمت غريباً أخرج كما تشاء وبلا ممانعة . أما الدخول فشيء آخر . والطابور في أغلبه ، إن لم يكن كله ، عرب (فلسطينيون في الأغلب) وأتراك . يحترفون مهنة غريبة . يعيشون في الشرقية حيث كل شيء رخيص إلى درجة الجنون . وفي الصباح يعبرون . يشترون أشياء محددة ، يسهل إخفاؤها . بلوفر غربي الصناعة ، يلبسه فوق

القميص حتى ولو كان الوقت صيفاً ، عدة كولونات في جيبه ، زجاجة بارفام ، قلم روج... المهم ألا تحمل شيئاً في يديك يغري بالتفتيش أو المساءلة والحصيلة عشرة ماركات غربية أو عشرون تكفي كي تعيش مترفاً في الشرقية . وحراس المعبر يعرفون الوجوه ، تمر عليهم كل يوم ، ويعرفون أنهم مساكين يتعيشون من رحلة العبور اليومي ، ويتعاملون معهم بالاحتقار الكافي . استمر الطابور بلا حراك ، خطر ببالي أن أتجاوز الطابور فلعل « جلودة » هناك فينقذني . لم يمانع أحد ، تجاوزت الجميع لأصل إلى الشباك... الأول في الطابور فلسطيني ، وسيارة جلودة تحافظ على مسافتها المقررة بحيث لا يمكن أن أستعين به (قال لي بعدها : حتى لو رأيتك ما كنت لأستطيع أن أخطو هذه الخطوات لآتي إليك)... الجندي الألماني يجلس في برود مضاعف .

يتناول طعامه ، عامود الطعام أمامه على المكتب ، هو الآن لم يزل يشرب الشوربة ، ويشربها بهدوء متلذذ مستمر - ربما - ليس من الطعم ، وإنما من سيطرته الهادئة والصارمة على هذا الطابور .

خطر في بالي أنه قد يستمر ساعة ، قال الفلسطيني : ربما أكثر . وأنا أتأفف مددت يدي إلى جيبي لأجد هناك « مصباح علاء الدين »... « كارت » الإقامة في فندق اللجنة المركزية للحزب .

يسمح بدخول الفندق لمن يحمله فقط . حذروني أكثر من مرة من أن أفقده... وأكدوا أهميته كرمز لأهمية حامله . قلت للفلسطيني وقد اشتعل غيظي : هل تعرف الألمانية ؟ قال : نعم . قلت ترجم كلماتي ولا تخف... إنسبها لي أنا . بتردد شديد قبل . وأخيراً استطعت أن أروع هذا الجندي .

قلت أو قال الفلسطيني نيابة عني : ليس من حقك أن تعطل كل هؤلاء كي تتناول طعامك ، بل ليس من حقك أصلاً أن تتناول طعامك ، أنت الآن في

وقت العمل . قالها الفلسطيني مرتجفاً وهو يؤكد بالقول والإشارة إنها كلماتي أنا... انتفض الجندي وتقدم نحوي ليعاقبني ، لكني عاجلته بالضربة القاضية «أنا مستعجل ، رفاق من الجنة المركزية ينتظرونني في هذا المكان» ، وقدمت له كارت الفندق . انكمش المسكين لم ينظر حتى إلى الباسبور... لأنني أكملت فأجهزت عليه... هناك سيارة تنتظرني منذ مدة . فتح الباب ونظر ليلمح السيارة السوداء واقفة في وقار ، وازداد ارتجافاً... تفضل ، وتوسل للفلسطيني أن يتوسل إليّ ألا أشكوه . وعدته ، لكنني تذكرت الفلسطيني الذي ساعدني فقلت هذا صديقي هل تسمح له بالمرور ، ترجمها الفلسطيني سريعة وحاسمة... والجندي ينطق فقط من فرط الارتباك «تفضل... تفضل» مررنا ، ولمحناه عبر الباب نصف المغلق ، يعود فيجلس ، يضع الفوطة على صدره ، ليكمل العشاء .

* * *

لكنه لا حيلة لعاشق في عشقه .

فلقد عشقت ألمانيا الديمقراطية... وتعلقت أبصاري بما تحقق من تقدم مذهل ، ثم كان المؤتمر الأخير للحزب ، ولبيت الدعوة ، وازداد انبهاري... العالم الرأسمالي يعاني بطالة ، هنا لا بطالة ، المشكلة أننا نريد قوى عاملة أكثر . ونحلها عن طريق الأتمتة ، الروبوت في كل شيء لنوفر الراحة والسعادة والإنتاج الوفير معاً . إنجازات هائلة في كل مجالات الصناعة... الإسكان... التعليم... الخ .

هكذا أكد التقرير المقدم للمؤتمر . استخدام الروبوت حتى في الزراعة . التكنولوجيا هي شعار المرحلة... أرقام مذهلة... وفي ختام المؤتمر قفز إلى مكان المنصة العديد من الأطفال... لعبوا ببراءة وشقاوة وهم يغنون :

لدينا مسكن مريح ، مدرسة جميلة ، طبيبة ترعانا ، طعام وفير... نحتاج أن نلعب أكثر... أكثر... أكثر هكذا ، ويلعبون يقفزون في مرح وتلقائية مذهلة وانسابت دموعي من التأثر . ولم أكن وحدي الذي فعل ذلك .

* * *

وحتى عندما بدأ الانهيار الكبير ، وتوالت انكسارات الأنظمة الاشتراكية «أصررت على أن نظاماً ما سينجو ، سيفلت من هذا الزلزال ، راهنت نفسي ، وغيري...»

وخسرت الرهان بأسرع مما تصورت .

وجهاً لوجه... مع السادات

... وإذا كانت المرارة المريرة للهزيمة تغلف كامل الحياة ، وتتجاوز حاسة التذوق لتغمر كل الحواس . كان لا بد من فعل شيء ، أو بالدقة أشياء .

وكان من بين المهمات الأساس التي ألقاها المجلس المصري للسلام على عاتقه ، محاولة لفت انتباه الرأي العام العالمي أو في الأقل قطاعات منه إلى عدالة الحق العربي .

كانت اسرائيل بمالها من تواصل متواصل مع القوى الفاعلة في ضخ الموج الإعلامي ، وخاصة في أمريكا وأوروبا قد زينت للكثيرين مما فعلت . وكسبت تأييدهم حتى لاحتلالها للأراضي العربية .

وكانت زياراتنا لأوروبا ، أو مقابلاتنا للوفود الآتية منها تكتسي بحزن مندهش ، أو بدهشة حزينة ، إذ نجد الذين يعادون العدوان حيثما وقع... يناصرون... أو يصمتون إزاء العدوان الإسرائيلي .

وكان لا بد من جهد لتحريك هذه المواقف باتجاه بعض من التعاطف... مع القضية العربية .

وبمبادرة من المجلس المصري للسلام الذي ربما كان في ذلك الحين

الأكثر فاعلية في مجال القوى غير الحكومية تشكلت «اللجنة الدولية لنصرة الشعوب العربية» برئاسة السياسي الهندي المخضرم كريشنا مينون .

وقررت هذه اللجنة ، أو بالدقة اقترحت الدعوة لعقد مؤتمر عالمي واسع لنصرة الشعوب العربية ، وإذ اقتنع عبد الناصر بالفكرة ، دارت الماكينة المصرية كلها من أجل التنفيذ ، وكلف بذلك المجلس المصري للسلام .

ولم يكن الأمر سهلاً ، حتى مع دعم كامل للماكينة الرسمية ، فلم تكن الخبرة متوافرة ، ولم تكن الحماسة العالمية متوجهة إلى الوجهة العربية .

على أية حال وجدت نفسي فجأة أجابه البحث عن المفاتيح العملية لعقد هذا المؤتمر الضخم الذي تقرر أن يدعى إليه أكثر من ألف شخص من مختلف أنحاء العالم . (وهو أمر غير مسبوق بالنسبة لمصر كلها) .

ومنذ اللحظة الأولى اكتشفت الفارق بين أن تكون ضيفاً على مؤتمر ، وبين أن تستضيف أنت مؤتمراً .

وحضر إلى القاهرة لمعاونتي فاروج سلاطيان (سوري أرمني) عاش خبرة العمل في المؤتمرات العالمية للمجلس العالمي للسلام سنوات عديدة .

التهب الضوء الأخضر متجهاً من عند الرئيس إلى كل اتجاه ، ودارت الماكينة لتكتشف كم هي مفعمة بالكفاءة : إذ تدور . ومنذ الوهلة الأولى أحسست بلهيب الضوء الأخضر . وفي جميع الاتجاهات .

كانت مكاتب المجلس المصري للسلام تجلس القرفصاء في الدور التاسع لمبنى الاتحاد الاشتراكي بكورنيش النيل... وظلت جلسة القرفصاء مفروضة ، فلم يسمح لنا رغم الإلحاح بغرف إضافية رغم توسع العمل . وفور تنمس المسئولين لرحيق الضوء الأخضر ، انهمر علينا فيض الاهتمام... صعد المسئولون كبارهم وصغارهم إلى الدور التاسع ، أخليت غرف قيل باستحالة إخلائها ، وفاضت الغرف عن فيض حاجتنا ، وانسكبت نحونا كل

الاحتياجات... وحتى تلك التي لم نكن بحاجة إليها ، أو نحلم بإمكان الحاجة إليها ، آلات كاتبة ، آلات طباعة ، فنيين ، مساعدين ، مترجمين ، حتى الأثاث استبدل بآخر والستائر الفاخرة زينت الجدران... ولم ينسوا في غمرة النفاق المنهمر... بساط أحمر يمتد من فوهة الأسانسير حتى مدخل غرفة خالد محيي الدين .

وفي ذات الصباح ، فتح باب غرفتي بغتة ، مسئول كبير في المبنى ومعه شخصان شاب رأيته من قبل ، ولكنني عجزت عن تذكر كيف ؟ ولا متى تصافحت ملامحنا ؟ وساع من المبنى يحمل حقيبة ثقيلة .

الشاب قدم نفسه سريعاً لأتذكره سريعاً (التقينا مرة أو مرات وأنا أعمل في أخبار اليوم) محمد السعيد سكرتير السيد سامي شرف . وقال : بناءً على أوامر السيد الرئيس أحضرت لك ميزانية المؤتمر . وضع الساعي الحقيبة على مكتبي . ونطق محمد السعيد : ربع مليون جنيه ، اتفضل عد ، واستلم . والمطلوب أن تقدم لنا تسوية في نهاية المؤتمر . وقال : بطاقات السفر كلفت مصر للطيران بتدبيرها وفق طلباتكم . كان يتكلم ويداه تفتحان الحقيبة . النقود مستقرة في وقار لتملأ فراغها ، وفيما يحاول إخراجها وقفت مفزوعاً وقلت : إن أحد شروط قيامي بهذه المهمة هو ألا ألمس مليماً واحداً بيدي .

وعقب مجادلات حاول أن يبدو فيها آمراً وصارماً رغم أنه مجرد سكرتير السكرتير ، اتفقنا (وبعد أن تشاور تليفونياً مع «أفندم» ما) على أن يودع المبلغ بكامله في خزانة الاتحاد الاشتراكي ، ويتم الصرف منه بموجب أوراق موقعة مني متجهة إلى منافذ صرف محددة .

لكن الأمر لم يكن بهذه السهولة ، فسكرتير السكرتير رغم لهجته الآمرة وملامحه المترفعة كان بحاجة إلى استئذان . وأخيراً تنهدنا... جاءت

الموافقة . وعاد الساعي حاملاً حمله الثقيل . وانزاح عني كابوس التصرف فيما لا أمتلك .

ودارت الماكينة... وأسهم فاروج إسهاماً جاداً في دورانها بالهارموني الصحيح... الدعوات وجهت لألف وأكثر من أهم الشخصيات السياسية والاجتماعية وأساتذة القانون الدولي في العالم . برقيات الدعوة غمرت كل مساحة متاحة في هذا الكوكب... استراليا... الهند... اليابان... أفريقيا... أمريكا... شمالها وجنوبها... أوروبا . وتراكمت أمام أنفاسنا المندهشة موافقات من الكثيرين ، ومن بينها شخصيات عالمية المساحة والمكانة . السيدة باندرانيكة ، انديرا غاندي ، جاك بيرك ، مكسيم رودنسون ، كريشنا مينون ، ولا جدوى من محاولات التذكر ، يكفي أن نقرر أن مئات الأسماء كان كل منها يعني شيئاً في بلده وفي العالم . وكانت وزارة الخارجية ومكتب الرئيس إذ يتابعان أولاً بأول فيض الموافقات يبديان اهتماماً مندهشاً .

اقترب يناير لنوشك أن نكون جاهزين... جداول استقبال الوفود بالمطار أُعدّت ، تقرر فتح صالة كبار الزوار بشكل دائم لتستقبل الجميع ، وتولى صبري القاضي مسئولية الاستقبال في المطار بما فرض عليه إقامة شبه دائمة هناك لعدة أيام . فندق النيل حجز بأكمله . أمواج من السيارات خصصت . أفواج المرافقين أوفدتهم منظمة الشباب وهيئة الاستعلامات... إقتربت ساعة الصفر ونحن مستعدون . ومن فرط إستعدادنا كنا نزداد خوفاً وتوتراً . كنت أجلس مع فاروج لأراجع معه مرة وثانية... وعاشرة شعيرات التفاصيل حتى الصغيرة جداً ، وحتى المملة جداً . كان يتململ باطمئنان ، وأنا ألح من خوف . إنه فارق الخبرة بين الهاوي المبتدىء والمحترف المتمرس .

ومن بين شعيرات التفاصيل كان إعداد بطاقة الدعوة التي ستوجه إلى كبار المسئولين والسفراء ورجال الإعلام لحضور حفل الافتتاح الذي سيلقي فيه الرئيس عبد الناصر خطاباً .

ببساطة من يحاول أن يبدو متمرساً أمسكت بورقة وكتبت صيغة بسيطة جداً... مختصرة جداً .

« يتشرف خالد محيي الدين سكرتير اللجنة الدولية لنصر الشعوب العربية بدعوة السيد .... لحضور .... »

وكان البعض يتربص بهذه الصيغة . فما أن أرسلتها إلى المسئولين في الاتحاد الاشتراكي لطباعتها وتوزيعها على قائمة أرسلتها إليهم ، حتى سرت شحنات كهرباء متوترة ، أكثر توتراً من أية لحظة مرت بنا طوال مرحلة الإعداد للمؤتمر .

رنين حازم للتليفون . المتحدث هادىء . بطيء الكلمات . الأستاذ عبد السلام الزيات . مدير مكتب السيد أنور السادات (نائب رئيس الجمهورية ـ وكان قد كلف من قبل الرئيس برئاسة جلسات المؤتمر)... تراخت الكلمات الواحدة إلى جوار الأخرى في هدوء محاذر وماكر . « أظن أنه من الأفضل أن توجه الدعوة باسم السيد النائب » وببساطة من لا يعرف ما خلف هدوء الكلمات قلت... « إن المؤتمر شعبي ، غير حكومي ، وإن كثيراً من الوفود ألح بل واشترط شعبية المؤتمر ، وابتعاده ولو شكلياً عن الصبغة الحكومية... ومن ثم فإن توجيه الدعوة باسم نائب رئيس الجمهورية قد يغضب البعض ويشعرهم أننا استدرجناهم إلى فخ حكومي... » .

لم يتركني كي أكمل حججي . كلماته ازدادت حسماً وتحول الهدوء إلى آمر هادىء « سيبك من هذه الشكليات . السيد النائب يرى ضرورة أن توجه الدعوة باسمه . فهو رئيس المؤتمر » ورفضت .

سأل عن خالد محيي الدين وكان خارج البلاد في جولة نهائية لدعوة الشخصيات الأوروبية الأكثر أهمية... وبعد دقيقة من إنهاء المكالمة وجدته في غرفتي ومعه أحمد الخواجة ، وكان أحد أبرز قيادات مجلس السلام . وربما لأن صداقة حميمة تجمعنا ، كان الزيات حصيفاً ورقيقاً ، والخواجة يحاول أن يضفي ضحكات على مناخ النقاش . لكننا لم نتفق . وعندما جف رحيق الكلمات بادرني الزيات وبذات الهدوء «خلاص ، هناك قرار نهائي بأن توجه الدعوة باسم السيد النائب . وتصرف على هذا الأساس» .

كنت بالفعل مشفقاً من أن يكتسي المؤتمر بهذه الدعوة طابعاً حكومياً . في البدء لم يكن في الأمر أي عناد . ولكن... إستدعى عنادهم عنادي ، وربما أسهم أيضاً تراكم الإرهاق المتوتر... وانتفضت قائلاً : حسناً ، نفذوا أنتم القرار . قاطعني قبل أن أكمل : حسناً سنطبع نحن بطاقة الدعوة . إترك لنا هذا الأمر . ووجدتني أقول : أنا سأترك لكم المؤتمر كله ، وتصرفوا أنتم . ألقيت أمامهم مفاتيح الدواليب والملفات والدعوات... وأوراق المؤتمر وخرجت مسرعاً . خلفي كان فاروج ، فقد كان مشفقاً على مصير المؤتمر لو إكتسى طابعاً حكومياً . خلفنا قفز أحمد الخواجة ، كانت همساته مشفقة وصديقة وصادقة... لا تضع نفسك في موقف العداء الشخصي للنائب . وهو مصمم . وزاد غضبه عندما قالوا له رفعت مش راضي . ثار قائلاً : مين رفعت ده ؟ أنا قررت ولازم قراري يتنفذ .

وقبل أن أجد الكلمات قال : انتظر قليلاً في مكتبك ، سأحاول إقناعه ، وأعود إليك ، جلست . هدأت . فكرت . ووجدت حلاً وسطاً ، لكنني قررت الإبقاء عليه كمحاولة أخيرة .

رنين التليفون أكثر حزماً .

أنا فوزي عبد الحافظ... إتفضل السيد النائب عايزك .

كان مكتبه في ذات المبنى . أدخلني فوزي عبد الحافظ فوراً إلى السادات . كان وحده . ولعله تعمد ذلك . ما أن دخلت حتى صاح في غضب ممتزج بمودة علنية «إيه يا ابني عامل مشكلة ليه ؟ إنت ناسي إن خالد أخويا وحبيبي وهو لو كان هنا كان لا يمكن يرفض طلبي ، ثم إن دي رغبة سيادة الرئيس» .

حاولت أن أشرح وجهة نظري ، تململ في مودة أيضاً وقال : «يا واد اسمع الكلام علشان خاطري ، وعلشان خاطر صداقتي بأبو الخلد» لاحظ أن ملامحي لم ترتح إلى «ياواد» فقال كفلاح عريق : بلاش يا سيدي... يا دكتور (فتح الدال) وابتسم وابتسمت . ولمحت عيناه في ذكاء لم أكن أتوقعه أنني أمتلك حلاً... فزادت جرعة المودة الحازمة وهو يقول : اشرب ليمون واهدأ وفكر .

تلفت باحثاً عن ورقة وقلم ناولني قلماً من جيبه وورقة . كنت قد تشاورت مع فاروج حول مخرج لا يجرح أحداً ، ولا يضفي على المؤتمر صبغة حكومية .

أمسكت بالقلم الذهبي وكتبت بسرعة متعمدة لأوحي أن الحل جاهز .

«برئاسة السيد محمد أنور السادات نائب رئيس الجمهورية ، تنعقد جلسات المؤتمر العالمي لنصرة الشعوب العربية ، وذلك في تمام الساعة... نتشرف بدعوة سيادتكم للحضور...» وفي أسفل البطاقة توقيع خالد محيي الدين سكرتير اللجنة الدولية لنصرة الشعوب العربية ، وأضفت إلى الاقتراح مسحة ماكرة لقننى إياها فاروج سلاطيان ، ونحن نعد المشروع : أن اكتب اسم السادات بحروف كبيرة جداً... واسم خالد محيي الدين بحروف صغيرة .

كان البايب قد استقر مشتعلاً بين أسنانه . أمسك بالورقة ، ألقى نظرة متعجلة . استرخت ملامحه مرتاحة وقّع على الورقة تحت كلمة تطبع وتوزع .

وقال : تمام كده ، أمال يا دكتور (بفتح الدال أيضاً) دووختنا ليه ؟ حاولت أن أشرح الفارق بين ما كان مطلوباً وما كتبت . لم يكن مستعداً لأن يخوض في تفاصيل مرهقة ، لقد حقق هدفه ، أو خيل إليه ذلك ، واكتفى .

قال بمودة مبتسمة : اشرب الليمون . وفيما اشرب قال : أنا معاكم في المؤتمر على طول ، وكن على اتصال بي دوماً ، لأبلغك أولاً بأول تعليمات سيادة الرئيس . وأضاف : سيادة الرئيس مهتم جداً بالمؤتمر .

وأعطى تعليماته : يا فوزي الدكتور (بفتح الدال كذلك) يدخل في أي وقت . شد على يدي في مودة ، وانصرفت .

* * *

توالى توافد الوفود .

أحد الوفود العربية كان يمثل واحدة من أعقد مشكلات المؤتمر .

منذ أن تلقوا الدعوة أبلغونا أنهم حاضرون ، ولكنهم سيعارضون وبشدة قرار مجلس الأمن ٢٤٢ . (كان قرار ٢٤٢ يمثل نقطة خلاف حادة...) وصل الوفد برئاسة وزير الخارجية ، ومعه مساعد أنيق بقدر ما هو متوتر وحاد . قبل أن نشرب القهوة في صالة كبار الزوار كان المساعد يهددني : سننسحب إذا كان الهدف تمرير القرار ٢٤٢ . (كانت مصر تؤيد القرار على مضض . لكنها على أية حال ترفض أي رفض له ، فرفضه يعني إغلاق السبل ، ويعني إستبعاد كامل الدعم الغربي لموقفنا . وهو بالنسبة لنا يعني فشل المؤتمر ، فكل الوفودالأجنبية سوف تتمسك بهذا القرار الذي كان في ذلك الحين يمثل بالنسبة للكثيرين الحد الفاصل بين الاتجاه نحو السلام أو الحرب) .

الوزير كان أكثر هدوءاً . طلب في وقار أن يلتقي السيد النائب .

اصطحبته وأنا أتوقع تصادماً . فالسادات كان قد عقد اجتماعاً صباح ذات اليوم مع الوفد المصري مؤكداً إصرار الرئيس عبد الناصر ضرورة التمسك بالقرار٢٤٢ كحل .

حاولت أن أترك النائب والوزير لمباحثات خاصة لكن السادات صمم «اقعد يا دكتور» (هذه المرة نطقها صحيحة) وجلست . الوزير كان واضحاً . سياسة بلده ترفض بحسم ٢٤٢ وهم يؤملون ألا يكون المؤتمر في الاتجاه المعاكس حتى لا يسبب هذا حرجاً لوفدها . السادات أدهشني . أنزل البايب من بين أسنانه وقال بجدية مصطنعة لكنها غمرتني بالاندهاش ، قال : «نحن لا نتمسك بالقرار ٢٤٢ ، ولن نتمسك به» ، ثم قال : «فقط الشيوعيون هم الذين يتمسكون به . والتعليمات واضحة عند وفدنا» كانت عيناه مسلطتان علي ، ولم أفهم ماذا كانتا تقولان ، فقد فوجئت بهذا الموقف المتقلب . وحتى ولو كانت عيناه تقولان نفذ ما قلناه في الصباح . . لما قبلت .

المهم انعقدت لجنة صياغة مشروع البيان الختامي... أوروبيون... أمريكيون... أفارقة... هنود... والوزير العربي ثم مصر يمثلها اثنان : الأنبا صموئيل (قتل مع السادات في حادث المنصة) وأنا .

في البداية طرح أحدهم نصاً يوافق على القرار ٢٤٢ فرد الوزير بحسم : «لقد تفاهمت مع نائب الرئيس المصري على تجنب هذا الموضوع» . ولم أستطع الاعتراض . حدث الأمر كله أمامي . واكتفيت بالصمت . الآخرون سادهم حرج شديد ، وصمتوا أيضاً فإذا كان البلد المضيف قد تراجع عن موقفه فما قيمة الإلحاح ؟ همس الأنبا صموئيل في أذني يذكرني بتحذيرات السادات في جلسة الصباح... لم أجب وكأنني لم أسمع . ومر مشروع البيان متشدداً ، وخالياً من أية إشارة للقرار ٢٤٢ .

تركت نسخة من مشروع البيان لدى فوزي عبد الحافظ ، وتوجهت إلى الفندق لأواصل حملة الاتصالات بالوفود وقبل أن أندفع نحو الأسانسير كان هناك من يندفع نحوي ، فالسيد النائب يريدني .

كان هائجاً ، صاخباً وخائفاً . فهذا الأمر حساس جداً بالنسبة للسيد الرئيس ، وكانت تعليماته بشأنه واضحة . صرخ «يا ابني مش إحنا اتفقنا في الصباح ، وأبلغتكم بأوامر الرئيس عن القرار ٢٤٢ ؟» ، قلت : «أنا سمعت سيادتك وأنت تؤكد للوزير موقفاً معاكساً»... فقال بابتسامة يائسة «يا عبيط . لازم تتعلم تفهمني علشان نعرف نشتغل مع بعض ، ده اسمه فك مجالس... أنت تضرب وأنا ألاقي... فهمت... ؟» ، ولم ينتظر إجابة تعثرت بالضرورة وقال : «روح إجمع لجنة الصياغة واتصرف...» .

ودعوت لجنة الصياغة إلى اجتماع عاجل... جلسوا في دهشة لكنني أسرعت بأن سكبت عليهم مزيداً من الدهشة ، فقد فاجأت الجميع بعبارة غريبة ومباغتة ، أربكتهم جميعاً... «أسف إذ أعلن لكم أن الوفد المصري سوف ينسحب من المؤتمر . المؤتمر سينعقد ، أنتم ضيوفنا ، خذوا ما شئتم من قرارات لكن وفدنا لن يحضر» . تجمدت الدهشة على الملامح ، توقفت العيون حتى عن التعبير . فلم يحدث أن انسحب الوفد المضيف عن أي مؤتمر .

سأل البروفيسور مكسيم رودنسون عن السبب . قلت بهدوء : الوفد المصري لن يستطيع الاستمرار ، إذا إستمر رفض القرار ٢٤٢ في مشروع البيان الختامي ، فهذا ضد جوهر السياسة الرسمية .

الوجوه جميعاً غمرتها حالة من الانتشاء والقبول بقدر ما أصيب الوزير بغضب صامت . حاول المقاومة أو الاعتراض ، أو التمسك بالنص . لكن الموقف المصري سمح للجميع أن يتدافعوا للتمسك بالقرار ٢٤٢ .

ومرّ المشروع الجديد كما أردنا .

لكن الوزير لم يكف طوال المؤتمر عن النظر نحوي شذرا . أما السادات فقد ضحك طويلاً عندما حكيت له الموضوع .

* * *

لكن المشكلات مع هذا الوفد تواصلت .

كنا قد أقمنا مركزاً للترجمة والطباعة في القاعة السفلية بمقر الاتحاد الاشتراكي (حيث يعقد المؤتمر) ويتولى الأستاذ فوزي حمزة مسؤولية المركز . وتحسباً لأية مشكلات قررنا ألا نطبع سوى الأوراق الجماعية : القرارات . تقارير اللجان . المقترحات الجماعية . وقررنا وبشكل واضح ألا تطبع أية ورقة ما لم أوقع عليها بنفسي .

وفي الجلسة العامة أفرغ الوزير كل غضبه ورفضه المتشدد في خطاب مشتعلة كلماته ، وكأنه يلقي به أمام جيش ينطلق نحو الحرب ، وليس أمام مؤتمر ينعقد بأمل البحث عن سلام عادل بعد هزيمة مفعمة بالمرارة . الكلمات ساخنة ، حادة ، رافضة ، وصلت إلى حد اتهام كل من يقبلون ٢٤٢ بالخيانة والعمالة... وكل الألفاظ المثيلة .

ترك الوزير المنصة مزهواً ، وألقى نحوي نظرات متشفية .

بعدها بساعة أو أقل ، إنقض علي صديق عزيز هو الشاعر الفلسطيني الشهير أبو سلمى ، قال إنه سمع من عضو هذا الوفد أن كلمتهم قد طبعت ، وأنها ستوزع حالاً .

اندفعت نحو مركز الطباعة كان العمال منهمكون في تجميع وتدبيس كلمة السيد الوزير ، انتزعت نسخة واتجهت ملتهباً نحو فوزي حمزة ، كان يتحادث في مودة مع شخص لم أنتبه من فرط انفعالي إلى ملامحه . سألت

صارخاً : «مين أمر بطبع الورقة دي ؟» ، قال بهدوء من لا يدرك خطورة الأمر ، ومن لم يقرأ الورقة : «السيد الوزير طلب...» وفيما يحاول تبرير موافقته على الطبع صحت : «الله يخرب بيتك لبيت الوزير» ، صاح الواقف معه «لا تسب وزيرنا» ، كان الموقف يزداد اشتعالاً . صحت . «من سمح للراجل ده أن يدخل هنا ؟» ، كانت التعليمات ألا يدخل أحد من الوفود إلى مركز الطباعة ، سمع أحد الحراس صيحتي قبض على عنق الرجل . لكن الرجل أفلت وهو يصرخ غاضباً ، وأسرع خارجاً . فقط وهو يخرج تعرفت عليه ، إنه سفير هذه الدولة في مصر آنذاك ، وكان شخصية مرموقة ومحبوبة... وكان واحداً من أجمل وألمع السفراء في مصر ، وفوق هذا كان صديقاً لعبد الناصر... لكن ما كان يشغلني هو ماذا سأفعل في عدة آلاف من نسخ خطاب مليء بالسباب ضد الموقف المصري ، وضد الاتجاه العام للمؤتمر .

وفيما أنا منغمس في الحيرة... وفيما فوزي حمزة يحاول تبرير الأمر ، أتى من يستدعيني «السيد النائب عايزك»... دخلت كان الوزير والسفير هناك ، لست أعرف كيف نجح السادات في إمتصاص غضبهما . ما أن دخلت حتى صاح : «إزاي يا دكتور تشتم سيادة الوزير وسيادة السفير ؟» ، وقبل أن أفتح فمي أنقذني من الورطة بطريقته المميزة : «خلاص... خلاص... الموضوع انتهى... نفذ طلبات الإخوان» .

خرج الوزير مزهواً ، وقبل أن أبلغ عتبة الباب ناداني السادات . التفت وقبل أن أعود إليه ، كانت سبابته الشهيرة تستوقفني وتحذرني : «أنت غلط . الورقة طبعت من تحت ذقنك ، وأنت مسئول إنك تمنع توزيع أية نسخة منها ، بس من غير مشاكل» ، أشاح بيده في غضب غير غاضب فعلاً وقال : «اتصرف» .

في مدخل قاعة الاجتماعات كانت نسخ خطاب الوزير متراكمة في تحد ، وكان هو واقفاً إلى جوارها ينتظر خروج الوفود ليوزعها بنفسه .

تأملت الموقف . استدعيت واحدة من المترجمات . كانت تعمل عندنا في مجلس السلام . نادت مدام نفرتيتي بطريقتها المميزة على الوزير وقالت : «لك مكالمة دولية» أسرع الرجل فلعلها فرصة ليزف فيها نبأ انتصاره... هناك في سنترال المقر وبعد مماحكات أبلغوه أن الاتصال قطع .

بعد دقيقة عاد . فوجيء باختفاء أكوام ورقته . سأل . أجابه موظف صلف : اتوزعت . حاول البحث عني... بعد فترة أوصلوه معي بالتليفون... حكى القصة في يأس غاضب ، قال : الأوراق إختفت . قلت : لعل الجماهير تخاطفتها .

وفهم .

اتصلت بالسادات تليفونياً . قلت : «الموضوع اتحل يا أفندم» أصر أن يعرف كيف . حكيت له الحكاية ، ضحك طويلاً وتواصلت ضحكاته وهو يهدر بشتائم بذيئة بحق الوزير .

* * *

وفيما نطوي آخر صفحات المؤتمر . انتهت الجلسات . أعلنت القرارات والوفود تسافر ، أتت مكالمة آمرة من السادات «اسمع . كريشنا مينون مسافر بكرة وعايز يعمل مؤتمر صحفي قبل ما يسافر» ألقيت نظرة على جدول المغادرة ، لاكتشف أنه سيغادر في السادسة صباحاً . قلت : يعمل المؤتمر الصحفي في المساء ، فقال سوف يتعشى مع السيد الرئيس ، قلت : مستحيل أي صحفي يحضر مؤتمر صحفي الساعة خمسة الفجر . قال : يا أخي اتصرف ، ده صديق حميم للرئيس ومش عايزين نزعله . ولم أفهم كيف

أتصرف . لكن السادات كان يمتلك حلولاً بسيطة لمثل هذه المواقف . وقال : يا ابني اجمع أي شبان من المرافقين والحرس وموظفي الفندق . وهو يعني حيراجع بطاقاتهم بس أنت جهز لهم شوية أسئلة وكاميرا .

وبالفعل دخل كريشنا مينون إلى القاعة ليجد عشرات الجالسين كل منهم يمسك قلماً وأوراقاً ، بدأ هو بالكلام كنت خائفاً أن يفلت سؤال خائب أو غير صائب من واحد من الجالسين . لكن الرجل لم يتح مجالاً لأسئلة . تكلم ، وتكلم ، وتكلم ، وتكلم حتى حان موعد الرحيل كانت إنجليزيته الهندية اللكنة تنهمر فوق رؤوس متعبة لعل أغلبها لا يعرف حرفاً من الإنجليزية ، لكن الجميع كانوا يحركون الأقلام فوق الورق بحماس منفعل... همست في أذنه... يجب أن نرحل . أكمل جملة أو جملتين . طوى الشبان أوراقهم بعد أن تظاهروا بالكتابة... فأغلبهم لم يفهم حرفاً مما قيل .

في المطار ألح علي أن أرسل له القصاصات عندما تنشر ، عن طريق سفارة الهند .

أسقط في يدي...لكن السادات طمأنني : ولا يهمك ، هو سينسى الموضوع أول ما يركب الطائرة .

كوبا ... تصفيق منفرد

كانت الرحلة الأولى ، التي يمتطى فيها الفتى الريفي طائرة إلى خارج البلاد .

التوجه إلى استكهولم حيث مؤتمر الدفاع عن شعب فيتنام . والطريق ذهاباً وعودة عبر موسكو .

وفي طريق العودة طلب مني مجلس السلام العالمي أن أسافر ضمن وفده إلى كوبا لحضور مؤتمر حركات التحرر في آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية . رحبت بطبيعة الحال .

تذكرت على الفور تلك العبارة التي افلتت من ميكويان فأصبحت شهيرة . فعندما ذهب إلى كوبا صاح «لو جاء ماركس إلى هنا لما صدق عينيه» فها هي الفرصة... كي أرى أنا أيضاً كوبا ، التي منحت نفسها عطراً ثورياً خاصاً .

كانت الطائرة السوفيتية تقطع رحلتها المهيبة في خطى وقورة تليق بها ، وبتحديها للحصار «الامبريالي» المفروض على الشقيقة المشاكسة ، والقابعة في عناد يشبه الغرور بالقرب من قلب أمريكا النابض بالكراهية .

الأرض تقترب . بعد أن قطعنا المحيط ونحن نسابق الشمس . الأرض ـ يا للدهشة ـ حمراء . التربة هناك تكتسي برداء أحمر وكأنها استعدت منذ الأزل للرحلة الثورية على يدي كاسترو وجيفارا .

كنت طوال الرحلة أفكر ساخراً في مأزق غريب أوقعني فيه خطأ في الترتيب والتدبير .

الوفد مكون من الرفيق زاسوخوف سكرتير لجنة التضامن الأفرو آسيوي السوفيتية ، وهو يتحدث قليلاً جداً من الفرنسية ، والرفيق سكوباريف وهو أستاذ فلسفة بلغاري لا يتكلم سوى لغته وقليلاً من الروسية... وأنا .

ومنحني وجود مترجم روسي مساحة كبيرة من الطمأنينة ، ما لبثت أن تلاشت عندما حاولت الحديث معه بالانجليزية فإذا به مترجم للأسبانية وانفجرنا نحن الأربعة ضاحكين... لكننا ـ ويا للدهشة ـ ظللنا دوماً قادرين على التفاهم المتفهم لبعضنا البعض .

وجدت نفسي فجأة رئيساً للوفد ، لسبب عرفته فيما بعد يكمن في الحساسية المتنامية بين كوبا وبقية دول المنظومة ، وأساساً بينها وبين السوفييت . ولأن مجلس السلام العالمي كان حريصاً لأسباب إعلامية ألا يجعل رؤساء وفوده من دول اشتراكية .

نسيت أن أقول إننا كنا في يوليو ١٩٦٨ .

في مطار كوبا ، ومنذ اللمحة الأولى أحسست بخلل ما ، فالسوفيتي والبلغاري عوملا معاملة غير لائقة ، واضح أنها مقصودة ، أنا وحدي تلقيت اهتماماً مبالغاً فيه ، ربما كي ينمو الفارق في أعين الصديقين اللدودين ، فيبدو واضحاً... وربما لأنني من مصر بلد عبد الناصر .

هافانا الجميلة مزهوة بأعلامها ، وجدراياتها التي تعطر المناخ كله

بروح ثورية ملتهبة تجهد المترجمة السمراء ، التي تتقن الانجليزية إتقاناً مدهشاً ، أن تترجمه إلى كلمات مشربة بالاعتزاز .

السيارة البويك الفارهة (علمت فيما بعد أنها سيارة وزير الزراعة سحبوها منه كي استخدمها أثناء الزيارة) ، كانت تقترب من ساحة فندق «هافانا ليبر» لأكتشف وأنا أنزل منها أن زميلَيَّ محشوران مع مندوبين آخرين في أتوبيس صدىء ومتهالك .

والترتيب المقصود سبقنا إلى الفندق . أنا في «سويت» يتسع لمباراة كرة قدم ، والإثنان محشوران في غرفة صغيرة واحدة تصلح أن تكون علبة سردين صغيرة .

جمعت الوفد . حاولت أن ألعب دور الرئيس . تفاهمنا برشاقة نحسد عليها نحن الثلاثة بعد أن نحينا المترجم المسكين جانباً . كنا نتجول في ردهات الفندق معا بناءً على نصيحة سوفيتية من المترجم المدرب . لنعطي انطباعاً بوحدة الوفد... رغم محاولة التمييز الكوبية ، ورداً عليها .

حاولت أن أعرض عليهم فكرة احتجاج جماعي أتولاه أنا كرئيس للوفد محتجاً على سوء معاملة زميلَيَّ . اعترض زاسوخوف وقال بفرنسية متعثرة «الصبر... الصبر...» بينما يداه تكملان المعاني .

حاولت أن أكسر الترتيب في اليوم الأول . وإذ نغادر الفندق سحبت زميلَيَّ إلى السيارة المخصصة لي فهي تتسع لنا جميعاً . وفيم ارتبكت المترجمة إلى درجة أن تحول فيها الأسمر إلى الأحمر ، انفلت السائق المدرب خارجاً من السيارة .

تحولت الكلمات الأسبانية الغاضبة إلى إنجليزية هادئة على شفة المترجمة... «السيارة مخصصة لك وحدك» ، وحاولت أن أجادل ، لكن الأتوبيس الصدىء كان قد احتوى زميلَيَّ .

ومهما عشت في هافانا فإنه من الصعب أن تكتب عنها . الجمال أخاذ . مناظر ، وطبيعة ، وجداريات ، ونساء كل منها يخطف الأبصار ويحيرها... وعلى كل جدار شعار كان السبب في معظم الصراعات بين كاسترو والسوفيت «فلتكن هناك أكثر من فيتنام واحدة» .

حاول راؤول كاسترو أن يشرح الأمر لي . فالبؤرة الثورية التي تمرست في جبال كوبا نجحت في الاستيلاء على السلطة .

والفيتناميون يدوخون الامبريالية ، فماذا لو كانت هناك أكثر من فيتنام واحدة ؟ الامبريالية حتماً ستركع .

كانت الحجج المضادة جاهزة ومدركة ، فالبؤرة الثورية باغتت الخصم ، والخصم ليس غبياً إلى درجة أن يتركك كي تباغته في كل مرة ، سوف يلاحقك قبل أن تنمو بؤرتك الثورية (هكذا كان الأمر في بوليفيا وراح جيفارا ضحية لهذه الفكرة) .

وفيتنام ظرف خاص ، وإنفاق هائل يحتمله السوفييت على مضض . وجهد دولي يثقل كاهل أصحابه فلا يتيح لهم متعة الإنفاق على حرب مماثلة أخرى .

وفيما نغرق في النقاش أفلتت مني ملاحظة ساخرة على السفن السوفيتية التي تملأ الميناء محملة بكل شيء وبالمجان .

ويبدو أنني بالغت في السخرية ، فصفعني راؤول بسخرية أشد متحدثاً عن معركتنا التي هزمنا فيها بلا مجهود من الخصم ، ونعود لنستنزف السلاح والعتاد والعون من السوفييت . ارتبكت ارتباكاً حزيناً ، شعر بأن اللطمة قاسية احتضنني في مودة ، معتذراً ، وقال لنكن أصدقاء . وصرنا أصدقاء . واعتدنا أن نلتقي طوال إقامتي هناك... (امتدت الإقامة أسبوعاً إضافياً) . فبعد أن غادرنا وودعنا وسلمنا وتبادلنا القبلات ، وأقلعت الطائرة وطارت حوالي

ثماني ساعات وجدنا أنفسنا نعود إلى هافانا . خلل في الطائرة أعادها . وتحتم أن ننتظر اسبوعاً... قضيته في تأمل متأن للتجربة الكوبية خاصة في قدرتها على تعبئة مواطنيها تعبئة حانية ومتحمسة في آن واحد ، وقادرة على أن تواجه بهم كل المخططات الأمريكية المعادية... تجولت كثيراً على كورنيش هافانا ، مئات المواطنين والمواطنات يقضون الوقت في اصطياد السمك ، فقد قررت كوبا أن تدخر اللحم لتصديره ، ودفعت المواطنين كي يصطادوا غذاءهم من البحر في أوقات الفراغ... ومع كل منهم سلاحه . فهم ـ وبالمرة ـ يحرسون شواطئهم من أي تسلل معاد . وكانت التعبئة الجماهيرية فاعلة ومحكمة ، فاستطاعت «لجان الدفاع عن الثورة» ـ وهي لجان شعبية تضم أساساً رجالاً بالمعاش وربات بيوت عجائز ـ أن تحول كوبا إلى عين يقظة ترقب حتى أدق التفاصيل ، وتبحث حتى في أكياس القمامة فتجد ـ أحياناً ـ علبة سجائر أمريكية فارغة بما يوحي بوجود متسلل في هذا المكان... أو تلاحظ حتى ... أن سكان شقة ما يشترون الآن خبزاً أكثر... لديهم إذن ضيف أو جاسوس مختبىء... وهكذا ، ومن التفاصيل الصغيرة وبها استطاع جهاز الأمن الكوبي أن يواجه مؤامرات متلاحقة ـ لم تتوقف ـ وأن يتغلب عليها .

والذكريات عن الرحلة الكوبية عديدة تتزاحم معاً... وليس أمامنا سوى الاختيار .

* * *

كانت مصر تمتلك سفيراً غير مؤهل لهذا الموقع . خاصم الكوبيين بتعليقات لاذعة وغير حصيفة تميل ناحية أمريكا... وتكهرب الجو معه عندما وقف كاسترو فقال خطابه الناري (وكل خطبه نارية) في عيد الثورة الكوبي

«إذا تصور الأعداء أننا سنهزم كما هزمت مصر فهم واهمون» ، والعبارة موجعة ، وقد فسرها لي راؤول فيما بعد... أو بررها بأن هزيمة ١٩٦٧ قد أوجعتهم ، وأوقعتهم في مأزق ، فالأمريكيون الآن أشد وحشية ورغبة في استكمال انتصارهم... هنا في كوبا . وبرغم صعود النموذج الناصري ، واقترابه الحميم من السوفييت وربما بسبب من هذا الصعود (المنافس)... والاقتراب (المنافس أيضاً) كانت العلاقات المصرية ـ الكوبية... حميمة جداً في الظاهر ؛ وباردة جداً في المحتوى .

المهم توترت العلاقات بين سفارة كانت ـ على غير العادة ـ عاجزة عن التلاؤم ، ودولة لا تعرف معنى أن تتنازل كي نتلاءم . وفيما كان مسموحاً لبعض السفراء ـ من الدول الصديقة ـ بحضور المؤتمر ، لم توجه الدعوة إلى سفير مصر . وأسقط في يد السفير ، فالخارجية تشدد في أكثر من رسالة على ضرورة موافاتها بتطورات واتجاهات المؤتمر يوماً بيوم . استدعاني السفير ـ وكان مرتبكاً ـ وجلس هو وأحد معاونيه يوجهون أسئلة تفصيلية عن الاتجاهات في المؤتمر . حاولت جهد طاقتي أن أفسر الخلافات بين المختلفين... فهناك ذوو توجه سوفيتي ، وصيني ، وتروتسكي وجيفاري... وسأل السفير عن الفارق وحاولت أن أجيب ، لكن الأمر ظل غامضاً بل لعله زاد غموضاً ثم قال لمعاونه بملل ظاهر : «اكتب المؤتمر الشيوعي وتسوده اتجاهات شيوعية» ولم أعلق ، فما من تعليق يفيد .

وكان في المؤتمر ممثل مصري لمنظمة التضامن سأرمز إليه بحرف (ك) . كان مترفعاً ومتعالياً ولا ينطق اسمه إلا مسبوقاً بعبارة «وكيل الوزارة» . وتباعدت عنه فما اعتدت أن أتعامل مع من يترفع أو يتعالى ، وتباعد هو أيضاً ترفعاً .

فجأة وعندما لاحظ علاقتي براؤول كاسترو ، وبالبروفيسور كورونا

(كان سكرتير حركة السلام الكوبية ، وعميد كلية الحقوق ، وشخصية كوبية مرموقة) ، بدأ في التقرب المتواضع مني . كان لديه طلب عند الكوبيين ، أتى الجميع بطائرة «تشارتر» روسية وسيعودون كذلك ، هو يريد عودة خاصة عن طريق مدريد ، بما يعني أن يسدد الكوبيون ثمن عودته بالدولار .

أثار الموضوع معي ، وأثاره أيضاً مع «كورونا» ، سألت (ك) بصراحة : لماذا ؟ بعد تمنع أجاب بصراحة مثيرة للقرف إنه يريد أن يشتري «كول» من الفرو لبالطو زوجته شاهد مثله في محل في مدريد .

ودون أن أجيبه بشيء أبلغت كورونا بنصيحتي «لا توافقوا» . وخجلت من أن أحكي لهم السبب .

لكن قصة السيد (ك) لم تنته . وفيما جلسات المؤتمر تغمرنا بالانهماك ، (كانت الجلسات تعقد في الفندق ذاته) ربت على كتفي أحد المنظمين ، وخرجت من قاعة الاجتماع لأجد راؤول كاسترو ومعه شاب يمسح نظارته بمنديل . كان لا يكف أبداً عن مسحها لدرجة أنني تساءلت : «ترى متى يستخدمها» .

أشار راؤول إلى الرجل المنهمك مع نظارته قائلاً : الرفيق مسؤول الأمن في المؤتمر . وبدأ مسؤول الأمن في شرح الموضوع . الفندق بأكمله مخصص للمؤتمر ، غير مسموح لأحد بالدخول إليه . لكن لدينا مؤشرات عن وجود «شخص ما» في الفندق . ربما كان جاسوساً يسجل الجلسات ، أو يدبر لعمل تخريبي ، أو يكتفي حتى بالتقاط صور للوفود (كانت وفود عديدة سرية وتحمل أسماء سرية)... وقال إنهم يبلغون رؤساء الوفود حتى يراقب كل وفد تحركات الغرباء ، ويفتش غرفته جيداً ، ويقدم ما قد يفيد من ملاحظات .

اشتعل فضولي وسألت : كيف عرفتم بوجود شخص غريب ؟ قال وهو يمسح نظارته : «بصراحة لدينا عدة أدوات للكونترول منها إحصاء وجبات الطعام ، بوفيه الإفطار مفتوح ، ولهذا فنحن نحصي وجبات الغداء والعشاء وهما وجبتان تقدمان لكل المقيمين في الفندق ، ودائماً هناك شخص زائد» .

الأمر إذن جد ، وناقشت الأمر مع زميلَيَّ : السوفيتي والبلغاري ، وبدأت أشغل عينيَّ بنظرات حذرة ، لكن حذري لم يدم طويلاً... كانت نظارة الرجل متربعة في إستقرار هادىء على وجهه وهو يتمشى هادئاً ، لم أسأله فأنا أعرف أن مثل هؤلاء الناس يستمعون فقط ولا يجيبون على أية أسئلة . سألت راؤول... انفجر ضاحكاً... وقال : إنه صديقك (ك) . وأفضى إلي بالموضوع الذي أربك الأمن الكوبي أياماً... (ك) قرر أن يعيش كأرستقراطي ففي وجبتي الغداء والعشاء يذهب إلى المطعم الفرنسي أولاً ليشرب شوربة بصل فرنسية وبعضاً من المشهيات الأنيقة ، ثم يذهب إلى مطعم السمك ليكمل بالاستاكوزا والحلو .

تسللت برودة عبر صدري ، وأحسست بأنني أذوب خجلاً ، مرة أخرى احتضنني راؤول قائلاً : «ولا يهمك ، في كل شعب هناك العديد من الحمقى» .

ولم يكن (ك) وحده... كان هناك وفد عربي من شخصين ، أحدهما كان سياسياً كبير المقام ـ أو يتظاهر بذلك ـ لنرمز له بالحرف (ص) .

ومنذ وصولي أحسست بأزمة مكتومة ، فعضوا الوفد لا ينزلان إلى المطعم ، معتصمان بغرفتهما ، ويهددان بعدم حضور المؤتمر ، ويرفضان أي تعامل مع مترجمتهما (ليلى) ، وهي فتاة من أصل لبناني تتكلم العربية برشاقة طليقة .

أبلغني كورونا أن ثمة مشكلة مع الوفد... وأنه يؤمل في أن أسهم في حلها . قال : نحن لا نعرف السبب ، وهما يصممان على عدم الحديث معنا ، ونرجو أن تسألهما أنت .

لفرط سذاجتي قبلت المهمة ، بجدية كاملة اتجهت إلى الأخوين . أناس محترمين أو هذا هو المفترض ، فتحت الموضوع مباشرة ، وأجاب (ص) مباشرة أيضاً قال وبصراحة غبية ومؤلمة إنهُ غاضب لأن مترجمتهما جافة ، عنيدة ، ولا تتجاوب مع رغباته الثقيلة ، وهي فوق هذا ليست في جمال الأخريات .

واتلخمت . هذا هو أدق وصف ممكن . أغلقت فمي لفترة ، فلو فتحته ساعتها لخرجت منه بصقة . سكبت عليهم نظرة ساخطة ، ثم قلت : لو لم يحل هذا الموضوع فوراً فسوف أكتب رسالة إلى قيادة حزبكما أحكي فيها الأمر .

ارتجفا في توسل ضعيف . تركتهما لأبلغ كورونا أن الموضوع بسيط وأنه قد تمت تسويته .

* * *

تلكأ المؤتمر طويلاً ، تأجل انعقاده دون سبب ظاهر . في الصباح يحيلوننا إلى ما بعد الظهر . وبعد الظهر يقذفون بنا إلى الصباح .

كانوا يقولون حججاً واهية حتى أفصح لي راؤول عن السبب : نحن في انتظار شخص مهم . أخيراً همس : انتظر فنحن ننتظر جيفارا . لكن جيفارا لم يستطع الإفلات ، وبقي في بوليفيا حيث استشهد فيما بعد .

بعد انتظار طويل قضينا أغلبه بين كافتيريات فندق «هافانا ليبر» (في إحدى هذه الكافيتريات قابلت جرسوناً مرحاً ورقيقاً وعجوزاً للغاية... ضحك عندما عرف أن زاسوخوف سوفيتي . تحدثا بالروسية ثم انفجرا ضاحكين

معاً ، وبعدها أصبح يخصص كل وقته للاهتمام بنا دون الآخرين . في حديثه الروسي حكى حكايته... عندما أتت ثورة أكتوبر كان شاباً صغيراً وفقيراً ، لكنه لا يدري لماذا فزع من الاشتراكية فترك وطنه هارباً ، هرب بعيداً جداً إلى كوبا ليعمل جرسوناً ، وبعدها بحوالي أربعين عاماً لحقت به الاشتراكية ، (لا مجال لفرار جديد... فبقي) . وبعد انتظار طويل ، لكنه غير ممل ، بدأت جلسات المؤتمر . ترأس فيدل كاسترو كل جلسات المؤتمر . كان لم يزل شاباً وطازجاً وصاخباً وكان يمتلك حالة من البساطة الآسرة والساحرة معاً . في لحظة تكتشف أنه يتسرب إلى قلبك لتحبه . وكان يمتلك « كاريزما » طاغية غير مصنوعة منحته في قلوب الكوبيين مكانة يصعب مقاربتها . نجح كاسترو أو كما يسميه الكوبيون «فيدل» أن يعبىء كل الشعب في مظاهرة عارمة ومتواصلة ولا تتوقف ضد «الامبريالية» ، ومنح بطاريات الشعب شحنات ثورية متواصلة ولا تعرف الهدوء . (ذات يوم أخذنا كورونا لزيارة الجامعة ، والمرور على مكتبه كعميد لكلية الحقوق . وفي مدخل الحرم الجامعي ميدان رماية . الطالب والموظف والاستاذ ينبطحون جميعاً حيث البنادق مصطفة ليبدأ الفرد منهم يومه بتصويب طلقة أو طلقات متقنة . يشعر بعدها بأنه مستعد لمواجهة العدو . . انبطح هو وفعلها باتقان شديد ، سكوباريف قال إنه كان قناصاً ماهراً في حرب العصابات ضد النازي وصوب عشر طلقات تلامست جميعاً مع الهدف ، زاسوخوف فعلها بذات الاتقان وربما أكثر وهو يحكي كيف كان يصطاد الألمان في ستالينجراد . أنا ظللت واقفاً أتفرج ، لم تلمس يداي بندقية من قبل سوى قطعة من الخشب على شكل بندقية كنا نتدرب عليها ـ أو نزعم ذلك ـ في الواحات ، ألحوا أن أجرب ، قلت ضاحكاً دون أدنى مزاح ، أخاف أن تستدير الرصاصات لتصيب أحدكم) .

بهذا الأسلوب وغيره ظلت بطاريات الشعب الكوبي دوماً مشحونة بالعطر الثوري الصاخب ، وكان المؤتمر فرصة ـ مبالغاً فيها ـ لاستعراض ذلك كله . كان فيدل يقدم بنفسه كل المتحدثين ، وكانت حماسته الثورية تتدافع وهو يقدم شباباً لا يتجاوزون الخامسة والعشرين لكنهم يقودون ـ أو يتزعمون ـ حركات ثورية في بلادهم . كانت كلمات «فيدل» الملتهبة تخرج سريعة كطلقات رشاش... والمترجمون يرتبكون إذ يحاولون اللحاق بها لكننا كنا نفهم على أية حال أنه يصب عداءه الصارخ ضد الامبريالية ، وسخطه على الانتهازيين... والعواجيز (لست أعرف موقفه الآن بعد أن تقدم به السن) وسكان المدن الذين يأكلون لحم البفتيك في أطباق من الصيني وهم يتحدثون عن الثورة ، بينما هو يعتقد أن الثورة يصنعها الشباب ، هناك في الجبال ثم ينحدرون من قممها كما فعل هو ليطيحوا بالرجعية .

كان يستمر في تقديم المتحدث لربع أو حتى نصف ساعة ، ثم يقف مصفقاً له فيقف الجميع مصفقين ، ويستمر التصفيق طويلاً... فيصعد الشباب ليلهب الميكروفون والقاعة بنيران من كلمات حارقة هي أيضاً تدين العواجيز... وثوريي المدن . الذين يتصورون إمكان الاحتكام العاقل للديمقراطية ، وأراجوزات الأحزاب العلنية... ثم تمجيد للجبل والثورة... وإدانة لآكلي البفتيك القابعين في المدن ، الألفاظ نفسها تقريباً ، إنه صراخ يليق بعام ١٩٦٨ الملتهب ، حيث فيتنام تحرق بلهيبها الأصابع بل الأيدي الأمريكية ، وحيث البؤر الثورية تملأ جبال أمريكا اللاتينية بأمل أن تتحول كل منها إلى فيتنام أخرى ، وكان المنطق السائد في كل خطب المؤتمر... أكثر من فيتنام واحدة ، وساعتها ستركع الامبريالية .

وإلى جواري كان يجلس دائماً واحد من قادة اليسار في أمريكا اللاتينية ، لكنه تماماً عكس ما يتحدث به فيدل وشبابه الثوري... عجوز ،

يسكن المدينة ، يرأس حزباً شيوعياً علنياً ، ويضحك وهو يؤكد أنه يحب البفتيك وأنه يأكله بالطبع في أطباق من الصيني . إنه الرفيق «أريسمندي» السكرتير العام للحزب الشيوعي في أورجواي ، وهو حزب متسع النشاط ، عميق الجذور ، لكنه طبعاً لا يعجب فيدل ورفاقه .

كان يستمع ويبتسم في هدوء ، وأحياناً كانت أنظار المتحدثين تشير إليه ، وكأنها تخاطبه لتتهمه بل وتلعنه شخصياً ، وكانت ابتسامة أبوية متسامحة تلاحق دائماً هذا التهجم والتهكم المرير .

وفي إحدى الجلسات قدمني كاسترو بكلمات مجاملة حارة ، وتحدث طويلاً عن مصر... ودورها وعبد الناصر ، وصفق وصفقوا لي طويلاً . وبعدي كان زاسوخف (كان يعلم منذ الصباح ، وقال لي في مرارة أخشى أن يسيئوا استقبالي في القاعة ، قلت : لا تخف أنا سأصفق لك . دهش ولم يشأ أن يقبل أو يرفض ، لكن نظراته قالت إنه سيكون ممتناً لو فعلتها)... ملت على رفيق من تشيكوسلوفاكيا فقال : إنه لا يريد أن يفجر أزمة ، والرفيق الهندي قال : سأفكر في الأمر . أريسمندي تأمل الاقتراح وقال : أنت نعم ، أنا لا . (وفهمت أنه يؤيد موقفي ، لكنه لا يريد أزمة مع الكوبيين وأنصارهم الملتفين حوله أو بالقرب منه في كل أنحاء أمريكا اللاتينية) .

وقف كاسترو وقال ببرود مثلج وكأنه يبصق كلمة مريرة المذاق «مندوب الاتحاد السوفيتي» وتقدم زاسوخوف والقاعة صامتة ، وقفت أنا لأصفق ، سمعت شخصاً يزاملني لكنه توقف إذ اكتشف أنه يخرج على النص . ولست أدري أية حالة عصبية تلك التي انتابتني ودفعتني إلى أن أظل واقفاً وحيداً لأصفق بحماسة ملأى بالغيظ . فيدل ينظر إليَّ مبتسماً ، وأنظار القاعة تلهبني وكأنها تندم على تصفيقها لي .

ثم كان الدور ــ بعد فترة ــ على أريسمندي... الشيء نفسه تكرر ،

وقفت وحيداً ـ هذه المرة في تحد رصين ـ لأصفق له . ألقى كلمته . ذهب إلى المنصة حزيناً وعاد منها أكثر حزناً . على الغداء حرصت أن ألازمه ، كان قلبه الممتلىء حباً لكل من في القاعة يقطر دماً ، حاولت أن أخفف عنه ، لكنه أوضح في براءة ثورية خالية من التلاعب السياسي : يا رفيق : أنت لم تزل شاباً ، أنا لست حزيناً من أجل نفسي ، فليس مهماً أن يصفقوا أو لا يصفقوا ، ففي بلدي يصفق لي الناس بالملايين ، لكن ما يوجعني هو الخوف عليهم ، على مستقبلهم ، ومستقبل أحزابهم وحركاتهم ، إنهم ثوريون ، لكنهم حمقى ، والأحمق الثوري أخطر من أي أحمق آخر .

وتقترب جلسات المؤتمر من نهايتها ، وكلمة الختام لفيدل . واستدعي رؤساء الوفود ليقفوا صفاً على المنصة خلف كاسترو وهو يلقي كلمته .

وفيما كاسترو يصعد إلى المنصة ، أمسكت بيد أريسمندي وقلت دون تفكير مسبق : لن أصفق له . قال دون أن يلتفت إلي : ولا أنا . صعد كاسترو ، التهبت القاعة بالتصفيق ، في حركة مسرحية متقنة خلع حزامه العريض المثبت فيه مسدسه وألقى به جانباً . أمسك الميكروفون لكن التصفيق المتصاعد غطى على محاولاته للكلام . إثنان فقط لا يصفقان . أنا لا يعرفني أحد ، ولا يتعرف علي أحد بل ولا يهتم بموقفي أحد ، أما أريسمندي فيعرفه كل شيوعي وكل سياسي في أمريكا اللاتينية . صاح أحدهم بصوت غاضب : أريسمندي لا يصفق لفيدل . أمسك أريسمندي بيدي كأنما ليشد أزري ، وربما خشية أن يتراجع أحدنا . ولم يبد عليه أي غضب . تصاعد التصفيق تحدياً لنا . وتصاعد تحدينا الصامت . وأنهى فيدل الموقف الدرامي بإشارة حاسمة من يديه وبدأ حديثه... فسكت الجميع .

كان فيدل حانياً وذكياً وثورياً حقاً... ورقيقاً ، فبعد إصراره المتحمس على كل مقولاته الثورية ، وجه تحية رقيقة إلى أريسمندي ، لمحت دموعاً

تنساب على الوجه الأبيض المشرب بالحمرة الملتصق بي . وعندما أنهى فيدل خطابه سلم على جميع الواقفين خلفه أما أريسمندي فقد احتضنه وأنا كذلك . وقال هامساً : أريدكما على العشاء . هكذا ترجم لي أريسمندي .

* * *

كانت دعوة العشاء للجميع ، لكن أريسمندي وأنا وراؤول وعدد آخر دعينا إلى مائدة فيدل .

كان ودوداً وحريصاً على أن يؤكد أكثر من مرة : إن أريسمندي أستاذ له ولكل جيله... وتحدث فيدل طويلاً عن مصر وعبد الناصر ، تكلم باحترام ، لكنه انتقد الهزيمة انتقاداً مريراً . قال : إنهم يخيفوننا بمصير عبد الناصر ، لكنهم واهمون . نحن مختلفون ، أليس كذلك ؟ أجاب كل الجالسين : نعم ، وأنا صامت ، سألني : وأنت ما رأيك ؟ ولم أجب . لكنني أردت أن أنتقم فأدرت الحديث نحو موقفه من السوفيت ، قلت هم يساعدونكم ، يقدمون لكم الحماية والسلاح والبترول والغذاء ، وأنتم تمنحونهم العداء والسخرية . قاطعني أو بالدقة قاطع المترجمة المفرطة الجمال ـ والتي تعمل سكرتيرة له ـ صائحاً : لا . لا . ليس عداء بل هو نقد رفاقي .

فهم الجالسون أنني أحاول أن أنتقم . وهو فهم أيضاً لكنه تقبل اللعبة بروح رياضية مرحة . قال : أنا لا أزعم أنني أفهم في الماركسية أكثر منهم ، لكنني أزعم أنني ثوري أكثر منهم .

قلت : الماركسية ليست بعيدة عن متناول يدك . قال بهدوء أخجلني : طبعاً ، وأنا تلميذ منتظم . تلفت حوله حتى التقطت عيناه رأساً أبيض الشعر جالساً على مائدة ليست بعيدة عنا . أشار : هذا أستاذي . إنه رجل طيب . وهو لا يؤنبني أبداً ، الحزب الشيوعي السوفيتي أرسله لي بناءً على طلبي ،

ليحاول أن يدرس لي الماركسية وهو يحاول ، وأنا أحاول معه . وأعتقد أنني تلميذ لا بأس به .

امتدت السهرة ، لننسى تماماً أننا مع رئيس ، أو قائد ثورة ، رجل يقطر بساطة وخفة دم ، سريع النكتة وسريع في تلقيها . وتبادلنا نكات عديدة ، وتصاعدت الضحكات لتجذب الكثيرين حول مائدتنا . شاعت بيننا ألفة حانية ، وجدت نفسي أناديه كما يناديه الآخرون : يا فيدل . أما هو فقد أجهد نفسه أكثر من مرة وهو يحاول مع حرف العين في رفعت ، وحرف العين في السعيد فهز يده ساخراً هذا صعب : هذا أصعب من الماركسية ، دعني أناديك... يا مصري .

براغ ... ما قبل الربيع

كان التوازن في كل وفود المجلس المصري للسلام مفروضاً ، هذا إن لم يكن مفترضاً .

وفي كل وفد كان لابد من نسبة عالية ممن يعتبرون «أهل الثقة» . وهكذا وبعد تراخ ليس بالقصير في تلبية دعوة من لجنة السلام التشيكوسلوفاكية تشكل الوفد المسافر :

د . حكمت أبو زيد (وزيرة سابقة لكنها وعلى غير عادة هذا الزمان ظلت راضية ، ومرضياً عنها) ، وإبراهيم عبد اللطيف (رئيس نقابة عمال الصحافة والنشر ، وكان يتجول في كل حديث حتى يصل إلى هدفه ، وهو ذكر اسم سامي شرف... وعلاقته الوثيقة به) ، وأنا .

إلتقيت بالاثنين في المطار... وفي مطار براغ توقف ضابط الجوازات أمام ثلاثة أنواع من الباسبورات .

أحمر ـ أزرق ـ أخضر .

الأحمر دبلوماسي للدكتورة ، والأزرق (مهمة خاصة) للنقابي الوثيق الصلة ، والأخضر العادي والمعتاد لي .

وتوقف أكثر أمامنا إذ وصلنا... ولم يكن ثمة أحد في انتظارنا . وعلى

قدر تباعد زميليّ في الوفد عني باعتباري «الآخر» ، وإذ اتضح أننا في المطار بلا صاحب... «احتاسوا» ، وألقوا بأثقالهم عليّ . كان المطار هادئاً وأنيقاً كعادته ، لكنه تبدى لنا قفصاً لا مخرج منه . فبلا مرافق ، لا مخرج لا ، ولا صاحب . وبمجهود شاق حاولت أن أمنح لغتي الإنجليزية تبسيطاً مخلاً كي أُفهم ضابط الجوازات البارد جداً كالعادة ، إننا في ضيافة «حركة السلام» . كنت أتصور ـ كالعادة ـ أن هذا الاسم يفتح مغاليق مثل هذه البلدان . لكن الاسم مضى دون أثر ، كطلقة رصاص لم تصب الهدف ، بل لم تمنح الطرف الآخر أي قدر من الاكتراث .

ووسط حالة الارتباك ، وفجأة كما يحدث في الأفلام العربية ، ظهر المنقذ .كنت أتلفت في حيرة وارتباك وخجل... فالاثنان يمنحاني كل عبء الموقف ، وكل سلبياته . فجأة رأيت رجلاً أعرفه ، سفير تشيكوسلوفاكيا السابق في القاهرة . أتى للمطار يستقبل صديقاً . اندفعت نحوه كغريق ينسكب في شغف نحو حبل الإنقاذ ، شرحت له الموقف . قال في تحفظ دبلوماسي متقن : لقد أتيتم في الزمن الصعب . لم أفهم . بل لم أهتم أن أفهم ، فقط كنت أبحث عن مخرج . تحدث الرجل بالتليفون... وقال : مرافقكم لم يحضر . سيرسلون لكم مرافقاً آخر .

وأتى المرافق بعد حوالي نصف ساعة... كان بارداً بروداً غير محايد ، بل عدائي . لم نهتم ببروده ، ولا بأنه اقتادنا إلى تاكسي وليس إلى سيارة فخمة كالمعتاد... كنا نبحث عن منقذ . وكان هو .

منذ اللحظات الأولى في براغ استشعرنا وجوماً عاماً ، فسره لنا المستشار السياسي في سفارتنا ، الذي أتى على عجل واضعاً نفسه كلية تحت تصرفنا . (ربما بسبب تركيبة الوفد بأغلبية من أهل الثقة ، وربما لأن السفير مجدي حسنين كان عضواً سابقاً في مجلس السلام ، وكان يبذل

ترحيباً خاصاً بوفودنا) . وكان تفسير المستشار السياسي مستعصياً على الابتلاع (في الأقل بالنسبة لي) ، ثمة حركة عامة معادية للحكم . يتزعمها أحد قادة الحزب ، رافعاً شعارات ليبرالية . الحكم مرتبك ، بل كل شيء مرتبك ، فالمثقفون كتّاباً وصحفيين وفنانين في أغلبهم مع الحركة الجديدة... والناس العاديون سلبيون... والحكم يقف وحيداً . وأضاف أن ثمة أصابع صهيونية في الأمر (كانت العادة العربية أن تضاف مثل هذه العبارة عند كل تحليل مماثل ، لحدث مماثل... لكن مشهداً محدداً جعلني أصدق ذلك . كنا في الطريق من الفندق إلى المسرح... المرافق البارد بروداً عدائياً ، ظل صامتاً طوال الوقت ، فجأة تهلل وجهه بسرور لم يستطع إطفاء وميضه ، ونحن نمر أمام طابور طويل بشكل غير عادي... قال في تشفٍ : إنهم يتزاحمون لشراء اسطوانة إسرائيلية جديدة عنوانها «فلنعبر نهر الأردن» كنا في الزمن الصعب . زمن ما بعد النكسة ، وأتت عبارات المرافق موجعة وقذف إبراهيم عبد اللطيف بشتيمة كبيرة : يا ابن... وتأذت أذنا الدكتورة ، لكنها لم تحتج) .

وبعد يوم أو يومين من خمول خامل... فلا أحد يريد ، أو يهتم ، أو يحب ، أن يلتقي وفداً من حركة السلام ، ولا أحد يمتلك فعالية ترتيب أبجديات زيارة بسيطة كهذه... الكل مرتبك والكل غلّف نفسه بستار كثيف من السلبية . أخيراً تجاسر المرافق ، وربما لتمضية الوقت ، أو ربما كي يبرهن لنفسه أنه قادر على الاحتجاج على ما كان . واشتبك معنا في حوارٍ قاسٍ ، بل شديد القسوة عن خطايا النظام الاشتراكي... عن سطوة السوفييت غير المقبولة... ثم أمسك بكلمات كالموس ليفتح جراحنا ويحشوها بالملح والشوك . تحدث عن خطأ تأييد العرب ، وعن حقوق إسرائيل التاريخية في فلسطين... كان بعضاً من الشراب الحاد قد تدفق نحوه . شرب أكثر مما

يجب ، ودافع عن إسرائيل دفاعاً حاراً وموجعاً ، وعيرنا بهزيمة ساحقة وغير مبررة ، وانفجر عندنا الغيظ الممتزج بالمهانة ، والتهب الجدل بصورة غير متوقعة بين ضيوف ، ومرافق لهم . عبر النقاش باح لنا بندوات صاخبة تعقد في مقر اتحاد الكتاب تناقش فيها هذه المسألة نقاشاً أكثر تفصيلاً وأكثر صراحة . تشاورت بالعربية مع زميلي الوفد... بعد تردد حسمت د . حكمت الموقف . كنت قد اقترحت عليهما أن نذهب إلىٰ عرين الأسد لنرى ونتحدى ونناقش... وربما لنؤثر . أخيراً وافقنا . وبكلمات مصطبغة بصبغة التحدي طلبت أن نزور اتحاد الكتاب وأن نتحدث في إحدى ندواته . تردد المرافق . أوجعته بتهكم على ليبراليته المختلة ، والتي تخشى نقاش الآخر .

ترك المائدة ، تحدث طويلاً في التليفون ، عاد وقال هادئاً : الموعد غداً الساعة الثالثة بعد الظهر . ثم قال في تهكم حاد : فقط ارتدوا ملابسكم الثقيلة فسوف تكون السياط ملتهبة . (في المساء حذرنا المستشار السياسي من أننا نستدرج نحو جحر الثعابين ، فاتحاد الكتاب هو مركز التآمر على الحكم الاشتراكي ، وهو أيضاً مركز النشاط الصهيوني في براغ) .

في الصباح جلسنا نحن الثلاثة في هيئة اجتماع أركان حرب . سيكون الحوار بالإنجليزية ومن ثم سيتحدث من جانبنا إثنان فقط (فإبراهيم عبد اللطيف بعيد تماماً عن اللغات الأجنبية)... أعددنا أنفسنا للحوار . استجمعنا الحجج ، رتبنا كل شيء . وأتى المرافق ليصطحبنا... وصلنا إلى المكان . وكانت المفاجأة : المبنى مغلق ، بابه الخارجي (الذي لم يغلق قط كما أكد المرافق الممتلىء بالدهشة) مغلق ومحلى بسلسلة ضخمة وقفل . إنهم يعلنون رفضهم لمبدأ الجلوس معنا . ألسنا ضيوفاً ، أو أصدقاء مفترضين للنظام الحاكم ؟

من فرط غيظي انهلت عليه تهكماً... وكيف أن ليبرالية أصدقائه لم تتسع

حتى لحوار معنا . احتمل تهكمي في صمت حاقد . لكنه في اليوم التالي رتب لنا لقاء مع سكرتارية لجنة السلام في براغ . لم يحضر الاجتماع سوى ثلاثة أو أربعة أعضاء . الباقون يرفضون الجلوس مع ضيوف النظام ، أو سلبيون ، أو ينتظرون اتجاهات الريح . لكن الحاضرين كانوا أشد ضراوة من المرافق . انهالوا علينا نقداً وتعنيفاً ، وعلى نظامهم ونظامنا ، ديكتاتوريتهم وديكتاتوريتنا... وتشفى المرافق فينا حتى اكتفى .

وفي محاولة لقطع الملل طلبت من المرافق أن يرتب لي لقاء مع صديق تشيكوسلوفاكي قديم... هو البروفيسور ستيبانوفسكي (كان أستاذاً جامعياً مرموقاً زار مصر ضمن وفد مشترك لحركات السلام في البلاد الاشتراكية ، وامتلكنا وداً مشتركاً تحول إلى صداقة ، رغم تأففه الواضح من كل ما هو سوفيتي ، إلى درجة أنه كان كغيره من أعضاء الوفد يجيد الروسية ، وكان معنا مترجم للروسية بينما هو يرفض الحديث إلا بالإنجليزية التي يجيدها أيضاً . كان يهمس في أذني : الروسية لغة المستعمر . ويؤذيني أن أتحدث بها) .

في اليوم التالي عاد المرافق متهلل الوجه... سعيداً بصورة مفرطة ، صاح دون حرص : صديقك أفلت . حكى وهو يفرك يديه في فرح لا يستطيع أن يخفي نفسه : سافر ضمن وفد علمي رسمي إلى أمريكا . هناك اختفى ولم يعد .

... لكننا لم نعد نطيق هذا المرافق . وهو لم يعد يطيقنا... وتفاهمنا دون كلمات . تركنا في الفندق ولم يعد يحضر إلا لماماً على خلاف عادة مرافقي هذه النظم... أن يلازموك حتى فيما لا يلزم .

* * *

وكان علينا على أية حال ـ أن نمضي ما تبقى من أيام عشر . السفارة المصرية... وصديق قديم «علي حسني» تكفلوا ببعض الجولات... لكننا كنا نرتبك أحياناً . فمثلاً في مطعم الفندق قائمة الطعام بلغتين فقط... ، لغتهم ولغة الأصدقاء الكبار (الروسية) ونحن لا مساحة لنا كي نفهم أو نختار . لكن مثل هذا الارتباك اليومي كان أرحم لدينا من عويل المرافق المدمر لأعصابنا . (وعندما كنا نجلس ثلاثتنا في المطعم كنا نثير ارتباكاً شديداً . فلا أحد يفهم حرفاً إنجليزياً أو فرنسياً ، والقائمة بلغة غير مفهومة . ونكتفي د . حكمت وأنا بالإشارات لنأكل أي شيء ، أما ثالثنا إبراهيم عبد اللطيف فقد كان حاسماً وسريعاً يختار ببساطة ، يضع إصبعه سريعاً على سطر محدد يختار ، سألته متهكماً هل تعرف التشيكية ؟ قال : لا . لكن خطأكم أنكم تحاولون قراءة الكلمات ، أما أنا فعيني على الأرقام . فأمام الصنف السعر . وأنا أختار السعر الأعلى... والسعر الأعلى حتماً للطعام الأفضل . لكن الأمر لم يخل ـ حتى بالنسبة له ـ من مفارقات ، إذ كان السعر الأعلى أحياناً لطعام لا يؤكل... بالنسبة له في الأقل .

وفي أواخر أيام الرحلة... كان الوضع على وشك الانفجار ، أشعرنا بذلك مجدي حسنين الذي أعلن صراحة أنه يساند الحكم القائم بتكليف من عبد الناصر (فيما بعد ، وعندما وقعت أحداث ما سُمِّيَ بالثورة المضادة لدى البعض ، وما سُمِّيَ لدى البعض الآخر بربيع براغ كانت السفارة المصرية ـ كما أكد لي مجدي حسنين بنفسه ـ مقراً لقيادة الحكم القديم المختفية لحين قدوم السوفييت ، وكانت منشورات وبيانات هذه القيادة تطبع في السفارة أيضاً) . وكان الوضع متوتراً إلى درجة أنه كان يتعجل رحيلنا حتى لا نقع في مصيدة اضطرابات لا يعلم أحد متى تنتهي ؟ ولا كيف ؟ وبالفعل اتصلت بالمرافق الذي كان سعيداً إذ عرف أنه سيتخلص منا يومين قبل الموعد المقرر .

وفي عصر اليوم الأخير لنا في براغ... كنت أتمشى أنا وعلي حسني قرب ساحة قصر الرئاسة لنشاهد حوالي خمسة أو سبعة أشخاص يهتفون «سفوبودا...سفوبودا...» إنه رئيس الحكومة ، وسكرتير عام الحزب الشيوعي . ولعله ، أو لعل البعض أراد أن يتحدى هؤلاء الذين يتحدون الحكم ، بمظاهرة تهتف باسم الزعيم .

لكن الناس كانت تنظر إليهم بملل وبلا مشاعر ، وظل الخمسة أو السبعة يهتفون وحدهم حتى شعروا باللاجدوى... وهتف زعيمهم وحده مرة أو مرتين ، دون أن يرد عليه أحد من رجاله... وسكت .

وكانت دلالة واضحة ، بل فاضحة .

* * *

عندما عدت فوجئت بأن مكتب الرئيس يطلب تقريراً بملاحظاتي ومشاهداتي عن الوضع في براغ . كتبت تقريراً وافياً بما كان ، ختمته بعبارة لا أنساها «وأعتقد أن الوضع القائم لن يستمر» .

وبعد مناقشة مع الأستاذ خالد طلب أن أشطب العبارة الأخيرة ، فقد تكون مبالغاً فيها . ووافقت .

وبعدها بأيام انفجر لهيب ما سُمِّيَ بربيع براغ . ولم يطفئه سوى هدير الدبابات السوفيتية .

في غينيا بيساو

في مكتبي بمجلس السلام كثيراً ما كنت أستقبل زعماء أفارقة لحركات التحرر في أوطانهم . كانت أحضان مصر مشرعة أمامهم . ومن هؤلاء إميلكار كابرال وشقيقه لويس .

توثقت العلاقة مع الشقيق الأكثر مرحاً وانفتاحاً من الأخ الأكبر المتحفظ ، والمحتفظ بمساحة دائمة خاصة به بعيداً عن الأخرين .

... غادرا مصر ، قرأنا نبأ اغتيال اميلكار ، كانت خسارة كبيرة لمفكر أفريقي متوقد الحس والعقل ، وقادر على تفهم طبيعة الثورة الأفريقية وخصوصيتها ، ثم تفهم الخصوصية الخاصة جداً للثورة في بلاده .

وإذ انهار الحكم الفاشي في البرتغال ، وارتفعت القبضة البرتغالية عن عنق وطن كابرال... انتصرت الثورة في عناق مع القوى الاشتراكية والتقدمية البرتغالية التي أهدتها استقلالاً كاملاً... وغير مشروط .

وكالعادة . ومع كل انتصار مماثل ، كنا في حركة السلام العالمية نشد الرحال إلى الحكم الصديق المنتصر...

وكالعادة أيضاً كان الاقتصاد في الانفاق من العملات الصعبة يفرض علينا

أن نستخدم طائرات «صديقة» لنتجمع في بلد صديق ، ثم تنهض بنا طائرة تشارتر «صديقة» إلى حيث نذهب .

وهكذا سافرت على الانتر فلوج (ألمانيا الديمقراطية) إلى برلين لأقضي سبع أو ثماني ساعات في استراحة المطار انتظاراً لتجمع الوفود . ثم قامت الطائرة التشارتر من برلين في رحلتها الطويلة إلى غينيا بيساو... والغريب أنني وبعد قرابة العشرين ساعة من مغادرتي القاهرة... عدت على التشارتر إليها... كي تتزود هذه بالوقود ، وتنهض مرة أخرى... لكن صحبة الأصدقاء تنسيك أي شيء .

كان المطار الصغير في غينيا بيساو مزدانا بطابور جميل من نساء يتمتعن بجمال أفريقي خاص ، ثيابهن الزاهية الألوان أحالت المطار إلى حديقة أنيقة تعرف كيف تتجمل ، ومنذ اللحظة الأولى نكتشف ضعف الجهاز الجديد... وافتقاره للكفاءة المفترضة . تعثرنا قليلاً في إجراءات المطار رغم وقوف وزير الخارجية مع الإدارتين محاولاً إنجاز الأمر بيديه .

لكن المدينة النظيفة والممتلئة بمبان عريقة وقديمة (خاصة قرب الميناء الصغير جداً) كانت مشرقة بروح الاستقلال الحديث ، علامات التحرر تكاد تشرق بالإبتسامات المتكررة مع كل الوجوه... والطاقية المميزة والتي جعلها أميلكار دوماً فوق رأسه تزين كل الرؤوس تقريباً... معلنة دوام الانتساب للبطل الغائب .

وحضر الرئيس لويس كابرال ليفتتح اجتماعاً (رئاسة مجلس السلام العالمي)... موكب من سائقي الموتوسيكلات بملابس أنيقة ، قفازات بيضاء... سيارات ستروين فاخرة من آخر طراز ومن أغلى طراز . لاحظ مسؤول مكتب الاستعلامات المرافق والملاحق لنا ، دهشتي من هذه الفخامة المبالغ فيها... في بلد فقير . حديث الاستقلال ، وبلا أية موارد

(المصنع الوحيد . مصنع البيرة . تركه البرتغاليون معطلاً) . ابتسم في ترفع قائلاً :

هذه واحدة من علامات استقلالنا . لا بد للمواطن أن يشعر بأن لنا رئيساً حقاً . قلت في بلاهة : لماذا لم تطلبوا من السوفييت سيارات ، فلديهم سيارات فخمة (كان السوفييت ينفقون على كل متطلبات النظام الجديد ، والفقير جداً) ارتفع سقف الترفع وقال : فخمة نعم ، ولكنها ليست مريحة بالقدر الكافي . وتمركزت علامة استفهام غير عاقلة... وأحسست كم خسرت هذه الدولة الوليدة بوفاة أبيها أميلكار . وتساءلت... ترى كم يدفع السوفييت ليس فقط لإعالة بلد صديق ، وإنما كي يشتري قادته سيارات ستروين رئاسية .

* * *

وفي جولة في سوق المدينة حيث الباعة يتراكمون... فهم أكثر حتى مما يبيعون من بضائع بدائية . وجدت بائعاً تغافل عن حبات الطماطم المكومة على الأرض أمامه... وانهمك جالساً على الأرض ليترنم في اهتزاز رتيب ووقور «بسم الله الرحمن الرحيم» ينطقها غير مستقيمة ، وغير مفهومة ، لكنه يقولها ، ويرددها دون ملل ، في يده التي تمارس هواية الاهتزاز الرتيب هي الأخرى نصف ورقة صفراء مكتوبة باللغة العربية . توقفت . تأملت . سألت . ونقل المرافق الملاحق لي سؤالي... وأتت إجابة متحدية : هذا مصحف . طلبت أن أراه ، انتفض الرجل بإصرار ديني مدبب ، قال بالبرتغالية : هذا مصحف شريف لا يمكن لغير المسلمين أن يلمسوه . قلت : أنا مسلم . ومن بلد الأزهر . وارتمى الرجل نحوي يقبل أكتافي وينطق مرة أخرى بعربية مفككة «ما شاء الله» ويكررها عدة مرات . ناولني مصحفه... كان قطعة ورق

من كتاب عربي عادي... لم أشأ أن أصدمه ، فقط سألت من أين اشتراه... أشار ناحية الميناء .

واستمرت جولتي في السوق الفقير (اعتقدت دوماً أنك تعرف المدينة أكثر من أسواقها) وفيما أتجول مع مرافقي ناحية الميناء انساب صوت قرآن من راديو في محل بقال . قال المرافق : أنه موزع المصاحف المزورة... وهو يحضر أي كتاب عربي ثم يقطع كل صفحة نصفين ليبيعها للمسلمين ، بعد أن يعلمهم كيف ينطقون «بسم الله الرحمن الرحيم» ويقنعهم أن تكرارها يكفي... بديلاً عن التلاوة الحق . وهو يعلو بصوت القرآن من الراديو ليقنع الآخرين بقيمة ما يبيع لهم .

وفيما أتأمل الفكرة محاولاً أن أجد فيها بعضاً من منطق... أجهز المرافق عليَّ عندما همس :

بقي أن تعرف أنه لبناني ماروني...

* * *

وكانت نغمة الماركسية هي الأعلى في كل حدث وفي كل حديث . وربما كان هذا ضرورياً كجزء من تأكيد الذات الجديدة لكن انتباهي كان مشدوداً بعمق نحو فكرة حلقت فوقي ورفضت أن تغادرني... إلى أي عمق يمكن أن تصل الماركسية في عقلية كهذه... في بلد يمكن فيه لبقال لبناني ماروني أن يصبح بائع المصاحف الوحيد... ومصدر المعرفة الإسلامية للمسلمين ؟

وعبر مناقشات متأنية مع وزير الخارجية الذي كان يزورني كثيراً في الفندق متمثلاً لتعليمات الرئيس ، طرحت هذا السؤال . اعترف بصعوبة الأمر . واعترف بأن البعض يتجاوب الآن تملقاً أو مجاراة أو بحثاً عن مغنم .

لكنه أكد أن محاولات جادة تبذل لإلحاق هؤلاء البشر البسطاء بركب الماركسية المنتصر .

ورتب لي زيارة إلى إحدى مدارس الكادر . ولعله اختار أكثرها إبهاراً... هناك في أعمق أعماق الغابة مدرسة نسائية لتعلم الماركسية .

رحلت السيارة بعيداً . وبقارب عبرنا نهراً . ثم الغابة فالمدرسة .

مساحة من العراء مسقوفة بفروع أشجارٍ . عدة عشرات من نساء سمراوات... هذا اللون الخلاسي الجميل يكسو الجميع . صدورهن عارية كالمعتاد . أطفالهن معلقين خلف الظهر... وذباب الغابة كله تجمع فوق الأطفال... بلا اكتراث من أحد ، يجلسن على الأرض... المُدَرسة امرأة ضخمة ، صدرها العاري أضخم ما فيها ، تقف ممسكة بعصا منتزعة من إحدى الأشجار تدب بها على الأرض وتهدر في كلمات منغمة بما لا أفهم... ومع كل كلمة يهتز صدرها العاري والمنسكب في كومتين كبيرتين تنتهيان بعد حوالي النصف متر... يهتز في تناغم مثير للدهشة ليعطي الكلمات مذاقاً خاصاً .

وتتكرر بتكرار كثير كلمتان يسهل التعرف عليهما «ماركسيزموس ـ لينينيزموس» واندفعت إلى ذهني أسهم عديدة فيما أنظر إلى العيون الخلاسية المسترخية في امتثال ممتثل...

سهم يقذف بصورة الموكب الرئاسي المترفع . وآخر يحمل صورة المسلم المخدوع ، وحاولت أن أركب من هاتين الصورتين نموذجاً متحداً مع صورة النساء الخلاسيات . فلم أستطع .

... لكنني ـ ولست أنكر ذلك ـ انبهرت .

* * *

وكالعادة... أخذتنا رحلة العودة اللامنطقية ، الطائرة التشارتر تهبط في القاهرة . تتزود بالوقود دون أن تتزود بعقل يكفيها لترتيب اسقاطنا حيث نقيم ، ثم تنهض إلى برلين . وهنك نبقى يومين ننتظر موعد «الانترفلوج» لنعود .

هلسنكيات

...وفنلندا بلد مميز تماماً (أو كان كذلك في السبعينيات) ... ويمتلىء الريفي الحديث التمدن بالدهشة والاندهاش من بلد مفرط في تقدمه وتحرره .

وهلسنكي حديقة جميلة في الصيف ، ثم يأتي الشتاء ليكتسي كل شيء برادئه الأبيض... وتنحدر بك درجة الحرارة إلى ٢٠ تحت الصفر ، وأحياناً أكثر . لكن المفجر للدهشة والمتعة المغلفة بالضجر الممل ، هو ذلك الصيف النهاري دوماً ، والشتاء المظلم طوال الوقت... وحتى ساعتك لا تسعفك « فالثالثة » قد تكون مساءً ، أو ظهراً ولا دليل خارجي يسعفك .

والفنلدنيون شعب بسيط ، هادىء ، يعرف كيف ينتزع المَتعة من براثن مناخ بالغ التشدد . ويعرف كيف يغرس الجمال في كل مكان وكل لحظة ، والبرد المدبب الذي يخترق كل ما تراكمه من تحصينات فوق الجسد المرتعش بدفء مصنوع ومتصدع ، يجبر الجميع على الانطواء . فالجار يتحاشى جاره خوفاً من أن يقول له « أهلاً » أو يقذفه بابتسامة تستدعي الرد عليها .

(ذات يوم أرهقت سكرتيرتي كي تعلمني بالفنلندية ما يتقاذفه الناس

في الصباح من كلمات . وتلكأت حتى أدار جاري قبضة بابه ليخرج ، واستجمعت شجاعتي وذاكرتي ونطقت بحنان «هيفا هومنتا»... كأنني لسعته بكلمات حادة . نظر بدهشة غير مصطنعة ، لكنها مندهشة بالفعل... ولم يجب فأنا خرقت المعتاد... وليس من المعتاد أن يتكلم الغرباء ، أو يتبادلوا حتى الابتسام الهامس . إنه انطواء منطو ، ومتوارث) . وهم دوماً يكتسون بمسحة من حزن تصاحبهم وتصطحبهم حتى في جلسات متعتهم... (ذات يوم كتب صحفي ساخر يفسر ظاهرة حزنهم الجماعي المستديم ، مؤكداً أنه ميراث من جدهم الأكبر الذي اقتاد قبيلة قوقازية... واتجه بها شمالاً... ثم شمالاً... ثم شمالاً... حتى تجمدت أطرافه من البرد فعجز عن تصويب خطأه ، وبقي ليكتسي بحزن آسف على ما كان)... وبقدر بساطة الناس تتعقد اللغة ليس بمفرداتها وإنما بمكوناتها وتركيباتها . ذات يوم قلت إنني سأركب أتوبيس رقم ٩ ، صعقوا... وانهمرت عليهم شلالات الدهشة لهذا الاختصار المخل هم يقولون : الأوتوبيس أزرق اللون ويبدأ من المحطة الرئيسة وينتهي في حي لوهيلا ويحمل لافتة مكتوب عليها رقم ٩ .

وهكذا تتعقد لغة هي معقدة بالأساس لتمنح الحياة تعقيداً محبباً للنفس... ولتضيف إلى متعة الحزن الأبدي ، حزناً يكسو أدوات التفاهم بين البشر .

والبساطة ، وديمقراطية الحياة تكسو كل شيء . حتى الرئيس (كان على زماني هناك ماتي كيكونين) كانت رئاسته تفرض عليه ، بل تفترض حياة بسيطة خالية من كل مظاهر التعقيد الرئاسي... كثيراً ما كنت أشاهده على الطريق المترامي على حافة البحر قرب الميناء وهو يجري منفرداً وبلا حراسة ، ويرتدي ذات «الترييننج سوت» الأزرق الذي يفضله الناس جميعاً . وذات يوم سبت وفيما أقطع الإجازة بالتجول في السوق ، شاهدته يشتري

سمكاً... وهذا هو الطبيعي . فعندما أبديت دهشتي أمام صديق فنلندي قاطعني مندهشاً : ومن تتوقع أن يشتري له ما يحتاج . إنه يوم الإجازة وعليه أن يريح زوجته . وأدركت أننا نعيش عالمين مختلفين... ولا مجال كي أحاول أن أمنح بعضاً مما أعرف عن رؤساء عالمنا .

وكالعادة السنوية صار استدعاؤنا لمقابلة الرئيس... ليوجه تحية سنوية للسكرتارية الدولية للمجلس العالمي للسلام ، بابُ القصر الرئاسي مفتوح . على بابه جندي جميل الثياب وبلا سلاح ، وبلا رغبة في أن يستوقفك ليسألك... إلى أين ؟ أو من أنت ؟ ففي الداخل سكرتيرة تصطحبك على الفور إلى الصالون الملحق بمكتب الرئيس . وعندما اكتملنا دخل كيكونين ليحيينا جميعاً فيما روميش شاندرا (السكرتير العام للمجلس) يقدمنا واحداً واحداً . بعد التحيات التقليدية المغلفة طبعاً بالمسافة الفنلندية المفترضة مع الغرباء ، وبعد نقاش سياسي بارد ، ففنلندا تحرص على سياسة متباعدة عن المشكلات ، وباردة بأكثر من برودة مناخها... إستدارت عينا الرئيس حتى هبطتا نحوي... اقترب مني ، ليعاود مصافحتي بحرارة غير فنلندية وينتحي بي قليلاً متحدثاً عن إعجابه المنبهر بمصر... وشعبها ، وقال : إنهم يحبونني جداً... (كنت شاهداً على هذا الحب ، لكنني كنت أعرف أنه مصنوع ومصطنع ، ففي زيارته لعبد الناصر حشد الاتحاد الاشتراكي ومنظمة الشباب ألوفاً من البسطاء اقتادوهم من مصانعهم ومؤسساتهم ومدارسهم ليصطفوا ويهتفوا بصوت منغم وغير وجداني « كيكونين... كيكونين » وهم بالقطع لا يعرفون من هو ، فإن عرف أحدهم أنه رئيس فنلندا ، فبالقطع لن يعرف مكانها على الخريطة... ولكن كيف أفسر له... وهل سيصدقني أن الحشد مفتعل بشكل شائن ومهين لكل من أرغم على الاصطفاف ، وكل من صفق ، وكل من هتف ، أو حمل صورة الضيف) ابتسمت... وابتسم فيما الدهشة

(وربما الغيرة) تأكل قلوب بعض الزملاء الذين دهشوا من أن الوافد المصري الجديد صديق للرئيس إلى هذا الحد .

والديمقراطية الفنلندية عميقة حتى أعماق البئر الفنلندية ، بحيث يتبدى الأمر وكأنهم يتنفسونها . وأذكر أن صحفياً نشر ذات يوم أخباراً تامة السرية عن لقاء تم بين كيكونين وبريجنيف ، وزمجر الروس إستياءً ، وعبر كيكونين عن غضبه ، وأراد أن يحفظ للأسرار الرئاسية بعضاً من الاحترام ، فاستدعى النائب العام الصحفي ، ورفض الصحفي الإفصاح عن مصدر معلوماته . وزمجر الجار الروسي مرة أخرى... واستدعي الصحفي مرة أخرى لسؤاله . وربما للتوسل إليه لإخراج حكومته من ورطة... وقامت الدنيا ولم تقعد إلا بظهور النائب العام على شاشات التليفزيون معتذراً... ومستقيلاً .

* * *

وصاحب يوم وصولي حادث اغتيال الرياضيين الإسرائيليين في ميونيخ ، وضج الكثيرون ، وضاعف اللوبي اليهودي الفنلندي (وهو كبير العدد والنفوذ) من الضجيج مستنداً إلى وداعة الفنلنديين ، وإلى تقديسهم للرياضة والرياضيين . وتبدت هلسنكي كلها وكأنها تضاعف من أحزانها الدائمة . وصباح اليوم التالي زارني في مكتبي ضابط أمن . تكلم الإنجليزية دونما حاجة لمترجم . أغلق باب غرفتي ثم اندفع مباشرة نحو الموضوع . الجالية اليهودية في هلسنكي مستفزة ومتوترة من الحادث . وقد يندفع أحدهم نحو فعل طائش إزاء أي عربي . والعرب هنا قليلون جداً (قال إن المصريين في هلسنكي ثمانية وأنا تاسعهم ، لكن الثمانية الآخرين أناس عاديون ، والأرجح أن تتجه سهام الانتقام ـ إن تقرر إنطلاقها ـ نحوك أنت ، فأنت سياسي ، ومجلسكم يتابع الدفاع عن القضية الفلسطينية فتكون الضربة

ضدك مزدوجة)... أكد أنه لا معلومات لديهم عن أي احتمال من هذا القبيل ، لكنه الاحتياط الذي يحتاط لأقل نسبة من احتمالات الخطر . وبدأ يلقنني أسرار بعض الاحتمالات... أنت تسكن في «لوهيلا» وهي حي هادىء (هلسنكي كلها هادئة) ، فإحذر في سيرك في الطريق فإن سمعت صوت سيارة خلفك اندفع بعيداً ، شمالاً أو يميناً ، فقد تندفع هي نحوك... وإذا عدت لمنزلك ووجدت سيارة قريبة من الباب ، وموتورها يعمل وبها سائق ، لا تدخل فقد يكون هناك من ينتظرك ليفعلها ثم تنطلق به السيارة . وعدد آخر من الاحتمالات أثقلت كاهل وافد جديد ووحيد... ثم قال : احتفظ برقم تليفوني . اطلبني لدى أي إحساس بالخطر . وبعدها نظر إلى ملياً وقال : أليست مصادفة غريبة ؟ أنت تشبه الهنود ، وزميلك في مجلس السلام الذي كان يسكن قبلك في ذات الشقة كان هندياً (تذكرت أن الباب كان يحمل اسم «باليوال» وكان ممثلاً للهند في المجلس ثم عاد لبلاده) ، قال : احتفظ باللافتة كما هي... وليعرف كل جيرانك أنك هندي فهذا أكثر أمناً .

في المساء مباشرة وفيما اقترب من بيتي (كانت ليلتي الثانية في هلسنكي ، تركت المكتب لأتجول وحيداً في شوارع المدينة الصامتة ، تسكعت بقدر ما احتملت قدماي ، تعشيت ، وعدت) أمام البيت سيارة ، موتورها دائر ، بها سائق ، تماماً كما وصف رجل الأمن المدرب . دبابيس مدببة سرت في جسدي ، هكذا يأتون سريعاً ؟ تراجعت بخطوات كتلك التي تلقنها لك الأفلام البوليسية غير المتقنة ، وبدأت أتلفت بحثاً عن تليفون . وداخل صندوق التليفون الزجاجي كانت عيناي معلقتين بالسيارة ، وبرغم الصندوق المحكم خيل إلي أنني أسمع طنين الموتور الدائر ، كطلقات رصاص تلاحق بعضها البعض . عبثاً حاولت أن أعبث في جيوبي بحثاً عن قصاصة الورق التي تحمل رقم التليفون المنقذ ، لم تكن هناك ، نسيتها

باستخفاف أبله على مكتبي ، وأُسْقِطَ في يدي وبدأت أبحث عن أية احتمالات إلا دخول البيت ، فكرت بأحد المترجمين في المجلس كان يسكن إلى جواري ، فرنسي اسمه جاك ، ذهبنا معاً إلى المكتب بالأوتوبيس (كلفوه بذلك كي أتعرف على الطريق) تقاربنا بعض الشيء... وسجلت رقم تليفونه ، طلبته ، حكيت له القصة ، كنت آمل أن يقول تعال نم عندي حتى الصباح ، لكنه قال انتظر عندك ، سآتي لك . بقيت داخل القفص الزجاجي لأتقي الهواء المثلج رغم أن الشتاء لم يحكم قبضته بعد ، ولأتقي احتمالات أن تلتقطني أعين المنتظرين عودتي... بعد حوالي عشر دقائق هي المسافة بين بيتينا سيراً على الأقدام أتى جاك... كنت خائفاً بالفعل ، ولم أخف ذلك عنه ، ولا أجد مبرراً لإخفائه الآن... قال ببساطة : وسأذهب وأرى ماذا يريد هؤلاء ، وابق أنت هنا . تحصن جاك بأوربيته وذهب ، تحدث طويلاً مع السائق... وعاد هادئاً ضاحكاً . والسائق باقٍ ، والسيارة باقية ، والموتور دائر .

والحكاية ببساطة أن مجلس الحي يختار كل يوم من أيام الأسبوع طبيباً مناوباً لإسعاف الحالات الطارئة . لا بد أن تبقى سيارة الحي تحت بيته . والموتور دائر دوماً كي لا تضيع دقيقة أو أقل في إدارة موتور بارد... ويشاء الحظ أن يكون الدور على طبيب يسكن في بيتي .

انتظمت أنفاسي . وعدت إلى بيتي .

* * *

وكان «بينتي» سائق المجلس يقوم بكل شيء . يصلِح ما يفسد في شققنا... ويستكمل ما ينقص منها دون أن يحتاج إلى طلب من أحد ، ذات يوم أطحت وأنا متجه للسرير بالأباجورة الأنيقة ، تعثرت في السلك

المسترخي على الأرض فسقطت وتهشمت لملمت البقايا ونمت آسفاً... في الصباح انهمكت في العمل ونسيت أن أبلغ السكرتيرة ، وفي المساء عدت لأجد أباجورة سليمة ، ولأجد نقودي التي تركتها على المكتب موضوعة في أحد الأدراج . دهشت ، وبصراحة عادت الدبابيس تسري تحت جلدي . أسرعت إلى التليفون لأبلغ السكرتيرة التي قالت بملل : إنه «بينتي» معه مفاتيح كل الشقق يمر عليها ويصلح كل شيء دونما حاجة لإخطار .

وأصبحت صديقاً مع «بينتي» المقيم إلى جوارنا وعرفت أنه مسؤول في لجنة الحي للحزب الشيوعي الفنلندي ، كان يتكلم لغة مميزة ، اصطلحنا على تسميتها «لغة السكرتارية الدولية» فهو يتعامل مع أعضاء يتكلمون كل اللغات ويلتقط من كل منهم عدة كلمات فيحدثك بطلاقة... جملة إنجليزية ، وأخرى فرنسية ، ثم ينطق ألمانية محكمة وروسية... وهكذا ، لكننا جميعاً تعلمنا كيف نفهمه ونتفاهم معه بلغته الدولية المتقنة . بعد فترة أصبحنا أصدقاء ، كنت أستمع إليه دوماً في رحلاتنا بالسيارة (إذا اقتضت حاجة العمل ذلك) متحدثاً بفخر عن حزبه... وعن نشاطه في الحي الذي أعيش فيه... (إنها شيوعية فنلدنية صرف فالنضال الذي نعرفه نحن ليس وارداً ، وما من أحد بحاجة إليه لا الناس ، ولا المجتمع ، ولا هم . وفي ليلة رأس السنة حيث يلتقي الأحباء والأقارب والأصدقاء... ويبقى وحيداً من لا أقارب ولا أصدقاء له ، مثلي . في تلك الليلة كان البرد شديداً أكثر من شدته المتشددة تقليدياً ، والشوارع تكتسي بردائها الأبيض المتقلب... في لحظة يمنحك هدوءاً وبهجة ، وفي لحظات أخرى يضيف إلى كآبة الوحدة والبرودة والاغتراب كآبة إضافية ، وتمشيت في شوارع «لوهيلا» لأقتل الملل... وفي منحنى مسقوف كان جمع غفير... من رجال ونساء مسنين في أغلبهم ، غالبتهم الوحدة فغلبتهم ، وفريق من شباب يتألق بالحيوية يغني ويرقص

ويمنح الجميع بهجة وبسمات وقبلات دافقة ، و« بينتي » في منتصف الحلقة يوزع زهوراً... وردة لكل واحد ممتزجة بعبارة حانية وقبله ، صافحني « بينتي » بحماسة غير فنلدنية ومنحني وروداً ، ودفع فتاة من فريقه لتترجم لي الأغنيات... لم أزل أذكر واحدة منها «نحن شباب الحزب الشيوعي... أصدقاء من لا صديق له ، أقرباء من لا قريب له ، أحباء من لا حبيب له» كانت دموع كثيرة تنساب في سعادة على وجنات متغضنة بفعل الزمن ، والوحدة المملة ، في بلد يكسوه الملل . وأحسست بدموعي تشارك في مهرجان الابتهاج) .

أردت أن أتعرف أكثر على هذا الحزب... فاقتربت من « بينتي » الذي سمع من أحد السكرتيرين عن تجربتي الطويلة في السجن ، وكنت لم أزل - أتباعد عن الحديث حول هذا الموضوع ، ليس تعففاً وإنما تأففاً... ولكي لا يتصور أحد أنني أبيع له ولغيره معاناة انقضى زمانها - ظل يلح في أن أحكي له ما كان ، وظللت ألح في أن أعرف أكثر هذا الحزب المميز جداً في أساليبه . وأخيراً جاء ليبلغني أن لجنة الحزب في الحي قررت دعوتي لاجتماعها الشهري ، أتعرف عن قرب ، وأتحدث عن رفاقهم في مصر .

صالة الاجتماع امتلأت في الموعد تماماً... كأنهم كانوا جميعاً معبنين في كيس ثم سكبتهم معاً في آن واحد . مترجمة جميلة جست إلى جواري لتمنحني دفء المتابعة لما يجري... سيدة عجوز تتشاجر في حنان هادئ مع جارها الأكبر سناً لأن كلبه يزعجها بحركته الدائمة . الرجل يحتج فكلبه يحب الحضور إلى الاجتماع ، ويسأل في جدية : هل تريدون أن أملأ له استمارة عضوية ؟ ويبدأ الاجتماع . رئيس الجلسة يتحدث عن أوضاع الحي ومجهودات اللجنة القيادية ، فيما أكثر من شاب يحتضن فتاته الجالسة على

ساقيه وينغمس معها في قبلة ممتدة لا تنتهي . علق «بينتي» : هم يحبون بعضهم ، ويحبون الحزب ، ولا تناقض .

حاولت بعد ذلك أن أتحدث عن مصر . عيناي تجولتا على الوجوه الممتلئة بالدهشة الخالية من القدرة على التصديق ، أحسست أنني أتحدث عن عالم آخر ، كوابيس تشبه أفلام هتشكوك ، تفزعك لكنك أبداً لا تصدقها ، وما أن تفيق من فزعك حتى تغتسل منها وتنساها ، انسحبت من الحديث عن هذا العالم الهمجي إلى درجة الخرافة ، وتحولت إلى ما هو مكرر ومعتاد... وممل .

* * *

وكان العمل في السكرتارية الدائمة للمجلس العالمي للسلام شيقاً ومشوقاً ، وأعضاء السكرتارية يمثلون خبرات رائعة ومتنوعة ، ومجرد التعايش معهم ، والعمل والحوار ، يمنحك خبرات ثمينة . كما أن العمل هناك يقتادك إلى رحلات عدة نحو عوالم لم تكن لتحلم بالانتقال إليها... ولا التعايش مع صفوة من شخصياتها المرموقة كما تعايشت وتعلمت ، والعيب الوحيد تمثل في الاجتماعات المستديمة . فالسكرتير العام روميش شاندرا «هندي» لا يشعر لا بالتعب ولا بالملل من الاجتماعات . وطالما أنت في هلسنكي فأنت مدعو إلى اجتماع مستطيل بطول زمن بقائك في المقر . والموضوعات بعضها ضروري ومفيد ، وأكثرها ممل ومكرر ومعاد واعتدت أن أميز بين من استمع وأستفيد من الاستماع إليهم... وبين من أفلت بنفسي من الإنصات إليه... والأمر سهل جداً ، ففي الاجتماعات كل يتحدث بلغته إلا أنا بالطبع فلا ترجمة عربية ، ويتطلب الأمر وضع سماعات على الأذنين ، وتعلمت أن أميز ، وأن أختار متى أفتح السماعات ومتى أغلقها . وإذ أغلقها

لأوقات طويلة حيث يتسرب الحديث مملاً عن تجربة العمل السلامي في مدغشقر أو ما إلى ذلك . كنت أستشعر مللاً قررت أن أستثمره في متابعة الكتابة في كتاب بدأته هناك قطعاً للملل المخيم على هلسنكي كلها... واخترت موضوعاً لا يحتاج إلى مراجع عربية كثيرة وهو : «تأملات في الناصرية» ، وفيما يبدأ الاجتماع بخطاب طويل لروميش ، هو بالضرورة معاد مهما اجتهد في إضفاء مسحة من الجدة عليه ، كنت أسرع لأغلق السماعات واستغرق تماماً في الكتابة بينما عيناي المحاذرتان تتابعان المتحدثين ، وتعرفان كيف توجهان إليّ إشارة بأهمية الاستماع ، أما لمتابعة ما هو مفيد وضروري ، أو استعداداً لمشاركة حتمية في النقاش . كانت الكتابة العربية حصناً فلا أحد يقرؤها وتصور الجميع أنني من فرط حرصي أدون محاضر للاجتماعات . (ذات يوم فتحت السماعات لأن العينين لمحتا ما يوحي بشجار عنيف ، كان السكرتير السوفيتي المترفع «نيقولا فوشنين» يتقول شيئاً عن روميش ، ويدعي عليه... وروميش ينفي أنه قال ، ثم حسم الأمر... «حسناً . دكتور سعيد يسجل الجلسات لنعد إلى المحاضر التي يدونها» تدخلت سريعاً لأهدئ النقاش ، رافضاً مبدأ الاحتكام ، فما دام روميش ينكر قول شيء فهذا يكفي ، مؤكداً أن كراسات المحاضر في البيت وليست هنا) . وأثمرت جلسات السكرتارية كتاباً من أحب ما كتبت . قرأه خالد محيي الدين في واحدة من زياراته لهلسنكي لحضور اجتماعات رئاسة المجلس ، أعجب بالكتاب ، لكنه تعجب من رغبتي في نشره ، فسوف يثير زوبعة ليس ضدي شخصياً فحسب ، ولكن ضد تيار بأسره ، وربما ضد المجلس المصري للسلام أيضاً... وهكذا اتفقنا على أن يصدر كتاب «تأملات في الناصرية» باسم سري «محمد فريد شهدي» (اسم مركب من «محمد فريد» الزعيم الوطني الأقرب إلى قلبي ، وشهدي عطية الرفيق المحبب إلى

قلبي أيضاً) ، وقد نشرت العديد من المقالات والدراسات في مجلة «دراسات عربية» بهذا الاسم... ونشرت «دار الطليعة» (بيروت) الكتاب . طبعته مرتين بالاسم السري ، ثم تجاسرت (بعد أن تغير الزمن بعض الشيء) فنشرته باسمي الحقيقي .

* * *

وأثناء زيارتي إلى بنجلايش ، وأثناء الاجتماعات الدولية التقيت بالرفيق الهندي «باليوال» الذي أقمت بعده في شقته الهلسنكية ، وحكيت له عن قصة انتحالي لشخصيته هرباً من احتمالات اعتداء عليَّ كعربي... ضحك فزعاً ، ألح في أن أتنصل من ادعائي الهندي... همس في أذني . أنا نفسي تركت هذه الشقة و«لوهيلا» وفنلندا كلها بعد أن هددني كشميري مسلم بالقتل انتقاماً من المذابح التي يرتكبها الهنود ضد شعب كشمير .

عندما هبطت طائرتي العائدة من بنجلاديش ، أسرعت لأزيل لافتة باليوال من على باب شقتي ، واتخذت ثيابي العربية بين جيراني... خاصة أن المشاعر كانت نسيت مأساة ميونيخ .

شيلي ... الليندي

ولقد كان التعارف مع سلفادور الليندي قديماً ، منذ أن كان مناضلاً عادياً في صفوف حركة السلام .

دوماً كان يحضر الاجتماعات ، ودوماً كان يتحرك صحبة بابلو نيرودا شاعر شيلي العظيم . بابلو شيوعي ، وهو اشتراكي ، وكانا صديقين وحليفين .

ومنذ البداية تعرفت على أعمق أعماق فكر الليندي وتفكيره . كنا في اجتماع لرئاسة المجلس العالمي للسلام في مدينة «لاهتي» الفنلندية ، وكان الجو بارداً حتى بالمقياس الفنلندي . وسرنا معاً نيرودا وهو ورفيق فنلندي بيكاتا بيولا وأنا . تجاذبنا أطراف الحديث ونحن نمشي عبر ساحة شاسعة ترتدي ثياباً ثقيلة من الثلج . فجأة قال «بيكا» ببساطة بريئة : في الصيف يكون هذا المكان جميلاً... قوارب وألعاب مائية . قلت مندهشاً : كيف ؟ قال بذات البساطة : ألا تعرف أننا نسير الآن فوق بحيرة .

صرخت بالعربية ثم بالإنجليزية ، أو بهما معاً في فزع لا يستطيع أن يخفي نفسه .

قال الليندي بهدوء هادىء : لو كان هناك ثمة خطر ، لكانت الحكومة قد وضعت إشارة تحذرنا من المرور هنا .

قلت في هلع من لا مخرج له ، فأنا الآن وسط البحيرة : وهل أغرق ثم أحتج ، لأن الحكومة لم تحذرني ؟

قال : «هذه مسئوليتها . ومسئوليتنا أن نعتمد على تحملها للمسئولية ، وأن نفرض عليها بذلك تمسكها بتحمل المسئولية . هذه هي الأسس الأولية لمشروعية العلاقة بين الحكم والمحكومين» .

واستطال جدل طويل حول هذا الموضوع هو وبيكا في جانب ونيرودا وأنا في جانب آخر... وتحول النقاش إلى عراك فلسفي حول نظرية الحق في منظورها الليبرالي ، ومن منظورها الماركسي . وطوال الحديث كان نيرودا يلسع الجميع بنكات حادة وحارة .

ويومها عرفت الليندي جيداً . وكنت كلما تابعت تصرفاته منذ أصبح رئيساً ، وحتى أصبح شهيداً ، أستعيد ذكرى مناقشات حامية ونحن نسير فوق بحيرة مجمدة... ودرجة الحرارة أربعون تحت الصفر .

وأصبح الليندي رئيساً . ووجه الدعوة لأصدقائه القدامى لعقد اجتماع لرئاسة المجلس العالمي للسلام في سنتياجو .

وكانت الطائرة السوفيتية تتمشى بهدوء ـ أو هكذا خيل إلينا ـ فوق السحاب ، حتى خيل إلينا أن الطريق بلا نهاية . ثمانية وثلاثون ساعة من الطيران... مع وقفة لا بد منها في هافانا الجميلة .

وفي سنتياجو كانت تجربة جديدة تماماً . فنحن في النصف الآخر من العالم ، بل نحن في عالم آخر . وها هي تجربة اشتراكية تنبت كزهرة جميلة في صحراء موحشة . وهي موجعة أكثر بالنسبة للخصوم ، فالطريق الذي اجتازته ووصلت به إلى السلطة مغلف بالديمقراطية ، فالليندي أتى للحكم في

انتخابات حرة وبإرادة شعبية . وهو فوق هذا يبحث عن وسيلة لبناء اشتراكية في إطار ديمقراطي ، وفي ظل التعددية الحزبية ، والحريات الديمقراطية الكاملة .

ولعل هذا هو السبب الذي شحذ الخصومة ضده وجعلها أكثر حدة ، وربما أكثر وحشية . وظل الليندي متمسكاً طوال فترة حكمه بذات النظرية التي دافع عنها بحرارة أوشكت أن تذيب بحيرة لاهتي الفنلندية الجليد . نظرية الحق الليبرالية... المطلقة ، بلا أية قيود ، وأتاح الفرصة لخصومه من أقصى اليمين الفاشي إلى أقصى اليسار المتطرف كي يوجعوا تجربته بطعنات غير مسئولة . وتحالف الجميع ضده ، الرأسماليون الذين أذهلهم وصول الاشتراكية للحكم ، ومعهم أمريكا وكل رجالها وأجهزتها ، والفاشست الذين تكاثروا بدعم أمريكي صريح ، واليسار المتطرف الذي اعتبر الليندي (الاشتراكي) وحلفاءه (الحزب الشيوعي) مجرد انتهازيين يحاولون تعطيل عجلة الثورة بحلول جزئية ، وإجراءات معتدلة . وقبل هؤلاء بل وخلف هؤلاء جميعاً كان جنرالات الجيش يتربصون ، ويتآمرون ، وينتظرون الفرصة السانحة .

كانت سنتاجيو تعج بالمظاهرات ، والمظاهرات المضادة ، كل يوم ، بل كل ساعة (بقينا هناك عشرة أيام لم يخل يوم منها من عشرات المظاهرات... اليمين الرأسمالي يحرك نساء يحملن أواني الطهي ويضربن عليهن بالملاعق في مظاهرات صاخبة ذات ضجيج مخيف معلنين أنه : لا طعام ، واليمين الفاشي (المدعوم من أمريكا) يسيّر مظاهرات تخفي أنصاف الوجوه بمناديل سود ، وتحمل عصياً ومعاول كنوع من التهديد ، وجماعة «الموبر» (اليسار المتطرف) تزهو بالمظاهرات إثر المظاهرات رافعة صور جيفارا ، رافضة الحلول المعتدلة ، والليبرالية ، ومطالبة بحلول

حاسمة وجذرية على النمط الكوبي (قيل أيامها أن كوبا تدعمهم) وشيلي تصاب بصداع شديد من هذا اللغط المتصادم في تصاعد مبالغ فيه . وتصاب أيضاً بلا مسئولية اليسار المتطرف الذي أنهك التجربة الوليدة بحرب عنيفة أثمرت وفقط انقلاباً عسكرياً دموياً ووحشياً... وتصاب كذلك بمؤامرات اقتصادية راهنت على تخفيض أسعار النحاس في السوق العالمية ، وعلى المضاربة على العملة الشيلية وتدميرها... (رسمياً كان البيزو = دولاراً ، وفي السوق السوداء كان الدولار يساوي ٤٠ أو خمسين بيزو) ، وأسهم الجميع في اللعبة غير النظيفة (ليلة وصولنا إلى سنتياجو أقام الليندي حفل استقبال رسمي في القصر الرئاسي... أثناء الاحتفال اقترب مني شخص مصري لا أعرفه سألني حضرتك فلان ؟ قلت : نعم ، قال : خللي دول معاك ، ودس في جيبي لفافة كبيرة . انزعجت ، فأنا لا أعرف الرجل . في دورة المياه فتحت اللفافة لأكتشف أنها نقود شيلية . توجهت للرجل ، قال إنه دبلوماسي مصري... حرام تغير فلوسك في البنك ، نحن نغير لك في السفارة ، الدولار بستين بيزو . بمعنى أنك تستطيع أن تشتري بدلة من أحدث طراز بدولارين ، أو جاكت شامواه بدولار واحد ، وبالمناسبة لاحظت أن السفير المصري يستمتع بعلاقة حميمة مع الليندي ، ووقفنا نحن الثلاثة طويلاً ، ذكرته بحديثنا عن نظرية الحق خلال مرورنا فوق البحيرة في لاهتي ، أكد أنه متمسك بموقفه ، وتحدث بشكل حميم مع السفير . فسر السفير الأمر هامساً ، عبد الناصر أسهم بخمسة ملايين دولار في تمويل حملة الليندي الانتخابية . وذات السفير هو الذي سلم المبلغ للرجل الذي أصبح رئيساً) .

* * *

وقدم الحزب الاشتراكي والحزب الشيوعي أجمل ما لديهما من فتيات لمرافقة الوفود ، مترجمة لكل اثنين ، محجوب عثمان (السودان) وأنا ، لنا مرافقة من الحزب الاشتراكي ، كان محجوب يمتلك في وجهه مجموعة من الشقوق (إنها تقاليد قبيلة الشايجية التي تمزق خدود رجالها... لتثبت أنهم رجال) فجأة اكتشفت أن الفتاة الاشتراكية التشيلية تسكب كل اهتمامها نحو محجوب ، قال لها إن هذه الشقوق في خديه من جراء تعذيب وحشي في سجون العدو الطبقي ، صدقت الفتاة وأعطته ما تصورت أنه يعوضه عن زمن صعب .

وكعادة السوفييت ـ ومن ثم مجلس السلام العالمي ـ كان استدعاء أمريكيين إلى الاجتماعات يمثل انتصاراً حاسماً .

وفي هذا الاجتماع حضر قس أمريكي زنجي... اسمه القس أبيرناتي . كان رجلاً طيباً وسكيراً لا يتوقف عن ممارسة السكر . في الجلسة العامة للمؤتمر وقف أبيرناتي سكران حتى الانطفاء ، ألقى خطاباً مؤثراً عن التفرقة العنصرية ، قال إن البعض يصفه بأنه قبيح لأنه أسود . شعشعت الخمر في رأس القس قال : لكنني أشعر بأنني جميل ، ألست جميلاً... أنا جميل فعلاً... فليحيا أنا ، اهتفوا معي فليحيا أبيرناتي .

وكانت مشكلة ، لكن المشكلة الأكبر والأفدح كانت عند المغادرة ، وأكد الفندق أن السيد القس قد شرب بما يساوي ستمائة دولار خموراً... ورفض أن يدفع... واضطررنا أن ندفع نحن (مجلس السلام العالمي) نيابة عن السيد القس .

* * *

وفي ختام أيام المؤتمر ، وفي قاعة «الاونكتاد» (بنيت خصيصاً لينعقد

فيها مؤتمر الاونكتاد)... دعا الليندي عدداً من قادة الأحزاب العمالية والتقدمية والشيوعية إلى لقاء مفتوح .

على المنصة كان الليندي وقادة الجيش ، ثمة شخص تعرفت عليه فيما بعد ، نظارته السوداء وشت به ، إنه بينوشيه الذي قاد الانقلاب ضد الليندي ، ثم قاد حكم العسكر الفاشستي بعده .

جرت مناقشات صريحة . تحدث الليندي عن تجربته ، ووجهة نظره ، وتصوره للمستقبل ، ثم انهالت الأسئلة ، بعضها كان مريحاً والبعض لا .

سؤالي كان غير مريح : هل تثق في هؤلاء العسكر ؟

تلفت الليندي نحو الجنرالات المصطفين على الجانبين وقال : لقد وعدوا وعداً جازماً باحترام الدستور . التفت إليهم قائلاً : أليس كذلك ؟ كان الرأس المميز بالنظارة السوداء هو الأسرع للتأكيد .

وعندما عدت إلى هلسنكي أرسلت إلى مجلة الطليعة مقالاً عنوانه «شيلي... بين فكي كسارة البندق» ، منحت فيها مستقبل تجربة الليندي صورة قاتمة... بل شديدة القتامة . واحتج الكثير من الرفاق على هذه الصورة القاتمة... لكن الحدث المتسارع قدم اللون الأكثر قتامة .

الجيش لم يحترم تعهده (!) وتحرك ضد الحكومة الشرعية . الليندي... ذات الرجل صاحب النقاش الحار عن مشروعية الحكم فوق بحيرة لاهتي ، يرفض الانقلاب ، ليس لأنه ضده ، وإنما لأنه ضد المشروعية .

القذائف تنهال على قصر الرئاسة ، الجميع يهربون ويتركون الرئيس ، الجيش يطلب منه أن يستسلم كي يعيش في المنفى ، هو يرفض ، فالمشروعية معه . أصوات الأغلبية انتخبته . ترى هل تذكر إلحاحي ، أم تذكر النكات الصارمة لصديقه الحميم بابلو نيرودا ، لكنه رفض هذا وذاك

ولبس ـ على غير العادة الديمقراطية ـ خوذة . وحمل رشاشاً ليحارب دفاعاً عن الديمقراطية... والشرعية... وقتل .

* * *

لكن تجربتنا في شيلي لم تكن كلها من مقاعد المتفرجين... في لحظة تفرج علينا الكثيرون .

في إحدى حفلات الاستقبال التف حولنا نحن العرب شاب أنيق جداً قال إنه من أصل لبناني... كلمة عربية واحدة كان ينطقها جعلته يتقرب منا... كان يسلم وينحني قائلاً : «أهلاً يا أفندم»... وكان يزهو بسيارة فارهة ويقدم نفسه كمدير لأحد البنوك ، وفي ذات ليلة حضر «الصديق» اللبناني الأصل ، استدرج مرسي سعد الدين (حضر ممثلاً لمنظمة التضامن) إلى دعوة عشاء في مطعم قريب ، وبالمناسبة وجه الدعوة لكل من قابله من مترجمين ومرافقين ومرافقات وأعضاء الوفود... وتطلب الأمر إعادة ترتيب المطعم لتصطف عدة موائد إلى جوار بعضها حتى تتسع لحشد المدعوين... وتوالت الطلبات... ويسكي وشمبانيا واستاكوزا... وموسيقى صاخبة... أنا لم أبتلع الأمر من البداية . همست في أذن مرسي من سيدفع ثمن ذلك كله... أشار إلى هذا اللبناني الأصل... قلت وماذا لو تكشف عن نصاب ؟ ضحك مرسي وقال : اقعد يا أخي . ولم أقعد ، وانصرفت . بعد عدة ساعات تذكرت «مرسي» ، رأسي أطلت محاذرة من شباك المطعم ، لأجد مرسي جالساً ومعه اثنين أو ثلاثة... ما أن لمحني حتى صرخ منادياً... قال لي بأسى : الواد اللبناني هرب... والحساب ضخم .

عدت إلى الفندق استدنت من كل أعضاء السكرتارية الدولية ، المقيمن معي في هلسنكي... جمعت المبلغ المطلوب لأسدده في هلسنكي (طبعاً

استفدت كثيراً من فارق سعر العملة ، فسددت عدة مئات من الدولارات) لكننا قضينا طوال رحلة العودة نضحك جميعاً... على دعوة السيد اللبناني الأصل .

بنجلاديش

ربما بسبب حسابات هندية (روميش شاندرا السكرتير العام) أو حسابات سوفيتية (أيد الاتحاد السوفيتي هو أيضاً قيام بنجلاديش كانقسام عن باكستان) ، أو ربما بسببهما معاً كان الإسراع بانعقاد رئاسة السلام العالمي في بنجلاديش الحديثة الاستقلال .

ومن هلسنكي إلى موسكو ومنها إلى بومباي ثم إلى دكا رحلة طويلة... طويلة ، وفي مطار دكا كان ألوف من البشر يقفون بلا مبالاة في شرفات المطار وصالاته ، وما حوله .

كان روميش حسن النية فقال في بهجة غامرة يبدو أن ثمة استقبالاً جماهيرياً حاشداً ، لكننا تركنا الطائرة دون أن يهتز أحد من الواقفين... بضعة رسميين فقط ينتظروننا أما الآلاف فهي رمز حي للواقع .

ملايين بلا عمل ، وبلا مأوى ، ولا يجدون ما يفعلون فيبحثون فقط عن مكان للجلوس... ويظلون جالسين .

وعندما تتجول في شوارع دكا يدهشك بل يفزعك عدد المواطنين المقيمين في الشوارع ، فهم بلا مأوى ، أسر كاملة تقيم ، تحيا ، تستقر ، تتناسل في مساحة صغيرة على الرصيف... مساحة صغيرة لأن

آلاف الأسر تتزاحم على الأرصفة ، بل وتتصارع على مساحة صغيرة منها .

ويزيد المنظر درامية هذا المطر المنهمر بشكل دائم كعصي سميكة من الخيزران تصفع كل ما تقابله... إلا هؤلاء الجالسين في امتثال مثير للدهشة على الأرصفة والمطر يمنحهم حماماً دائماً... يتقبلونه في هدوء... هادئ .

ومنذ الخطوة الأولى في صالة المطار سمعت صوتاً مصرياً يصيح «يا مصري» . تلفت حتى تلاقينا . كان شاباً مصرياً يعمل مساعداً للملحق التجاري المصري . (حسابات الدبلوماسية المصرية بين المتصارعين الهند وباكستان ، قررت كمحاولة لجس النبض الاكتفاء بممثلية تجارية . وحتى في هذا الإطار اكتفت كخطوة أولى بمساعد للملحق التجاري) .

كان الفتى المتحمس هو الرسمي المصري الوحيد ، وسمع بالمصادفة أن مصرياً سيصل ضمن وفد السلام . أتى إلى المطار ليستقبلني ، وليحذرني . أرجوك لا تأكل في أي مطعم ، فالكوليرا منتشرة انتشاراً مخيفاً ، والناس هنا يتعاملون معها باستخفاف . هدأت من روعه ، قلت نحن سنقيم في «هليتون» ، قال : ولو ، الكوليرا هناك أيضاً .

واقترح كحل أن آكل وجباتي الثلاث في بيته ، طبعاً رفضت ممتناً .

لكن هذه النصيحة أفادتني ، فالإفطار أمره سهل... أما الغداء فقد تأملت المتاح جيداً ووجدت أن أكثر الأطعمة أمناً هو الموز . فلا مجال للتشكك في نظافته .

واعتاد الجرسون الأنيق أن يحضر لي في كل وجبة غذاء عديداً من أصابع الموز الآسيوي الضخم وفقط . آكل وأشبع وأنا مطمئن . أسموني أيامها «مستر بنانا» ، وكان معنا رفيق عراقي من أصل أرمني اسمه «آرا» ظل يتهكم عليَّ ، وينعى عليَّ ترفعي ، وخوفي ، ويغيظني بالحديث عن طعام

لذيذ... وذات صباح مبكر أيقظني رنين تليفون... كان آرا يصرخ : كوليرا . ويقول إن الفندق تقبل الأمر بهدوء ، فلما ألح وصرخ وهاج ، قال له عامل الاستقبال : لا تخف إنها كالانفلونزا تأتي وتذهب . نسيت تهكمه وأربكني صراخه ، وحاولت قدر استطاعتي مساعدته ، وأخيراً تفتق ذهنه عن حل غاية في الغرابة (لعله لا يخلو من مغزى) قال : استدعى لي تاكسياً... وعندما أتى التاكسي وفيما كان يتحامل على كتفي ، ركب وقال للسائق : إلى السفارة السوفيتية .

بعدها بيومين عاد سليماً . عالجوه هناك في عيادة خاصة بهم .

وكان سكان بنجلاديش في حالة من العداء المخيف للباكستان . وكان لهم ما يسمونهم «أسرى» هناك ، وظلوا يحيطوننا حيثما ذهبنا بهتافاتهم «ساعدونا... ساعدونا نريد أسرانا» . ولم نكن نملك سوى سطراً أو سطرين من قرارات الاجتماع نتحدث فيها عن الأسرى . وقد بلغت الكراهية للباكستان حدوداً غير مسبوقة ، (روى لي الشاب المصري أن رسالة وصلته من القاهرة وعليها اسمه باللغة العربية ، وتصور ساعي البريد أنها قادمة من باكستان لتشابه الحروف المستخدمة ، فقاد مظاهرة إلى بيته تهتف بسقوط باكستان ، وشرح لهم الشاب الأمر ونفد بجلده من كارثة) .

والصراع السياسي متفجر في دولة حديثة ، زعيمها المهيب «مجيب الرحمن» قاد معركة الاستقلال ، لكنه لم يستطع أن يقود ما بعد الاستقلال . الفساد انتشر كالكوليرا وربما أسرع .

وفي الفندق تلقيت قصاصة ورق من أحد الجرسونات . ثم وعبر ترتيبات دقيقة كنت في بيت متواضع لكنه أنيق . وأتى وجه لاحظته من قبل بين المستقبلين في المطار . قدم نفسه باسم سرى «هارون الرشيد» (بهذا الاسم أيضاً كتب مقالاً جميلاً عن أوضاع بنجلاديش نشرته له في مجلة

الطليعة) قال إنه أحد قادة الحزب الشيوعي . وأن الأوضاع تتردى أسرع ما يتوقع الكثيرون . قلت : تتردى . أنتم لم تبدأوا بعد . قال : النساد يسيطر على كل شيء ، بينما الناس تموت جوعاً ، حكى قصصاً كالخيال... المعونة السوفيتية من الأرز والحبوب تسرق لتباع في الهند ، أما الأكياس المعبأة فيها والمكتوب عليها «هدية مجانية من الاتحاد السوفييتي ـ غير مخصص للبيع» فقد وجدت من يستولي عليها ليحولها إلىٰ ملابس ، ويتجول الناس... مكتوب عليهم «غير مخصص للبيع» .

وروى واقعة أكثر غرابة... السوفييت قرروا تقديم عون لتصنيع البلاد... واتفقوا على إقامة مصنع للنسيج ، وعين مجيب الرحمن إبن أخيه مديراً للمصنع . وصلت الآلات . بيعت في اليوم التالي للهند ، وأسقط في يد الجميع ، ولم يتجاسر أحد على محاسبة إبن أخ الزعيم .

وقصص تفوق الخيال كانت تتدفق . وهارون الرشيد يحاول أن يشرح موقفهم المعقد . هم مع الاستقلال ، ويؤيدون مجيب الرحمن بطل الاستقلال ، وأيضاً بسبب سياسات خارجية معادية للاستعمار ومؤيدة للسلام العالمي وللاتحاد السوفيتي . لكن الفساد يأكل كل شيء ، ويدمر مصداقية الزعيم والزعامة والسياسة والاستقلال والسوفييت معاً . والأمور مهددة بالانفلات (أتى الانفلات فيما بعد في شكل انقلاب عسكري ، اغتيل الزعيم خلاله) .

وحكى «هارون الرشيد» عن إصرار السوفييت على ضرورة تجاهل العناصر السلبية ، بل والضغط عليهم لتجاهلها... وكان طبيعياً أن تنمو في صفوف اليسار تيارات شديدة التطرف .

وفي اجتماع جماهيري تحدث فيه مسؤلون ، وروميش شاندرا ، لمحت عينين كعيني ثعلب تنفلتان فوق جسد ضئيل ونحيل بين المحتشدين وقوفاً ، وتدس في يد كل منهم منشوراً .

كان الثعلب ينفلت في براعة ويوزع المنشور السري بكفاءة... وأفلت أخيراً من رجال الأمن الذين حاولوا اصطياده .

كان المنشور عاصفاً . كان مكتوباً بالإنجليزية لأنه موجه لنا نحن أعضاء الوفد السلامي... ويبدأ :

«أيها الكلاب يا عملاء الامبريالية السوفيتية...» .

وتحدث المنشور طويلاً ضد الزعيم والفساد ، وانعدام الديمقراطية... والنفوذ الهندي ، وضد أمريكا ، والاتحاد السوفيتي ، وضدنا نحن الكلاب الآتين لمنح الحكم الفاسد والعميل دعماً دولياً .

والتوقيع : تحالف الحزب التروتسكي والحزب الشيوعي الثوري (ذا توجه صيني) .

الغريب أنني قابلت عن طريق هارون الرشيد واحداً منهم . كان أنيقاً وهادئاً وعاتبته على العبارات الحادة... الكلاب ، العملاء . قال بذات الهدوء : بغض النظر عن الأشخاص والعلاقة الشخصية أنتم كلاب فعلاً ، وعملاء فعلاً . وأشار إلى «هارون الرشيد» : وهؤلاء أيضاً عملاء... وكلاب .

ولم أجد ما أجيب به .

وفي الوداع الرئاسي وجهت الدعوة للجميع لحفل استقبال في مقر رئيس الجمهورية (إنه ذات النظام السائد في المنطقة ، النفوذ الأقوى لرئيس الوزراء ، ولرئيس الجمهورية سلطات هادئة وشكلية... لكنه رئيس جمهورية على أية حال) .

وفيما الجميع منهمكون في حديث مُلْتَفَّيْنَ حول مجيب الرحمن الذي كان متواضعاً ، وحسن الاستماع ، وحلو الحديث ، جاء مدير بروتوكول الرئاسة ليطلب اثنين لمقابلة رئيس الجمهورية على انفراد . المصري والعراقي . دهش الجميع . وكان أكثر الجميع دهشة روميش شاندرا فهو

السكرتير العام ورئيس الوفد وهو أيضاً هندي . المهم ، وفيما الدهشة تغلفنا ، انصعنا لرجل البرتوكول الصارم ، عزيز شريف سكرتير حركة السلام العراقية وأنا .

وفي ردهات القصر المنيف الذي ورثوه عن الاستعمار البريطاني ، تبادلنا علامات الاستفهام بلا إجابة . ودخلنا مكتب الرئيس ، تقدم الرجل ، احتضننا في حماسة وكأنه يتبرك بنا . ثم قال : لي رجاء خاص جداً أرجو من كل منكما أن يعدني به . أنت ، أشار إلى عزيز شريف ، عندما تعود لبلدك أرجوك أن تقرأ لي الفاتحة عند مقام سيدي عبد القادر الكيلاني (وقال : أيام المحنة سافرت ماراً هناك وقرأت الفاتحة ، وطلبت شفاعته وها هو يحقق لي كل أحلامي) وفيما يهز عزيز شريف رأسه واعداً ، اتجه الرجل إليَّ ليمرر يديه على كتفي تبركاً ، فأنا قادم من بلد الأزهر الشريف (لم أشأ أن أصدمه وأقول إنني قادم من هلسنكي وعائد إلى هلسنكي) ، ثم قال : أما أنت فهل تعدني أن تحقق لي أمنيتي... أن تقرأ لي الفاتحة أمام المشهد الحسيني . ووعدته .

سلم الرجل علينا واستعد للخروج لمقابلة ضيوفه . أما أنا وعزيز فقد توقفنا في أحد الممرات تغلفنا حيرة شديدة ، سوف يسألنا الجميع في شغف متحفز عن سر المقابلة الرئاسية ، فبماذا نجيب ، كي نتجنب سخرية الأعضاء الغربيين ، وغير الغربيين في الوفد ؟ واقترح عزيز شريف أن نعتصم بالصمت لنوحي أن هناك أمراً مهماً لا نريد البوح به .

لكن روميش شاندرا ظل متوتراً حتى أفضيت له بالحقيقة ونحن في الطائرة .

روما ...
سجن وسلام وأوهام

لم أزل أذكر أولى خطوات الفتى الذي كان ريفياً إلى خارج البلاد .

مؤتمر استكهولهم لنصرة الشعب الفيتنامي (الشعب الذي تركزت وتعلقت أنشطة حركة السلام العالمية بحركته وثورته) .

كان ذلك في عام ١٩٦٨ ، كنا نتعثر في أذيال النكسة . ونحن نصرخ دفاعاً عن بسالة الفيتناميين . وأشار واحد من الوفد المصري إلى رجل وقور هادىء الخطو وكأنه يفرض الحذرَ على كل خطوة عن عمد ، الشعر أبيض تماماً رغم أن السن لا يوحي بذلك . وقال : هذا توفيق طوبى ، عربي من الناصرة ، وأحد قادة الحزب الشيوعي الإسرائيلي .

دون محاذرة مفترضة أو مفروضة... إندفعت بحماسة ريفي... أسلم وأرحب وأمتدح... وأستعيد بعضاً مما قرأته عنه ، وعن شجاعته في مواجهة العدوانية الصهيونية... هو ظل هادئاً ، ومتحفظاً ، ومندهشاً ، وأيضاً... بارداً ، لعله كان يدرك أكثر من غيره أني أخرج عن النص ، وإنها مرة وحيدة ثم أفهم... وأتعلم أو أتلقى أمراً . ثم أمتنع عن مجرد إلقاء النظر نحوه .

قال مبتسماً : «ألا تخاف من زملائك ؟» ، وأضاف : «قد يعيبون عليك هذه الحماسة» .

تركته لتتلقفني نظرات ، ولعنات ، وغضب غاضب ، لعل أقله كان من الوفد المصري ، وأكثره عربي .

أكد الجميع أن هذا ممنوع . وكانت نظرات الوفد المصري تعتذر نيابة عن هذا الغشيم الذي خرج على الصف العربي الموحد .

ولم أقتنع...

وسألت : لماذا ؟

- لأنه إسرائيلي .

- هو عربي .

- لكنه مقيم في إسرائيل .

فهل كان من الواجب أن يترك أرضه ، ويهاجر ويصبح مجرد لاجىء كي تحتفوا به ، أم أن الأفضل أن يبقى هناك شوكة في حلقهم ؟

- هو يحمل جواز سفر إسرائيلي . قالها أحدهم بتقزز كي يحسم النقاش .

- وهل من الأفضل أن يبقى هناك سجيناً ، ولا يسافر للخارج ، فيأتي إلى هنا ، ويدين إسرائيل وسياستها وعدوانها ؟

كان الحوار يجري بالسوري واللبناني والعراقي والمصري .

وكان أحمد الخواجة يمسك بذراعي ، يضغط عليها ليوحي لي ألا أسترسل في الحوار ، أخيراً سحبني ، أنقذني منهم ، أو أنقذهم مني قائلاً إنه لا مبرر لهذا التحدي ، فقد يفهم فهماً خاطئاً من جانب الوفود العربية ، وأغلبها رسمي... ويتصورون أن موقفي هو أيضاً مصري رسمي .

أحسست أن الرجل أحس بما حدث فقد إنعقدت حلقة المحاكمة بعد تركي له مباشرة... وبينما هو يتشاغل عنا غير بعيد عن مرمى كلماتنا... وإكتفينا بعد ذلك بنظرات باسمة... معتذرة ، ومتفهمة . لكنني كنت في

أحيان كثيرة أبعث إليه بتحية علنية ، فقط لأغيظ الآخرين ، ولأقنع نفسي أنني لم أخف منهم .

وبعد عدة سنوات أمكن إختراق هذا الموقف ، وأمكن لبعض من العرب أن يكتسبوا بعضاً من العقل ، وأن يتقبلوا إمكانية القول بأن ثمة قوى سلام في إسرائيل ، يمكن الاتصال بها ، أو حتى الجلوس معها .

وفي نهاية ١٩٧٢ ، (كنت لم أزل في هلسنكي) وبمبادرة من خالد محيي الدين (عبر رسالة دعوة وجهها لحركات وقوى السلام في العالم) بدأ الاستعداد لعقد مؤتمر عالمي ضخم تحت إسم «العدل والسلام في الشرق الأوسط»... وتبنى الإيطاليون هذه الفكرة وتقرر أن ينعقد المؤتمر في مدينة «بولونيا» عاصمة مقاطعة إميليا رومانو الإيطالية (كان حاكم المقاطعة جودوفانتي شيوعياً ، ومن النشطين البارزين في حركة السلام الإيطالية) .

وبدأنا حملة إستعداد ضخمة... وتشكلت لجنة تحضيرية دولية كنت بالضرورة عضواً فيها (بصفتي المصرية فالمبادرة مصرية ، وبصفتي الدولية كمسئول عن ملف الشرق الأوسط في المجلس العالمي للسلام) . وتواصلت رحلات مكوكية رتيبة إلى درجة مثيرة للدهشة والملل معاً ، إلى روما صباح كل سبت ، ومن روما إلى هلسنكي مساء كل أحد .

وفي الجلسات التحضيرية المتكررة أصر الأوروبيون أن المؤتمر سيكون مجرد تكرار لمؤتمر القاهرة لنصرة الشعوب العربية (١٩٦٩) ما لم تكن هناك خطوة إلى الأمام... أن يلتقي ممثلون لقوى السلام العربية والإسرائيلية للتفاهم حول برنامج عمل ضد استمرار الاحتلال الإسرائيلي .

وأكد الجميع أهمية أن يكون هناك فلسطينيون... ضمن هذا الإطار .

ولم يكن ثمة مشكلة في الحضور معاً ، فقد إعتاد العرب الحضور ضمن مؤتمرات تضم إسرائيليين... دون حديث أو جلوس معاً .

ولكن المشكلة كما كان يؤكد «الأب بارت» (راهب كاثوليكي فرنسي إشتهر بانغماسه في قضايا السلام) ، هي أن يبحث أنصار السلام العرب والإسرائيليون معاً في برنامج عمل مشترك ضد مبدأ الاحتلال ، ومبدأ العدوان .

وتوالت عدة أشهر ، ألعب فيها دور مكوك تلقائي الحركة ، صباح كل سبت يأتي «بينتي» (سائق المجلس) ليصطحبني بالسيارة إلى المطار ، ومن هلسنكي إلى روما عبر أمستردام... عند الظهر أصل ، أقفز إلى سيارة ترسلها حركة السلام الإيطالية (كانت دوماً ذات السيارة... وذات السائق) ، أركب... تنطلق دون أن أقول أكثر من التحية ، إلى فندق السلام (لم يكن اسمه مصادفة فقد عرفت فيما بعد أنه ملك للحركة) في شارع ٤ نوفمبر . موظف استعلامات الفندق يناولني مفتاح الغرفة رقم ٧ (كانت دوماً محجوزة كل سبت باسمي) ، أقذف بحقيبتي الصغيرة جداً إلى السرير ، لأسرع إلى «كاساديلا كولتورا» (قصر الثقافة) ، حيث تعقد جلسات اللجنة الدولية التحضيرية ، وبعد ظهر الأحد تأتي ذات السيارة بذات السائق لتقذفني في صمت إلى المطار .

«الأب بارت» الهادىء النظرات ، الدقيق الملاحظة ، سألني يوماً : لِمَ أنت في عجلة من أمرك ؟ أجل سفرك يوماً أو يومين لترى روما ، وإمتثلت ليبهرني الأب بارت بمعرفة موسوعية نادرة بآثار روما ومتاحفها وكنائسها... كان يتجول في روما كأنه في بيته ، وزيه الكهنوتي يمنح تجوالنا هدوءاً رزيناً . لكنه لم يكن مجرد مرشد سياحي . ففيما نتحرك بين كنيسة وأخرى ، أو متحف وآخر ، كنا نتناقش في هدوء رطب حول المؤتمر . كان يرى ضرورة إقناع العرب بأن يجلسوا مع قوى السلام الإسرائيلية... ليتفاهموا مع بعضهم البعض . وكان يدرك أن وفوداً عربية أغلبها رسمي التكوين

سيكون صعباً عليها أن تفعل ذلك ، لكن الفلسطينيين أصحاب القضية أساساً يجب أن يفعلوها ، وأكد أهمية السلام الشعبي الذي تفرضه الشعوب على حكوماتها .

قلت : هذا صعب .

قال : وما قيمتنا إذا كنا نتفرغ فقط لأداء المهمات السهلة ؟ (ظلت هذه العبارة ـ ولم تزل ـ تلاحقني طوال حياتي) .

وسافرت لألتقي بأبو عمار ، وأناقش الأمر معه .

كان ودوداً وبشوشاً كعادته ، لكنه كان كعادته أيضاً يحاول أن يتوازن مع كل التوازنات .

وبعد نقاش هادىء... حاول كل منا أن يغلفه بهدوء موضوعي قال أبو عمار : من حيث المبدأ لا اعتراض ، لكنني لن أرسل مندوباً رسمياً ، ويمكن لأي عضو في حركة السلام الفلسطينية أن يسافر على مسئوليته . لن أعترض... ولكن لن أوافق ، وأيضاً لن أعرف .

قلت : من ؟

قال : ابحث أنت عنه .

* * *

قبل يوم أو اثنين كان صديق فلسطيني قد دعاني على الغداء وحضر معه فلسطيني آخر هو عبد الله حوراني (أبو منيف)... كان شخصية إعلامية بارزة وعضواً نشطاً في حركة السلام الفلسطينية . أدهشني منذ الوهلة الأولى بلمحاته الذكية ، وإنفتاحه ، وعدم محاذرته في قول ما يعتقد أنه صواب . وبسرعة مثيرة للدهشة إرتبطنا بصداقة حميمة ولم تزل تمثل بالنسبة لكل منا شيئاً مهماً .

... خرجت من عند أبو عمار إلى مكتب أبو منيف عرضت الأمر عليه ، وأدهشني بموافقة حاسمة ، وذهبنا لأبو عمار في الليلة ذاتها ، أكد أبو عمار مرة أخرى أنه غير معترض ، وغير موافق . أو بالدقة غير قابل لأن تعلن موافقته ، وأن من يفعلها (ويستحسن أن يفعلها أحد) يفعلها على مسئوليته ، وكان أبو منيف يمتلك شجاعة تكفيه لكي يخترق حاجز التشدد المتفشي عربياً .

وكانت مخاطرة فعلاً . فقد أتى أبو منيف إلى روما ، وأسهم في المؤتمر ، وشارك بدور بارز وكان عضواً في لجنة صياغة البيان الختامي... وحاور ـ وبشدة فلسطينية متشددة ـ ممثلي قوى السلام الإسرائيلية ، مؤكداً أن المعيار لجديتهم هو قول واضح ، وفعل صريح ، ضد الاحتلال الإسرائيلي للأرض العربية وضد الاستيطان ، ومع قيام الدولة الفلسطينية وعودة اللاجئين إلى أراضيهم ، لكن المهم عند البعض لم يكن نوعية الممارسة ، بل كان مبدأ إختراق حاجز الرفض السائد والتجاسر على ذلك .

وعاد أبو منيف إلى حيث كان يقيم ، ليدخل السجن .

* * *

لكننا نقفز هكذا إلى النهايات بينما المؤتمر لم يزل في فترة التحضير .

ذات يوم وفيما أندفع ظهر السبت إلى مدخل الـ « كاساديلا كولتورا » كان ثمة شخص يجلس بهدوء يرتدي قبعة عالية ، ويمسك بيده عصا هو ليس بحاجة أن يتكيء عليها (أشياء تلفت إنتباهك ، كي يتعلق بها وينسى ما هو مهم من أشياء مثل الشكل والملامح وغيرها)... نظر إليَّ دون إكتراث . وظل جالساً مكانه . في فترة الاستراحة كان لم يزل مكانه . فقط زاد سيجاراً ضخماً دخانه يعبث برائحة المكان ، سألت دينافورتي (إيطالية عاشت في مصر

طويلاً ، وكانت مكلفة بالأعمال الإدارية الخاصة بالمؤتمر) عن هذا الرجل . أجابت بدهشة : إنه ينتظرك... سأل عنك... وجلس... وتصورت أنك تعرفه وتنتظر الانتهاء من الجلسات لتخرجا معاً . ذهبت إليه قلت : أنا فلان . قال : أعرف . تصاعد مزيد من الدخان من سيجاره ، أحكم القبعة العالية وكأنه يلفت نظري إلى وجودها . أمسك بالعصا وإنتحى بي في أحد الأركان .

قال دون أن يمنحني فرصة المقاطعة : «أنا من اسرائيل . أرجوك إحمل الرسالة التالية إلى الرئيس السادات . لماذا توقفت الاتصالات ؟ نحن جاهزون لمواصلتها» . (كانت العبارة متقنة كقذيفة واحدة ، تنطلق دفعة واحدة ، حيث لا تتيح لك فرصة القول بأنك لست ممثلاً للحكومة ولا للرئيس ، أو أن تسأل من أنت ؟ ولماذا أنا ؟ أو عن أي اتصال تتحدث ؟) .

... قال العبارة وانتهز فرصة ذهولي ومد يده بالسلام وذهب . (طوال الليل . وطوال رحلة العودة لهلسنكي كنت أستعيد الشكل والملامح والعبارة وأفكر... لماذا أنا ؟ وهل الإسرائيليون سذج إلى هذا الحد ؟ إلى درجة أن يتصوروا ـ ببراءة ـ أنني يمكن أن أحمل هذه الرسالة ؟ وإذا كانت ثمة إتصالات ، فلماذا لم يلجأوا إلى قنواتها ؟... وخُيِّلَ إليَّ أن البعض الذي سمع كثيراً عن مؤتمر يفتش عن سلام عادل عبر عمل وتواصل شعبي ، أراد أن يبلغنا ـ وببساطة ـ أن العلاقات الرسمية بدأت ، وأن السلام الرسمي ممكن... وربما أيضاً أنه لا مبرر لكل ما نفعل) تكاثرت الاحتمالات ولم تزل تتكاثر برغم فوات الزمان ، وثبوت الرؤية ، والتأكد من أن العلاقة كانت متواصلة في ذلك الزمان (قال أحد المتحمسين في صناعتها عندما حكيت له هذه الحكاية ، ربما كان طرف إسرائيلي ما قد أراد الضغط علينا بتسريب معلومة عن الاتصالات السرية إليكم) .

المهم وصلت هلسنكي مساء الأحد... صباح الاثنين كنت أشرب القهوة

مع السفير المصري جمال بركات في مكتبه بالسفارة ، حكيت له القصة كما هي... إستعادها مرتين ، صمت قليلاً ، ولعله إستعاد كل خبرته في السلك الدبلوماسي ثم وقف بقامته القصيرة وقال : كصديق أنصحك ألا تدخل نفسك في عش الدبابير ، إنسَ الموضوع وكأنه لم يحدث ، وأنا من ناحيتي سأنساه ولن أبلغ القاهرة بشيء .

ومع تواصل الحوار قلت : إذا أخفيت الموضوع فقد يتهمني البعض بأنني إتصلت بالأجهزة الإسرائيلية سراً . قال : في هذا عندك حق . واتفقنا أن يبلغ القاهرة برسالتي .

وبعد يومين تلقيت مكالمة من خالد محيي الدين... السادات غاضب جداً (ربما لأنه أحس بتداخل الخطوط... أو أنه لم يفهم باعث الإسرائيليين على مثل هذا الاتصال) ، وأن د . حافظ غانم أمين عام الاتحاد الاشتراكي قد أصدر قراراً بفصلي من عضوية الاتحاد بتهمة الاتصال بالعدو الصهيوني . (ألغى هذا القرار بعد أيام... فقد كان مجرد إنذار بألا أفعلها مرة أخرى . وكأنني فعلتها في المرة الأولى) .

ولم أزل أستعيد في ذاكرتي هذه الواقعة... دون إمساك بحقيقة بواعثها .

* * *

ونعود مرة أخرى إلى هذا المؤتمر المحفوف بالمخاطر .

انتهت فترة التحضير المضنية .

ولقد كانت مضنية حقاً . ليس فقط بسبب المعارضات الرسمية العربية والإسرائيلية ، وإنما بسبب التباعد السوفيتي المفاجيء ونحن نوشك على لحظة الابتداء . وكان الموقف السوفيتي الجديد ، وغير المتحمس للمؤتمر . مثيراً للدهشة خاصة إنهم كانوا يدفعوننا إليه في البداية دفعاً .

بدأ التوتر في إحدى الجلسات التحضيرية عندما أثار أمنون كابليوك (إسرائيلي من دعاة السلام ، وكان مراسلاً لجريدة لوموند الفرنسية في إسرائيل) وعلنا قضية الهجرة السوفيتية إلى اسرائيل . وقد أثارها من زاويتين ، الأولى : أن السماح بها هو نقيض للسياسة السوفيتية المعلنة ، والثانية ـ وهذا هو الأكثر إثارة للدهشة ـ أن هؤلاء المهاجرين السوفييت يأتون محملين بأكثر الأفكار رجعية ويمينية وصهيونية ، وأن تكاثرهم في إسرائيل يزيد في النفوذ الصهيوني واليمني المتطرف .

بعد هذا النقاش الصاخب الذي بدأ بإنكار سوفيتي لوجود هجرة سوفيتية أصلاً ، وانتهى بحجج وأرقام وأسماء وتواريخ وعناوين قدمها آمنون كابليوك ليؤكد أن الهجرة مستمرة ، بدأ السوفييت يفقدون حماستهم لانعقاد المؤتمر ربما لأنهم خشوا أن يثار هذا الموضوع الشائك جداً في ساحته ، وربما كما ألمح إليَّ الرفيق بابيتا أحد قادة الحزب الشيوعي الإيطالي لأن أصبعاً صهيونية ضغطت في موضع سوفيتي ما مطالبة بعدم دعم المؤتمر وحتى بالغائه . وقد أكد بابيتا وبصراحة تامة أنهم يغامرون كثيراً جداً بعقد هذا المؤتمر وسط معارضة صهيونية عارمة ، وهي معارضة تمتلك نفوذاً ليس بالقليل في إيطاليا وحتى في صفوف الحزب . وبرغم ذلك تواصلت الجهود وانعقد المؤتمر .

نحن الآن في بولونيا حيث توافدت وفود كثيرة ، أكثر مما توقعنا... فالأوروبيون إستهوتهم فكرة لقاء ، أو حوار ، أو مجرد وجود عربي ـ إسرائيلي لقوى السلام .

منذ اللحظة الأولى كان المناخ العربي مكفهراً... الوفود العربية أتت مرتدية أكثر الأزياء العربية تشدداً . كانوا متشددين إلى درجة أنهم حاولوا إفشال المؤتمر بأي شكل... وأثاروا المشكلات منذ لحظة وصولهم .

إحتجاج على أسلوب الاستقبال ، وعلى ترتيبات الإقامة ، وعلى أي شيء... وكل شيء ، ثم فجّروا شيئاً جديداً .

كانت قائمة الحضور مطبوعة وتوزع مع أوراق المؤتمر... وكان من الطبيعي أن تكتب كما تكتب دوماً في كل مؤتمرات الدنيا ومؤتمراتنا نحن أيضاً... فلان ـ مصر ، فلان ـ سوريا ، فلان ـ اسرائيل وأدهشني وأدهش الجميع أن يعترض البعض على ذلك ، يجب ألا يرد اسم إسرائيل «مكتوباً في الأوراق» . وهكذا دواليك . وفيما كنا نحاول أن نخطو إلى الأمام خطوة واحدة ، حاولوا إرباكنا بالتراجع عشر خطوات إلى الخلف ، بإثارة قضية يمكنها أن تفجر المؤتمر كله ، فما من أوروبي واحد يمكنه أن يقبل ذلك ، وطبعاً لن يكون أمام الوفد الإسرائيلي مهما كان إصراره على السلام سوى الانسحاب . حاولت أن أقنعهم بأنهم حضروا من قبل مئات المؤتمرات وقبلوا هذا الوضع فلماذا يثيرونه الآن ، وأن حكوماتهم تقبل هذا الوضع في الأمم المتحدة ومنظماتها ، وفي كل المؤتمرات الدولية الرسمية .

لكنهم صمموا ، وهددوا بالانسحاب . وكان واضحاً أنهم أتوا كي يفجروا المؤتمر ، ولم أجد مفراً من دعوة اللجنة التحضيرية الدولية إلى إجتماع عاجل حضرة المندوبون العرب .

رأس الاجتماع البروفيسور كولان (ممثل حركة السلام الفرنسية ـ وكان ترأس اللجنة التحضيرية ـ وهو مستشرق ذائع الصيت يتقن العربية كتابة وحديثاً) ، كان العراقي مستفزاً ومتوتراً وإستفزازياً ، ويريد للأمر كله أن يتعقد ليجد مبرراً وينسحب مسجلاً موقفاً «بطولياً» .

طوال الاجتماع كان العراقي المطمئن إلى أن كل الجالسين أجانب ، يتحدث إليَّ وإلى العرب الآخرين بصوتٍ عالٍ بالعربية ، ويعلق على كل متحدث غربي بشتائم بذيئة ، وكلما تكلم كولان كان يقول : إستمعوا إلى

هذا الصهيوني الكلب ابن... حاولت بإخلاص أن أشير من بعيد إلى العراقي وأن أفهمه أن الرجل يجيد العربية ، لكنه لم يفهم أياً من التنبيهات المتكررة .

أخيراً قدمت أقتراحاً ... قبله الجميع .

تعاد صياغة قائمة الحضور كما يلي : وفود أوروبية : ثم الأسماء ـ وفود أمريكية : والأسماء... ثم وفود من أطراف الصراع : ثم الأسماء .

قبل الجميع هذا الحل . وفيما نغادر الغرفة إتجه كولان إلى المسئول العراقي قائلاً بعربية متقنة : يا أستاذ... أنا أشكر لك حسن أدبك ، وألفاظك المهذبة .

وانعقد لسان العراقي وكان حكومياً عالي المقام .

* * *

وفيما نتناول إفطارنا قبل الجلسة الافتتاحية ، كان «ك» (عضو الوفد المصري ممثلاً عن منظمة التضامن) (إنه ذات «ك» الذي تحدثت عنه خلال الحديث عن رحلة كوبا) يثير زوبعة حول الاتصال بالإسرائيليين متوعداً كل من يضبط متوجهاً بحديث أو ابتسامة إلى اسرائيلي ، ورفض فكرة وجود أنصار سلام إسرائيليين . واستمر ، وبصوت مرتفع ، يهدد الجميع ويتوعدهم .

وكانت المشكلة ، أنني كواحد من منظمي المؤتمر مضطر لأن أتحادث دوماً مع ممثلي قوى السلام الإسرائيلية ، بهدف التوصل قبل بداية الجلسات إلى ما يسهل الوصول إلى اتفاقات أو توافقات... ظل «ك» يلاحقني ، يطاردني ، وكلما تحدثت مع شخص أجنبي قفز نحوي ليدس رقبته بيننا سائلاً : مين ده ؟ هل هو إسرائيلي ؟ وأغيظه ولا أرد عليه .

وإنتحينا نحن مجموعة المنظمين لنختار الجالسين على منصة الجلسة الافتتاحية... وتوالت الأسماء .

جودو فانتي (إيطاليا) يرأس الجلسة ، ويجلس معه روميش شاندرا (المجلس العالمي للسلام) الأب بارت (فرنسا) د . جودليت (أمريكا) ، وقال الجميع إنه من الضروري أن يجلس على المنصة ممثلا طرفي الصراع... إختار الإسرائيليون أهم شخصية فيهم «ناتان يلين مور»... فيما أشعر بالحرج لصعوبة إيجاد عربي ليجلس إلى جواره . وقبل أن أسترسل في المحاذير قفز «ك» ليسأل : بتعملوا إيه ؟ قلت بقرف : نختار من سيجلسون على المنصة . قال بتهديد : لا بد أن يجلس مصري على المنصة ، وأنا أكبر مسئول مصري هنا ، أنا وكيل وزارة ، وبلا تردد قدمت لهم إسمه ، وقبلوا ممتنين (شيء واحد لم أقله لـ «ك» ، هو أنه سيجلس مباشرة إلى جوار ناتان يلين مور) وصعد «ك» إلى المنصة منتشياً ومزهواً ، وكلما مرت أمامه كاميرات التليفزيون المتكاثرة لتسجيل الحدث التاريخي ، أو لمعت فلاشات الكاميرات ، كان ينتشي أكثر ، ويفرش على وجهه ابتسامة مصطنعة تليق بوكيل وزارة سابق ، وتركزت الكاميرات ـ وهذا طبيعي ـ على الاثنين الأكثر تسجيلاً للرمز المطلوب : مصري وإسرائيلي جنباً إلى جنب . وأنا والوفد المصري كله تغمرنا سعادة الانتظار لانتهاء الجلسة الافتتاحية ثم نصب على «ك» تهديداتنا ، وتهكمنا ، وطلبت إلى واحد من المصورين أن يعطيني وبسرعة أكثر من صورة للمنصة .

عند الظهر كانت الصور معي وسلمتها لعضو في الوفد... وبدأت عملية ابتزاز غمرها تهكم مرير ، كان «ك» فزعاً ومرتبكاً ويتوسل في ضعف مثير للألم والسخرية معاً . كان يستجدينا ألا نبدد مستقبله ، وعبثاً حاولت أن أفهمه أنه لا خطأ في الأمر ، وأن الرجل الذي جلس إلى جواره يدين العدوان

الإسرائيلي ، ويطالب جيش بلاده بالانسحاب من الأراضي المحتلة... وأننا يجب أن نتفاهم مع أمثاله... عبثاً حاولت ، فقد كانت المسألة أكبر من طاقته على الفهم .

لكننا على أية حال كسبنا... إننا تخلصنا من ثرثرة «ك» وادعائه وترفعه وتهديداته ، وظل طوال المؤتمر صامتاً ، منكسراً ، وعيناه مشبعتان بتوسل دائم .

* * *

وتمضي سنوات عديدة ، وتبقى ولم تزل قصة راسخة في ذهني لا أنساها... ولن أنساها ، ولست أعتقد أن صاحبها قد نسيها .

كان في المؤتمر أريك رولو (مصري قديم هاجر إلى فرنسا ليصبح واحداً من ألمع الصحفيين ، في أشهر جريدة فرنسية... «لوموند» وليصبح فيما بعد دبلوماسياً بارزاً) وبحكم صداقة قديمة تحادثنا طويلاً ، وتعاون معي كثيراً في إنجاح المؤتمر ، عندما تخطى دور الصحفي ليلعب دوراً مؤثراً لإقناع الإسرائيليين بقبول صياغات كانوا يتحسبون من قبولها .

وطوال انهماكي في المؤتمر كان يقول : عايزك ضروري في حديث طويل... وأخيراً على العشاء جلسنا في مطعم منعزل .

وفيما يوشك العشاء على الانتهاء فاجأني قائلاً : سأحكي لك شيئاً . أنا لم أصدقه لكنه حدث . عدني فقط ألا اتنطق به لأحد لأن تسربه سيعني أنني سربته ، وسوف يضرني هذا كثيراً في عملي الصحفي . وبدأ يحكي دون أن ينتظر أن أعده ، فقد كان بحاجة إلى أن يفضي لأحد بهذا السر الكبير ، ففي بعض الأحيان يكون السر أكبر من أن تحتجزه في صدرك .

كان عائداً لتوه من أمريكا . هناك التقى سيسكو (مهندس السياسة

الخارجية الأمريكية آنذاك) ، تحدث سيسكو طويلاً عن رؤية الأمريكيين لعالم جديد خال من الحرب الباردة . كانت الثقة البالغة والمبالغ فيما تغلف كلماته وتقويماته ، وحاول أريك أن يلفت نظره إلى أنه ليس وحده في هذا العالم... فاقتاده من يده إلى خريطة للعالم معلقة على حائط مكتبه... نجوم حمراء متناثرة في شتى مساحات الخريطة آسيا ، وأوروبا ، أفريقيا ، وكوبا ، وكل نجمة تشير إلى بلد اشتراكي (أو يدعى أنه اشتراكي)... أو كما قال سيسكو... تشير إلى منطقة نفوذ للسوفييت .

فجأة قال سيسكو باعتداد مذهل : سجل في أجندتك ، نحن الآن في بداية عام ١٩٧٣ ، وأحفر في ذاكرتك هذه المعلومة... بعد عشر سنوات لن تكون هناك نجمة واحدة حمراء على هذه الخريطة .

... إريك حكى الحكاية بلا اكتراث . وأنا تلقيتها بلا اكتراث... ولم أجد ما يبرر أن نتناقش في مثل هذه «الأكذوبة» أو هذا «الادعاء »... لكنها بقيت مترسبة في أعماق ذاكرتي... حتى كان الزلزال الذي أطاح بأغلب نجوم الخريطة فاستعدت الحكاية لتقفز فوقها أسئلة عديدة ، هل كان سيسكو جاداً ؟ وهل كان ثمة مخطط فعلاً . مخطط معد ومتقن ومحدد إلى هذا الحد ؟ أم أنها المصادفة ؟ على أية حال فإن حلم كابوس سيسكو لم يتأخر كثيراً عن الموعد الذي حدده .

بصمات باقية

عبر مجرى الحياة المتقلب يلتقي الإنسان بمئات من الأشخاص ، البعض يمضي عابراً بلا أثر ، والبعض يبقى كبصمة تعجز تقلبات الحياة عن التغلب عليها .

وفي صفحات الجزء الأول وردت أسماء كثيرة ، امتلكت نحوها محبة وحنيناً باقياً .

القاضي ناهيد أبو زهرة ، د . محمود الخفيف ، المزارع الثري إبراهيم أبو حليقة ، محمد الزعفراني وكريمة زوجته ، محمل خليل قاسم... وغيرهم . لكن البعض لم يزل يلح علي بما هوه أكثر ، يلاحقك حتى بعد أن يرحل ، يتميز عما عداه ، سلباً أو أيجاباً .

فهكذا هي الحياة ، البعض يتفرد فيها ليصبح مختلفاً عن غيره ، يتميز عنهم... بحيث يفرض عليك نفسه طوال الحياة .

سأختار الأسماء التي ربما لا يتصورها أحد... أو حتى سمع بها أحد ممن يقرأون هذه الأوراق .

محمد حسن جاد (عم برق)

سنديانة صلبة ، شديدة المراس ، قطعة خرسانة لا يزلزلها حتى الزلزال . بسيط ، صاخب ، لا أثر للإدعاء في كل ما يفعل .

حكايته تمتلك من الغرابة ما يمكن أن يدفعك إلى عدم تصديقها . كان يرفض أن يحكيها ، معي وبسبب علاقة حميمة جداً حكى...! تورّدت الوجنتان الممتلئتان بغضون الزمن الشديد القسوة ، تدفق القول وكأنه يمنحه طاقة تعيد له أيام الشباب .

«أصل الحكاية أنني كنت فتوة . كنت أكبر فتوات الموسكي والمناصرة وشارع محمد علي . مرة شربت وزعلت من الحُكومة لأن ضابط شتمني ، قررت أعاقب الحكومة . جبت كرسي وقعدت على شريط الترمواي في شارع محمد علي ، المواصلات وقفت والدنيا ارتبكت ، والناس إتلمت ، وفضلت قاعد لحد ماجه المأمور صالحني قدام الناس» .

«لكن ما كنتش صايع ، وعشان كده كنت فتوة محترم لا أفرض إتاوات على أحد ، أنا كنت نجار ممتاز اشتغلت في شركة سالم للأتوبيس صممت أن آخذ أعلى أجر ، طلع في دماغي إني لازم يوميتي تزيد على جنيه ، فأعطوني جنيه وخمسة صاغ ، كنا عام ١٩٤٢ والأجر ده عالي جداً ، لدرجة أني لما نظمت إضراب في الشركة للمطالبة بزيادة الأجور ، قبضوا علي ، ووكيل النيابة سألني عن أجري ، ذهل . وقال لي تعرف تشوف لي شغلة زيك ؟» .

«أنا في الأصل كنت وفدي ، كده يعني من باب الجدعنة . وفي يوم ، وبعد مظاهرة عنيفة قبضوا عليّ ، وفي حجز قسم الموسكي قابلت شاب صغير ، رفيع زي عود القصب اسمه كمال شعبان ، سألته أنت هنا ليه ؟ قال : شيوعي ، كنت عايز اضربه ، شتمته ، طبعاً كانت كلمة شيوعية محاطة بدعايات وحشة ، لكن الولد بدأ يشرح لي... بعد شوية اقتنعت ، قلت له أنا عايز أبقى معاكم ، وبعد فترة قصيرة ، سبت الشغل وتفرغت للعمل الشيوعي وأعطوني ثلاثة جنيه في الشهر» .

هذا هو الرجل . الأكثر عطاء والأطول سجنا وسط الشيوعيين المصريين .

البساطة تشع من قسمات وجهه . لم يعرف كيف يتفلسف ، فقط عرف كيف يعطي . يعطي بلا حدود .

وفي حزب التجمع كان عم برق الأكثر عطاء بهدوء ، وبلا مقابل يعمل . وعندما اصطدم الحزب مع السادات بسبب كامب ديفيد ، ظلت قوات الأمن تقتحم المقر المركزي بشكل دوري تصادر الآلات الكاتبة ، وآلات الطباعة والورق وكل شيء . وكان عم برق هو السند ، كان يعرف كيف يحل كل المشكلات ، يغوص في سوق الآلات القديمة ، وأحياناً المسروقة يشتري لك ما تريد بأرخص الأسعار ، وكان يعرف كيف يستعمل كل آلات الطباعة ، ويعرف كيف يتعامل معها لتخرج مطبوعاتنا في اليوم التالي ، تتحدى من يريدون إسكات صوتنا . كانوا قد أغلقوا «الأهالي» ، ولم يبق لنا سوى هذه الأوراق كي نواصل بها التحدي ، وكان عم برق هو عتادنا في هذه المعركة .

وأخيراً حاصرونا تماماً... قبضوا على تاجر آلات الطباعة القديمة الذي كان عم برق يتعامل معه ، لكنه كان لم يزل مصمماً على المواصلة . نصف ساعة أو أكثر قليلاً اختفى فيها عم برق في غرفة بسطح المقر وبعدها أتى بورقة مطبوعة... سألني ما رأيك ؟ دهشت . شرح لي خبرته القديمة التي تعلمها في سنوات العمل السري الصعب ، شاسيه خشب ، قطعة حرير ، ورقة استنسل ، رول كاوتش . ثم تطبع ما تشاء . كنت أعرف ذلك كله لكنني نسيت ، وحتى لو تذكرت لم أكن أعرف كيف ؟ ولا من أين ؟ هو كان يعرف ، ويداه العجوزتان كانتا تمتلكان مهارة صنع أي شيء .

كنا نستعد لعقد مؤتمر صحفي عالمي لنشرح فيه كيف صادروا كل ما نملك من أدوات . كتبنا بياناً ساخناً على ورقة الاستنسل ، أمسك بها ، تأملها ، هز رأسه . لم تعجبه . «لازم يا زميل نبقى متفائلين نرسم وردة جميلة مثلاً» . ورسمنا وردة نهديها للضيوف والوطن .

وفيما كان الصحفيون الأجانب يتدفقون على مقر الحزب لحضور المؤتمر الصحفي كان عم برق يقف بجهازه السحري يطبع لكل من يدخل ورقته أمامه ، يناولها له ومعها كلمات تؤكد تصميمنا على الاستمرار... وفيها هجوم حاد على السياسات السّاداتية .

توقفت الكاميرات طويلاً أمام الرجل العجوز يطبع ، ويطبع ، وبلا توقف .

ولم يغفرها له رجال الأمن . قبضوا عليه في اليوم التالي . قدموا الأوراق للنيابة ، وُجِدَت فيها عبارة يمكن أن تصلح كاتهام لنا «باحتقار السلطات» احتدَّ على وكيل النيابة . وجدوا بصمة بالحبر الأسود على الورقة ، قال وكيل النيابة هذه بصمتك . وهذا دليل ثابت ضدك ، سأسجنك حتى تموت في السجن .

انزعجتُ بشدة فالبصمة طبعاً بصمته فهو الذي طبع الأوراق جميعاً .

بعد يومين أفرج عنه . لم تتطابق البصمة . دهشت . كيف ياعم برق ؟ حكى ضاحكاً . شوف يا سيدي تجيب أوهو تغطي به مكان البصمات . تحك ايديك شوية في الأرض . تبقى فيه بصمات جديدة .

سكت قليلاً وأضاف «حكومة صايعة ، مينفعش معاها إلا الصياعة» .

* * *

يوسف عبد المجيد

عندما ارتحلت إلى القاهرة طالباً في كلية الحقوق ، توليت في رابطة الطلبة الشيوعيين مسؤولية مدرسة حلوان الثانوية إلى جانب عملي في جامعة إبراهيم (عين شمس) . في داخلية مدرسة حلوان التقيت به . طويل . رفيع . ممشوق كسهم . حاد كنصل سكين . مبتسم دوماً بلا افتعال .

رجل جاء من قبائل البقارة دون أن يغتسل من تقاليدها ، بل ازداد تمسكاً بها . الماركسية لم تغير شيئاً في هذه التقاليد . وعاش هذه المزاوجة غير الحميمة ، سعيداً بها ومتمسكاً أيضاً... مصمماً أن الماركسي الحق هو من يعيش كما يعيش أهله .

سألته عن تقييمه للرفاق وكانوا جميعاً سودانيين... توقف عند واحد منهم وقال : «برجوازي لا يصلح لشيء» ، سألته : كيف ؟ قال : تصور بيقول بابا وماما . تسارعت دفقات الدهشة وسألت : وأنت ماذا تقول إذا أردت أن تنادي أباك ؟ قال : ألحقه ، أجري وراه لحد ما ألحقه . وإذا لم تلحقه ؟ . أقول له يا عجوز . وإذا لم يكن عجوزاً ؟ ـ عجوز للاحترام وليس شرطاً أن يكون عجوزاً .

تأملت الشاب المتدفق حماسة . حماسته أكبر من طاقتنا جميعاً . دفعته في موجات العمل لعله يتغير... لم يتغير قط... ظل واحداً من رعاة البقارة ، بكل ما لديهم من تقاليد متخلفة ، بينما يردد وبحماسة مقولات الماركسية التي كان يقرأها أكثر منا جميعاً .

وذات يوم كنا نعقد اجتماعاً في غرفته في القسم الداخلي ، على النار كنكة يغلي فيها ماء للشاي . لمس واحد من الرفاق طرف الكنكة الساخنة جداً ، فزع كما نفعل جميعاً... انفعل يوسف . شتمه . قال إنه لا يصلح أن يكون شيوعياً ، وسألت : لماذا ؟ ـ لأنه مش راجل . ـ وهل الراجل يحرق

نفسه فقط ليثبت رجولته ؟ قال مندهشاً : طبعاً ، وإلا ما قيمة الرجولة ؟ قلت : إزاي ؟ قال : كده . وقبض بيده على الكنكة المتلهبة بمانها المغلي شممنا رائحة جلد يده الذي يحترق ، حاولت أن أنتزعها من يده ، صمم . كانت آلامه شديدة . لكنه صمم . ولكي يمنح نفسه قدرة على الاحتمال لجأ إلى أسرار قبيلته ، ظل يصيح وكأنه يشجع نفسه : جدك رسول الله... جدك رسول الله . وأخيراً وبعد أن امتصت يده كل اللهُب ألقى بالكنكة فإذا بيده محترقة تماماً .

لفها بمنديل . وصمم أن نواصل الاجتماع وكأن شيئاً لم يحدث .

في طريق عودتي حاولت أن أناقشه لأقنعه بالتعامل مع تقاليد الناس العاديين . حكى لي قصصاً غريبة... في بلدتهم العريس يرقص ليلة فرحة طويلاً... ثم عليه أن يثبت رجولته أمام الجميع فيمسك بسكين يطعن به يديه حتى تسيل دماء غزيرة ، وكلما كان الدم غزيراً كان رجلاً .

صمت ثم قال : واحد قريبي لم يحتمل طعن السكين... فكانت كارثة .

سألت : ماذا فعل ؟ قال : هج . ترك العروس والأسرة والبلدة والقبيلة ولم نر وجهه حتى الآن .

وظل يوسف عبد المجيد هكذا دوماً . يعتقد أن على الماركسي الحق أن يثبت دوماً أنه رجل . وأن ينفذ ما تمليه عليه التقاليد .

وعندما غادرنا إلى السودان ، أصبح عضواً في اللجنة المركزية للحزب . لكنه ظل كما هو . وتصادم مع الجميع .

فقد ظل رغم كل شيء معتقداً أن ستالين هو النموذج الشيوعي الحق .

وأن الرجولة هي معيار ماركسية الماركسي . ومعيار الرجولة هو تقاليد قبيلته هو .

وترك الحزب . وأسس حزباً وفق النهج الصيني . تَمثَّل تاريخ الثورة

الصينية . الزحف بجيش الفلاحين المسلح على المدينة . وكالعادة... الرجل ينفذ ما يقول .

ترك الخرطوم إلى الجزيرة خلع بدلة الأفندية ، وأصبح فلاحاً . يزرع بيديه ليأكل . عاش مع الفلاحين كالفلاحين تماماً... يعمل مثلهم ليستطيع أن يتفاهم معهم . مؤملاً في يوم يزحف فيه على رأسهم ليقيم حكم الكادحين .

عندما زرت الخرطوم للمرة الأولى كان النميري في الحكم... وكان لم يزل في بدايات عهده حليفاً للشيوعيين ، وكان وزير داخليته فاروق حمد الله واحداً من رجال حزب يوسف عبد المجيد .

سألت عنه قالوا في الجزيرة : لا يأتي إلى الخرطوم . اتصلت بفاروق حمد الله . أحضره بطائرة هليكوبتر . دخل إلى فندق الجراند أوتيل . جلباب وعمامة وارتمينا في أحضان بعضنا البعض . لم يطق أن يبقى في الخرطوم أكثر من يوم... كان يخشى أن يفقد خشونته .

وزرت الخرطوم بعدها بخمسة عشر عاماً أو أكثر ، كانت حكومة الصادق المهدي . وكان هو أيضاً هناك في الجزيرة . أرسلت إليه وحضر . واحد من أصدقائه دعانا على الغداء في فندق فخم . جلس ولم يأكل . ليه يا يوسف ؟ هذا طعام لا يصلح لمعدة الفلاحين . ورفض بإصرار أن يأكل أكلاً برجوازياً .

وزارني في القاهرة . دخل مكتبي ضاحكاً . أغرق في الضحك كلما سألته : فيه إيه ؟ يضحك أكثر . أخيراً حكى القصة .

من المطار إلى بنسيون في وسط البلد . صديق سوداني قال له : اترك البنسيون وتعال معي في شقتي .

نزل من البنسيون بحقيبتين كبيرتين وضعهما إلى جواره على الرصيف ينتظر تاكسياً . فجأة تلفت ليجد حقيبة واحدة . الأخرى اختفت . وولد

صغير واقف إلى جواره يقول له : واحد خطفها وجرى الناحية دي . اندفع يوسف إلى الناحية التي أشار إليها الطفل . لم يجد شيئاً ، عاد بعد دقيقة ليجد الطفل وقد حمل الأخرى واندفع بها إلى آخر الشارع .

جريت وراءه ؟ قال : لأ ، ولد شاطر... ضحك عليَّ فعلاً . ويستحق .

تركه يأخذ الحقيبة الثانية وأتى إليَّ ليقترض نقوداً بسيطة ليشتري جلابية أخرى وبعض الملابس .

وظل يوسف دوماً كما كان . كل الدنيا تتغير ، هو على عناده العنيد المعاند لأي تغيير . ظل على كراهيته للمدينة . وعندما أتى انقلاب البشير ـ الترابي صعّد من نشاطه الفلاحي... وفي واحدة من انتقالاته العديدة ... مات في حادث سيارة .

* * *

البروفيسور لوثر راتمان

أستاذي المشرف على رسالتي الدكتورا الأولى والثانية .

على يديه تعلمت فنون الكتابة الأكاديمية ، والبحث والدراسة . وبتشجيع منه بدأت هذه الرحلة المضنية لكتابة تاريخ الحركة الشيوعية المصرية ، أشعر دوماً أنني مدين له بدين لا يمكن الوفاء به .

كان عضواً في اللجنة المركزية للحزب . مستشرق مرموق عالمياً . صعد في السلم الأكاديمي حتى أصبح عميداً للجامعة وهو منصب مرموق جداً .

كان يتحمس كثيراً عندما يتحدث في التاريخ ، أما عندما يأتي إلى السياسة يتأنى... يهدأ ، ولا يبالغ ، إلى درجة أن البعض من رفاقه كانوا يتشككون في مدى حماسته للماركسية . لكنه كان ماركسياً رائعاً .

... وعندما وقع الزلزال كنت حريصاً على أن أعرف ماذا فعل .

زارني «جلوده» الصديق القديم . ترك وزارة الخارجية ، أو بالدقة فُصل ، لأنه صمم أن يواصل عضويته في الحزب ، سألته أول ما سألت عن راتمان . قال بحزن : ترك كل شيء . انزوى في بيته . وحملته رسالة عتاب . كيف تترك رفاقك في هذا الزمن اصعب ؟

بعد فترة جاءني الرد :

«اعترف بالخطأ . لكنني لا أستطيع . وضعي مختلف . كنت مسؤولاً . كنت عضواً في القيادة ، وكنت مدرساً فأستاذاً فعميداً للجامعة . فإذا كانت هناك ثمة خديعة فأنا أكثر من ردد هذه الخدعة . ضميري غير مرتاح . عيناي لا تتجاسران على الالتقاء بِعَيْنَيْ إبنتي . لم أزل عاجزاً عن أن أقدم لها إجابة مقنعة ، تفسر كل ما كان ، وتبرر كل ما قلنا وكل ما فعلنا ، فإذا كنت لا أستطيع أن أواجه ابنتي ، فكيف تطلب مني أن أواجه الناس . لست منكراً لشيء . فقط أنا لا أستطيع . فاعذرني» .

١٥ مايو ...
أحداث وتداعيات

... وفيما كانت مصر تخطو ـ عبر تناقضات الحكم ـ مسرعة نحو ١٥ مايو . كنا في المجلس المصري للسلام ، نستعد للمؤتمر العالمي للسلام الذي سيُعقد في بودابست .

وكان من المفترض أن يحضر هذا المؤتمر أعضاء المجلس العالمي من المصريين .

تمت الترتيبات . إستعد الجميع . بطاقات السفر وصلت . وفجأة بدأ مسلسل الاعتذارات . في نصف ساعة دق التليفون مرات متتالية لنتلقى في كل مرة إعتذاراً عن السفر .

كل المعتذرين من أعضاء اللجنة المركزية للاتحاد الاشتراكي : فريد عبد الكريم د . حكمت أبو زيد ، أحمد الخواجة... وغيرهم... إلى درجة أننا تشككنا في أن ثمة موقفاً ضد الاجتماع ، أو ضد مجلس السلام... واتصل خالد محيي الدين تليفونياً بشعراوي جمعة (وزير الداخلية ، ومسؤول التنظيم الطليعي) ليستفسر . الإجابة كانت : «نحن نستعد لاجتماع حاسم للجنة المركزية . وسنحتاج فيه لكل صوت» ، «شدوا حيلكم» قالها خالد محيي الدين ببساطة وعفوية .

ولكن متى كانت البساطة البسيطة يجري تقبلها ببساطة في إطار مثل هذه الصراعات الوحشية ؟ «فشدوا حيلكم» قد تكون تشجيعاً ، وقد تكون تحريضاً ، وقد تكون مجرد مجاملة... والآذان التي تتنصت على همسات التليفونات تلتقط ، وتنتقي ، وتتحفز ، ويصل تحفزها إلى درجة تصنيف «شدوا حيلكم» في باب التحريض .

المهم استكملنا الوفد بصورة أو بأخرى ، وكالمعتاد سافرنا على الأيروفلوت عبر موسكو... حيث تجمعت أفواج وفود عديدة ، وبطائرة تشارتر وصلنا بودابست .

وفيما كانت جلسات المؤتمر تتهادى وفق روتينها المعتاد المغموس دوماً بالملل ، فأنت من فرط التكرار توشك أن تعرف مقدماً كل ما سيقال ، وكل ما سيحدث ، وبينما كنت أتلمس أي عذر لأنقذ نفسي من بين أمواج الملل ، هبطت يد مترفقة على كتفي . رومبل رئيس وفد ألمانيا الديمقراطية ، وصديق قديم وحميم... كان رومبل مرتبكاً إلى درجة أربكت انجليزيته المتقنة إلى أخرى مفككة... قال : «لدينا أخبار مقلقة من مصر ، هناك إنقسام حاد في السلطة... هناك حملة إعتقالات واسعة بين كبار المسؤولين ، والمظاهرات تملأ الشوراع تأييداً للسادت» .

لم أنتظر كي أسمع أكثر . في دقائق كان الوفد المصري كله ينسحب خارج قاعة المؤتمر . ويتجمع في غرفة خالد محيي الدين . كان الجو مشحوناً بشحنات غريبة . البعض قلق على «الثورة» ، والبعض قلق على «الوطن» ، والبعض قلق على «نفسه» . والبعض المعتاد على كتابة التقارير يتفرس الوجوه ، ويستشف الألفاظ بحثاً عن معلومات ، لتقرير ، يحدد فيها من ابتسم ، ومن انزعج ، ليحدد مَنْ مع السادات ومَنْ مع الآخرين . والبعض

يعرف ذلك ، فيصوغ جملاً متقنة الصياغة ، مصوبة تصويباً متقناً يغسل بها نفسه من أية علاقة مع المعتقلين .

بذلنا كل جهد ممكن لتسقط المعلومات... سفارتنا في بودابست ، سفارتنا في موسكو ، الرفاق المجريين والألمان... اتصلنا عدة مرات بالقاهرة... توسلنا للراديو أن يقول أي شيء... وبالإلحاح الجماعي المتراكم ، تراكمت قطع من المعلومات لتقدم لنا صورة وإن مُبسطة لما حدث في ١٥ مايو .

وإستغرقنا في محاولات للتحسب والحساب... نحن خارج لعبة السلطة ، ولسنا طرفاً في صراعاتها لكن ماذا عن الوطن ومستقبله ؟

يعود الرفيق رومبل إلى الظهور . وجهه الآن أكثر تجهماً ، الأحمر إزداد إحمراراً ، أومأ إلي لألحق به في غرفته ، دون مقدمات... وبعد أن تأمل الغرفة ليتأكد أننا وحدنا ، وتأمل سقفها وكأنه يتمنى ألا يكون هناك من يتنصت على ما يقال... فتح الراديو ليحدث ضجيجاً وهمس «برلين تبلغكما أنت وخالد بأنه بالإمكان استضافتكما لأي مدى تريدان» ، وبعد فترة صمت ربماِ استعاد فيها نص الرسالة التي لقنت له ، أضاف : «إن وجدتما هذا ملائماً» .

بلعت ريقي في حركة لا إرادية وسألت ، وجيوش من النمل تنتشر في ظهري ورأسي : «وهل ترى برلين أن الوضع وصل إلى هذا الحد ؟» . آن له أن يبتلع ريقه . صمت قليلاً وقال : «أنا شخصياً ليست لديَّ معلومات ، لكنهم أبلغوني هذه الرسالة من لحظات... ولا بد أن لها معنى معيناً ، وأنها لا تأتي من فراغ ، وإذا أردت وجهة نظري فأنا أعتقد أنه إذا كانت الأوضاع مرتبكة إلى هذا الحد... فقد يكون التأني في العودة مفيداً» .

كنت أعرف أن ألمانيا الديمقراطية متورطة في الهجمة الراهنة على خصوم السادات . وأعرف من خبرة سابقة أنهم وثيقو الصلة بشعراوي

جمعة . وكانت شائعات كثيرة تتناثر عن إمدادهم الأمن المصري بخبرات وأجهزة (وفيما بعد علمنا أنهم أسهموا في التنصت حتى على مكالمات السادات وعلى أحاديثه في بيته)... ومن ثم فحتى لو أن هناك تأنياً في العودة ، فبرلين هي آخر ما أفكر فيه . وفيما كنت أتجه إلى غرفة خالد محيي الدين لأبلغه الرسالة ، كان إصرار حاسم يتجمع... لسنا طرفاً في شيء ، والعودة المتعجلة هي الأفضل . في الأقل لنعيش ما يجري . دون نقاش كان خالد محيي الدين يرى الرأي ذاته . وأبلغت رومبل شكرنا واعتذارنا .

* * *

هل أحتاج أن أقول إن أحداث المؤتمر مضت بلا مذاق . وحتى كل الأوقات مضت بلا مذاق . أن تعيش ، تتكلم ، تناقش لكن قلبك وعقلك غائبان ، أفلتا منك ليعيشا وجد الوطن وهمومه ومخاوفه .

وتحسباً لأي شيء جلست طويلاً مع فاروج سلاطيان (وكان أكثر من صديق) رتبت معه أشياء كثيرة... من بينها أنه في حالة وقوع أي خطر سأرسل له رسالة بريدية على ورق أزرق اللون... وحددنا عبارات محددة ، كل منها بريء المظهر ، لكن لكل جملة معنى آخر متفق عليه . وفيما بعد إكتشفت أنه كان على حق تماماً إذ ألح في ترتيب هذه الترتيبات .

ومن بودابست إلى موسكو كالمعتاد... وتلقتنا هناك أكثر من مفاجأة ، في مكتب السفير د . مراد غالب كان د . اسماعيل صبري عبد الله ، الذي كان قد استدعي من زيارة لموسكو... وعلى عجل ليتولى وزارة التخطيط . والسفير نفسه إستدعي لتولي وزارة الخارجية . وهطلت معلومات أخرى ، د .فؤاد مرسي عضو في أمانة الاتحاد الاشتراكي . أبو سيف يوسف عين عضواً في مجلس الشعب . لطفي الخولي أمين العلاقات الخارجية في الاتحاد

الاشتراكي... البعض من هذه المعلومات أعلن والبعض كان في سبيله للإعلان .

أذكر أن د . اسماعيل أبدى تمنعاً وسألنا الرأي . أكد خالد ود . مراد ضرورة القبول . وأنا أيضاً ، لكنني أتذكر أن جملة إنطلقت مني دون محاذرة ، قلت : «الرجال في بلادنا يمتلكون في أيديهم يمين الطلاق ، إقبل فإن وجدت ما يشين إلق في وجوههم بيمين الطلاق ، إفعلها مرة في تاريخ مصر ما بعد ١٩٥٢ وقدم إستقالتك» . وعلى الفور أدركت خطر الانزلاق هكذا ، فلا الجو... ولا الزمان... ولا المكان ملائم لقول كهذا .

لكننا فهمنا ـ ودونما حاجة إلى تحليل معمق ـ ما يقصده السادات . كان يوجه رسالة حانية إلى الرفاق السوفييت «أطحت بالمقربين منكم ، وها أنا آتي لكم بالأكثر قرباً »... وأعترف بأن هذه الرسالة نجحت في خداع الجميع... السوفييت ، والذين قبلوا ، والذين ألحوا عليهم بالقبول .

وأسرعنا إلى القاهرة . كنا في شوق كي نعيش وسط الأحداث وليس مجرد أن نسمع عنها . وفي الطائرة ، جثم على صدري طائر أسود ضخم فغمرني بقلق شديد .

كنت في الصباح قد تصفحت الصحف المصرية في مكتب السفير . عناوين كثيرة ، ومقالات أكثر تهاجم «التنظيم الطليعي » (كانوا بالأمس يتملقون أي ظل من ظلاله)... وأحاديث كثيرة عن نشاطه السري في دعم مراكز القوى... تناسيت الأمر . لكن الانفراد بنفسي في مقعد الطائرة منحني هذا القدر المبالغ فيه من القلق .

حكيت في صفحات سابقة كيف شكلنا مجموعة للتنظيم في أخبار اليوم ، لكنها تبعثرت ربما لأن القيادة حاذرت منها بسبب إرتباطها بخالد محيي الدين .

وفي بدايات عام ١٩٧٠ (كنت محرراً في الطليعة) اتصل بي محمود العالم (كان قيادياً بارزاً في التنظيم الطليعي) ليبلغني رسالة من شعراوي جمعة يطلب فيها أن نشكل مجموعة للتنظيم في مؤسسة الأهرام . كنا جميعاً نعرف أن «هيكل» ضد التنظيم الطليعي ، وأنه نجح أكثر من مرة في تفكيك محاولات تشكيل مجموعات له في الأهرام . وقيل يوماً إن عبد الناصر أعطاه قائمة بأسماء الأهراميين أعضاء التنظيم ، فاستدعاهم واحداً واحداً وأمرهم بتركه... وكنت أعرف أن هيكل سيبطش بأية محاولة جديدة إن علم أو سمع بها . وفيما أشرب القهوة في بيت «العالم» وافقت بشرط متشدد ، لن أسلم الأسماء لأحد . ستبقى معي وحدي... وفقط أعطيكم الأرقام .

الح ، وتمسكت ، وتشاور ثم وافق .

وبدأت في العمل المحاذر... وتشكلت أول مجموعة من أربعة : أمينة شفيق ـ عبد المنعم القصاص ـ إبراهيم عبد الجابر خلاف ـ وأنا . وأبلغت العالم رقم ٤ ، أمينة في الأهرام والقصاص وأنا في الطليعة وخلاف في التوزيع... وتمدد كل منا في إتجاه حتى تكونت لنا وبسرعة مذهلة شبكة عضوية منتشرة في كل أرجاء الأهرام في المطابع والنقل والاشتراكات والإعلانات والتوزيع... باختصار في كل مكان .

وكانت المعركة في هذه الأيام مشتعلة بين هيكل ورجال الاتحاد الاشتراكي ، والتنظيم الطليعي ، وعبد الناصر يوازن بينهما ، ولعله كان سعيداً بهذا الصراع ، فبه يمكن أن يعرف كل شيء ، وبه يمكنه أن يتوازن مع صراعات القوى .

فالأهرام... كان مصدر المعلومة التي أنهت علي صبري ونفوذه المتصاعد : قصة المشتريات الضخمة التي إشترتها زوجته أثناء زيارة في موسكو ، والتي احتاجت إلى لوري لشحنها إلى الطائرة ومنها ، فؤاد سعد

مندوب الأهرام في الاتحاد الاشتراكي حصل على صورة تليكس مرسل من سكرتير علي صبري المرافق له يطلب فيه إرسال لوري إلى المطار ، منه إلى هيكل ومن هيكل إلى حاتم صادق الذي كان موظفاً بالأهرام . ومن حاتم (زوج هدى عبد الناصر) إلى عبد الناصر .

وبدأنا نقدم فيض معلومات وفير من أعمق أعماق الأهرام... حقيقة الميزانية ، حقيقة الإنفاق ، حقيقة أرقام التوزيع... وكان البعض سعيداً بذلك .

وأبقى طوال رحلة الطائرة مهموماً بهذا الهم . ماذا لو عرف هيكل بالأسماء ؟ ماذا لو خاف واحد وأبلغه بما يعرف ؟ في الماضي كان يحذر في عنف (حتى برغم إحتضان عبد الناصر للتنظيم) فماذا سيفعل اليوم في ظل هذه الحملة الشرسة ؟ كنت أشعر بمسئوليتي إزاء هؤلاء جميعاً . فأنا الذي فعلت ، وورطت ، ونقلت المعلومات... وأدركت لماذا كان ثمة شيء داخلي يستحثني للعودة السريعة . كنت أريد أن أكون هنا ، لأطمئن الجميع أن أحداً لا يعرف الأسماء .

وفور عودتي... أسرعت إلى البيت لأحرق قوائم العضوية ، ومن البيت للأهرام لأمنح الجميع طمأنينة أن أحداً لا يعرف أي اسم .

كان رجال هيكل يطلقون الشائعات... أن «الأستاذ هيكل عرف الأسماء . وجدوها في أرشيف التنظيم ، وأنه ينتظر أن يعتذر له مَن تورط ليعفو عنه» ، وأبلغت الجميع بكذب هذه الشائعة ، وأكدت أن أرشيف التنظيم الطليعي لم يكن سوى أرقام فقط .

* * *

كنا جميعاً في عجلة من أمرنا «خالد أسرع إلى الإسكندرية حيث الأسرة فالمصيف ، وأنا أسرعت إلى الأهرام لأطمئن الزملاء بأن سرهم محفوظ ،

وأن أحداً لا يعرفه غيري . واستراحت القسمات والملامح . ومصر كلها كانت تلهث لتتابع إحداثاً لم يتوقعها أحد ، حتى ولا السادات نفسه (ذات يوم قابلت أحد الرؤساء العرب وتذاكرنا هذه الأحداث ، قال إنه ومع تصاعد الصراع سأل السادات هل هو مطمئن ؟ فقال : أنا أراهن على أنهم جميعاً « قش »... وعلى أنهم يخشون بعضهم البعض ، ويكرهون بعضهم البعض) ، كانت الأحداث تتسارع ، أو بالدقة تلهث ، لتلهث معها قلوب المصريين وأوجاعهم... وعلى السطح يطفو منصب غريب ، ورجل أكثر غرابة . «المدعي الاشتراكي »... والرجل د . مصطفى أبو زيد ، صعد سريعاً بلا سابق مقدمات ، ولعله من فرط سرعة الصعود فقد توازنه ، وتصور أنه مهم فعلاً ، ولم يدرك أنه مجرد ضرورة متعجلة ، لمعركة متعجلة ، وأنه إلى أفول فور انتهاء الدور المنوط به . تصور الرجل أنه أمسك برقاب الناس . وقرر أن يمارس وبالفعل تحكمه في رقاب الناس .

وفيما كنت عائداً إلى المنزل جاء صوت عبر التليفون... كلم السيد المدعي الاشتراكي ، جاء الصوت مترفعاً ، مغلفاً بترفع متعمد ، وصلف مصنوع .

ـ فين خالد ؟

ـ خالد مين ؟

ـ خالد محيي الدين .

ـ في الاسكندرية .

وطلب العنوان ورقم التليفون . مرق سهم ملتهب أمام ناظري . قلت : لا أعرف . قال : على العموم حنقدر نجيبه (قالها بلهجة متوعدة أثارت مخاوفي) ، وأضاف في وعيد ، وإذا إتصلت به أبلغه أن يحضر فوراً لمكتب المدعي الاشتراكي في مبنى قيادة الثورة .

«يا لهذا الزمان»... دقت العبارة فوق دقات قلبي . في هذا المبنى ، ذات المبنى ، كم من مرة دخل محيي الدين حاكماً... والآن يستدعيه هذا الـ ... بهذا الصلف ، فكيف ستدق أقدامه أرض المكان ؟

وفيما أضع السماعة ، رن التليفون مرة أخرى ، كانت إنجي رشدي تسأل عن أحوالي وأحوال الأستاذ خالد ، أفضيت لها بمخاوفي قالت : كلم الأستاذ هيكل هو لازم يعرف كل حاجة . وكلمت هيكل وأبديت له مخاوفي ، لكنه طمأنني لأن لا شيء ضد خالد على الإطلاق . قلت : لكن لهجة المدعي الاشتراكي كانت حادة جداً . قال ببساطة مترفعة : سيبك منه ده... وشتم شتمة كبيرة . إتصل بخالد وبلغه أنه مفيش حاجة .

ويبدو أن هيكل لم يكن يعلم ما يسرع به المدعي الاشتراكي ، فقد كان يؤكد أنه لا شيء . عليه وعلى أية حال اتصلت بخالد حكيت له الحكاية . سأل ما رأى الأستاذ هيكل ؟ قلت : قال إنه... (هذه المكالمة سجلت وعرضت على المدعي الاشتراكي ، ودفعته إلى الهجوم على هيكل ، وكان يقول بلا احتراز ، أنا نفسي في هيكل ، أجيبه هنا وأحقق معاه ، لكن دور السيد المدعي كان محدوداً ومحدداً) .

عاد الأستاذ خالد إلى بيته بعد الغروب . من هناك كلمني . قال إنه ذاهب ، وسيتصل بي فور عودته . طال الزمن . أو لعله تباطأ عن عمد ليرهق أعصاباً هي مرهقة بالضرورة . بعد ساعات عدة مرت بأطول من قياسها الافتراضي بكثير . كلمني الأستاذ خالد... كانت كلماته متأنية وهادئة وحزينة . التحقيق جرى كله حول عبارة «شدوا حيلكم»... كنت تحرضهم . كنت تعرف مخططهم . كنت . وكنت .

حاول خالد أن يفهم عقلاً كان مستعصياً على الفهم ، وانتهى الأمر بقرار وضعه في الإقامة الجبرية في منزله . (بعدها عرفنا أن قراراً بالقبض عليه كان

قد صدر بتهمة الضلوع في المؤامرة... لكن السادات إستعاد تقاليد أعضاء مجلس قيادة الثورة في تعاملهم مع بعضهم البعض ، وإكتفى بوضعه في الإقامة الجبرية) .

بعدها بقليل ، بعد أن استعددت للخروج حاولت الاتصال به مرة أخرى لأبلغه أنني ذاهب إليه... التليفون لم يرد (قطعوا الحرارة فور مكالمته معي) . أسرعت إلى بيته أمام باب الشقة مخبر منعني من الدخول . لم أضيع وقتاً . نزلت مسرعاً واستدرت وصعدت من سلم الخدم الخلفي . دققت بباب المطبخ ، فتح لي ، تشاورنا ماذا سأفعل . كيف سأبلغ الصحف ووكالات الأنباء . وماذا سأقول لمدام سميرة ، وكيف سأدعوها للحضور فوراً من الإسكندرية . ومن سلم الخدم نزلت .

كان الهم الأكيد هو ماذا سأقول لمدام سميرة ، كيف أنقل إليها الخبر دون أن أزعجها ؟وهل يمكن ألا تنزعج . فالحمى الإعلامية ، تصدع الرؤوس بل تدمرها بأحاديث هوجاء مشتعلة عن «المؤامرة» و«مراكز القوى» والمحكمة الخاصة التي ستحاكمهم بتهمة الخيانة العظمى .

وبجهد جهيد نجحت في الاتصال بهيكل . وجدته يعرف . تجاهل وتجاهلت ما حاول منذ ساعات أن يطمئنني به من كلمات .

١٥ مايو
«تداعيات التداعيات»

... وكان من تداعيات ١٥ مايو صعود نجم د . عبد السلام الزيات الذي ظل مقرباً من السادات لزمن طويل قبل توليه الرئاسة . والذي ظل ـ ولفترة ما ـ أحد دعامات الحكم الساداتي .

وربما لأن السادات كان بحاجة إلى ما يطمئن به السوفييت بعد انقلابه على أصدقائهم من الناصريين ، فقد تلاقت «المصلحة السياسية» مع «العلاقة القديمة» ، تفاهمتا معاً ، فكان بروز دور محوري للدكتور محمد الخفيف صهر الزيات ، دور يتلخص في كونه مندوباً للحكم عند اليسار أو العكس .

وكان طبيعياً أن يكون الفريق اليساري الذي سيجري التعامل معه قريباً من الدكتور الخفيف ، أو بالدقة كان هو قريباً منهم... وقد كان قريباً من تلك المجموعة التي أسميت في الزمن الناصري «مجموعة الطليعة» (نسبة إلى مجلة الطليعة) . وإذ كانت «الطليعة» منتسبة إلى الأهرام فإن «صوت» هيكل المقرب جداً من السادات آنئذ كان مع صوت الخفيف .

وأثمرت هذه التعرجات السياسية مواقع لم يلحق بها الماركسيون من قبل : د . اسماعيل صبري عبد الله وزيراً ، د . فؤاد مرسي عضواً في الأمانة

العامة للاتحاد الاشتراكي ، لطفي الخولي أميناً للعلاقات الخارجية ، أبو سيف يوسف عضواً معيناً في مجلس الشعب .

* * *

وكانت عودة لطفي الخولي غير المتوقعة ـ من البعض في الأقل ـ دليلاً جديداً على تعرج الحياة السياسية المصرية .

فقبل فترة كان الخولي قد ألقي القبض عليه ـ ضمن محاولة تصفية حسابات مع هيكل ـ فوفق نظرية «الأفيال تتصارع والعشب يتكسر» ، وفيما كان نجم هيكل يصعد في الأفق الناصري ، كان خصومه (علي صبري ومجموعته) يطحنون العشب القريب من هيكل كلما حانت لهم الفرصة .

وهكذا ، وبسبب تسجيلات لسهرات أسرية جرى فيها تناول بعض رموز الزمان الناصري بالغمز ، قبض على نوال المحلاوي سكرتيرة هيكل الخاصة وزوجها ولطفي الخولي . وحل محله في رئاسة تحرير الطليعة أبو سيف يوسف . وقد ظللنا نحن محرري الطليعة ـ من باب الوفاء ، وربما من باب إظهار قدر من الاحتجاج ـ نعارض فكرة نشر اسم أبو سيف يوسف كرئيس للتحرير . كما ظللنا نلح على ضرورة الإفراج عن رئيس التحرير .

وهنا برز موقف «نظري» لا يمكن الاختلاف عليه نظرياً ،.وإن اختلفنا عملياً . «نهتم باستمرار صدور الطليعة كمنبر يساري وتحت سيطرة اليسار... ونعلو بهذا الأمر فوق المسألة الشخصية المتعلقة بالقبض على لطفي الخولي» .

وتمضي الأيام ويستثير قلقنا ، نحن محرري الطليعة ، استمرار بقاء لطفي الخولي في السجن... وقررنا أن نفعل شيئاً . كتبنا عريضة وقعنا عليها جميعاً مطالبين بالإفراج عنه . وسلمنا العريضة لمكتب هيكل .

رد الفعل كان غريباً . هيكل اجتمع بنا ، كل ما اهتم به ـ بعد تأكيد تعاطفه مع لطفي ـ أن الأهرام لم يعرف ويجب ألا يعرف مسألة توقيع العرائض . د . فؤاد مرسي اجتمع بنا هو أيضاً . ألح على فكرة الاهتمام بالعام... والاستعداد للتضحية بالخاص من أجل العام . وأن الأساس هو الاحتفاظ بالطليعة كمنبر يساري ، وأن وضع «الأفراد» يمكن التضحية به في هذا الإطار .

ثم أضاف عبارة موجعة... قالها وهو يشعر بأسى : آسف جداً إذ أقرر أن دور لطفي الخولي قد إنتهى نهائياً .

... وفيما يتهادى ١٥ مايو بنتائجه المأساوية لدى البعض ، والمخملية لدى البعض الآخر ، وفيما خالد محيي الدين في الإقامة الجبرية ، كان بعض «الرفاق» يمارسون الحكم ـ أو هكذا يخيل إليهم ـ متواصلين مع السادات إلى المدى الأقصى .

ولسبب ما رغب السادات في مواصلة «الضغط» على خالد محيي الدين . وربما أعجبته لعبة ضرب اليسار باليسار ، بدلاً من أن يفعلها هو . وهكذا برزت من جديد ذات المقولة... «أن نهتم بما هو عام» أن ننقذ حركة السلام كمنبر يلعب فيه اليسار دوراً مهماً وأن وضع «الفرد» (خالد محيي الدين) يمكن التضحية به .

كان خالد سكرتيراً عاماً للمجلس المصري للسلام (منتخباً من مؤتمر المجلس) ونائباً لرئيس المجلس العالمي للسلام ، وفجأة وجدنا «قراراً» ، أو بالدقة «تعليمات» بأن الأستاذ سعيد خيال وكان واحداً من أبرز العاملين في حركة السلام وصديقاً صدوقاً لخالد محيي الدين ، قد أصبح «السكرتير العام» . وكان لطفي الخولي هو الذي اختاره وأقنعه ودفعه لقبول هذا الدور . ولم يخف لطفي الخولي موقفه . بل دافع عنه وبحماسته

المعهودة مستخدماً ذات المقولة التي سبق أن استخدمت ضده عندما كان سجيناً .

وفيما نستعد لمقاومة هذا الإجراء ، إستدعاني د . فؤاد مرسي إلى مكتبه (كعضو في الأمانة العامة للاتحاد الاشتراكي) . أعاد طرح ذات الفكرة القديمة : «العام» أهم من «الخاص» . كان يحكي متحمساً ، وأنا شارد الذهن ، أستعيد صورته وهو يكرر ذات الحجج وربما بذات الألفاظ في اجتماعه معنا نحن محرري الطليعة... لم أجد ما أقول فقط ذكّرته بأن لطفي الخولي قد عاد إلى موقعه في الطليعة عندما إحتفظنا له بالموقع... وسألته لِمَ لا نعمل كي يعود خالد محيي الدين لموقعه ؟

لكن د . فؤاد ، ولطفي ، وسعيد كانوا يؤكدون أنه لا مجال لعودة خالد . وأن ترك «المنصب» دون أن يشغله واحد «منا» سيتيح الفرصة لوقوعه في أيد غريبة . وأن أية معركة لإعادة خالد محيي الدين هي بالضرورة خاسرة .

وكانت معركة فرض سعيد خيال سكرتيراً للمجلس المصري للسلام معركة مفرطة الحساسية . فالجميع أصدقاء ، وكان الأكثر حرجاً هو سعيد خيال : حاول منذ اللحظة الأولى التي جلس فيها في غرفة خالد محيي الدين أن يدعونا إلى تفهم وضعه ، وتفهمناه . وهكذا دارت معركة مثيرة للدهشة . هو يأتي إلى المكتب كل يوم ، يعمل... ونحن نعمل معه دون تجاوب ، أو بالدقة نتحاشى التصادم معه دون أي تجاوب . ولم أخف معارضتي لموقفه . وكما تفهمت موقفه ، تفهم هو أيضاً موقفي .

وكانت الدعوة لاجتماع سكرتارية المجلس... مغامرة محفوفة بالخطر . فالألغام كثيرة ، وكان الجميع يكسوهم حرج بالغ ، وأحسست ساعتها بأنني أضغط عليهم بمحبتهم لخالد . وهو ضغط يمثل خطراً حقيقياً على وضع كل منهم .

ثلاثة وقفوا موقفاً واضحاً... صارماً ، حسين فهمي الذي كان يرابط يومياً في مكاتب المجلس وكأنه يحرسها من أي غزو . وكان يجاهر بالهجوم على فكرة إستبعاد خالد ، ويشن هجوماً متصاعداً وعلنياً ضد لطفي الخولي باعتباره صاحب الفكرة ، وعوض طه عبد القادر (كان يسارياً قديماً ورئيساً للنقابة العامة لعمال الخدمات) ، وقد اتخذ موقفاً حاسماً رافضاً أي تعامل أو اعتراف أو حتى تلامس إلا مع خالد محيي الدين'، وقد دفع ثمن موقفه هذا سريعاً عندما استبعد بقرارات علوية في أول انتخابات عمالية تالية من رئاسة النقابة ، وأنا .

أما الآخرون فالحرج يدفعهم للتحرج من التصادم... ويمنعهم من الموافقة على هذا التغيير غير المقبول... فتعلقوا بالشكل . السكرتير العام ينتخب من مؤتمر المجلس... فلننتظر مؤتمر المجلس . أما وضع خالد كنائب لرئيس المجلس العالمي فهو ملك لمؤتمر المجلس العالمي للسلام... لكن الكلمات لم تكن واضحة هكذا ، ولا محددة هكذا أيضاً... وإنما تلف وتدور متحاشية التصادم بأعلى ، ومتحاشية تأييد ما حدث... فالدكتور جمال العطيفي كان يشرح وجهة نظره فنكاد نعتقد أنه معنا ، لكنه يغلفها بما يوحي لسعيد خيال أنه ليس ضده . وإن كان يتمتع بموقف لائحي صائب... هو إحالة الأمر كله إلى مؤتمر المجلس تلافياً لأي حرج قد يغلف السكرتارية... كذلك كان وضع أحمد الخواجة الذي كان قد أفلت لتوه من أن يضاف إلى قائمة المتهمين في قضية «مراكز القوى»... وآخرون آثروا الغياب حفاظاً على موقف أو وضع... أو تلافياً للحرج .

لكن المدفعية الثقيلة سواء في الاجتماع... أو في المناقشات اليومية كانت في يد حسين فهمي ، الذي تمنطق بالعام والخاص معاً ، بحرصه على الحركة من التدخل الحكومي في شأنها ، وبصداقة صافية لخالد محيي الدين ،

وبشجاعة إفتقدها الكثيرون... وفي الخندق الآخر أمسك لطفي الخولي بزمام المدفعية الثقيلة .

وفيما كانت مناقشاتنا وصراعاتنا تتمحور حول دور «خالد محيي الدين» المحلي... والدولي... وفيما مثلنا حسين فهمي ، وعوض طه عبد القادر وأنا محور مقاومة صعبة ، وفيما كانت الحجة القانونية «بضرورة العودة لمؤتمر المجلس» تشكل عقبة أمام عملية فرض سعيد خيال . قرر لطفي الخولي الالتفاف على مقاومتنا بالتوجه عالمياً ، وكسب تأييد عالمي .

* * *

كنت قبل مغادرة بودابست ـ حيث عقد المؤتمر العالمي للسلام ، وفيما وقعت أحداث ١٥ مايو ـ قد جلست طويلاً مع فاروج سلاطيان (بناء على إلحاح منه وهو المدرب على مثل هذه الأمور) كان متوجساً من احتمالات وقوع شيء ما ضدنا .

واتفقنا على أسلوب للتراسل... كانت المكالمات التليفونية الدولية تخضع لرقابة مشددة وسيطرة كاملة (أذكر أنه مع طلب أية مكالمة دولية كان عامل السنترال يسألك عن اللغة التي ستتحدث بها . وذات مرة ، وفيما كان روميش شاندرا يزور القاهرة ، طلبت له مكالمة مع الهند ، وقلت إنه سيتحدث بالإنجليزية... وبعد فترة من الحديث بدأ روميش يتحدث باللغة الأوردية فإذا بصوت يدخل على الخط طالباً منه التحدث بالإنجليزية ولم يفهم روميش الأمر فاستمر بالأوردية... وقطعت المكالمة) .

ولم تكن هناك هذه المستحدثات مثل الفاكس ، و«كارت» المكالمات الدولية... المهم وضعنا «كود» للتراسل ، واتفقنا أن أبلغه لزوجتي ، فإن حدث شيء لي تولت هي المراسلة .

الورق الأزرق تعبير عن وقوع أزمة ، فإذا أضفنا مظروفاً أزرق فالكارثة كبيرة... ثم كود للكلمات... وأحضرت مظروفاً أزرق اللون وورقة زرقاء... وبدأت الكتابة .

كان الكود المتفق عليه يشير إلى السجن بعبارة «بيت خالته» (إنه تعبير سوري عريق : راح بيت خالته ، أي دخل السجن) ، وتحايلت فقلت «أخي الكبير يعاني كثيراً ، فخالته ذهبت لتقيم عنده في بيته رغم أنفه ، وهو مرغم على البقاء معها . وأن ابن عمنا لطفي يحاول أن يفرض سعيد محله في رئاسة الشركة ، بل هو يستعد للسفر لمقابلة المتعاملين مع الشركة في فرنسا وإيطاليا ليضمن مساندتهم له... مع تحيات وكلام كثير معاد » .

بعد أيام تلقيت مكالمة من فاروج ، تسلم الرسالة وفهم المطلوب .

وكان لطفي الخولي متحصناً بمساندة رسمية حاسمة قد رتب زيارة لحركتي السلام الأكثر نفوذاً عالمياً : الفرنسية والإيطالية . وسافر مصطحباً معه سكرتير د . الزيات واسمه فيما أذكر أحمد كامل ، وآخرين لم نتعرف عليهم .

وصل الوفد إلى باريس . لكن اتصالاً من فاروج كان قد سبقه ، وإذا بالمستقبلين يؤكدون لهم وهم بعد في المطار أنهم لا يعترفون برئيس لحركة السلام المصرية إلا خالد محيي الدين... وأنهم ليسوا على استعداد للتعامل مع أي شخص غيره . وأسقط في يد لطفي... وانتقل الوفد إلى روما ليلتقي ذات الإجابة ... وذات المصير .

وعاد لطفي ثائراً ، فقد أحس أن ثمة ترتيباً مسبقاً أفسد زيارته .

* * *

ثم وقعت الواقعة .

كان لطفي الخولي أميناً للعلاقات الخارجية في الاتحاد الاشتراكي ، وهو

موقع مرموق خاصة في نظر عديد من دبلوماسيي البلدان الاشتراكية الذين كانوا يتواصلون مع مصر الرسمية في أحيان كثيرة عبر قناة العلاقات الخارجية ، ففي كل سفارة «اشتراكية» كان هناك مستشار مخصص للاتصال بالاتحاد الاشتراكي باعتباره الحزب الحاكم... وكانوا هم أنفسهم ـ في أغلب الأحيان ـ المكلفين بالاتصال بمجلس السلام... ومن ثم كنت أتصل بهم ليفاجأ لطفي الخولي بهم وهم يرددون ذات الموقف ، وذات الحجج التي نرددها في جلساتنا معه... أو مع غيره .

وذات يوم زاره في مكتبه في الاتحاد الاشتراكي «فودور استفان» مستشار السفارة المجرية ـ وكان صديقاً حميماً لي ـ كنت قد أبلغته رسالة إلى حركة السلام المجرية شارحاً وجهة نظرنا . وتلقى « «فودور» رسالة تطلب منه أن ينقل إلى لطفي الخولي «أمل» لجنة السلام المجرية في الحفاظ على دور خالد محيي الدين في حركة السلام ، وكانت الرسالة مشفوعة بحديث كثير عن دور خالد محيي الدين العالمي... وعن تأثير الموقف منه على الموقف من المجلس المصري للسلام .

وخلال النقاش ، أسهب فودور في تقديم حجج ومعلومات أفصحت عن أن ثمة مصدراً مصرياً حدثه عنها ، وانتهز لطفي الخولي الفرصة ، وثار ثورة ساخنة (ذات اللفظ الذي قاله لي فودور) وهدده أنه إذا لم يبلغه باسم «المصري» الذي حدثه في الأمر ، والذي طلب إلى المجلس المجري للسلام أن يتدخل ، فإنه بصفته أميناً للعلاقات الخارجية سوف يوجه رسالة إلى الحكومة المصرية يبلغها فيها بقطع العلاقات والاتصالات بين الاتحاد الاشتراكي والحزب المجري .

وارتعب «فودور» وأدرك أنه قد وقع فيما يجب ألا يتورط فيه ، خاصة أن لطفي استخدم عبارات كبيرة ، وأسماء كبيرة كالسادات... وما إلى ذلك .

ولو وجه لطفي رسالة كهذه لانتهى فودور نهائياً . حاول الرجل الإفلات ، لكن لطفي كان قد أطبق على عنقه ، وأمسك به في مقتل... وأخيراً اعترف فودور بأنني الذي حدثته في الأمر .

كان مكتب لطفي في الدور الثاني من ذات المبنى الكبير للاتحاد الاشتراكي... وكانت مكاتب مجلس السلام في الدور التاسع ، وصعد فودور فوراً ليعتذر ، وينذرني ـ وهو يتصبب عرقاً ـ بأنه أبلغ لطفي بما دار بيننا .

وأدركت أنني مقبل على معركة كنت أتوقعها منذ البداية .

فأنا في نهاية الأمر محرر بالطليعة التي يرأس لطفي تحريرها .

وفي اليوم التالي ذهبت إلى مكتبي بالطليعة لأتسلم رسالة غاضبة من رئيس التحرير تتهمني بالتقصير في أداء واجباتي الوظيفية ، وتحذرني ـ وبألفاظ قاسية ـ من استمرار هذا التقصير . ورددت على الرسالة برسالة... مهذبة ـ أو حاولت أن تكون كذلك ـ وإن كانت قاسية . ثم وبناء على نصيحة من إنجي رشدي أخذت الرسالتين إلى الاستاذ هيكل... قرأ ، وأبدى دهشته ، ثم حكيت له القصة ، ضحك وقال « لا تهتم فأنا الـ Boss هنا » .

* * *

ولعل هذه المعركة ـ رغم هدونها الظاهري ـ قد أثارت مخاوف العديد من اليساريين ، وحفزتهم على التدخل . وفي واحدة من هذه التدخلات احتشد جمع يساري بدعوة من ميشيل كامل (الذي كان برغم علاقته العميقة مع لطفي متعاطفاً مع خالد ومع موقفنا) وفي بيته كان لطفي وسعيد خيال وحسين فهمي وأنا وآخرون أذكر منهم عادل سيف النصر لأن إسهامه كان مميزاً . كان لطفي صامتاً ـ على غير عادته ـ وأمام سيل التدخلات والإلحاح على ضرورة الحفاظ على موقع خالد محيي الدين حتى تنجلي أزمته مع الرئيس... تحدث سعيد خيال طويلاً بهدوئه المعروف... وكأنه يريد أن يقول

إنه لم يطلب شيئاً ، ولكن طُلب منه أن يتولى الموقع . همست في أذن ميشيل «كان عثمان يقول كيف أخلع ثوباً ألبسنيه الله ، أما هو فيقول : كيف أخلع ثوباً ألبسنيه الرئيس» لكن ميشيل لم يستجب للدعابة وإنما لدغني في رجلي بشدة قائلاً : لا تنطق فقد يأخذ من أية كلمة لك حجة... فيغضب وينسحب... وكان على حق ، واكتفيت بالصمت . بينما نجحنا وبصعوبة شديدة أن نقلل من ثورة حسين فهمي .

لكن الأمسية التي امتدت طويلاً انتهت إلى... لا شيء... فقد تشبث كل من الطرفين بموقفه .

* * *

وتواصلت الضغوط ، والضغوط المضادة ، أنا عن طريق الخطابات الزرقاء... والآخرون ومن ورائهم الحكم عن طريق الاتصالات الدبلوماسية . وهل يمكن للرسائل الزرقاء أن يتوازى ثقلها مع الدبلوماسية المصرية ، خاصة مع الدول الاشتراكية... وعلى رأسها الاتحاد السوفيتي .

وفي ساحة «الدور التاسع» حيث مقر المجلس . جرت الأمور هادئة ، واستمرت العلاقات المغلفة بالرفض الصامت والاحترام المتبادل معاً . فأنا لم أوجه هجوماً إلى الأستاذ سعيد خيال شخصياً (وإنما إلى من ألبسوه القميص) وهو احتفظ لي باختصاصاتي كافة في المجلس وهي كثيرة . واستمرت جلساتنا الثلاثية ، حسين فهمي ، عوض طه عبد القادر ، وأنا ، لمحاولة الترتيب لعقد مؤتمر لحركة السلام... بهدف تأكيد وضع خالد وبدأنا في الاتصال بأعضاء المؤتمر فرداً فرداً لضمان تأييدهم .

ثم جاءت رسالة قاصمة . فاروج أرسلها مع صديق سوري قادم من دمشق... قال : إن ضغوطاً دبلوماسية شديدة مورست على السوفييت من أجل

إرسال وفد من المجلس العالمي للسلام إلى القاهرة . فيكون مجرد حضوره اعترافاً بالوضع الجديد وتدشيناً له . وقالت الرسالة إن الضغوط أثمرت... وأنه قادم هو ونيقولاي فوشينين ممثل حركة السلام السوفيتية في هلسنكي .

وألح فاروج على ضرورة أن يسمع رأيي سريعاً . تشاورت مع حسين فهمي ثم مع خالد محيي الدين وكانت رسالتي الزرقاء تحمل ما يفهم منه : أنه لا بأس من حضوركما ، ولا بأس من الاجتماع مع سعيد خيال ، دون الاعتراف به رسمياً كسكرتير عام .

وحضر الوفد... وكنت في انتظاره في المطار . لكنني هذه المرة لم أكن وحدي . كان هناك هيلمان السلطة الذي أراد به البعض الإيحاء بأن مكانة المجلس لدى الحكم قد زادت بإبعاد خالد .

... وفي قاعة فخمة بمبنى الاتحاد الاشتراكي عقدنا اجتماعاً مشتركاً... لطفي ، سعيد خيال ، حسين فهمي وأنا والوفد الثنائي . تناقشنا في موضوعات شتى . لكن أحداً لم يطرح الموضوع الملتهب . بل حتى ولم ينطق أحد باسم خالد محيي الدين . كنت هادئاً ، صامتاً ، باسماً على غير عادتي . حسين فهمي زغدني أكثر من مرة كي أنطق ، لكنني لم أفعل بل طلبت منه ألا يفعل . فاروج ألقى نحوي بالعديد من النظرات المتسائلة : لماذا لا تطرح الموضوع... لينقل فوشينين ـ في الأقل ـ وجهة نظركم ؟ تجاهلت النظرات... التي تحولت إلى همسات غاضبة لأنني أضيع فرصة ثمينة... ولم أنطق .

في نهاية الجلسة سألت فقط كيف سننشر خبر هذه الزيارة ؟ واتفقنا على ألا ننشر شيئاً .

* * *

بعد الجلسة اصطحبت حسين فهمي وفاروج وفوشينين للعشاء . أكلنا وشربنا وضحكنا وأنا لم أزل مصمماً على عدم فتح الموضوع ، بل كنت أسارع بإغلاقه كلما حاول أحدهم فتحه .

أخيراً وفيما نوشك على الافتراق... فجرت المفاجأة التي أذهلت الجميع . في ذات الوقت الذي كنا مجتمعين فيه رسمياً . كان خالد محيي الدين يزور السادات في بيته ، وخلال العشاء تسللت لأتحدثُ مع خالد تليفونياً وأبلغني أن كل شيء على ما يرام... وأن المقابلة كانت مرحة جداً ، وأن السادات وافق على عودته سكرتيراً عاماً لمجلس السلام .

وفيما نتمشى إلى الفندق بعد العشاء اشتريت «الأهرام» وكانت طبعتها الأولى قد بدأت في التوزيع مساء . وفي صفحة الدولة خبر بارز «استقبل السيد الرئيس محمد أنور السادات بمنزله خالد محيي الدين السكرتير العام للمجلس المصري للسلام» .

وتحته مباشرة خبر آخر «التقى الأستاذ سعيد خيال السكرتير العام للمجلس المصري للسلام وفداً من سكرتارية المجلس العالمي للسلام مكون من...» .

وجلسنا مرة أخرى لنواصل سهرة صاخبة وضاحكة .

وفي الصباح أسرعت إلى الأهرام... لألتقي بصديق في «الدسك المركزي»... حكى كيف وممن تلقى خبر الاجتماع مصمماً ـ وبلهجة آمرة ـ على نشره في موقع بارز . كان لديهم خبر الرئاسة... ونشروا الخبرين معاً .

وعندما عدت إلى مكتب مجلس السلام كان خالد محيي الدين هناك مجتمعاً مع الوفد وأكملنا بهجتنا بأن حكيت لهم قصة نشر الخبرين... معاً .

مرة ثانية ... المكتوبجي

والكتابة ضد البعض تقرباً للسلطان تبقى حرفة من لا موهبة له . تبقى حتى وإن تغير الزمن ، وتغير السلطان .

السادات أتى ، وظهر له رجال ، كانوا أيضاً من رجال العهد السابق ، وربما من أكثر المتملقين له ، لكنهم أجروا حساباتهم بطريقة مخالفة بعض الشيء للآخرين .

من هؤلاء شخص سأرمز له «ف»... صعيدي ، غليظ الفهم ، وغليظ التعامل .

نصف متعلم لكنه متعالم ، يُخفي جهله خلف ستار من صلف مترفع ويستر ذلك كله بعلاقة خاصة جداً بالسادات . ويكرر ويكرر ، ولا يمل من تكرار حكايته يوم ١٥ مايو عندما حمل رشاشاً (غير مرخص) وذهب لبيت السادات كي يحرسه من عدوان «مراكز القوى» . كان يعرف أن رئيس الجمهورية لا يحتاج له كي يحميه . فلديه ما يكفي من حماية ، لكنها حرفة التملق عندما تتقن الإداء .

ونال الثمن... منصباً رفيعاً ، ومنحاً وتقارباً ، وخطوة .

هذا الرجل أوفد إلينا ليمثل الحكم الجديد في مجلس السلام . وسافر

معنا كثيراً وكأنه رقيب يتحتم وجوده . هذه المرة كنا في طريقنا لمؤتمر في هلسنكي ، وكالمعتاد نحط الرحال في موسكو ومنها إلى هلسنكي ، كانت الأرض بيضاء... وما زال المزيد من الأبيض يأتي من السماء حتى يخيل إليك أنه لن ينتهي... والمدى الأبيض لوحة منسوجة من تموجات ذات لون واحد . والوفد مكون من أحمد الخواجة ، ود . جمال العطيفي ، وعبد المجيد أبو زيد ، و«ف» هذا ، وأنا ، وأزعم أن «ف» هذا لم يكن يعرف أي شيء مما يجري حوله إلا أنه صمم أن ينصب نفسه رئيساً لنا ، ورقيباً علينا .

وبرغم أن أحداً لم يستطع أن يبتلع هذا الرجل ، إلا أن نظراتنا توافقت على محاولة احتماله دون مشكلات .

كنت جالساً إلى جواره في صالة الفندق ، أخرج محفظة نقوده ليعيد عد الثروة التي نالها من جهة ما كبدل سفر ، لاحظت أن بها ورقات من فئة الخمسة جنيهات استرليني . حذرته بضرورة استبدالها خلال شهرين فقد تقرر سحبها من السوق .

غاب نصف ساعة وعاد سائلاً : معاك عشرين جنيه استرليني سلف أعطيته ما أراد ، رسم على فمه ضحكة صفراء ، وهو يعطيني أربع ورقات من فئة الخمسة جنيهات . ولما لاحظ دهشتي قال : يا سيدي أنت راجل متعلم وبتعرف انجليزي ، وإحنا صعايدة... غيّرهم أنت .

وذات مرة اصطحبتهم إلى محل «ستوكمان» في هلسنكي ليشتروا ما يريدون ، وهلسنكي دوماً ملتهبة الأسعار ، والأسعار أربكتهم ، كل منهم ركب في رأسه آلة حاسبة تحول الماركات الفنلندية إلى دولارات ، والدولارات إلى جنيهات مصرية ثم يصرخ من الدهشة . أنا كنت معتاداً ، فقد عشت في هلسنكي زمناً ، كانت الآلة الحاسبة تعمل باستمرار في رأس

« ف » ، وكانت تدفعه بعيداً عن شراء أي شيء انتظاراً للعودة إلى موسكو حيث كل شيء أرخص مما يتصوره العقل .

ولعليَّ أخطأت إذ اشتريت فستاناً لزوجتي ، فيما أذكر كان سعره قريباً من المائة دولار ، دارت رأس السيد « ف » ، اختلت آلته الحاسبة ، ظل طوال اليوم غير قادر على إسكات دهشته... يحكي ويحكي قصة الفستان ويشفع كل جملة بعبارة « يا نهار أسود مائة دولار » ، الدهشة سيطرت على الرجل حتى أضجرنا جميعاً . وكان الأكثر ضجراً د . العطيفي الذي قال : أصل واحد زي ده أول ما يحوش مائة دولار يجي على البلد ويشتري قيراط طين ، التفتنا لنجده خلفنا ، أوشكت أن أستشعر حرجاً لكنه أكد كلام العطيفي قائلاً : « أي والله ، قيراط طين ، فستان بقيراط طين ، يا نهار أسود » .

وظلت الدهشة تلاحقه... وأظن أنها لم تزل .

* * *

كان من المفترض أن نعود بالطائرة فجر السبت إلى لينينجراد ثم إلى موسكو .

تحدث عبد المجيد أبو زيد عن لينينجراد وجمالها وعن متحف الارميتاج... والح أعضاء الوفد أن نمضي اليوم في لينينجراد ونغادرها بقطار المساء إلى موسكو . أما د . العطيفي فقد غادر من هلسنكي إلى القاهرة مباشرة .

ولأنني كنت الأوثق علاقة برجال حركة السلام الذين عملت معهم طويلاً ، طلبوا إليَّ أن أرتب الأمر . وبالفعل رتبت ، وأكدت ، وأعدت التأكيد على الرفيق كالانداروف ممثل لجنة التضامن الآسيوي الأفريقي السوفيتية في المؤتمر .

غاب كالاندراروف قليلاً ثم عاد ليؤكد أن كل شيء تمام .

هبطت الطائرة في لينينجراد . لم يكن هناك أحد في انتظارنا . المعتاد أن ينتظروك على سلم الطائرة ، حاولت أن أمنح نفسي بعض الطمأنينة ، وركبنا الأوتوبيس مع خلق الله العاديين... ثم طابور الجوازات . الطابور المعتاد يتحرك ببطء ، وأنا من فرط القلق أتجاوز الطابور لأبحث عن أحد يكون في انتظارنا . عين ضابط الجوازات ترمقني بغضب وتأمرني دون كلمات أن أعود ، وعندما وصلت إليه لاحظت أنه كان في انتظاري ، سلمته أربعة جوازات دفعة واحدة .

تأمل كل باسبور ببرود وملل . ركنها الواحد تلو الآخر . ثم أغلق الشباك وأتى إلينا ليسحبنا خلفه .

أحضر فتاة تعرف بعضاً من الإنجليزية من مكتب الإنتوريست (شركة السياحة السوفيتية) بالمطار ، توالت أسئلته : من أنتم ؟ إلى أين ؟ لماذا ؟ حاولت أن أجيب بثقة من يثق أن الأمر سيسوى فوراً ، قلت باعتزاز : نحن ضيوف لجنة السلام في لينينجراد... وقلت ، وقلت ، وذكرت أسماء خيل إلي أنها مهمة ، الفتاة تترجم وهو ينصت ببرود ، يهز رأسه وكأنه يتفهم ، لكنه وفجأة فجر قنبلة «باسبوراتكم غير صالحة» كيف ؟ مد يده وأشار إلى مكان توقيع صاحب الجواز ، ولا توقيع . كل الجوازات المصرية خالية من هذا التوقيع لا أدري لماذا ؟ هل قال إن الجوازات غير صالحة ، لأن التوقيع هو أحد وسائل التأكد من شخصية صاحب الجواز . صاح الجميع ، تواعدوا ، صرخوا ، اختلط صراخهم بكلمات إنجليزية ، وأخرى فرنسية ، وكثير من العربية ، لكن الجليد الواقف أمامنا ازداد برودة ولم يهتز... لأنه لم يفهم حرفاً واحداً . الفتاة حاولت تهدئتنا بالإنجليزية قائلة : إنها ساعة أو ساعتين حتى يبدأ يوم العمل . فنحن لم نزل في السادسة صباحاً .

وبهدوء اكتشفنا أننا شبه مقبوض علينا ، أو بالدقة محتجزين ، قلت للفتاة أرجوك عندما يبدأ يوم العمل أن تتصلي بلجنة السلام ليحضر أحدهم ويخلصنا من هذا الإشكال ، وفيما أبحث في أجندة التليفونات عن رقم اللجنة ، قالت الفتاة في أسى : اليوم السبت ولن يكونوا في مكاتبهم قبل صباح الاثنين ، لكنني سأحاول تسوية الأمر على أساس ترحيلكم إلى موسكو وهناك تحلون مشكلتكم . وحتى هذا يحتاج إلى مسؤول ، والمسؤول سيحضر بعد ساعتين .

تعالى صوت الجميع في غضب ضاحك أو متضاحك ، وتراكمت شتائمهم وانتقاداتهم على رأسي... ناسين أن الاقتراح اقتراحهم .

وبعد عدة أمتار سرناها ونحن محاطون بعدد من الأفراد واضح تماماً أنهم من رجال الأمن فتحوا باب حجرة أدخلونا بهدوء ، ثم أغلقوا الباب... تاركين أضخمهم واقفاً في الخارج .

الحجرة أنيقة لا بد أنها غرفة واحد من المسؤولين . ولا بد أنهم حاذروا من سوء المعاملة ، فقرروا الاحتياط في معاملتنا ، خاصة بعد أن نقلت الفتاة عني وعيداً وتلويحاً بأنهم يرتكبون خطأ كبيراً .

ما إن أغلق الباب علينا حتى انفجرنا جميعاً في الضحك ، وبدأت النكات تنهال على رأسي : تسجن في مصر نعم ، لكن أنت غاوي ، حتى في لينينجراد تسجن أيضاً ، وتسجننا معك .

على المكتب تليفون ، اقترح أحدهم أن نتصل بالسفارة المصرية في موسكو . قلت الوقت مبكر ونحن يوم السبت ، معي رقم منزل السفير لكن لننتظر قليلاً من الوقت حتى يستيقظ . وفيما أقلب في الأجندة بحثاً عن رقم منزل السفير ، قفز أمامي رقم منزل فاديم سينيلنيكوف . كان صديقاً قديماً وحميماً . عمل لفترة طويلة مستشاراً في سفارتهم في القاهرة ، وكان

مسؤولاً عن التنسيق بين الاتحاد الاشتراكي والحزب الشيوعي السوفيتي .

تصادف أن التقيت به في موسكو قبل أن نغادر إلى هلسنكي . دعاني على العشاء في بيته وقضينا سهرة ممتعة مع زوجته «نينا» التي كانت مثله تتقن العربية .

أدرت قرص التليفون بهدوء حذر كي لا يشعر الضخم الواقف خارج الباب... كود موسكو ثم الأرقام واحداً تلو الآخر بهدوء متتابع ، وكأنني أتوسل إلى القرص أن يمضي بلا صوت . رنين التليفون . ثم آلو غاضبة من هذا الذي يوقظها في فجر يوم الإجازة . قلت : نينا . أجابت بالروسية : دا (نعم) ، قلت بالعربية وأنا لم أتمالك نفسي : يخرب بيتك يا نينا . قالت : من قليل الأدب ده .

حكيت لها الموضوع هامساً وأنفاسي تتسارع مع الكلمات خوفاً من أن يسمع الضخم الواقف خارج الباب فيأتي ليقطع المكالمة . أو أن تكتفي نينا بالاعتذار ، فقد قالت من البداية إن فاديم خارج موسكو . لكنها كانت تعرف كيف تتصرف ، وكيف تستفيد من وضع زوجها الذي كان في ذلك الحين مسؤول مصر والسودان في لجنة العلاقات الخارجية في اللجنة المركزية للحزب . وكلمة اللجنة المركزية تمتلك سحرها ووجلها الخاص . وهي المفتاح السحري لكل شيء ، وأي شيء . قالت ببساطة وهي تضحك معلنة أنها سعيدة لأنني سجين في بلاد السوفييت : هات لي واحد من اللي عندك .

وبجسارة أحسد عليها دققت الباب ، قبل أن ترفع يدي من الدقة الأولى كان الباب يفتح والضخم يوشك أن يقبض على عنقي كي أسكت . تراجعت خطوة مشيراً إلى السماعة المرفوعة قائلاً : تليفون : ذهب بتثاقل مصطنع ما إن قال : آلو حتى انهالت «نينا» كانت تتكلم بصوت عال ، آخر متعال يعرف كيف يؤثر في المتلقي . كان صوتها عالياً لدرجة أنني كنت ألتقط

رنينه وأنا واقف إلى جوار الضخم . والتقطت أذناي العبارة التي توقعتها « كوميتات سنترالنه » (اللجنة المركزية) ، كان الضخم ينطفىء ، يذبل ، يوشك أن ينهار متوسلاً . تكلم بمسكنة . ترك السماعة وجرى ليحضر شخصاً آخر ، أتى الآخر مهرولاً... اعتذر ألف مرة ، وهز رأسه وكأنه يؤكد على فهم التعليمات . ثم ناولني سماعة التليفون ، قالت نينا وهي تضحك كل شيء تمام ، تعال اتسجن هنا في موسكو... باي باي .

فجأة حضر الضابط والفتاة وعدد من الأشخاص ، الفتاة تترجم اعتذارات متوالية ، وسلمتنا الباسبورات مؤكدة أن كل الترتيبات تمت لنمضي يوماً ممتعاً في لينينجراد ، من تحت الأرض أحضروا مسؤولاً من حركة السلام ، أتى الرجل مهرولاً . المسكين تلقى الموعد خطأ . كان سينتظرنا في اليوم التالي . وبالفعل أمضينا يوماً جميلاً... وركبنا القطار إلى موسكو .

وفيما أزهو بما فعلت أفلت « ف » من مقصورتنا ، وما إن خرج حتى انقض الاثنان عليَّ في وقت واحد : إيه المصيبة اللي أنت عملتها دي... تعرف « ف » بيقول إيه ؟ بيقول شوفو نفوذ العملاء ، ضرب تليفون للكرملين هز الدنيا . ثم أكد لهم أنه سيحتاج لشهادتهم إذ سيطلب التحقيق معي في القاهرة... وقد كان . فور عودتنا كتب السيد « ف » تقريراً ضافياً عن نفوذي الواسع في الكرملين .

واستدعاني د . حافظ غانم الأمين العام للاتحاد الاشتراكي ليناقش الأمر معي . شرحت له الأمر ببساطة . وببساطة تفهم الرجل وهو يلقي نحوي نظراتٍ مليئة بالشجن .

وكان عليَّ أن أتعلم من هذه الواقعة... أنني لم أتعلم الدرس بعد .

... وأيضاً

... ومع السادات يأتي د . رفعت المحجوب أميناً للاتحاد الاشتراكي .

ومع د . المحجوب يأتي رجاله .

وهكذا ، وقبل أن أتجه إلى المطار مسافراً إلى بغداد ممثلاً للمجلس المصري للسلام في مؤتمر عقد في يناير ١٩٧٥ ، اتصل بي تليفونياً الدكتور « ث » هو أستاذ في كلية الحقوق ، وقال إنه وزميله الدكتور « ع » الأستاذ بالكلية نفسها ، سيسافران ليمثلا الاتحاد الاشتراكي في المؤتمر ذاته ، وأن د . المحجوب نصحهما بأن يتصلا بي للتنسيق معي إذ لا خبرة سابقة لهما بمثل هذه المؤتمرات .

وأبديت الترحيب التقليدي المفترض ، لكنه باغتني بسؤال : « تعرف ولد اسمه محمد عبد السلام » ؟ فتحت أجندة الذاكرة أقلب في الأسماء... وقال لكي يساعدني : عامل في المصانع الحربية . هو ليس ولد إذن ، إنه عم محمد عبد السلام رئيس نقابة عمال الصناعات الحربية ، وعضو اللجنة المركزية للاتحاد الاشتراكي . وكنا أصدقاء وكان عضواً في المجلس المصري للسلام .

سردت من الذاكره هذه المعلومات ، وتلقاها الدكتور « ث » بتأفف

قائلاً : عارف يا سيدي ، على فكرة هو كمان مسافر في الوفد نفسه ، قالها مستنكراً ، أو متأففاً ، أو هما معاً .

ولم أعر الأمر اهتماماً ، وحزمت حقائبي .

... في المطار قابلت عم محمد... تبادلنا القبلات ، كان صوته الخشن يملأ المكان ، ويحتل كل الفراغات . كنت قد تناسيت ـ أو أحاول ـ مكالمة السيد «ث» فجأة لمحته هو والآخر يحتلان طرف المكان ، وأشارا إليَّ .

دهشت عندما أبديا دهشتهما من جلوسي وتباسطي مع هذا «الولد» .

تاني ولد ، يا سيدي ده زعيمك ، هو عضو اللجنة المركزية في اتحادكم الاشتراكي . ومن الطبيعي أن يكون رئيس وفدكم . أما أنا فممثل لجهة أخرى هي مجلس السلام . الغريب أنهما لم يستطيعا استيعاب الأمر ، وقال «ع» بلهجة طفولية : إحنا مش ممكن نبقى في وفد واحد مع الصنايعي ده ، وقررنا عدم التعامل معه... إنت عايز تتعامل معاه إنت حر ، إحنا في نهاية الأمر أساتذة جامعيين لنا احترامنا . ولم أجادل . فما من نقاش يمكنه أن يمنح عقلية كهذه قدراً ولو قليلاً من الصواب .

وفي الطائرة سألني عم محمد ببساطة وسلامة نية : همه الدكاترة قاعدين بعيد ليه ؟ مكسوفين وإلا إيه ؟ مش أنت دكتور وزيهم روح إنده لهم . فلما رفضت ، وقف هو فأجلسته بحدة . خشية أن تبدو من أحدهما كلمة جارحة فيلتهب الموقف .

بألفاظ مخففة جداً ، مخففة إلى درجة أنها فقدت مذاقها ، حاولت أن أشرح الموقف . الرجل عاقل وذكي وابن بلد ، فهم الأمر على الفور... جلس قائلاً : الحق مش عليهم ، الحق على اللي حطني مع الأشكال دي في حزب واحد .

ظل يغلي طوال الرحلة ، فقدت كابينة الطائرة ضحكته التي كانت تتناثر

في كل أرجائها . فرض الحزن الصامت نفسه علينا . حاولت أن أستدرجه إلى واحدة من محاوراته الممتعة ، لكنه تمنع وقال : أنا مش زعلان علشان نفسي . أنا عارف إني أحسن من ألف زيهم . أنا زعلان علشان مصر . همه دول رجالة السادات والعهد الجديد ؟

حزنه العميق هزني من الأعماق... وقررت أن أمنحه فرصة ضحكٍ عالٍ من جديد .

في المطار كان في استقبالنا «أبو عصام» عمنا وأستاذنا عزيز شريف سكرتير حركة السلام العراقية وكان آنذاك وزيراً . وكان معه الموظف المسؤول عن الشؤون الإدارية في مجلس السلم العراقي... وكان يعرف صداقتي لرئيسه . قبلات وأحضان أبو عصام الدافئة كانت إشارة واضحة لمنظمي المؤتمر . لكنه لم يترك الأمر للمصادفة ، صرح بصوت عال «الدكتور هنا يأمر فيطاع ، واعتبره مسؤولكم في تنظيم المؤتمر فهو الأكثر خبرة والأكثر معرفة بالوفود القادمة» .

سمع الدكتوران «ث» و«ع» هذه العبارة وتبادلا نظرات مندهشة . وارتسمت ابتسامة عريضة على وجه عم محمد . وبينما ننتظر إنهاء الإجراءات في صالة كبار الزوار ، انتحى بي جانباً المسؤول عن الترتيبات الإدارية ، ليعرض ما رتب من أجلنا : حجزنا لك «سويت» كأمر أبو عصام ، والوفود كل اثنين في غرفة مزدوجة ما عدا رؤساء الوفود لهم غرفة مفردة . الوفود ستستخدم الباصات وأنت لك سيارة من القيادة بناء على طلب الرفيق أبو عصام . قلت بلهجة هادئة لكن آمرة : «أريد لعم محمد (أشرت إليه) سويت... وله أيضاً سيارة خاصة» ، كان يحاول أن يبدو متردداً عندما حدث الهرج المعتاد لدى وصول واحد من المسؤولين ، وكان القادم «أبو عروبة» الرفيق نعيم حداد ، أحد قادة حزب البعث الأساسيين ووزير الشباب آنذاك

(كنا أصدقاء . كان يحضر أغلب مؤتمرات حركة السلام وكنا نسهر طويلاً معاً . وزارنا في هلسنكي مرات وأقام فيها في بيتي تاركاً فندقه ، وفي بيتي جلس طويلاً مع الرفيق « ع . ع » أحد قادة الحزب الشيوعي العراقي ، في لقاءات سرية يحاولون فيها تحقيق تقارب بين الحزبين كنت أغلق عليهم باب الحجرة أناولهما طعاماً وشراباً طوال الليل ، ثم يعلو صوتهما فيستدعياني ليعيدا كل ما قالاه في خلوتهما... حتى اتفقا وكان الوفاق القصير الأجل الذي أتى بالشيوعيين للمشاركة في الوزارة... وكان « ع . ع » واحداً من الوزراء) .

اندفع أبو عروبة نحوي ، تدافعت قبلاتنا في توافق منتظم وسألني هل أريد شيئاً ؟ قلت هناك ترتيبات بسيطة ، نادى على المسؤول بلهجة آمرة تليق بقائد بعثي كبير قال : نفذ ما يأمر به الدكتور . قال المسكين هامساً : سيدي يريد سيارة لعضو في الوفد ، وليس هناك سوى باصات ، أبو عصام أمر له بسيارة من القيادة .

لكن أبو عروبة يعرف كيف يجامل أصدقاءه . سيارة القيادة لمن يأمر به الدكتور . أما الدكتور فسأترك له سيارتي طوال مدة إقامته . قبل أن أجد الفرصة للاعتراض كان أحد مرافقيه قد استدعى السائق وأعطاه التعليمات من الآن أنت مع الدكتور .

وهكذا غادرنا المطار في بروتوكول غريب .

عم محمد في سيارة مرسيدس سوداء . أنا في سيارة ستروين سوداء فاخرة تحمل لوحة رقمها « شباب ١ » أي سيارة وزير الشباب . ثم أتوبيس فيه بقية الوفود .

وصلنا الفندق . صعق الدكتوران عندما وجدا عم محمد يحصل على مفتاح سويت وأنا كذلك ، وأنهما سيحشران معاً في غرفة واحدة . حضر

«ث» محاولاً التودد طالباً أن أتدخل لدى «أصدقائي» العراقيين كي ينام كل منهما في غرفة منفصلة . واعتذرت .

وفي الصباح حضر «أبو زياد» (طارق عزيز وكان وزير الخارجية المسؤول عن المؤتمر) ليتناول الإفطار معي . وكان ذلك كافياً لكي يهتم بي كل العاملين في الفندق طوال إقامتي . وتميزت المائدة التي أجلس عليها دوماً بخدمة خاصة جداً . وكان يرافقني دوماً عم محمد تصاحبه ضحكاته العالية التي كانت تثير غضب الدكتورين .

وفي الإفطار وفيما يجلس معي أبو زياد ، أدى مدير الفندق فروض الطاعة المفترضة ، وأتى ليقدم بنفسه تحية خاصة... طبق كبير من الكريستال يمتليء بالتفاح وشرائح الأناناس . ثار الغضب الطفولي لدى د . «ث» خاصة عندما استدعيت عم محمد ليجلس معنا . نادى أحد الجرسونات وقال آمراً : «هات طبق فواكه»... نظر له الجرسون شزراً وتركه دون إجابة .

كل ذلك وأنا لم أقل شيئاً لعم محمد ، لكنه فهم بذكائه الفطري اللماح أنني رتبت ذلك كله إرضاءً له ، وتمييزاً ومجاملة... وحفاظاً على كرامته... وكان سعيداً وممتناً .

وأطلت المشكلة الكبرى عندما همس طارق عزيز في أذني كي ألقي كلمة الوفد المصري . قلت : هذا مستحيل لا أريد حساسيات ، هنا عضو لجنة مركزية للاتحاد الاشتراكي هو يتحدث كرئيس لوفد الاتحاد الاشتراكي ، وأنا ألقي كلمة قصيرة باسم مجلس السلام المصري ، واقتنع أبو زياد لكنه قال وهو يغمز بعينه : دعه يعد كلمة جيدة ، فالرفيق صدام سيرأس الجلسة ، وهو الذي سيدعوه لإلقاء الكلمة .

أسرعت لعم محمد ، شرحت له موضوع المؤتمر وطلبت أن يعد كلمة قصيرة واضحة محدد .

قال ببساطته : تعال نعدها مع بعض ، فأنا لا أفهم في هذه الموضوعات الملخبطة .

وانتحينا وأعددنا كلمة جيدة . أدهشتني معرفته العميقة باللغة وفهمه الذكي اللماح للأمور... كنت أحياناً أخطيء في الإعراب كان يصحح لي ضاحكاً : يا دكتور... سيدنا في الكتاب ضربني على غلطة زي دي .

بعد الظهر كان كل شيء على أهبة الاستعداد انتقل موكب الوفود وفق البروتوكول السابق إلى قاعة الاجتماعات في جامعة المستنصرية . وزعوا علينا جدول الأعمال... ووقائع الاجتماع ، أو كما يسمونها هم «فعاليات الاجتماع» ، وبها «كلمة وفد الاتحاد الاشتراكي العربي في مصر... الأستاذ محمد عبد السلام عضو اللجنة المركزية» . لمح «ث» هذا السطر وانقض عليّ محاولاً افتراسي ، صارخاً بصوت عال أن د . رفعت المحجوب كلفه بإلقاء كلمة ، وأن الكلمة أعدت في القاهرة ، وأقرها د . المحجوب ، فكيف يتم تجاهل ذلك ليلقي كلمة الوفد هذا الـ ... (و... سيلا من الشتائم المسموعة)...

لكن عم محمد تظاهر بأنه لم يسمع شيئاً . كان كما طلبت منه يعيد ويعيد قراءة الكلمة ليلقيها كأحسن ما يكون ، قابلت ثورة الرجل بهدوء فأنا لا أريد للعراقيين أو الوفود الأخرى أن تلاحظ هذا الخلاف الغبي ، قلت ببساطة : يا دكتور في المؤتمرات الدولية يلقي كلمة الوفد رئيسه ، وأنت ترى أنهم يعاملونه منذ اللحظة الأولى كرئيس للوفد .

تركني «ث» واندفع نحو المسؤول العراقي عن إدارة الجلسة . هاج ، حكى ذات الحكاية . الوجه العراقي لا يتأثر ، فقط قال : سيدي هذه مسائل عليا . أنا مسؤول إداري... لكنني لمحت المسؤول الإداري وهو يهمس في أذن شخص... اتجه مباشرة ليجلس خلف «ث» .

... بدأت الجلسة . صدام حسين في المنتصف وإلى جواره عزيز شريف ، كتب عزيز شريف شيئاً وأتاني سكرتيره «هذا مؤتمر سلام يستحسن أن تتكلم أنت أولاً ثم ممثل الاتحاد الاشتراكي» . كتبت «يا عمنا العزيز... لا أريد حساسيات دع الأمور كما هي» هز عزيز شريف رأسه متفهماً .

بفضل الخبرة المتراكمة ، وتحسباً لأي لغط همست في أذن عم محمد أن يجلس قريباً من المنصة ، وفعل وتمضي وقائع الجلسة وأنا أتصور أن الأمور قد هدأت... حتى نادى رئيس الجلسة «كلمة ممثل الاتحاد الاشتراكي العربي في مصر» عم محمد أسرع إلى المنصة ، فيما يحاول د . «ث» أن يقف ليندفع هو أيضاً ، فإذا بالجالس خلفه يهبط عليه بيد آمرة وقوية تجبره على الجلوس .

فوجئت بالفعل بالإلقاء الرصين والممتع والخالي من أي خطأ لغوي... ولعلي لا أبالغ إذا قلت إن عم محمد قرأ الكلمة أفضل كثيراً مما توقعت ، بل أفضل كثيراً جداً مما كنت أنا سأفعل ، إنها خبرة الحركة العمالية المصرية المتراكمة ، أدركت ساعتها أن عمالنا أفضل كثيراً مما نعتقد (بعدها فسر لي الأمر ، فهناك رصيد قديم من تعليم أزهري لم يكتمل) .

ما أن حط بنا الركب في صالة الفندق حتى كان الدكتوران يندفعان نحوي في سباب وهجوم حاد وغير لائق أثار رجال الأمن في الفندق ، لكنني منعت أياً منهم من الاحتكاك بالدكتورين .

كانت العبارات غير اللائقة ـ يجري تقاذفها من الاثنين . «إحنا عايزين نعرف إنت مين بالضبط وعلاقتك إيه بالناس دول ؟ إنت بتشتغل لحساب مين ؟ كل شيء سنتحاسب عليه في مصر . عربية وزير ، واحترامات كل ده ستدفع ثمنه في مصر» .

تركتهما وصعدت ضاحكاً مع عم محمد... الذي كان مفعماً بالامتنان .

لكن د . «ث» القليل التجربة والقليل الخبرة بالعمل السياسي قالها بصراحة : «أنا أعددت تقريراً عن تصرفات كل منكما سأرفعه للأمين العام . وساعتها سيعرف كل منكما قدره» ، ولأول مرة يتبادل عم محمد معه الحديث قائلاً : «تقريراً منك ، تقرير مني ، ونشوف مين يغلب» .

في الطائرة شكرني عم محمد لأول مرة ، لمحت دموعاً ممتنة في عينيه ، الغريب أنه قال في براءة : أوع تخاف منهم . أنا تقاريري هي الأكثر قبولاً لأني أعرف إلى من أرفعها .

بعد أسبوع فوجئت بمكالمة تليفونية عاتبة من د . رفعت المحجوب . دهش عندما شرحت له ما حدث . ثم زارني عم محمد قال ضاحكاً : «الدكتور كتب يتهمك بأنك زعيم في البعث العراقي . وحكى حكاية سيارة وزير الشباب كدليل ، لكن اطمئن أنا تقريري كان الأكثر قبولاً... وكل شيء تمام» .

همست لنفسي كي أطمئنها... كل شيء تمام .

بغداديات

... وكأنه من المفترض ، وربما من المفروض أن تنشأ علاقاتنا في بعض البلدان ، وتنمو عبر خطين... يتوازيان أحياناً ، يتشابكان أي يتعانقان ، أو يشتبكان... أي يتصارعان . وما من خيار في الاختيار .

تختار الأقرب لتخسر الآخر . فالعادة العربية الصارمة لا تسمح لك برفاهية الاحتفاظ بصديقين متصارعين .

وهكذا كان الحال بحده الأقصى مع العراقيين ، فعبر العمل في حركة السلام اشتبكت في علاقات حميمة مع قادة بعثيين ، وتنمو علاقات ودودة وحانية مع عدد منهم : نعيم حداد (اختفى فجأة وبلا مقدمات ولا حتى خاتمات معلنة ، فقط همس مسؤول عراقي صديق في أذني وهو يتلفت ، رغم أننا كنا في مطعم قاهري... أنه سمع بإبعاده بسبب خطأ طفيف) ، وغانم عبد الجليل (الذي ظل لزمن ليس بالقصير... الأقرب إلى الرئيس العراقي صدام حسين ، ثم حكم عليه بالإعدام بادعاء التآمر عليه) ، وأبو زياد (طارق عزيز) الذي لم يزل يواصل دوره الصاعد في السلم البعثي ، وآخرين كثيرين . وعبر ذات العمل وغيره ، تتواصل علاقات حميمة ، أو أكثر من حميمة مع الشيوعيين العراقيين .

وتمضي العلاقتان... ثم تقع الواقعة ، ويصطدم الحلفاء ، صداماً دموياً ، فيشهر البعثيون سيف السلطة المتسلطة... (وما كانوا قد أغمدوه أبداً)... وينهار التحالف ، وتنهار معه إمكانية تواصل صداقة متوازنة .

ويأتي زمن الهجرة الجماعية للشيوعيين وتصبح زيارة لبغداد جرماً لا يغتفر .

وكانت البداية مع العراقيين في القاهرة ، عندما زارنا (كحركة سلام) غانم عبد الجليل ممثلاً لحركة السلام والتضامن في العراق . وبلا مقدمات كثيرة أصبحنا أصدقاء . وفي بيتي جلسنا طويلاً دون أن يُقدم لنا عشاء . «ليلى» رفضت أن تطعم هذا الرجل الذي يقتل حزبه رفاقنا . أحضرت عشاء من الكبابجي القريب وحكيت له السبب . حاول أن يفسر أو يبرر دون جدوى . وافترقنا أصدقاء رغم الجرح الجارح . ولم يمض سوى وقت قصير حتى أعلن العراق تأميم البترول ، واقتضى الأمر مساندة دولية ، ومن هلسنكي رتبنا حملة تضامن ، وعقدنا مؤتمراً بغدادياً عنوانه «البترول في خدمة السلام» . كان الخيطان يتعانقان الآن في عشق عاشق ، يشعرك بأن الماضي لم يكن موجوداً ، لكن العشق كان من ذلك النوع الخادع أو المخادع من طرف والمخدوع من الطرف الآخر ، وفي كل الأحوال ما من طرف كان يشعر بطمأنينة للآخر ، أو حتى بقدر من المودة إزاءه . إنه نوع من التكاذب المتبادل المتوازن إلى حين . في المؤتمر لم يقدم البعثيون (الحاكمون) ما يكفي من عاملين . ولم يقدم الشيوعيون سوى عدة أفراد ومضينا نتعثر بلا مترجمين كافين... ولا آلات كاتبة كافية ، ولا أدوات طباعة كافية . الآلات موجودة بكثرة مربكة لكن العاملين ناقصين نقصاً مربكاً... وألححت ، وتعثرت في تدبير شؤون المؤتمر ، فالأوراق متراكمة بلا ترجمة ، فإن ترجمت لا تكتب ، فإن كتبت لا تطبع... واكتشفت السر ، فليس معقولاً

أن يتعثر العراق هكذا أمام العالم... لكن السر الذي همس به عزيز محمد السكرتير العام للحزب الشيوعي العراقي (آنذاك) أعطاني مفتاحاً ، ليس فقط لفهم السبب ، وإنما لفهم مجمل العلاقة بين الحليفين .

فالبعثيون يتباعدون ليجبروا الشيوعيين على الإتيان برجالهم أو أنصارهم فتكشف أوراق لا تريد أن تنكشف ، وأفراد لا يريد الحزب لهم أن تنكشف علاقتهم به . والشيوعيون يدركون اللعبة ولا يأتون إلا بمن هم معروفون بالضرورة . ويمضي المؤتمر متعثراً ، ولعبة الصبر تتمادى بين الطرفين ، لا أحد يتراجع رغم صراخي ، ورغم الفشل الإداري الفاضح للمؤتمر . وتتجسد العلاقة في واقعتين أدهشتني كل منهما أكثر من الأخرى... حضرت اجتماعاً للمجلس العراقي للسلم والتضامن . الرئيس ـ عزيز (شيوعي لا يعلن عن شيوعيته) ، لكن الرئيس الفعلي طارق عزيز (بعثي يستمتع بسطوة بعثية) ، ووجه طارق عزيز سهام انتقاده لمثقف عراقي بارز (ليبرالي النزعة) لغيابه عن الاجتماعات ، والرجل يتقبل الانتقاد العنيف في صمت صامت ، وامتثال خاضع .

بعد الاجتماع انتحيت بهذا المثقف ، شرحت وجهة نظري في أهمية وجوده وأمثاله في الحركة كي تحاول أن تكتسب مسحة متباعدة عن الصراعات البعثية ـ الشيوعية ، وقال الرجل في أنين حزين... يا أخي هذه فترة عابرة ، والحكام يستدعونك للعمل في الحركة فإن تحركت ، وتحمست ، ونشطت ، أثرت شكوكاً في أنك شيوعي أو قريباً من أن تكون كذلك ، ثم تأتي الأيام السوداء ، لتمطر مطراً أسود يشملنا نحن أكثر من غيرنا .

الشيوعيون يفلتون خارج الوطن ، ونبقى نحن لندفع ثمن كوننا تحمسنا للعمل معهم . وينسى الحكام استدعاءهم لنا وإلحاحهم علينا . والواقعة الأخرى كانت في الزيارة ذاتها... كنت في مكتب عزيز محمد في

مقر الحزب الشيوعي . دق التليفون . د . رحيم عجينة (عضو اللجنة المركزية للحزب) يبلغ السكرتير العام أن سيارة فولكس بلا أرقام (النوع الذي اعتادت المخابرات العراقية استخدامه) صعدت على الرصيف طاردت عضواً في اللجنة المركزية للحزب... حتى طردته بعيداً عن الحياة . وفرت السيارة دون أن يجرؤ أحد على اعتراضها .

تلقى السكرتير العام النبأ بشكل عادي ، فالتكرار المتكرر يجعل الاعتياد معتاداً وعادياً . عندما ناقشته... كيف تحتملون ؟ بل كيف تسمحون ؟ قال : هذه هي قواعد اللعبة . وانصرف هم الحزب الشيوعي إلى أن يجعل «مجلس الفاتحة» (أي العزاء) معبراً عن قدر ما من الاحتجاج ، طبعاً العراقيون الآخرون يمتنعون . فالحضور لمجلس الفاتحة هو تحد للقاتل . والقاتل معروف . بل هو لا يهتم حتى بأن يخفي نفسه . بل يعتبر إن إظهار نفسه هو بذاته جزء من توازن القوى في اللعبة . ومن فرط غيظي كرست كل ما تبقى من ساعات اليوم في حشد الوفود الأجنبية لحضور مجلس الفاتحة وفوجيء الجميع بمئات من المندوبين الأجانب والعرب يحضرون مجلس الفاتحة في احتجاج صامت ولكنه صارخ . وكان الرئيس آنذاك هو أحمد حسن البكر ، وصدام مجرد نائب . لكن النائب كان يكيد للرئيس بصورة فادحة وفاضحة . ففي زيارة بروتوكولية قام بها رؤساء وفود المؤتمر إلى الرئيس كي يعربوا له عن تضامنهم مع العراق في خطوة التأميم ، فوجئنا ونحن في القصر الرناسي بأن أحداً لم يهتم بترتيب مترجم . أو ربما ـ إن شئنا الدقة ـ أن أحداً قد اهتم بألا يكون هناك مترجم ، وأسقط في يد الرئيس المسكين . فهو لا يعرف حرفاً من لغة غير العربية .

واقتربت من الرئيس لأنقذ الموقف ، وعرضت أن أترجم له . كان الرجل بسيطاً قال كلمات بسيطة من المستحيل أن تترجم ، فإن ترجمت

أثارت سخرية الحاضرين . قال الرجل بعفوية : «الإمبريالية تقول إننا معزولون . ولكن ها هو العالم كله حضر ليسلم علينا ، والإمبريالية لا أحد يسلم عليها» ، ترجمت أو بالدقة قلت خطاباً قصيراً آخر رحبت بالوفود . شرحت فكرة التأميم ، وأكدت ضرورة أن يكون البترول أداة للتنمية في العراق ، وسلاحاً في خدمة السلام . كانت الوفود العربية تبتسم في دهشة مندهشة . والجميع صفقوا في حماسة . وكان الرئيس المسكين مسروراً إلى درجة أنه عرض عليَّ أن أبقى في العراق لأعمل معه .

وينتهز غانم عبد الجليل الفرصة فيرتب موعداً مع صدام حسين . لا بد أنه قد حكى له واقعة زيارته لبيتي وما كان من حوار ، فصدام تكلم بلا تحرج ، وربما ليغيظني ، عن عملية قتل «أعداء الثورة» ومشروعيتها ، وتحدث عن أساليب سهلة للقتل ، باصبعين فقط يطبقان على حنجرة الخصم فتقتله (طبعاً بعد أن تقيده)... كان ينطق الكلمات بنعومة وتلذذ ، وربما في تشفٍ مني إذ احتججت في أحاديثي السابقة مع غانم على هذا العنف ، وكنت أستمع صامتاً دون أي تجاوب ، وبعد أن أنهى استعراضه لمنظومته الفكرية (إن كان هناك ثمة فكر في هذا العنف العنيف) تحدثت (وكأني لا أعلق عليه) عن أهمية الديمقراطية وضرورتها لتوحيد القوى الوطنية في مواجهة الإمبريالية ، ولتحقيق تقدم مادي لمجتمعاتنا . فعل تماماً مثلما فعلت استمع صامتاً دون أي تجاوب . أحسست بهوة واسعة تفصل بيننا ، وتزداد اتساعاً كلما تكلم أحدنا . وفيما أغادر سألني صدام : هل زرت كركوك ؟ أجاب غانم في أدب خاضع : غداً نزورها . قال : خذوا هليكوتبر فهي أسهل . لست أدري كيف صرخت مازحاً : لا . السيارة أفضل . (اشتهر صدام دوماً بتدبير حوادث اغتيال بتفجير طائرة هليكوبتر في الجو) . ضحك الرجل . وضحكت . وأكد ضرورة أن نواصل لقاءاتنا .

هلسنكي مرة أخرى ...
التصادم مع الكبار

كان المجلس المصري للسلام بفضل مكانة خالد محيي الدين العالمية والمحلية وبفضل عمل نشيط ومتواصل ، وبإحساس واعٍ من عبد الناصر بأهمية التواصل مع القوى الفاعلة في هذا المجال ، وتحريكها بشكل أو بآخر ضد العدوان الإسرائيلي... كان هذا المجلس قد أصبح واحداً من أنشط حركات السلام في العالم غير الشيوعي .

وكنت بحكم وضعي في هذا المجلس أمتلك علاقات وثيقة وحميمة بالعديد من المنظمات... والشخصيات في هذه الحركة .

وفي هلسنكي حيث السكرتارية الدولية الدائمة كان يمثل الشرق الأوسط والبلدان العربية سوري من أصل أرمني هو الصديق فاروج سنلاطيان ، بقي في الثلاجة الهلسنكية ثلاثة عشر عاماً ، وكان يتأوه بمرارة ملحاً على العودة لبلده... بأمل أن يلحق أبناؤه بقطار تعلم اللغة العربية ، والانسجام مع العيش العربي قبل فوات الآوان .

وما أن برزت ملامح تأوه فاروج حتى تأهب الكثيرون لاحتلال الموقع المهم... اللبنانيون كان لهم في البدء... ويريدون استعادته ، العراق واليمن الجنوبي كل منهما يقدم عرضاً سخياً . إذ يعرض إرسال مندوب مدفوع

الأجر والتكاليف... والفلسطينيون أصحاب القضية الأهم... والجزائريون... وتصارع الجميع . وفرضت هذه الصراعات حلا أسكت الجميع .

مصر بثقلها... خالد مخيي الدين بمكانته . وتقرر سفري إلى هلسنكي . كانت أحلامي معلقة بأن أغوص في بحر العمل الدولي... أشاهد ، أتعلم ، أتقن فنون التعامل مع متناقضاته المتناقضة دائماً ، وصراعاته المحتدمة... ثم أعود سريعاً... أعطيت نفسي مساحة عامين أو ثلاثة لا أكثر . أكدت لنفسي : لا أكثر .

تطلب الأمر إلتفافة خبيثة من خلف ظهر رئيس تحرير الطليعة حيث كنت أعمل والذي كان رافضاً بشدة لفكرة سفري ، التفافة قابلت فيها هيكل الذي وافق على الفور في مجاملة كانت تحمل معنى كبيراً في تلك الأيام .

وصلت هلسنكي مساء يوم سبت ، في المطار استقبلني المسؤول الإداري (كان من ألمانيا الديمقراطية) اصطحبني إلى شقة جميلة في حي هادىء اسمه «لوهيلا» . صباح الأحد أتى فاروج ومعه المندوب السوفيتي في السكرتارية «نيقولاي فوشينين» أخذاني في جولة هلسنكية ثم إلى ساونا . المفترض أنهما يقدمان التحية لوافد جديد ، ويمنحانه مساحة من الألفة والتعرف على حياة جديدة . لكن المناقشات كانت موجهة كلها . كلماتها كانت تخرج مصوبة بإحكام كأشعة الليزر . منذ اللمحات الأولى فهمت المقصود لكنني آثرت التغابي . أراد الاثنان ـ وخاصة فاروج ـ أن يفهماني أسرار الحياة والعمل في هلسنكي ، وأن يلخصاها في أساس واحد : المندوب السوفيتي سيد الموقف . تشاور معه قبل أي خطوة . هو يسأل موسكو ويجيبك ، وطبعاً كلمة تشاور كانت لفظاً مهذباً ، فالمقصود أن تلتزم برأيه ، لم أبد أية بادرة للفهم أو التفاهم . فتفاهمت عيونهما على إرجائي إلى أجل .

ولم يكن ثمة أجل متاح . فقد أتى الغد بنذر تصادمٍ مبكر . حادثة ميونيخ بكل آثارها فجّرت موقفاً لم أكن أرغب في التعجيل بتفجيره .

ذهبت في الصباح إلى المقر . التقليد أن يبدأ الجميع يومهم وقوفاً في كافتيريا يشربون شاياً أو نسكافيه يثرثرون قليلاً... ثم ينطلق كل إلى غرفته... فاروج اصطحبني لنشرب قهوة ، وليعرفني على المكان وعلى الناس . أغلبهم تعرفت عليه من قبل في مؤتمرات عديدة ، لكن الجو كان مشحوناً . كابل كهربائي يغلف الجميع ويشحنهم بتوتر شديد .

الفلسطينيون قتلوا رياضيين أوليمبيين من إسرائيل . الحادث بشع لكن للسياسة مشاكلها .

كانت جولي (زوجة فاروج وهي موظفة في السكرتارية الفنية) تصرخ بانفعال . والقهوة تتطاير من فنجان يهتز منفعلاً بين يديها... أصوات الاستنكار الفظ . ومترادفات مشتقة من الوحشية والهمجية تتردد بكل اللغات بينما هي تحاول بانفعال ظاهر أن تبرر ما حدث... المندوب الفرنسي ميشيل لانجينون كان يقول : متوحشون ، وجولي تقول : «الصهاينة متوحشون .

... لكن الكثيرين كانوا مصممين على النظر للأمر بعين واحدة... إدانة الفعل الفلسطيني وحده دون النظر إلى دوافعه... أو بواعثه .

قرر ليجينون أن يُنهي المناقشة بصلف غربي غير مفترض . هز كتفيه ـ وكانا عريضين جداً ـ قائلاً : على أية حال بعد قليل ستجتمع السكرتارية لتصدر بياناً عاجلاً بإدانتهم .

وأضاف ليضفي على قوله بعضاً من أهمية : «سوكيير» طلب ذلك شخصياً ، وباريس تنتظر نسخة منه فوراً (سوكيير سياسي فرنسي شهير وكان مسؤولاً عن حركة السلام الفرنسية) .

كنت صامتاً أتشاغل بتقليب النسكافية في الماء الساخن... بينما التعليقات المختلفة يجري تراكمها بالانجليزية والفرنسية والألمانية والأسبانية والروسية... فضلت أن أصمت حتى الاجتماع . كان فاروج يهمس في أذني : الجميع متحمسون لإصدار بيان عاجل لإدانة الفلسطينيين فهل ستقبل ؟ فتحت فمي للمرة الأولى وقلت بالعربية : لا . سألني لانجينيون : ماذا ؟ قلت مرة أخرى لا ، وكررتها بالانجليزية والألمانية والروسية . وجم الجميع وتفرقوا .

كان لانجينيون قد أسرع إلى روميش شاندرا (السكرتير العام) يشكو إليه هذا القادم الجديد . دعاني روميش إلى غرفته . صداقتنا قديمة وتكلمنا بصراحة . قال إنه حزين لأنني أتيت في يوم سيء لأبدأ علاقة متوترة . قلت على العكس فحقائبي لم تفتح بعد ، فإما أن يستقر تعامل متوازن مع القضية ، وإما أحمل حقائبي وأعود .

دخلنا إلى اجتماع السكرتارية الدولية . اصطف الجميع ما عدا السوفيتي ، ملت على فاروج هامساً أين صاحبك ؟ قال هو لا يحضر عادة ، لكن لا فوينتي (السكرتير الأسباني) يبلغه كل شيء . ويستدعيه إذا تكهرب الجو ، قلت ضاحكاً : فلنكهرب الجو إذن .

تكلمت بعد لانجينيون الذي ألح على إصدار بيان حاد ، وإدانة صريحة . وكرر ذات العبارة ، «سوكيير» طلب ذلك .

وتكلمت... قلت نحن لا ندافع عن القتل ، ونأسف للضحايا التي سقطت ، لكن للمسألة بعدها الآخر... هناك عدوان واحتلال وإرهاب صهيوني ، وأنا أوافق على إدانة قتلة الرياضيين في ميونيخ بشرط أن ندين الجرائم الإسرائيلية ، والتوسعية الصهيونية . انفجر الفرنسي غاضباً وسانده الكثيرون . وأحسست أن أحداً لا يساندني والأهم أنهم يوشكون على اتخاذ

قرار فقلت بهدوء : حسناً أصدروا بيانكم... حقائبي لم تزل كما أتت... سآخذها وأرحل . فقط أبلغكم انسحاب مجلسنا من حركة السلام العالمية . أسقط في يد الجميع ، فلو فعلناها لانسحب بقية العرب ؛ ولكانت الكارثة .

كنت قد أكملت تهديدي واقفاً مستعداً للخروج . تعلق فاروج بذراعي... وجلست فيما لمحت لافوينتي يخرج ليعود مصطحباً السوفيتي .

تكلم فوشينين (السوفيتي) كلاماً مغلفاً حاول أن يقول إن هذه لهجة جديدة على المجلس ، وحاولت كلماته المحاذرة أن تشعرني بأنني أتجاوز خطوطاً حمراء ، لا يجوز تجاوزها... كعادتي معه صممت على تجاهله . وعدت لأكرر موقفي . قال : حسناً لنؤجل الموضوع إلى الغد . ووافق الجميع ما عدا الفرنسي ، فرنيسه ينتظر نص البيان على التليفون . ولكي أكون واضحاً فإن الجميع كانوا في واقع الأمر ضد العدوان الإسرائيلي وضد احتلال الأرض العربية بشكل أو بآخر ، لكن العقلية الغربية كانت ترى أن إيراد ذلك في البيان يُعطي مبرراً للجريمة ، وكنت أرى أن تجاهله يظلم الفلسطينيين .

في المساء جاء فاروج إلى بيتي ومعه فوشينين الذي كان صريحاً هذه المرة . قال إن موسكو ستغضب ، إذا عرفت أنك منعت إصدار البيان ، ورددت قائلاً : وإذا صدر البيان القاهرة ستغضب . الدهشة غلفت وجهه فثمة شخص ما يتجاسر فيقارن بين موسكو والقاهرة ، لكنه ابتلعها .

أبلغتهم أنني تحدثت تليفونياً مع خالد محيي الدين ، الذي أكد أن موقفي صحيح ، وأن عليَّ أن أتمسك به ، وأبدى السوفيتي امتعاضه قائلاً : أنت معنا هنا ، فلماذا تدخل القاهرة في الأمر ؟ قلت هادئاً : وأنت هنا فلماذا تدخل موسكو في الأمر ؟ وافترش الأحمر كل مساحة وجهه ، أحسست أنه ليس غاضباً ، فقط ، كان مندهشاً لأنني لا أفهم الحد الأدنى من قواعد اللعبة ، وربما لأنني أقل ذكاء من أن أفهمها .

وفي اليوم التالي تجدد الصدام من جديد ، وحاول روميش أن يجد مخرجاً فاستدعاني إلى مكتبه قبل الاجتماع وعرض علي كحل وسط ألا نستخدم كلمة ندين وإنما نستخدم كلمة DIPLORE وهي أقل من « ندين » وأكثر قليلاً من « نعترض » وصممت على موقفي لا إدانة ولا حتى نقد لطرف واحد . نستخدم أي لفظ ، شريطة أن نستخدمه أيضاً ضد الجرائم الإسرائيلية ، وكان الجميع يرون أن التذكير بجرائم إسرائيل وعدوانها وكأنه مبرر لما حدث في ميونيخ .

... وبعد مماحكات طويلة... تقرر تأجيل الموضوع... وترك للنسيان .

لكن الكثيرين وعلى رأسهم السوفيتي لم ينسوا لي هذا الموقف .

* * *

واستمرت علاقتي متوترة مع فوشينين ، خاصة وأنني بدأت أبعثر ضده النكات التي كانت تتجمع جميعاً عند الأسباني الذي يسرع بنقلها إليه ، وذات يوم قرر ـ فيما يبدو ـ أن يلقنني درساً... دعاني إلى غرفته وما أن دخلت حتى اعتذر وأدار رقم ١٣ في التليفون ، وهو رقم يقدم لك آخر الأخبار العالمية باللغة الانجليزية ، وظل ينصت وعيناه صاعدتان إلى السقف وكأني غير موجود . وبعد أن أتم النشرة ، اعتذر مرة أخرى بأنه سيتصل بموسكو وبدأ بالروسية حديثاً لا ينقطع ، أدركت أنه يحاول تطويعي بطريقة فجة ، تركت غرفته بهدوء وخرجت .

ما أن وصلت إلى غرفتي حتى كان التليفون يدق ، كان هو أيضاً يقول آمراً : تعال . وضعت السماعة ولم أرد ، ولم أذهب ، بعدها بفترة أتى هو إلى الغرفة مصطنعاً الغضب .

قال إنه يتعين أن نتشاور ، ولا يليق أن أتهرب من التشاور معه . بهدوء

قمت وأغلقت الباب بالمفتاح ثم أنهلت عليه بشتائم قاسية... وختمتها قائلاً : حاول أن تقود الآخرين أما أنا فلا . وعندما فتحت باب الغرفة خرج متعثراً وترك المقر إلى بيته .

صباح اليوم التالي وصل «خارخردين» وهو شخص كئيب ، لا يعرف الابتسام ، وجهه بلا ملامح ، وكان المسؤول السوفيتي عن كل نشاط مجلس السلام العالمي ، دخل مباشرة إلى غرفتي . تكلم هادئاً فهو دائم البرود ، عاتبني برفق ، وطلب مني أن أتعاون مع المندوب السوفيتي ، وأبدى ما يشبه الاعتذار... كنت صامتاً طوال الوقت . وخيراً قلت : أسمع لقد أتيت إلى هنا وأنا صديق حميم للسوفييت . وفيما يبدو ، أنني سأعود عاجلاً... قبل أن أصبح عدواً لكم .

هذه العبارة أذهلته . لم يخف ذهوله . بل تخلى فعلاً عن بروده وقال إنه مذهول لأن عبارة كهذه أتت من شخص مثلي ..

وكالعادة نُقلت هذه العبارة إلى موسكو... وبعد عدة سنوات كنت في لقاء مفيد جداً وممتع مع الرفيق بونماريوف(مسؤول العلاقات الخارجية بالحزب)... وبعد حوار جذاب ومفعم بالمودة والخصوبة . باغتني قائلاً : إيه يا رفيق ، هل ما زلت صديقاً أم أن فترة هلسنكي جعلتك عدواً ؟ . كنت قد وقفت متأهباً للمغادرة . جلست وحكيت له ما حدث . مط شفتيه في اشمئزاز وقال كلمة واحدة : «مجرد صبية» .

* * *

وتتراكم الجراح واحداً فوق الآخر .

كنت قد تعرفت منذ زمن على شخصية أسبانية مهيبة هي الجنرال ليستر أحد قادة الجيش الجمهوري الأسباني ، في الحرب ضد فرانكو ، وكان عضو

رئاسة المجلس العالمي للسلام ممثلاً لأسبانيا . وفي كل الاجتماعات كنت أبحث عن مترجم وأنتحي به لفترات طويلة... وسهرات ممتدة لاستمع إلى حديث جميل ومليء بالخبرات والمعلومات والشجن عن الحرب الأسبانية . كان كنزاً من معلومات دافقة لا تنتهي .

ذات يوم تسرب إليَّ خبر أن أميرة أسبانية قررت الانضمام لحركة السلام... وأنها اشترطت إبعاد ليستر ، وأن تحل محله . كان الحزب الشيوعي الأسباني قد انقسم . (وكان ليستر ضمن الحرس القديم الذي جرى الانقسام ضده) .

اقترحت على روميش أن يجري التفاهم مع ليستر على أن يقدم استقالته . ووافق . لكن السوفييت اعترضوا على أن يتسرب إليه الخبر . فقد يعبيء معه أية قوى قد تفسد الأمر ، أو تفرض عليه صعوبة ما .

وفي اجتماع الرئاسة فوجىء الرجل بالأمر وهو ينفجر في دقائق ، وبالتصويت يتم في استعجال مفتعل ، ويبعد ليستر لتحل محله صاحبة السمو الأميرة .

كان المسكين مندهشاً... ولم يقاوم ، ولم يعترض ، فقد كان يعرف بحكم خبرته الممتدة زمناً طويلاً أن الأمر كله مدبر... ومرتب ، وأن «الكبار» دبروه ورتبوه ، وأنه لا أمل في إقناع واقتناع . فقط وقف شامخاً وقال عبارة واحدة حلقت وكأنها لعنة على رؤوس الجميع... «أنا ليستر ، وهذا يكفيني» .

كالعادة كنت غاضباً ، الفكرة لا بأس بها ، إدخال أميرة إلى المجلس شيء مهم ، لكن هذه الأمور يجب أن تعالج برفق... وبالتراضي ، ودون جراح ، لكن البعض كان يفضلها هكذا .

* * *

وبدأ مجلس السلام في الإعداد لمؤتمر عالمي كبير ، يتسع ليشمل ممثلين عن حركات جديدة ، أسرعت بنمو غير مسبوق مثل الخضر ، وأنصار البيئة ، وأعداء التسلح النووي ، كات الجماهيرية التي حققتها هذه الجماعات على الصعيد الأوروبي تسيل لعاب السوفيت ، وحيرتهم معاً ، فلماذا هم يتسعون ويتوسعون بهذا القدر ، بينما يتواصل النمو القزمي للحركات المنضوية إلى لواء المجلس العالمي ؟ لكن السوفيت لم يدركوا ، ولو بأقل قدر ، خطأ المنهج والممارسات ، وطبيعة المناخ العام التي تغلف أنشطة المجلس العالمي... وحاولوا ـ كالعادة ـ أن يجدوا مبرراً آخر .

وبدأنا نقاشاً مطولاً في هلسنكي حول كيفية التواصل مع هذه الجماعات . وكانت ثمة فكرة تسيطر على السوفييت تقول إن التقرب من هذه الجماعات والاقتراب معها يتطلب التقليل وربما نفي الشعارات المعادية للصهيونية من بيانات ومواقف حركة السلام ، فقد كانت القوى الصهيونية الأوروبية تمارس نفوذاً مهماً ، وتغرس أظافرها في هذه الحركات... وكانت قوى كثيرة تحاول نشر فكرة أن الصهيونية كفكرة ، تقف بعيداً عن إسرائيل كدولة .

وفي موسكو وجهت الدعوة لانعقاد لجنة تحضيرية للمؤتمر الكبير الذي تقرر أن يسمى «المؤتمر العالمي لقوى السلام» تعد نداء الدعوة لهذا المؤتمر ، وتحدد المدعوين ، والموعد ، والإجراءات وجدول الأعمال .

وعندما تشكلت لجنة لصياغة النداء صممت على أن تضم واحداً من المندوبين العرب ، أبدى السوفيت طرفاً من الغيظ من هذا الاقتراح... فسوف يصمم العربي على أن يتضمن النداء كلمة تضامن مع الفلسطينيين ، وكلمة إدانة للاحتلال الإسرائيلي وللصهيونية ، وكان قد استقر في ذهنهم أن عبارات كهذه سوف تؤدي إلى «تطفيش» قوى غربية كثيرة ، وتدفعها إلى التمنع عن الحضور .

وأخيراً ، وبعد إلحاح مني وافقوا على أن ينضم إلى لجنة الصياغة الرفيق عامر عبد الله (العراق) . وأسرعت إلى عامر وشرحت القصة ، وأهمية الإلحاح على سطر أو أكثر عن القضية الفلسطينية ، وقضية احتلال الأرض العربية ، وتحمس عامر بطبيعة الحال .

صعدت إلى غرفتي واستلقيت على السرير محاولاً أن انتزع بعضاً من الاسترخاء ، لكن خاطراً ما لسعني ، هبطت سريعاً لأجد عامر عبد الله منزوياً في ركن منزوٍ مع خارخردين ويبدو عليهما الاستغراق في حديث مهم .

واكتشفت أن لجنة الصياغة أنهت عملها على وجه السرعة ، وأن هذا الانزواء كان مدبراً لأبعاد عامر عن اللجنة بعد أن أبلغوه أنها ستنعقد في المساء . صرخت فيه بالعربية . اكتشف المقلب ولكن بعد فوات الآوان .

أسرعت إلى غرفة الجهاز الفني وجدت شخصاً من الأمن السوفيتي يسد الطريق ، كانت لديه تعليمات ألا يسمح لأحد بالمرور ، ناديت على فتيات الجهاز الفني (العاملات على الآلة الكاتبة والطباعة والترجمة... وهن جميعاً من مكتبنا في هلسنكي) . أسرعن لمساعدتي لكن محاولات زحزحة الجدار الواقف على الباب فشلت تماماً ، طلبت من إحداهن بالانجليزية أن تعطيني نسخة من النداء أخفت واحدة منهن نسخة في جيبها وخرجت إلي... أسرعت عيناي تعبر الأسطر... لا كلمة واحدة عن القضية الفلسطينية ، ولا كلمة واحدة عن الاحتلال الإسرائيلي للأراضي العربية ، فقط عبارة عابرة عن أهمية استقرار السلام في منطقة الشرق الأوسط .

أسرعت إلى عامر كان يغلي من الغضب لكنه لم يستطع أن يجاهر

خارخردين بشيء... وأسرعت لروميش كان يعرف ما حدث... وربما كان موافقاً عليه... وقال بهدوء : يستحيل الآن تغيير النداء .

وأحسست أن أيامي في هلسنكي تقترب من نهايتها .

* * *

وفيما نحن منهمكون في الإعداد لهذا المؤتمر زارني خارخردين في مكتبي ، وطلب أن نراجع معاً قائمة المدعوين من البلاد العربية والشرق الأوسط... من الذاكرة بدأت أذكر الأسماء لبنان ، فاروق معصراني ومعه عدد من ممثلي الأحزاب والقوى الديمقراطية . سوريا : مراد القوتلي (شيوعي) وجبر الكفري (بعثي) وعدد من الشخصيات الاجتماعية . مصر... العراق... كان يهز رأسه بشكل روتيني فهو مثلي يحفظ الأسماء جميعاً ولا يحتاج إلى مراجعة... ثم السودان : فوزي التوم منصور ، فجأة تكلم : من هذا ؟ طبعاً هو يعرفه جيداً وربما أكثر مني ، لكنني وقد أدركت سبب حضوره من موسكو قلت في هدوء : هو سكرتير عام حركة السلام السودانية ، قال : دعك من هؤلاء أنهم لا شيء ، ثم أن الحكومة السودانية مصممة على الحضور ، ومن المستحيل أن يحضر النقيضان . مضت لحظة صمت طويل جرى أمامي شريط لعبد الخالق محجوب والشفيع الشيخ معلقان على المشنقة وعشرات الرفاق قتلى وسجناء . كنا في عام ١٩٧٢... ونميري الذي أعدم الرفاق بوحشية لا تتكرر كثيراً ، هو المتحكم في السودان وكان عطر دم الرفاق لم يجف بعد . لم أجادله فموقف كهذا لا يتخذه مسكين كهذا ، وهو في نهاية الأمر مسكين مهما حاول أن يبدو مهماً .

قلت بهدوء : أنا لن أوجه دعوة لحكومة نميري . أجاب بهدوء : أوجهها أنا ، وأنصرف .

اتصلت تليفونياً بمحجوب عثمان (ممثل الحزب الشيوعي السوداني في مجلة قضايا السلم والاشتراكية في براغ) . شرحت له الأمر . أحسست بالمرارة تسري من فمي إلى فمه... وكنت أعرف أنه لا يملك شيئاً ، فقط أردت أن أبلغه بموقفي . وبعد أن هدأت ، قررت أن أفرض أمراً واقعاً ، اتصلت بمريام تيمونين عضو البرلمان الفنلندي ونائبة رئيس اتحاد النساء العالمي... كانت صديقة عزيزة هادئة ، يشع وجهها بألق إخلاص غير مفتعل ومسحة من حب عميق غير منفعل... قلت : مريام لدي رجاء . أرجو أن يضم وفد اتحاد النساء العالمي إلى مؤتمر موسكو الرفيقة فاطمة إبراهيم (رئيس اتحاد النساء السوداني) وأضفت : أنت تعرفين أنهم شنقوا زوجها الشفيع ولا أقل من أن نمنحها بعضاً من التكريم... لم أشر إلى أي شيء آخر حتى لا أحرجها... جاءني صوتها الرقيق ممتلئ كعادته بالحنان ، وأحسست أنها توشك أن تبكي ، قالت : طبعاً... طبعاً اطمئن ستكون في الوفد . بطبيعة الحال شعر السوفيت بذلك ، لكنهم تركوها طالما أنها أتت عن طريق آخر... ولا لوم عليهم هم... ولا مجال لغضب السيد نميري منهم . وكنت قد عدت للقاهرة عندما انعقد المؤتمر... كان نميري وغداً إلى درجة أنه أرسل على رأس وفده إلى المؤتمر وزير الداخلية الذي أشرف على عمليات الشنق والاغتيال والسجن... وفيما وقف الوزير ليتحدث انطلقت سهام شتائم من فاطمة إبراهيم... يا قاتل ، يا سفاح ، يا مجرم... لتدوي في قاعة المؤتمرات الكبرى في الكرملين... وتكهرب الجو وشعرت بسعادة غامرة عندما سمعت بالأمر...

* * *

كان لقائي مع خارخردين يوم الجمعة .

عدت إلى بيتي منهكاً ليس من العمل وإنما من التوتر . واستلقيت على السرير بملابسي ، عدة ساعات مضت وأنا لا أفكر محاولاً تهدئة نفسي . أتيت إلى هنا لأتعلم وقد تعلمت بقدر ما ، ونلت قدراً من المعرفة والعلاقات والخبرة ، لا حاجة بي إلى منصب أو مال ، أو سفريات ، نلت ما يكفيني ويزيد من مرارة التجربة ، وكنت وبصدق أخشى من تراكم المرارة لتتحول إلى حرب معلنة ضد السوفيت ومثل هذه الحرب كانت كفيلة بأن تحيل أي إنسان مهما كان صادقاً ومخلصاً في توجهاته وثوريته إلى معسكر الثورة المضادة...

ولم أكن أريد لنفسي مصيراً كهذا ، كذلك لم أكن أريد لنفسي أن أنكسر ، فأعيش منكسراً وفاقد قيمتي وقدرتي على قول لا .

«نلت ما يكفيني»... سيطرت عليَّ هذه العبارة . لقد أتيت لأبقى ثلاث سنوات ، تسعة أشهر فقط عبأتني بهذا القدر من المرارة . فكيف سأجد وعاء يكفي لمرارات أكثر ، قلت لأرتب نفسي على انسحاب متوازن خلال ثلاثة أشهر... بعد لحظة وجدت شيئاً في داخلي يسأل... لِمَ ثلاثة أشهر... يكفي شهر واحد ، ومضت كرة الثلج تستدرجني وتلح عليَّ ، البلد جميل ، كموسيقى ناعمة دائمة . العمل ممتع ، وأفق المعرفة لم يزل متسعاً ، ورحلات إلى أقاصي الأرض ، وأماكن لم تكن لتحلم بأن تطلع عليها... وتعود كرة الثلج تتدحرج ، يكفيني هذه المرارة . أنا فعلاً أحب الاتحاد السوفيتي وأقدر جداً الحزب السوفيتي لكنني لو بقيت سأنفجر ، سأصعد إلى أعلى جبل لأصرخ بأنني ضدهما... ولن أريد ذلك ، لا لنفسي ولا لأصدقائي في مصر . كنت أثق أن مرارتي مشروعة . لكنني كنت أكبحها... وألوم نفسي عليها وأخاف على نفسي ، وبقائي في هلسنكي سيدفع بمرارات أخرى في

حلقي . وأنا لا أريد ذلك كما أنني لا أريد لنفسي أن تعتاد على الخضوع الذليل دون قدرة على قول الصواب ، ولا أريد لضميري أن يضمر ويتآكل حتى يفنى... وتفنى معه أخلاقياتي ، وأصبح مثل بعض من أرثي لهم... كنت في هذه اللحظة بالذات كراهب يهرب بنفسه من الفتنة ليحفظ إيمانه من التبدد ويقينه من الهرب .

كان روميش مسافراً ، وكنت أحل محله في سلطاته ، بما يمنحني إمكانات إدارية ومالية واسعة .

أمسكت بالتليفون ، طلبت المسؤول الإداري في بيته ، قلت : ثمة طارىء ملح لسفري للقاهرة ، أحجز لي مكاناً على طائرة تغادر غداً وأرجو أن تبلغ السكرتارية أنني سأقضي إجازتي في القاهرة .

لملمت أشيائي بسرعة حاسمة وكأني أفرض على نفسي ألا تتراجع... وعندما أتى المساء كانت الحقائب مستعدة ، وكأنها تستحثني على الرحيل .

وفي الصباح كنت في طريقي إلى القاهرة .

قلت لنفسي : أنت في إجازة فكر ، تأمل ، راجع نفسك ، تشاور... ثم قرر .

* * *

عدت إلى البيت ، وصخب الحياة ، ودفء الأسرة ، لكن المرارة المريرة التي لم أستطع أن أبوح بها لأحد ظلت تحاصرني... بعد أيام ، وبعد مشاورات مع خالد محيي الدين وأصدقاء آخرين... أرسلت برقية (اعتذار عن العودة لأسباب شخصية ، مجلسنا يرشح فلاناً كي يحل محلي)...

فلسطينيات بيروتية

وفي السبعينيات وبدايات الثمانينيات ، كانت بيروت مركزاً فلسطينياً مهماً ، بل المركز الفلسطيني .

إختفى لبنان من بيروت (باستثناء الشرقية) ولم يبق سوى الفلسطينيون ، سلطتهم ، صراعاتهم ، منظماتهم ، حواجزهم .

وإنتهز بعض العرب (السلطات) فرصة اللادولة وحاول كل منهم أن يحقق وجوداً ما في هذه المدينة المرحة (أو التي كانت) .

وأثمر ذلك عديداً من المنظمات بعضها يستحق الأسم ، والآخر لا يستحق ، مجرد شاب ، زعيم أو مشروع زعيم ، أو مزعوم . وحوله عشرة أو ربما أقل من الأتباع ، لكنه يلقاك متجهماً (فهكذا يجب أن يكون الزعماء) ويحدثك عن قواته المسلحة ، وحواجزه ، وجهاز أمنه ، وجهاز إعلامه ، وربما أصدر أيضاً مجلة فاخرة الطباعة والتكلفة (فالبعض يدفع كثيراً لمثل هذه الأشياء)... وتحول الأمر إلى كرنفال نضالي... وكان هناك زعماء حقيقيون ، وإلى جوارهم مساكين ، لكن كل مسكين منهم يتوهم أو يوهمك أنه رئيس دولة أو دويلة . أو رئيس... والسلام .

وما إن أصل أو يصل غيري إلى بيروت حتى تهب عواصف اللقاءات ،

فأنت تقابل الكبار ، لكن الصغار يغضبون ، هم يتوهمون أنهم أهم ، ويحاولون الإيحاء للآخرين بأنهم أهم ، ومجلاتهم يجب أن تصدر حاملة صورتك وأنت تقابل الزعيم... (الأمين العام) .

وتصعد سلالم وتهبط أخرى ، من بناية لأخرى ، في حي الفاكهاني لتكرر ذات الاسطوانة عن أوضاع مصر وأوضاع معارضي كامب ديفيد ، وأوضاع حزب التجمع ، والرؤوس تهتز بإمعان ، ثم تتلقى إسطوانة معاكسة ، البعض يقترح ، والبعض ينتقد في ترفع ، أو يوجهك في تعال ، أو يصدر إليك ما يعتقد أنه الوصفة الصحيحة الواجبة التنفيذ كي يمكن إعتبارك ثورياً حقاً .

وينهكني الصعود والهبوط المتكرر... وأسأل أبو عمار ذات مرة أما من طريقة تجمع بها كل هؤلاء الزعماء في بناية واحدة ، رحمة بنا نحن الضيوف . ضحك وقال : لو نجحت لدبرت ما يريح الجميع منهم .

وكانت الحواجز هي الهم البيروتي الأكبر ، صبية صغار يستوقفونك عند كل منعطف ، يطلبون الهواوي (جمع هوية) ويدققون فيما لا يعرفون . ذات مرة أشار محمود عزمي ونحن ذاهبون إلى بيت ميشيل كامل إلى فتى يقف على أحد الحواجز متشبثاً بالكلاشنكوف ، وقال هامساً : إلى أول أمس كان مجرد صبي المكوجي ، نعطيه نصف ليرة فيركض سعيداً ، الآن وجد وظيفة أفضل .

كان صغير السن إلى حد مثير للدهشة ، لكنها مهنة مربحة على أية حال ، ورويداً رويداً تحولت إلى المهنة الوحيدة . ،

وفيما نغادر بيت ميشيل ، إستدرنا بالسيارة لنواجه الحاجز ، إقتحمت ماسورة الكلاشنكوف السيارة ، لتقترب من رأسي . ذات الفتى صبي المكوجي يطلب الهواوي ، بلا حكمة حاولت أن أتظارف وقلت : مش أحسن تبعت أخوك الكبير . تكهرب الجو ، وتحول الفتى إلى مقاتل شرس ،

وصاح : صف . وإمتقع وجه زميلَيَّ فقد كانا يعرفان شراسه هؤلاء الفتية ، ونزلنا من السيارة ، توقفوا جميعاً عند هوية ميشيل كامل... أو كما ينطقونها هم «ميشال»... ها هو مسيحي بين أيديهم . يرونه كل يوم ، أما اليوم فقد استثار غضبهم من يفتقد الفطنة . وفيما نحن مصفوفون إلى جوار الحائط وهوية ميشيل بين أيديهم كغنيمة ثمينة ، لمحت على براميل الحاجز اسم «الجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين» ، صرخت فيهم بحدة : «اتصلوا بأبو النوف (نايف حواتمة) وأبلغوه أنكم تحتجزوننا ، وسينالكم عقاب صارم» الصراخ أتى بكبيرهم . تفهم الموقف وأفلتنا ، بينما كان زميلاي يصبان على رأسي لوماً وشتائم وتحذيرات .

وقصص الحواجز لا تنتهي . ذات يوم كنت في زيارة لطلال سلمان في جريدة السفير . اشتكى طويلاً من حاجزنا الذي لم يجد نفسه مكاناً إلا عند مدخل «السفير» . سألت : أي حاجز ؟ قال : حاجز حزب التجمع ـ أي تجمع ؟ ـ أنتم . نحن ؟ صرخت في فزع مندهش .

وإذ تملكتني الدهشة ، توجهت على الفور . عند المنحنى وجدت حاجزاً براميله مكتوب عليها «حزب التجمع الوحدوي ـ مصر» . صعقت ، توجهت إلى الشباب الواقفين أمام الحاجز . سألتهم من هم ، سألوني من أنا ، ذكرت إسمي ، البعض سمع عنه ، والبعض لم يسمع . فهمت أن مسؤولهم أو زعيمهم شخص مصري إسمه «أبو خالد» .

في اليوم نفسه كنت عند أبو إياد حكيت له قصة هذا الحاجز ، قال : إنه تركه إكراماً لنا ، (ولم أصدقه) وطلبت منه رفع الحاجز ، كتب قصاصة من ورق ، وفيما نشرب القهوة ، ونحكي عن أوضاع «القضية» ، أتى رجاله بشباب الحاجز ، وبعدهم أتو بأبو خالد (فيما بعد علمت أنه عمل كنقاش ثم اكتشف أن لعبة السياسة والحواجز والأتاوات وجمع التبرعات باسم التجمع

أكثر ربحاً ، خاصة أن أسهم التجمع كانت عالية في سماء بيروت وغيرها من المدن العربية بسبب رفضنا لكامب ديفيد ، وما نتعرض له من ضغوط ساداتية كنتيجة لهذا الرفض) .

أتوا بأبو خالد ، كان واضحاً أنهم أثقلوا عليه بمعاملة قاسية ، إرتجف عندما وجد نفسه أمام أبو إياد... سأله : هل تعرف الأستاذ ؟ وأشار إليّ . ولم يعرفني الرجل ، ونال عدة صفعات . لكنه في النهاية تحدث عن النضال ، ورغبته في مواجهة العدو الصهيوني . قال أبو إياد : أنا أعرف دواء هؤلاء . وأمر بإرسالهم إلى الجنوب حيث المواجهة مع اسرائيل .

وعلمت فيما بعد أنهم عادوا . وعاد أبو خالد ليعمل نقاشاً .

* * *

وكان لنا في بيررت العديد من الأعضاء . (كانت بيروت آنذاك نقطة جذب للقوى الثورية ، وتلك التي تعتقد أو تتظاهر بأنها ثورية ، وفي شوارع حي الفكهاني كنت تصطدم دوماً بشباب مصريين من مختلف توجهات اليسار ، لكن الخيوط كانت تتجمع في أغلبها في الأقل عند فتح ، والبعض عند الجبهة الشعبية أو الجبهة الديمقراطية)

وكان قرارنا أن يكون تنظيمنا مستقلاً عن الجميع ، وألا يتدخل في أي شأن غير مصري ، وأن يكتفي بإعادة نشر ما نصدره من بيانات ، والدفاع عن سجناء الحزب وكانوا عديدين دوماً في زمن صراعنا المرير ضد كامب ديفيد ، والسادات .

لكن الأمور لم تسر على موجتنا .

وإذ قررنا دعوة العضوية إلى اجتماع لانتخاب قيادة للفرع ، فوجىء المنظمون للاجتماع بحوالي ستين شخصاً يدخلون الاجتماع بزعم أنهم

أعضاء في حزب التجمع (ومن يستطيع أن يثبت العكس ؟) وقيل إن الأمر تم بترتيب من رجال أبو إياد بهدف السيطرة على فرع الحزب في بيروت . وزاد الأمر غرابة أن فوجىء الجميع بوصول بعض الشرطة العسكرية التابعة لفتح صحبة « ف » (مصري عمل طويلاً مع فتح) الذي أعلن أنه مندوب القائد العام أبو عمار إلى الاجتماع ، وأدير الاجتماع قسراً وبالإكراه بهدف إنتخاب شخص (ممثل لفتح أكثر من كونه ممثلاً لنا) كأمين للفرع .

وصلت إلى بيروت بعد عدة أيام . عاتبت أبو إياد على تدخلهم ، أكد أن الأغلبية (التي صنعها هو) قد مارست حقها في إنتخاب المسؤول... وأنه من الضروري إحترام الديمقراطية وآلياتها . وفي المساء كنت عند أبو عمار في حديث طويل ، قال يومها بصراحة : نحن لا نحب أن توجد تجمعات منفلتة . قلت : لسنا منفلتين . قال في بيروت نحب أن يكون كل شيء تحت السيطرة .

قلت : وإذا رفضنا السيطرة ؟ صمت . وبعد فترة صمت متبادل . كنت قد وصلت إلى حل ، أعلنته له . نحن لا نحب أن نخضع لسيطرة أحد . ولا نحب أن نتصادم معكم . وليس ضرورياً أن يكون لنا فرع في بيروت ، ولهذا سأعلن حل الفرع . ووجدها أبو عمار فرصة لحل سعيد .

وفي الغد صدر بيان نشر في عديد من الصحف ثم أعيد نشره في مصر « صرح رفعت السعيد بأنه لا يوجد فرع لحزب التجمع في بيروت ، خاصة أن قانون الأحزاب يمنع قيام فروع لأي حزب خارج البلاد » . وعمل فرعنا في بيروت ـ ويا للغرابة ـ سراً .

لكن الأمر لم يكن بهذه البساطة .

فقد كان هناك ـ وفي دوائر فلسطينية عديدة ـ من فتح وغيرها ، خاصة الديمقراطية والشعبية شهوة عارمة لإحداث إختراقات في قوى اليسار

المصري (الأكثر فاعلية في المعركة ضد كامب ديفيد) وأتاح ذلك الفرصة لادعاءات عديدة ، ومشاريع وهمية ، وإنقسامات وهمية ، نال أصحابها الثمن... مالاً كثيراً .

وفي ذات الليلة التي تعاتبت فيها مع أبو عمار قلت له : لعلي أعرف طريقة كي أحصل من خزائنكم على أموال كثيرة . سأل : كيف ؟ قلت : أرسل لكم بضعة صبية يزعم كل منهم أنه ضاق ذرعاً باعتدال وإنتهازية حزب التجمع ، وأنه قرر الانقسام وتأسيس جناح ثوري... ساعتها ستغدقون على كل منهم . ابتسم أبو عمار في أسى قائلاً : للأسف ... يحب «أبو...» هذه اللعبة . لكنها ليست سياسة مقررة .

والحقيقة أنه برغم كل شيء فإن منظمة التحرير وأبو عمار شخصياً والقادة الآخرين كانوا يكنون إحتراماً كبيراً للتجمع ، ولدوره ، ولنضاله المستمر ضد سياسات السادات ، ولما يقدمه باستمرار من ضحايا وتضحيات . وقد ظل أبو عمار وعدد من القادة الكبار حريصين حرصاً واضحاً على عدم التصادم معنا ، بل على العكس كانوا دوماً الأقرب إلى سياستنا .

لكن الكثيرين من العرب كانوا يفضلونها ساخنة ومتفجرة .

فالمقالات والإضرابات والاحتجاجات ليست كافية... ولا بد للرصاص المصري أن يتكلم حتى نثبت أننا ثوريون حقاً ، وأن السادات خائن حقاً . أذكر مرة نقاشاً حامياً جرى في مكاتب جريدة السفير ، وكان السياسي اللبناني (م . ص) يتهمنا بشدة لأننا نلتزم حدود القانون ، وكانت حجته أن السادات كسر القانون فلتكسروه أنتم أيضاً . ولم يعد ثمة مجال لمعارضة سياسية وكفى ، بل يجب أن نلجأ إلى العمل المسلح . حاولت أن أشرح وجهة نظرنا . نحن حزب شرعي ، ومن شرعيتنا نستمد إمكانات وممكنات عدة ، ونتلامس مع جماهير عديدة مستعدة للعمل الاحتجاجي السلمي ،

لكنها ـ في أغلبها ـ ليست على إستعداد لحمل السلاح . شرحت ، وشرحت ، وشرحت ، وقدمت إحصاءات... قدمنا قرابة الألفي سجين على مدار عدة سنوات ، وجريدة الأهالي أغلقت ، ونحن نواصل بالممكن الشرعي ونقاوم بالممكن السلمي... وهذا خير لنا وللمستقبل الحزبي وللمستقبل الديمقراطي... ولمصر .

رد بقسوة : هذا جبن . وفيما أشرح أننا لسنا جبناء ، وإلا لتجنبنا التصادم ، واستسلمنا كما استسلم الآخرون... دوى صوت إنفجار هائل وساد ظلام دامس . وفيما أضاء البعض أعواد كبريت وجدنا الرجل المتحمس تحت المائدة . ولست أدري كيف فعلها بهذه السرعة ، خرج من تحتها ، قال والخجل يبلل كلماته : من خاف سلم .

ولم يعد مجال لمعاودة النقاش رغم عودة الضوء .

ولقد كان الإلحاح على إقحامنا في العمل المسلح ضغطاً دائماً يمارسه الكثيرون ضدنا ، وكان مصيدة نجح بعض من مدعي اليسار من المصريين في أن يصطادوا بها أموالاً كثيرة بحجة ترتيب كفاح مسلح ضد السادات . أخذوا كثيراً ، ولم يفعلوا شيئاً . فلم يكن لديهم من يفعل ، ولا كان بإمكانهم فعل شيء . وكان من المتحمسين لفكرة إجتذابنا إلى العمل المسلح الرفيق نايف حواتمة . وجادلني طويلاً . وكان يعتقد أنه لا جدوى من الصراع السياسي ، وكان يتباهى بأنه أقنع الرفاق العراقيين بالعمل المسلح . قلت : أخشى أن تكون قد ورطتهم ؟ غضب إلى درجة أن أهتز كوب اللبن (المعتاد) في يده بشدة . وللمرة الأولى أغادره ونحن شبه مختلفين .

فيما بعد علمت أنه أقنع ميشيل كامل بإقامة تشكيل مسلح جرى تجميعه من المصريين في بيروت وجرى تدريبه في بيروت ، ولم يفعل هذا

التشكيل شيئاً ، أي شيء . (تم اصطياد أغلبهم وهم لم يزالوا في مطار القاهرة ، والبقية بعد وصولهم بأيام دون أن يفعلوا شيئاً ذا قيمة ، ويبدو أنه تم إختراقهم إختراقاً حاداً في بيروت ذاتها) . لم يفعلوا شيئاً ، وإنما تسببوا لنا في مشكلات عدة ، عندما حاول النبوي إسماعيل (وزير الداخلية آنذاك) أن يربط بيننا وبين العمل المسلح . ومن ثم تدور الآلة الجهنمية ضدنا بصورة أشد قسوة ، بل لقد أبلغنا مصدر شبه رسمي أنه طلب آنذاك إصدار قرار بحل التجمع ومصادرة مقاره . لكن التحقيق أثبت أن لا علاقة لنا بذلك . وأن الأمر كان هزلاً لاجد فيه ولا جدية .

وإستكمالاً للحقيقة أقرر أن أبو عمار وأبو الهول (هايل عبد الحميد) وكثيرين من قيادات فتح كانوا يرفضون هذا التوجه ويحذروننا من الوقوع في هذا الفخ .

* * *

وفيض الذكريات البيروتية لا ينقطع .

كنت في أثينا لأحضر ندوة علمية ، وتلقيت مكالمة تليفونية أن أبي في النزع الأخير . طائرة القاهرة أمامها يومين ، أخذت طائرة لبيروت في ذات الصباح ، بأمل أن أجد من هناك ما يأخذني إلى القاهرة في ذات اليوم .

إتصلت بعبد الله حوراني من أثينا ، وكان في إنتظاري في مطار بيروت ، ما إن قابلني حتى فاجأني... بعد ساعة سيقع إنقلاب عسكري ، قلت : حتى الانقلابات اللبنانية يعلن عنها مسبقاً . فقال : إن قائد الانقلاب ينتظر الضوء الأخضر من الفلسطينيين .

وفي الفندق جلسنا أمام جهاز التليفزيون لنستمع إلى عسكري مغمور اسمه «الأحدب» يعلن إنقلاباً عسكرياً ، كان يتحدث وخلفه جنديان يحمل

كل منهما كلاشينكوف ، ويبدو أنهما لم يدركا حقيقة الأمر ، وأن ثمة كاميرا تنقل صورتهما على الهواء فكانا يتعابثان ويلكز كل منهما الآخر ثم يعبث بالكاب فوقق رأس زميله ، وكانت الكوميديا... قمة في الدراما .

وفيما كنت أتابع الانقلاب الذي لم يهتم به أحد ، كان الرفيق أبو علي (من الجبهة الديمقراطية ، وكان مسؤولاً عن كل ما هو متعلق بالمطار والسفر بالطائرات) يبحث لي عن أسرعُ فرصة للسفر ، أتى وهو يركض ، وجد طائرة إلى عمان ، ومن عمان بعد إنتظار قصير إلى القاهرة . وهكذا أصل مساءً إلى القاهرة بأمل أن ألحق بأبي في المنصورة بأسرع ما أستطيع . قال الطائرة موعدها بعد ربع ساعة . قلت وهل معقول أن نلحق بها . قال : بسيطة . أمسك بسماعة التليفون ليحدث المطار وليعلن مسؤولية جماعة... (أي اسم) عن وضع قنبلة في الطائرة المغادرة إلى عمان . وضع السماعة قائلاً : أمامنا ما يكفي من الوقت . لكن الحواجز قد تعطلنا . وحسبنا الحواجز وتطلب الأمر مكالمة من مكتب أبو عمار فأرسل لنا مسلحين ليتعاونوا مع مسلحي الديمقراطية في ضمان المرور السريع إلى المطار .

في المطار ، كان الارتباك سائداً وهم يفتشون الطائرة ، والموظف المسؤول أكد أنه من المستحيل قبول راكب جديد . فزع واندهش معاً عندما وجد تحالفاً من مسلحي فتح والديمقراطية يرغمه على بيع بطاقة سفر إلى عمان فالقاهرة . وعلى حجز مكان على الطائرة التي كانت توشك على الإقلاع... سأل في دهشة كيف إجتمعتم معاً ؟ كان هذا ما يحيره ، أما إجباره على حجز مكان أو أكثر على طائرة تحت تهديد السلاح فكان أمراً عادياً ـ فيما يبدو ـ وغادرت بيروت بعد أسرع زيارة لم تدم أكثر من ساعتين .

(وصلت القاهرة مساء ذات يوم مغادرتي أثينا . ومنها إلى المنصورة على الفور . كان أبي فيما يبدو ينتظرني . سلمت عليه ، فتح عينيه في حنان . ابتسم . وغادرنا) .

* * *

لكن لبيروت الفلسطينية مذاقها الخاص... والخاص جداً . فذات مساء (ومقابلات أبو عمار تكون دوماً ذات مساء . ومساء متأخر جداً) وفيما كنت أزور الختيار (أي أبو عمار) في مقره المسمى الـ ١٤ ، وفيما الجلسة تسير الهوينا يحكي هو... وأحكي أنا ، كانت ثمة مشكلة عالقة بينه (أي فتح) وبين نايف حواتمة (الجبهة الديمقراطية) وصلت إلى حد التهديد بالتهاب حي الفكهاني من جديد بصدامٍ دامٍ . لم يكشف أحد الأستار المسدولة بكثافة عن السبب ، لكن كل الأطراف تحدثت «بقرف» عن الطرف الآخر ، وعن أن مساحة صبرها قد تلاشت .

نايف لوح بأصبعه محذراً من صدام مخيف لن يؤخذ فيه هذه المرة على غرة (كان ثمة إشتباك سابق برر فيه حواتمة أن فتح تفوقت لأنه أُخِذَ على غرة) بينما أبو أياد أكد بصوته الأجش أن هؤلاء الأولاد يحتاجون إلى درس آخر حتى يتعلموا كيف يحكمون ويتحكمون في تصرفاتهم غير المسؤولة .

وبما أن أحداً لم يتطوع لإزاحة الأستار أو حتى بعضاً منها ، فقد إكتفيت بكلمات التهدئة المعتادة ، رافضاً أن أكون معبراً لنقل التهديدات والتلميحات المتبادلة . لكن «أبو عمار» كشف الأستار جميعاً . عندما أتى مبارك إلى الحكم ، ولمح البعض بعض تغير في موقفنا إزاءه... وكذلك مساحة تغير في تعامل بعض العرب... ومنهم بالطبع «أبو عمار» قررت الجبهة

الديمقراطية إفساد الجو الذي توشك ألغامه أن تتفكك ، أو بالدقة إجهاض أي تقارب أو إقتراب من مبارك . حتى لو كان بمجرد التهدئة . وكانت الخطة تتلخص إما في نسف السفارة المصرية في بيروت ، وكانت تنشط هناك طوال الوقت مجموعة من الدبلوماسيين المحلقين ضمن مكتب لرعاية الأعمال . أو خطة أخرى لاختطاف رجل مخابرات مصري كان معروفاً ومألوفاً للشرائح العليا من القيادات . ولكن... وإذ بدأت محاولة الاختطاف... وفيما هي في خطوتها الأولى... ذهل مسلحو الجبهة الديمقراطية من أن الرجل محاط بيساج غير مرئي من حراس فلسطينيين من رجال «أبو الهول» (هايل عبد الحميد... رجل المخابرات الفلسطيني العتيد) وتلقى مسلحو الديمقراطية درساً قاسياً... ضربوا ضرباً موجعاً... وعادوا مكسوري الجناح .

كنت أستمع في صمت... وأبو عمار يواصل حديثه المنفعل مسترسلاً مؤكداً أن خصومه مجرد أولاد صغار لا يعرفون حقيقة الأوضاع... وقال : إن هناك إتفاقاً صامتاً وقديماً حتى في أقصى فترات الغليان الغاضب ضد السادات... أن تتولى فتح حماية المسؤولين المصريين في بيروت ، مقابل حياة هادئة لأسر القادة الفلسطينيين في القاهرة... وكانت هذه الأسر تستقر في القاهرة هادئة... بل معززة مكرمة (إخوة وإخوات عرفات ، زوجة وأولاد أبو اللطف ، وأبو الهول وعشرات من القادة الفلسطينيين) . وفيما إستوعب تفسيراً لما كان يحيرني من ملاحظات قديمة دخل شكيب (واحد من سكرتيري عرفات المقربين . استشهد في العدوان الإسرائيلي الجوي على مقر عرفات في تونس) ومعه ورقة... قرأ أبو عمار ما فيها في أقل من لحظة... أي أنه قذف إليها بنظرة سريعة لا تكفي لقراءة شيء ثم صاح بصوته الغاضب والحاني في آن واحد «يا شكيب... وأنا مالي يا أخي... دي مسألة يقررها الدكتور...» وناولني الورقة... مؤكداً أن «الدكتور» الذي هو أنا صاحب القرار

(وأدركت قبل أن ألمس الورقة أنها واحدة من ترتيبات أبو عمار الشهيرة) وعندما طالعتها فهمت السر في أن عرفات حكى القصة السابقة عن العلاقات المستقرة حتى في زمن الغضب الغاضب من السادات .

فالورقة تحتوي على إشارة لا أعرف مصدرها . تقول : إن الأستاذ أحمد حمروش يبلغ أن وفداً من لجنة التضامن الآسيوي ـ الأفريقي المصرية يرغب في زيارة بيروت لمقابلة أبو عمار سعياً لتهدئة الأوضاع... ولبداية نوع من التفاهم مع حكم الرئيس مبارك .

فجأة اكتشفت أنني في مأزق وضعني فيه هذا السياسي الماكر . فإن قلت : لا ، فأنا إذاً ضد بداية التفاهم ، بل ويمكن إتخاذي حجة وسبباً... التجمع ضد... وإن قلت : نعم . فنحن المعبر لهذا التفاهم الذي كان ينظر إليه البعض كجريمة تعني القبول بكامب ديفيد .

بهدوء أعدت الورقة إلى شكيب ولم أقل شيئاً . وقف المسكين لدقائق ثم إكتشف أنني فتحت باباً آخر لحديث مختلف ، وأشار له أبو عمار بالانصراف... وفهم أبو عمار أنني فهمت... وأنني لا أريد أن أجيب .

لكنني أيضاً فهمت أن سبلاً تفتح للتفاهم ، وأن ثمة قبولاً هادئاً من الطرفين... وأنها ـ وبعد وقتٍ كافٍ ـ سوف تثمر .

* * *

وكان رحيل السادات بداية لمشكلات جديدة مع البيروتيين الذين كان البعض منهم يتصور أنه يوجه رياح الكون ويحدد إتجاهاتها . فكثير من قادة المنظمات الفلسطينية تصور أن واجبنا تأييد إغتيال السادات (وقد أعلنا إدانتنا للاغتيال كمبدأ ، وإدانتنا لسياسات السادات) وتصور البعض أنها الفرصة لتأكيد سياسته الخاصة بالعنف المسلح ، وأنها الفرصة

لمواصلتها... حتى يتم إسقاط النظام ، والأهم من ذلك كله إسقاط كامب ديفيد .

فإذ لاحظوا أن الرئيس الجديد قد استقبل زعماء المعارضة . وإذ لاحظوا هدوءاً في لهجتنا ، مع إصرارنا على رفض السياسات الساداتية (إلى درجة أننا طالبنا الجماهير بأن تقول «لا» للرئيس المرشح لأنه أعلن إلتزامه بسياسات سلفه) فقد صبوا هجوماً عنيفاً علينا امتد من الصحف إلى البيانات... وشارك فيه لبنانيون مثل محسن إبراهيم الذي ألقى خطاباً حاداً هاجم فيه وبالاسم تهادن خالد محيي الدين ورفعت السعيد ، لأننا قبلنا مقابلة الرئيس مبارك ، وكأنه كان من المفترض أن نرفض .

وفي إطار هذا المناخ المكهرب وصلت إلى بيروت . وفور وصولي إنتشرت شائعات إفترشت مساحات كبيرة من صحف كثيرة ، إنني قادم للوساطة بين كامب ديفيد المعدلة (مبارك) وبين أبو عمار (وكأن هذه الأطراف كانت تفتقد الصلة فيما بينها) .

وفي تحد للأقاويل والهجمات ضد حزب التجمع ، إقترحت أن أتحدث في مؤتمر صحفي وقام الصديق زياد عبد الفتاح مدير وكالة الأنباء الفلسطينية (وفا) بالدعوة للمؤتمر .

ولاحظت (للأسف) أن أكثر الذين أتوا أو دفع بهم إلى المؤتمر ليوجهوا أكثر الأسئلة الهجومية حدة... كانوا من أطراف أو شوائب اليسار المصري المختلفة . المهاجمون الأصليون تستروا ، أو تحرجوا (بسبب صداقات قديمة ولا بد لها أن تستمر) أو لم يرغبوا في مجابهة تفسد المودة الظاهرية مع حزب مصري هو الأكثر نضالية ضد كامب ديفيد .

وانهمرت الأسئلة... أو الهجوم الذي تمت صياغته في صورة أسئلة تتحول عادة إلى خطب ملتهبة بحماسة غير منضبطة . الإدانات تراكمت بلا

حصافة ، ولا تردد... وقررت أن أستخدم الأسلحة الثقيلة في مواجهة الأسئلة الثقيلة . كانت ردودي عنيفة وحادة... ومن العنف في الإجابات ساد الهدوء ، فقد شعر السائلون أن هجوماً مضاداً يمكنه أن يضعهم في حرج .

شاب مصري قال إنه يسأل نيابة عن مجلة «الهدف» (الجبهة الشعبية) تحدث ربع ساعة أو أكثر ليتهمنا أننا كنا دوماً متهادنين مع الحكم ، خاصة مع السادات ، وأن الجماهير المصرية كانت جاهزة لتحرك أكثر حدة لولا أن «القيادة» (التي هي نحن) تخلت عنها وتركتها ضائعة . وكانت إجابتي بسيطة «وأين كنت أنت وزملاؤك ؟ تركتم الجماهير الجاهزة للثورة وأتيتم إلى بيروت خوفاً من التصادم حتى بالكلمات أو حتى الهمس بها ؟» ، وصمت المسكين... وصمت كل المصريين . وساد المؤتمر الصحفي هدوء . فالفلسطينيون لا يريدون توريط أنفسهم .

لكن تحييد المدفعية المصرية أجبر الآخرين على الحديث . وتحدث شاب من مجلة الحرية (الجبهة الديمقراطية) وتحدث بأسلوب نظري معقد عن دور الفرد ، ودور النظام ، وبليخانوف ورؤيته لدور الفرد . وإنتقادات لينين لها... وخلص من ذلك إلى فكرة تقول : إن النظام العام يُملي إرادته على الحاكم ، وأن مبارك أراد أو لم يرد هو مضطر لأن يصبح ساداتاً آخر ، بالسياسات نفسها والمنهج نفسه ، والأسلوب نفسه .

وتحدثت باختصار عن الفكرة النظرية التي فهمت خطأ حول دور الفرد... وعن أن له دوراً ما... خاصة في دول العالم الثالث . سألته هل ستالين فعل مثلما فعل لينين ؟ الحزب هو الحزب ، فلِمَ لم يفرض إرادته على الفرد الآخر ؟ ثم ألقيت إليه بقنبلة لم يكن يتوقعها قلت : هل نايف حواتمة مثل ياسر عبد ربه ؟ وهل كل منهما مثل الآخر طالما أن الحزب سيُمْلي إرادته الواحدة التي لا تتغير بتغير الأفراد ؟

(وكان زعيما الجبهة الديمقراطية التي تحدث هذا الشاب باسمها يخوضان صراعاً مريراً ومكتوماً ومتكتماً عليه فيما بينهما . وكنت آتياً لتوي من مقابلتين منفصلتين مع كل منهما إستمعت فيها إلى إتهامات عديدة متبادلة) .

... سقط السؤال فوق رأس الشاب المسكين... ولم يجد إجابة .

وأيقن الحاضرون أنه ليس من السهل إفتراسي ، فأصبحت الأسئلة أهدأ ، والأسلوب أنقى... ومن ثم كانت الإجابات أكثر هدوءاً .

... وبعد هذا المؤتمر الصحفي ، هدأت بيروت ، سواء اللبنانية أو الفلسطينية... وصمتت أصوات الهجوم والتهجم ضد حزب التجمع .

يمنيات

في اللقاء الأول مع الرئيس مبارك (عقب انتخابه في اكتوبر ١٩٨١)... جرى الحديث طليقاً حول الأوضاع العربية ، تنقل بنا الرئيس مقدماً رؤيته الطازجة للأوضاع في كل بلد عربي على حدة .

نسي ـ أو ربما تجاهل ـ الحديث عن اليمن الجنوبي ، أو كما كان يسمى (جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية) انفلت مني سؤال عنها ، ضحك الرئيس بانطلاق ، أكد أنه كان ينتظر مني سؤالاً كهذا . وقال : كيف تستشعر قناعة هادئة عن اشتراكية هذا البلد ، وماركسيته ، وأنت تؤكد أن الماركسية علم ، وكيف تتخيل أن هذا العلم ، قد حلق فوق العالم العربي بأكمله ولم يجد لنفسه تربة صالحة لنموه ، إلا في هذا البلد بالذات ، حيث يستقر المزاج القبلي ، والمناخ العام المفتقر للعلم ، والمعرفة العملية ؟

ورغم هذه الملاحظة الموجعة ومثيلاتها ـ فقد كانت أنظارنا نحن الماركسيين العرب ، معلقة دوماً ـ وبآمال عريضة ـ بالنجم الأحمر المعلق على مدخل البحر الأحمر . وتمركزت أحلام ، وربما أوهام كثيرة ، حول هذه التجربة الفريدة ، والتي تعامل معها صناعها بإخلاص وحماسة ولكن في ظل

المكون القبلي والمتخلف الذي ما كان من الممكن الإفلات منه ، مهما تظاهروا هم ، ومهما تغاضينا نحن .

وتكون رحلات عديدة لليمن (الجنوبي فقط ، فلم يزل القسم اليمني الآخر غائباً عن خريطة زياراتي) .

ولعله من الصعب بل من المستحيل ـ الحديث عما حدث خلال زيارات متعددة ، ومفعمة بالحيوية ، والعلاقات التي لم تزل راسخة في القلب بلا أدنى ملل ، أو رغبة في الارتحال . صعب أن أتحدث عن كل أو حتى بعض ما كان .

لهذا سأكتفي بلقطات سريعة ، متعجلة ، فقط لأضيء بعض جوانب علاقة رفاقية حميمة ، وهي حتى وأن اندثرت ، ستبقى حتماً راسخة في أعمق أعماق القلب .

كانت الزيارة الأولى رسمية ، أو يمكن القول إنها مراسمية ، فإلى هناك مع خالد محيي الدين لكي يتقلد في احتفالات ثورة ١٤ أكتوبر ، الوسام اليمني الأرفع ، وسام ١٤ أكتوبر .

الكثيرون في الانتظار ، رسميون بلا حصر ، وأحمد الرفاعي الذي لم يكن آنذاك عمدة المصريين هناك فحسب ، بل كان واحداً من أوثق المتصلين بالمراتب العليا في السلطة والمؤثرين فيها ، وكان متعلقاً بصداقة حميمة مع الرئيس علي ناصر محمد (الذي بدا دوماً ودوداً مع الرفاق المصريين ، وتكشف خلال علاقاتي معه عن شخصية هادئة وبسيطة ، وقادرة على التخلي عن شوائب رسميات المنصب) ، وفي المطار أيضاً بناتنا وأبناؤنا الذين يدرسون هناك ، شيرين ، هاني ، إيمان ، وليد ، رفيق وآخرون . وتشعر على الفور بالألفة ، ليس فقط بدفء الأحضان المصرية ، وإنما أيضاً بالدفء اليمني الدافق المشاعر .

وأقمنا في فندق عدن الأنيق الذي بذل اليمنيون جهداً ومالاً في إقامته ثم دمروه في لحظات خلال صراعاتهم الداخلية المحمومة . واحتشد رسميون كثيرون للتعرف علينا . أو بالدقة للتعرف على خالد محيي الدين ، الذي ظل دوماً يمتلك « كاريزما » مدوية في كثير من أرجاء العالم العربي . ومن المحتشدين كان الرفيق صالح مصلح ، جلسنا معاً ، هو طلب ـ وفق التقليد الروسي الأصيل الذي أتقنه ربما خلال زيارات عُديدة ، ودورات تدريبية لا حصر لها ـ فودكا . أنا طلبت من الجرسونة الفلبينية أن تعد له تركيبة خاصة جين + تونيك + كامباري . أعجب الرجل بهذا المشروب ، شرب منه مراراً وأشهد أنه كان يمتلك مقدرة روسية على الشرب . سأل مراراً عن المكونات ، ومراراً أجبت .

وبعدها بيوم أو يومين ، وفي مساء متأخر فوجئت بمدير الفندق يقطع عليَّ نومي برنين تليفوني صاخب ، قال بالانجليزية الفلبينية « عفواً سيدي ما هو مشروبكم المفضل» ، انفجرت غاضباً ، توقظني من النوم لتسألني عن مشروبي المفضل ؟ قال معتذراً : « عفواً ، لكن السيد صالح مصلح يطلب مشروباً يسميه مشروب رفعت السعيد » . شرحت له التركيبة فتلقاها ممتناً وكأنه يتلقى تعويذة . لكنني لم أستطع النوم ونزلت لأجد صالح مصلح وراشد ثابت (وكنا أصدقاء قدامى منذ كان سفيراً في القاهرة) وآخرين ، والمشروب المتألق بلونه مستقر أمام الكثيرين... وكانت سهرة ممتعة .

وكان من المقرر أن يذهب خالد وأنا إلى معسكر العند (ذات المعسكر الذي ظل مفتاحاً لعدن ، وكان سقوطه إيذاناً بسقوط كامل التجربة في حربها مع جيش الشمال) . سيُلقي على قواته محاضرة عن الموقف السياسي في العالم العربي... تحركنا بسيارتين . في الأولى الحرس (الذي لم نجد له مبرراً في بلد آمن ، وإن كان يُضفي مسحة من المهابة) ومعهم عبد المنعم القصاص

وما أن توقفت السيارة الأولى أمام باب المعسكر ليطل منها عبد المنعم بقامة مديدة وشعر أبيض مهيب ، حتى امتشق ضابط المعسكر قامة رشيقة وهو يدق الأرض منتصباً ومعظماً بيده صائحاً في وجه عبد المنعم «الرفيق المناضل خالد محيي الدين ، حرس معكسر العند جاهز للتفتيش » . ارتبك عبد المنعم وفتح الله عليه بإشارة نحو سيارتنا ، وصلنا نحن ووجدني الضابط المرتبك أهبط من المقعد الخلفي وفيما أحاول الانفلات من السيارة حتى انتصب ودق قدمه وانفجر بذات المنظومة ، أشرت مبتسماً إلى المقعد الأمامي ، ترجل خالد ، وبلا أدنى تردد ردد الضابط ذات العبارة . وفتش خالد حرس المعسكر...

وفي ساحة المعسكر كان المنظر فريداً ، يندر أن يتكرر إلا في عدن - مئات من الضباط والجنود يجلسون القرفصاء مصطفين بانتظام على الأرض الاسفلتيه ، ساعات عدة تمضي وخالد يتحدث وأنا ، وهم يسألون بما يوحي بفهم عميق لما يجري حولهم ، ومن النقاش الفاهم والمتفهم أدركت أنها ليست تمثيلية من التي اعتدنا عليها نحن العرب ، لكنهم رجال جيش عقائدي حقاً ، أو يحاول جاهداً أن يكون كذلك . كانت بطاريتهم الثورية مشحونة بما يكفي ، وكانوا يعرفون جيداً طبيعة العالم المحيط بهم ، ويحاولون جهد طاقتهم نسيان القبيلة وتحدي الواقع المرير .

والآن أتي منفرداً لكن الاستقبال الحافل يبقى حافلاً ، وأحمد الرفاعي هناك أيضاً على سلم الطائرة ، وسكرتير الرئيس يبلغني تحياته... وأنني ضيفه .

الآن الرسميات قليلة ، فخالد محيي الدين غير موجود ، ويمكن الآن أن أتعايش أكثر مع التجربة لأكتشف خلافات عميقة ومريرة تغلفها حالة من التكاذب التقليدي الدائمة ، والتي تتستر بحديث معلوم عن « وحدة الصف »

وعن «الموقف المبدئي وعن «الأغلبية» التي هي بالقطع في صف هذا الجانب (كل جانب يحكي... يصمم... يؤكد... يورد حججاً تقول إن الأغلبية في جيبه) . وأحمد الرفاعي يترفع عن الخلافات ، وأنا مطلوب مني أن أنحاز لأقرر موقفنا . والغريب أن كل طرف يضغط عليك راغباً في إعلان واضح بانحيازك له . ونحن لم نعتد مثل هذا الانحياز الذي يوحي بتدخل في الشأن الداخلي لحزب آخر...

وتفلت كلمات في الحوارات الانفرادية تتهم طرفاً بالقبلية ، وتقابلها ذات الكلمات المنفلتة من الطرف الآخر . تصمت الكلمات إذ يرحل أصحابها ويتبقى أن تتأمل ما يجري وأنت جالس في الاستراحة الأنيقة في معاشيق والمحيط يتمدد صاخباً دوماً تحت أقدامك وأنت في صالة مغلفة بالزجاج ليَشيَ بكل مافي الأمواج من جمال باهر... وروعة مبهرة .

وما إن نشرت الصحف صورتي معلنة حضوري حتى تلَقَّيْتُ مكالمة من صديق قديم ، إنه «الرفيق زيدل» . كانت معرفتنا ببعضنا طويلة إذ عمل في سفارة ألمانيا الديمقراطية في القاهرة (وهو في هذه الفترة سفير لبلاده في عدن) . طلب أن أراه وزرته في السفارة (دعوته للحضور إلى معاشيق لكنه ألح أن أذهب إليه ، فمثله يعرف أن مقراً للضيافة في معاشيق مغلف بأجهزة التصنت) وهناك تحدث طويلاً عن الوضع ، والصراعات ، والمخاوف على كامل التجربة ، وتحدث بصراحة من يعرف الكثير ، ولا يحرص إلا على إخفاء القليل... حكى طويلاً عن الشلل القبلية الطابع ، وعن افتقاد روح الحوار المثمر ، وشرح الخريطة القيادية شرحاً وافياً .

كنت أعرف زعيمي المعسكرين المتصارعين علي ناصر محمد وعبد الفتاح اسماعيل . وأعرف بعضاً من المناصرين هنا... وهناك ، لكن زيدل شرح التضاريس الدقيقة ، والخفية ، وربما الخافية على بعض أطراف

الصراع ، وتحدث عن دور السفيرين السوفيتي والكوبي وانحيازات كل منهما... والتناقضات بين هذه الانحيازات .

الآن اتضحت الصورة أو كادت ، وأصبح بإمكاني أن أتجول في حقل الألغام آمناً . الآن فهمت لماذا كان هناك حراس كثيرون ، كلهم غير رسمي على مكتب جار الله عمر ، ولماذا يرفض المحايدون أو أشباه المحايدين الاشتباك في أي حديث عن الأوضاع ، لماذا مثلاً كان الصديق اليمني الأقدم راشد ثابت يتحاشى الحديث في أي أمر من هذا القبيل... ولماذا كان البعض يدفعني كي أتعجل النصح بتصفية جسدية متعجلة للطرف الآخر .

باختصار فهمت (قدر الإمكان طبعاً) طبيعة التشابكات المريرة لوضع مرير حتى النخاع .

وربما عن قصد ، وربما عن طريق الخطأ دعيت كي ألقي محاضرة في مدرسة الكوادر الحزبية . لعل البعض أراد أن يغيظ السفير السوفيتي (الذي لم يخف انحيازه إلى الطرف المضاد) ، وكان كل مدرسي المدرسة من السوفييت... مديراً ومدرسين ومساعدي مدرسين ، ومحاضرين زائرين ومترجمين... كانوا جميعاً سوفييت ، ومن ثم فإن إرسالي لأحاضر في هذه المدرسة كان بمثابة إرسال لغم لينفجر في وجه السيد المدير وتابعيه . فالذي اقترح إرسالي كان يعرف مواقف لي تحدثت عنها طويلاً في جلسة مسائية طويلة في بيت الرئيس حين انتقدت بما يشبه الاحتجاج أسلوب دراسة وتدريس الماركسية كمعتقد جامد ، وترتيل نصوصها دون توقف للنظر فيها انتقادياً . لم يجرؤ أحد على تأييدي خلال الجلسة المسائية (فقد تحسب البعض من أن تأييد بعض ما قلت سيعني استخدام كل لفظ يتفوه به ، كذخيرة مضادة في صراعاتهم الدامية)... لكن الاختيار الماكر دفع بي لأحاضر في المدرسة .

وطوال الطريق إلى المدرسة كنت أحاول أن أستجمع بعض ما سأقول ، فلم أجد شيئاً ، فأنا لا أعرف طبيعة الطلاب ، ولا مستواهم التحصيلي ، ولا أي مناهج يدرسون ، وفيما أخطو نحو قاعة عبد الله باذيب ، وأنا خالي الوفاض تماماً قلت لنفسي... اختبرهم أولاً لتعرف حقيقة مستواهم ، ورشق سهم مضيء في ذاكرتي بعبارة قديمة لهيجل تمتاز عن غيرها بأنها غير مستهلكة ، ربما لأنها لم تأت على هوى البعض... هيجل ينصح «لكي تعرف ما بداخل ثمرة الجوز... اكسرها» .

وبلا تردد جعلت من هذه العبارة محور كل حديثي الذي استغرق ساعات عدة ، كانت القاعة ممتلئة بشابات وشبان مستسلمين في رضاء قدري كامل لهذا الذي أتى يسكب في رؤوسهم بعضاً من نصوص . وكرست خبرتي وإصراري كي أحول استسلامهم إلى تحفز ، وتقبلهم لكل شيء إلى تشكك انتقادي ، وصمتهم المستسلم إلى حوارات صاخبة .

إلى جواري كان مدير المدرسة السوفيتي ومترجم سوفيتي أيضاً يترجم له كل حرف يجري النطق به في القاعة ، وانطلقت حماستي وتدفقت عندما شاهدت وجه المدير وهو يمتقع . ألححت على الشبان والشابات... كل شيء يمكن انتقاده ، لا نص مقدس في الماركسية ، النصوص بنت زمانها ومكانها ، اكسروا كل عبارة تتلى عليكم وتمعنوا فيما بداخلها... وما هو ملائم لكم خذوه ، وما هو غير ملائم... ألقوا به بعيداً .

وجرى حوار منطلق... وممتع . وانفلت عقال الشبان وتحدثوا... وأبدعوا... وانتقدوا . ولم تنته المحاضرة إلا عندما أحسست أن السيد المدير سوف يغمى عليه .

في اليوم التالي اتصل الرئيس علي ناصر مستغرقاً في الضحك ، ماذا قلت في المدرسة الحزبية . المدير يتأوه من أن الطلاب أفلت زمامهم وهم

يقاطعون المدرسين ، ويطالبون بالتمهل لكسر العبارات وتأمل ما بداخلها...

وقال الرئيس إنه طلب شريط المحاضرة ليستمع إليه . قالها مستمتعاً... وفهمت (وإن متأخراً) لماذا طُلِبَ إليَّ أن أحاضر في المدرسة .

كانت مناسبة الزيارة ـ هي أيضاً ـ احتفالات ١٤ اكتوبر ، وبعد احتفالات كثيرة اتجهنا إلى حضرموت صحبة الرئيس ، وعلى طائرته .

المكلا عاصمة حضرموت تمتلك تراثاً تاريخياً مفعماً بأصالة مميزة ، وبنات جميلات دفعن كل رجال اليمن إلى ترديد أغنية لا تنسى .

يا بنات المكلا... يا دوا كل عله .

وفي إستاد المكلا... حيث جرى استعراض حشود جماهيرية راقصة ترقص رقصاتها التراثية الجميلة ، كنت في الشرفة الرئيسة وكثيرين آخرين . أعرف البعض ، والأكثر لا أعرفه . واقترب مني وجه عسكري باسم (والعسكريون يندر أن يبتسموا في الأماكن العامة) على صدره (وفق التقليد السوفيتي) صفوف من الأوسمة ، قال في ابتسامة ساحرة «يا رفيق لماذا تخاصمني ؟» قلت مندهشاً : ولماذا أخاصمك ؟ فأجاب : «لأنني علي عنتر» .

هذه هي إذن الشخصية الأسطورية اليمنية (كالعادة كان الجميع يعتقدون أن من يصادق خصماً فهو خصم ، أو في الأقل مخاصم لهم) ألححت في إيضاح موقفي وبقينا طوال الاحتفال نتقاذف الهمسات بما لفت نظر البعض الآخر .

وفي اليوم التالي... إلى ردفان بلدة الطلقة الأولى (وهنا أيضاً كان البعض يعتقد أن مغزى قبلياً يكمن في هذا الاختيار) كان الطريق إلى ردفان بشعاً ، مطبات غائرة لأمتار ، ثم صاعدة لأخرى ، والطريق طويل ومؤلم ، واستدعى ـ وعلى عجل ـ كل آلام ظهري المؤلمة... وعندما وصلنا

أخيراً بقي محلقاً فوق رأسي هاجس العودة... كيف سأحتمل هذا الطريق مرة أخرى ؟

الخطب التقليدية تنهمر فوق رؤوسنا ، وعلي عنتر انتقل من مكانه البروتوكولي وأتى إلى جواري وانغمسنا في حوار صاخب ، حكيت له عن محنة الطريق ، قال : إنه أتى بالهليوكوبتر . قلت : خذني معك ، قال بأسف : لكن الرفاق السوفييت طلبوا العودة معي... ولا مكان لك للأسف . (كان الوفد السوفييتي كبير العدد كالعادة ، ويرأسه عضو في المكتب السياسي) . وفي فترة للاستراحة أخذني علي عنتر لأسلم عليهم ، جرى الحديث متعجلاً عن الوضع المكهرب داخل القيادة . ووجهت سهماً مصوباً باتقان شديد... قلت لعلي عنتر : أحذر . فالزمان زمان تآمر . وقد يصطادك البعض في طائرتك . ويسجل الأمر كحادث مؤسف .

أُذنا المترجم المدربتان التقطتا الرسالة وترجمتها... وأتى الرد عاجلاً... (الاعتذار عن ركوب الهليكوتبر) ورحلنا عليها أنا وعلي عنتر وحدنا ، والغريب أن السهم الذي صوبت ، عاد فارتد إليَّ فإذا بي خائف إلى حد ما من احتمال وقوعه .

* * *

وإلى عدن مرة أخرى .

فبرغم كل شيء ، صراعاتها النارية ، وصخورها القاتمة السوداء والنارية هي أيضاً والغربان التي تشكل كل أسراب طيورها ، تظل عدن قادرة على إمتلاك قلبك . ربما بسبب البساطة... والمحبة غير المصطنعة التي تجتاحك هناك .

الآن الفرقاء مختلفون أكثر . خلافاتهم التهبت إلى درجة تقترب من

الاشتعال... ويبقى فقط من يتحمل مسؤولية حك عود الكبريت . ويلح سفيرهم في القاهرة أن أسافر لعل وساطة ما تصلح بعضا من خلل .

عبر الخرطوم سافرت . فثمة زيارة ضرورية للرفاق السودانيين . مررت على سفارة اليمن الجنوبي ، السفير رحب كالعادة ، وحَمَّلَني دون أن يدعني ألاحظ ذلك بعضاً من ملاحظات ، لعله أراد بها أن يبلغ كل الأطراف... (كل على حدة بالطبع ، فالأطراف الملتهبة الخلاف لم تكن لتسمح لأحد بمثل هذه الحيدة) وأمامي كتب بنفسه برقية يبلغ فيها بموعد وصولي .

ومن الخرطوم إلى أديس أبابا... ثم عدن . (كانت رحلة مثيرة بالنسبة لي... رأيت الماركسية وهي تتمدد بلا حرج ، وأذكر أنني امتلكت قدراً من الشاعرية حلق بي فوق الواقع ، وتجاوزه ، فكتبت مقالاً تحدثت فيه عن مقابلتي مع ماركس وهو يرتدي جلباباً أبيض وعمامة بيضاء ويتمشى في شوارع المدينة المثلثة ، ثم التقيته وهو يستحم في منابع النيل في الحبشة... ثم وهو يعيش صعوبات الحكم في عدن) .

هبطت الطائرة في مطار عدن الجديد . من فوق سلم الطائرة لاحظت أن لا أحد في الانتظار .

عبرت مع المسافرين حتى حاجز الجوازات... لا مشكلة فمعي فيزا . لكن إلى أين ؟ وكيف ؟ فلا أحد في الانتظار .

فكرت قليلاً . المخرج أن ألتقط من بين هذه الحشود الذاهبة والآتية واحداً يمكنه أن يساعدني . واحد فقط .

وقلت لا بد أن في هذه الصالة رجل أمن . وعليَّ أن أجرب فراستي ، إفترشت عيناي المكان ، تأملت ، تابعت هذا... هذا وذاك ، ثم استقرت .

ثمة شخص لا يحمل حقيبة ، ولا يسرع ، بل هو أصلاً لا يتحرك... بهدوء توجهت إليه وسألت : أنت أمن ؟ كمن لدغته عقرب انتفض . لم يجب ولكن

كعادة رجال الأمن سأل : (ما دام يسألك رداً على سؤالك هو أذن رجل أمن مدرب) قال : أنت مَنْ ؟ أسمى رفعت السعيد . دهشت إذ وجدته يعرف ، وسأل مرة أخرى : حق حزب التجمع . وأشرت برأسي نعم . وتجاسرت فقلت : أريد الاتصال بمحسن . الاسم في هذه الأيام يثير بعضا من القشعريرة فلم يجب . سحبني إلى غرفته هناك قدمت لهم رقم تليفون من نوتة تليفوناتي . في وجل أدار رجل قرص التليفون ونطق اسمي ، وعندما ناولني سماعة التلفيون كان محسن مندهشاً ، وكنت ألعن الدنيا مازحاً ، والسباب الضاحك يربك الموجودين في الغرفة . لكنهم صحبوني إلى قاعة كبار الزوار... وبعد ربع ساعة حضر محسن ومعه عبد الله ناصر . أُجْرِيَ تحقيق حول واقعة وصولي دون إبلاغ أحد . اتضح أنني أبلغت السفير في الخرطوم يوم الأربعاء . أرسل برقية صباح الخميس . ظهر الخميس لا أحد في مكتبه فالجميع يستجمعون من السوق أكبر قدر من القات ومن ثم لا خطأ ولا مخطىء كانت «الاشتراكية» اليمنية تحاول الانسحاب من التعامل مع القات بشكل تدريجي فسمحت فقط ببيعه يومي الخميس والجمعة . وبعد ظهر الخميس تنتصب المقايل لتشمل الجميع . (وفي مقيل الرئيس ملت عليه هامساً ، الجميع في المقابل وأشرت إلى حشد كبير من أنصاره ومناصريه فماذا لو قام أحدهم بانقلاب . ضحك علي ناصر ضحكة صافية وقال : وهل ثمة مجنون يترك المقيل من أجل تدبير انقلاب ؟) .

في هذه المرة الصراع فوق المائدة لا أحد يخفيه ، ولا أحد يحرص على إخفائه ، والشتائم الكبيرة تطرح الآن علنا ، والتصنيف ، والتصنيف المضاد يملأ المساحات جميعاً ، حتى مع غير اليمنيين من أمثالنا .

الحكم فريقان... وزعيمان علي ناصر وعبد الفتاح اسماعيل . وعلى كلٍ أن يختار . وفوراً . وبلا تردد . فلا مجال لتفكير ، أو استقصاء ، أو حياد ، أو ادعاء بعدم التدخل في شؤون الغير .

والهمسات تحسب ، فعليك أن تفعل كما يفعلون ، ألاّ تبتسم للغير ، وألاّ تقبل منه حديثاً أو مقابلة أو دعوة على العشاء ، فإن فعلت قوطعت على الفور من الطرف الآخر .

وقررت أن أتمسك بمبدأ «الحياد الإيجابي» كنت أقولها ضاحكاً ، ولكنني كنت أعنيها ، فأنا لست ضد أحد ، ليس لأنه ما من مخطىء ، وإنما لأنني لست مؤهلاً لأن أقف ضد أحد أو مع أحد . وأي انحياز ضار لأنه يشجع على التصادم ويغري به . ولأن علاقة شخصية قد تحسب خطأ... اعتصمت في فيلا الضيافة بمعاشيق معلناً للجميع أنني لن أزور أحداً ، ومن يريدني فليأت هو إليَّ . ولم أخرج من هناك ، وأتى الجميع كل يحاول اقناعي ليس بصحة موقفه ، وإنما الأهم أن أقتنع بفساد الرأي الآخر . والغريب أن الموقفين لم يكونا متباعدين وكان يمكن التقريب بينهما . لكن أحداً لا يريد ، لأن كل طرف لا يريد أية مشاركة من الطرف الآخر .

ذات يوم اتصل علي ناصر شخصياً يدعوني على عشاء في منزله . فما كان للرئيس أن يأتي إلى معاشيق ليزورني ، وإلا حدث هرج شديد . وما كان لي أن أرفض دعوة كهذه .

بعدها بقليل أتى «أ . ب» (عضو المكتب السياسي) كان ثائراً ، هائجاً ، أو مفتعلاً الهياج ، مؤكداً أن الثورة مهددة ، وأنه لا أمل إلا بالحسم . وناشدني باسم الصداقة والرفاقية أن أحاول إقناع الرئيس بالحسم . أي حسم ؟ سألت . قال : بالرصاص . نصفيهم قبل أن ينجحوا في تصفية الثورة .

أمسكت مشاعري بداخلي كي لا تفلت . لم أنطق . سألني : هل ستحاول ؟ ألح بالسؤال .

قلت : سأفكر .

لم أفكر . كان موقفي مستقراً... أي عنف في تصفية خلاف سياسي جريمة . وستدور عجلة العنف والعنف المضاد لتجتاح كل شيء .

على العشاء... لم أذكر أسماء (لكنه كان يعرف فالجميع كان يتصنت على الجميع حتى على أنصاره) ولكنني حذرت وألححت ، ورجوت ، بل توسلت للرئيس ألا يفعلها . أكد أنه لن يفعلها (لكن الرصاص تكلم بعد وقت قليل) .

وكانت الكارثة ، القادة قتلوا بعضهم البعض ، وأصبح الرصاص والقذائف والدبابات أدوات في الصراع الحزبي الذي سريعاً ما التهب . وسريعاً ما ارتفعت فيه النغمة الشخصية ، والمعزوفة القبلية .

فيما بعد... روى لي أحد الأبناء الذين كانوا هناك يستكملون دراستهم ، كيف ارتفع عويل القذائف والصواريخ ، ليغطي على صوت العقل ، بل ليدمر العقل وكل ممكنات التعقل . دمرت الصواريخ كل شيء ، الخصم والصديق ، والبشر العاديين والحزب ، والمقولات الثورية... وروى لي كيف اقتحم جارهم اليمني العجوز مسكنهم في خور مسكر بعد أن زاره في بيته صاروخ دمر كل شيء ، كان المسكين لا يجد من يستنجد به ، فالسلطة تضرب السلطة... لم يجد سوى الأساطير التي كانوا يرتلونها أمامه ، فأخذ يصرخ في هيستيريا «فين ماركس ... فين لينين ؟ »

ذهب ماركس ، وذهب لينين... ولم يتبق سوى القبيلة ، والناحية ، والشخص .

...البعض هزم البعض . وتبدى الأمر وكأن الجراح ستلتئم ، وأن الحزب سيواصل رحلته قائداً للمسيرة .

تلقيت دعوة ملحة ، وسافرت كي أتطلع ، وأرى ماذا تبقى من كل ما كان .

لكن هؤلاء الذين قاتلوا معاً ، وأمعنوا في قتل الآخرين معاً ، أو جرى قتلهم معاً... كانت تنبت في أحنائهم بذور شيطانية جديدة . فالدم الذي سال ترك فراغاً ، وترك تراثاً جديداً في محاولة ملء الفراغ .

كالعادة كانت إدانات كثيرة للذين بدأوا العنف (وهم بالطبع يستحقون الإدانة) وكان تمجيد كثير للجيش أو لمن تبقى منه (والويل لبلد كهذا عندما تتسع فيه مساحة التمجيد لقادة الجيش كأفراد ، وكمؤسسة) وكان غمز ولمز كثير . من كل الأطراف وضد كل الأطراف .

ولاحظت أن مواقع كبيرة يمتلك أصحابها حجماً أصغر مما هو مفترض . وأن الكثيرين يرتدون ثياباً (بالمنصب) أكبر منهم ، ومن حجمهم بكثير .

لكنني لم أتوقع أن ينتهي الأمر كما انتهى ، لا من حيث السرعة ولا من حيث التكنيك . فكي يهرب الجميع من الجميع ، ومن الصراع ضد بعضهم البعض ، كان اللجوء إلى الدعوة للوحدة ، أو ادعاء الوحدة ، وعندما زارني قياديون من الحزب الاشتراكي اليمني في مكتبي في القاهرة حذرت وألححت في التحذير من وحدة متعجلة ، وليس لها من أقدام سوى الهرب من الآخر ، الهروب من الرفيق المخالف إلى الآخر المختلف تمام الاختلاف .

وتجسد قول الشاعر «كالمستجير من الرمضاء بالنار» . قلت تهربون من واقع مرير ، لكنكم تتحكمون فيه ، إلى واقع أشد مرارة ، لأنه سيتحكم فيكم . تحدثوا عن مواثيق واتفاقات وأكدت أن التراث اللاديمقراطي والقبلي والعشائري أثبت دوماً أنه أقوى من المواثيق ، ومن كل ما يكتب على الورق . وقلت أن الديمقراطية ستظل وهماً في ظل توازن للقوى هو بالضرورة مختل ليس فقط بسبب المنصب ، والوزن السكاني والعشيرة والقبيلة ، ولكن لأنكم تذهبون إلى غابة الطرف الآخر وأنتم متفرقون... مختلفون ، متشككون في بعضكم البعض .

لكنهم صمموا . وهم أصحاب الحل والعقد في مصيرهم ، لكن الغريب أن كلماتي قد نقلت بالنص للرئيس الشمالي علي عبد الله صالح ، ليغضب من تحريضي ضد الوحدة معه .

وكانت النتائج التي تحققت من هذا الهرب إلى الأمام مريرة . أشد مرارة من أسوأ توقعاتي ، بل ومن أضعاف أضعافها .

مثيرون للدهشة

«لا حيلة لعاشق في عشقه» . فلا خيار ولا اختيار . والعشق أنواع . هو أيضاً متنوع . إذ يداهم الإنسان بمذاق قد يتنوع وقد يتباين ، لكنه في نهاية الأمر ذلك الرحيق الذي يمنح النفس طمأنينة الاستمتاع .

ويتنوع العشق بتنوع العاشق... فالمؤرخ ، غير الأديب ، غير السياسي ، غير هانىء البال الذي يبحث عن معشوقه .

فلقد يتوقف المؤرخ إمام حدث ، واقعة ، جملة في كتاب ، رجل... يستفز في داخله مشاعر الدهشة ، ويقتاده إلى دروب من الرغبة في المزيد من التعرف عليه .

وكم ألهبني هذا النوع من العشق . منذ تعرفت على رفاعة الطهطاوي .

وحتى الآن . ما إنْ ألتقي بباريس حتى أسرع إلى ميدان «البانثيون» ثم أنحني مع الطريق المنحدر نحو شارع المدارس ، هناك يقع المبنى العتيد لمدرسة البوليتكنيك . هنا تتلمذ رفاعة . وأسترخى على مقعد خشبي في مقهى عجوز يواجه المدرسة... ويداهمني العشق . هنا كان البروفيسور جومار (أستاذ رفاعة) ينحدر هو أيضاً ممسكاً بزمام حصانه... دقات الحوافر

موسيقى ناعمة ، يترجل... يربط الحصان... هنا في هذه الركيزة الحديد التي تتجاور حولها خيول الأساتذة .

في هذا المقهى ، ربما على ذات الطاولة جلس رفاعة (تحدث طويلاً وبعشق عن مقاهي باريس ودورها الثقافي في كتابه «تلخيص الإبريز في تلخيص باريز»)... ربما ارتفع صوته أو صوت محدثه البروفيسور كوسيه دي برسفال ، الذي طالع مخطوط تلخيص الإبريز... وراعه أن يتحدث «مسيو شيخ رفاعة» (هكذا كانوا ينادونه) عن النصارى واصفاً إياهم بالكفار . احتدم النقاش . ترى كيف كان مسيو شيخ رفاعة ينطق الفرنسية... وكيف كان «دي برسفال» ينطق العربية .

ويقتنع رفاعة . ويشطب وصف «الكفار» من المخطوط . أي عبق يداهمك ، يغمرك وأنت مسترخ في رحاب رفاعة منتظراً في كل لحظة أن يطل عبر البوابة الحديد ليعبر الطريق... ويجلس على طاولتك ليشرب معك القهوة ، وعمامته تزاحم فناجين القهوة على الطاولة الصغيرة .

إنه مجرد نموذج من عشق المؤرخ... يتكرر عشرات المرات ، رموز تدرس تاريخها... تتعقبها في دروب البحث التاريخي . تجمع عنها كل ما هو متاح من معلومات... تستنهض فتات الوقائع الصغيرة المتناثرة والمنسية لتجمع منها صورة تبدو كالحقيقة . كرسام البورتريت يضيف خطأ ، إلى بقعة ، إلى لون... فإذا بالشخص يتجسد صورة تكاد تنطق...

(عندما كتبت كتاباً عن الأستاذ أحمد حسين ، دهش الرجل . قال في رسالة خطية أعتز بها... «أنت تعرفني أكثر مما أعرف نفسي») . لكنك إذ تلاحق «الشخص»... تعود لتكتشف أنه يلاحقك فيلحق بك ، ثم يمتلك زمامك ، فتكاد أن تنسى كل ما عداه ، وتكاد تتلفت في الطريق متوقعاً أن تقابله... تصافحه ثم تمطره بالأسئلة التي لم تزل تحيرك... كيف ؟ لماذا ؟ متى ؟ من ؟

أما السياسي فيتوقف أمام رموز تلامس معها... مئات وربما آلاف من الناس يلتقي ، يتحدث ، يتحدى ، يهاجم ، أو يتعرض للهجوم ـ كثيرون مجرد فقاعات ، لحظية التأثير والأثر ، وبعد أيام تتلاشى صورتهم ، وقلما تتذكرهم... أو حتى تتذكر أسماءهم ، أو ما قالوا... أو فعلوا .

ألم أقل فقاعات لحظية الأثر... ولحظية الضجيج .

لكن البعض يمتلك خاصية الثبات في الذاكرة . يتملك زمامك . يستثير دهشتك بفعل أو بموقف ، تغبطه ، تتمنى أن تكون مثله ، تحتاج إلى صداقته ، إذ تكون الصداقة الصادقة عملة نادرة .

قليلون هم في خضم الحياة الحافلة لكنهم يكفون تماماً كي يشغلوا كل مساحة الحب .

قليلون هم ، لكنني لا أستطيع أن أتحدث عنهم جميعاً . سأكتفي بالبعض ، بهؤلاء الذين امتلكوا زمامي إذ استطاعوا أن يستثيروا دهشتي ، ومنحوا علاقتي بهم مذاقاً مزهفاً كعطر ياسمين دائم الشذى .

* * *

الوجه عجوز مستقر في شيخوخة دائمة... والعقل والقلب والجسد تتألق جميعاً بحيوية شابة ودافقة .

كان أول من استقبلني مع بدء رحلتي إلى أخبار اليوم . تأملني في ابتسامة متفحصة ، ولعلها مستريبة . فأنا آخر من طفح بهم كيل المؤسسة ، وأنا واحد من هؤلاء «الهمج» القادمين بلا معرفة سابقة بالصحافة ليستقروا في قلعة الصحافة .

منحني منذ الوهلة الأولى إحساساً بالأبوة . تخيلته عجوزاً في سن الشيخوخة ثم أمضينا معاً أكثر من ثلاثين عاماً وهو يزداد شباباً بمُضِيِّ الزمن .

ظلت بيننا مسافة صنعها هو... مَنْ أنا ؟ وافد من الوافدين ، وهو واحد من ألمع صحفيي مصر... ورئيس رؤساء تحرير الأخبار... حسين فهمي .

سهم منطلق لا يعرف الالتواء ، ولا التردد ، ولا التهدئة ، ولا المناورة . الحق... الحقيقة . الصحيح . الخاطيء . كلها محددة عنده تحديداً حاسماً . قلمه سلاحه وليس للبيع ، ولا بأي ثمن ، ولهذا لم يكن قط مرضياً عنه . أخذ الفرصة الأولى ليكون صحفي الثورة . سبق الجميع ، ثم سبقه الجميع . هو توقف عند حدود المبدأ ، وهم تخطوا كل حدود النفاق فكانوا... وكان صعودهم . وبقي هو يصنع موقعه بجهده ، وثبات موقفه . وظل دوماً بالنسبة للصحفيين نقطة التوازن الأفضل . فأصبح نقيباً لهم خمس مرات .

... بقيت بيننا مسافة . أنا طفل يحبو في طريق الصحافة الوعر ، وهو رئيس التحرير .

ثم أدخلني ، أو أدخلتني الظروف في تجربة معه .

كان رفاقنا وخاصة (عبد الله الزغبي وحسين عبد ربه) يخوضون معركة حادة الأنياب والأظافر مع واحد من أعتى عتاة الإقطاعيين في الدقهلية «الشيخ الحفني» . وقذفوا إليَّ بمعلومة عن أراضٍ مهربة من الإصلاح الزراعي... وتزوير في أوراق الملكية ، وفلاحين يعيشون على أرض يقول الشيخ الحفني أنه مالكها ، بينما الأوراق تقول غير ذلك... وفتى فلاح تشبث بالموقف الذي لاح له مع رفاقنا . وأضرب عن الطعام . وهزم الإقطاعي في جولة أولية .

قذفوا إليَّ بالموضوع . نشرت أخبار اليوم أول موضوع لي في صحيفة قاهرية به صورة الفلاح المشاكس «نصر»... وكان عنوانه الذي اختاره حسين فهمي «وانتصر نصر» .

في اليوم التالي... دق التليفون كان المتحدث «فيه ضيف جاي لك شوفه عايز إيه» .

إنه شيخ معمم من حواريي «الحفني» متحدث لبق ، يعرف كل الأنساب في الدقهلية بدأ بحسين فهمي من بوابة أقاربه كبار الكبار في الدقهلية عائلة برهام باشا نور . ثم أتى إليّ ليتحدث عن الحاج (أبي)... وصداقة الحاج بالحاج (الحفني)... وكيف أن المُشكلة هي أن تنشر أخبار اليوم صورة هذا «الولد» وتقول إنه انتصر... ثم... وصمت المعمم . ثم ألمح دون أن يفصح . فلما وجدني صامتاً أفصح دون أن يلمح .يعرض أي شيء مقابل إيقاف هذه الحملة . تركته في الغرفة ، وحدثت حسين فهمي من تليفون آخر... كنت غارقاً في عرقي ، مرتبكاً بصورة مفزعة . الريفي العائد من السجن تكشف عن «لخمة» لا يعرف قواعد اللعبة ، ولا كيفية اللعب ، ولا حتى كيفية الرفض . كانت كلماتي توشك أن تنكسب دموعاً ، قلت : «تصور أنه عايز يديني رشوة . أنا مش عارف اتصرف إزاي ، أطرده... أضربه» . ضحك وقال : «هذا موفد «الكبار» يجس النبض ليعرف ماذا تريد ، فاصرفه بهدوء ، ولا تشتبك معه حتى لا يدعي أنك طالبت برشوة... وأنه هو الذي رفض ، وسيجد كثيرين جداً يصدقونه ، إن لم يكن حباً في عليٍّ فكُرْهاً لمعاوية» .

عدت لأقول للمعمم كلاماً هادئاً رخواً وبلا معنى . حاول أن يستشف منه أي شيء ، لكن الكلمات ظلت ملساء... بلا أي تضاريس وتركني على موعد... أن نلتقي في المنصورة .

خرج المعمم . وهدأ القلب ، وقبل أن يجف العرق كنت أقفز إلى غرفة حسين فهمي ، تلقفني في أحضانه صائحاً «برافو» (بعدها بأعوام وفيما نمارس صداقتنا الحميمة استعدت هذه الواقعة ابتسم في حنان وقال : كنت

أعرف أنه سيعرض عليك ما يسكتك... وكنت أتمنى من كل قلبي أن تنجح في الاختبار . وقد نجحت وساعتها قررت أن ألغي المسافة الفاصلة بيننا) .

كان حاداً كالسيف . ظل حاداً كالسيف . يبدو هادئاً ، منغمساً في عمله ، متشاغلاً عن الأشياء الصغيرة ، ثم فجأة ـ وعندما تقع واقعة تستحق اتخاذ موقف حاسم ـ تستحيل كلماته إلى صراخ ، أصابعه المبرومة الطويلة تلوح محذرة ومنذرة .

وينطلق السيف من غمده .

فقد رضاء الرؤساء أكثر من مرة . وأكثر من مرة أطاحوا به من موقعه كصحفي مرموق لم يندم . ولم يتراجع .

إنه واحد من فرسان العصور القديمة الذين كان «الموقف» عندهم هو عملة التداول الوحيدة .

وعندما جاءت موقعة مجلس السلام... والخلاف الشديد مع لطفي الخولي ، كان موقفه الحاسم هو أساس معركتنا في الدفاع عن المجلس وعن خالد محيي الدين معاً . وأصبحنا أصدقاء حميمين . أذكر ـ وكنا أيامها نسير على الشوك ـ أن واحداً من حواريي النظام الجديد حاول إقناعنا ، ثم مال إلى حسين فهمي مذكراً أياه أنه صديق قديم للسادات... وأنها الفرصة السانحة ليستعيد موقعاً صحفياً كبيراً هو جدير به ، وقذف حسين فهمي بشتيمة كبيرة جداً ضد السادات . أنا الأصغر سناً والأقل خبرة فزعت . هو قال مبتسماً بعد أن غادرنا «الحواري» : كانت رسالة من السادات وبعثت إليه بالرد . ثم انفجرت واحدة من ضحكاته الخشنة قائلاً : «المهم أن يتجاسر هذا الولد فينقل الجواب كما هو» . ثم قال مشيراً إلى سقف المكتب حيث توجد أجهزة التسجيل المتوقعة «على أية حال همه سمعوه» .

وفيما كنت أعد كتابي عن تاريخ الصحافة اليسارية... لمح معي بعضاً من كنوزي «مجموعة مجلة الملايين» التي كانت تصدرها حدتو عام ١٩٥١ ، لمعت عيناه . تورد الوجه العجوز ، قلبت أصابعه الطويلة الصفحات توقف أمام عمود كان مستقراً في أغلب الأعداد موقع باسم «أبو الحسن» . قال في فخار متألق هذا عمودي .

أبديت دهشتي... «أنت أيامها كنت رئيس تحرير الزمان فماذا أتى بك إلى جريدة الشيوعيين» قال مبتسماً : «هو إنت فاكر إن أنا بدأت السياسة دلوقت!» ولم يزد .

وعندما علمت أنه قد حضر المؤتمر الأول للحزب الشيوعي المصري الذي عقد سراً في زمن السادات وفي ظل مخاطرة خطرة... سألته : متى ؟ وكيف ؟ ولماذا ؟

لم يجب . فقط قال : «لقد أردت أن أستعيد شبابي . وها أنا ذا أعود إلى حيوية الشباب الدافقة . ألا ترى إن صحتي قد تحسنت ؟» .

لكن السيف يبقى مشهراً عندما يستشعر أية حاجة إليه .

كنا في موسكو في وفد لحركة السلام . وكان السوفييت قد عقدوا اتفاق الاسترخاء العسكري في الشرق الأوسط مع الأمريكيين . ولم نخفِ سخطنا . لكنه كان الأكثر سخطاً والأشد قسوة ، كانت كلماته رغم هدوئها خشنة ، يزيدها صوته الخشن خشونة . ارتبك المضيفون . ويبدو أنهم تناقلوا انتقاداتنا حتى وصلت مسامع المراتب العليا فدعينا ، أو استدعينا لمقابلة الرفيق «بونماريوف» مسؤول العلاقات الخارجية في الحزب .

كالمعتاد استمعنا إلى محاضرة طويلة جداً... تلاقت أعيننا . لم نقتنع . فجأة ـ وعلى غير المفترض ـ قطع حسين فهمي مسار المحاضرة التي بدت وكأنها بلا نهاية . قال : أنا لديَّ تعليق . أنت تتكلم عن السلام بشكل

مصمت . وكأن هناك سلاماً واحداً . ووقع السياسي العجوز في الفخ وتساءل متهكماً «وهل هناك أكثر من سلام ؟» .

وأجاب حسين فهمي بعبارة واحدة قاصمة أنهت المقابلة في صمت جنائزي مهيب «نعم . هناك أربعة أنواع من السلام... سلام الغاصب . سلام المغتصبة أراضيهم . سلام الذين يحاولون بذكاء الاستفادة من هذا الصراع ، وأيضاً سلام الذين يحاولون الاستفادة ولكن... بغباء» ثم نهض واقفاً . ومد يده مصافحاً في مودة . وكأنه لم يقل شيئاً .

* * *

عبد الله حوراني . تعرفونه . تحدثت عنه من قبل .

منذ أول لقاء عرفت أنه لا فكاك . تملكتنا صداقة صادقة . لمحت فيه محبة حانية وغير مصنوعة ، وإخلاصاً تتلمسه عند الموقف الصعب . (في زمن السادات ، وعندما تصاعد الصدام ، وتعرض التجمع لهجمات ضارية ، كان حوراني أكثر من قدّم لنا عوناً إعلامياً ، ورتب لنا سبل الاتصال به... ومنه للعالم أجمع) .

بدأ مدرساً . على يديه تتلمذ كثيرون ما زالو حتى الآن ـ رغم تناثرهم في منافي العالم ـ يعتزون بتتلمذهم عليه .

ما إن تسير معه في مكان ، أو تجلس على مقهى... هنا أو هناك حتى تتلقفه أحضانهم .

أوجعته فلسطينيته . لا مخرج إلا بعمل قومي . ترك وظيفة مرموقة ، يحلم بها الكثيرون... وبعد تقلبات زمان مرير استقر في المنفى البيروتي ، وعاش في بيروت «مستقلاً» . ثمة أمور لا تقبل عنده أنصاف الحلول . وهناك صعد أيضاً في سماء منظمة التحرير... ليصبح مسؤولاً في مجال

الثقافة . وهناك خاض معارك سياسية ضارية ضد جنرالات التشدد . هؤلاء الذين تمسكوا بالأقصى من الحلول ، ناسين أنهم يصبحون بذلك مجرد جنرالات لشعارات جوفاء . دعا إلى تسوية سلمية مقبولة ، أو حتى معقولة ، وإلى مباحثات سلام ، في وقت كان البعض يعتبر مثل هذه الألفاظ كفراً ما بعده كفر . أكد وجود قوى سلام إسرائيلية... وضرورة التعامل معها... واعتبر الكثيرون ذلك كفراً ما بعده كفر . وكان الأول... وكان الوحيد من كل الفلسطينيين الذي قبل خوض الأصعب . فالأسهل أن تطرح شعارات مستحيلة التحقيق وتنام . اختيار الأصعب دفع به لحضور «مؤتمر العدل والسلام في الشرق الأوسط» الذي عقد في بولونيا (إيطاليا) وسجل لنفسه أن يكون أول فلسطيني يجلس مع ممثلي قوى سلام إسرائيلية .

هناك تمتعت بالتعرف عليه أكثر فأكثر . كان هادئاً ومبتسماً . كان الإسرائيليون متشددين متوترين لا يصدقون أن فلسطينياً يجلس معهم ، يشرب القهوة ، ويناقش ، لكن كلمته الهادئة والناعمة التي يتم اختيارها وفق أدق المواصفات الدبلوماسية كانت موجعة ، وتدفع بهم إلى الحيرة ، والعجز عن الجواب أحياناً . لكنه كان يتدارك قائلاً : حسناً... نحن لم نزل في البداية... كل شيء صعب في بدايته .

ويواصل دعوته للتسوية السياسية ، حتى تصبح ما يقوله الجميع .

ويصبح عضواً في اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير . زرته في تونس مهنئاً . السيارة المرسيدس... والمكتب الفخم... والحراسة... كانت جميعاً توجعه . يعرف أنها ضرورية ، لكن اللاجيء الفلسطيني الذي يعاني في الشتات كان يلاحقه... ولم يزل يلاحقه . (يا أخي ناسنا ما بتلاقي لقمة خبز)... عبارته التي ظلت توجعه ، وكانت توجعني كلما ركبت سيارته ، أو زرته في مكتبه ، أو تناولت معه طعاماً .

ثم... هو الذي تصادم مع قطارات كثيرة من أجل التسوية السلمية ، رفض اتفاق أوسلو . (يا أخي... كيف نحرم إخواننا في الشتات من ديارهم ؟ أوسلو ما بتعطيهم حق العودة ، ولا تكفل شبه تسوية ، شبه مقبولة) .

طويلاً تناقشنا ، كثيراً اختلفنا حول موقفه من أوسلو .

سألته ذات يوم بعد مناقشة مرهقة : ماذا تقترح ؟

قال : «نترك إخواننا في الداخل يقبلوا ، ويمشوا في الاتفاق ، وياخدوا ما هو متاح ، أما نحن فنبقى رافضين حتى تتاح عودة اللاجئين وتسوية أفضل . بهذا نضمن : تسوية ناقصة . ومحاولة استكمالها في آن واحد» .

صمت طويلاً فيما أحاول أن أستسيغ اقتراحه ، لكنه أكمل «عرضت اقتراحي . لكن البعض يربط التسوية بأن يتولى هو الحكم . من يتفق ، يتسلم الحكم... ما قيمة الحكم ؟ فليبق البعض منا رافعاً رأسه ، كي لا تصمنا الأجيال القادمة بأننا جميعاً تخلينا عن اللاجئين في الشتات» .

واستمر نقاشنا المحتد... ولم يزل .

عاد إلى وطنه ، أو القطعة التي أتيحت منه . موقفه الثابت أبعده عن اللجنة التنفيذية . أعطوه ما يعشق .

مسؤولية اللاجئين . انطلق قطاره سريعاً وربما متعجلاً بحيث أفزع الكثيرين . كان منصبه «مسؤول شؤون اللاجئين بدرجة وزير» لكنه كان يعرف أن فرصته في هذا الموقع محدودة . أوجعه اللاجىء في الشتات . سار قطاره مسرعاً فدهم كل صبر إزاء ما يفعل . شكّل في كل المخيمات لجاناً شعبية للاجئين... تحولت اللجان إلى قوة ضغط حقيقية . نزعوا منه المنصب .

ويبقى «الرجل» كما هو . يقول ما يعتقد ، يفعل ما يعتقد . ولا يتخلى عما يعتقد . مهما دفع من ثمن . فقد الآن... الموقع . المنصب (وكل ما يتبع

المنصب وهو كثير)... لكنه كسب «الرجل» كسب ضميراً مرتاحاً ، وبسمة راضية لم تزل تستثير دهشتي .

* * *

في يوم من يوليو ١٩٥٣ تلقيت تعليمات أن أستأجر شقة جديدة . ثم ، أن أذهب إلى عنوان في الظاهر... لأصطحب رفيقاً هارباً من المعتقل (كان الهارب الرفيق ضياء بدر ، كسرت ساقه وهو يقفز أثناء عملية الهروب المثير من معتقل روض الفرج وكان المطلوب أن أكفل له مكاناً آمناً)... صعدت في العمارة الفخمة في الظاهر وأنا أستعيد كلمة السر التي بموجبها سأتسلم الرفيق الهارب . دققت الجرس... فتح الباب... انسكب عليَّ سيل من الدهشة بل الذهول . أمامي عبد الرحمن الخميسي أكبر كتّاب هذا الزمان ، أي خطأ وقعت فيه . هل أخطأت في الشقة ؟ كنت مرتبكاً... وصغير السن ، وأبدوا حتى أصغر سناً من الحقيقة . تراجعت رأسي المرتبكة لترى رقم الشقة... تأكدت... وجمعت أطراف إرادتي وقلت العبارة المتفق عليها «خالي عندكم ؟» . لاحظ ارتباكي ولم يغفر لي صغر سني ، فزادني ارتباكاً عندما سأل مبتسماً «خالك مين يا إبني ؟» ، سقط قلبي في أعماقي وأوشكت أن أنسحب جرياً ، لكنه سحبني بهدوء إلى الداخل لأجد «خالي» منتظراً في الصالون .

ما الذي أتى بهذا الرجل إلى هذا المعترك ؟ ضمت حدتو كثيراً من المثقفين ، لكن الخميسي كان الأكبر والأشهر . الجميع أتوا طلاباً أو مبتدئين وكبروا في صفوفنا . أما هو فقد أصبح شيوعياً وهو في قمة شهرته .

فكيف ؟ ولماذا ؟

وبقيت أسئلتي تحيرني حتى التقينا مرة أخرى .

في سجن مصر (في المكان الذي يحتله الآن منزل كوبري السيدة عائشة وما يتلوه من مبانٍ)... كنت الأصغر سناً ، وكان الأكثر شهرة ، وكانت زنزانته منتدى لمن أراد حديثاً طلياً ، وشجياً وممتعاً .

آخر الندماء القدامى . سمعت عن أحاديث العقاد في صالونه ، استمتعت بجلسات كامل الشناوي الممتلئة بمسامرات دافقة تستمتع بها كلما واصلت تدفقها وتتمنى لها ألا تنتهي . لكن أحاديث الخميسي شيء آخر... يطوف بك في غابات وحدائق وصحاري ، يصعد بك نحو سماوات الشعر ، يمتعك شعراً ونثراً ، ويثقفك إذ يلقنك أسرار الحياة ، يتحدث في الموسيقى والشعر والسياسة والأدب والعلوم والصراع الطبقي ، ويمزج ذلك كله بسخرية لاذعة حارة .

سألته في وجل : كيف أصبحت شيوعياً ؟ صمت ، أسند ظهره على حائط الزنزانة وصاح بصوته الخشن وكأنه ممثل غارق في أدائه على المسرح :

ولأني أعبد إنسان الكرة
الأرضية ، أختلف مع العالم .

في هذا اليوم حكى لي قصته . أصبحنا أصدقاء فعلاً . فتح كنوزه أمامي ليلقنني أسرارها .

تمرد منذ طفولته . الأب تزوج غير الأم... والأم تزوجت غير الأب . وعاش مع عمه في قرية «منية النصر»... شوقه للثقافة والفن يؤرقه وهو بعد طالب في مدرسة المنصورة الثانوية . قرر أن يبني مسرحاً في القرية . الأرض واسعة لكن أين المال .

جمع أفراد عصابته من الممثلين الصغار ، ذهبوا إلى مقابر أسرة «الحديدي» كبار ملاك الناحية انتزع منها الأبواب والشبابيك والأخشاب ،

وشرع في بناء المسرح ، عاتبوه فصاح «أحياء الفقراء أهم من موتى الأغنياء» . لكنهم لم يغفروها له... وحتى أقاربه لم يحتملوا تبعتها أمام «السادة» . واصل تمرده ، كان قد جمع حوله أبناء القرية ليلقي عليهم بصوته الشجي ، ومقدرته التمثيلية الرائعة قصص «أبو زيد الهلالي» و«سيف بن ذي يزن» . كان يضيف إلى الأشعار بعضاً من أشعاره يغمز فيها بعضاً من أغنياء القرية... تواصل التمرد... فترك القرية والدراسة وعاش أياماً صعبة : صبي بقال ، كمساري أوتوبيس ، ثم مغنياً في فرقة مسرحية ريفية فقيرة تتجول لتمتع الفقراء وتنال بعضاً من قروشهم... «كتبت لهذه الفرقة مئات الاستكتشات الرائعة لكنها ضاعت مع الزمان» .

ثم استقر في القاهرة... ليجد فيه الكثير من أدعياء الأدب والثقافة والفن كنزاً . كان يكتب لهم قصصاً وأغاني ومقالات وروايات ينشرونها بأسمائهم مقابل قروش قليلة .

صمت طويلاً... ولم تزل الزنزانة تنتظر منه ما تبقى من أسطورته .

انفجر بأبيات من الشعر ، دوختني فيما بعد كي أعثر عليها... ظللت أحتفظ بها مكتوبة لفترة ، (وهل يمكن لسجين أن يحتفظ بشيء) وضاعت مني ، لكن كلماتها الأخيرة كانت مطبوعة في ذاكرتي... وبها اهتديت إلى القصيدة الكاملة...

انفجر الخميسي كأنه يخطب أمام ملايين البشر وليس أمام صبي سجين :

علام أضحكُ يا ويلاهُ من زمني
وشاطني فوقَه الأهوالُ تَرْتَطِمُ
لكنها ضِحْكَةُ البركانِ قاذفةً
من قلبيَ النارَ أذكى أصلَها الألمُ

إني أقولُ لهذا الظلمِ في صلفٍ
اشرب دمائيَ واثمل أيُّها النَهِمُ
هيهاتِ تبلغُ إذلالي وتُخْضِعُني
إنــي قَــوِيٌّ عَــتِــيٌّ ثــائــرٌ بِــرِمُ

هذه الفقرة الأخيرة ظلت محفورة في ذاكرتي... ولعلها تلخص كل حياة الخميسي . (عندما التقينا في آخر أيامه في موسكو وفيما يأخذني إلى حضنه سائلاً عن الأحوال في مصر السادات قلت له هل تذكر ما علمتني « إني قوي عتي ثائر برم » ، انفجر ضاحكاً لكني لمحت في عينيه دموعاً تريد أن تنطلق) .

وتمضي الحكاية... يعمل الخميسي مذيعاً في محطة الشرق الأدنى (إذاعة بريطانية كانت تبث برنامجها من يافا) استقر في يافا « كتبت آلافاً من القصائد والمسلسلات والاستكتشات ضد النازية ، وكنت أذيع وأمثل وأخرج . كل هذه الأشياء ضاعت لو جمعت مع بعضها لصارت هرماً » .

انتهت الحرب . هزمت النازية . لم يعد ثمة مبرر للعمل مع الإنجليز . عاد إلى القاهرة . لينفجر في عطاء فني لا حدود له . تألق فجأة كالشهاب . لكنه لم يختف كما تختفي الشهب سريعاً . بل واصل التألق... وعلى صفحات « المصري » أصبح الخميسي واحداً من أشهر الكتاب . بسببه قال الكثيرون : « المصري تبدأ قراءته من الصفحة الأخيرة التي احتلها الخميسي ليقدم فيها صياغته الجديدة الرائعة لألف ليلة وليلة » .

وبسببه انطلق توزيع « المصري » ليصعد إلى أرقام لم تعرفها الصحافة المصرية... وبسببه أُغْلِقَ المصري بعد ثورة يوليو .

... هذا المتمرد على كل شيء... « انضبط » (وهذا تعبيره) . أصبح

عضواً في منظمة شيوعية . يتلقى تعليمات ، ينفذ ، ومع تصادم حدتو مع ثورة يوليو ، تصادم هو أيضاً .

كان البعض قد تعرف على ملامح حدتو في كتاباته في المصري . وهو لم يحاول إخفاء الأمر كثيراً ، كانت الماركسية تفوح من شعره... وقصصه... وأعمدته السياسية .

شعراً كان يصرخ :

كنّا نَغْلِقُ بابَ البيتِ علينا
نصنعُ من أحلامِ فؤادينا
دنيا أخرى تتفتحُ كالوردِ
أمامَ الثورةِ في العالمْ
دنيا أخرى لا يأكلُ فيها
السلطانُ لحومَ رعاياهُ
أو يقتلُ عَسْكَرُهُ في
وهجِ الشمسِ رعاياهُ

ولا بد أن أشعاراً كهذه كانت تؤرق «عسكر» يوليو .

ثم مات ستالين . اهتز شيوعيو العالم . عن طريقه كتب «خالد محمد خالد» مقالاً لمجلة «الكفاح» السرية (التي كانت تصدرها حدتو) عنوانه «طبت حياً وميتاً يا رفيق» ، أما هو فقد كتب مقالاً في ذات العدد عنوانه «وقفة الخشوع يا رفاق» ووقعه باسمه السري «حنفي» لكن كل من تذوق أنغام كتابة الخميسي تذكر المذاق . كانت كتاباته مميزة كوخز الإبر توجعك قليلاً قليلاً ثم تخدرك ، ثم تمتعك كثيراً كثيراً (أيامها لم نكن نعرف بعد قيمة الإبر الصينية . الآن أتذكرها إذ أتذكر مذاق كتابة الخميسي) .

... ورويداً رويداً عرفوه .

وقبضوا عليه . في السجن استدعوه لمقابلة عبد الناصر . عاد من المقابلة لم يقل لأحد شيئاً .

بعدها وفي بغداد عندما التقينا هناك حكى لي : «بدأ عبد الناصر معاتباً : مبسوط كده أنت عملتها وقلبت الدنيا ضد الحركة... وتسببت في إغلاق المصري ، وفي حشد الناس ضدنا . سأله الخميسي : لماذا فصلتني من المصري ؟ أجاب عبد الناصر : مش أنا... السفارة الأمريكية هي اللي طلبت . حمل رسالة السفارة الصحفي يوسف صباغ . وألح الأمريكان . (ألح الخميسي وهو يحكي... أن عبد الناصر لم يكن خاضعاً للأمريكيين تماماً ، لكنها البرجماتية... لم لا يضحي بالخميسي ليُرضي الأمريكيين ولو برهة) .

في ختام المقابلة التي انتهت عاصفة قال عبد الناصر «إنت كنت عايز تقلب النظام . وصاح الخميسي : أنا كنت عايز أعدله» واعتبر عبد الناصر هذه العبارة هجوماً لا يغتفر . ضحك الخميسي وهو يختتم حكايته «هي جت كده . أحياناً كلمات ما تصطحب معها ردها بشكل طبيعي» . وسأله عبد الناصر : عايز أي خدمة . فأجاب في إباء «لا» .

«لا» هذه كانت توجعه تماماً فأطفاله الصغار كانوا بلا مورد... وأحياناً بلا طعام . لكن الخميسي كان كما كان دوماً «قويٌ عتيٌ ثائرٌ بِرِمٌ» .

وتنتهي فترة السجن... ويواصل النجم تألقه... ويتنوع العطاء المبهر... صحفي ، شاعر ، كاتب قصة ، كاتب سيناريو ، مؤلف موسيقي ، ممثل ، مخرج .

ويبدع في كل هذه المجالات... «لماذا كنت تكتب وتخرج وتضع موسيقى أفلامك ؟» .

«الفيلم كتاب... يحتاج إلى مؤلف واحد» .

ويصبح الخميسي فناناً متميزاً... يبدع أفلاماً عديدة وروايات وقصصاً وقصائد وموسيقى وكتابات سياسية كوخز الإبر .

ومع كامب ديفيد ينقطع الخيط الباقي بينه وبين الحكم... ولا يبقى أمامه سوى المنفى... بغداد ثم موسكو .

ويعلو صوته بأشعار صارخة :

سيناءُ كانتْ لنا أَمانا

فكيف أصبحتْ لنا الهوانا

وتوجعه الغربة... توحشه مصر فيكتب بدموعه قصائد ساخنة :

كسروا يراعي ولكني حفرت على

جدران مصر أناشيدي بأظفاري

وحيث هم صلبونا ، كلما بَزَغَتْ

شمسٌ رأى الناسُ فيها لونَ أشعاري

... وتراسله حكومة السادات... سفيرها في بغداد يدعوه للعودة سالماً شريطة... أن يصمت .

وإذ التقيته في بغداد يُحَمِّلُني رسالة يرد فيها على دعوة السادات... قصيدة رائعة سجّلها على الشريط بصوته الخشن الرائع... لم أزل أذكر منها قوله :

هذا الطريقُ عرفتُهُ وقَحَمْتُ فيه رماحَهُ

وصخورُهُ ذاقتْ دمي لكنْ عَشِقْتُ كفاحَهُ

ومن هناك يبعث بشريط مسجل بصوته الرائع ، طبعنا منه مئات النسخ وفيه يعلو صوت الخميسي بقصيدته الطويلة الرائعة «القاهرة... حبلى بالثورة» .

كنت أسير ذات مساء هادىء في شارع السعدون في بغداد ، أمشي

كي أمنح نفسي قدراً من هدوء بعد لقاء صاخب ومشحون بالاختلاف مع لجنة السلم والتضامن في العراق... فجأة توقفت سيارة وصاح منها صوت : «والنبي يا حاج سكة المحلة منين» دون أن ألتفت انفجرت ضاحكاً ، وهل ثمة من يخطىء صوت الخميسي... وهل ثمة من يمتلك هذا القدر من خفة الظل إلا هو .

وقضينا سهرة ممتعة... ما من مكان دخلنا،فيه إلا والتف حولنا الرواد والجرسونات والمارة يريدون من الخميسي قصيدة... وهو لا يبخل عليهم... وننتقل إلى مكان آخر بحثاً عن هدوء نتبادل فيه أخبار الوطن . لكن وجه الخميسي وصوته الذي أصبح مألوفاً في بغداد يجذب الناس من جديد .

وذات يوم كنت في بيروت في مكتب أبو إياد في حي الفكهاني... وفيما نسترسل في الحديث دخل أحد المساعدين وناول أبو إياد ورقة ، قرأها وناولها لي ضاحكاً : «شخص أصلع طويل القامة... نزل من سيارة سرفيس توقف أمام المنزل سأل الحرس... متعرفش يا ابني أبو عمار ساكن فين... تم التحفظ عليه» .

... إنه عبد الرحمن الخميسي لا أحد غيره يفعلها ، ولا يكون هو إن لم يفعلها .

أتوا به . انفجرنا ضاحكين... قال بصوته الجهوري لأبو إياد : «هي دي أحسن طريقة علشان أقابلك» .

والتقينا مرات عديدة في بيروت .

مرات عديدة أخرى في موسكو... لاحظت أن المرض يلاحقه ، أبديت مخاوفي... أكد أنه أكثر شباباً مني .

أخرج لي قصائد رائعة من شعره... لا أعرف أين هي الآن... ولا أعرف لماذا لا تجمع وتطبع .

كان ثمة شيء في عينيه... كأنه يقول إنه آخر لقاء... بقيت طويلاً ، أطول مما يجب ، وتمسك بي هو طويلاً... أطول كثيراً من كل مرة . حكى أشياء رائعة ، استعدنا كل الذكريات... «خالي عندكم ؟»... أحاديث الزنزانة .

سألني عن الأولاد... عن التجمع... عن كل شيء . صرخت في وجهه يا قديس (هكذا كانوا ينادونه) أرجو أن أسمعها منك الآن... أنت تعرف ما أريد أن أسمع... قال : قلها أنت ، فقلت وقال معي بصوت واهن ، صوت غير صوته .

«إني قَوِيٌّ عَتِيٌّ ثائرٌ بَرِمُ» .

... واحتضنته... قبلته عشرات القبلات وفيما أنزل السلم قال هل تذكر :

لأني أعشق إنسان الكرة

الأرضية ، أختلف مع العالم

توقفت وقلت أذكرها... قال : تمسك بها . هذه وصيتي لك .

...وفيما أنزل درجة أخرى تلفت... كان يتكلم لم يزل قال سأبعث إليك برسالة... قريباً...

... ولم تمض أسابيع حتى دق التليفون من موسكو فايز عقل (كان هناك للعلاج) يقول : البقية في حياتك عبد الرحمن الخميسي توفي . وصيته أن تتولى أنت إعداد مقبرة له بالمنصورة .

... وكان له ما أراد .

لكنه أبداً لم ينل ما يستحق .

التجمع ...
بداية البدايات

كان للأمر إرهاصاته التي لم نتقن عملية تفهمها ولا حتى رصدها .

... ورقة أكتوبر ، وقد انهمك الكثيرون في إعدادها وكان لطفي الخولي واحداً ممن أسهموا وبشكل بارز في الإعداد لها . وعقدت سلسلة اجتماعات لست أدري إن كانت أساسية أم فرعية ، أذكر ممن أسهموا فيها بدعوة من لطفي الخولي ، خالد محيي الدين ، د . إبراهيم سعد الدين ، سعيد خيال وأنا .

وأذكر جيداً أن التصريح كان بلا مواربة وبلا اكتفاء بالتلميح... أن الرئيس يعرف ، ويعلم ، ويتابع ، وينتظر .

وطرح خالد محيي الدين فكرة بدت غريبة بالنسبة لنا جميعاً وهي : تكوين «أندية» في إطار الاتحاد الاشتراكي تتميز بمواقف فكرية متفاوتة لكنها تتلاقى تحت مظلة الاتحاد الاشتراكي الواحدة .

وعزز خالد محيي الدين فكرته بنماذج من أجنحة أو أندية في إطار حزب العمال البريطاني .

وأذكر أنني التقيت ذات مرة مع محمود توفيق الذي قال وكأنه يردد سراً غير كامل السرية إن النية تتجه إلى السماح بتكوين أحزاب ، وإن ثمة

مكاناً محفوظاً لليسار في إطار هذه التعددية . وأفصح أن المصدر هو عبد الرحمن الشرقاوي الوثيق الصلة آنذاك بالرئيس السادات .

ثم وبعد فترة تحول التلميح إلى تساؤل... وقبل أن تكتمل ملامح السؤال كانت الإجابة جاهزة .

فقد عقدت جلسات استماع للإجابة عن سؤال عن أهمية التعددية وشكلها ، وتسارع بعض الناصريين إلى الإلحاح بأسلوب خطابي على رفض التعددية ، والتمسك بصيغة الحزب الواحد... الذي ـ ويا للدهشة ـ كان قد تحول تماماً ليصبح ضدهم وضد منطلقاتهم .

لكن هذا البعض أعتقد أن رفض التعددية هو مسألة مبدأ .

وقبل أن يكتمل الاستماع أو الحديث ، تم الإعلان عن فكرة المنابر (ذات فكرة الأندية) في إطار الاتحاد الاشتراكي .

وبعد مرحلة قصيرة تكاثر فيها المطالبون بتأسيس منابر ، صدر التحديد ، المنابر ثلاثة . وجرى عبر مقابلات مباشرة مع الرئيس تحديد المكلفين بتشكيل هذه المنابر : الوسط (محمود أبو وافية) ، اليسار (خالد محيي الدين) ، اليمين (مصطفى كامل مراد) ، واشترط أن يوقع لكل منبر عشرة أعضاء من مجلس الأمة أو اللجنة المركزية... وأن يوافق اجتماع مشترك من اللجنة المركزية للاتحاد الاشتراكي ومجلس الأمة على برنامج المنبر ولائحته .

كما حددت عدة ضوابط سياسية يتعين أن يتقبلها كل منبر .

ولم يكن الأمر سهلاً...

فمنذ اللحظة الأولى قفزت صيحات متطرفة تستنكر فكرة العمل في إطار حزب السلطة (الاتحاد الاشتراكي) ، وأخرى تستنكر القبول بشروط برنامجية ، لكن التيار الأكثر تعقلاً في اليسار قَبلَ بالفكرة ليس باعتبارها

منحة ، وإنما كمعركة ، نصحح مسارها وأدواتها وتوازناتها عبر الممارسة .

وحيث تراكمت صيحات اليساريين المتطرفين (العمال الشيوعي و٨ يناير) في سلة الرفض للفكرة ، تمحورت مجموعة أخرى حول عبد الرحمن الشرقاوي أسميت بمجموعة روز اليوسف : (صلاح حافظ ـ حسن فؤاد ـ أحمد حمروش) ومعهم سعد كامل ومحمود توفيق .

ولم تكن هذه المجموعة راضية عن تولي خالد محيي الدين رئاسة المنبر ، كما لم تكن راضية عن التوجه الذي بدأ في التبلور عبر المشاورات الأولى ، والذي تمثل في أن المنبر مفتوح لكل القوى اليسارية والتقدمية ، أي هذا التوجه الذي عبر عن نفسه بعد أن نضج في فكرة المنبر المتعدد التيارات . والغريب أن هذه المجموعة وهي ذات ميل سياسي معتدل للغاية وبعيد تماماً عن التشدد كانت ترى ضرورة أن يقتصر تشكيل منبر اليسار على العناصر الماركسية (ربما لأن ذلك يفسح مكاناً للجميع في القيادة ، بينما المنبر المتعدد التيارات يفرض على الماركسيين أن يمثلوا بعدد محدود جداً في القيادة) .

لكن مسيرة تأسيس المنبر تواصلت .

وعقدت الجلسة الأولى للتشاور في بيت حسين فهمي ، وحضرها ـ فيما أذكر ـ خالد محيي الدين ـ حسين فهمي ـ د . فؤاد مرسي ـ د . إسماعيل صبري ـ د . إبراهيم سعد الدين ـ لطفي الخولي ـ أبو سيف يوسف وأنا .

وفي هذا الاجتماع طرحت فكرة المنبر المتعدد التيارات ، ولقيت قبولاً من الجميع وتوالت الاجتماعات بعضها في بيت د . فؤاد مرسي والأغلب في بيت حسين فهمي ، واتسعت دائرة الاتصالات ، وأبلغنا د . إسماعيل صبري مبتهجاً بأن د . يحيى الجمل (قومي عربي) قد وافق على الانضمام إلينا ،

وقد أشار بدوره بالاتصال بالدكتور محمد أحمد خلف الله الذي رحب هو أيضاً بالفكرة وقَبَل الانضمام إلى المنبر ، وقام خالد محيي الدين وأنا بزيارة لكمال رفعت ولطفي واكد في دار النشر الخاصة بهما ، وكان لطفي واكد متحمساً وكذلك كمال رفعت ، لكن كمال رفعت كان يراهن على التأني حتى يجمع العناصر الناصرية الشابة التي كانت تكثر من الصياح والحركة بأمل أن يصبغ المنبر بصبغة ناصرية . والصبغة الناصرية تعني عندهم أن يكون رئيسه ناصرياً .

وفيما أنهمك البعض في إعداد مشروع البرنامج ومشروع اللائحة ، كان البعض (خالد محيي الدين وأنا) يبذل جهداً مضنياً في استيفاء شرط التوقيعات العشرة من أعضاء مجلس الأمة أو اللجنة المركزية .

وفي البدء كان هناك أربعة توقيعات : خالد محيي الدين ـ د . فؤاد مرسي ـ أبو سيف يوسف ـ لطفي الخولي .

اتصلت بزكي مراد الذي سافر بالطائرة إلى أسوان ليعود بتوقيعين : عبد الهادي يعقوب وعبد الستار ميرغني ، (إحدهما عضو مجلس أمة ، والثاني عضو لجنة مركزية) .

ويبقى أربعة .

وبدأت مساومات مريرة ومضنية مع مجموعة من الشبان الناصريين كان يمثلهم في التفاوض كمال أحمد وعدد آخر من الشباب الأصغر سناً كانوا يبالغون في قوتهم ، وكنا نعلم أن لديهم توقيعين فقط . لكننا بحاجة إلى هذين التوقيعين .

كانت ساقية المناقشات تدور بلا توقف ، وتحولت إلى صداع مرهق ، الكلام السياسي كثير لكنه في نهاية الأمر ينحصر في أن كمال أحمد يشترط أن يكون هو رئيساً للمنبر... بزعم أن الشارع السياسي لن يقبل زعيماً

لليسار غير ناصري . (كان يكرر بلا ملل ولا تردد الشارع يريد ناصرياً ولو كان لوحاً من خشب) .

كان قادة الناصريين المعتمدين في السجن . وكان كمال رفعت يحاول جهد طاقته أن يحتوي هؤلاء الشبان دون جدوى ، بل إن كمال أحمد كان يحرضهم ضده خوفاً من أن يكون كمال رفعت هو المتحدث باسم الناصريين ، وبدأ هؤلاء الشبان في ترويج فكرة أن كمال رفعت اختلف مع عبد الناصر ، ومن ثم فهو ليس ناصرياً .

... وعندما استطالت الاجتماعات إلى مالا نهاية ، واستطالت الخطب إلى حد الملل اكتشفنا أن هؤلاء الشبان يحاولون استدراجنا إلى حافة اليوم المحدد للاجتماع المشترك الذي سيعلن إقرار برامج المنابر ، معتقدين أننا إن وصلنا إلى الحافة وأصبح الخيار ما بين منبر بزعامة كمال أحمد أو لا منبر على الإطلاق ، فإننا سنرضخ لزعامة كمال أحمد .

ولهذا قررنا أن نواصل اتصالاتنا لتجميع بقية التوقيعات سراً وأن نمد لهم حبال المناقشة لعلهم يقتنعون .

وبالفعل وفيما كان النقاش ممتداً معهم ليستعيد ذات الكلمات وذات الحجج كنت في غرفة أخرى مجتمعاً مع ثلاثة هبطوا علينا من السماء عاملان وفلاح كانوا قد حاولوا تأسيس منبر عندما فتح الباب على مصراعيه ، فلما أغلق أتوا إلينا .

(محمد عبد السميع ـ علي طلخان ـ محمود عيد) والثلاثة أعضاء في اللجنة المركزية . رحبنا بهم ، وقد حاول محمد عبد السميع في البداية أن يبدو مهتماً بمشروع البرنامج مطالباً بإضافات متعلقة بالشريعة ، وقد سويت معه الأمر بسهولة ، وبعد مناقشات هامشية وقّع الثلاثة وأصبح الموقعون تسعة .

وبَقِيَ واحد .

وخيل إليَّ أن الأمر قد وجد حلاً سعيداً فهناك أحمد طه (عضو مجلس الأمة) ولا بد أنه سيوقع .

وببساطة اتصلت به تليفونياً لكن إجابته كانت غير مشجعة ، أطال في الحديث ، وتحدث عن شكل المنبر وتكوينه . وأخيراً وعندما علم أن لدينا تسعة توقيعات ، وعد بأنه إذا توقف الأمر عليه فإنه سيوقع .

متى ؟

أجاب : في الاجتماع المشترك .

ولم يكن بالإمكان المغامرة في أمر كهذا أن تذهب إلى الاجتماع بتسعة توقيعات بأمل أن يوقع لك العاشر في الاجتماع ذاته . فماذا لو حضر متأخراً ، أو لم يحضر أصلاً ، أو استجد ما جعله يتحفظ ؟

وقررنا أن نبحث عن توقيع عاشر .

كل ذلك والنقاش ممتد ، ساخن ، وطويل ، وممل مع مجموعة الشباب الناصري ، وكلما اقترب الوقت تصوروا أننا سنركع أمامهم ونقبل ما يشترطون . ومن ثم كانوا يزدادون تشدداً .

وتذكرت قباري عبد الله (عضو مجلس الأمة) . وأسرعت إلى عبد المنعم القصاص الذي كان على علاقة حميمة به وأتى قباري ، كنت أراه لأول مرة ، كان بسيطاً وسمحاً وصريحاً . قال إنه يريد أن يستشير البعض .

واستعار سيارة ليسرع إلى الزيتون ، لم يكن هناك وقتٌ كافٍ ، فقط بضع ساعات على الاجتماع المشترك ، وأسرع إلى الزيتون ليستشير صديقاً له هو : محمد عباس فهمي . وأشار صديقه بألا يوقع .

ورجع الرجل مهموماً .

لكن الأمر لم يحتج إلى طويل نقاش معه .

فقط قلت له بوضوح إن توقيعه ضروري كي يقوم منبر علني لليسار .

وساعتها قَبلَ أن يوقّع راضياً .

اكتملت التوقيعات العشرة .

دخلت إلى ذات الغرفة التي شهدت المباحثات المطولة مع الناصريين . كان خالد محيي الدين يبدو منهكاً من فرط ما صبر واحتمل . مررت إليه ورقة صغيرة «قباري وقّع واكتملت التوقيعات العشرة» عاد الصفاء إلى ابتسامته وتفاهمت أعيننا أن نواصل النقاش .

لكن أسلوبنا في النقاش اختلف قليلاً ، نحن الآن لسنا بحاجة إلى أن نخضع لشروط غير مقبولة . وفيما النقاش ممتد ، خرج كمال إحمد... واستدعتني السكرتيرة لأمر مهم... وكان الأمر المهم أن كمال أحمد يريد أن يتحدث معي منفرداً ، وسرنا معاً عبر الردهة الطويلة في الدور التاسع من مبنى الاتحاد الاشتراكي (حيث مقر المجلس المصري للسلام وحيث أجرينا أغلب مباحثاتنا واتصالاتنا) ، اتخذ حديث كمال أحمد مذاقاً خاصاً ، وعبر التفافه طويلة ، ومبهمة في أغلب الأحوال ، حاول أن يفهمني أنه ليس ناصرياً بالمعنى المفهوم ، لكنه يميل إلى الماركسية ، وأنه على علاقة خاصة جداً ببعض الماركسيين في الإسكندرية . ولعله قد تصور أنه بذلك يمكنه أن ينال مني ما يريد .

ولم أنطق . استمعت فقط دون تعليق .

وكانت الساعات الباقية على الاجتماع المشترك قد تآكلت ، ولم يتبق سوى بضع دقائق تكفي كي يهبط خالد محيي الدين بالأسانسير ليصل إلى حيث ينعقد الاجتماع المشترك في المبنى ذاته .

وفي أكثر من اتجاه
يأتي التصادم مبكراً

كان عبد الرحمن الشرقاوي ـ كما قلت ـ هو المصدر الأول للنبوءة . ستكون هناك أحزاب . وسيكون لليسار حزب . ولعل من أبلغه قد منحه مساحة من أمل في أن يتولى زمام الأمر اليساري ، أو في الأقل بعضاً منه . لكن بروز اسم خالد محيي الدين أطفأ مصابيح أخرى كثيرة .

وبعد مقابلة مع السادات... تولى خالد مسؤولية تأسيس منبر اليسار .

وأثار ذلك حساسيات عديدة خاصة لدى الشرقاوي الذي ـ فيما يبدو ـ كان قد رتب حساباته ، وحسابات العديد من أصدقائه على شيء آخر .

وفيما كنا منهمكين في توسيع مظلة منبر اليسار لتضم قوى أخرى غير ماركسية... كانت هناك حسابات أخرى .

وهكذا ومنذ اليوم الأول برزت مشكلة إتخذت لنفسها إسماً كودياً... «مجموعة روز اليوسف» . الشرقاوي ـ صلاح حافظ ـ حسن فؤاد ـ أحمد حمروش ، ومعهم محمود توفيق (الذي كان أول من نقل النبوءة إليَّ نقلاً عن الشرقاوي)... اتخذوا لأنفسهم هذا الإسم الكودي ، الذي كان يرى خطأ وخطر توسيع مظلة المنبر ، ويرى أفضلية أن يظل المنبر ماركسياً بالأساس .

وفيما العجلة تدور بأقصى سرعتها لتلاحق عملية إعلان المنبر ، وعقد

هيئته التأسيسية ، كان من الضروري وضع ضوابط ـ ولو متراخية ـ لتحديد من يلتحق بركب أول هيئة تأسيسية لأول تجمع يساري علني منذ العشرينيات . والضوابط : «سياسية (تمثيل تيارات فكرية وسياسية مختلفة : ناصريين ، ماركسيين ، قوميين ، مفكرين إسلاميين ومسيحيين مستنيرين) ، جغرافية (ممثلين للمحافظات المختلفة) ، مهنية (قيادات منتخبة للنقابات العمالية والمهنية) ، بالإضافة إلى العشرة الذين وقّعوا لإشهار المنبر (أعضاء مجلس الأمة واللجنة المركزية) .

وبرغم موضوعية هذه الضوابط ، وربما بسبب هذه الموضوعية فقد ثار غبار كثير ، وكثيف أمام موكب المنبر اليساري الوليد .

« مجموعة روز اليوسف »كان من الضروري تحجيم تمثيلها ليس فقط لإعطاء مساحة للآخرين ، وإنما أيضاً من أجل الحفاظ على توازن مطلوب ومفترض كي لا يخاف الآخرون إذ يتصورون أننا نستدرجهم إلى مصيدة ماركسية ، أو نتخذ منهم ديكوراً لها .

وكثيرون ، كثيرون من القيادات الماركسية القديمة التي سكبت مساحات واسعة من عمرها في ساحات التضحية والسجن والعذاب والتعذيب قالت بحقها في موقع قيادي . ولعلنا إذا ما أعملنا المشاعر وحدها نقرّ لها بالحق والأحقية أكثر من غيرها . لكن الحسابات السياسية جافة ولا تتقن فن التعامل مع المشاعر . فهي دوماً حسابات ذات قلب بارد وربما جامد .

وهكذا إنعقدت الهيئة التأسيسية (عقدت في قاعة الشعب بمبنى الاتحاد الاشتراكي) في ظل دهشة غاضبة ، أو غضب مندهش ، مثلث الأضلاع... « مجموعة روز اليوسف » و« الماركسيون القدامى » (فقد كان التمثيل لكل من المجموعتين أقل من المأمول فيه أو حتى أقل من المفترض) أما ضلع الغضب المندهش الأخير فهو الحكم ، الذي خطط لشيء غير هذا .

كان تصور السادات لمنبر اليسار كما نقل البعض إلينا فيما بعد يفترض مجموعة من الماركسيين القريبين منه ، الذين يمكن تطويعهم إن لزم الأمر ، أو إخافتهم إن لزم الأمر كذلك ، بسيف القانون المتمرس والمتمترس بمواد عديدة تحرم قيام تنظيم ماركسي ، ومن ثم يكون : يساراً ماركسي التكوين ، غير ماركسي المظهر . ومن ثغرة المفارقة بين حقيقة التكوين وصورة المظهر يمكن لعصا التأديب والتهذيب أن تُشْهَرَ إنْ لَزِمَ الأمرُ . كما يمكن عزل «اليسار» عن جمهوره المفترض .

لقد تبدى الغضب المندهش للضلع الثالث عندما دعا الأمين العام للاتحاد الاشتراكي د . رفعت المحجوب ـ لحضور اجتماع الهيئة التأسيسية... فوجد د . محمد أحمد خلف الله ، د . يحيى الجمل ، أحمد الخواجة (نقيب المحامين) ، محمد إدريس (رئيس الاتحاد التعاوني الزراعي) ، الشيخ زين السماك... وكثيرين غيرهم... لم أزل أذكر العبارة التي أفلتت منه (ربما دون حرص) إذ قال : «إحنا ما اتفقناش على كده»... ولم أعرف لا ساعتها ولا الآن... مع من اتفق ، ولا على ماذا ؟

وفيما كان الغضب يشحن القاعة بأشخاص ورموز حضروا دون دعوة متصورين أنهم أصحاب المكان ، وأن وجودهم حتمي في أية قيادة يسارية ، تفاقمت شحنات التوتر عندما بدأ تمرير ورقة تحتوي إقتراحاً بأسماء «السكرتارية العامة» للمنبر ليجري طرحها على المجتمعين .

كثيرون غضبوا إذ لم يجدوا اسمهم أو اسم من يتوقعون . والتوازن هنا حساس جداً ، وكان من المتعين قياسه بمشرط الجراح حتى لا تنفتح جراح تفجر الأمر كله .

وكثيرون توجسوا إذ وجدوا أسماء ماركسية فاقعة... وربما أكثر من اللازم .

كان د . فؤاد مرسي غاضباً في صمت فاسمه غير موجود ، وربما كان مصدر غضبه ليس فقط باعتبار ما كان له من دور بارز وفاعل في ماضي اليسار ، وإنما باعتبار أنه واحد من مخططي الخطوط الأساسية لفكرة المنبر ومنفذيها .

كان د . اسماعيل صبري يلعب دوراً مهماً في الاختبارات والمساومات التي دارت أثناء إنعقاد الهيئة التأسيسية باعتبار أنه صاحب فكرة ضم د . يحيى الجمل ، وأن د . يحيى هو صاحب فكرة إكتساب د . خلف الله ، وقد أبدى د . يحيى ملاحظة على وجود اسمي باعتباره «فاقعاً» أكثر من اللازم ، ولعله ـ ربما ـ كان صاحب فكرة استبعاد اسم فؤاد مرسي لذات السبب .

تحرك د . إسماعيل أكثر من مرة بين د . يحيى وبين خالد محيي الدين وبيني . أنا لم أبد دهشة للرغبة في استبعاد اسمي ، وإنما صممت على إضافة د . فؤاد مرسي ، لكن المعترضين وجدوا أن وجودي أخف وطأة من وجود فؤاد مرسي

وفي ركن آخر كان الشرقاوي غاضباً وكذلك أحمد حمروش وكذلك رموز عديدة أخرى ماركسية بالأساس ، ولم يكن هناك من سبيل لإرضاء أحد... فقد لوح «الآخرون» أن الجرعة الماركسية تكفي وتزيد رغم أنها كانت ضئيلة جداً... أو هكذا خيل لي .

وعندما أفضيت بملاحظتي لخالد محيي الدين قال ببساطة حكيمة : «دعنا نبدأ ، والزمن سيصحح كل شيء» . وقد كان ، وبعد وقت قصير جداً ، أقصر مما تصور الجميع .

لكن مشكلة عبد الرحمن الشرقاوي ظلت عالقة معه ومع أصدقائه ، وهم أيضاً أصدقاء أعزاء لنا ، دونما حل . ولعلها ارتبطت بتداعيات غير محببة .

* * *

تم الاتفاق ـ أخيراً ـ وبعد جهد جهيد على قائمة السكرتارية العامة . وتفرغت لتأمل القاعة . مع هؤلاء سأقضي ما تبقى من عمر . تأملت الوجوه . تعرفت عليها جميعاً خلال مرحلة التحضير . لكن الفارق كبير بين أن ترى المحتوى قطرة قطرة ، وبين أن تراه نهراً متكامل الانسياب .

الوجوه في أغلبها جديدة ، محمد خليل (الذي ظل خالد محيي الدين يلح على تقديمه في كل مجال على أنه ممثل للشباب الناصري) حسين عبد الرازق (الذي كان محسوباً أنذاك على التوجه القومي) محمود المراغي ، رمزي فهيم ، الشيخ مصطفى عاصي ، رأفت سيف ، عبد الحليم الأعصر ، فتحي محمود ، علي طلخان ، وشاب مشاغب مندفع أتى ومعه صحبة كثيرة من أبناء بلدته (نجع المعنى وما جاورها من تخوم قنا) مصطفى بكري ، ثم صف طويل من وجوه سمراء... إلى درجة أن د . رفعت المحجوب فزعَ إذ رآهم مصطفين في الصف الأول ومال عليَّ قائلاً : «ممنوع أن ينضم غير المصريين» ، قلت : أعرف . قال : وهؤلاء ؟ قلت : هم أهل النوبة . وهز رأسه مندهشاً ، فقد تصورهم سودانيين .

الأسماء كثيرة أكثر من أن تُحصى : نقابيون ، شباب ، نساء ، وفد مهيب من الدقهلية ، وآخر من الإسكندرية ، تقريباً كل محافظات القطر ممثلة .

المنظر مهيب ، يبعث على الرهبة . وتسارعت دقات قلبي بأسرع مما أحتمل . أية لحظة هذه! عندما يتوج اليسار مساراً طويلاً ممتداً عبر سنوات عدة ، ومسارات متنوعة بهذا الاجتماع .

فتحت عينيَ حتى آخرهما ، على أقصى اتساع ممكن لعلي أحتفظ في ذاكرتي بهذه الصورة التاريخية المبهرة ، التي تمثل منعطفاً مهماً في تاريخ اليسار المصري .

ومضى الاجتماع هادئاً... وانتخبت السكرتارية العامة لمنبر اليسار .

* * *

وبدأ دوران ماكينة العمل .

إنه شيء جديد تماماً . والآلية بسيطة ومعقدة في آن واحد . اتخذنا من الدور التاسع في مقر الأمانة العامة للاتحاد الاشتراكي مقراً . كنا نقيم فيه خالد محيي الدين وآنا باعتبارنا المجلس المصري للسلام ، وبقينا كما نحن فقط تغيرت اللافتة ، واتسعت المساحة .

وأصبحت لنا قنوات عبر أجهزة الاتحاد الاشتراكي لطباعة البيانات وللاتصال بلجان المحافظات التي قبع كل منها في مبنى الاتحاد الاشتراكي هناك... حيثما وجدنا ، وحيثما وجد .

وبعد أن إنفض «السامر» وانتهى الاجتماع الأول للسكرتارية العامة ، تسرب الجميع إلى أعمالهم وانشغالهم بشأنهم الشخصي ، ووجدت المكان خاوياً من الضجيج المفترض . لكن البعض بقى... ليمارس معنا جهداً يومياً... حسين عبد الرازق (لجنة القاهرة)... ومحمد خليل (لجنة الجيزة)... وعبد العظيم المغربي... وآخرون .

كنا ـ وبصراحة ـ في حيرة من أمرنا ـ فقد كنا ننسج شيئاً جديداً تماماً على مفاهيم وممارسات وخبرات كل منا .

كيف نعمل ؟ ماذا نفعل ؟ كيف نصوغ أفكاراً وكلمات تُرضي الماركسيين والبعثيين والقوميين والمستقلين والمتربصين والمتشككين والمتشددين ، والمتهيبين ، ولا نغضب أحداً .

(ذات يوم ألهمني الشيخ زين السماك حكمة حكيمة ، إذ قال : هنا ليس مطلوباً أن تكتب ما يتفق عليه الجميع ، وإنما مالا يرفضه الجميع ،

فثمة مساحة بين ما تقبله وبين ما لا ترفضه . ولنكن نحن في هذه المساحة) ولعل التجمع سار ولم يزل على هذا النهج .

وأدار خالد محيي الدين بفطنة حكيمة الاجتماعات المتسارعة للسكرتارية العامة (لعله كان يعرف أنه يضع تقاليد سوف تحافظ على تجمع اليسار وتحتفظ به بعيداً عن أي انشقاقات)... رفض أن نسرع نحو التصويت... لنحسم بالأغلبية أي أمر ، آثر المناقشة الصبورة الممتدة في صبرها إلى حد القدرة على التوافق .

«التوافق» هذا التعبير المدهش... إنه غير «الاتفاق» . إنه تعبير عن حكمة حزبية لا تعتبر أن أصحاب الرأي الآخر أسرى حرب يتعين عليهم الخضوع كلية للأغلبية . حكمة حكيمة تعتمد على أن «موزاييك» من رأيين أو أكثر لن يكون فقط أكثر إرضاءً لكل الأطراف وإنما قد يكون أكثر صحة .

ولعله آن لي أن أعترف أن البدايات الأولى لمنبر اليسار كانت مربكة ومرهقة بالنسبة لي ، ولعلها كانت شيقة أيضاً .

إنه شيء جديد تماماً . ليس بالنسبة لي وحدي ، وإنما بالنسبة للجميع . شيء ننسجه معاً خيطاً خيطاً ، لنقدم صيغة جديدة تماماً ، لم يعرفها العمل الحزبي من قبل .

كنا من مدارس حزبية وتنظيمية مختلفة... بالتحديد ثلاثاً .

المنظمات الشيوعية على تعددها . الاتحاد الاشتراكي (والتنظيم الطليعي)... ومنظمة الشباب .

ودون أي تصادم حاول الجميع أن يجمعوا من قطع السيراميك المتنوعة هذه لوحة جديدة .

لعلها كانت أكثر إشراقاً... أو هذا ما أعتقد .

* * *

ومع الحكم يأتي التصادم سريعاً .

كان الاجتماع المشترك لمجلس الأمة واللجنة المركزية للاتحاد الاشتراكي قد أقر سريعاً ودون أي تأمل ، أو حتى أية قدرة عليه ، برنامج منبر اليسار .

لكن... موسى صبري (أشهر كتاب النظام آنذاك) أعاد قراءة البرنامج قراءة متأنية ، والتقط منه عبارة واحدة ألهب بها مناخ التعددية الوليد... كانت عبارة تتحدث عن كفالة حق الإضراب للعمال . وبهذه العبارة فجّر موسى صبري على الصفحة الأولى للأخبار قنبلة مدوية الضجيج .

تحدث طويلاً عن الأثر المخرب للإضراب في إقتصاد يوشك على أن ينفتح . واتهمنا بأنا لم نتخل بعد عن نياتنا «الهدامة» . وتراكمت كرة الثلج لتصبح أول تصادم بين «التعددية» والنظام .

وطلب السادات صراحة من خالد محيي الدين أن تشطب هذه العبارة من البرنامج . ولأن المسألة مسألة مبدأ ، ولأننا تصورنا (وربما كنا على حق) أن السادات يريد أن يتعرف على حقيقة قدرته على تطويعنا... فقد رفضنا .

إستطال إجتماع السكرتارية العامة حتى ساعة متأخرة جداً من المساء .

الآن تبدأ حقيقة «الموزاييك» الذي جازفنا بتشكيله في لوحة اليسار . البعض متمسك ، والبعض غير مهتم ، وربما غير مدرك لحقيقة المشكلة . البعض متماسك ، والبعض يخشى من الصدام . هو لم يعتد على الصدام ، ولعله أتى إلى منبر اليسار بحسن نية متصوراً أننا مجرد اليد اليسرى لنظام ننتظم جميعاً في الولاء له ، أو في التعلق بأهدابه . والبعض يشفق من تصادم مبكر قد يفسد تجربة لم تستقر بعد .

تأملت الاجتماع والمجتمعين ، الكلام والمتكلمين . وساعتها فقط أدركت أية صعوبة تنتظرني خلال مسيرتي المقبلة في هذا الخضم .

وانتهى الاجتماع ـ على أية حال ـ بضرورة التمسك بحق الإضراب . ولعل ما عزز هذا الرأي أن السكرتارية العامة كانت تضم عدداً من النقابيين البارزين (فتحي محمود ـ عبد الصبور عبد المنعم ـ نيازي عبد العزيز... الخ) وكانوا جميعاً من غير الماركسيين ، وقد تحمسوا فتمسكوا بحق الإضراب .

وبدأت سحب كثيرة في التراكم . جريدة الأخبار واصلت هجماتها المحمومة على «منبر اليسار» ، وبدأ موسى صبري في العزف على نغمة موجهة محذراً من سيطرة «الشيوعيين» على المنبر... واتخذ من إسمي نموذجاً لهذه السيطرة ، وقد أزعج ذلك عدداً من أعضاء السكرتارية العامة وغيرهم... فبدأوا في إنماء قدر من الحساسية ، احتجنا إلى كمية كبيرة من الحكمة للتعامل معها... وإزالة آثارها .

ولم نكد نتنفس من آثار هذا التصادم المزعج ، والذي اتخذ شكل حملة إعلامية ضارية ومكثفة شنها موسى صبري (كاتب النظام المفضل) ضد المنبر... حتى تصادمنا تصادماً جديداً ، أو أكثر حدة .

كان لطفي الخولي قد اقترح تشكيل لجنة للقيادة اليومية (فالسكرتارية كانت تجتمع كل أسبوعين) واقترح لها اسماً «لجنة المتابعة» . واتفقنا على ذلك .

وإذ وقعت أحداث مثقلة بالصعوبة في لبنان ، أعد لطفي الخولي مشروع بيان وافقنا عليه على عجل . طُبع على عجل (على ماكينات الطبع في الاتحاد الاشتراكي) ووزع على عجل .

ولكن سبابة انتصبت لتحذر الأمين العام الجديد للاتحاد الاشتراكي د . مصطفى خليل . فثمة عبارة تدعو المصريين للتطوع دفاعاً عن الشعب

اللبناني . واعتبرت هذه العبارة دعوة خطرة «لتكوين ميليشيات مسلحة تابعة للحزب» .

وأتت رسالة غاضبة من «الأمين العام» تطلب من التجمع سحب هذه العبارة... والكف عن مثل هذه التوجهات .

قررت لجنة المتابعة توجيه رد إلى «الأمين العام» . أيضاً كتب محمود المراغي الرد على عجل ، وقرأه علينا على عجل ، ووافقنا عليه على عجل .

(ألم أقل أننا كنا نحبو في طريق صعب لم نتعلم بعد محاذيره ومخاطره) ؟

وتفجرت أزمة عنيفة بسبب الرد .

الخطاب كان يوجه إلى الأمين العام عبارة تقول : «إننا نلفت نظركم إلى... » ولعل العبارة عادية إذا ما أخذت بحسن نية .

لكن خصوماً عديدين كانوا يتربصون بكل همسة ولفتة تأتي من جانبنا .

أحدهم قال للأمين العام : إن «لفت النظر» عقوبة فكيف يتعامل معك منبر اليسار بهذا الأسلوب .

وصرخ د . مصطفى خليل في وجوهنا طالباً اعتذاراً مكتوباً .

ومن جديد توتر الجو المتوتر بطبعه في الطابق التاسع .

وبدأ البعض من «حسني النية» الذين تصوروا أننا يد السادات اليسرى يتحسسون رقابهم ، ويعبرون عن خوف لعله مشروع ، ويحذروننا من أننا نتجاوز الحدود التي تصوروها لعمل المنبر .

ووجدنا أنفسنا بين فكي كسارة البندق .

فمن جانب ، هناك الموقف المبدئي الذي كنا نعتبره معياراً للتفريق بيننا كيسار ـ وبين الآخرين . وهناك كذلك ضغوط اليسار خارج التجمع ، سواء هذه التجمعات الشابة التي تسارعت بالنمو المؤقت لتعود للاندثار

سريعاً ، أو هؤلاء الذين تطلعوا إلى موقع في القيادة (لعلهم يستحقونه وأكثر منه بحكم التاريخ) ولم يحصلوا عليه ، فتراكمت ملاحظاتهم على مسلك هؤلاء «الأولاد» الذين اغتصبوا صفة التحدث باسم اليسار دون أن يستحقوا القدرة على حديث صائب ، ويساري حقاً . ومن جانب آخر هناك زملاء الدرب الجدد الذين يحرصون ونحرص مثلهم وربما أكثر على ألا نورطهم في مواقف لم يستعدوا لها... ولم يعتقدوا بإمكان إنحيازهم لها ، عندما انحازوا إلى منبر اليسار .

ومن ثقب الإبرة نجحنا في صبر صبور على إفلات موقف متوازن إلى حد ما .

وأمكن تسوية الأمر مع د . مصطفى حليل (وأشهد أنه رغم غضبه تصرف بحكمة وإنصاف) .

لكننا وبعد هذين الدرسين تعلمنا كيف ندقق في المواقف ، وندقق في الكلمات ، وفي الإنصات لها... والموافقة عليها .

وتوالت دروس عديدة لتنبت من خلالها زهوراً لم نكن لنحلم بها... تتسم بما يمكن أن نسميه... الحكمة التجمعية .

تلك الحكمة التي استطاعت أن تتوازن بنا في خضم عواصف تعصف بأية قدرة على التوازن .

وكانت لنا زاداً في أيام مقبلة كانت أكثر صعوبة... وأكثر توتراً .

ينايـر الملتهب

وإذا ما كانت الأيام الينايرية هي أكثر الأيام برودة ، فقد اختار لها المصريون أن تكون أحياناً إكثر أيام التاريخ المصري سخونة .

ويتكرر الاختيار ـ دون تفسير واضح ـ يناير ١٩٥٢... يناير ٧٥ ، ثم يناير ١٩٧٧ .

وإذ تلتهب محبوبتك غضباً فهل من سبيل سوى أن تقترب قدر إستطاعتك من نبضها ، كي تخفف عنها ، أو تحاول أن تنطق باسمها... أو أن ترفع صوتها ، أو أن تمد يدك دفاعاً عنها ؟

وفي ١٨ يناير ١٩٧٧ تفجرت مصر بغليان غير مسبوق ، تضاءلت أمامه كل سخونة الأيام الينايرية الأخر...

وكان حتمياً أن ندفع ـ أو نحاول ـ ثمن محبتنا لمصر .

... وهي بالقطع مجرد مصادفة ، أن ينعقد الاجتماع الموسع للجنة الحزب في محافظة الدقهلية ظهر يوم ١٧ يناير ، وأن أحضر أنا هذا الاجتماع ، وأن تناقش فيه بالطبع الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية المتقافمة... وأن يكون اليوم التالي يوم إنفجار شامل في المنصورة يمتد ليشمل قرى ومدن المحافظة غير مسبوقة ، ليتجاوب مع دوي الانفجارات الشعبية في مختلف أنحاء الجسد المصري .

(لكن هذه المصادفة تتخذ أساساً لاتهام ردده السيد ممدوح سالم (رئيس الوزراء آنذاك) أمام مجلس الشعب... فقال : «كما تأكد لسلطات الأمن أن عضواً قيادياً في حزب التجمع سافر إلى المنصورة يوم ١٧ يناير الجاري واجتمع باللجنة القيادية لحزب التجمع في الدقهلية وقرر في حديثه أن الحكومة في سبيلها إلى إصدار قرارات اقتصادية جديدة (لم يوضح كيف عرفت بنيات الحكومة التي كانت سرية تماماً ، وتعمدت مفاجأة الناس) سوف تؤدي إلى إثارة المواطنين ، وطالبهم بضرورة الالتحام بالجماهير ، في رفض هذه القرارات ، وتجري النيابة التحقيق في هذه الواقعة») .

وبعد عودتي من المنصورة... وفي المساء صدرت القرارات الشهيرة برفع الأسعار... وصباح اليوم التالي انفجرت مصر كما لم تنفجر من قبل .

لزمت مكتبي في مقر الحزب الذي كان (حتى هذه الأيام) في الدور التاسع في مقر اللجنة المركزية للاتحاد الاشتراكي العربي .

توافدت على المكان شحنات من كهرباء غاضبة ، حادة ، مدببة ، ويكون عليك بالقطع أن تتلاءم ، وأن تحاول دفع الآخرين إلى التلاؤم بين ما هو مطلوب ، أو بالدقة بين ما تفرضه الأعصاب المتوترة من مطالب ، وبين ما هو ممكن بين انفعال اللحظة الآنية ، وبين ما سيكون عليه الأمر عندما ينطفىءوهج الأحداث .

ويتعين عليك في حال كهذه... أن تنقسم نصفين متصارعين ، نصف يسيطر عليه الانفعال بحركة جماهيرية حادة كسن المشرط ، قاطعة ، ساطعة ، حاسمة ، كما لم تكن قط من قبل ، ونصف يتربع فيه ـ وبالإكراه ـ العقل البارد المتطلع ليس إلى ما يحدث الآن ، وإنما إلى ما سيكون عليه الأمر غداً ، عندما تهدأ العاصفة ، ويأتي الخصم ماسكاً بعصا التحاسب .

وتكون الصعوبة عندما يتجاوز الأمر حدود الشخص ، فكل ما ستفعل ،

وما ستقول ، وما ستكتب سينصرف ليس إلى شخصك وإنما إلى الحزب... الذي علق في عنقك مساحة كبيرة من المسؤولية ، خاصة أن خالد محيي الدين كان مسافراً خارج البلاد .

وتمضي أوقات مشحونة بصعوبة مُرّة ، فالجماهير انسكبت إلى الشارع بحيث يخيل إليك أن أحداً لم يبق في بيته ، وهي تنسكب في فعل ثوري فاعل... وحاد ، يتعين على حزب يساري كالتجمع أن يتجاوب معه .

لكنه حزب علني... لم يزل يخطو نحو عامه الأول (أعلن في أبريل ١٩٧٦) وهو وفق القانون والواقع ، جزء من كيان الاتحاد الاشتراكي... حديث الانفصال عنه ، لكن الحبل السري لم يزل متصلاً... رابطاً وضاغطاً ومؤثراً .

ألم أقل إن مقرنا المركزي كان هناك ، بل وكل مقارنا في الأحياء والمراكز والمحافظات كانت مساحة من مبنى الاتحاد الاشتراكي حيثما وجد ، وحيثما وجدنا .

وهو حزب مكون تكويناً بالغ التعقيد ، ويضم إلى صفوفه عناصر من مزيج يساري مختلف المنشأ ، ومختلف التكوين ، وفيه عناصر أتت إلينا بحسن نية ، ولم يكن بالإمكان إكراهها على أن تكتسي بثياب أكثر ثورية مما تحتمل (ولعل الانسحابات الواسعة من صفوف الحزب بعد هذه الأحداث... أوضح تأكيد على ذلك) ... وهو حزب يجب أنْ يضع في اعتباره حسابات ، وتحاسب الأيام المقبلة .

ويتعين في لحظة كهذه ، أن تمسك بمشرط الجراح الدقيق لتخط على جسد الواقع خطاً دامياً غير مسموح بتجاوزه نحو أي من الضفتين . فليس مسموحاً بالطبع أن نتخلى عن دورنا إزاء حركة مشتعلة لجماهير أكثر اشتعالاً مما كانت في أي وقت من تاريخها ، وليس مسموحاً أيضاً أن

تتجاهل كل ممكنات وجودك في المستقبل فتتصرف باندفاع اللحظة متخلياً عن تطلعك نحو ما قد يحدث في المستقبل ، عندما تعود الجماهير إلى بيوتها... وتقف وحيداً ، أمام خصم يريد القصاص... أو الخلاص منك .

لهذا كان من الضروري تحديد خط التماس... وشقه بحزم متشدد محاولاً تحقيق الهدفين في توازن متزن لا يخطىء ولو نصف خطأ... أو حتى أقل من النصف .

وطوال الساعات الثماني والأربعين كنت أحاول أن أقوم بهذا الدور في مواجهة ضغوط واندفاعات متدافعة بقدر ما هي متعاكسة ، البعض يستحثك على العبور نحو ضفة التباعد عما يجري ، والأكثر يصرخ ، ويعلو صراخه محاولاً أن يقفز بك ـ ودون احتراس ـ نحو الالتهاب بالموقف ، وبالقول ، وبالفعل ، حتى ولو تجاوزت منطقة حزام الأمان ، تفعل ذلك بحكمة مصنوعة ومصطنعة قبل أن تكون مفترضة ، وأنت واثق أن كلا الفريقين سوف يغرقك في بحار لومه ، سواء كنت على صواب أو لم تكن .

وأمسكت بتلابيب كل قطرة من الهدوء الممكن ، ورفضت وبإصرار أن أجتاز أو يجتاز أحد من الحزب الخط الفاصل . وكانت مقترحات عدة لدفع الحزب نحو التحرك... ولا خلاف على التحرك ، لكن أي نوع من التحرك ، وبأية جرعة ، وإلى أي مدى ؟... ثم كيف نترجم حسابات التحرك إلى كلمات دقيقة ، لا هي مستعصية على فهم الزملاء ، ولا هي مؤدية إلى مساءلة قانونية ، أو غير قانونية عندما تنطفىء حركة الجماهير الغاضبة .

وبإصرار... عدلت كثيراً من صياغة التوجيه الحزبي الصادر من لجنة العمل الجماهيري ، إصرار واجهت به عصبية الكلمات ، وعصبية الإصرار المضاد .

وبإصرار... ألححت ألا يشارك أحد من زملائنا في فعل عنيف أو

تخريب... وفي عصر اليوم الأول اقتحم غرفتي عضو في الحزب كنت أشك في علاقته بالأمن... يطلب أن أعطيه بعض المال... لماذا ؟ أجاب : لأشتري بنزيناً وقماشاً ، نصنع كوراً من القماش ونبللها بالبنزين ونحرق الدنيا .

ووجدت نفسي أندفع نحوه ممسكاً به صارخاً في الموجودين بالغرف الآخرى... ودون أن أحدد السبب ، أعلنت أنني على مسؤوليتي اتخذت قراراً بفصله من الحزب ، ومنعه من الوجود في المقر أو دخوله في أي وقت . (وفيما بعد ، وبعد الإفراج عني وفيما كنت أنتظر زوجتي كي تحضر لأذهب معها... أمضيت وقتاً في غرفة العقيد منير محيسن ، حكيت له الحكاية دون أن أذكر الاسم ، وقلت إنني اعتقدت أن الأمن هو الذي دفعه للإيقاع بي وبالحزب ، لم ينف ، وارتسمت ابتسامة صفراء وقال : على أية حال لقد تصرفت تصرف معلمين ، وحسمت الأمر علناً وأمام الجميع) .

(ذات العقيد كانت لي معه واقعة أخرى في القضية ذاتها ، ففيما كنت في سجن القلعة تهامس المخبرون أمامي ربما كي أسمعهم... بوجود شيوعي في الناحية الأخرى من السجن وأنه يتوالى باعترافات متتالية... انتظرت لحظة السكون في السجن ـ ما بين الثالثة والخامسة بعد الظهر ـ وطلبت من أقربهم إليَّ أن يفتح على هذا الشاب ويحضره إلى دورة المياه القريبة ، وأذهب أنا إليه ، كان المسكين شغوفاً بأن يرتكن إلى إحد ، وتلقاني بفرح ، لم ينكر أنه اعترف ولم يزل يعترف... حذرته من أن اعترافاته ستكون دليلاً ضده ، وقال : إن العقيد منير قال له إن وزير الداخلية مغتاظ لأن كل من قبض عليهم لم يضبط معهم أي آلة طباعة ، بما يعني أن ثمة متبقين خارج السجن ، ولما كان الفتى من جماعة حزب العمال الشيوعي فقد اقترح عليه العقيد أن يقوم البوليس بإحضار جهاز طباعة ووضعه في شقة ثم يذهب الفتى إلى النيابة ليعترف بأنه شاهد فلان يخرج من البيت الفلاني أكثر من مرة... وبناءً على

طلب النيابة يتوجه البوليس ليجد المطبعة هناك..وتلصق ملكيتها بفلان هذا . لم يحتمل الفتى نقاشاً طويلاً كي أقنعه بفساد ذلك ، واقتنع بأن يذهب إلى وكيل النيابة... وأن يطلب محامٍ ، وأمام النيابة وأمام المحامي يسجل أن الاعترافات السابقة غير صحيحة ، وأنها أمليت عليه من العقيد تحت ضغط وإغراء ، وأنه طلب منه كذا... وأن يطلب نقله إلى سجن آخر بعيداً عن ضغوط المباحث... وقد كان) .

ونعود مرة أخرى إلى الوضع الملتهب ، كان زملاؤنا يتظاهرون مع المتظاهرين ، وبعض منهم يقود المظاهرات بهتافات أكثر إلهاباً وأكثر التهاباً ، وفي أوقات متقاربة كان يأتي واحد منهم ملابسه المنكوشة وشعره ، وعرقه يعطيك انطباعاً واضحاً بأنه قادم لتوه من مظاهرة صاخبة... ويسأل عن تعليمات الحزب... ولا تعليمات سوى استمروا في التظاهر وارفضوا التخريب . وتظل المظاهرات مستمرة حتى ساعات متأخرة من الليل ، لتبدأ من جديد قبل فجر اليوم التالي ، ولعلها لم تنقطع مطلقاً . ويظل التوجيه هو التوجيه... (وينفجر في أعماقي سؤال لم يزل يلازمني... عن ممكنات التغيير الثوري في دول العالم الثالث... ماذا تفعل حركة الجماهير إزاء نظام يرفض أن يستجيب ، ويرفض أن يرحل ؟) .

يومان في تظاهر متواصل ، وبلا انقطاع... قالت فيها مصر كل ما أرادت أن تقول ، وفعلت كل ما أرادت أن تفعل... حتى نزلت دبابات الجيش إلى الشارع ، وأعلن حظر التجول ، ولملمت مصر أطراف ثوبها وانسحبت ، فهي لا تريد تصادماً مع دبابات الجيش ، ولا تريد له أن يزيد في جرعة تدخله في الحكم .

* * *

وفيما كانت الأحداث تشتعل كان حسين عبد الرازق واقفاً ممسكاً بنص البرقية (التي تسمى مبرقة لأنها ترسل عبر التلكس الخاص بالاتحاد الاشتراكي ، والذي يربط مقره المركزي بكل مقاره في المحافظات) بعد أن أعدنا صياغتها أكثر من مرة ، كي تصبح صالحة الآن وفي المستقبل لأن تمرق من ثقب الإبرة .

ووقعت عليه : يعتمد . وأمضيت ، وأرسلتها إلى جهاز المبرقات .

بعد الظهر اتصل بي د . مصطفى خليل (الأمين العام للاتحاد الاشتراكي... وكان ساعتها المسؤول الأول في مصر في ظل غياب السادات عن الوطن... حيث وقعت الأحداث وهو في السودان... وعندما قرر العودة استقر في أسوان حتى اطمأن إلى هدوء الأوضاع) يطلب شطب سطر يقول ضرورة الالتحام بحركة الجماهير ، وقال كلاماً كثيراً عن خطورة الوضع ، وعن خطورة عبارة كهذه . وكنت أدرك أن مفتاح الأمر كله في يده ، فالمبرقة عنده ، والجهاز المرسل والأجهزة المستقبلية تحت سيطرته... وبعد مناقشات هي أقرب إلى المماحكات... وافقت .

وبعد ساعة اتصل د . مصطفى خليل يطلب عدم إرسال المبرقة فإرسالها بذاته خطر وخطأ... وأيضاً... مناقشات من قبيل المماحكات . وانتهت بأن وافقت على منع إرسال مبرقة كانت ممنوعة أصلاً .

... وأصبحت المبرقة هي محور اتهامي واتهام الحزب كله بالتحريض على الأحداث .

وفي المساء اتصل د . مصطفى خليل طالباً (من منطلق حرصه على مستقبل الحزب كما أكد لي) أن نصدر بياناً يدين العنف والتخريب ويدعو المتظاهرين إلى التوقف عن التظاهر .

وقلت إن قراراً ببيان إما أن يصدر من الأمين العام خالد محيي الدين

وهو خارج البلاد... أو من قيادة الحزب ولا بد من دعوتها إلى الاجتماع... وبرغم إلحاحه... ألححت في الرفض ولم تكن المشكلة في إدانة التخريب ، فهو مدان طبعاً ، لكن المشكلة كانت في طلب أيقاف المظاهرات وهو ما لا نقبله .

وبعدها اتصل مجدداً يقترح أن أذهب إلى التليفزيون لأذيع بياناً أطلب فيه من الجماهير الهدوء... وقلت إن هذا يتطلب قراراً حزبياً... وأعدت قصة سفر خالد وضرورة انعقاد القيادة .

وللحقيقة أحسست من كلمات الرجل التي كان من الصعب عليه أن يقولها صريحة بالتليفون ، أن ثمة محاولة من البعض لتعليق الأمر كله في عنقي وعنق الجميع ، وأن هذه الاقتراحات تستهدف قطع الطريق على المؤامرة...

وبرغم اقتناعي بحسن نياته... لم يكن أمامي من سبيل للموافقة .

في ضيافة السادات

... وتسارعت الأمور... ربما أسرع مما تصور الجميع . فما من أحد استطاع أن يقيس عمق الجرح في قلب السادات... كشخص وكنظام .

الدبابات في الشوارع ، وحظر التجول يخيم على كل مكان .

والشائعات تسرع فتخيم هي أيضاً... آلاف اعتقلوا ، وآلاف سيعتقلون .

كنا مساء الخميس ،رنين التليفون لا يتوقف . كل يسأل ، وكل يريد أن يطمئن . أحدهم صعقته الدهشة ، سمع لتوه من راديو بغداد أنني اعتقلت فإذا بي أرد عليه . الآخر أكد أن راديو لندن أكد اعتقالي .

كنت أعرف احتمال الاعتقال ، لكنه لم يأت ، ويختار القلب دوماً أن يتشكك ، وأن يخترع احتمالات الافلات .

صباح الجمعة... تليفون يدق مبكراً ، يصعق المتحدث إذ أرد أنا عليه... جريدة «الجمهورية» نشرت نبأ القبض عليَّ كمتهم أول في الأحداث .

أرسلت لأحضر «الجمهورية» وفي الصفحة الأولى مقال رئيس بقلم «محسن محمد» يقول صراحة أن أجهزة الأمن تتهم حزب التجمع ورفعت السعيد تحديداً بالمسؤولية الأساسية عن الأحداث . وأنني قد قبض عليَّ فعلاً .

كان الأمر مضحكاً لكنه موحياً ببداية حملة إعلامية وبوليسية ضد الحزب . اتصلت تليفونياً بأحد رجال مباحث أمن الدولة . ضحكته الصفراء أتت باهتة حتى عبر التليفون ، لم ينف الخبر ، فقط سألني : «أنت رايح فين النهاردة ؟» اختصرت القول قائلاً : رايح النادي .

قال : «روح واتفسح» وكأنه يقول : استعد لما هو آت . وبالفعل ذهبنا جميعاً إلى النادي .

وعدت بعد الظهر لأعد حقيبتي... ولأكتب رسالة إلى نقيب الصحفيين طالباً كصحفي إذن مخاصمة لأرفع دعوى قضائية ضد محسن محمد...

وفي المساء ، عندما دُقَّ البابُ ، لم يكن لديَّ أدنى شك في من هو الطارق . فتحت . ضابط أمن دولة (محمد عبد الفتاح عمر ، أصبح عند كتابة هذه الأسطر لواءً) . كان مهذباً ، منع الجميع من الدخول ، ودخل هو فقط .

بادرته بالسؤال التقليدي : هل معك إذن نيابة ؟ قال : لا . قلت إذن لن أسمح لك بالتفتيش ، ولن أذهب معك . حاول إقناعي ورفضت ، اتصل تليفونياً برؤسائه ، حاولوا إفهامي بلباقة أن الأمر أكبر بكثير مما أعتقد ، وأنه لا مبرر للتشبث بهذه الشكليات . ورفضت ، فأمهلوني بعضاً من الوقت . كان الضابط هادئاً ومبتسماً دائماً ، حاول تبسيط الأمر فطلبت شاياً ، لكن ليلى رفضت ، وظل هو مبتسماً . وأخيراً دق التليفون والمتحدث وزير الداخلية قال : ثمة أمر قبض صدر الآن من النيابة واسمي في رأس القائمة... وإذا أردت نسخة سأرسلها لك ، ولكن الأمر سيستغرق بعض الوقت... على أية حال قلت له : سأذهب ما دمت تقول إن هناك أمراً من النيابة .

التفت نحو الضابط وقلت : اتفضل... فتش . قال بذات الهدوء ، مفيش

داعي ، زملائي أكدوا لي أنك أحرص من أن تترك أي ورقة في بيتك . ألقى نظرة على الكتب وجد مظروفاً معنوناً «السيد نقيب الصحفيين» بداخله نسخة من جريدة الجمهورية ، وطلب إذن المخاصمة . قال : نأخذ هذا علشان ما نروحش بإيدنا فاضية ، واستكمالاً للشكل مر على غرف البيت ، دون أن يجاوز باب الغرفة ، فتحت بهدوء غرفتي خالد وغادة . دق قلبي طويلاً وأنا أتأملهما نائمين (الفارق واضح بين القبض في الماضي عندما كنت خلي البال ، وبين هذه اللحظة الذي ظلت وحتى الآن عالقة بذهني ، وأنا أتخليهما يستيقظان ويراكمان أسئلتهما البريئة... أين ذهب بابا) تأملني الضابط ، وإذ لاحظ تأثري انسحب على أطراف أصابعه وكأنه يستحثني أن أفعل مثله .

ومضت بنا السيارة في شوارع خالية تماماً إلا من دبابات الجيش ، وسيارات الشرطة... واجتازت السيارة جامع الرفاعي وميدان القلعة ، وصعدت... أنه إذن سجن القلعة .

كم من قصص قيلت عنه ، وبرغم كل ما كان أفلت هذا السجن من زيارتي له ، ابتسمت في أعماقي وأنا أقول لنفسي : يصممون على استكمال الدورة .

فتح الباب الضخم . سلمني الرجل وسلم عليّ بحماسة معتذراً (أصبحنا بعد ذلك أصدقاء) ومضى . في الداخل ضابط شاب صغير السن تتدلى سلسلة ذهبية من عنقه ، يعلو صوته أكثر من اللازم عند كل قول . حتى وهو يرد التحية . وكان الاستقبال عاصفاً ، فتقاليد القلعة تقضي بوضع غمامة على عيني كل داخل . حتى لا يعرف جغرافية المكان... ورفضت ، وارتفع صوته مهدداً بوضع الغمامة بالقوة ، وارتفع صوتي رافضاً . ثم حسمت الأمر قائلاً : اسأل رؤساءك وبالفعل تحدث تليفونياً مع شخص ما . ثم قال متبرماً ،

ومتوعداً في آن واحد... اتفضل . ودخل معي بنفسه ليفتح زنزانة ويأمر جندياً بأن يلقي بطانية على الأرض... وأغلق الباب بعنف . علمت فيما بعد أن أسمه مدحت وأنه كان منتدباً من قسم الدرب الأحمر ، وكان يبدي حماسة مبالغاً فيها بأمل أن ترضى عنه مباحث أمن الدولة ، فيبقى في القلعة .

تأملت الزنزانة ، جدرانها تتزين بنقوش وكتابات من كل نوع . جينات الوراثة الفرعونية لم تزل تلح على المصريين أن ينقشوا كل شيء على الجدران ، عشرات العبارات ، فكل من مرّ بهذه الزنزانة ترك أثراً . شيوعيون فلسطينيون متهمون بالإرهاب . عمال النقل العام الذين أضربوا فاعتقلوا... من بين النقوش لمحت واحداً شد انتباهي «كل هَمٍّ يزول» والتوقيع شكري مصطفى . سرت سكينة غريبة . صحيح أن شكري مصطفى قد أعدم . لكن المعنى والمغزى واضح . خلعت البالطو والبدلة ، علقتهما على مسمار وجد مصادفة خلف الباب ، لبست بيجامة . سويت البطانية الممتلئة تراباً... وقررت أن أنام . وفيما كنتُ أغمض عَيْنَيَّ سمعت صوتاً يسأل : حطيتوا رفعت السعيد فين ؟ ثم فتح الباب وأطل شاب آخر منادياً ، حاولت أن أوحي له أنني نمت فعلاً... فقط لأغيظه إذ يجد أنني غير منزعج .

لم يخف دهشته . ياه نمت بسرعة... إيه هدوء الأعصاب ده ؟ وقفت وسلمت عليه وأشرت إلى عبارة شكري مصطفى دون أن أتكلم . كان الضابط مدحت يتضاءل عندما وجد الآخر يتباسط معي . وارتجف عندما عاتبه هذا الآخر : كيف تركني بلا سرير (زنازين القلعة كانت تمتلك في العادة أسرة... لكن الضابط اختار من فرط غضبه عليّ ، واحدة جرداء) وبسرعة انطلق السجانة وجنود الخدمات يحملون أمتعتي إلى زنزانة أخرى... وفرشوا على السرير ملاءة نظيفة ، وكذلك بطانية بلا تراب ، وإذ استقام الأمر جلس هذا القادم الجديد معي وانسحب الجميع .

قدم نفسه قائلاً : أنا العقيد مجدي ، وسأكون من الآن فصاعداً هنا (فيما بعد ، وعندما التقينا بعد الإفراج عني لأعرب له عن شكري لذكائه في التعامل معي قال : آن الأوان أن تعرف اسمي الحقيقي . قلت أعرفه . اسمك نديم حمدي . عرفت الاسم من أحد المخبرين المقيمن معنا) .

طار النوم ، ودعاني الرجل إلى غرفته في السجن ، وقال : نتحدث كرجال . أنت المتهم الأول في أخطر قضية مرتْ عليّ ، والله أعلم حتخرج أمتى . (كانت نظراته تتابع أثر الكلمات) وعلينا أن نتعامل مع بعضنا كأصدقاء ، وكرجال .

بدوت بارداً... وابتسمت ، وضحكت ، وقلت نكاتاً (بعدها ، عندما أصبحنا أصدقاء قال لي : إنني كنت سخيفاً إذ تعمدت الإيحاء بأنني غير مكترث بكل ما يقول) .

عدت إلى الزنزانة التي ظلت مغلقة دوماً . لكني كنت أشعر من دبيب الأرجل في الممر أن الوافدين كثيرين وكان صوت العقيد مجدي ينظم كل شيء بلهجة آمرة وهادئة .

وبعد الظهر فتح باب الزنزانة لأول مرة... قال مخبر اتفضل قابل الباشا رئيس النيابة ، تصورت أننا سنذهب إلى النيابة ، ارتديت بدلتي . ربطت الكرافتة باتقان ، والمخبر مندهش . وهو يراني أفكها وأربطها عدة مرات (فيما بعد علمت أنهم ينقلون إلى العقيد مجدي كل هذه الأشياء الصغيرة... ليحسبَ مدى تأثير الأمر في أعصابي ، وأنا بدوري كنت أتعمد المبالغة في أن أبدو عادياً بل وأكثر من عادي)... اقتادني المخبر إلى غرفة أخرى... لأجد رئيس النيابة وكاتبه... قدم نفسه لي : المستشار عدلي حسين (الآن هو محافظ المنوفية)... وقبل أن يبدأ سألته : هل يسمح القانون بأن تجري النيابة تحقيقها داخل السجن ؟ قال : إن الظروف صعبة للغاية . وأنت لا

تدرك مدى خطورة الموقف ، الموقف العام خطير جداً ، وموقفك أنت خطير جداً ، ولهذا أنصحك ألا تجادل كثيراً في مثل هذه التفاصيل . قلت : هذه ليست تفاصيل..هذه أساسيات قانونية . وجرى جدل طويل ، وانتهى بأن قلت : حسناً أوافق بشرطين . قال : وهما ، قلت : الأول أن يثبت في بداية المحضر أن التحقيق أُجْرِيَ في السجن ، ومن جديد نشب حوار ممتد ، وأخيراً اتفقنا على صيغة «أجري التحقيق في الغرفة التي خُصصت للنيابة في سجن القلعة» فتح المحضر قلت : يبقى الشرط الثاني . قال : وما هو ؟ قلت : فنجان قهوة سادة . وهرول الكاتب ، وحضر العقيد مجدي الذي يبدو أنه كان يتابع النقاش عبر أدواته الخاصة . كانت ابتسامته المندهشة تطل على الوجه الذي يحاول الإيحاء بالهدوء وقال : سأرسل لكما فنجاني قهوة من البن الخاص بي .

وجرى التحقيق عادياً ، وتعلق كله بالمبرقة وقصتها ، ومن صاغها ، ومن أرسلها ، ولماذا وقّعت باسمي .

وطوال التحقيقات التي تلت ذلك حكيت إلى درجة الملل ذات القصة... وكانوا يحاولون دوما إيجاد ثغرة ينفذ منها الاتهام ضدي ، فلا يجدون ، ويعاودون السؤال ، وأُعاود ذات الإجابة .

صياغة المبرقة عادية . ولم نحرض فيها أحد . عبارة «الالتحام بحركة الجماهير» لا تعني التحريض على التظاهر ، أكدنا على ضرورة الوقوف ضد التخريب . المبرقة وقعت باسمي لأنني وحدي المخول سلطة توجيه المكاتبات إلى أجهزة التلكس في الاتحاد الاشتراكي . د . مصطفى خليل الأمين العام للاتحاد الاشتراكي اتصل بي في المنزل وطلب عدم إرسال المبرقة فقد يفهم منها التحريض ، ووافقت . وبناء على موافقتي فإن المبرقة لم ترسل... فقط سمع عنها زملاؤنا بالمحافظات عندما تسلموا مبرقات

تقول : «رجاء إلغاء المبرقة رقم ٩١ وعدم العمل بها ـ«د . رفعت السعيد» . وبدأت التليفونات تدق... المبرقة ٩١ لم تصل . لماذا لم تصل ؟ لماذا أُلغيت ؟ ما هو نصها ؟

دار التحقيق أكثر من دورة . شربنا أكثر من فنجان قهوة ، ولم يتجاوز الأمر كله عتبة السؤال عن المبرقة... إذن هم لا يمتلكون أي شيء ، ولا أي دليل أو حتى القدرة على اصطناع دليل . وعدت إلى الزنزانة وأنا أكثر هدوءاً .

* * *

هل يمكن أن أحكي ولو بشكل موجز كل ما كان في هذا السجن الغريب ، والذي امتاز دوماً برهبة خاصة ، لأنه وفق القانون... لا يخضع للائحة السجون ، ومن ثم يمتلك تقاليده الخاصة جداً . وباختصار : وفق القانون هو لا يخضع للقانون ، ولهذا كان من الطبيعي أن نجد أطقما عدة في الحراسة والتأمين والخدمة الداخلية .

ضباط بوليس عاديون . ضباط أمن دولة . ضباط أمن قومي . مخبرون . جنود عاديون . مجندون .

وعلى أية حال كانت الأيام الأولى ذات سمة متشددة بشكل خاص . باب الزنزانة مغلق دوماً... ودوماً هذا يعني ٢٤ ساعة يومياً... ولا شيء معك أو لك . لا صحف ولا كتب ولا ورق ولا أقلام ولا راديو (ذات يوم طلبت من العقيد مجدي أن يصرح لي براديو ، وكان ذلك بعد أن استقرت بي الحال عدة أشهر هناك... وعد... ثم عاد فقال : وزير الداخلية اعترض خوفاً من أن تتلقى عبر الراديو رسائل من موسكو ، قالها وهو يضحك... ولم أملك سوى الضحك ، لكنهم وكنوع من المساومة وبعد ضغوط واحتجاجات سمحوا

بكاسيت شرط أن تراجع الشرائط... وأرسلت لي ليلى عشرات الشرائط واستمتعت بالاستماع إلى سيمفونيات وإلى فيروز وعبد الوهاب عندما كان شاباً ، وأيضاً لمسرحيات كاملة مثل مدرسة المشاغبين التي نجحت دوماً في أن تجمع حولها كل المخبرين في ضحك متواصل .

سألت : هل يمكن أن أحكي ما حدث... الإجابة ، لا... فلا هو ممكن ، ولا هذا مكانه ، لكنني سأحاول فقط أن ألقي بعضاً من بقع الضوء على مساحات محددة لتعلقها بكل ما أريد أن أقول .

فجأة حدثت ضوضاء وطلب من السجناء جميعاً أن يحزموا أمتعتهم إذ سينقلون إلى سجن أبي زعبل . وفيما استعد لحزم أمتعتي أتى العقيد مجدي وقال : «لا تفعل . أنت باقٍ هنا » . قلت : وحدي ؟ قال : وحدك .

ذهب الجميع وبقيت . هل يمكن أن أصف إحساس سجين وحيد ، في سجن يحيط به مئات الحراس ، وعدة أطقم من مختلف الأجهزة الأمنية ، كل جهاز له رجاله في هذا الجب .

لا جدوى من أية محاولة للوصف . فقط الأمر موحش... ومخيف إلى حد ما .

سألت مجدي لماذا ؟ قال : أنا أريدك هنا .

وبعد عدة مناقشات تبينت لماذا بقيت وحدي ، كان العقيد مجدي يأتي إلى الزنزانة كل مساء...

ثم يصطحبني إلى مكتبه . يعبث قليلاً في الدرج (خمنت أنه يضبط أجهزة التسجيل) ويبدأ حواراً ممتداً عن الأوضاع السياسية ، يتمهل في بعض المواقع ، يستفزني لاتحدث عن نفسي وعن حزب التجمع... لم يلمس قط موضوع القضية . ثم عرفت السبب . فذات مساء آتى ومعه شخص آخر لا أعرفه ولم أعرفه . ظل الآخر صامتاً طوال الوقت ، ومجدي يعود فيكرر الحديث عن إعجابه الشديد بكتبي... وبكتاباتي في التاريخ . إفراطه ـ هذا

اليوم ـ في الإعجاب شد انتباهي ، وفجأة قال : «لو أنك تتفرغ لكتابة التاريخ لأصبحت واحداً من أهم مؤرخي مصر» ، اعتبرت العبارة جزءاً من المجاملة المبالغ فيها في هذا المساء ، لكن العبارة تكررت بنصها عدة مرات ، وبدأت أنتبه . وبدأت أتحفز . وما أن نطقها مرة أخرى (ربما كانت الخامسة أو السادسة) حتى بادرته بطلقة مدببة معدة سلفاً : سيادة العقيد ، هل تبلغني رسالة محددة ؟ أُخِذَ الرجل ، ووجه نظرة إلى الآخَر الصامت دوماً ، ثم قال : بصراحة نعم . وقلت : ما هي الرسالة تحديداً ؟ قال : أن تستقيل من حزب التجمع ، وتتعهد كتابياً بعدم الاشتغال في السياسة... ويفرج عنك فوراً . (منعت نفسي بالقوة من الانفجار ، رغم أنني أدركت أن القضية بالنسبة لي قد انتهت ، وأنه لا دليل ضدي ولهذا بدأوا المساومة) . سألت ببرود : ومن صاحب الرسالة ؟ قال : لنقل إنه رئيس الوزراء السيد ممدوح سالم . وخرجت شتيمة كبيرة جداً رغم أنفي ، وسرى فزع في وجه الاثنين ، مجدي والآخر ، ثم أكملت : أرجوك أبلغ صاحب الرسالة أنني سجنت قبل ذلك ثلاثة عشر عاماً ، ولم أشعر برغبة في التراجع... وقل له إنه لن يبقى في الحكم أربعة عشر شهراً ، وبالطبع ليس لديه أي أمل في أن أتراجع وهو في الحكم .

لم ينطق أيٌّ منهما واقتادني مجدي هادئاً وصامتاً ، إلى الزنزانة .

والغريب أنني في اليوم التالي تلقيت زيارة من محامي... الدكتور عصمت سيف الدولة ، وانفرد بي في غرفة لست أشك في أنها ممتلئة بالمكيروفانات . وأثار ذات الموضوع . ورفضت . قال : أنا محاميك ، وأشعر أنهم يريدون الإيقاع بك بأي ثمن . ورفضت . قال : «لديَّ حل ، أن يصدر خالد محيي الدين قراراً بفصلك ، وبهذا لا تبدو أية شبهة ضعف في موقفك ، وقلت : خالد لن يفعلها إلا إذا طلبت ، وأنا لن أطلب .

وانتهت الزيارة . وتوقفت هذه المحاولة .

وطوال الأشهر الأولى . كنت وحيداً . ليس في الزنزانة وحدها ، بل في السجن بأكمله ، وكان الباب مغلقاً... طوال الوقت . فقط يفتح عندما أدق . لانفلت تحت أعين عديدة ومتعددة بصورة مثيرة للدهشة نحو دورة المياه ، أطالع هناك نقوشاً أخرى ، قديمة هي أيضاً... رسائل مكتوبة على الحائط ، نصائح ، أخبار... عبارة منها لصقت في ذهني «إذا كنت أنا قد احتملت فلا بد أنك ستحتمل . عزة الخميسي» .

... كيف يمكن للوقت أن يتململ ؟ وكيف يمكن لك أن تدفعه كي يتحرك ؟ فيل ضخم ، ممل بطيء ، لا أمل في تحريك عقاربه . الممل يبدد القدرة والمقدرة على الاحتمال . كيف يمكن أن تحتمل زماناً يأبى أن يمضي ، فجأة خطرت في خاطري فكرة... أن أشغل نفسي بكتابة رواية . كنت أستعيد بعضاً مما كان ، وطافت بمخيلتي أحداث حدثت أثناء فترة هروبي من أمر للقبض (١٩٥٩)... وتساءلت في حوار ودود مع نفسي لِمَ لا أكتب رواية ؟ كيف بلا ورق ولا أقلام ؟ وأجبت على تساؤلي : في ذاكرتي .

وقطعت الوقت في كتابة رواية... سطراً سطراً... فصلاً فصلاً نقشتها باتقان في ذاكرة متلهفة لمن يشغلها بشيء... أي شيء ، وأعود لأعدل وأبدل وأمحو نقوشاً وأعيد نقشها من جديد...

ولم يعد الوقت كافياً... واكتملت رواية «السكن في الأدوار العليا» .

(وعندما أفرج عني حاولت نسيان الأمر أو تناسيه لكنه فرض نفسه فرضاً وظل يناوشني حتى سكبته... نعم كلمة سكبته ملائمة تماماً ، فأنا لم أفعل سوى استعادة ما نقشت ، وكنت أكتب بسرعة متعجلة ، فقط لأفرغ ذهني من مشاكسة هذا المخزون ، ولم أتخيل أنني سأتجاسر فأنشرها) .

وتستمر التحقيقات . عدة مرات يتم استدعائي إلى مبنى نيابة أمن

الدولة . المستشار عدلي حسين يصمم على ذات الأسئلة ، وأنا أصمم على ذات الإجابات .

ذات مرة ، كان هناك شخص آخر جالس على المكتب متكىء بذراعيه عليه ، ويتابع الأمر كله باهتمام صامت ـ وأعاد المستشار ذات الأسئلة ، وأعدت غاضباً ذات الإجابات . أكدت أن المبرقة لم ترسل لأن د . مصطفى خليل تحدث معي تليفونياً في منزلي ، ووافقت على عدم إرسالها... ويبدو أن صوتي ارتفع أكثر مما يجب ، وغضب المستشار عدلي حسين وصاح هو أيضاً بصوت غاضب ، ونطق الجالس طالباً أن نهدأ ، وطلب تأجيل التحقيق لبعض الوقت ، وإذ خرج المحقق تقدم الرجل مني وقال : إزيك . ولاحظ برودي ، فسألني أنت مش عارفني . ونظرت إليه ، ولم أجب... فقال : أنا المحامي العام لنيابة أمن الدولة مصطفى طاهر ، لم يعطنِ الاسم أية اشارة ، هو لاحظ ذلك ، وقال هامساً : التقينا ذات يوم في الإبراهيمية الثانوية ، وكان معنا بدوي محمود وعبد الباسط خلاف ونبيل غالي (تدفقت شلالات الذاكرة ، رابطة الطلبة الشيوعية ـ حدتو وأنا مسؤول قسم ثانوي ـ في مدرسة الإبراهيمية عقدت عدة اجتماعات لخلية المدرسة... تأملت الوجه... هل كان في الاجتماع ؟) .

قال : لا شيء ضدك مطلقاً . ولست أجاملك إذا قلت أنك لن تكون في قرار الاتهام ، لكن السادات يصمم على افتراسك . وأنا لن أسمح بذلك مهما كان الثمن . قلت : أرجوك لا تضع نفسك في موضع صعب من أجلي . قال : الأمر متعلق بشرف المهنة ، بشرفي ، وليس بك شخصياً ، لكن أرجوك ساعدني .

وقلت : كيف ؟

قال : هل قصة اتصال د . مصطفى خليل بك حقيقية ؟ قلت : بالتأكيد . وقال : وهل وافقت على عدم إرسال المبرقة ؟

قلت : كنت أعلم أنهم لن يرسلوها حتى لو ألححت ، ولهذا وافقت ، وهي لم ترسل فعلاً .

قال : هل تعتقد أن د . مصطفى خليل مستعد للشهادة لصالحك ؟ قلت : لعله يفعلها .

وفي هذه الأثناء عاد المستشار عدلي حسين ليجد رئيسه منهمكاً في حديث ودي معي .

وقال المستشار مصطفى طاهر... اثبت في المحضر أقواله ، ويرسل خطاب إلى د . مصطفى خليل لتطلب شهادته ، وانفرجت أسارير المستشار عدلي حسين ، فقد كان يعتقد أنني لا أقول الحقيقة .

... وبعد أيام وصل الرد من د . مصطفى خليل مؤكداً كل ما قلت ، وفوق هذا عدة أسطر تؤكد براءتي .

استدعيت مرة أخرى للتحقيق . وكان المستشار مصطفى طاهر منفرج الأسارير ، همس في أذن بشهادة مصطفى خليل وقال : الآن أنا متأكد من استبعادك من قرار الاتهام . ولكن من يستطيع أن يصدر قرار الإفراج ؟ القاضي الصدفي الذي نعرض أمامه يكرر استمرار الحبس دون نظر في الأوراق .

ذات يوم لاحظ القاضي اشمئزازي : فقال : أنت لما يكون عندك انفلونزا مش الدكتور يأمرك أن تبقى في البيت ؟

بهذا المنطق أنا أرى أن تبقى في السجن لبعض الوقت ؟ .

وتكررت أوامر استمرار الحبس حتى تغير القاضي بقاضٍ آخر .

* * *

وفي هذا السجن الذي شاركني ـ بعد فترة ـ عبد المنعم القصاص في

امتلاكه وحدنا ، كان البعض يأتي مروراً ويذهب سريعاً أحدهم (ح . ي) وكان يقول في نفسه أنه ناصري (هو الآن مستشار في أمن الدولة) بقي معنا بعض الوقت ، وكنا أصدقاء حميمين ، وقدمنا له ما استطعنا من عون ، واقتسمنا معه طعامنا... ذهب إلى القاضي الصدفي . طلب الكلمة بعد أن عرف قواعد اللعبة جيداً... قال : لست معترضاً علي استمرار الحبس فهذا أمر الله ، لكن أرجو نقلي من سجن القلعة ، فالسجناء هناك يتهكمون عليَّ عندما أصلي . (لم يكن يصلي . ولم نكن بالطبع لنتهكم عليه لو أنه صلى) الرسالة وصلت للقاضي ، وأمر على الفور بالإفراج عنه .

... وآخر يمني فوجئنا به مكتوماً في أحد الزنازين . صحنا عليه لم يرد ، ولم يرفع حتى البطانية عن رأسه ، بَقِيَ ملفوفاً في البطانية لفترة طويلة حتى انزعجنا أن يكون قد مات . بناء على طلبنا فتح المخبر الزنزانة لنجده لم يزل حياً .

محمد قاسم نعمان ، اسمه ،قال إنهم قبضوا عليه ، أرسلوه إلى قسم الدقي ، هناك أودعوه الحجز ، قال له الشاويش ، إذا احتجت شيئاً دق الباب ، سمعه الضابط ، وأتى وضربه علقة ساخنة .

وعندما أتى إلى القلعة قالوا له وهم يغلقون الزنزانة ، إذ احتجت شيئاً دق الباب . فهم الملعوب ، والتف بالبطانية ، ولم يدق الباب ولم يلتفت لأي نداء .

... وآخر كان قائداً في حزب العمال الشيوعي ، لنرمز له «ع . ع» . في الصباح اكتشفنا وجود زنزانتين مغلقتين . عندما أتى العقيد مجدي طلبت منه أن أتعرف على القادمين الجدد . فتح الزنزانة الأولى بداخلها شاب قال إنه مهندس إذاعي . لمحت نظرة ما ، لا يمكن وصفها ، ولكن يمكن الإحساس بها . شعاع ما جرى تبادله بين الاثنين . والآخر كان «ع . ع»

عندما ذهب العقيد أسرعت إلى «ع . ع» قلت في بساطة : أحذر من الأتي معك . رد غاضباً بل وشاتماً . بعد ساعات استدعوهما للنيابة هناك اكتشف ع . ع أن الآخر مصدر أمني ، وأنه هو الذي سلمه للأمن . وعاد ليسألني كيف عرفت ؟

لكن ع . ع . وقد اصبح واحداً من المقيمين معنا لعدة أيام أثار معي مشكلة . حاولت أن أعطيه بعضاً مما لدينا من طعام يصلني يومياً من أسرتي ، لكنه رفض . قال أنت تعطي حتى الإعداء الطبقيين . (المخبرون... فقراء تحت خط الفقر ، تحته بكثير ، والرجل يعتبرهم أعداء طبقيين) . حاولت أن أشرح له بالمنطق السياسي فأبى ، أخيراً قلت له : أمي علمتني ألا آكل من شيء دون أن أقتسمه مع الحاضرين جميعاً ، وأنت منهم ، وهم كذلك . رفض ، وقال : أما أنا ، أو هم . بعد فترة استقام الأمر وتفهم هو الوضع ، وصرنا أنا وهو وقاسم نعمان والمخبرون نأكل سوياً .

شاب من بني سويف (نسيت الآن اسمه) أتوا به ، وكان صوته يعلو دائماً في صراخ مزعج وهو يغني بلا انقطاع نشيداً يقول : «هي الشمس دي طالعة لمين... ؟ طالعة تحيي الشيوعيين» كان متحمساً إلى درجة التوتر ، وبعد أن أفلت من السجن اختفى ، ولم يسمع عنه أحد . لقد استنفد كل حماسته في فترة قصيرة ، وبعدها لم يتبق من حماسته أية قطرة تكفل له الاستمرار .

د . شوقي الكردي طبيب بيطري . حاول أن يجد وسيلة للتواصل مع المخبرين ، لم يجد ما يتحدث به ، شاهدهم يطاردون قطة ، قال من الناحية التشريحية هي تماماً كالأرنب ، سأله المخبر : يعني ممكن نأكلها ؟ قال : طبعاً . غادرنا بعدها بأيام . وذات يوم سمعت اثنين من المخبرين يتحادثان ، أحدهما سأل : يعني إيه شيوعيين ؟ أجاب الآخر : الشيوعيين

همه اللي بياكلوا القطط . وتلقيت درساً في الحرص في التعامل المبسط مع البسطاء .

* * *

وتمضي أشهر عدة ، ويتغير القاضي الصدفي ، ويأتي قاضٍ آخر ، ويأمر بالإفراج عني ، وبعدها بقليل يصدر قرار الاتهام في قضية يناير ولم يرد اسمي فيه .

السادات غضب . كان يريد اتهامي ليشفي غليله من التجمع ومن خالد محيي الدين . وعوقب المستشار مصطفى طاهر عقاباً شديداً . أُبعد عن نيابة أمن الدولة ، مستشاراً في محكمة أسيوط .

ودوماً كنت ألتقيه وأنا ذاهب إلى مقر الحزب... وهو يمضي على قدميه في شارع سليمان باشا (كان يسكن هناك) ودوماً كنت أعتذر له... أنا أسف . أنا السبب . ودوماً كان يجيب : بالعكس أنا متشكر جداً لقد أتحت لي الفرصة كي أصبح إنساناً ، وكي أستعيد صفاء ضميري (صفاء ضميري... يا له من تعبير معبر) .

وحتى ينقضي العمر لن أنسى أبداً الابتسامة الودودة ، والموقف الشجاع للمستشار مصطفى طاهر الذي رحل سريعاً عن دنيانا .

* * *

وطالت فترة سجني بالقلعة كان هناك صراع صامت بيني وبين العقيد مجدي ، كان رجلاً مهذباً ودوداً ، لكنه كان ينتظر لحظة الضعف المفترضة ثم يلجأ إلى اقتراحه القديم... التعهد بعدم الاشتغال بالسياسة . وكانت عينه دائماً تحاول أن تبحث عن ثغرة ضعف ، ولهذا طلب من المخبرين المنوط

بهم الحراسة الداخلية ، أي المتابعين لكل تحرك أقوم به ، أن ينقلوا إليه ملخصاً يومياً عن كل ما أفعل... هل نمت جيداً ؟ هل أكلت جيداً ؟ هل تمشيت ؟ وبدهشة بالغة نقل لي أحد المخبرين المطلوب منه ، وفهمت . وبعثت إليه كل يوم برسالة... كالعادة : استيقظ مبكراً جداً ، العب رياضة ، أدور في الممر المحدود مائة دورة جرياً . استحم . أفطر . أقرأ . أكتب (في الأشهر الأخيرة سمح لي بكتب وأوراق) استمع إلى موسيقى من الكاسيت... وهكذا شخص لم يبدأ بعد مرحلة الاستسلام ، ولا يبدو عليه أنه يقترب منها .

ذات يوم سألني بمودة... ألا تشعر بقلق ، أو خوف ، أو ملل من هذا السجن الذي لا تعرف له نهاية ؟ قلت له : تذكر العبارة التي قرأتها لك على جدار الزنزانة ليلة حضوري إلى هنا ؟... ونطقناها معاً : « كلُ هَمٍّ يزول » .

وبعد فترة اقتنع « مجدي » أنه لا فائدة ولا مبرر... ولا جدوى .

وبدأنا نناقش وبصراحة خطط حزب التجمع للمستقبل ، وخططه هو شخصياً للمستقبل .

... وعندما أفرج عني حرص على مجاملتي بأن سمح لي بمكالمة زوجتي تليفونياً لأرتب معها مسألة العودة إلى البيت... بل وحرص على مجاملتي في عدة أيام... فوق القانون كانت وزارة الداخلية تمتلك الحق في احتجاز المفرج عنه خمسة عشر يوماً تالية .

وذات يوم وفيما تبقى حوالي خمسة أيام أتى مبتسماً ليسألني : هل لديك مانع من أن تخرج اليوم ؟ طبعاً لا مانع . قال : ألححت على الوزير حتى وافق... كنوع من الترضية لك ، بعد أن أخطأنا في حقك .

واتفقنا أن نلتقي خارج السجن... وفعلاً التقينا . واستعدنا تلك المناقشات الطويلة والممتدة عبر ساعات طوال... والموضوعات التي اجتزنا

فيها عتبات المناقشة إلى تبادل الرأي ، وإلى المحاضرة أحياناً فقد كان يحدد موضوعاً ثم ينصت لساعات ، ويستمع باهتمام من يريد أن يعرف . وتجولت مناقشاتنا حول موضوعات عدة .

ولم أزل ممتناً له... فقد خفف كثيراً من أثر السجن ، ولم أزل مندهشاً من تفتحه ، ورغبته العارمة في التعرف والمعرفة .

* * *

... وبعد زيارة الرئيس السادات للقدس ، قابلته عرضاً ، ودهشت إذ قال دون أن أسأل : هل عرفت أنني استقلت ؟ ودهشت ، ولم أخف دهشتي ، فهذا نوع من الضباط يمكنه أن يصعد إلى أعلى قمم الجهاز . قال : كانت زيارة القدس هي آخر ما استطعت أن أتحمل . وبعدها لم أستطع ، ولن أستطيع .

جلسنا نشرب قهوة... أبديت إعجابي . ابتسم قائلاً : منك لله . إنت السبب .

الاستضافة رقم ٢

... وتبدأ القصة بزيارة باريسية ، وبينما كنت خارجاً من فندق كولد برنار في شارع المدارس وجدت في مواجهتي وأمام باب الفندق المواجه... د . لويس عوض منتصباً في استرخاء مريح وأمامه حقيبته .

اندفعت . سلمت ، تضاحكنا . قال بصراحته المعهودة : أنا في انتظار سيارة من السفارة لتنقلني إلى فندق «لي كريون» . اسم « لي كريون » يثير الدهشة المملوءة بالشغف ، فأمثالنا لا يتجاسرون على المرور أمام هذا الفندق... الأرستقراطي جداً ، وإلى درجة تثير فيك الإحساس بالخوف . (هو أتى إلى فندق متواضع اعتاد عليه ، لكن تعليمات القصر الرئاسي حتمت هذا الانتقال) ،

لم ينتظر سؤالاً أو استفساراً . بساطته الدافقة تدفقت بالحكاية .

هو يسهم في تجميع المادة العلمية لرسالة الماجستير الخاصة بالسيدة الأولى لمصر آنذاك « جيهان السادات » .

وإذ حاولت الدهشة أن تطل من بعض كلماتي... كيف لأستاذ كبير مثله أن... ولم أكمل... قال : نحن ثلاثة ، ومعنا فلان (أشهر مترجمي مصر من الإنجليزية إلى العربية) كمترجم .

وإذ حاولت الدهشة مرة أخرى أن تندهش ، قال في بساطة بريئة : «مش علشان أي حاجة ، علشان الست ، دي ست ظريفة جداً ، ومهذبة جداً ، عاملتني باحترام شديد عندما زرتها في قصر الرئاسة ، صبت الشاي بنفسها في فنجاني... وعاملتني كضيف معزز مكرم ، إنها نموذج لسيدة مهذبة» .

ومضت أسابيع قليلة ، وفيما أندفع في أحد ردهات الأهرام مسرعاً كعادتي أيام الشباب ، وجدت نفسي مصطدماً بأحضان د . لويس ، سألته مازحاً : أخبار الست إيه... قال ساخطاً : «دي بنت...» وسرنا نحو غرفته ليكمل لي حكايته معها .

جمع المادة المطلوبة ، سلمها للأستاذ المكلف بالصياغة . ثم بالغ في تصور قيمة الأمر كله فطلب مقابلة «الست» . هذه المرة الاستجابة تراجعت طويلاً... وبعد مطالبة ثانية حدد الموعد... دخل الدكتور يعد ملاحظاته على موضوع الرسالة ، وأسلوب إعدادها . فجأة وفيما كان يتأمل أحد لوحات الصالون سمع صوتها مرحباً به... التفت ولم يجدها ، كان الصوت المترفع يأتي عبر إحدى السماعات ، قالت : آسفة يا دكتور أنا مشغولة . عايز حاجة ؟ حاول أن يسرد بعضاً من ملاحظاته غير واثق من أن صوته يصل إليها... كما يصله صوتها ، وهي قالت بملل واضح : أرجوك يا دكتور ناقش الموضوع ده مع د . فلان... أنا مش فاضية .

... ويشاء حظي أن أفتح التليفزيون لأشاهد مناقشة رسالة السيدة الأولى وهي تنقل بالكامل على الهواء . كانت رئيسة لجنة النقاش منبهرة بالرسالة (وهي محقة تماماً ، فقد جند ثلاثة من أشهر الأستاذة وواحد من أشهر المترجمين لإعدادها)... وكانت السيدة الأولى تجيب عن الأسئلة المرتجفة بترفع يليق بها .

تذكرت غضب د .لويس من ترفعها عن مقابلته . وتذكرت أنه لا علاقة

لها بهذه الرسالة ، وأن الجهد يجب أن ينسب لأصحابه . وتذكرت الملك فاروق وهو يرفل في ثياب الجهل الجاهل إذ منحوه درجة الدكتوراه الفخرية ، وتصورت أنه أكثر شرفاً من هذه المهزلة .

وكانت «الأهالي» في هذه الأيام موقوف صدوَرها منذ فترة طويلة . صودرت ، ثم صودرت عديداً من المرات المتتالية ، وعاندنا عناداً شديداً إلى درجة أننا أصدرنا عدداً لا يحتوي إلا على نص برنامج الحزب (وهو البرنامج الذي أُشهر الحزب على أساسه والذي حظي بموافقة رسمية من اجتماع مشترك لمجلس الشعب واللجنة المركزية للاتحاد الاشتراكي ، واكتسب بهذه الموافقة حجية الشيء المقبول به رسمياً) ومع ذلك صودر العدد .

ويتصاعد عنادنا فنصدر «التقدم» (خمسة آلاف نسخة) نحررها ، نكتبها على الآلة الكاتبة ، نطبعها ، نجهزها ، داخل المقر المركزي . وكثيراً ما كانت الصعوبة تتبدى عند محاولة إخراجها من المقر ، البوليس المتربص يلاحق اللفافات ، ويلاحق من يحملونها . ومع ذلك استمرت «التقدم» فقد كانت كلمتنا الوحيدة المتاحة .

المهم... وإذ تراكم الغيظ المكتوم منذ استقبالي لغضبة د . لويس وبعد متابعتي للمناقشة الهزلية في التليفزيون ، كتبت مقالاً... سكبت فيه كل ما تراكم من تراكمات الغيظ .

عنوان المقال «اتحاد لزوجات رؤساء الجمهورية» .

وبدأت بحكاية قصة زوجة الزعيم الصيني الراحل ماو تسي تونج... كيف أنهم تملقوها حتى أسموها «جميلة الجميلات» و«عالمة العالمات» . وكيف أنها حصلت على أكثر من رسالة دكتوراه... وكيف... وكيف... ثم أتى زمن الغروب ، غربت شمس الزعيم ، وآن للشمس والقمر أن يختفيا من سماء السيدة الأولى ، فلا يتبقى سوى الانزواء ... ثم المطاردة... ثم المحاكمة .

«جميلة الجميلات» ، و«عبقرية العبقريات» ذهلت من تهجم الجميع عليها . تذكرت ما كان ، كل ما كان (ولعلها لسوء حظها كانت تصدقه) دهشت ، أو غضبت ، أو انهارت ، المهم أنها انفجرت في القضاة ، انفجرت ربما بجنون ، وهل من عقل يمتلك قليلاً أو حتى كثيراً من التعقل يمكنه أن يستوعب هذا الانقلاب في مواقف الناس ؟

خلعت ثيابها قطعة قطعة ، ألقت بها في وجه القضاة حتى استوت عارية تماماً (ملحوظة : هذه الواقعة صحيحة فعلاً) فزع القضاة . قفزوا خارج القاعة... وحكموا عليها حكماً قاسياً... بذات قسوة تملقهم لها عندما كانت شمسها مشرقة على الصين كلها .

وتوالت كلمات المقال بعد ذلك... هذا المصير ينتظر الكثير من زوجات رؤساء الجمهورية . الغرور المغتر بالنفاق الدافق يتخمهن... والتقلب المتقلب حتماً يقصم ظهرهن .

ولا يتبقى (هكذا قلت في المقال) سوى أن يؤسسن اتحاداً لزوجات رؤساء الجمهورية... يكون شعاره «يا زوجات رؤساء الجمهورية اتحدن... الديمقراطية أو الاستربتيز» .

* * *

كالمعتاد كنت أحمل معي عدداً من نسخ «التقدم» أوزعها على بعض زملاء جريدة الأهرام ، وحتى بعض الكبار منهم مثل كمال الملاخ وحمدي فؤاد وصلاح جلال كانوا ينتظرون ، ويلحون في همس ، ويتبادلونها في تقدير ربما مبالغ فيه .

وبينما أنساب بجوار صالة التحرير متجهاً إلى ملتقانا في غرفة كمال الملاخ... أسرعت خلفي زميلة أهرامية (أ) وهي قريبة للسيدة الأولى

وتتباهى دائماً بأن «آنت جيهان» قالت... أو فعلت ، وكانت تستمتع طبعاً بمتعة القرابة المقتربة من قمة قمم السلطة... أسرعت «أ» لاهثة في انفعال «إيه الهباب اللي إنت كتبته ده» وابتسمت وأنا أستمع إليها... «آنت جيهان عرض عليه تقرير به مقالك... قالت غاضبة : سأعرف كيف أربي ابن... ده» .

وكالمعتاد... أتى العسس مساءً لأحل ضَيفاً من جديد على سجن القلعة . ذات السجن . ذات الحجرة رقم ٢ ليكون بابي مواجهاً مباشرة لباب غرفة مأمور السجن فلا يتجاسر أحد على فتحه إلا بأمر آخر .

... وكالمعتاد يقبض على المطلوب ، ثم يبحث عن تهمة له .

كان الضابط الذي أتى للقبض عليّ لطيفاً وهادئاً ، قال في بساطة : «زملائي قالوا لي لا تتعب نفسك ، فلن تجد لديه أي شيء ممنوع» . لهذا لم يرهق نفسه أو يرهقني بأي تفتيش ، وإذ أعددت حقيبتي ، وفيما أغادر قال مبتسماً : مفيش أي حاجة نأخذها معانا ، بدل ما نخرج فاضيين ؟

مددت يدي على المكتب لأجد مظروفاً وصلني من لندن يحتوي على نسخة من مجلة عربية تصدر هنك تحتوي على عرض مسهب لمحاضرة ألقيتها في جامعة لندن عن «أوضاع مصر» .

وبينما أرفع المظروف ظهر من تحته عدد من مجلة «البلاي بوي» (مجلة جنسية تحتوي صوراً عارية لرجال ونساء) انتفض الرجل مندهشاً «إيه ده يا دكتور ، أنت عندك حاجات زي كده» .

قلت أحضرتها لأقرأ الحديث الذي أدلت به سيدة مصر الأولى . ناولته المجلة في صدرها صورة جيهان السادات وحديث لها على عديد من الصفحات . أمسك بالمجلة ، تلاعبت أصابعه بالصفحات لتطالع أجساداً عارية

بصورة مقززة ، وصور لجيهان السادات تجسد مهانة لمصر ، لا يقبلها أي مصري... ألقى بالمجلة قائلاً في غيظ لم يحاول أن يخفيه « إيه القرف ده » .

وأخذ المجلة اللندنية التي تحتوي على عرض لمحاضرتي في جامعة لندن .

* * *

وربما كانت المرة الأولى وربما الأخيرة التي يستشعر فيها المتهم بحالة من الرثاء العميق للمحقق .

كان المحقق مرتبكاً . لا يجد ما يقول . فما من شيء أمامه يمكنه أن يسأل فيه ، أو يسأل عنه .

أمر القبض صدر عاجلاً ، ونفذ عاجلاً دون الإعداد أو الاستعداد ، وبدأت أسئلة متعثرة . ما هي علاقتك بحزب التجمع ؟ وضحكت . فعلاقتي أوضح من أن توضح... ثم : هل تسعون لتغيير نظام الحكم ؟ وأجبت ببساطة : نعم . فلسنا نادٍ رياضي... نحن حزب يسعى ، ومن حقه أن يسعى ، لتغيير نظام وطاقم الحكم معاً ، ليحكم هو ، طالما أنه يسعى لذلك بوسائل شرعية .

لم يجد ما يفتح به هذا الباب المغلق . فانتقل إلى باب آخر . هل أصدرت كتباً عن تاريخ الحركة الشيوعية المصرية ؟ وأيضاً ضحكت . الإجابة ليست بحاجة إلى كلمات كي تتوضح ، فالكتب كثيرة . طبعت ، ووزعت على مدى سنوات دون اعتراض من أحد . لكنه قال محاولاً أن يفتح ثقباً في باب مغلق بطبعه... تقول تقارير أمن الدولة إنك أعددت وكتبت وطبعت ووزعت هذه الكتب بناءً على تعليمات من قيادة الحزب الشيوعي المصري . وكانت إجابتي بسؤال... كتبت كتابين عن النحاس وسعد زغلول وكتاباً عن

عرابي وآخر عن محمد فريد وكتاباً عن حسن البنا وآخر عن أحمد حسين وأيضاً عن عبد الناصر ، فمن أصدر لي تعليمات بذلك كله ؟ ثم أن الذي وزع هذه الكتب هو مؤسسة الأهرام... دون اعتراض من أحد .

وأحس المتهم بقطرات من عرق تتجمع على جبين المحقق . مسكين هذا الممثل في مسرحية غير متقنة .

وبدأت أنتظر أن يصرخ في سباب لهؤلاء الذين أوقعوه في مأزق لا مخرج منه .

دقات على الباب ، أنقذته ، غيّرت مجرى تيار الكهرباء الذي شحن الغرفة بالتوتر . تلفت بحثاً عن منقذ . انفلت موظف . همس . أوقف المحقق التحقيق . وأفلت :

خمس دقائق أو أكثر قليلاً وعاد متهللاً... هادىء البال... مستعيداً كثيراً من ثباته المفترض . مظروف كبير يتمدد الآن أمامه . المظروف مفتوح بغير اتقان ، إنها طريقة المتعجل .

وأخرج ورقة تأملها... ثم كتيباً تأمله . تمددت نظرته المتشفية نحوي . ثم اعتدل . تنفس . تهيأ . وبدأ التحقيق . وكأنه يبدأ من جديد :

ـ هل زرت لندن ؟

ـ نعم .

ـ لماذا ؟

ـ بدعوة من جامعة لندن لإلقاء سلسلة محاضرات عن تاريخ مصر الحديث .

ـ وهل ألقيت محاضرة عامة ؟

ـ نعم . وجه بعض الأساتذة العرب دعوة لي لإلقاء محاضرة عامة عن الأوضاع في مصر . والمحاضرة تمت في أحد مدرجات الجامعة وتناولت

الأوضاع بشكل عام . وهناك أكثر من تسجيل لها .أنا لديَّ واحد . والسفارة المصرية أرسلت مندوباً حضر وسجل هو أيضاً .

ـ تقول تقارير مباحث أمن الدولة إن هذه المحاضرة قد نظمت خصيصاً كي تتهيأ الفرصة لعناصر الحزب الشيوعي المصري أن توزع كتيباً بعنوان «الشعب المصري ضد كامب ديفيد» .

(تمسكت بأهداف ذاكرتي لم يوزع شيء خلال المحاضرة . كنت أعرف أنها مناسبة محفوفة بالمخاطر فحرصت وحرص الجميع على أن تمضي بسلام ، وعلى أن تكون المحاضرة والحوار في الحدود المحددة لما هو ممكن) .

مددت يدي لأتناول الكتيب ، ناولني الرجل الكتيب . لاحظت طرف المجلة اللندنية يطل من المظروف (ذات المجلة اللندنية التي أعطيتها للضابط الذي قام بالتفتيش... أخذها ، قرأوا ما كتب فيها . علموا بالمحاضرة ، لفقوا قصة توزيع الكتيب) .

قلبت الكتيب في يدي . لمحت التاريخ ، امتلكت القنبلة ، لكنني أجلت تفجيرها . جادلت طويلاً حول تقاليد جامعة لندن ، وتقاليد المحاضرات العامة ، ومسؤولية المحاضر عما يقول وعدم مسؤوليته عما يوزع في القاعة... وبعد أن شبعت من التلاعب بالمحقق المسكين نزعت من القنبلة صمام أمانها لتنفجر . تاريخ الكتيب يأتي بعد تاريخ المحاضرة وتاريخ مغادرتي لندن بأكثر من ثلاثة أسابيع (المساكين في أمن الدولة فرض عليهم البحث عن مبرر . تسرعوا وأسرعوا بتلفيق مالا يمكن أن يُلفق . والمسكين المحقق وقع في المأزق) .

صمت المحقق . لم يجد ما يقول . سوى عبارتين . إحداهما رسمية «يعود المتهم إلى محبسه» . وأخرى هامسة وغير رسمية «أنا آسف» .

وبعد أسابيع قليلة انتهت المهزلة بالإفراج .

ملحوظة : كانت هذه الاستضافة الإجبارية فرصة كي أختزن في ذاكرتي (كما فعلت من قبل) رواية جديدة هي «البصقة» لأسكبها سريعاً على الورق بعد الإفراج عني .

الحزب ... الورداني

... ولست أعرف لماذا نستطيع دوماً أن نحاصر ضحكاتنا بأسلاك شائكة من التحفظ ، بينما تحاصرنا حالات الغضب فتستعصي على محاولات كبح جماحها .

فنحن عادة ما ننساق في الغضب بتداعيات لا أعرف من أين نستوردها ، خاصة ذلك الغضب المكتوب ، فالكلمات المكتوبة تستعدي بعضها بعضاً... لتتراكم ، محاولة أن تسترضي نوازع الغضب المشتعل ، لا لتطفىء شرارته ، بل ربما لتزيده اشتعالاً .

ويمضي وقت ، قليل أو كثير لنكتشف مساحة المبالغة ، لكن بعد فوات الأوان .

وهكذا كان الأمر بيني وبين إبراهيم الورداني .

لم أعد أذكر كيف إلتهب الصراع . مقال منه ضد مجلة «الطليعة»... ورد مني . ثم تراكمت كرة الثلج لتصبح معركة . وتوالت التداعيات لتستدعي حدة حادة من الطرفين ، حتى زارني في الأهرام رجل لا أعرفه لكنه قال أنه موفد من رمسيس نجيب (المنتج السينمائي المشهور) ، ولست أعرف حتى الآن سر إهتمامه بإيذاء إبراهيم الورداني ، ناولني الرجل مظروفاً

ومضى حتى قبل أن أمتلك إجابات على إستفساراتي . فتحت المظروف : أوراق... قصاصات... صحف قديمة... كتاب صدر عام ١٩٤٣ . وكلها تشكل فضيحة قديمة مدوية... لكنها شخصية... ومريرة المذاق... أغلقت المظروف وقررت ألا أبتذل النقاش ـ الذي حاولت دوماً أن أنحو به باتجاه السياسة ـ بإغراقه في بئر التهجم الشخصي ، وإصطياد الجراح القديمة المريرة ، التي قد يكون صاحبها قد ندم عليها ، وتناساها .

ولست أعرف كيف عرف الورداني بأمر المظروف ؟ ربما حاول الذي أرسله أن يشعل خوفه فأرسل له من يبلغه . وذات صباح استدعاني توفيق الحكيم إلى مكتبه .

كان معنا في ذات الدور السادس في الأهرام ؛ توجهت مسرعاً . فمن لا يتجه منطلقاً لينعم بلقاء مع توفيق الحكيم الذي كان يمزج حكمته الحكيمة بروح مرحة وأبوة حانية ؟ دخلت... إهتزت العصا التقليدية وكأنها توشك أن ترتطم برأسي وصاح «إيه يا واد الكلام الفارغ ده» ؟ خير يا توفيق بك... وإذ أجلس وجدت أمامي رجلاً ضخماً... أسمر . ملامح غير متسقة ، بل لعلها متنافرة بشكل منفر... لكن الوجه الأسمر كان يبتسم .

وصاح توفيق بك وهو يلوح بعصاه «إنتو مبسوطين من الكلام الفارغ اللي إنتو بتكتبوه . عايزين تعلموا الناس إيه ؟ بتدوهم دروس في قلة الأدب ؟ وانطلقت العصا تهتز في غضب ، تعلمنا أن الكتابة مسؤولية قبل أن تكون مبارزة ، وبالتدريج بدأت أعرف أن الضخم الجالس أمامي هو إبراهيم الورداني .

تعاتبنا . ضحك بصوت عال قائلاً : «أصل عيب الناس دي يا توفيق بك إنهم لسه لحد دلوقت يقرأون ، في حين أننا تخطينا مرحلة القراءة إلى

مرحلة الكتابة» . طالت عصا الحكيم رأس الرجل وإن بحنان ، وهو يغرقه بشتائم ودودة ، كنا جميعاً نتقبلها منه بامتنان .

سألني الورداني عن المظروف . قلت : لم أكمل قراءته ، ولن أقرأه ، ولن أكتب عنه ، فهذا أمر خارج عن حوارنا ، طالتني عصا الحكيم وهو يقول «برافو يا ولد» إستأذنت . وبعد دقائق عدت بالمظروف لأعطيه للورداني الذي كان مندهشاً بحيث عجز لسانه ـ الطويل دوماً ـ عن أي قول .

* * *

وتوقفنا . لم يعد أي منا يذكر الآخر بخير أو بشر . وبدأت أتعلم درس الحكيم عن الكتابة الغاضبة وإن ليس كاملاً .

مضت سنوات وفي الثمانينيات كتب الورداني في جريدة مايو سلسلة مقالات بذيئة ضد التجمع واتهمنا بالخيانة والعمالة... وهي كلمات كانت تسابق غيرها فتسبقها في كتابات الورداني عن الخصوم السياسيين للنظام . رددت عليه بحدة . لكن دون تجاوز . وفي العدد التالي من مايو سكب الورداني كل ما لديه من قواميس الشتائم ضدي شخصياً . وأكد أنني أخذت الدكتوراه في السباكة ، فأنا أصلح في أحسن الأحوال سبّاكاً ، وأشياء من هذا القبيل .

وإذ قررت أن أرد عليه لاحت أمامي عصا الحكيم وهو يلوح بها مؤكداً أن الكتابة مسؤولية وليست مبارزة ، أطحت بما كتبت بعيداً ، ثم كتبت من جديد مقالاً موجعاً جداً ، وإن كان مهذباً جداً .

عنوان المقال «الحزب الوطني الورداني» وفيه إقترحت على الحزب الحاكم أن يغير اسمه ليرصعه باسم الورداني ، فالورداني هو النموذج والرمز الذي يلخص أخلاقيات وآداب وأساليب الحكم . قلت : الورداني يليق بكم ، وأنتم تليقون به ، فتسموا باسمه .

وكان المقال موجعاً للحزب الذي تنبه إلى خطر إنجراف جريدته إلى حقول الشتائم غير الأخلاقية ، فنبه (ربما) إلى إيقاف مثل هذه المقالات... وتوقفت . وإن واصل الورداني الكتابة بعيداً عن طيش التهجم علينا .

* * *

وبعد عدة أشهر كنت في سرادق عزاء لأحد الصفحيين . دخلت الملامح الجهمة ، التي زادتها فاجعة موت صديق تجهماً . تلفت وجلس . وقررت أن أتجاهله . فلا أنا أرغب في معاتبته ، ولا هو ممن يمكن معاتبتهم . عيناه إستقرتا عليّ ، فقام وجلس إلى جواري . تصافحنا في صمت . تبادلنا كلمات العزاء التقليدية ، قررت أن أتواصل مع الصمت . هو أيضاً كان صامتاً على غير العادة . فجأة همس في أذني بخجل خجول فعلاً : أنا آسف يا رفعت . أنا لم أندم في حياتي على هجومي ضد شخص مثل ندمي على هجومي عليك .

عقدت الدهشة لساني . فالورداني ليس من هذا الصنف الذي يعتذر . حتى عندما أعطيته المظروف القديم في غرفة الحكيم لم يطق أن ينطق بكلمة شكر ـ تلقيت الاعتذار بنظرة صامتة ومندهشة . وأحس أنه مدين بإيضاح . (كان جيل بيرو قد أصدر بالفرنسية كتابه عن هنري كورييل «رجل من طراز فريد» . وكانت جريدة الأخبار تنشر الكتاب على حلقات وفي إحدى الحلقات وردت عبارات كثيرة عني منها مثلاً «رفعت السعيد هل تذكرونه . إنه ذلك الفتى إبن الخامسة عشرة الذي كان أصغر من دخل المعتقل عام ١٩٤٩ ، الذي أتى إلى معتقل الهايكستب بالشورت ليثير دهشة الجميع معتقلين وحراساً» ، وعبارات أخرى مماثلة) .

قرأ الورداني . ودهش . لقد إتهمني بالعمالة وقال : إنها عمالة مدفوعة

الأجر . وكان يسأل : إسألوه : كم أعطوه ليصبح شيوعياً ؟ لكنه ـ وبعد أن قرأ ما نشر في الأخبار ـ بدأ يراجع نفسه فكيف لطفل أن يصبح عميلاً . وكم يقبض الإنسان كي يسجن أربعة عشر عاماً ؟ ولماذا لا يكون هذا «الولد» قد إقتنع بالشيوعية فعلاً ؟ وإذ ساورته الشكوك ، وإذ كان رغم طول لسانه نقي السريرة ، فقد شعر بالدهشة ، ذلك النوع من الدهشة الذي يجبر العقل على التفكير ، ويرغمه برغم العناد على أن يلين أمام صوت العقل . وإذ كان الورداني يهمس بالقصة ويواصل إعتذاره ، كنت أنا أراكم من دهشتي ، فهل كان الرجل يعتقد فعلاً أننا عملاء ؟ يعتقد فعلاً ، وليس مجرد إدعاء سياسي ، ضد خصم سياسي ؟

وسألت «أنت يا إبراهيم كنت فاكر إنني عميل ؟» ، قال بصراحته المنطلقة : «والله العظيم أنا كنت متأكد أنكم عملاء . إحنا إتربينا كده . علمونا كده ، وأكدوا علينا ، وغرسوا فينا أنكم عملاء... لكن دلوقت أنا عرفت الحقيقة وأنا آسف فعلاً» .

إنتهت مراسم العزاء ، وفيما أودعه أصر على أن يعتذر مرة أخرى . لكن الدهشة الحقيقية جاءت عندما نشر الورداني في عموده اليومي في الجمهورية ... إعتذاراً جميلاً... حكى فيه القصة كلها وختمه بعبارة تقول : «يا عزيزي رفعت السعيد... أعتذر لك عما كتبت عنك... فأنت رجل صاحب مبدأ ، نختلف معك بشدة لكنك لست عميلاً... بل صاحب مبدأ» .

واكتشفت جانباً كان خفياً في شخصية الورداني... ربما أخفاه هو بعناده ، وحدته ، وإحتداده الدائم في مواجهة خصومه... وقدرته الفائقة على إستخدام أشد الكلمات قسوة في الحديث عنهم .

وتلقنت من الورداني درساً يبقى متبقياً في الذاكرة... ألا ننظر إلى خصومنا نظرة أحادية الجانب .

إلى أمريكا

فجأة ، وبلا مقدمات ، هبط إلى مكتبي في الحزب المستشار السياسي للسفارة الأمريكية ، يحمل متهللاً (بطريقة مصطنعة) دعوة لزيارة أمريكا . كان يعتبر أن هذه الدعوة تمثل تطوراً مهماً في أسلوب التفهم والتعامل إذ تأتي من أمريكا إلي... وإذ أقبلها .

ولست أدري لماذا حاول أن يغلف الأمر بقدر عال من الأهمية ، فقد أكد أن السفير مستعد أن يخاطب الرئيس مبارك شخصياً لتذليل أية عقبات ، وربما لأنني نظرت للأمر نظرة مبسطة وبسيطة ، وربما لأوحي بأنه لا مبرر لتهلله الزائد ، ومبالغته المفرطة ، فقد قبلت الدعوة على الفور مؤكداً أنه لا عقبات . وبدأت انتقل بالحديث إلى مسارات أخرى . ، لكنه ظل منفعلاً بالأمر أو هكذا حاول أن يبدو .

ومناسبة الزيارة هي... أن أحضر ، وأشاهد ، وأحاضر ، وأتحادث... في مناسبة انتخابات الرئاسة الأمريكية (جولة بوش الثانية)

ولعلي أكون مفرطاً في السذاجة إذ أقرر الآن ، أن الأمر لم يكن بهذه البساطة التي تعاملت بها معه في بداياته . فلقد أثار لغطاً ودهشة وتساؤلات . حتى السوفييت انبهروا وبدأوا يناوشونني حول المغزى ،

والمحتوى ، والاحتمالات ، والمبررات... أما الأصدقاء والزملاء فقد لمحت في نظراتهم تساؤلاً رربما رثاءً .

لكنني لم أشعر ـ وبصدق ـ بأي مبرر لوضع مرآة مكبرة قبالة هذا الموضوع ، ومنحه مساحة أكبر من حجمه المفترض . وحتى لم أشعر سوى بالدهشة والرثاء لهؤلاء الذين انبروا يكتبون ويكتبون مهاجمين هذه الزيارة ، وحتى عندما أصدر الأستاذ سلامة كيلة في دمشق كتيباً عنوانه « نقد الماركسية الرائجة... مناقشة لأفكار د . رفعت السعيد »... وعلق فيه على هذه الزيارة قائلاً : « نشرت جريدة الأهالي (العدد ٣٧٥ تاريخ ٢٤/١٢/٨٨) خبراً مذهلاً (لاحظ مذهلاً هذه) حين قالت : بدعوة من الحكومة الأمريكية زار د . رفعت السعيد الولايات المتحدة « وأشارت » إلى أنه التقى بممثلين عن وزارة الخارجية والكونجرس ، كما قام بزيارة البنتاجون حيث أجرى مناقشة مع المسؤولين عن الشرق الأوسط » ، كما نشر د . رفعت السعيد مقالاً في العدد التالي من الأهالي (٢١/١٢/١٩٨٨) عنوانه « أنا في أمريكا » ، واللافت أن د . رفعت يقول في بدايته : لعلها البريسترويكا التي دفعتني أنا لقبول دعوة كهذه » . ويمضي الأستاذ سلامة كيلة قائلاً : « طبعاً يمكن أن نفهم أن يزور جورباتشوف الولايات المتحدة ، وأن يلتقي المسؤولين الأمريكيين ، لأن جورباتشوف يمثل دولة اشتراكية عظمى توازي الولايات المتحدة من حيث القوة ، كما أنه برغم اختلاف الأنظمة الاجتماعية بينهما ، فإن التعايش هو خيارهما... أما حينما تتعلق المسألة بقائد ماركسي ، في بلد من البلدان الرأسمالية التابعة ، المسيطر عليها من قبل الشركات الاحتكارية الإمبريالية ، فإن الأمور تأخذ منحى آخر ، لأنه كما هو مفترض يمثل طبقة مضطهدة ، كما يعبر عن أمة مستغلة ، وبالتالي فإن خيار الماركسية هنا هو إزالة الاضطهاد والاستغلال ، وإزالتهما من خلال الصراع الطبقي » (ص ٢٦)

ثم يتساءل : «ألا يعبر ذلك عن شكل من أشكال التصالح الطبقي ؟ أليس هذا تعبيراً عن نقل مقولة التعايش السلمي بين الدول إلى حيز الطبقات ، لتصبح المقولة السائدة هي التعايش السلمي بين الطبقات ؟ » .

أقول حتى عندما صدر مثل هذا الكتيب الممتلىء بتحليلات وافتراضات من النوع السابق لم أشعر ـ ولو بأقل قدر ـ بأي مبرر لرفض الذهاب إلى أمريكا .

ولست أدري ما رأي الأستاذ كيلة في هذا الأمر ، لكن ما أعرفه أنني ذهبت وعدت دون أن أبحث عن تصالح طبقي مع أمريكا ، أو حتى دون أن أجد هناك من وجد ضرورة لمثل هذا التصالح... لا معي ، ولا مع حزبي ، ولا مع مجمل اليسار العربي بأسره .

ومنذ وقوفك على الخط الأصفر الفاصل بينك وبين رجال الجوازات الأمريكي ، تجد كل شيء ، وكل شخص ، وهو يلح بشك مفتعل ، ومنفعل ، على الإيحاء لك بأنك في عالم آخر ، فإن لم تتقبل الإيحاء برضا ورضى مستسلم فإنه يخزك كي تبتلعه مرغماً .

وثمة مرافقان رجل وامرأة ، أبيض وسمراء ، أو بالدقة سوداء ، وتظل هذه السمراء تلح منذ الهمسات الأولى على أنها شيء مختلف ، مضطهدة ليس لأنها زنجية ، وإنما لأنها يسارية ، لأنها كانت على علاقة وثيقة بأنجيلا ديفيز ، وقد يكون هذا صحيحاً ، لكن المفروض والمفترض أن تتقبله بتشكك يستشعر الشوك في كل كلمة ، والشك في كل تصرف .

واكتشف أننا مجموع : فلبيني (صحفي) مالطي (نائب وزير الخارجية) أفغاني (رئيس وكالة الأنباء الأفغانية التابعة «للمجاهدين» طبعاً) وأردني (سفير) .

جلسنا في محاولة للتعارف ، انتفض الفلبيني دون توقع ، ودون مناسبة

ليصرخ في وجوه الأمريكيين : «لماذا تبقون في بلادنا ؟ لا نريدكم ولا نريد قواعدكم» . لم يعلق على حديثه أحد ، لكن شيئاً ما حدث ، فقد كان في اليوم التالي هادئاً... سعيداً... ولم يثر قط موضوع القواعد مرة أخرى .

وهدف الإبهار يبقى متسلطاً ، فهم يعتمدون أن ينتقلوا بنا كل يوم عدة مرات من قاعة لأخرى ، ومن فندق لآخر ، رغم أنه بالإمكان مواصلة اللقاءات في قاعات الفندق الذي نقيم فيه .

ومنذ المرة الأولى لاحظت أن الديمقراطية الأمريكية... تقوم فقط على أساس التلقي . تعد الندوات إعداداً متقناً ، القاعة مغلفة بالإبهار ، المقاعد وثيرة... مشروبات ومأكولات بلا نهاية... محاضرون أذكياء يتسللون عبر الموضوعات بكفاءة ، ويغلفون كل شيء بخفة دم غير مفتعلة ، فتجد نفسك تبتسم ، ثم تضحك ، وتستمع وتستمتع ، وتفهم في آن واحد . والزمن محسوب بعناية فائقة ، فما أن ينتهي آخر المتحدثين حتى تكتشف أن الوقت قد داهمنا ، وأننا مضطرون إلى القفز إلى مكان آخر . ولا يبقى أمامك سوى أن تبتلع تساؤلاتك أو تعليقاتك . أدركت اللعبة من المرة الأولى ، وعندما تكررت أيقنت أنها مقصودة ، وقررت أن أشعرهم أنني لست ساذجاً إلى هذا الحد . حاولت أن أناقش الموضوع مع المالطي فقال : أنا هنا كي أتعلم . أريد أن أعرفهم جيداً وليس لديَّ ما أقوله . والأردني قال : أنا سفير ولا أريد تعقيدات قد تدمر مستقبلي .

واعتمدت على قدرتي على المباغتة . أخذونا إلى قاعة رائعة واصطف على المنصة متحدثون من هيئة المعونة الأمريكية... بعد ساعتين بالضبط لدينا موعد مهم في الكونجرس ، كل منا مع بعض المختصين أو الأعضاء المهتمين بمنطقته . مضت ساعة ونحن نسمع ، ونستمتع ، ونضحك ، نتناول نسكافيه أو شاي وحلويات... ساعة ونصف ساعة ولم يبق سوى وقت قصير...

ومتحدث لم يتكلم بعد... مكلف بأن يستهلك كل ما تبقى من وقت ، وقبل أن ينطق كنت أتحدث ، قلت : لسنا طلبة في مدرسة ثانوية نستمع ، ولا نناقش ، أنا لديَّ أسئلة وتعليقات .

قال رئيس المتحدثين (وهو زنجي) ، بقرفٍ : بعد أن ننتهي من الحديث ، قلت ستنتهون بعد أن ينتهي الوقت ، ولم أتركه يقاطعني ومضيت قائلاً : على أية حال أنا لست مهتماً كثيراً بالأرقام التي أوردتموها وتحدثتم عنها ، وحتى لم أتابعها (وقعت هذه العبارة عليهم وقع الصاعقة) فقد كنت مشغولاً بأمر آخر يقلقني ، ويقلقنا جميعاً في مصر . هل ثمة دور تجسسي تقوم به منظمتكم ؟ والذي يدفعنا إلى ذلك الحقل من الشكوك هو إصراركم على التغلغل في أعمق أعماق المجتمع... تذهبون بأنفسكم إلى القرية والحي... فلماذا ؟ (الصاعقة أشعلت ناراً في القاعة... خاصة المنصة ، لقد تعمدت أن أقذف بحجر ضخم في زجاج الحديث حتى أستخدم فرصة الدقيقة التي انتزعتها بأقسى استخدام ممكن... ووجم الجميع ، كان الأردني ينظر ببسمة ماكرة ، والفلبيني ربما يتساءل لماذا لم يطوعوني كما طوعوه . لكن سؤاله رغم وضوحه ظل صامتاً ، أما من على المنصة فقد انحنوا مثل قضاة الأفلام يتهامسون ، وأمسك الزنجي بالميكروفون ، وقال : واضح أن هناك سوء فهم ، سواء في الترتيب أو في العلاقة ، فالمقصود من هذه الندوة أن نشرح نحن دورنا ، أما أسئلة سياسية كهذه فيمكن الحديث عنها مع مسؤولين آخرين . فقلت مقاطعاً : أنتم إذن تتعاملون معنا على أساس أننا طلاب في مدرسة ثانوية ، نستمع ونسكت ، فإذا كانت هذه هي الديمقراطية الأمريكية فقد عرفتها ، لكنني لا أقبل التعامل على أساسها ، وأنسحب . وتدارك مدير المشروع (المسؤول عن رحلتنا) الأمر وقال : يبدو أن ثمة خطأ في الترتيبات ، فالبرنامج مشحون إلى درجة أنه لا يكفي للنقاش ، وسنكون

سعداء لو أمكننا أن ندير حواراً معكم . وابتداءً من اليوم التالي دعيت منفرداً لإلقاء محاضرات في جامعة « جورج تاون » ورحبت بذلك ، وانفردوا هم بالآخرين .

لكن الأمر لم يكن كله ساذجاً إلى هذا الحد ، ففي البنتاجون (حيث يتجمع أكثر الأمريكيين خبرة وذكاء في اعتقادي) دار حوار عميق وصاخب واستدام بقدر ما استطعنا نحن . وكذلك في الكونجرس ، وفي ندوة مهمة عقدت في بوسطن عن « أمريكا في مرحلة انتقال الرئاسة » وفي وزارة الخارجية... في جلسة طويلة ومنفردة مع المسؤولة عن ملف مصر... ثم لقاء جماعي صاخب مع من أسموه مسؤول « ملف السلام والتعايش السلمي » ، غرفته مغلفة ببوسترات تدعو للسلام ، تدهشك بكثرتها وإصرارها ، وكأنك جالس في صالة مقر مجلس السلام العالمي في هلسنكي . لكن المحتوى مختلف . بدأت أنا الحديث عن مشروع حرب الكواكب ، تحدث الرجل بطلاقة من يتقن الموضوع ، ويتقن الحديث عنه... وأكد أن مثل هذا المشروع « وقائي » ، وأن أمريكا لا تنوي حال استكماله أن تستخدمه ، قلت : تنفقون عشرة مليارات (هو ذكر هذا الرقم) ولاتستخدمونه ، وماذا لو لاحقكم السوفييت وصار صراع هناك في الكواكب ؟ قال بهدوء الواثق : هم لا يستطيعون... اقتصادياً . قلت : فإن لم يستطيعوا ؟ قال : بذات الهدوء : فليركعوا .

ضحك الأفغاني وقال بإنجليزيته المميزة : دعوهم لنا نحن نركعهم . فرد الأمريكي... لا... لا ، نحن نريد أن نركعهم تماماً .

قلت بملل : والعالم . فقال بهدوء : العالم سيكون أفضل وهم راكعون . واستدرك قائلاً : هذه وجهة نظر شخصية ، وأعرف أنك ضدها ، لكن لا بأس فأنت تحب الحوار . (أسلاكهم متصلة جيداً... فقد عرف بموضوع إلحاحي على الحوار) .

لم تكن اللقاءات كلها من هذا الصنف ، فعندما زرنا مقر «اتحاد العمال» كان المتحدث ساذجاً بصورة أدهشت الجميع ، سألته : (وكنت من يسأل في أغلب الأحيان . فقد كنت كما قال مدير المشروع وهو يودعني... الغلطة الوحيدة) ماذا تفعلون للمتعطلين ؟ قال : نحن اتحاد للعاملين ، وعندما يفقد العضو عمله فإنه يفقد عضويته .

وقلت : وماذا عن الألوف الذين يقيمون في الشوارع بلا مأوى ؟

قال : معلوماتي أن هناك آلافاً من المساكن جاهزة للتأجير .

قلت : لكنهم لا يملكون... الإيجار .

فأجاب : وهل مطلوب مني أن أوزع عليهم نقوداً ؟

ورويداً ، رويداً... أبدأ في تفهم العقلية الأمريكية... والفهم الأمريكي .

ورويداً ، رويداً أستشعر رغبة عارمة في الرحيل .

* * *

وفيما تمرق السيارة الفارهة في أحد الشوارع التالية للشارع رقم ١٤ في واشنطن (منذ اليوم الأول يحذرونك لا تتخطى الشارع ١٤ ، فالجريمة هناك دائمة ومتكررة... بل ومستمرة وبلا انقطاع ، وربما بلا مبرر) لمحت لافتة مكتوبة بالعربية «رابطة العبرانيين المسلمين» طلبت من مرافقتي التوقف ، قالت : ممنوع ، هذه منطقة خطرة ، ألححت وتوقفنا . الباب مفتوح . دخلنا . كلهم زنوج ، جلابيات بيضاء... طواقي... مسابح في الأيدي . قلت : السلام عليكم . ردوا بعربية توحي بأنهم لا يعرفون سوى كلمة أو اثنتين . قدمت نفسي ، وبدأت استمع .

إنهم مجموعة مريبة ، ذات أفكار دينية تمزج في دهاء بين اليهودية والإسلام . تقوم الفكرة الأساسية على أنهم سلالة القبيلة العبرانية الثالثة

عشرة ، والمعروفة تاريخياً باسم القبيلة التائهة أو المفقودة . وأن القبيلة تاهت من جموع اليهود المغادين مصر مع موسى... واتجهت إلى النوبة... ثم اعتنق أبناؤها الإسلام .

ثم دورة غريبة من شرح التعاليم الدينية... لا هي بالإسلام ولا هي باليهودية ، بين بين . وشوق غريب مصطنع للنوبة : أرض الأجداد . وربما أيضاً أرض الميعاد .

وأستشعر قدراً من الدهشة الممتزجة بشكوك اعتادت أن تقفز خلال زيارتي الأمريكية . وجهت أسئلة في العقيدة فاكتشفت تلفيقاً مفتعلاً ، ونفادَ صبر في النقاش ربما مبعثه ضعف الحجة ، وضعف المنطق . وعندما وصلت بهم إلى مأزق نقاشي انتزعتني مرافقتي من يدي بعنف معتذرة بأننا على موعد مهم ، ولم نكن على موعد ، وفي السيارة لامتني بشدة على نقاش محرج ، في مكان خطر ، ومع أناس أشد خطراً من المكان .

(وبعدها بعدة سنوات تتكشف هذه المحاولة هنا في أسوان عندما يأتي فوج منهم بحجة دراسة الحضارة النوبية ، وبذات الادعاءات المعتقدية وبهدف الغوص في العمق النوبي...) .

* * *

وأمريكا بلد رحب... ممتع ، ولا يرحم . افعل ما شئت ابتداءً من النقد الحاد حتى الموت جوعاً... ولن يتعرض لك أحد... وكم تبدو مأساوية شوارع واشنطن الأنيقة إذ يحتلها رجال ونساء بلا مأوى... يعيشون على الأرصفة بالألوف ويموتون أحياناً من البرد ، والمجتمع الأمريكي لا يشعر بأية مسؤولية إزاءهم .

وفي التليفزيون شاهدت سيدة تجلس في حديقة في شارع كنيتيكت

الشهير وبجوارها كومة من الكتب . هي أستاذة في الجامعة ، استاذة لم تزل ، ومرتبها لم يكف لدفع أجرة الشقة فطردت . تمشيت إلى المكان وكان قريباً من الفندق ، كانت لم تزل هناك : لا أحد يهتم ، لا أحد يلتفت ، وهي جالسة تمني النفس بأن ترسل لها ابنتها من نيويورك نقوداً . بعد أسبوع كانت لم تزل هناك ، ومظهرها الاجتماعي يخبو ، الكتب تناثرت فقد تركتها لتحاضر في الجامعة وعادت ولم تجد أغلبها . رويداً رويداً أصبح شكلها أقرب إلى المشردين أو أصبحت كذلك بالفعل .

وأمام مبنى الإذاعة رجل يلبس ملابس الصاعقة (محارب قديم في فيتنام ، حارب ، خُدع كثيراً بالمجد الأمريكي والبطولة الأمريكية ، تخيل نفسه واحداً من الأبطال الذين يصورونهم في السينما . عاد ، بلا عمل ، ولا مأوى ويظل حتى الآن محتجاً) يمشي جيئة وذهاباً ولافتة باهتة (بفعل الزمن) معلقة في رقبته... «لا تصدقوهم ، لا تستمعوا إليهم» ، والحقيقة : لا أحد يلتفت إليه .

... وقالت مرافقتي ونحن متجهون إلى بوسطن هنا لا تسأل سائق التاكسي هل معك دكتوراه أم لا ؟ بل اسأله مباشرة في أي فرع حصلت على الدكتوراه ؟ فكل سائقي التاكسي والعاملين في المحلات أو أغلبهم حاصلين على الدكتوراه ، ولم يجدوا عملاً جاداً في تخصصهم فاكتفوا بأي باب للرزق ، جربت ، ركبت تاكسي لأتجه إلى جامعة هارفارد... في الطريق سألته ، وأجاب بهدوء : في الكيمياء العضوية . بعد فترة سألني : لماذا تسأل ؟ حكيت له الحكاية . قال بمرارة مرافقتك على حق .

* * *

كانت ملاحظات عديدة تتراكم . أكثرها تأثيراً هو الرغبة الملحة في

التأثير فيك تأثيراً مخططاً ، ومبرمجاً ، ومعداً من قبل ، دون أن يعطيك فرصة لحوار حقيقي ، أو يعطيك فرصة لفهم الأوضاع... وتفهمها تفهماً موضوعياً .

وانتظرت حتى انتهت فترة المقابلات ، والمناقشات ، والندوات ، أي ما يسمونه الشق الثقافي من الزيارة ، ويتبقى اسبوعان للترفيه ، زيارات لأجمل مناطق أمريكا : كاليفورنيا ، لوس أنجلوس... الخ .

كان مسؤول المشروع يمن علينا وهو يعلن اختتام الشق الثقافي قائلاً : تابعتم وتعبتم ، تستحقون الآن الجائزة ، اسبوعين من زيارات ممتعة . كلمة جائزة أوجعتني ، ربما لأنه نطقها بترفع . ووجدتني أقول : أنا معتذر . واكتفي بالشق الثقافي... وأرجو ترتيب عودتي . صعق . وصممت . وقد كان .

بعد عودتي زارني المستشار السياسي للسفارة . كان مندهشاً . سأل عن ملاحظاتي التي دفعتني لقطع الرحلة... أجبت بصراحة ، في اليوم التالي مباشرة عاد ومعه سيدة من برنامج التبادل الثقافي (المسؤول عن سفري) استمعت... دونت... وفيما كانا يغادران قال المستشار السياسي ، وهو يحاول أن يبدو مازحاً : «حاولت أن أصطادك ، فإذا بك توجه إلي طلقة قاتلة» .

وما دام أرادها أن تبدو كمزاح... فقد ضحكت... واكتفيت بالضحك .

وأخيراً ...
مثيرون للدهشة

وتتهادى الأيام... بينما الذكريات تتمادى... تتمدد لتملأ كل ما كان... وكل ما تبقى من أيام .

وبرغم أن الحياة قد استهلكت الكثير من ذاتها في صندوق مغلق ، إلا أن ما تبقى منها من قطرات قد استحوذ على مساحات لا بأس بها من انغماس في بحر البشر ، واستلهم ـ ولم يزل ـ من البعض القدرة على الاقتداء... أو الاهتداء بهم... فكراً أو مسلكاً أو موقفاً أو هي جميعاً... أو هذا ما حاولت .

وتترسب في الذاكرة ـ كما اعتدنا أن نؤكد ـ لمسات «أو بصمات» من أصدقاء... أو من هم أكثر من الأصدقاء استطاعوا أن يتركوا في هذه الصحراء الجرداء ، المعنونة «الحياة» آثاراً ثابتة في رمال قد تبدو غير ثابتة .

وحتى الأيام المتسارعة وكأنما عن عمد لتنتهك ما تبقى من مسافات لا تستطيع رياحها أن تمحو تلك الآثار .

أصدقاء... إخوة كبار ، تمضي الأيام ولا يمضون من أعماقي . في القلب يبقون ، يتربعون يأبون الرحيل ، حتى وإن أرادوا ، ما سمحت لهم ، لأنهم

ببساطة قد صنعوا من علاقتهم بي وشماً في سماء القلب ، وشماً لا يُمحى ولن يُمحى .

وبهم تكون قد أكملت فصول دراستك في معركة الحياة وبما تعلمت منهم ـ أو حاولت ـ تكون... أنت... بحيث يصعب أن تعرف نفسك دون تعرفك عليهم وعلى ما تلقنت على يديهم .

وتمضي الأيام لأظل... وسأظل ممتناً لهم ، فمنهم تعلمت ، وعلى يديهم أمكنني أن أجتاز هذا الاختبار أو ذاك ، أن أمتحن نفسي أمام هذا الاختيار أو ذاك . وبعضهم لقنني كثيراً كثيراً في كل فصول «موسوعة» الحياة .

فاروج سلاطيان ، سوري أرمني ، أو إن شئنا الدقة أرمني ، سوري ، شيوعي ، ثلاثة موضوعات امتزجت لتقدم نموذجاً فريداً .

تتلمذت على يديه في مدرسة المجلس العالمي للسلام ، خبرة موسوعية لا تبارى ، تمسك بمفاتيح معرفة تفاصيل التفاصيل في شعيرات السياسة الخارجية ، وعلاقاتها ، وتناقضاتها ، وخفاياها الخفية ، بحيث تصبح توقعاته ـ وربما كلها ـ حقائق في مستقبل قريب أو بعيد ، ذاكرة تمتلك كل الأسماء ، والعناوين ، والإمكانات ، والمواقف للعاملين في حقل السلام العالمي أو المتعاملين معهم والقوى التي يمثلونها بحيث تجد نفسك أمام «كمبيوتر» حقيقي ، قبل اختراع هذا النوع من «العقول» العالية الكفاءة بسنوات عديدة .

وهو أيضاً رجل يعرف كيف يكون صديقاً حميماً في صداقته . منذ اللمسة الأولى يحتويك ببساطة آسرة ، يحدثك ببساطة ، ينساب نحوك ببساطة ، ليتسلل إلى أعمق أعماقك ، فتجد نفسك رهينة لدى صداقة صادقة .

عاش مع العالم معركة صعبة . كانت إسرائيل تعتدي على العرب ، تحتل

أرضهم ، تقهرهم ، وتنتهك حقوقهم ، ومع ذلك ، وبرغم ذلك تتمتع بتأييد من الرأي العام العالمي أو أكثره ، وحتى هؤلاء الذين لم يمنحوها تأييداً سافراً ، كانوا يؤيدونها سراً ، أو في الأقل يخشون أن تنسب إليهم أية همسة نقد أو عتاب ضدها . وكان فاروج يخوض عبر آليات المجلس العالمي للسلام... وربما رغم بعض هذه الآليات ـ معركة استعادة بعض من الرأي العام العالمي إلى ساحة الحق العربي... بينما يخوض معركة أصعب وأكثر تعقيداً ضد تشدد عربي منفعل ، يمتطي ـ ربما ليخفي مرارة هزيمة مريرة ـ شعارات متشددة ، يصعب تحققها ، أو حتى تخيل إمكان هذا التحقيق .

بلا ملل ، ولا أية قطرة من اليأس... ظل يعمل ، بإخلاص متفانٍ ، محاولاً أن يغير ما اعتبره البعض قدراً لا مهرب منه ، وسواء على ساحة الفعل العالمي أو العربي نجح في تحريك آليات عديدة ، وإذابة ثلوج متراكمة .

أرمني توجعه أرمنيته ، عربي توجعه قوميته ، أما شيوعيته فقد لقنته فنوناً في الإخلاص والتفاني جعلته قادراً على أن يمنح كل شيء لما يعتقد ، إنه تجسيد للموقف والمبدأ .

هكذا اكتمل مثلث فاروج سلاطيان ، ولعل اكتماله كان ضرورة حتمية ، فما كان لأرمني أن يخوض معترك الحق العربي ما لم يكن مؤمناً بمبدأ يلقنه أسرار هذه المزاوجة ، وما كان لسوري أن يتفانى في أرمنيته دون موقف مبدئي . وهكذا ظل يلاحق أرمنيته وعروبته معاً ، ويعاني منهما معاً ، مضاعفاً بذلك وجعه الوطني والقومي والأممي... معاً .

أرمنيته استهلكت كل ما ادخر من أموال . أبوه أوصاه أن يهتم بتزويد مكتبة يريفان (عاصمة أرمينيا التي كانت سوفيتية فيما نتحدث عنه من زمان) بكتب عربية . وتنفيذاً لهذه الوصية ـ التي ربما أراد صاحبها أن تكون بسيطة ـ أنفق أغلب ما كسب من أموال طوال حياته ليزود هذه المكتبة

بآلاف من المخطوطات النادرة والكتب... ولم يزل حتى الآن . وهناك ، اصطفت هذه الكتب في صالة تحمل اسمه .

حتى أنا سرقني ، ببساطة هادئة تغلبت أرمنيته على وعده لي . شاهد معي ذات يوم بعضاً من أهم كنوزي ، مجموعتَيْ مجلة «الجماهير»... و«الملايين» تأملها في انبهار . كنتُ قد اشتريتها لتوي بمبلغ فوق طاقتي . لكنني لم أستطع المقاومة . طلب أن يطالعها متعهداً أن يعيدها ، لم أعهد فيه أن يخلف وعداً . نزعتها كقطعة من جسدي . وأسلمتها له على ميعاد . لم تعد . بعد أشهر قال بابتسامته التي تحتوي بعضاً من بساطة وبعضاً من مكر : لم أستطع المقاومة ، هي الآن مستقرة في مكتبة يريفان . كدت أن أخنقه . لكن إذا كان هو قد أعطى كل ما يمتلك ، فلم لا يأخذ مني بعضاً مما عندي... وعلى أية حال لا حيلة للحب فيمن يحب . غفرت له على مضض... ولم أزل حتى الآن على مضض .

كان عشقه لأرمينيا يفوق كل عشق وكل قول . وكان عهده مع أبيه يؤرقه دوماً... من فرط غيظي قلت له · لعلك أصبحت شيوعياً ·لأن أرمينيا أصبحت كذلك . ولعل الأيام التالية... إذ خلعت فيها أرمينيا نفسها من ذلك الكيان السوفيتي الذي خلع نفسه من الاشتراكية قد أكدت بعضاً من قولي .

لكن الانتماء الأرمني لم يطغ على عمق عربي عميق الجذوز ، إخلاص عربي بلا حدود ، وهنا تكمن عبقرية الحب والانتماء... فقد عاش فاروج يجمع الكتب لأرمينيا ، ويهب كل نسمات حياته دفاعاً عن الحق العربي . إنه العشق الخالص للوطن والمعتقد والمنشأ . حب موجع دوماً ، وبقدر ما يوجعك بقدر ما تتعلق به .

وتجري مياه كثيرة في أنابيب الحياة . سنوات تسرع بنا بالرغم منا نحو المشيب... وبعد فراق طويل نلتقي في دمشق .

هو... هو... لم يتغير . كل شيء يتغير . الاتحاد السوفيتي أنهار ـ أرمينيا أصبحت شيئاً آخر... هو اختلف مع حزبه وتركه... هو يبقى كما كان ، وكما يجب أن يكون . عاشق ولهان في محراب الوطن والمعتقد .

ذات المذاق المميز ، ذات العطر النفاذ الذي يذوب هوى فيمن يهوى ، نموذج للحب الذي لا يُقتلع .

الهم العربي لم يزل يركبه ، والعطر الأرمني يؤرقه... والحلم الاشتراكي يغلف كل كلمة .

وعندما أراد أن يسكب فيضاً من محبته نحوي أتى إلى الفندق حاملاً حقيبتين مملوءتين كتباً .

آه... أنا الآن في مرتبة مكتبة « يريفان » المعشوقة الكبرى .

وفيما كانت الكتب تهطل باحتراس من الحقيبتين ، كانت عيناه تلمعان وهو يبتلع ريقه باستمرار وكأنه يهديك واحداً من أولاده .

فاروج سلاطيان رجل مميز... لا يتكرر ، فهو يعرف المذاق الحقيقي للحب ، والإخلاص في الحب في زمن يفتقد الحب والإخلاص... أو حتى قليلاً منهما .

* * *

عَدَتِ الضباعُ عليكَ عاويةً

ظناً بأنك مأكلٌ جَزَرُ

فتذوقتْكَ فقالَ قائلُها

إنَّ الغُضُنْفُرَ لحمُهُ مُرُّ

هكذا كان يوسف صديق يهدر دوماً بأبيات استعارها من « الجواهري » كلما حاولت يد البطش أن تنال منه ، أو تبذل قصارى ما تستطيع كي تدفعه لتراجع... أو بعض تراجع .

حكيت لكم حكايتي معه... لكن حكايته مع الوطن تتألق في زهو متجدد .

كان أبوه ضابطاً في الجيش ، أدمن معركة الصراع ضد الإنجليز . لكنه رحل ويوسف بعد صغير فتولى خاله تربيته . الخال (يوزباشي محمد توفيق) هو أيضاً ثائر ضد الإنجليز . يستقيل من الجيش احتجاجاً على تسلطهم على مقدراته .

على ذات الطريق يمضي . يلتحق بالكلية الحربية بحثاً عن ثأر أبيه وخاله ، وثأر الوطن بأكمله . وفي عام ١٩٣٣ يتخرج ضابطاً .

الضابط الشاب... شاعر أيضاً (إنه ميراث عائلي) ، شعره يتفجر حماسةً تلهب المشاعر الوطنية لزملائه الضباط إذ يدوي :

إنّا وهبنا للجهاد نفوسَنا
لا نبتغي رُتباً ولا أطماعا
والمؤمنون المخلصون يُزيدهم
ظلمُ الحوادثِ شِدّةٍ وصراعا

كان الجيش يغلي بالوطنية ، ويصوغ يوسف غليانه شعراً :

عارُ الوظيفةِ إن نُضامَ بها إذا
كنا الرجالَ ولم نكنْ أتباعا
ونفوسُ أهلِ الحقِ تأبى حرةً
وكريمةً أن تُشترى وتُباعا

ويحكي حكايته مع السياسة : «بدأت الاتصال بالإخوان المسلمين ، لكني انشققت عليهم لجمودهم العقائدي الذي لا يرضى ما أخذته على نفسي من ثورة . ولم يدم اتصالي بهم أكثر من شهور ، ثم اتصلت بالشيوعيين في

النصف الثاني من الأربعينيات ، وكنت مقدراً لدور الاتحاد السوفيتي في الحرب العالمية الثانية . وكان اتصالي بأحمد حمروش ضابط المدفعية . وقد أعجبني في الشيوعية أنها تغرس حب العدل في النفوس ، وتعمل لتحقيق السلام على الأرض ، وإقامة المحبة والتعاون بين الناس ، فهي لا تفرق بين الناس لأنسابهم ولا أحسابهم وإنما تعمل على إلغاء استغلال الإنسان للإنسان . ولم أشعر لحظة أن في تطبيق هذه المبادىء ما يتعارض مع عقيدتي الدينية ، فقد داس الإسلام تيجان الأكاسرة والأباطرة بأقدام الشعوب . وبعد اعتقال عديد من قيادات حدتو وصلت الأمور إلى الحد الذي كنت أكتب فيه المنشورات باليد في منزلي بثكنات الجيش في العباسية ، وكانت زوجتي (علية توفيق) تشاركني في ذلك» .

وفي حديث مفعم بعطر مشاعر عاطرة حكى لي يوسف صديق كيف أن الحلقة ضاقت على حدتو (١٩٤٨ ـ ١٩٤٩) . ضربات البوليس توالت ، تلاحقت ، لتقطف كثيراً من آليات وممكنات العمل . والعمل يجب أن يستمر... ليستمر التحدي ، ولم يكن من مفر سوى اللجوء إلى الضابط يوسف صديق وزوجته ليقوما بطبع ما هو مطلوب من نشرات ومنشورات . ويقول : « كنت أتأفف من روتينية العمل ومحدوديته ، وطالما سألت «علية» في ضيق : هي الثورة حتتعمل كده ؟ وتبتسم لي مشجعة ، وأبادلها الابتسام ، ونكمل عملنا في صبر وإصرار» .

وبدأ يوسف صديق في خوض صراع فكري في صفوف حدتو ، كان يستبطىء حركة الفعل السياسي والتنظيمي ، وضعف ما هو متوقع من ثمار ، وصعوبة توقع أي تغيير ثوري حاسم عبر مثل هذه الأدوات المحدودة الأثر والتأثير ، ويقترح ويلح على ضرورة التحضير لفعل انقلابي عبر الجيش . وكانت حدتو ترفض .

ويخوض يوسف صديق صراعه الفكري ـ وربما لأول مرة في التاريخ ـ شعراً :

ضعوا الأقلام وامتشقوا الحساما
فرب السيف قد حمل الوساما
وقولوا للذي يرجو خلاصاً
بتنسيق الكلام كفى كلاما
ومن نادى بغير الجيش يهذي
وعن نور الحقيقة قد تعامى

ويفوح العطر الثوري ليوسف صديق ليغمر مساحة واسعة ، وتصل نسماته إلى جمال عبد الناصر .

أذنا جمال عبد الناصر التقطتا أن يوسف صديق يعقد اجتماعات سرية لضباط في الجيش في منزله ، وأن رجال الحرس الحديدي يراقبونه .

وأرسل إليه من يحذره . ثم أرسل إليه يدعوه للانضمام للضباط الأحرار . الضابط وحيد رمضان ـ وكان تلميذاً ليوسف صديق في الكلية الحربية حمل رسالة عبد الناصر إليه ـ رد يوسف صديق كان سريعاً وحاسماً .

والغريب أن عبد الناصر لم يعرف بحقيقة الانتماء التنظيمي والفكري ليوسف صديق إلا بعد الثورة .

وخلال لحظات الاستعداد الأخيرة ليوم الثورة كان يوسف كنزاً مهماً . كان الأعلى رتبة في كل الضباط الأحرار بعد محمد نجيب (قائمقام) ، وفوق هذا كان قائداً للكتيبة الأولى مدافع ماكينة . كتيبته بالعريش ، لحسن الحظ صدر قرار بنقلها إلى القاهرة . حضر مع طلائعها للقاهرة . وبهذه الطلائع خاض معركة يوليو .

عبد الناصر وعامر زاراه في بيته يوم ٢٠ يوليو وجداه مريضاً... صدره ينزف دماً . قالا بأسف حزين سنفتقدك ، هو تذكر ثأره القديم ، وعشقه المتجدد ، أكد أنه سيشترك معهم .

مساء يوم الثورة حقنه الطبيب ليوقف النزيف... وانطلق بقواته .

في الطريق قابلهم قائد فرقته ـ اللواء عبد الرحمن مكي ـ وأصدر له أمراً بالعودة إلى الثكنات . العسكريون لا يعصون أوامر القادة ، لكنه ببساطة أشهر مسدسه في وجه قائده قائلاً في حزم : أنت مقبوض عليك يا سيادة اللواء... واصطحبه مقبوضاً عليه .

سألته في حواري معه : كيف فعلتها ؟ قال : لو ترددت لحظة ، لتردد الجميع... وضاع كل شيء .

ثم ألقت قواته القبض على شخصين يتطلعان في دهشة إلى الطابور المتحرك وأمامه سيارة تحمل «بيرق» لواء . المقبوض عليهما : عبد الناصر وعامر . (سألته في ذات الحوار : ألم تفكر ساعتها في أن تستبقيهما أسرى ، وتقود أنت الحركة ؟ أجابني في غضب لا يُخْفِي نفسه : نحن يا ابني ثوريون... ولسنا أوغاداً) .

أفرج يوسف عن الضابطين . ومنهما علم أن أمر الثورة قد اكتشف ، وأن قادة الجيش يتجمعون في مبنى القيادة العامة لتحريك القوات الموالية للملك . في ثبات أكد : العجلة دارت ، ولا مجال للتراجع . وإن كانوا في مبنى القيادة فلنذهب إليهم .

وذهب إليهم . أوقعهم في مصيدتهم ، قبض عليهم جميعاً . وعلى مكتب القائد العام جلس يوسف صديق ليدير عملية الاستيلاء على السلطة ، بعدها بساعات دخل عبد الناصر . ببساطة تحتاج إلى طاقة ثورية عالية وقف يوسف صديق ليجلسه مكانه . وهنا تكمن المفارقة كلها . فهم لم يحفظوها

له . ولا تمسكوا بعهدهم كما تمسك ، ولا أخلصوا له كما أخلص . حاولوا تطويعه... لكن... « إن الغضنفر لحمه مر » .

تصادموا معه وأثقلوا عليه... ثم طردوه وطاردوه « إن الغضنفر لحمه مر » .

قبضوا على زوجته « علية » ألقوا بها في السجن ثبتت كما ثبت ، ترفعت كما ترفع .

« إن الغضنفر لحمه مر »

وكما اعتاد دوماً فقد أدار صراعه مع عبد الناصر شعراً .

ومن السجن الحربي (١٩٥٤) حيث سجن ، وكانت زوجته علية هي أيضاً في سجن النساء كتب قصيدته الشهيرة التي أسماها فرعون... موجهاً كل غضبه ضد عبد الناصر .

ألا أيُّ هـذا الـدعـيُ الـلـعـيـن
ألا أيُّ هـذا الـشـقـيُ الـحـرونْ
لـبـسـتَ الـمـسـوحَ وضَـلَّـلْـتَـنـا
ولـمـا حـكـمـتَ كَشَفْـتَ الفنونْ

ويعاتبه على سجن زوجته ورجاله في الجيش :

أعـرضـي يُـبـاحُ ويُـلْـقـى بـه
علـى نـاظريك بـقـاعِ السجونْ
وكـلُ رجـالـي غـدرتَ بـهـم
أكـلُ رجـالـي مـن الـمـجـرمـيـنْ

ثم يذكره بليلة يوليو وكيف قبض عليه هو وعبد الحكيم عامر :

وقـد كـنـتَ يـومَ الـوغـى هـارباً
تـخـافُ الظنونَ وتـخشى العيونْ

فقد كنتَ مختفياً في ثيابٍ (م)
تُباعدُ عنكَ مثارَ الظنونْ
ولمّا وقعتَ وعبد الحكيم
بأسر رجالي وما يعلمونْ
فأنقذتُ روحيكما من هلاكٍ
ورحتَ بنفسي ألاقي المنونْ

وبرغم تسرب هذه القصيدة من السجن الحربي وتوزيعها بكثرة على ضباط الجيش ، وربما بسبب ذلك ، وبسبب عدم رغبة عبد الناصر في تصادم مفتوح مع أحد أبطال يوليو... أُفرج عنه .

ويظل يوسف صديق شوكة في حلقهم ، يحترمونه ، يقدرونه ، أحياناً يذكرون له دوره الشجاع والأساس في إنجاح الثورة ، لكنهم قط لم يستطيعوا ابتلاعه .

حتى الآن... لا يستطيعون ابتلاعه ، تماثيل كل أعضاء مجلس قيادة الثورة تصطف في متحف القلعة ، وهو وحده غائب عن الصف . حفظ عهده ، ولم يحفظوا عهدهم

* * *

ثم...

قبل هؤلاء جميعاً... فوق هؤلاء جميعاً . خالد محيي الدين .

• هل يمكن لإنسان أن يخلع عن نفسه كثيراً من ذاته ، ليقف ـ مقرراً الحقيقة الحقيقية ـ مؤكداً دون أي ادعاء للتواضع... هذا الرجل أسهم في صناعتي... منحني ما بدونه لم أكن لأكون ؟

لكنني ، وبإصرار وإلحاح... أفعلها ، أعلنها ، أؤكدها .

كانت معرفتي بخالد محيي الدين بداية لحياة جديدة ، تتراكم فيها دروس خالد محيي الدين فتصبح منهجاً وأسلوب حياة .

وأحاول أن أكون جديراً بالانتساب تلميذاً في مدرسته . بجهد جهيد أحاول دون أن أرتقي ـ مهما حاولت ـ إلى مرتبة الأستاذ ، مكتفياً بشرف الانتساب إلى الأستاذ .

نظر إليَّ غاضباً في تواضع عندما أصدرت كتاباً عزيزاً على قلبي «تاريخ الحركة الاشتراكية في مصر ١٩٠٠ ـ ١٩٥٢» ورصعته بإهداء (لعله كان إهداءً لنفسي أكثر منه إهداء له) يقول : «إلى خالد محيي الدين... أخاً وصديقاً وأستاذاً» .

قال : أخاً وصديقاً نعم ، أما «أستاذاً» هذه فلا مبرر لها .

ولعله نسي أنه ظل ولم يزل أستاذاً ليس لي وحدي ، وإنما لجيل كامل من الرجال ، كل منهم يحاول أن يكون بالنسبة له مريداً مؤتماً به .

ولن أحاول هنا أن أحكي حكايتي معه . لا كلها ، ولا حتى البعض منها . فلاهذا ممكن ولا هو سهل . فكيف لحياة امتدت بلا انقطاع من عام ١٩٦٤ وحتى الآن... أن تروى ـ هكذا ببساطة ـ في صفحات . وكيف لعلاقة تمثل بالنسبة لي الشيء الأكثر أهمية... أن تختزل في أسطر... أو حتى في عدة كتب .

لن أحاول ، فلا هذا ممكن ، ولا هو مطلوب . أريد فقط أن أقول إن يدي خالد محيي الدين قد تلقفتا قطعة صلصال خارجة لتوها من السجن ، لتعمل وباهتمام على صياغتها ، أو بالدقة إعادة صياغتها لتتلاءم مع الحياة... ولتصبح قادرة على تحدي هذه الحياة .

ذلك النوع من التحدي الصامد والهادىء الثابت والمبتسم الذي أتقن خالد محيي الدين فنونه .

لن أطيل... أقول فقط ببساطة هاكم صفحات كتابي .

كل جملة كاملة فيه ، وكل سطر حسن هو بصمة لخالد محيي الدين... وما هو غير حسن فهو منسوب إلى استعصائي على ما حاول من تصويب وتعليم .

ومدى الحياة... وما بعد الحياة سأظل لخالد محيي الدين ممتناً... ومؤتماً به .

وسأظل دوماً مستظلاً بظليل صداقة راهن الكثيرون على فصمها دون جدوى ، فهي فوق كل نوازع الانفصام .

وسأظل مدى الحياة مستمتعاً برحيق أخوة ذات غلاف وثيق ، وحنان دافق ، وقدرة دائمة على التجدد ، والتلاؤم ، والفهم المتبادل... حتى دون حديث مباشر .

إنها علاقة لا تتكرر...

لأن خالد محيي الدين رجل لا يتكرر .

الجزء الثالث

ملتقى العاشقين
(محاولة لتدوين سيرة ذاتية لحزب التجمع)

كم ذا يكابد عاشق ويعاني
في حب مصر كثيرةِ العشاقِ.

عن العشق .. ومعه

شعراً ونثراً، وبكل اللغات لم تنجح الكلمات ، كل الكلمات فى أن تصف العشق.

وبالعربيه كانت أكثر المحاولات .. ولم تنجح أيضا.

بذلوا قصارى جهدهم .. دون جدوى . حفظت لنا الكتب محاولات بغير حصر، وبغير جدوى.

أقصى ما وصلوا اليه قول يحيى بن الأكثم « إن العشق سوانح للمرء، تؤثرها النفس ، ويهيم بها القلب» ثم قول ثمامة بن الأشرس الذي قال عنه العرب إنه عشق العشق إذ قال : « العشق جليس ممتع، وأليف مؤنس، وصاحبٌ مالك، ومالكٌ قاهر، مسالكه لطيفة، ومذاهبه غامضة، وأحكامه جائرة. ملك الأبدان وأرواحها ، والقلوب وخواطرها ، والعيون ونواظرها ، والعقول وآراءها ، وأُعطي عنان طاعتها ، وقياد مُلكها ، وقوى تصرفها ، توارى عن الانظار مدخله، وغمض فى القلوب مسلكه»

..توقف كتاب العربية القدامى والمحدثون أمام هذه الكلمات فأسهبوا فى تحليلها ، وأطنبوا في الثناء عليها .. ولكن دون أمل في

امتلاك الكلمات الممكنة التي تقول لنا: ما العشق.

فالعشق لا يوصف بالكلمات، هل يمكن ان تجد كلمات تصف بدقة دقيقة رائحة الياسمين لتميزها عن رائحة زهرة أخرى؟.

وهل يمكن ان تتحدث الكلمات حديثا مدققا عن مذاق ثمرة المشمش فتميزها عما عداها من ثمار.. حتى ثمار مشمش أخرى؟. والأخضر مثلا.. لو توقفت أمام حديقة عملاقة كم أخضر تشاهد؟. عديد من درجات الأخضر، هل يمكن ان تصفها وتمايز بينها؟

فإن كان للمذاق لون، وللون رائحة، وإنْ وجدت كلمات تصف الأخضر وتمايزه عن أخضر آخر، تكون ثمة كلمات عن العشق تحمله الى العقل والنفس معا..

وهكذا نبدأ وننتهي، نتفلسف قدر استطاعتنا دون أن نمسك بالعشق.. أقصد العشق الحقيقى. ذلك العشق الذى يحتل لا قلبك وحده، وإنما كل خلايا جسدك ومساحات عقلك، ومسافات وجدانك.

يمنحك القدرة على عشق كل ما يتطلبه عشقك حتى ولو كان فوق طاقتك، أو خارج إطار تصورك. تهيم به شوقا فتحب مالا تحب من أجله، وتنسى ذاتك ، وتعطي روحك وقلبك، وحتى ما أحببت من أفكار ومواقف، تصطف جميعا طائعة كي تنصاع لدواعي عشقك، فتعشق ما عشقت حتى وإن تجاوز ما عشقته لآماد طويلة.

هكذا كان العشق .. وهكذا يكون.

وهكذا اقتادنا طائعين أحيانا، ومرغمين فى أخرى لنعطي ما هو فوق العشق، وما هو فوق طاقة العشاق، في ملتقى العاشقين: حزب التجمع.

* * *

أن تعشق وطنك وتعشق فكرتك التي عشت من أجلها، وأعطيت من أجلها ما فوق الاحتمال، بما يدفعك لأن تنحنى معها وبها طائعا مختاراً فى محراب عشق جديد، فتكون تجمعيا.

ويصبح العشق العاشق أول مفردات انتمائك الجديد، بل لعله يحتويك فينسيك كل ما كان من حب، وأيضا كل ما كان من خلاف واختلاف، يعيد صياغتك ليأتي بك إلى حيث مالم تكن تتخيل.. من زمالة جديدة أو حتى محبة من لم تكن تحب.

ويكون عشقك الجديد بداية لعذاب جديد. ليس فقط بما تطويه في جوانحك إذ تأتي إلى ساحة جديدة تتحول فيها بحبك القديم، وفكرك القديم، واختيارك القديم إلى حب جديد، وفكر جديد واختيار جديد، فيه وياللغرابة، حب لمن لم تكن تحب، أو تتخيل أنه يمكن ان تحب. وفيه - وياللغرابة أيضا - انصهار مع هذا الوافد رغم أنفك إلى أنحاء قلبك المتجدد المسافات.

إنها ساحة عشق جديد للوطن وللفكرة القديمة ذاتها، تقتادك إلى مفردات عشق جديد تماماً. لكنه عشق آسر.. حاكم .. متحكم، يحكم عليك بأن تمتزج مع أفكار ورؤى وأولويات أخرى، تتجاور، تتفاعل، ترتوي بمياه ذات عذوبة خاصة جداً، لتتحول بك إلى سبيكة جديدة لم تكن لتتصورها فى أية صورة تكون.

ويتشكك فيك البعض، لايصدق عشقك، أو لعله لا يصدق أن يفعل بك العشق كل هذا الذي فعل. ولقد يوجعك هذا التشكك، ولا حيلة لك إلا أن تتفانى أكثر في عشقك الجديد.. وكلما تفانيت زادت شكوك البعض.

إذا ساء فعل المرء ساءت ظنونه

وصدق ما يعتاده من توهم.

لكن العشق ينتصر،ويذهب الشك بالمتشككين بعيداً عن ساحة العشاق. أو يجذبهم إلى ذات الوجدان المنصهر مع المحبوب الجديد،فينصهر هو أيضا.. إذ يصبح هو أيضاً .. عاشقاً.

ويعطيك العشق قدرة على احتمال الآخر، يخاف منك أن تحتويه، فيفرض عليك - أويحاول - أن يحتويك هو .. فيكون عذاباً عذباً إذ تحتمله (أية لغة هذه التي تقارب العذاب بالعذوبة فى أحرف واحدة؟). ثم يكون الخصم الذي يخاصمك من يوم عشقك الأول، يصرخ بما يغذي الشكوك عند زملائك في ساحه العشق، ويحشد طاقاته الإعلامية ضدك، ثم يتسلط عليك بأمنه وعملائه وبصّاصيه وسجونه.. وتكتشف - وباللغرابة - أن عشقك يزداد، وتمسكك يتماسك بك وبه، ويمنحك قدرة قادرة على احتمال ما لا يحتمل..

وهكذا..

على قدر أهل العزم تأتي العزائم

وتأتي على قدر الكرام المكارم

وتعظم في عين الصغير صغارها

وتصغر فى عين العظيم العظائم

ونحتمل، فيصعق الحاكم، لقد راهن على افتراقنا، وانفراط عقدنا، وعلى عدم قدرتنا وعلى خوفنا، فيزداد ضغطه، ونزداد قدرة وتماسكا.. وانصهاراً.

فلا قضى حاجته طالب

فؤاده يخفق من رُعبه

نصمد،فيزداد غضباً، يغضب فيزداد حماقةً، ونستمتع نحن باحتمالنا لما لا يُحتمل، ويشقى هو من فرط غيظه.

ذو العقل يشقى فى النعيم بعقله

وأخو الجهالة فى الشقاوة ينعم.

*   *   *

ونبقى نحن . بينما هو بأسلوبه وممارساته ومحاولاته .. يذهب.

ولعل فكرة التجمع كملتقى للعاشقين كانت ذكية بقدر ما كانت واقعية . فالسادات عندما تقبل التعدديه تقبلها عبر خط مستقيم محدود المساحة، اختار لنفسه فيه نقطة المنتصف.. فكان له منبر «الوسط».وترك لنا حافة «اليسار»،لكننا رفضنا فكرة « الحافة» وتخيلنا أنفسنا نلتقي عبر « مساحة» اليسار. والفارق كبير بين رؤية تقتصر على « الحافة»، ومساحة تتسع لتستوعب كل ألوان الطيف اليسارى.

ولقد نظر البعض من « الرفاق» القدامى الى هذه الفكرة في هلع .. فهي تعني التخلي عن « النقاء» المعتقدي، وكأن ثمة معتقد نقي تماماً من رؤيه الآخر القريب من ساحتك، أو حتى البعيد عنها، وهي تعني أننا لم نكن ولن نكون المعبرين عن «مطلق» الصحة، وكأن ثمة فكرة تمتلك مطلق الصحة.. وعلى أية حال طرحنا وتمسكنا بفكرة المساحة اليسارية المتسعة، ورفضنا فكرة «الحافه» فعارضنا البعض، وتشكك البعض.. وتجاوب معنا البعض وهو لم يزل على تشككه، بل وغارق فيه، بينما تمسك البعض بشكوكه واكتفى بالتطلع من بعيد، ولعل هؤلاء كانوا يرددون في صخب معلن، أو في سريرة غير معلنة لكنها ملموسة

ومُدركة،ذلك القول السائد في عالم السياسة الأناني بطبعه:

ودع كل صوت غير صوتي فإنني
أنا الطائر المحكيُّ والآخر الصدى.

ولكن لم لا يلتحم الصوت والصدى مع بقية مفردات السلم الموسيقي اليساري لنعزف معاً سيمفونية جديدة، لم نجربها من قبل.. بل لم يجربها أحد قبلنا ؟

ونمضي في تجربتنا الجديدة، الجميلة والمريرة، وكأننا مستكشفون جدد في قارة فكرية وسياسية ونضالية مجهولة .. ومعلومة في آن واحد.

نمضي، نختلف ونتلاحم، نتصارع ونتحد، نتفرد وننصهر..، نحنُّ للماضى الأحادي الرؤية، ونتطلع بشغف نحو ساحة التعددية.. ونكون.

كم كان صعبا وشيقا هذا الطريق الممتلئ بعطر العشق للوطن، والفكرة، والناس، والمستقبل..

ننصهر معا .. تتساقط بعض الأوراق الخريفية المزاج، يراهن البعض عليها، وعلى المزيد منها. لكنها إذ تتساقط - وهذا شديد الندرة - تسقط فرادى. كل واحدة لا تستطيع أن تصطحب معها أخرى ..إنه خريف فردي الطابع .. وأبداً لم يكن جماعياً، وأعتقد أنه لن يكون. ونحن نبدو أكثر تألقا يوما بعد يوم.. ونبدو أكثر تماسكا.. وانصهاراً.. ويكون التجمع. ويبقى.

* * *

لم يكن ما سبق مقالة فى فلسفة العشق ولا كان بحثا في فلسفة التجمع.. تلك الفكرة التي تجتذبك لتجذبك إلى أحضانها الدافئة فتلهمك عشقاً بلا حدود، ومساحة من الحب لا تنتهى.. بل كانا هما

معا.. في مزيج سحري المذاق.. اسمه « التجمع » نعيش فى ظله، ويعيش في قلوبنا .. فنكون، ويكون.

وتمضي بنا الايام ونمضي بها. وتتألق الفكرة التجمعية، نمضي بها وتمضي بنا،تتألق فى قلوبنا فتصبح عشقنا الذي نتنفسه ونعيش به.

وفي وجدان الوطن.. يصبح عشقنا له عشقا لحزبنا .. ووجودنا وجوداً له.

وسيمضي جيلنا ونمضي معه، وستأتي أجيال جديدة أكثر بهاءً وجمالا لأنها أكثر تجمعية، وسيبقى التجمع علامة في جبين الوطن. سيبقى له حصنا، وأملا .. ومستقبلا

وتكون أحلامنا قادرة على أن تتحقق.

أو هذا ما نحلم به.

* * *

وأتوقف قبل أن أخط السطر الأول لهذه المقدمه لأتأمل العنوان فأكتشف أنني وما أكتب نتجاوز حدودنا، فليست الأسطر السابقة ولا تلك الآتية ملكاً لأحد، فمسيرة التجمع لم تكن سوى نغم متكامل الألحان، وما من فرد يمكنه أن يعزف وحده كل الألحان، وهذا الصرح الذي تزهو به هذه الأسطر هو ثمرة تستمد حلاوتها وجمالها من جماعية الأداء.. أداء الجميع الذين بدأوا، والذين شاركوا ثم ذهبوا، والذين أتوا متتابعين منذ البدء وحتى الآن، والذين رحلوا عنا تاركين سيرتهم وخبرتهم عناءاً لنا، وهكذا فإن فرداً واحداً لا يمكنه ان يحتجز لنفسه القدرة على أن يسكب كل العطر العاشق على أسطر يختص هو بها. ومن هنا تأتي المجازفة، فلا أنا أدعي قدرتي ولا رغبتي في أنني أفوض

نفسي أو أفرضها لكتابة هذه المساحة من تاريخ التجمع، ولا أنا ولا غيري يمكننا أن نقول كل ما يجب أن يقال.

فقط هي رغبة في استدعاء الذاكرة لسرد بعض من تجربة تستدعي مفردات يكون تسجيلها صيانة لها من التبدد ، وتكون هي بذاتها حافزا للآخرين من رفاق درب العشق التجمعي كي يستعيدوا كل مالديهم قدرة على العشق، ويصوغوه أحرفاً وكلمات لعلها تتجاوز فتتكامل، فتعطي صورة تستحق التأمل والاهتداء بها.

وبدون مبادرات متتالية، حتى وإن اختلف بعضها عن بعض ستبقى هذه الكتابه عاجزة عن أن تعطى الصورة الواجبة الأداء ، عن أداء التجمع تاريخا وأفراداً..

فليكن هذا التجاسر أو لنقل المجازفة - إضافة إلى ما اعتدت عليه من مجازفات - دافعا لكل العاشقين كي يقبلوا نحو موكب العشق المكتوب.

ولعل المجازفة الأولى فيما كتبت هى التي لقنتني الدرس، ففي ١٩٦٦ بدأت محاولة الكتابة عن تاريخ الحركة الشيوعية المصرية وهي محاوله استمرت أكثر من عشرين عاماً، واستنفدت مني طاقة لست أعرف كيف أمكنني أن أستجمعها ، حتى تجسدت في آلاف الصفحات (مجلدات ست) اجتذبت مديحاً ومعارضة واعتراضاً ونقداً وانتقاداً، وحتى اتهامات بالتحيز والانحياز .ولكن المجلدات الست بقيت واجتذبت معها كتابات عديدة لرفاق عديدين كتبوا ليكملوا النقص، وليصححوا الأخطاء، وليدلوا برؤيتهم وشهادتهم أمام التاريخ .. فتحقق ما كنت أطمح إليه من حث الجميع على الكتابة عن الجميع، وهكذا يمكن

للحقيقة التاريخية أن تكتمل ، بهذا المنطق الذى تلقنت مذاقة عبر الزمن الماضى، أخوض هذه المجازفة، أخوضها مدركاً أنني لاأكتب تاريخاً بل مجرد انطباعات وذكريات، ومتأكد أني لن أفي بالغرض ، ولن أحقق وحدي الهدف ، ولن أسجل بما سأكتب كل ما يجب أن يسجل ، فقط أنا أحاول أن أستعيد تجربتي في مجازفة سابقة استطاعت أن تجتذب ممكنات الاستكمال وحتى الاكتمال لدى الرفاق الآخرين.

فهل أنجح هذه المرة أيضا في أن أستدعي دفء الشمس، شمس الإسهام التجمعي في استكمال سيرة مسيرة جميلة ومحفوفة بالخطر العاشق والعشق الخطر؟ فيكتب كل من يمتلك «المعلومة» أو حتى بعضا منها، والقدرة التي يمتلك الكثيرون منها فوق ما أمتلك .. فتهطل الكتابات كما يأتي الندى لنمنح تاريخاً ما يستحق .. فهو وبالقطع يستحق أكثر بكثير مما سنفعل ومما سنفعل ومما سنكتب مهما تزايدت كتاباتنا.

* * *

ولقد يتصور البعض أن الاستقبال غير المتوقع للجزئين الأولين من «مجرد ذكريات» قد حفزني إلى الكتابة، بل كان الأمر على العكس تماماً، فقد استدعى الجزءان الأولان كتابات وتعليقات حاولت ان أتابعها على مدى الامتداد العربي فلم أستطع، وتنوع الاهتمام ما بين كتابة وحوارات تلفزيونية وإذاعية تكاثرت تكاثراً أربكني، فقد فاق كل ما توقعت، وكل ما تستحقه الكتابة، وما يستحقه الكاتب وتنوع الاهتمام سلباً وإيجاباً، فالبعض هاجمني هجوماً حاداً ولعل هذا حقه، والبعض أربكني بمديح لا أستحق أكثره، لكن هذا الاهتمام المبالغ فيه إلى حد

الإرباك دفعني إلى المزيد من التردد إزاء كتابه جزء ثالث. فالخواطر تحاصرني بخطر ألا يلحق بالثالث قدر من الاهتمام الذي لحق بالأول والثاني.

ولكن حتى وإن حدث ذلك فسوف أكون راضياً عن المجازفة التي قد تستحث غيري على المجازفة بالمشاركة فى تقديم تجمعنا إلى ذاكرة الناس وذاكرة التاريخ، أن نقدمه كما كان حتى يتألق على أيدي القادمين الجدد إلى صفوفه كما يجب أن يكون.

أو هذا ما أطمح إليه

د. رفعت السعيد

١٣ نوفمبر ١٩٩٩.

أضواء تأتي من بعيد

كان الصباح الدافئ ينايرياً رغم دفئه. والشمس المسترخية تمنح الدفء مزيداً من البهجة. والمكان على شاطىء النيل في الكازينو الذي كان يفترش مساحة تسبق فندق الميريديان من خلف القصر العيني. ثم أتى محمود توفيق في موعده تماما، وتماما كما اعتاد كان منتشياً ومبتسماً. لاحظت ابتسامة أكثر اتساعاً من تلك التي اعتدت عليها في أوقات سابقة.

تصافحنا. لم يبدأ حديثا.. قال وهو يطلب تحديد الموعد إنه هام جداً. اهتمت عيناه بملاحقة العجوز الذي يحتضن شاطئ النهر مباشرة، ويقيم فيه مشتلا صغيراً. كان الرجل منهمكا في احتواء قطرات الياسمين التي تتألق على أغصان تغمر المكان. منحه محمود جنيها كاملا واستحوذ منه على ياسمين يملأ الطاولة، ويملؤنا نحن ببهجة العطر المبهر، فتسطع البهجة ممتدة بلا حدود، أمام مساحة من النهر تمتد هي أيضا بلا حدود.

وبعد أن تيقن بحس الشاعر أن المناخ أصبح عطراً، أطلق مفاجأته. التي كانت تستحق كل هذا الاستعداد الممتلىء بهجة.

السادات قابل عبد الرحمن الشرقاوي. أفضى اليه بقطعة هامة جداً من سر هام هو أيضا.

قريبا ستكون هناك تعددية حزبية، وسيكون « لنا » حزب علني.

« لنا » قالها ولم يتوقف أي منا عند حدودها وممكناتها. الدهشة ملأت المناخ الياسميني العطر فزادته عطراً.لم أكن متأكداً، رغم تأكيده هو، من صدق هذه النبوءة.

وبرغم التأكيدات المؤكدة طوينا جوانحنا على السر. ونسيناه أو تناسيناه وانهمكنا في الحديث عما هو آني.

أكد أن السر يجب ألا يُباح به حتى لا يتلف الأمر كله. طويت جوانحي على السر، أحكمت طيها، وكأنني أحاذر من البوح به لنفسي، ولكن وكما عودت نفسي أو عاهدتها أفضيت به لخالد محيي الدين، واتفقنا على أن نتكتمه، فتكتمته حتى نسيته تماما. فإن تذكرته رسمت في خاطري بسمة تغمرها شكوك تكاد أن تقول إن السر الذي أرهق نفسي بكتمانه، ربما كان بلا سند من الحقيقة.

ونسيت الأمر تماما.

نسيته إلى درجة أنني حتى لم أستعده عندما انهمك لطفي الخولي في شرح فكرة طرحها السادات عليه حول إعداد ورقة « لتطوير » الاتحاد الاشتراكي باتجاه تعددي (تلك الورقة التى أسميت فيما بعد «ورقة أكتوبر »).. إنهمك لطفي الخولي بأسلوبه المميز في شرح الفكرة..كان هناك خالد محيي الدين وإبراهيم سعد الدين وأنا، وكنا نجلس في غرفة خالد محيي الدين بالمجلس المصري للسلام (الدور التاسع في مبنى الاتحاد الاشتراكي). و دون أن نتفحص أعماق الفكرة، ودون أن نتخيل

مداها، ودون أن أستعيد في ذاكرتي ولو بأقل قدر حكاية محمود توفيق لي.. انهمكنا في الحوار.

امتد بنا الحوار طويلا ووعد لطفي الخولي وإبراهيم سعد الدين أن يعدا مسودة مقترحة.. وفجأه قال خالد محيي الدين وكأنه يتذكر ما نسيه.. هناك نموذج يستحق التأمل .. حزب العمال البريطانى سمح في أرجائه الممتدة بتكوين أندية متمايزة في توجهها الفكري، فلم لا يكون في الاتحاد الاشتراكي شيء مماثل يتواجد بصورة أو بأخرى..و بقدر أو بآخر؟. ولأن التصور الممتد الأفق لما طرحه لطفي الخولي لم يكن متحققاً، وربما لأننا كنا نتصور أن الأمر هو في أوله وآخره مجرد ورقة تصدر، تتلى، ويحكي عنها الكتّاب والصحف ثم تُنسى كما حدث بالنسبة لأورق سابقة في زمن سابق، فقد اكتفينا بأن تُضَمَّن هذه الفكرة في مقترحاتنا، لكنها جاءت جرداء من أية تفاصيل. وهكذا ربما (أقول ربما) كانت فكرة خالد محيى الدين عن الأندية المتعددة ذات الرؤى الفكرية المختلفة.. هي نقطة البدء في فكرة « المنابر » داخل أبهاء الاتحاد الاشتراكي.

*   *   *

وكالمعتاد.. تتالت الاجتماعات لمراجعة الورقة المقترحة .. والتي لا أدري إن كان السادات قد أخذها كما هي، أم أعاد صياغتها، أم دمجها مع آخريات كلف بها آخرين (فقد كانت هذه هي عادته).. ولكننا وحتى أثناء المراجعة لم نتوقف لا كثيرا ولا حتى قليلا أمام فكرة « الأندية»، فقد تبدت لنا (ربما) .. أنها مبالغة مبالغ فيها.

وصدرت ورقه اكتوبر خالية من فكرة « الأندية»، لكن «المنابر»

ما لبثت أن أتت بصورة مفاجئة. وكأنها هبطت على الجميع من حيث لا ندري هنا . وهنا فقط تذكرت نبوءة محمود توفيق ذات الابتسامة العريضة فى ذلك الصباح اليناير المفعم برائحة الياسمين.

وبرغم مماحكات من البعض في جلسات الاستماع التى أجريت، فقد تبدت مصر وكأنها تذوب شوقا للتخلص من رداء الحزب الواحد، والذي تبدى رغم تعلق العديد به وكأنه ثوب ضيق.. وغير متسق مع الملامح التى بدأت ترتسم في سماء الواقع الجديد، والذي يحاول جهد طاقته أن يبدو متجدداً حتى بأكثر من طاقة أصحابه على التجديد.

وتتالت أسماء عديدة لمنابر عديدة،و فيما أذكر، ثلاثة واربعون اسماً لمنابر مقترحة تراكمت بسرعة مثيرة للدهشة.. البعض اتخذ طابعاً جاداً، والبعض كان - كما هو معتاد - مسايرة للموجة الجديدة. أو مجرد محاولة لمنح أصحابها مساحة من وجود فيما هوآت من زمان.

ثم كان اختصار الموج المتزاحم الى ثلاثٍ فقط. «يمين» «يسار» «وسط» . وامتلك السادات « الوسط» تاركاً «اليسار» لأهله، واليمين لمن تبدى كذلك فقط من أجل أن يشغل هذه المساحة (أقول تبدى كذلك لأنه تسمى فيما بعد « الأحرار الاشتراكيين» (!) .. وأيضا الوسط تسمى « مصر.. الاشتراكي».. وكنا نحن الوحيدين الذين لم نتخذ لأنفسنا اسماً فيه كلمة « اشتراكي». أليست هذه مفارقة؟

المهم بدأت الدهشة بأن استقبل السادات خالد محيي الدين وليس عبد الرحمن الشرقاوي، طالبا منه تأسيس منبر « اليسار»، وبذلك تلاشت ترتيبات مسبقة للشرقاوي ومن أحاطوا به ممن أسموا أنفسهم مجموعة روز اليوسف (احمد حمروش، حسن فؤاد، صلاح حافظ.. ومن

تواجد معهم خارج إطار روز اليوسف مثل محمود توفيق وسعد كامل وآخرين] . وفيما يبدو أنهم كانوا قد استعدوا قبل غيرهم، لأنهم علموا قبل غيرهم، ثم ولسبب لايعرفه إلا السادات، انقلبت الخطة، وانتقل الاختيار من الشرقاوي إلى محيي الدين.. لماذا؟ حتى الآن لا أعرف وربما لا أحد يعرف.

وبدأت عملية تأسيس منبر اليسار، وبدأت معها معركة من جانب هذه المجموعة، فقد تلقت النبوءة قبل غيرها وربما اعتبر الشرقاوي أنه أول من أتى اليه الوحي من السادات، فبدأ استعدادات واتصالات مبكرة.. ثم تسرب كل شئ من يديه (إنه الاسلوب الساداتي.. المتكرر، ولكن أكثرنا لم يتعلم) وأفرغت هذه المجموعة غيظها (وكانت محقة تماما في هذا الغيظ] الذي أتى –وياللدهشة – ضدنا وليس ضد السادات.

والغريب أن السادات فاتح أول من فاتح في هذا الامر الشرقاوي، فكيف تركه قبل أن تبدأ الرحلة؟

هل كان السادات يستخدم الشرقاوي كإيماءة يتحسس بها مسار الفكرة عند أهل اليسار، بينما هو يرتب في ذهنه مساراً آخر؟

ربما ..فهذه هي الأساليب الساداتية المعتادة، التى لم يعتد الناس على فهم ألغازها.

لكن الخلاف مع مجموعة الشرقاوي كان –أيضا – حول التوجه الأساسي نحو الفكرة، وكيفية التعامل معها، وبها. فنحن نسعى نحو مساحة يسارية متسعة، مظلة تكون لكل من هو يساري من جماعات، وما هو يساري من أفكار، وهم – ربما تعلقاً بالفكرة أو تعلقاً

بالماضي..أولمجرد التعارض والتمايز عما نطرحه نحن- طرحوا فكرة منبر ماركسي، للماركسين فقط،وربما لفصيل واحد منهم.

.. وفي غمار دهشة الكثيرين، واعتراض الكثيرين .. وحتى هجومهم وتهجمهم بدأت رحلة العشق في ملحمة تلاقي العاشقين.

لكن السادات كعادته تبدى ماكراً بأكثر مما توقعنا، فالمنابر لم تكن سوى نصف خطوة، تستدرج الجميع نحو تعددية حزبية، فتتحول المنابر سريعا.. وبأسرع مما توقعنا نحن أو توقع غيرنا من الأكثر قربا من صاحب القرار إلى أحزاب، ويرتفع بنا موج التحولات المتسارعة فنتحول من «منبر» اليسار إلى .. «حزب» التجمع.

البداية

والتقت بذور العشق في عناق متسارع الخطى. بعض اللقاءات في منزل فؤاد مرسي وأكثرها عند حسين فهمي.

خالد محيي الدين، د. فؤاد مرسي، د. إسماعيل صبري عبد الله ، د. إبراهيم سعد الدين ، حسين فهمي . لطفي الخولي ، وأنا.

ومن يتأمل الأسماء يكتشف بعضاً من تنوع،لكنه تنوع فى إطار ذات الحديقة، ثم مالبثت الجلسات المتتالية أن أتت بتنويعات على ألحان لم يتخيلها أحد، د. إسماعيل صبري تحدث طويلا عن د. يحيى الجمل. ود. يحيى أتى ومعه د. محمد أحمد خلف الله . وأتى د. خلف الله بدكتور علي مختار، القوميون إذن جرى تمثيلهم. وتوالت اللقاءات وتوالى معها فيض أسماء جديده. كان الأكثر انهماكا فى تأكيد التنوع هو خالد محيي الدين الذى اعتبرها المسألة الأكثر أهمية، التقى الكثيرين وزرت معه الكثيرين في منازلهم، البعض استقبل فكرة المظلة اليسارية المتسعة باندهاش، والبعض تقدم بشروط حول التوجه، وحول نسب التواجد وخاصة تواجد الماركسيين..وكان الحوار في هذا الصدد مقبولا وتجري مناقشته بانفتاح، لكن البعض اشترط لوجوده ألا يوجد البعض فوضعنا في المأزق.

مثـلا - ولست أدري لماذا ؟ - كان محمـد إدريس رئيس الاتحاد التعاونى متحمساً جداً للفكرة، وكان نشطاً في بداية عضويته في السكرتارية العامة للمنبر، وكنا نعتبر وجوده معنا مكسباً كبيراً. كذلك كان أحمد الخواجه نقيب المحامين. لكن كلاً منهما وعلى انفراد، اشترط لوجوده معنا ألا نقبل انضمام كمال الدين رفعت الذي تأخر انضمامه باتفاق معنا بأمل إقناع بعض الناصريين الذين لم يقتنعوا، وعبثا أرهقت نفسي وأرهقت كلا منهما بنقاش ملح حول هذه المفاضلة الصعبة، أو حتى تفهم بواعثها. كل منهما صمم، رافضا إبداء الاسباب، وملحاً في عدم إفشاء هذا الاعتراض لأحد. ولم نقبل المفاضلة، ليس لأننا وضعنا الاثنين في ميزان مقابل الزعيم الناصري، وانما لأننا رفضنا منذ البدايه مبدأ استبعاد أحد لحساب أحد.

وأتى كمال الدين رفعت متحدثاً رسمياً باسم التجمع وانسحب محمد إدريس وأحمد الخواجه فى هدوء..

قدم إدريس استقالته طالبا عدم إثارة ضجيج حولها ، أو حتى مناقشتها وكأنه يقدمها لتسجيل موقف أو مجرد إبلاغنا باحتجاج صامت، أما أحمد الخواجه فقد كان أكثر رقة، قال: لن احضر واتركوا اسمي مدرجاً بلا فعل وبلا ذكر له حتى ينساه الناس . ونسي الناس بعد فترة، ولم يعد أحد يتذكر عضويته في التجمع [وبالمناسبة كان كمال رفعت ببساطته الحكيمة والمحكمة هو صاحب اسمنا، فعندما طرحنا عديداً من الأسماء ونحن نتحول إلى حزب، تبدى كل منها باهتا ، أو غير مقبول من البعض، فجأة قال كمال رفعت بصوته الفخم.. نحن تجمع.. ونحن وطنيون وتقدميون ووحدويون. فلنتخذ لأنفسنا إسماً يصفنا كما نحن.. وقد كان.]

ومنذ الوهلة الأولى للمنبر سعينا نحو التنوع السياسي.. ماركسيين (وما كان أكثرهم) وناصريين وقوميين ورجال دين مستنيرين: الشيخ مصطفى عاصى وكان قيادياً في الاتحاد الاشتراكي بالدقهلية، وقد أتى إلينا مبكرا، وكذلك أتى زين السماك مجسداً ميراث علاقة حميمة وقديمة بين والده الشيخ علي السماك وخالد محيي الدين .. ثم أتى ميلاد حنا ومعه رمزي فهيم زميله القديم في مدارس الأحد. وأتى نقابيون .. ومهنيون وأساتذة جامعات..

كان الانضمام بسيطا وسهلا: أن تسجل اسمك ، أو أن تملأ كوبونا نشرته روز اليوسف .. تضع علامه أمام كلمة اليسار وترسل الكوبون على مقرنا، الذي كان أيضا مقرا للمجلس المصري للسلام بالدور التاسع بالاتحاد الاشتراكي.

لكن الأمر لم يكن سهلا، شبان ناصريون. حاولوا أن يضعوا العصي فى العجلة.. كنا نحتاجهم لأمرين شديدي الأهمية.. التنوع الذي يلح عليه خالد محيي الدين، ولاستكمال التوقيعات العشر.

كان شرط قيام المنبر أن يوقع له عشرة من أعضاء مجلس الأمة أو اللجنة المركزية.. وفى البداية كان الأمر يبدو سهلا.. خالد محيي الدين، أبو سيف يوسف واثنان من أسوان يساريان قديمان: الشيخ عبد الهادي يعقوب وكان عضوا في مجلس الأمة، وميرغني حمزة وكان مديراً للمنطقة التعليمية بأسوان وعضوا باللجنة المركزية. أتى بتوقيعهما زكي مراد ، ثم أتى ثلاثة دفعة واحدة ، كانوا من قيادات العمل النقابي والفلاحي في الاتحاد الاشتراكي في شبرا الخيمة، أسسوا معا – أو حاولوا – منبراً عندما كان الامر منفتحاً أمام الجميع، وعندما سد

الطريق أمامهم أتوا الينا: علي طلخان، محمد عبد السميع، ومحمود عيد [اشترط محمد عبد السميع أن يكون السكرتير العام المساعد] وقبلنا لأكثر من سبب، التنوع السياسي والإقليمي والفئوي، التوقيعات الثلاث، ولعل السبب الأخير كان الأكثر إلحاحاً.ثم عامل تليفونات من القليوبيه أتى إلينا دون سابق اتصال،وكان عضوا باللجنة المركزية للاتحاد الاشتراكي أظن أن اسمه كان محمود عبد الخالق، انضم إلينا سريعا وتوارى سريعا ولكنه يكتسب فضل منحنا توقيعه ثم محمد إدريس وتوقف العد عند رقم ٩ . يتبقى واحد. الأنظار جميعا اتجهت نحو أحمد طه . هو تردد ، ثم قال : لننتظر حتى اللحظة الاخيرة فإن لم تجدوا العاشر.. سأكون أنا عاشركم.ولكن من كان يمنح نفسه طمأنينه الانتظار حتى اللحظة الاخيرة؟ ومن هذا الذي يعلق مصير حدث بالغ الأهمية حتى اللحظة الأخيرة؟

وتلاعب بنا عدد من الشبان الناصريين كان معهم توقيعان: أحدهما كمال أحمد . كانت المجموعة محدودة وخالية من الأسماء المعروفه [باستثناء كمال أحمد] أسماء ناصرية عدة كانت قد تلاقت معنا فعلا.. لطفي واكد.. وكان كمال رفعت قريباً جدا ،وأتى محمد خليل وجماعة من شباب الناصريين بالجيزة، ومصطفى بكري ومعه جموع ناصرية من قنا، وآخرون كثيرون، لكن التوقيع العاشر كان الجرح الذي وضع فيه هؤلاء الشباب كثيرا من الملح، وضغطوا .. ضغطوا، تلاعبوا بنا وتلاعبوا ، كانوا يتحركون بسرعة: يأتون، ثم ينسحبون، ثم يأتون.. يزعمون أن لهم قيادة ما، يذهبون أو يدعون أنهم ذاهبون للتشاور معها.. ثم اكتشفنا أنهم كانوا يشربون شاياً في جروبي ولا يتشاورون مع أحد .. فقط

يحاولون إيهامنا بأن ثمة شيئا كبيراً خلفهم، ولا شيء بالنسبه لنا كان هاما سوى التوقيع العاشر. أصبحوا صرحاء في النهاية. تحدثوا في البداية عن الراية الناصرية، والشارع الناصري والجماهير الناصرية التى لن ترتضي قيادة لمنبر اليسار سوى ناصري، سألت بعد أن تحول الإرهاق إلى ملل، هل يريد أحدكم القيادة؟

قالوا وبحماس: نعم. قلت: فوق خالد محيي الدين؟

فأجابوا بتواضع: المسألة لا علاقة لها بالأشخاص أنها مسألة مبدأ.

قلت: ألا ترون أنكم شباب، وأن السن يلعب دوراً، قال كمال أحمد في براءة مفتعلة: كان مصطفى كامل شاباً.. وكان زعيما. قلت بانفعال: لكنني لا أرى بين الجالسين مصطفى كامل جديد..

فرد أحدهم بكبرياء: الرئيس يجب أن يكون ناصريا .. حتى ولو كان مجرد قطعة من خشب.

كان خالد محيى الدين قد ترك لي مهمة الحوار معهم، فقد تسارع الملل نحوه ، كما أنه كان منهمكا فيما هو أهم .. فى استقبال القادمين الجدد . وضبط إيقاع سيمفونية التنوع التي يحلم بها، وأقنعنا أن نحلم معه بها.

فجأة، وفيما أكاد أنفجر من غيظ مناقشة تدور، وتستمر في دورانها بلا نهاية، وبلا أي جديد فيها.. أتى عبد المنعم القصاص، وكان قد انضم لنا منذ البداية هو وأمينة شفيق، ليقترح مفاتحة قباري عبد الله عضو مجلس الامة.. إنه التوقيع العاشر. أتى به. تناقشنا. كان صريحاً صراحة جميلة. وكان ودوداً ومرحاً. قال أنا مع اليسار، ولا

أصلح إلا معه، ولا مكان لي غيره، فقط أريد سيارة لأتشاور مع صديق.

كنت أعرف أنه على علاقة وثيقة بمجموعة التيار الثوري[كانت مجموعة ذات أفكار شبه صينية، وكان يتزعمها محمد عباس فهمي وطاهر البدري] .. طلب سيارة فقد كنا على عجل. كنا في اليوم الأخير، بل في الساعات الأخيرة.. وإن لم تكتمل التوقيعات العشر فمن يضمن لنا فرصة أخرى يعقد فيها مجلس الأمة اجتماعاً مشتركا مع اللجنة المركزية للاتحاد الاشتراكي لإقرار برنامج المنبر وإعلان تشكيله؟ وكل شيء جاهز.. ينقصنا فقط توقيع واحد .. وكان أكثر ما يغيظني هو تلاعب هؤلاء الشباب الناصريين بنا.. وضغطهم علينا.

ذهب قباري متعجلا الى الزيتون بسيارة خالد محيى الدين، توقعت أنه ذهب ليستشير محمد عباس. محمد عباس رفض بشدة، حتى سائق خالد لاحظ أن صاحب البيت خرج خلف قباري حتى السيارة وهو يؤكد رفضه.. ويحذره ويزجره .. وعاد قباري - رغم ذلك - هادئاً ومبتسماً، اختلى بنفسه قليلا في غرفتي .. ثم وقع . قبلته، لأول مرة أحسست أنني أريد أن أبكي، بل لقد بكيت فعلا. وجريت لخالد .. ارتاحت البسمة على وجهه.. وعدت للتفاوض مع الناصريين.. كان أمامنا أقل من ساعة على الاجتماع المشترك، كانوا يلعبون لعبة الصبر، وكأنهم يقولون لنر من سيتراجع أولا. وكانوا يعلمون أننا ينقصنا توقيع، ولم أقل لأحد أن قباري قد وقع. وبدأت الدقائق تزحف، هم متوترون.. ويتساءلون هل سنخضع ونقبل كمال أحمد رئيسا علينا جميعا ؟ أم نترك الأمر كله؟ كنت هادئ البال وبدأت أتعامل معهم بلا مبالاة رغم أنني

كنت أريد وبإخلاص أن ينضموا إلينا.. ولكن في المكان الملائم لحجمهم.. شعر كمال أحمد أنني لن أتراجع ، فلعب بآخر أوراقه، طلبني إلى خارج الغرفة. خرج مدعيا أنه سيعود بعد أن يتحدث تلفونيا مع شخص مهم. ثم أتت السكرتيرة تلح في أن تليفونا هاما يطلبني . خرجت لأجد كمال أحمد في انتظاري، حاول اكتسابي، تمشينا في طرقه الدور التاسع الطويلة وكأن الحديث سري للغاية، ولا يجوز أن يهمس به بالقرب من الآذان المفترض وجودها في الغرف.. دار بالحديث دورة ماكرة لكنها تبدت لي منذ البداية باهتة، فمنذ الجملة الأولى عرفت ما يريد أن يقول .. باختصار أكد لي أنه مثلي تماما ماركسي.. وأن منبراً يترأسه ماركسي مثله، ماركسيته غير معلومة سيكون الحل الماركسي الأمثل .. ابتسمت ورفضت.

وظلت المجموعة الشابة تراهن على أننا سنرضخ عند الخيار صفر .. عند الدقيقة الأخيرة.

وأتت الدقيقة الأخيرة. أرسلوا واحداً منهم إلى أحمد طه يرجونه ألا يوقع لنا، بأمل أن نخضع لهم..

ثم فجأةِ وجدوا خالد محيي الدين يخرج من غرفته حاملا ملفا به البرنامج .. وبه التوقيعات العشر..

* * *

وفيما كنا مستغرقين في هذه الهموم الهامة، كان فؤاد مرسي منهمكا هو أيضا في إعداد مشروع البرامج، وكان الآخرون جميعا منهمكين في ضم قيادات من مشارب متعدده لتكون الهيئة التأسيسية للمنبر. واقترح خالد محيى الدين عدة ضوابط .. إما أن يكون عضو

الهيئة التأسيسية ممثلا لتيار سياسي أو ممثلا منتخبا لنقابة عمالية أو مهنية، مع إعمال التوازن المفترض بين القوى المختلفة وكذلك التوازن الفئوي والجغرافي.

وعلى عجل وافق الاجتماع المشترك لمجلس الأمة واللجنة المركزية علي برامج المنابر الثلاث -ربما دون ان يقرأها أحد- ثم على عجل أعلن ذات الاجتماع قيام المنابر الثلاث. (أقول وافق على عجل ودون قراءة متأنية للبرامج أو حتى دون قراءة لها أصلا.. لأن لذلك تداعيات كانت بالنسبة لنا وفي خصوصية برنامجنا هي البادئة بالتصادم مع السادات.)

وبدأنا في التحضير لاجتماع الهيئة التأسيسية، وكانت المشكلة كبيرة. أتانا الكثيرون، الكثيرون جداً، من سيناء، حتى النوبة، حتى مطروح، وتبدت الحقيقة الملهمة أمام أعيننا، فلليسار عمقه غير المرئي المترامي في أعماق التربة المصرية. و أتت جماعات ومجموعات من كل بقعة مصرية .. واحترنا ممن تتكون الهيئة التأسيسية .. في رقم معقول؟ . في اجتماع يمكن أن يناقش ويدار فيه حوار ممكن (نحن الذين اعتاد الكثيرون منا على حضور أو إدارة اجتماعات سرية من بضعة أفراد) وأيضا في شكل وحجم لا يثير توجسات نظام كان بطبيعته متوجساً منا، ومن كثرة من تلاقوا معنا، أو من اتصلنا بهم، لكن المشكلة الأكثر عمقا كانت مع الشيوعيين القدامى والجدد، فقد تصور المئات منهم أن كل فرد فيهم هو صاحب الدار، أو بالدقة صاحب الحق التاريخي في هذا المولود الجديد. لكن لعبة التوازنات بين أطراف المساحة اليسارية المتسعة كانت تفرض بل تفترض وجوداً محدوداً للشيوعيين، ليس فقط من أجل مساحة أكثر اتساعاً للآخرين، وإنما لأن الاخرين كانوا

يتوجسون.. بل ويرتجفون فعلا من مجرد ذكر بعض الأسماء الشيوعية، أو من يقال عنهم إنهم كذلك، لكن الرفاق القدامى كانوا يمتلكون حماساً وأملا في التواجد، وفي مزيد من عطاء يريدون له أن يعود للتواصل. وكانوا يستشعرون دهشة مريرة عندما نحاول برفق مترفق أن نتحدث عن التوازن والتوازنات، وعن مخاوف الآخرين.

أي آخرين هؤلاء؟ وماذا قدموا لليسار عبر زمانه الطويل والمرير؟ عاشوا طوال عمرهم في مأمن .. بل وفي أحضان الخصم.. والآن وعندما يطفو قارب اليسار فوق الموج يأتون ولا يكتفون بأن يمسكوا بعجلة القيادة أو بجزء منها، وإنما يشترطون إبعاد من دفعوا حياتهم لاستمرار اليسار؟ ألم يقم كل الماضي على أكتاف وتضحيات هؤلاء الذين تجري الآن محاولة تحديد وجودهم في حده الأقصى. هؤلاء الذين بدونهم وبدون ما قدموا من سنوات ممتدة من الفعل السري، والنضال العالي التضحية، وآلاف الآلاف من السنوات في السجون ما كان لليسار أن يكون، وكانوا - وهذا حقهم- يدهشون ويسخطون إذ يجدون هذا الشخص أو ذاك يتقبل وجودهم بحذر، ويحاول جاهداً أن يدفعهم الى أدنى سلم الوجود التنظيمي الذي لم يكن قد تواجد فعليا.

وكانت مأساة حقيقية عانيت منها طويلا، وظل ضميري يؤرقني، فكم يمكن أن تعاني عندما يأتيك « رفيق» منح سنوات عمره للنضال اليساري، ثم تجلس اليه لتشرح له بكلمات متعثرة من الخجل، وأكثر تعثراً من ردود الفعل المندهشة الخالية من التصديق.. وأنت تنتقي الكلمات التي مهما انتقيت جاءت جارحة وغير منصفة.

يحملق فيك الرفيق الذي كان يوماً ما قائداً ملء السمع والبصر،

واحتمل سنوات السجن الطويل والعذاب المرير، وأنت تحدثه عن ضرورة التوازن الكمي والنوعي مع الآخرين . مع من ؟ مع الناصريين مثلا، الذين كانوا أساتذة عذابه وتعذيبه، هم أو من يتمسكون الآن بذكراهم، ويرتلون آيات الولاء في محرابهم.. كيف هذا ؟ وكيف يتقبل منك هذا الرفيق أي شرح، وأي منطق؟

وأعتاد على هذا النقاش المتكرر كل يوم عشرات المرات.ذات الوجوه النحاسية البريق، تأتي تكسوها البهجة بوجود علنى لمولود جديد هو ابن أو حفيد لها.. يقدمون أنفسهم لمن كان يوما مجرد تلميذ يحبو في مدرستهم، ثم يجلسون في امتثال ليستمعوا إلى مبررات استبعادهم من الوعاء القيادي.. تبدأ الدهشة بافتراش هذه الملامح الصديقة والصادقة، تتلوها درجات من كافة ألوان الحزن.. لكن الأكثر منهم كان ويااللغرابة قادراً رغم كل الظلم الذي أكاد أشعر بمذاقة في فمي من فرط سخف الكلمات والمبررات يبدو متفهماً ومتفاهماً. ويضع نفسه تحت تصرف الحفيد الجديد.. وفي خدمته وفي أي موقع. ويسقط قلبي مني، يفر بعيداً ليلاحق هؤلاء الرجال وهم يغادرون مكتبي، مصافحين بذات الحماس الذي صاحبهم عند حضورهم.. ومشجعين بكلمات أبوية وحميمة..

غير ان البعض لم يستطع إخفاء غضبه..ولم أجد سوى أن أغضب من نفسي إذ وضعتني في هذا الموضع.

ولكن.. إذ أحاول أن أستخدم مفاتيح التعقل أكتشف أنه ويااللأسف لم يكن هناك من مناص.

فإن الكثيرين من القوميين والناصريين والتيار الديني المستنير

كانوا وظلوا ولأمد ليس بالقصير يتصورون أن الامر كله لم يكن سوى خدعة.. وأن الشيوعيين يمسكون بالشباك يلقونها في بحر العمل الوطني واليساري ليستجمعوا كل حصيلة البحر، وهم ممسكون بل قل متحكمون بزمامها.. ولم يكن ثمة شيئ من ذلك. ولكن ما كانت هناك حيلة يمكن أن تحتال بها على أفكار تكونت وجرى تركيبها تاريخيا ضد تيار محدد.. ما كانت هناك سوى حيلة واحدة.. هي الزمن، وذلك الشيء المسمى بالممارسة، وهذا المسمى بالتفاني. وكيف بزمن وممارسة وتفان ونحن لم نزل في أولى درجات سلم بلا نهاية؟.

ولم يكن أمام مساحات وافرة من الرفاق القدامى سوى أن يتقبلوا الظلم طولا وعرضا، يتقبلوه بالسجن والتعذيب والمطاردة في زمن العمل السرِي، ثم بالتجاهل والإبعاد والاستبعاد في زمن العمل العلني.

البعض منهم طوى جوانحه على ذاته التي اعتادت الاعتياد على الألم، والبعض تلامس معنا من بعيد يقدم لنا كل ما يستطيع، والبعض أتى من أدنى درجات السلم، تقبل الوجود كعضو قاعدي، فما أن يبرز نشاطه حتى ينشط توجس المتوجسين .. أصحاب فكرة الشبكة والصياد.

لكن معاناتنا لم تكن فقط من تعاملنا غير المنصف مع رفاقنا القدامى، وإن كان ضروريا بل وحتميا في إطار الصيغة التي ارتضيناها لوليدنا الجديد.،وإنما كانت أكثر وأكثر من الرفاق الجدد، هؤلاء الذين جرى تكوينهم في مختبر مفعم بافتقاد الثقة في الأجيال القديمة، ومليئ بالشكوك والاتهامات السياسية والتنظيمية، وكان شبح حل الحزب يخيم على هذا المختبر فأصبح أصحابه كمشاهد أصم لم ير من الفيلم سوى

نهايتة الحزينة فراح يكيل اللعنات لكل الممثلين والمشاركين.. وحتى كل من مر أمام دار السينما ولم يكن مسئولا عما جرى.

هؤلاء الشبان اعتبروا قيام المنبر اليساري استكمالا لجريمة قديمة هي حل الحزب ،أو الفصل الختامي لها. وفي فكرة المظلة المتسعة جريمة أخرى تهدد نقاء الماركسية، وتنافسها في ساحة العمل الجماهيري (لقد تراجع هؤلاء الشبان نحو نظرية ستالين التي رددها منذ عام ١٩٢٧ حول القوى الوطنية في المستعمرات مثل الهند ومصر.. والتي أكد فيها أن العدو الرئيسي في هذه البلدان هو الاستعمار والرجعية المحلية، لكن اتجاه الضربة الرئيسية يتعين أن يكون الاحزاب الوطنية والتقدمية واليسارية لأنها تضلل الجماهير وتقتادها بعيدا عن ساحة الحزب الثوري للبروليتاريا).. ولأن هذه المجموعات من الشبان كانت محصورة في إطار طلابي، ومحاصرة بمحدودية رقمية تحاصرها في خانة المئات أو حتى العشرات، فقد تصوروا أن فشلهم يرجع الى ذلك الآتي الى ساحة العلنية ليسرق منهم الجماهير.. ويسرق معها الماركة المسجلة لليسار.

وطبعا كانت هناك تلك المجموعة من الشبان الناصريين الذين فاوضونا مطالبين بموقع الرئيس وأحسوا بغيظ إزاءنا.. وظل الغيظ يحركهم تحركات ما كان لها من مبرر، ولا جدوى.

* * *

ثم يأتي اليوم الأهم في تاريخ الحفيد الجديد لحركة اليسار المصري. اجتماع الهيئة التأسيسية، دعونا من استقر الرأي على دعوتهم وفق التوازنات والضوابط التي أرهقنا أنفسنا في التمسك بها، وأرهقتنا إذ تمسكنا بها.لكن الكثيرين من الرفاق القدامى قرأوا في الصحف موعد

اجتماع الهيئة التأسيسية لمنبر اليسار فأتوا، أليسوا مؤسسين؟ وهل يمكن ان يتأسس يسار جديد بدونهم؟ وكم كان مؤلماً وقاسياً على نفسي أن تناط بي مسئولية التحدث اليهم لألح إليهم، ثم أفصح لهم أن اسمهم ليس وارداً ضمن المؤسسين، وكم كانت دهشتهم ودهشتي بالغة وأنا أنحي هؤلاء وأرحب في ذات الوقت بقادمين جدد.. جدد حتى على ساحة الفعل السياسي، ولم يقدموا شيئا لاكثيرا ولا قليلا في ساحة اليسار، لمجرد أنهم ليسوا ماركسيين.

لكن الهم الأكبر كان في إعداد قائمة للسكرتارية العامة للمنبر، والتي سيجري انتخابها من الهيئة التأسيسية. تدخل د. يحيى الجمل بأكثر مما يجب ، ظل يعترض على الوجود الماركسي وهو يكاد لا يقبل سوى د.إسماعيل صبري، ويطالب « بتنظيف» القائمة من أي ماركسي آخر. كنا قد أرهقنا أنفسنا في الصباح في تحقيق قدر من التوازن.. وبضغط من البعض استبعد وياللغرابة د. فؤاد مرسي بحجة أن وجوده سيزيد من الثقل الماركسي في التركيبة.. وقبل الرجل بترفع مثير للإعجاب .. ثم جاء الدور علي، وفيما كان الحشد قد اكتمل أو أوشك ، وكان د.رفعت المحجوب الأمين العام للاتحاد الاشتراكي يستعد لدخول القاعة ليفتتح الجلسة، صمم د. يحيي الجمل على رفع اسمي، ولعله قد ترك الاعتراض حتى اللحظة الاخيرة ليباغتنا به، وكان يتوقع أن أنسحب بهدوء كما فعل فؤاد مرسي.. لكنني وبنية صادقة لم يصدقها أبداً د. يحيى الجمل لا في لحظتها ولا فيما بعد، قلت يشطب اسمي ويوضع اسم فؤاد مرسي حتى يتحقق توازن أفضل وأجدى، وكان فؤاد مرسي حاضرا بالمصادفة.. وأحرج يحيي الجمل، صعد الأحمر الى وجهه للمرة

الاولى.. و سحب اقتراح استبعادي.. ولعله اختار أخف الضررين بالنسبة لرأيه ووجهة نظره.

دخل رفعت المحجوب ليستقبل بتصفيق محدود وكأنه محسوب أو متفق عليه مسبقاً، ولم يكن كذلك، فأنا مثلا لم اكن أعرف أكثر الجالسين سوى معرفة سطحية بدأت منذ أيام .. دهش د. رفعت المحجوب من برودة الاستقبال وتصور - وظل الكثيرون يتصورون معه طويلا- أن الأمر كان مرتبا.

ابتلع المحجوب برودة الاستقبال، ثم لمح القاعة تزهو بألوان الطيف اليساري، نطق فكانت أولى كلماته الموجهة لخالد محيي الدين « إحنا ما اتفقناش على كده » ثم لمح صفين من وجوه سمراء متراصة يترأسها نائب النوبة في مجلس الأمة وأمين الاتحاد الاشتراكي في محافظة أسوان ورئيس المجلس المحلي، تصور في البداية أنهم سودانيون فقال إن هذا مخالف للقانون، ولعله وجدها فرصة ليحبط المبادرة الأولى ، ويعيد ترتيبها على ذوقة أو وفق المذاق الذي يفضله السادات ، لكننا إذ نشرح له التكوين الأسواني للحضور نثير دهشته أكثر فأكثر .. وربما غضبة . فأين رجاله الأسوانيون إذ يأتي هؤلاء جميعا معنا ؟.. ولم يكن يعرف أنهم كانوا معنا منذ الزمن القديم.

وينتهي الاجتماع سريعا في احتفاليه مفعمة بالبهجة.. فقط حاول شاب من أبناء المختبر اليساري الجديد أن يعكر صفو الاجتماع [وكنا قد حرصنا على تمثيلهم لتكتمل الصورة] ، صرخ بأعلى صوته منددا بالبرنامج وبالفكرة .. و.. حاولت المنصة الهادئة بهدوء خالد محيي الدين، والمحاذرة بحضور د. رفعت المحجوب أن تسكت الشاب الصارخ

دون جدوى، ظل يصرخ موشكا أن يفسد مناخ الاجتماع، فجأة انتفض من الصفوف الخلفية شاب أسمر ، نقابي من المصانع الحربية، صرخ في الشاب بصوت أعلى من صوته آمرا إياه بالجلوس . صوت أعلى من صوت المتحدث المتحمس والرافض لكل ما يجري.. صوت آمر يقول: أقعد.. فقعد -ويا للغرابة - منصاعاً [عرفت بعد ذلك اسم النقابي الأسمر عبد الرحمن خير] .. لحظتها تعلمت درساً جديداً. إن صوتا من القاعة ربما كان أكثر فاعلية من المنصة .. لدى البعض على الأقل.

.. وتأسس منبر اليسار.

أدوات للعشق

ونلتقي .. نتجمع في مجرى العشق اليساري للوطن، لكن للعشق طقوسه. فما أن التقينا حتى راهن الآخرون على افتراقنا، وكان رهاننا على العكس.

حملات في الصحف وخاصة « الأخبار» على التجمع، الفكرة والبرنامج والأشخاص. وكانت الحملة من الدهاء بحيث أمسكت بنقطة الوجع المؤلمة.. سيطرة الماركسيين، تحكمهم، استعدادهم الماكر للتخلص من الآخرين، جميع الآخرين.

وبالمقابل راهن التجمع على مقدرة أعضائه في اكتساب المزيد من العشق، وتكرست مدرسة جديدة تماما في فنون التعامل الحزبي، بين رفاق طريق واحد وإن اختلفت الرؤى والتوجهات.

وإذا كان الالتقاء السياسي صعبا ومرهقا، فالتعامل التنظيمي يصبح بالطبع أكثر حساسية وصعوبة.

فالمدارس مختلفة.. الاتحاد الاشتراكي، منظمة الشباب، التنظيم الطليعي، والماركسيون بطيف ألوانهم المتعددة، النقابيون بخبرتهم في العمل النقابي ، ولكل من هذه المدارس أسلوبه وتقاليده التي ترسخت

واستقرت واكتسبت قدرتها على التدفق عبر مجراها كعرف مستقر.. وإذا أردنا أن نعرف مدى صعوبة المرتقى وحساسية الملتقى، يتعين فقط أن نتخيل الفارق بين من اعتاد العمل التنظيمي كحزب حاكم، يصدر الأوامر لتنفذ إداريا وبصوره آمرة.. وبين من اعتاد على الفرار بنفسه وبنشاطه ورفاقه الى أعماق السرية..

ومنذ اليوم الأول ، وإذ يتلفت كل منا متسائلا: ماذا نفعل؟وكيف نفعل؟ اتفقنا دون اتفاق مسبق على أن نخوض تلك اللعبة الغريبة، مفسحين المجال أمام التجربة.. واحتمالات الصواب والخطأ. لم نتخذ قراراً محدداً، بل تركنا عطر عشقنا يقتادنا، وأفسحنا لضمائرنا المجال لتصبح بوصلة تحدد التوجهات.

ولعلي أتذكر دوما أننا إذ حاولنا إعداد برنامج للتجمع.. كتطوير لبرنامج المنبر الذي أعد على عجل وبمجهود شبه فردي .. وفيما نفكر كيف يكون؟ أتى إليّ أحد الزملاء(الشيخ زين السماك) بطوق النجاة إذ قال: نحن لن نصل الى برنامج نتفق عليه جميعا، يكفينا برنامج لا يختلف كل منا معه. تأملت الفكرة.. والفارق الذي يبدو مرهفا لكنه غاية في العمق بين ما نتفق عليه، ومالا نختلف حوله.

وتواصلنا دوما مع طوق النجاة هذا.

كذلك قال خالد محيي الدين يوما في معرض حديث عابر عن إدارة الجلسات وكيفية إنهاء النقاش فيها.. إنه لا يجب أن نتعجل التصويت بل الأفضل ألا نصوت فنحاصر الأقلية بأصوات الأغلبية، بل «نتوافق» معا حول نقطة في منتصف الطريق .. «نتوافق» هذا مفتاح جديد لباب هام من أبواب العشق اليساري.

فلا يجب أن نسمح للأغلبيه أن تستبد بأغلبيتها وتتخذها سلاحا

لإرغام الاقلية على قبول ما لاتقبل. « لا نريد أسرى حرب » هكذا ترجمنا شعار « التوافق ». فنحن إذ نأتي من توجهات فكرية مختلفة، لا يجوز لنا أن نحاصر تياراً ما من مكونات التجمع، ونستمر في حصاره بحجة إعمال « الديمقراطية » والإسراع بالتصويت لتفرض الأغلبية إرادتها على الأقلية..وتحاصر الأقلية بلا مخرج .. فتستشعر إحساس « أسرى الحرب ».

ولعل المثير للدهشه أن الرأي « التجمعي »، أي المبني على التوافق بين الرؤى المختلفة لم يكن فقط طوق نجاة من الناحية التنظيمية، إذ يحافظ على وحدة التجمع ويمتنها، وإنما كان أيضا الأقرب الى الصواب من الناحية السياسية. فالرؤية الأحادية تبقى مهما كانت ، ومهما تبدت متألقة وحاسمة في نظر أصحابها، أقل اقترابا من الصواب .. من تلك الرؤية التي تتأمل مختلف مناطق التناقض بين الآراء المختلفة، تمايز بينها ثم تمزج بين نقاط الالتقاء فيها عبر مساحة أكثر اتساعا تنبع من تفهم مختلف المعطيات، رؤية تأتي وعبر نقاش متأن [ربما لأن الجميع يعرفون أننا لن نحسمه فوراً بالتصويت] فتبدأ فكرة ربما تكون جديدة في التبلور .. ويستمر النقاش لينسج الرؤية الجديدة خيطا..خيطا، وفجأة نجد أنفسنا وقد تقاربنا، لا أقول اتفقنا، وإنما توافقنا. كل منا ترك مساحة من تشبثه برأيه، ليتجه باتجاه الرأي الآخر. وتتماوج مساحات الاقتراب دون نفي للاختلاف، فيتم تلقيح الفكرة الأصلية بأكثر من رؤية جديدة تتزاوج معا، فتكاد أن تصبح شيئا جديداً . إنها نظرية التطعيم في أشجار الفاكهة التي تأتي بثمار جديدة، يكون مذاقها أفضل .

ولقد تبدو هذه العملية سهلة،أو تتبدى في نظر البعض وكأنها

تخلٍ عن المواقف المبدئية، أو مهادنة مع آراء خاطئة .. لكنها ومع تكرارها المتكرر أصبحت فنا جديداً من فنون العمل السياسي المتعمق، بل والغاية في الإتقان. وهو فن لا يحتفظ فقط بوحدة التجمع ويحافظ عليها، وإنما يفسح المجال أمام تكوين آراء تنضج عبر نقاش منفتح على الآخر، وراغب في الاتفاق معه، وتتشكل، ويعاد تشكيلها عبر دورات النقاش الذي يتيح للجميع أن يستشعروا مشاركتهم في البحث عن توافق، فما أن نتوافق حتى نتوحد. فكل منا يستشعر أنه قد أسهم برأي أو قول أو توجه خلال عملية نسج الموقف الذي جرى التوافق عليه.

ويبدو التوافق وكأنه دوماً مانعة للصواعق. وتتهادى سفينة التجمع عبر أمواج صعبة، وتجتاز حاجز الخوف الأول وتبدو أكثر قدرة على التحدي ، وأكثر قدرة على التوحد .. والبقاء.

* * *

وكانت الاجتماعات القيادية الأولى بالغه الصعوبة. وحتى ابتسامة خالد محيي الدين الهادئة لم تكن قادرة على ضبط إيقاع جديد كنا نؤمل أن يتناغم معه الجميع.

البعض اعتاد علي القرارات الجاهزة مسبقا، والتي تأتي دائما من أعلى .. لكن لم يعد هناك أعلى تهبط منه القرارات - بالنسبة لنا على الاقل . وكم من جهد بذل كي يتقبل البعض فكرة أننا منبر مستقل .. وأن القرارات تنبت فعلا من حول المائدة. وكم من تلميحات أطلقت كي لا يتصور بعض الجالسين بعضا مما اعتادوا على تصوره.. من أن ما يقوله خالد محيي الدين يجب أن يتبع. بل إن البعض كان يتصور -في البداية على الأقل- أن ما يقوله خالد محيي الدين يهطل عليه من أعلى.

ثم تكون الصعوبة عندما يتصور بعض القياديين في المنبر أنه اذا كان « الأعلى » الخارج عنا لم يعد موجوداً، وإذا كنا نحن في «السكرتارية العامة» قد أصبحنا « الأعلى» بالنسبة لمنبر اليسار، فإن قراراً منا يكفي لضبط كل شيء، ويتعين أن يهبط كقطعة صخر فوق رؤوس المستويات الأدنى.

هذا البعض الذي استمتع معنا بالانهماك في الوصول الى نقطة توافق، لم يتخيل أن من حق الأعضاء خارج قاعة السكرتارية العامة أن ينالوا قدراً من التوافق معهم ومع آرائهم وأفكارهم.

لكن توافقنا حول التوافق كان قادراً دوما على تلقيننا دروس حكيمة ورائعة.

* * *

ورويداً رويداً، وعبر هذه المعابر الآمنة تتلاشى الخلافات الآنية، ويتراكم هذا التلاشي فيبدو تقاربا سياسيا، يتراكم بدوره لينبت أسلوبا جديدا، عقلية جديدة دعونا نسميها « العقلية التجمعية» أو الأسلوب « التجمعي» في التفكير والقرار والأسلوب والتوجه. ويتكون ودون أن ندري تقارب فكري .. لتتلاشى حواجز التيارات التي تمترس الجميع خلفها في بداية المنبر.

ولعل هذا أمر طبيعي - لكننا لم نتصوره في بداية المنبر، ولم نفكر فيه، وحتى أكثر المتفائلين لم يكن يتصور أن يأتي بهذه السرعة.

أقول أن هذا كان أمراً طبيعيا من الناحية النظرية على الأقل، فليس منطقيا أن تتفق يوميا وفي معترك عمل يومي محتدم ثم تبقى على ما أنت عليه من خلاف واختلاف فكري.. انصاعت الفكرة

المتشددة، لانت، تواءمت، تلاءمت ، فتلاقت مع غيرها، الذي كان يعيش ذات الفعل من التغير الجدلي.. تلاقت معا فكانت « الفكرة التجمعية » التي أتت إلينا دون أن يخلع أصحاب العقائد ثياب عقائدهم التي بقيت كما هي، وبقوا هم على ولائهم لها، فقط أعيد تشكيلها «لتتوافق» هي أيضا مع الواقع الجديد، والأسلوب الجديد، والآخر الجديد.

ونفيق بعد فترة لنجد فكرة التيارات وقد تلاشت أو كادت في إطار عملية تكون الجديد الذي يوشك أن يصهرنا معا في سبيكة ليس من الضروري أن تحتوي على ذرات متماثلة، بل لعل عذوبتها وحكمتها تأتي من «تجمع» ذرات متباينة في تكوينها المتماسك، بل والشديد التماسك.

* * *

وعبر هذه المسيرة يتقن التجمع فن إدارة الخلاف في داخله.

الآخرون انفرطوا.. انقسموا .. تجاهروا بالعداء مع بعضهم البعض .. ونحن تعلمنا أن نفسح الصدر للخلاف والاختلاف وللمختلفين، وأن نعطيهم - ربما - أكثر مما يستحقون من مساحة في إبداء الرأي المختلف، وألا نسارع بالتحزب لرأينا في مواجهه اختلافهم بل نسعى كما اعتدنا على التوافق .. وأن نتعلم كيف نتعايش مع الاختلاف. والاختلاف في الرأي لا يصمد مهما كان متشددا أمام حكمة التعايش الهادئ والذي يحترم الآخر.. وقواعد التجمع هي الأخرى أخذت رويداً رويداً تتشرب موهبة مرهفة في فنون التوافق، وعند ما تستشعر الخطر تعاند عنادها وتغدو أكثر قدرة على استيعاب الآخر، وتفهمه، وتفهم

بواعثه. تفسح له صدرها، تستمع وتنصت دون أن تتخلى عن ثوابتها .. وعند الضرورة تتمسك بالثوابت، لكنها تفعل كل ذلك في احترام للآخر.

وكم من مرة تصور أحدهم، أو راهن على إحداث شق ولو صغير في جدار التجمع. لكن حكمة التعايش مع الخلاف تمنحه فطنة التعبير الهادئ عن اختلافه.. وتدور به وبنا المناقشات ومحاولات الإقناع والاقتناع، بأمل التوصل الى توافق جديد، أو إعادة صياغة ما توافقنا عليه.. وتسكت الخلافات وتصبح في بعض الأحيان حميمة. وقد تتلاشى، وقد تستمر في إطار تعايشنا معها.. وقد يخرج المختلف، لكنه في كل مرة - وياللدهشه- يخرج وحيداً.

* * *

وعبر زمان طويل اعتاد اليسار بألوان طيفه المختلفة على تحويل مواقفه الى شعارات ساخنة، تستدرجه بسخونتها فيتلاشى الموقف .. ويبقى الشعار.

ولعل البعض قد تصور أن مزيداً من الثورية يعني المزيد من سخونة الشعار، ويزداد الشعار سخونة كل يوم حتى يكاد يحرق أصابعك، لكنه لا ينجب شيئا. بل لعله يكون أداة لعزلتك عن الناس العاديين.

وقد تعلمنا في معترك التجمع دروساً ذات مذاق ممتع ومرير في آن. مرير لأنها كانت كذلك فعلا، وممتع لأنها علمتنا ومنحتنا حصنا ضد سياسة اعتادت على فرز ما أسميناه في بعض الأحيان « الشعارات العابرة للقارات». وقد تقلدت هذا الاسم ليس فقط لأنها أكثر طموحاً من طاقة الناس، وإنما لأنها تتجاوزهم، تنطلق بعيداً بعيداً نحو ما هو غير ملموس أو مرئي، تماما كالصواريخ العابرة للقارات وإن كانت

تختلف عنها في أنها خالية من المفعول.

ولقد عانينا طويلا من هذا التكوين الفكري، خاصة عند بعض الماركسيين الشبان، وبعض الناصريين الشبان أيضا الذين كانوا يمتلكون موهبة الاندفاع بالمواقف بعيداً عن الاحتمال الفعلي للجمهور العادي. ويتصورون بذلك أنهم يصبحون أكثر ثورية..ناسين أن معيار ثورية الموقف هو قدرته على الانعكاس الواقعي في حركة الجماهير.. وليس في فرقعة صوتية خالية من الأثر الفعلي.

هل تعرف الفارق بين القنبلة.. القنبلة الفعلية، وقنبلة الصوت؟ إنه ذات الفارق بين الشعار الساخن الذي تلسعك كلماته .. ثم لا شيئ، ولا أثر. وبين الفعل المتأني القادر على الإنجاب والتوالد.. والإثمار.

والحقيقة هي أنه لا يمكن لسياسي عاقل أن يتجاوز الجماهير ويزايد عليها.. أو أن يسبقها بمسافة لا تستطيع معها اللحاق به. ينفعل كسهم طائش، ينطلق، يصرخ، ينتفض، يحتقن.. ثم يتلفت ليجد نفسه وحيدا، فالجماهير تعرف بفطرتها ما هو ممكن، وتميز بينه وبين ما هو طائش.

والثوري الحق هو ذلك الذي يترجم القدرة الفعلية للجماهير في لحظة معينة، ويصوغ مواقفه بحيث يستطيع إطلاق طاقات هذه القدره، وإفساح أبواب التحرك الواسع أمامها.. أما هذا الذي يصرخ وحيداً، بعيداً فسيبقى وحيداً وبعيداً عن الناس الذين هم محور اهتمامنا.

إن معيار صحة المواقف ليس في مدى سخونتها، وإنما في مدى قدرتها على الفعل وسط الناس.

هذا واحد من أهم الدروس التي علمنا إياها علم العمل في التجمع وبالتجمع.

* * *

كذلك فإن التجارب المريرة التي خضناها علمتنا أن الجماهير هي تكوين متجمع من أُناس بسطاء. لكنها عندما تتحرك تصبح شيئا آخر غير مجرد تجميع أفراد بسطاء إلى جوار بعضهم مهما تضاعفت الأرقام. فالتحرك الجماهيري يخلق حالة جديدة ذات تكوين خاص.. خاص جداً، فتتحول الحالة الجماهيرية إلى مزاج متميز.. لا يستمر طويلا. وعلينا أن نندمج في الحالة الجماهيرية حال تحركها الثوري، مراهنين على تركيبتها المؤقتة والمنطلقة. دون أن ننسى أنها مؤقتة، وأن نصوغ شعاراتنا بحيث تكون قادرة على إلهام الحركة الجماهيرية المزيد من الحركة .. والاندفاع الثوري، دون أن نفقد حذرنا فننسى ما هو آت من أيام. فحركة الجماهير هي وفق التكوين العام مؤقتة.. وبعدها سيعود الناس العاديين البسطاء، أفراداً عاديين كما كانوا، بسطاء كما كانوا.. ونبقى نحن لنسدد فاتورة الحسابات كلها، وأصعبها ما رفعناه نحن من شعارات قد تكون لم تضع في اعتبارها ما هو آت من أحداث فيما هو قادم من أيام.

.. والنموذج النموذجي لهذه الحالة ١٧-١٨ يناير ١٩٧٧. التهبت مصر. والتهب معها كل شيء، وفي المقدمة الناس البسطاء، خرجوا يعبرون عن مشاعرهم الغاضبة في غضب تفجر عنفاً عنيفاً . وكنا مع الناس. بل لعلنا كنا الأكثر تواجداً وسط هذه الأحداث الصاخبة. وحاول البعض من الشبان الماركسيين والناصريين في حزبنا أن يقتادنا الى قيادة العنف [أليس عنفا ثوريا ؟ وجماهيريا ؟]

واقترحوا مزيداً من الحرائق، وشعارات تتلاءم مع حرائقهم.

لكننا كنا نمسك بعصا مليئة بالشوك، مهما أدرتها أو تحسست

طرفاً من أطرافها فالشوك يملأ يديك.. يجب ألا تتجاهل حركة الجماهير، وإنما عليك أن ترشدها وتقودها نحو المزيد من التحرك الثوري، دون تدمير، فما كان التدمير يوما فعلا ثورياً. لكن مجرد تواجدنا وسط هذه الجماهير، هو مشاركة، ونحن بالذات سيجري بعد أيام التقاطنا لنسدد كامل فاتورة الحساب. وهو ماكنا مستعدين له تماما. فهذا واجبنا، وهذا قدرنا.

أما شعارات الحرائق فقد رفضناها ، وتبدي رفضنا لها لحظة الالتهاب الثوري تعقلا غير عاقل وغير معقول، وتعرضنا لهجمات وتمردات ومحاولات لدس أنوفنا- رغم أنفنا- في ركام الحرائق والدمار. ورفضنا، رفضاً قاطعاً وكان الأمر غاية في الصعوبة، فأنت تتحدى ما يتصوره البعض تجاوباً مع حركة الجماهير.. وتطويراً لها. ويكون الاندفاع المكتسي بحماس ملتهب مختلطاً. فالبعض يفعله تجاوبا، والبعض متفجر بذاته والفرصة الآن سانحة، والبعض قد يكون متسربا إليك من الأمن مستهدفاً إثبات ما قد يحتاج الى إثبات فيما هو مقبل من أيام.

وأنت لا تستطيع أن تمايز بين هذا وذاك، ولقد تكون لديك بعض من هواجس تغرسها في هذا الاتجاه أو ذاك، لكنك لا تعرف ولن تعرف أبداً خريطة الخصم كاملة..

وبدلا من أن تكرس كامل جهدك في تحريك عضويه الحزب باتجاه السيطره على التحرك الجماهيري ومنحه المزيد من الفاعلية والقدرة على الاستمرار، تستنزف أكثر جهدك مع زملاء يريدون قراراً بتكريس العنف وتحويله الى حرب أهلية، ناسين أن هناك طاقات هائلة للنظام لم تكن قد

استخدمت بعد، وما أن استخدمت حتى هدأ كل شيء. وعندما هدأ حاول الأمن والخصوم والرئيس السادات على رأسهم إلصاق كل ما جرى بنا، ولولا تمسكنا برفض العنف مع تأييد التحرك الجماهيري .. ما كان قد بقي في التجمع حجر فوق حجر. وقد حاول الخصوم قدر طاقتهم البحث عن خيط وحيد يربطنا ولو شبه ارتباط بالعنف والتدمير فلم يجدوا. وهكذا نجحت أعصاب شديدة الهدوء في ظل مناخ شديد التوتر، شديد البرودة في ظل حرائق ملتهبة، نجحت في إدارة معركة ملتهبة ببرود الجراح الذي يجري عملية جراحية صعبة.. نجحت ثلاث مرات، مرة عندما شاركت في توسيع إطار التحرك الجماهيري وتطويره، ومرة أخرى عندما غمست أعضاء الحزب وكوادره في مياه الحركة الثورية وعمدتهم بعمودية الفعل الثوري المباشر .. فتعلموا الكثير والكثير، ومرة أخيرة عندما رأت ما هو مقبل من أيام قبل أن يأتي، فغسلت يديها تماما من أي تدمير أو عنف، متمسكة بمبدأ هو من أهم مبادئ اليسار المصري.

والحقيقه أننا كنا نرفض التدمير والحرائق من حيث المبدأ، لكن البعض بحسن نية أو بغير ذلك كان يريد أن يدس أنفنا فيه من حيث المبدأ، فندفع نحن ثمن كل ما وقع .. وهذا ما نجحنا في تحاشيه، إذ تعاملنا بحزم وثبات وسط أمواج صاخبة ، شديدة الصخب بصورة لم تر لها مصر مثيلا.

* * *

لكن الدرس الأكثر صعوبة وخصوصية هو ذلك الجوهر المختفي في أعماق العلاقة بين الجماهير والسلطة في دولة العالم الثالث.

كنا نراهن على حركة جماهيرية . فأتت حركة جماهيرية تفوق كل

أحلامنا وأحلام أسلافنا من اليساريين وأحلام القادمين بعدنا.

كنا نحلم بمظاهرة صاخبة فاذا بمصر كلها تتظاهر، ملايين المصريين في الشارع في كل مدينة وكل قرية ، تهتف ،ترفع شعاراتنا أو شعارات قريبة جدا منها.

مصر كلها تتحرك ضد الحكم. هنا ،وهنا فقط تجلت صعوبة الموقف. وتساءلنا.. ماذا يجب أن نفعل؟

لندفع الجماهير الى مزيد من التظاهر. ثم ماذا؟ مزيد آخر من التظاهر. ثم ماذا؟ هنا نصطدم بحائط السلطة الأصم .. الجماهير ورأيها فيه، ورفضها له، وهتافها المدوي ضده، كل ذلك لا يساوي عنده شيئا . والسهم الأخير يمكن إطلاقه في أية لحظة لإسكات كل صخب.

تظاهر المصريون حتى تعبوا، هتفوا حتى انفجرت حناجرهم، فعلوا كل ما يجب وما لايجب ليعلنوا رفضهم لسياسات السادات.. ثم تساءل كل منهم في سريرته.. ثم ماذا؟

المفروض أن ينحني النظام أمام إرداة الجماهير.. لكن متى كان المفروض مفترضا؟

ونحن تغلفنا ذات الحيرة، إذ يخيم علينا سؤال غائم ومرتبك.. ثم ماذا؟ وكيف تتحول حركة ملايين الناس إلى أداة تغيير؟ هذا هو السؤال، بل هذه هي العقدة.. ما هو السبيل العملي والفعلي للتغيير عبر حركة الجماهير الملتهبة حماسة، والمتفجرة ثورية؟

توقفنا أمام السؤال بلا إطلالة من إجابة أو حتى نصف إجابة. ووجدنا أنفسنا نستشعر حالة من إبراء الذمة. لقد فعلنا كل ما نستطيع، بل فوق ما نستطيع، وشاركنا في تحقيق أقوى قوة ردع جماهيري.. لكن

الحكم لا يرتدع، ليس لأنه شجاع، بل لأنه بلا شجاعة تجعله ينحني أمام إرادة الشعب، وبلا شجاعة تفرض عليه الانصراف عندما تحضر الجماهير، كل الجماهير، مطالبة إياه بالرحيل. ولعل كل فرد من الجماهير التي تحركت لأيام ثلاثة قد استشعر هو أيضا حالة من إبراء الذمة.. إذ استيقظ الناس صباح اليوم الرابع ليجدوا الدبابات في الشوارع.. وما كان لهم أن يتصدوا لها.. ولا لجيش كان قد حقق منذ ثلاث سنوات انتصاره الرائع..

بل إن الحسابات تبدت أكثر تعقيداً ، فما كان من المفيد تكريس اعتماد النظام على الجيش كقوة مواجهة مع الناس.

.. وانسحب الناس وانسحبنا معهم.

ولم تزل عقدة العلاقة بين الجماهير والحكم تبدو معقدة بل وشديدة التعقيد ، ربما نبسطها إذ نتوقع حلها عبر الانتخابات التي يتقن الحكم فنون إخراج نتائجها على هواه وليس على هوى الجماهير..

.. وتبقى العقدة .. معقدة التركيب والمحتوى.

ونبقى نحن لنحاول، دون أدنى قدرة على الملل.

فهل للعاشق حيلة في عشقه؟

نعم .. ضد لا
أم
نصف نعم + نصف لا

.. عندما استندت رسالتي لنيل دكتواره العلوم في التاريخ الحديث، في أحد محاورها، على فكرة التناقض المتداخل، تأمّل أستاذي البروفيسور لوثر راثمان معطيات هذه الفكرة بهدوء طويل المدى، ثم قال: ألا تشعر أنك تطأ بقدميك لغماً قد ينفجر فيك، وفي الرسالة كلها؟

أنت تنسى أن اللينينيه تقوم على أساس الفرز الصارم والتمايز المتمايز عن كل ما عداها، وتنسى أن التمايز المتشدد لم يزل محور تفكير وأسلوب البعض.

وبدأت رحلة الجدل مع أكاديمي يعرف كيف يفسح مساحات واسعة للحوار. ذكرته بمقولات قديمة.. بذلت جهداً في ترجمة أقوال مثل: قال أبو حنيفة « كلامنا هذا رأي، فمن كان لديه خيرٌ منه فليأت به» وقول الإمام أحمد «لا تقلدني، ولا تقلد مالكاً ولا الشافعي ولا الثوري، وتعلم كما تعلمنا »، وقول الجوزي « في التقليد إبطال لمنفعة العقل» .. كان يساعدني في الترجمة بما يؤكد سبق معرفته بما أقول (أليس مستشرقاً متمرساً؟) .. ثم تململ قائلا: أنت تتحدث عن الفقه

الاسلامي، وباب الاجتهاد فيه مفتوح أمام كل من يستطيع، أما في الماركسية فباب الاجتهاد إن وجد سيبقى مفتاحه في يد الأخ الاكبر (يقصد الاتحاد السوفيتي) فقط، قلت مصمماً على الجدل «إن قرارات المؤتمر العشرين للحزب السوفيتى...» قاطعني بملل، وكأنه يتحدث إلى كائن غريب، كانت الروح الأكاديمية التى يتشح بها دوماً قد نفذ صبرها وقال « تذكر قول كينز : إن قبول الجديد سهل لكن الصعب هو التخلص من القديم».

صمت .. شرحت وجهة نظري عبر مسار تاريخي .. الحزب الاشتراكي المصري (١٩٢١) اعتمد فكرة مظلة متعددة الانتماءات (شيوعيون. فابيون . هيجليون. اشتراكيون ديمقراطيون)، اللجنة الوطنيه للطلبة والعمال (١٩٤٦) التى جمعت في صفوفها متناقضات عديدة لكنها ايضا متداخلة، العلاقة المتداخلة بين الشيوعيين وحزب الوفد، التي تولدت منها الطليعة الوفدية، علاقة الصراع المرير بين الشيوعيين وعبد الناصر، والتناقض في إطار التعامل والتعارف وتقبل بعض من القول والفكر والممارسة ورفض البعض الآخر بما أثمر السجون والعذاب والتعذيب وأثمر معها « الميثاق»، ثم أثمر حل الحزب الشيوعي، في إطار من الإعجاب والانبهار بالخصم العتيد.

ثم فكرة التجمع كمظلة تعترف بأمر واقع، وتضم تيارات مختلفة التوجه والرؤية في حزب واحد موحد الإرادة

.. تململ مرة أخرى.. نفدت آخر قطرات الصبر التى كان يتحلى بها.. وقال بيديه بأكثر مما قال بالكلمات : إذن أنت مصمم! أنا لا أريد أن أمنعك، فقط تذكر أن هناك « معارض» قد يقطع لحمك بسكين

متشدد » [تعتمد الجامعات الألمانيه فكرة أن يشارك في لجان مناقشة رسائل الدكتوراه أستاذ معارض، يعارض أفكار الرسالة، ويأتي من جامعة منافسة، فتؤدي به المنافسة الأكاديمية بين جامعات تتشدد في منافساتها بين بعضها البعض الى تشدد يريد به أن يعطي جامعته ما يميزها عن غيرها من جامعات عبر محاولة إثبات ضعف المستوى الأكاديمى لطلاب الجامعات الأخرى].

المهم.. صممت . وناقشت ..كان الأستاذ المعارض، الآتي من جامعه برلين متجهما كعادة الأكاديميين الألمان، لكنه رغم معارضته الحادة لم يلمس الموضوع الملتهب .. ربما ترفقا بزميل له قبل مبدأ مناقشة فكرة كهذه، أو ترفقاً بطالب مغامر يستند الى معطيات محلية في طرح أفكار «انتهازية»، تبدو بالنسبة له غائمة ومبهمة، وربما لأنه رغم تشدده الأكاديمى الصارم كان يكن في نفسه اتفاقا أو بعض اتفاق مع ما أقول أو حتى ما هو أكثر .. المهم مرت العاصفه دون أن تفجر اللغم.. وبموافقة من الأستاذ المعارض حصلت على درجة الامتياز.

* * *

وعندما صدر الفرمان الساداتي بتأسيس منابر ثلاثة، أحدها لليسار، تنازع البعض مع البعض على قميص اليسار كما أشرنا من قبل، والبعض اعتزله باعتباره رجساً [شبان ماركسيون كانوا ينتمون لما سمي حزب العمال الشيوعى أو ٨ يناير] و البعض الآخر أتى على غير توقع متوقعاً منا أن نعتبره يساراً.

ولابد أن نتوقف هنا قليلا لنتأمل فكرة المظلة الواسعة لكي أوكد أو أكاد انها كانت تفترض نفسها.. فإذ يفسح المجال أمام منبر وحيد

لليسار لابد أن يأتيك ماركسيون وناصريون وقوميون وبعثيون.. وأيضا رجال كبار السن افترضوا يساريتهم وافترضناها نحن أيضا عبر تأمل تاريخهم عندما كانوا شباباً في منتصف الاربعينيات يكونون « الطليعة الوفدية »، وتكتمل عملية الترصيع التلقائي للعقد اليساري بمستنيرين إسلاميين و مسيحيين.

وهكذا.. رويداً، رويداً تتعزز الفكرة، تفرض نفسها حتى علينا نحن الذين تصورنا حدوداً محدودة للمظلة اليسارية، فاذا بها تتسع مثيرة دهشتنا ودهشة الجميع .. أصدقاءً وأعداءً.

فذات الصباح الثالث للبدء في إعداد تشكيلة المنبر دخل علي الأستاذ سيد البكار، وكان معتقلا معنا كشيوعي [طليعة العمال] وكان ذا علاقة أساسية وربما تأسيسية بالطليعة الوفدية، أتى ومعه عدد من رجال كبار السن. أسماءٌ لمعت في سماء الحركة الوطنية في فترة (٤٦ - ١٩٥٢) مكونة الطليعة الوفدية.. أحمد عبده حسنين، منيب الجعلي، يوسف عبد ربه ، عبد الحق الحماقي، محمد جويلي، د.عبد الحليم مندور، أتوا معا كأنما ليؤكدوا انتماءهم السابق.. وتراصهم الحالي، وبقوا معنا، أسهموا بحماس شبابي قديم في بناء اللبنات الاولى للتجمع خاصة في قسمي شبرا والدقى، وتواصل عطاؤهم أمداً.. ثم تلاشى مع بروز إمكانية قيام الوفد، لكن الغريب أن الوفد الجديد لم يفسح لهم مجالا .. ربما بسبب قديم، أو بسبب تعجلهم بالمجئ الينا ، تلاشت علاقاتهم التنظيمية لكنهم ظلوا على مودة دائمة .. حتى تخطّف الموت بعضا منهم، أو تخطفتهم انتماءات جديدة لم يتوقعها أحد(محمد جويلى .. الحزب الوطني وأصبح الآن رئيساً للجنة الشكاوي

والاقتراحات في مجلس الشعب، د.عبد الحليم مندور اتجه إسلامياً، أطلق لحية ناصعة البياض وأفتى في الإسلاميات ثم أصبح حجر الزاوية في هيئات الدفاع عن مختلف المتهمين في قضايا هذا التيار)..

والبعثيون أتوا أيضا .. تمثلوا أساساً في د. محمد أحمد خلف الله، الذي حرص دوماً على رداءٍ قومي عامٍ ليس تستراً وإنما لأنه كان يمتلك ملاحظات وإن محدودة على مسلك الحكم البعثي هنا أو هناك، ود. علي مختار وكان هو والدكتور خلف الله أقرب كثيرا الى بعث العراق. كان هذا منظار الغواصة المرئي للجميع، لكنني وبحكم تعايشي مع البناء التجمعي كنت ألحظ أفراداً بعثيين يتناثرون في أبهاء البناء التجمعي في المنزلة مثلا، وفي بني سويف والغربية وقنا. وكنت ألحظ أن بعضا يذهب للعمل في العراق ليعود وقد تلبسته حالة بعثية وانتماء تنظيمي بعثي واضح المعالم..

غير أن التخوم تبقى غائمة بين القوميين والبعثيين وحتى في أحيان عدة.. بينهم وبين الناصريين.

لكن الأوفر عدداً وتأثيرا وإسهاما كان الناصريون، فقد توافدوا منذ اليوم الأول برغم استعصاء مجموعة الشباب التى تحدثنا عنها قبلا .. على أي تفاهم. وكانت ملامح الانفصام بين أجيال الناصريين تتبدى واضحة.. فالذين كانوا ناصريين في الزمن الناصري [كمال رفعت . أحمد الخواجه. صبري مبدي. عبد العظيم المغربي. محمد خليل. د.لطفي سليمان .د. عبد الحميد عطيه.. الخ] أتوا مسرعين وبلا شروط وبلا حساسيات. أما الشباب الذي أتى للناصرية بعد رحيلها، فقد كان مفعماً برؤى وحساسيات ليس فقط ضد قيادة للتجمع غير ناصرية

بشكل صريح وواضح، وإنما حتى ضد الجيل الناصري الذي عايش التجربة الناصرية في زمانها الأصلي الفاعل، بل كانوا يحملون هذا الجيل وبشكل صريح مسئولية وثوب السادات إلى الحكم.

وقد لعب الناصريون الذين أسهموا في بناء التجمع، سواء في بنائه القيادي أو في قواعده [خاصة في محافظات الجيزة - الإسماعيلية - قنا - بني سويف - الفيوم] دوراً أساسيا ليس فقط في البناء التنظيمي والفكري ، وإنما أساساً في صياغة الفكرة التجمعية القائمة على أساس تقبل بعض من الآخر، مقابل أن يتقبل الآخر بعضا منك.. ولعل هذا اللقاح الجديد عليهم وعلينا قد أسهم في عدم تلاؤم الكثيرين منهم مع الفكرة الناصرية الحدية التى قام على أساسها الحزب الناصري عندما قام. الكثير منهم بقي معنا، والبعض رحل بشكل سلمي وحضاري نحو البيت الجديد لفكرته القديمة ، لكن بعضا ممن رحلوا الى البيت الناصري، لم يبقوا فيه طويلا.. لقد اعتادوا معنا على أسلوب في الأداء ، والتفكير ، واتخاذ القرار ، والتعامل، رغم الاختلاف في الرأي، لم يجدوه هناك، ولم يكن تلاؤمهم مع الفكرة الناصرية قادراً على فك الارتباط بين الجديد الحدي الأسلوب وبين تلاؤمهم مع أسلوب الأداء والتعامل والتفكير التجمعي..

.. وكان هناك أيضا عدد من نشطاء مصر الفتاة القدامى (إبراهيم يونس) .. وكان عضوا في الأمانة العامة للتجمع.. بقي معنا ورفض الانتماء الى حزب العمل.. ثم انضم للحزب الناصري.. ثم سريعا انسحب منه..

وأيضا كان هناك ذلك الرمز الجميل د. رمزي فهيم. إبن صارم

الانتماء من أبناء مدارس الأحد، هو واحد من ذلك الجيل من تلاميذ مدارس الأحد.. الذى أنجب أهم رجال الكنيسة الحاليين الأنبا شنوده والأنبا صموئيل والأنبا غيريغريوس وغيرهم. أتى الينا بعقل متفتح، وقلب منفتح أيضا. جاء يحمل الهموم القبطية ليطرحها بوداعة ودون حدة.. ذات مرة اتخذنا قراراً بأن يكون الموعد الاسبوعي لاجتماع الأمانة المركزية يوم الأحد . كان «الأحد» نقطة توافق بين أغلب الاعضاء بسبب من انشغالات أو أعمال .. هو لم ينطق .. ظل غائبا عدة مرات متتاليات، اتصلت به ، قال بهدوء لا يوحى بأي احتجاج: هل يمكن أن تعقدوا الاجتماع كل يوم جمعة؟ قلت لا، قال فلم يعقد كل أحد؟ إن فعلناها نحن متجاهلين المغزى المسيحي فماذا يفعل الآخرون؟.. وكان أن غيرنا موعد الاجتماع وانتظم معنا كعادته القديمة.

ويمكن القول أن د. رمزى فهيم قد جاهد ضد نفسه طويلا وكثيراً كى يظل وفيا لانتمائه التجمعي. لم يكن يساريا بالمعنى المفهوم.كان مسيحيا مستنيرا و ليبراليا عقلانيا وفقط، ولم يجد من سبيل لإسهام سياسي يتقبل الاستنارة والعقلانية إلانحن. لكنني كنت أتابع ملامحه وقسمات وجهه وهي تتعذب عندما يتبدى التطرف في التفكير اليساري أو الممارسة اليسارية، وخاصة في الزمن الساداتي الصعب الذي كان يواجه تشددنا بتشدد أفدح وبردود فعل تبدأ من السجن فصاعداً، هو كان نموذجا لشخص حسن النية، تسلح بالعقل والاستنارة ذات الرداء المسيحي .. وفقط ، وكنت أحاول جهد طاقتي أن أخفف من محتوى الكلمات والممارسات لكي لا أضعه دوماً في مأزق عدم التلاؤم، لكنه بقي معنا، محتملا شطط البعض، ومحتملا حتى عدم قدرته على

التلاؤم مع ممارسات وأفعال وأفكار لم يضعها في الحسبان عند انتمائه للتجمع..

بقى حتى آخر أيام حياته.. وفيا للتجمع وفكرته رغم عذابه مما كنا نعانيه من صعوبة التعامل مع الزمن الساداتي، وما كنا نعانيه من شطط البعض في صفوفنا .. ألم أقل منذ البداية:

كم ذا يكابد عاشق ويعاني

في حب مصر كثيرة العشاق

* * *

ويتبقى أن نتأمل ثمار هذه التركيبة المرنة.. ثمارها ليس فقط في الآني واليومي والتنظيمي وحتى السياسي من ممارسات، وإنما وفي الأساس ثمارها في المكون الفكري لنا.. حزباً وأفراداً.

فالوعاء التجمعي التكوين ، والممارسات التجمعية، والسعي الدائم نحو التوافق مع الآخر واحترامه .. والأخذ منه والتعاطي معه، كل ذلك تراكم في أعمق أعماقنا ليورثنا رؤية غير متحيزة تحيزاً مسبقا للآخر . وقدرة على الإنصات له، والتعامل معه.. والتأثر به .. والتأثير فيه. انها فكرة التناقض المتداخل إذ تطرح أمامها فرصة للتطبيق المتواصل والمنفتح والممارسة المتددة زمانا يحتوى سنينا عديدة هي عمر عشقنا المتجدد لما نحن فيه.

وتمضي سنوات العشق التجمعي لتنبت في أعماق كل منا احتراماً للآخر، وقدرة على الأخذ منه. ورؤية تتقبل الاتفاق العام مع تقبل الاختلاف في بعض التفاصيل، وإمكانية أن نصنع من كل هذه الخيوط التي تجاورت في البيت التجمعى نسيجا واحداً متداخلا.. يعترف في

ظل احتمائه بالتداخل المنسجم والمتآخى .. بخلافات وتمايزات قديمة .. وجديدة .. وحتى متجددة.

والتوافق ليس نقطة وسط انتهازية، تعني بعضا من تنازل مقابل تنازل مماثل من الآخر. وليس مجرد البحث عن مخرج من خلافات محتدمة، لكنه محتوى جدلي التداخل والتكوين ، يتلمس في كل فكرة ما هو الأقرب للصواب وما هو الاكثر قدرة على التوافق .. إنه محتوى جدلي يستند إلى الفهم الفلسفي للجدل منذ الزمن الاغريقي القديم عندما كان يعني تحديدا: البحث عن نقاط التناقض والتوافق في استدلالات الطرف الآخر..

لقد فعلناها، وقد فعلها مؤسسو اليسار المصري في مطلع العشرينيات .. ثم مؤخراً.. ومؤخراً جداً عثرت على هذا التعريف الإغريقى للجدل، توقفت أمامه ،تأملته، ثم اكتشفت أن هذا المحتوى قد اكتشفنا قبل أن نكتشف نحن نصوصه.

ويتبقى أن نتأمل ثمار هذه التركيبة المرنة.. ثمارها ليس فقط في الآني واليومي والتنظيمي وحتى السياسي من ممارسات، وإنما وفي الأساس ثمارها في المكوّن الفكري لنا.. حزباً وأفراداً.

فالوعاء التجمعي التكوين، والممارسات التجمعية، والسعي الدائم نحو التوافق مع الآخر واحترامه.. والأخذ منه والتعاطي معه، كل ذلك تراكم في أعمق أعماقنا ليورثنا رؤية غير متحيزة تحيزاً مسبقا للآخر. وقدرة على الإنصات له، والتعامل معه.. والتأثر به .. والتأثير فيه. أنها فكرة التناقض المتداخل إذ تطرح أمامها فرصة للتطبيق المتواصل

والممارسة الممتدة زمانا يحتوى سنينا عديدة هي عمر عشقنا المتجدد لما نحن فيه.

* * *

ولعل من المثير للاهتمام تلك المماثلة [على الأقل في التسمية] التى سرت في الأرجاء العربية، فتسمية «التجمع» سرت واستخدمها الكثيرون من اليمن حتى السودان إلى تونس إلى المغرب فالأردن ففلسطين وغيرها، وكأنها تعويذة سحرية المذاق تسارع الكثيرون نحو نيل البركة عبر طقوسها.

وعندما أصدر المبدع الفلسطيني إميل حبيبى رائعته «سعيد أبي النحس المتشائل» سألته من أين لك بهذه المتناقضات المجتمعة: سعيد.. وأبي النحس، ثم هذا المتشائل؟ أجاب ضاحكا في صخب: منكم أنتم،لقد علمتمونا أن كلا من «نعم» و «لا» تتجاوران. قلت: نصف نعم مع نصف لا. فقال هكذا تماما. نصف متفائل مع نصف متشائم تصبح متشائلا..

ولعل الأمر لم يكن مجرد مزحة عابرة، بل ثمرة نصف حلوة ونصف مريرة لواقع هو كذلك أيضا..

غير أن الأمر الواقعي أكثر تعقيداً من ذلك بكثير، إنه امتزاج في سبيكة أصبح من الصعب تفكيك معطياتها، حتى ولو عبر الهندسة العكسية، فضلا عن أن ما هو حلو وما هو مرير هو مجرد وجهة نظر.. اعتدنا أن نتمسك بها متناسين نسبية الصحة، ونسبية الخطأ . فقط علينا أن نعتاد على أن ما نقول به ليس مطلق الصحة.. فما من شيء مطلق الصحة إلا الآتي من السماء.

صراعات الرفاق

لم أكن قد سمعت حتى ذلك الحين بالقول العربي الحصيف «يختلف الرفيقان وهما مثل ركبتي بعير، تقفان معا، وتقعان معاً».

لو كنت قد سمعت به لكتبته وشْماً على حوائط قاعة اجتماعات الأمانة العامة، لعله كان ينطبع على تصرفاتنا جميعاً. لكنني لم أسمع به - ويا للأسف - إلا بعد أن مضى وقت الصراعات المريرة، فتتبدى الحكمة القابعة في أعماقه حلية لمجرد الزينة العقلية، بعد أن فات أوان الاستعمال الفاعل.

وفي البدء كانت تغمرنا دهشة الانفعال بالواقع الجديد، الفعل العلني المذاق والرائحة، والمقر القابع في كبرياء على قمة مبنى الاتحاد الاشتراكي تطل من نوافذه على النيل المبهر في تدفقه الدائم العطاء. الإمكانيات، تدفق الأعضاء، تدفق المطبوعات التي ما أن تكتبها حتى تأتمر بأمرك مطابع الاتحاد الاشتراكي فتطبعها .. وما لانهاية له من ممكنات القول والأداء والثمار .. غمرتنا الدهشة الغامرة فنسينا، أو، إن شئنا الدقة، تناسينا ما كان من خلافات وصراعات سابقة، نسي أصحابها كياناتهم التي انفصلت أو انفصمت عن بعضها البعض، نسوها

إذ اتخذوا قرارات متنافسة في سرعتها بحل ما أقاموه وأقاموا فيه من تنظيمات أفنوا العمر وسنوات السجن دفاعاً عنها.. لكنهم لم ينسوا مرارات الخلافات القديمة.

ثم رويداً رويداً، نعتاد ونتعود على الجديد، تذبل دهشة هذا الجديد إذ يصبح معتاداً، وتعود لتطل من جديد مراسم الخلاف القديم وطقوسه.

وتبدأ صراعات الرفاق على أساس تخيلات قديمة، وتحيزات مندثرة بضرورة اندثار مسبباتها، لكن ما هو شخصي يغذي ما هو قديم ويسقيه بمياه غير مرئية ، فيتحول حائلا بين تفاهمات ضرورية.

والرفاق.. أعنى الرفاق القدامى، يزهون إلى حين بأن بعض من يشاركونهم الفكرة التي التقوا حولها في زمان قديم [شاركوهم الفكرة الأساسية واختلفوا في الانتماء التنظيمي] هؤلاء الشركاء المفترضين أصبحوا هم الأكثر نشاطاً، والأكثر تواجداً ، والأكثر فعلا .. لكن هذا الزهو يتبدد خطوة خطوة لتحل محله شكوك وأقاويل، تنصاع لأقاويل تقول إن هؤلاء المقيمين دوما في المقر المركزي.. يسيطرون ، أو يفرضون تواجداً غير مفترض، أو يروجون لفكرة محددة، أو يطوعون التجمع لصالح كيان خارجه.. وأقاويل أخرى تواترت على ذات التنويعات.

والأمن الذي رأينا كيف كان يترصدنا ليرصد كل قول أو فعل أوهمسة أو لمسة، يجد الفرصة ليزيد الشكوك التهابا فما من حملة قبض على عضوية التجمع إلا ويدس في صفوفها - بتعمد مفتعل - اثنين أو ثلاثة من أعضاء الحزب الشيوعي المصري، وكذلك كان العكس صحيحاً . بما يحاول أن يوحي بأن ثمة امتزاج أو ترابط عضوي بين هؤلاء، وأولئك.

وفي خضم الصراعات المحتدمة مع السادات .. يتبدى القول أو حتى الهمس بمثل هذا الامتزاج ضاراً بعنصريه، وليس بأحدهما فقط. وبين الأقاويل والتقولات وتصرفات الأمن المرتبة ترتيباً عمدياً، وأخطاء البعض أو تجاوزاتهم المتجاوزة لتخدم الانتماء التجمعي تتبدى الصورة مؤذية ، ومثيرة بل ومستثيرة لكل تلك الرقائق القديمة المتراكمة تلالا من شكوك وعداء ورفض و انتقادات ووشايات..

ويزداد الشك تشككا فتتلبس البعض حالة تقول بل تؤكد أن البعض - الذي هو أنا- وزملاء قدامى من «حدتو» نسيطر، ونتسلل، كي نحكم قبضتنا. ويلتهب الشك مع التقاء بعض تراث حدتو في الفعل الجماهيري المنفتح مع الأسلوب التجمعي العلني، عكس الرفاق الآخرين الذين اعتادت كوادرهم الوسطى طوال تاريخهم النضالي - وهو حافل بالفعل والتضحيات - اعتادت على فعل منغلق يتخذ من السرية وبطش الحكم سبيلا لمزيد من السرية والتستر في كل فعل وقول بما جعل لقاءهم مع الفعل التجمعي وتجاوبهم معه محدوداً حتى وإن تواجدوا في صفوفه.

كذلك فإن إقرار مبدأ تفرغ البعض من الأعضاء لأداء عمل سياسي وتنظيمي منتظم، وتمادى الامر الى إستقرار بعضهم بالمقر المركزي ليلا ونهاراً، نهاراً في فعل صاخب، وليلا لكي يصونوا ما يمكن صيانته خلال غارات التتار الأمني.. كل ذلك أدى الى مزيد من الشكوك التى تشككت في أن هؤلاء جميعا يخططون ويدبرون كي يديروا التجمع نحو ناحية أخرى.. وبعيدا عن تأثير الآخرين الذين يقتصر حضورهم للمقر على حضور الاجتماعات واتخاذ القرارات، تاركين الفعل والتنفيذ للآخرين.

ولعل أحد صور الاضطهاد الساداتي قد عمقت هذه النظرة، فأنا مثلا كان من المفترض أن أنهمك في عمل يستهلك كثيرا من الوقت في جريدة الأهرام، وحسين عبد الرازق وفريدة النقاش كانا كذلك في «الأخبار» ثم تسرب إلينا إحساس صامت بأن لا أحد يريدنا حيث نعمل.. وأن الحل الأمثل المطلوب هو .. أن نرحل من مؤسساتنا وأن نكتفي بتلقي رواتبنا. كان ذلك مريراً ومفيداً في آن واحد . مرير لنا كصحفيين نكتسب مكانتنا مما نكتب وها نحن نحرم منه، ومفيداً إذ منحنا فرصة تفرغ مدفوع الأجر لنفرغ كل طاقاتنا في الجهد التجمعي طوال اليوم وكل يوم.

وامتشق د. فؤاد مرسي سيف كلمه « التملّية» - وهو تعبير ريفي يعني الاستمرار المستقر- ليؤكد أن هؤلاء التملّية ينتمون لجهة أخرى، وأنني أدير تحركاتهم ، وأدبر لهم تأثيرا وأثراً على مجمل الفعل التجمعي..

وفجأه التهبت الاجتماعات .. بعد تراكمات تراكمت دون أن نهتم بها، أو حتى دون أن نلحظ أن البعض من زملاء القيادة في التجمع كان يغذيها ، ويمنحها المزيد من التوهج بوشايات وشكوك وحتى بأكاذيب.

وأصبحت جلسات الأمانة العامة لا تطاق.

د. فؤاد مرسي ، د. إسماعيل صبرى ، أبو سيف يوسف، لطفي الخولي.. بكل مالهم من تقدير واحترام ومكانة داخل التجمع وخارجه يخوضون معركة ضدي وضد بعض ممن تعمد الأمن أن يطعم بهم قضايا الحزب الشيوعي المصري.

وأود هنا أن أشير - وقد فات أوان الحساسيات - أن كثيرا مما

كان يقال عما أسمي بازدواجية العضوية، كان غير صحيح ، لكنني أقر أن بعضا منه كان صحيحاً أيضا. كنا نشعر بازدواجية في العضوية ونقر بوجودها، ونحاول تلافي آثارها ونتائجها بل وأن نمنعها .. لكن المبالغة كانت مبالغا فيها إلى حد كبير..

وتحولت المبالغة الى تقولات انصبت على رأس كثيرين كل ذنبهم أنهم تعاملوا أو عملوا معي، أو ترصدهم الأمن ليضيفهم الى حملات قبض لا تخصهم كي يتخذ منهم فزاعات تفزع الكثيرين.. الذين فزع بعضهم فعلا، وتظاهر بعضهم بفزع مفزع كي يصبوا الفزع في حلوق الآخرين..

.. وباختصار وكما قلت سابقا أصبحت جلسات الأمانة العامة للتجمع لاتطاق.

* * *

وكان البعض من قيادات التجمع آتياً من منابع فكرية تمتلك عداءً فطرياً للماركسية، والبعض يمتلك خوفاً يصل إلى حدود الفزع من أي تلامس مع كل من يتلامس معها. وكان البعض يعتقد أن خلاص التجمع هو في تخلصه من هؤلاء الماركسيين، فسعى الى الوقيعة بين مجموعات يسهل الإيقاع بها في حبائل التناقض والتصارع. وكان الكثيرون من هؤلاء وأولئك يقول كثيرا ثم ينزوي عند ساعة الفعل اليومي المثقل بهموم ومطاردات وحبائل الأمن.

كان البعض من هؤلاء يترصد أو حتى يتوهم قطرة من ثلج فلا يلبث أن يحيلها عبر نميمة منتظمة، و دردشات في سهرات المساء المسترخية، إلى كرة ثلج كبيرة .. تكبر وتكبر بالوقيعة والثرثرة والكذب والتكاذب

، تكبر فيصدقها الكثيرون بل وياللعجب يصدقها حتى مخترعوها.

وأثمر ذلك كله حالة من التوتر المستمر، والتربص المتواصل شقت الماركسيين في صفوف التجمع شقاً أفقيا، ثم شقت الأمانة العامة أكثر من شق عرضي. فمع التهاب الصراع بين الماركسيين انحاز هذا البعض إلى ذاك البعض، أو تخوف البعض من هذه الصراعات فانحاز ضد الاثنين، أما من كانوا يحركون الأخشاب الملتهبة كى تعطي المزيد من اللهب ، فقد واصلوا حملة النميمة والوقيعة والدردشات المسددة كسهام مسممة سواء بقصد أو بغيره.

ثم تجلى هذا الصراع الماركسي - الماركسى في جلسات المؤتمر الأول. كنا قد استبقنا الجلسات العامة بجلسات مغلقة اتفقنا فيها على ترتيبات الانتخابات.. - وكنا في ذلك الحين نعتمد فكرة قائمة واحدة تطرحها القيادة - وكان من بين ما اتفقنا عليه أن يكون هناك أمينان مساعدان للجنة المركزية: عبد العظيم المغربي وأنا.

لكن بعضا من أطراف القيادة شعر منذ أول جلسات المؤتمر ببعض الاغتراب .. فأغلب الوجوه القادمة من الأقاليم، وهي بالطبع الغالبية الساحقة .. وجوه غريبة. أعضاء جدد، أو قيادات جماهيرية نبتت في احضان التجمع أو قبله، لكنها ليست واردة في أجندات المناضلين القدامى.

ولعل الاغتراب تضاعفت حدة عندما لاحظوا أن البعض، وأنا منهم، نعرف الجميع ونتبادل التحيات والتهاني والنكات مع الجميع، وازدادت الدهشة إذ وجدوني وأنا جالس على المنصة أخاطب كل واحد باسمه.. وهي أسماء يسمعونها هم لأول مرة .. فزادت الهواجس ،

وتراكمت أشواك النميمة. وإذ تعقد الأمانة العامة اجتماعها لانتخاب أمين اللجنة المركزية والأمينين المساعدين.. وأعضاء الأمانة المركزية، جرى كل شئ سلساً حتى جاء التصويت حول ترشيحي أمينا مساعداً ، فاذا بالدكتور فؤاد مرسي يُفاجىء الجميع - إلا البعض طبعا - بترشيح نفسه ضدي . تكهرب الجو، وشعرت بحرج شديد، ليس خوفا من النتيجة، فقد كانت - في اعتقادي - معلومة سلفا، على الأقل بالنسبة لمن يغمسون أيديهم فعلا في الواقع الحزبي اليومي، وإنما إشفاقا على نفسي من أن أتواجه مع شخصية عالية التقدير في عالم اليسار، وفي دوائر أكثر اتساعا من اليسار، كان خالد محيي الدين يرأس الجلسة - فقد انتخبه المؤتمر أمينا عاما - أبدى دهشته لكنه طرح الأمر للتصويت.. كان التصويت سرياً لكننى أذكر أن البعض ممن كانوا طرفا في الجلسات المغلقة ومنهم خالد محيي الدين صوتوا بطريقة شبه علنية، إذ آثروا ان يعرف البعض من ينتخبون.. وفيما أتذكر حصل د. فؤاد على تسعة أصوات وحصلت أنا على بضعة وعشرين صوتا. وعندما تم فرز الأصوات علق د. فؤاد تعليقا مثيرا للدهشة إذ أنه قال: كنت أعرف النتيجة، ولم أكن أرغب فعلا في هذا الموقع، فقط كنت أريد أن أتاكد من مساحات القوى المختلفة. برغم ذلك قمت واحتضنت د. فؤاد وقبلته فتقبل الأمر بحنان أبوي ، لكن لطفي الخولي قذف بتعليق موجع، منح الجميع صمتا أنهى الاجتماع.

.. وتصاعدت بعد هذه الواقعة حدة الخلافات لتصل الى حدود قصوى . لم يكن يتصورها أحد من أطرافها .

* * *

ثم كانت الواقعة الأكبر..

قبلها نشير إلى أن الكثيرين الذين كانوا ينعون على البعض - وهماً أو حقيقة - أنهم منغمسون في نشاط سري شيوعي الى جانب عضويتهم في التجمع ، بدأوا هم أيضا يستشعرون الملل من النضال عبر ثقب الإبرة المتاح في زمن الضغط الساداتي المتصاعد ، وبدأ البعض يتهامس عن ضرورة تكوين فعل سري يحاول أن يضاهي الأقوال المكشوفة والموجعة والحادة التي تموج بها نشرات الحزب الشيوعي السرية، والتي لا تخشى من مسئولية المساءلة القانونية لأنها ممنوعة قانونا ، سواء قالت أو لم تقل. وتصور هذا البعض أن الفعل السري أكثر أمناً، وربما كان هذا صحيحا في زمن ما ، فالضربات كانت تتلاحق ضدنا ، المقرات تقتحم وتدمر، وصحيفتنا تصادر ثم تكتم أنفاسها ، وأعضاؤنا يسجنون.. فماذا يتبقى من مساحة العلنية سوى ثقب إبرة؟

وكانت نوازع العمل المسلح التي وسوس بها البعض في آذان البعض من أعضائنا تجعل العمل السري حتميا..

وبدأت تتسرب اليّ معلومات عن محاولات من بعض الكوادر لتكوين مكونات سرية.. وبطبيعة الحال انحاز كل إلى فكرته القديمة، وبدأنا نتسامع عن محاولات لتكوينات قومية أو بعثية، وقد تعاملنا مع هذه المحاولات برفق، ننصح ونحذر في صمت هامس حتى لا نستثير شهية الأمن.

وبعد مرور زمن طويل، و إذ انتهت كل العواصف الخلافية والساداتية، وفيما أنصت الى أقوال من د. محمد أحمد خلف الله كانت كعادتها مفعمة بالحكمة ، حكى ببساطته المعهودة أنه على زمن

السادات جلست مجموعة قومية ذات بعد بعثي لتنظيم نفسها في إطار متميز وغير معلن، وعقدت اجتماعا في ظل حفل إفطار رمضاني في بيت صحفي قومي مرموق لم يكن عضوا في التجمع، وبعد حديث مفرط في التفاؤل عن تكوين مجموعة سرية قومية التوجه، انفض الاجتماع على وعد بتكراره لإنجاز الترتيبات المختلفة ، لكن د. خلف الله ما لبث أن تلقى همسة من صديق له بأن الأمن يعرف كل شيء عن الاجتماع والمجتمعين. فتلاشت الرغبة في التكرار وتناسى الجميع الأمر.

.. وشبان كانوا يموجون حماساً ، وربما كان حماسهم أعلى من طاقة التجمع، بدأوا في التهامس حول تكوينات سرية تفعل مالا يستطيع التجمع فعله ، مع استمرارهم في التجمع. وأذكر أن مصطفى بكري - الذي كان أصغر أعضاء القيادة سنا في ذلك الحين- همس في إذني بشيء من ذلك يحاول أن ينهض هو به.. ونصحته بعدم المضي فيه، ولست أعرف هل توقف الأمر قبولا للنصيحة، أم بسبب ملاحقات الأمن وصعوبة المرتقى.

ثم نأتي للواقعة الكبيرة..

سأحكي في فصل قادم ما حكاه لي «أبو الهول»، (هايل عبد الحميد) ، عن تنظيم جديد يلعب فيه لطفي الخولي دوراً قياديا.. ولم أذكر التفاصيل انتظاراً لهذه المساحة من الكتابة.

الأمر كما رواه أبو الهول .. أنه عبر علاقة وثيقة مع حزب البعث العراقي استقرت عبر عبد المنعم الغزالي، الذي كان مستقراً ولفترة طويلة في بغداد ، ورفيق آخر كان مقاولا كبيرا هناك، طرحت فكرة تكوين حزب سري يمزج بين الماركسية والقومية ويقدم برنامجاً مرناً. إنها نفس صيغة

التجمع - لكنها مغلقة في إطار قومي وفي إطار سري. وإن هذه الفكرة قد لقيت موافقة رموز عدة منها كما قالت مصادر أبو الهول د. فؤاد مرسي .. أبو سيف يوسف . لطفي الخولي .. حلمي يسن، الخ. وإن د. فؤاد مرسي سافر إلى بغداد حيث أقام لفترة - وهذا صحيح - وإنه خلال هذه الفترة كتب برنامج هذا الحزب الجديد.. وكما قلت من قبل قال «أبو الهول» أن الأمن المصري عرف من مصدر عراقي بالأمر.

كنت ألمح في تصرف أبي الهول لغزاً، فلماذا أنا بالذات؟ ربما كنت الوحيد الذي زار بيروت بالمصادفة في هذا الوقت، لكنه كان على علاقة حميمة بلطفي فلم لم يبلغه، وهو القادر أمنيا على فعل أي شيء وعلى تسريب أية معلومة لمن يريد في أي ركن من العالم إن أراد؟ على أيه حال، ما أن عدت من بيروت حتى تمشيت مع خالد محيي الدين في نادي الجزيرة، وأذكر بعدها أننا تغدينا معا في هيلتون النيل بعيدا عن أي تصنت ، وحكيت له ما سمعت. تأملنا الموضوع، وتأملنا ما يجب أن نفعل . طبعا لم يكن مطروحاً بأي حال أن نفجر الأمر أمام أي اجتماع.. ففضلا عما في ذلك من تفجير لوضع هو متفجر بطبعه ، فإنه قد يكون وشاية في إذن الأمن، فليس شرطا أن تكون قصة أبو الهول صجيحة في مجملها أو في بعض منها.. فأنت ابدا لا تعرف خبايا تفكير رجل أمن متمرس كأبى الهول. وحتى لو كانت صحيحه فإننا لانسمح لأنفسنا بالإضرار بأمنهم، أوإحراجهم أمام الآخرين، خاصة وأنهم كانوا يخوضون معركة ضد ماأسمي «ازدواج العضوية».

المهم، اتفقنا أن أجلس في مكان آمن مع أبي سيف يوسف باعتباره أكثر الجميع هدوءاً، وأن أحكي له ما سمعت.. فقط أحكيه دون

تعليق . أكد خالد محيي الدين أن أحكيه غير منسوب لأحد، فقد أكد أبو الهول ألا أزج باسمه أو بالفلسطينيين في الأمرفهو لا يريد مشاكل مع العراقيين ولا مع المصريين.

التقيت مع أبي سيف في جروبي وحكيت ما سمعت . قلت أبلغني مصدر ما.. بالتالي، قلت أنا لا أصدق ولا أنفي فقط سمعت معلومة وأجد من واجبي أن أنقلها لأصحابها، فإن كانت صادقة فليحذروا، وإن كانت خاطئة فليفعلوا ما يشاؤون لنفيها.

ظل أبو سيف منصتاً وصامتاً تماماً. وإن بدت على وجهه قسمات منزعجة . لم يقل أي حرف ، فقط قال: متشكر فيما هو يصافحني مودعاً.

وتركت الأمر، أو تناسيته متصوراً أنني قمت بواجبي، إذ أديت خدمة لرفاق ذوي مكانة. حتى كان اجتماع الأمانة العامة، وما أن اكتمل اجتماعنا وقبل أن نبدأ حتى بادر لطفي الخولي فحكى الحكاية بأكملها، معلنا أنني أشنع عليهم، وأنني اخترعت هذا الموضوع بأكمله، وتمادى كعادته معلنا أنه يفكر في رفع دعوى قضائية ضدي ، والتهب الاجتماع أكثر من أي وقت آخر ، ولكي يتم إطفاء الأمر اقترح أحدهم تشكيل لجنة تحقيق، تشكلت - من د. يحيى الجمل ود. رمزي فهيم وصلاح زكي.. سألتني لجنة التحقيق قلت سمعت دون ذكر للمصدر، وسألت خالد محيي الدين فقال أنه سمع مني وقال ما سمع وما اتفقنا عليه .. وهكذا.

وفي الاجتماع التالي جاء د. يحيى الجمل بقرار اللجنة.. وجه لوما لخالد محيي الدين ولي بحجة أننا نروج شائعات . أنا تقبلت اللوم نادماً

على أنني حاولت أن أقدم عونا بطريقه لم يتفهمها البعض، أما خالد محيي الدين فقد بقي صامتا، لكنه ما أن انتهى الاجتماع حتى غادر صامتا أيضا، ثم أرسل لي في الصباح التالي استقالته من موقعه كأمين عام.

وتفجر الوضع من جديد، ولكن بصورة أكبر، ففي السابق كانت المعركة موجهة ضدي ، أما الآن فها هي تطول خالد محيي الدين قائد الحزب ومؤسسه ورمزه.

لكن مصادفة غريبة ما وقعت ونحن نغادر الاجتماع العاصف الذي أعلنت فيه قرارات لجنة التحقيق.. فيما أخرج من الاجتماع ناولني د.غبريال زكي - وكان مسئول إداره المقر، وكان أيضا وثيق الصلة بأحد أقرباء د. فؤاد مرسي - ناولنى ملفا يحتوي على البرنامج الذي قيل أن د. فؤاد أعده في بغداد. سلمه له قريب د. فؤاد بهدف إقناعه بالانضمام اليهم. تسلمت منه الملف وسلمته صامتا لأبو سيف يوسف الذي تصفحه صامتا ثم سلمه لدكتور فؤاد مرسي ولعل ذلك جعل الاستمرار في الإنكار أمراً غير ممكن، وجعل القول بأنني أرغب في إيذاء أحد أمراً غير ممكن أيضا، فها أنا أسلمهم الدليل الذى يمكن أن أستخدمه لإثبات صحة مارويت، فآثر الجميع الصمت.

وبعد فترة أمكن علاج استقالة خالد محيي الدين عبر تناسي الأمر كله.

لكنني وحتى الآن لم أفهم لماذا فعلها لطفي الخولي - وكان طبعا متفقاً مع الآخرين - هكذا، لعلها طريقة لطفي الخولي في الدفاع عبر الهجوم العاصف .. ولعله شيء آخر.

* * *

ورويداً رويداً تصفو الأجواء . ويتدخل زملاء يدركون بحق قيمة التجمع وضروره الحفاظ عليه.

وأذكر أن حسين فهمي دعا الطرفين الى جلسات حوار مفتوح في شاليه له بالهرم وتحدثنا طويلا.. وأعتقد أن لقاءً كهذا كان بداية لتصفية الأجواء، او هكذا تبدى الأمر.

وإن كان البعض يعتقد أن هجوم لطفي الخولي العاصف ، كان بداية لتراجع .. خاصة بعد أن طال الأمر خالد محيي الدين الذي كان الجميع يحرصون على عدم المساس به.

حوارات ما تحت المائدة

في مجال السياسة تفرض عليك في أحيان كثيرة حوارات لا تستطيع منها خلاصاً، لكن الأكثر صعوبة هو أنك لا تستطيع البوح بها.. حتى في أضيق الدوائر. ففي هذه الغابة التي اعتدنا أن نطلق عليها « العمل السياسي » ، يفرض عليك أن تعيش - في حالات عديدة - لا يتبدى منك على السطح إلا المنظار.

ويمضي الزمان فيصبح ما هو مختبئ - أو بعضاً منه على الأقل - قادراً على الطفو.

ومن حوارات ما تحت المائدة تطفو هذه النماذج . « نماذج» لأنها مجرد نماذج فما كان ممكنا أن نبوح بها جميعا.. لأن البوح في أحيان لم يزل غير ممكن، وفي أحيان قد يؤذي البعض، وما كان لنا أن نؤذي أحداً. كما أن مثل هذا البوح قد يحتاج إلى ما هو أوسع من كل مساحة الأوراق التي بين يدي القارئ. الممكن إذن هو أن نختار نماذج .. مجرد نماذج.

* * *

وفي عالم علم التاريخ تأتيك علاقات بمن يمارسون ذات الفعل. فإذا

أضفت التاريخ إلى السياسة تتمادى هذه العلاقات لتخلق علاقات ذات خصوصية خاصة، وربما ذات مذاق خاص.

وتتعارف على مؤلف لكتاب اهتممت به في مجال التاريخ ، فما أن تقلب صفحاته [الكاتب وليس الكتاب] حتى تكتشف أن الأمر أكبر من مجرد كتاب - وإن كان الكتاب مهماً - وإنما هناك بعد سياسي أبعد بكثير عن تصوراتك الأولى.

البروفيسور ناداب سافران، صاحب واحد من أشهر الكتب عن ضباط يوليو.. وعن الجيش الذى قام ضباطه بالثورة . وإذ يأتيك متحصناً بمهابة علم التاريخ، ومهابة كتاب شهير ومفيد في آن واحد.. ويضيف إلى حصانته حصانة أنه أستاذ التاريخ الحديث للشرق الأوسط في واحدة من أشهر وأعرق جامعات أمريكا.. جامعة هارفارد، إذ يأتيك شخص كهذا فإنك لابد وأن تفسح له مساحة كى يزورك .. يلتقي بك، وتفسح لنفسك مساحة للاستماع إليه.

مرة..مرتان.. ثلاثه نلتقي.

كنا في بدايات تأسيس الحزب، تخطينا مرحلة المنبر، واكتشفنا أننا أصبحنا حزباً. الأولى والثانية كانت زيارة أكاديمية، وإن لم تكن صرفاً، فكالعادة ينساب الحديث من التاريخ إلى الجغرافيا إلى السياسة . ولعله أدار الحديث بمهارة أعترف له بها، باتجاه قضية الصراع العربي الاسرائيلي. تأوه كثيرا .. قال إن مأساته - وباللتواضع - أنه يسبق الزمن بعدة أعوام، يطرح أفكاراً تُطرح جانبا، وتهمل، بل وترفض.. ثم تعود لتقبل ولكن عبر أشخاص أو ساسة أو قادة غيره، دون أن يهتم أحد بصاحب الفكرة الأول.

استغرق كل الجلسة الثانية، وفيما نتناول إفطارنا معا في شيراتون القاهرة.. في حديث متحمس عن فكرة يحاول ويلح في طرحها لحل عقدة الصراع العربي الاسرائيلي.. فإذ لم تنجح فكرته الاولى (كما ادعى هو): الأرض مقابل السلام، أي كل الأرض مقابل كل السلام، فإنه يقدم الآن [أقصد في ١٩٧٧] «قطعة أرض مقابل قطعة سلام».«قطعة أرض مقابل قطعة سلام».. تبدت أمراً مرفوضا وغير ممكن. لكنه كان.. ويكون وإن بعد فترة. فما كانت كامب ديفيد، ثم أوسلو ثم ما بعدها سوى قطعة من هنا مقابل قطعة من هناك. ومع ذلك فساعتها تبدت الفكرة بالنسبة لى غير مستساغة، بل وغير ممكنة ، بل وحتى غير عاقلة. (يبدو أن الرجل كان فعلا يأتي مبكرا بأفكاره، سواء وافقنا عليها أو رفضناها).

استغرقنا اللقاء الأول في حوار تاريخي ممتع، فهو قد درس الجيش وضباطه، الأحرار منهم وغير الأحرار، دراسة عميقة وتفصيلية حتى يخيل إليك أنه عايشهم وعرفهم معرفة دقيقة، بل وحتى النخاع.

والجلسة الثانية استهلكناها في حديث القطعة مقابل قطعة، وغادرته مشهراً سيفه في اعتراض حاسم.

وجاء اللقاء الثالث على إفطار صباحي مبكر في ذات الشيراتون، وفي ذات الأسبوع.

أتى كعادته منكوش الشعر مرتبك الثياب رغم أننا لم نزل في اللحظات الأولى من اليوم، حيث يفترض أن يكون قد أحسن هندامه، ولكن يبدو أنه يتبدى هكذا في أحسن حالاته.. دخل مباشرة إلى الموضوع، ابتدأ حديثه بأن أكد أن ماسيطرحه من أفكار ليس خاصاً به،

وإنما هو مجرد «مرسال». سألته من أرسلك قال: أصدقاء لعلك تستطيع أن تخمن من هم دون أن أفصح لك صراحة.

بدأ الحديث حول تجربة التعددية الساداتية، وكيف أنها خطوة إلى الأمام لكنها - في ظل كهنوت رئاسي كهذا -[هكذا كان تعبيره بالدقة] لن تثمر كثيرا، قالها وهو يمط شفتيه وكأنه يؤكد أن هذا ليس رأيه، وإنما رأي من أرسلوه. وتحدث طويلا عن تجربة الديمقراطية الأمريكية ذات الحزبين، وكيف أنها الافضل. وأن دولة كمصر لن تثمر فيها أحزاب كثيرة محدودة القوة يتلاعب بها رئيس يعرف كيف يتلاعب (هكذا وصفه أيضا) .. ثم وباختصار وبعد مقدمات عن صعوبة العيش كحزب صغير في بلد كبير المساحة وكثير السكان ومتعدد المؤسسات، وصعوبة المواجهة مع نظام اعتاد وتعود معه الجميع على غرفة تحكم مركزي تتحكم في كل شيء . ولا تقبل جدلا كبيراً أو حتى صغيراً حول قراراتها الأساسية، وصعوبة أن يعيش حزب يساري مصمم على يساريته في مناخ كهذا .. قفز إلى الاقتراح المذهل .. أن نسارع قبل أن يستقر تشكيل حزب الوفد فنؤسس معاً حزباً واحداً، يتجاوز الاختلافات الفكرية [فليس هذا وقتها] والخلافات القديمة [فقد فات أوانها].. وبحزب كبير كهذا يمكن مواجهة السادات إلى حد ما، ويمكن إيجاد فرصة لنوع ما من التوازن بين الحكم والمعارضة.

تأملت الفكرة مندهشاً، أكد هو أنها ليست فكرته.. وأن «مؤسسة» ما تطرح هذا الاقتراح.

أول سؤال قفز إلى ذهني .. هل عرضت الأمر على الوفديين؟ أجاب بسرعة من كان يتوقع سؤالا ساذجاً كهذا.. ليس من حقي أن

أجيب . ظللت أقلب فنجان النسكافيه طويلا حتى انتبه هو فأمسك بيدي ليشعرني أنه يشعر بحيرتي، والحقيقة أنني لم أكن أفكر في الاقتراح.. وإنما فيمن هم خلف الاقتراح، ولماذا ؟ ولأية مصلحة؟..

ثم بدأت أبدي اعتراضاتي .. فاذا به يرد علي بذات الحجج التى استخدمتها لتبرير فكرة التجمع.. المتعدد التيارات والآيديولوجيات، وكنت قد أغرقته في الحديث عنها في لقاء سابق.

المهم.. أبديت له صعوبة الفكرة، بل واستحالتها . نظر إلي في إشفاق من يرثي لحال من لا يعرف ماذا سينتظره في مستقبل الأيام. وافترقنا ، ولم نلتق بعد ذلك.

لكن هذا الاقتراح الغريب لم يزل يعاودني بإلحاح، من صاحبه؟ وأية مصلحة لهم أوحت به؟ وكثير كثير من أسئلة محيرة.. تدور حول من؟ ولماذا ؟ ولأية مصلحة؟ ، وماذا لو أن..؟

ورغم أن علم التاريخ لا يعترف بشيء اسمه ماذا لو أن.؟

فإن السؤال يبدو مشروعاً لأنه يحدد كيف كانت اتجاهات الريح.. عند الطرف الأمريكي.فهل كانوا يريدون تقليم أظافرنا اليسارية؟ أم كانوا يريدون تطوير الأداء الليبرالي المفترض لحزب الوفد وتطعيمه بمذاق اجتماعي؟ أم كانوا يخشون من انعكاسات لوجودنا ونشاطنا على أداء ومواقف الخصم الذى كان موجوداً آنذاك في موسكو؟ أم كانت لديهم هم أيضا أوهام حول علاقات ما مع هذا الخصم [وهو ما لم يكن صحيحا]..؟

أم أن مثل هذه السبيكه المقترحة.. كانت مطلوبة، أو حتى مفيدة للتجربة..؟

* * *

وتعززت حيرتي.. أكثر فأكثر.

فبعد فترة - وربما لأن «المؤسسة» اختلفت مع البروفيسور، أو لأن جهة ما اختلفت معه - وفجأة وعلى غير المعتاد نشرت مجلة تايم الأمريكية موضوعا عن بروفيسور في هارفارد يعمل لحساب المخابرات المركزية الأمريكية، وكيف أن زملاءه اكتشفوا ذلك ، واكتشفوا أنه كان يموِّل هو وكتبه وأبحاثه وجولاته وما يقيمه من ندوات، من المخابرات..

ثم انهالت الأسطر تحمل معلومات مذهلة .. فهو بالاضافة إلى أمريكيته، إسرائيلي الجنسية، وعمل لفترة لا بأس بها مستشاراً سياسياً لدى جولدا مائير.. وكان هذا البروفيسور هو ذاته ناداب سافران.

وأضفت إلى رصيدي من علامات التعجب، واحدة أخرى .. ترى باسم أية «مؤسسة» كان ناداب سفران يتحدث؟.. إحداهما .. أم كلتاهما؟ - أم كانت مجرد رؤية فردية أراد هو أن يكسوها بمسحة من اهتمام خاص؟.

* * *

وبروفيسور آخر.

ريتشارد ميتشل تعرفت عليه عبر كتابه الأسطوري عن الإخوان المسلمين، وعندما أصدرت كتابي «حسن البنا. متى؟ كيف؟ ولماذا؟» تلقيت منه مكالمة تليفونية، ثم حضر لزيارتي بمقر التجمع هو و واحد من تلاميذه «جويل بينين»، تحدثنا طويلا عن كتابه وعن كتابى. كتابه كان ينظر للاخوان نظرة إيجابية ربما أكثر من اللازم، أما كتابي فقد قدم نظرة سلبية ربما أكثر من اللازم.. ارتفع صوتنا ، فهو عندما يختلف يضحك

ويصرخ ويتحدث بنغمات عالية متتابعة الارتفاع كأنه يغني أوبرا.

زار القاهرة أكثر من مرة.. والتقينا عشرات المرات وأصبحنا أصدقاء .. وتبادلنا المعلومات والوثائق.. ثم فجأه عرض علي مشروعا.. أن نعد سويا كتابا جديداً عن «الإخوان» وعن الحركات الإسلامية الجديدة التي كانت قد أصبحت ذات ثقل ما. ترددت، قلت بصراحة نحن مختلفان في التوجه، أنت مع.. وأنا ضد، حاول إغرائي.. فكرياً أكد أننا سنصل إلى منطقة محايدة في الموقف إزاء هذا التيار، وعملياً قال إن لديه ٤٠ألف دولار كتمويل لمهمة التأليف، وأن المهم هو جمع أكبر قدر من المعلومات ثم نبحث معا بعد ذلك في كيفية الصياغة. أكدت أننا مختلفان في وجهة النظر والرؤية، ومن ثم سنختلف حتى في الرؤية للمعلومات وكيفية توظيفها. قال إنه قد أصبح أقرب إلى وجهة نظري أكثر مما أتصور، وإن ماورد من تقييمات إيجابية في كتابه الأول كان أكثره مطلوبا من «الممول»، توقفت متأملا الكلمات، ورقم ٤٠ ألف دولار [أكد أننا سنقتسمها مناصفة] والرغبة الأساسية في الحصول على معلومات أما صياغتها بعد ذلك فيمكن التفاوض حولها.. وتأملت ملياً كلمة « الممول».. واخترت كلماتي بعناية دقيقة ووجهتها له كوخزة إبرة .. أي ممول؟ لعلك تقصدالناشر. انفجر ضاحكا .. وقال بل أقصد ما قلت تماما.. «ممول» يعنى «ممول». النشر سيأتي لاحقا.

أدركت المقصود. واعتذرت.. صمم واعتذرت، قال إن الأمر غائم، وإن هذا التيار امتلك مساحات هامة من الاهتمام، وإنه سيطفو على سطح الاهتمامات أكثر فأكثر .. [كررها عديداً من المرات].، وإنه أصبح كبير السن ولا يمتلك الجهد الكافي للحفر بحثا عن معلومات

أصبحت الآن سرية، والأمر يحتاج إلى باحث .. تعود على العمل السري، وتعود على البحث عن الوثائق السرية [هكذا فعلت عندما كتبت تاريخ الحركة الشيوعية] وتجميعها وتوثيقها.. ويكون مصريا .. ويكون.. وأدركت أنه يريد شريكا على مقاس محدد وأنني، ويااللدهشة، «لائق» من وجهه نظره.. ورفضت، قلت لنبق أصدقاء. ولا تطرح هذا الموضوع مرة أخرى.

سافر . ثم عاد بعد فترة وجيزة . اتصل بي قال تعال، ولما أحس أنني أتهرب منه قال: لن نناقش الموضوع الذي أغضبك، نحن أصدقاء أليس كذلك؟. بعد يومين زرته في فندق النيل. استقبلني في غرفته، وكان شاحباً ومريضا.

ناقشنا أشياء كثيرة.. ولم نقترب من الموضوع الشائك.

.. غادرته. اتصلت به في اليوم التالي لأطمئن على صحته .. قال إن حالته ازدادت سوءاً. أرسلت له وروداً متمنياً الشفاء العاجل..

وبعد يومين أو ثلاثة قرأت في الصحف « أستاذ امريكى وجد ميتا في غرفته بفندق النيل» ورحل «ديك» [هكذا كان أصدقاؤه وتلاميذه ينادونه] دون أن أجد الفرصة لأناقشه حول «الممول» ومن هو؟ وماذا كان يريد بالضبط؟

* * *

.. ثم ، هل يأذن لي القارئ أن نقفز معاً عدة سنوات تتخطى الزمن الساداتي الذى سنسدل ستار هذه الكلمات مع إسدال الستار على مرحلته؟

.. ذات صباح تلقيت زيارة عاصفة من سيدة نصف أجنبية ، قالت

إنها مدام «صوصه». وصوصه هذا هو صاحب المبنى الذى استقر فيه المقر المركزي للحزب. وضع الرجل تحت الحراسة في الزمن الناصري، ثم قامت الحراسة بتأجير هذا المبنى، الذي كان ناديا ثقافياً واجتماعياً للأرستقراطية اللبنانية الاصل وأسمي «النادي الشرقي». قامت بتأجيره إلى « الاتحاد الاشتراكي». وربما كان هذا هو الدافع الأساسي لفرض الحراسة عليه.

فجأة.. وبعد سنوات من الاغتراب في أمريكا انقضت علينا مدام صوصه مطالبة بإخلاء المبنى. الحراسة سقطت، فلتسقط معها تصرفاتها وإجراءاتها. السيدة المتأمركة تصورت أن الأمر سهل، وأتت كعاصفة متعجرفة لعلها تنجز الأمر بالمنطق الأمريكي. هذا ملكي، تفضلوا اخرجوا. حاولت أن أشرح لها بهدوء أن الأمر ليس بهذه البساطة، وأن عقد الإيجار يحتفظ بحجيته حتى ولو ذهبت الحراسة، ارتفع صراخ عاصفتها.. وتعالى تهديدها بأنها أمريكية، والسفارة الأمريكية قادرة على طردنا . وبرغم هدوء غير مفترض في حديثي معها خرجت غاضبة فيما تتطاير شتائمها ، النصف منها بعربية ركيكة والنصف الآخر بلكنة أمريكية صارخة.

والمثير للدهشة أن السفارة الأمريكية حاولت فعلا أن تتدخل، اتصلوا ببعض المسئولين الذين أفهموهم أنه لا حيلة لهم. وأن الأمر كله عندنا نحن. وأتى إلى مكتبى المستشار السياسي الامريكي.. حاول أن يضخم من كلماته. السيدة أتت معززة برسائل من عدد من أعضاء الكونجرس، والسفير شخصيا مهتم، وقال إنه شخصيا لا يفهم كيف أن مالكاً لا يستطيع أن يتخلص من ساكن لا يريده.. حاولت أن أشرح له

الأمر، كان متعجرفاً هو أيضا، ولعله كان يحاول إخافتي، وكان - وبمهارة ساذجة - ينثر عبر عباراته أسماء رسمية هامة موحياً أنها اهتمت بالأمر.. فلما اكتشف إنني لا أتراجع (وهل كان بالامكان أن أتراجع؟) بدأ المساومة. كم تريدون لتتركوا هذا المكان؟ ساعتها تخيلت (ربما من قبيل المبالغة فيما نقول وما نفعل) أن للأمر بعداً سياسياً، وأنهم بحجة ما، وبثمن ما، يريدون إبعادنا أو استبعادنا من مكان يمنحنا وجوداً مميزاً في قلب المدينة، وقدرة متسعة باتساع المكان على عقد لقاءات ومؤتمرات كثيرة الحضور، فرفضت مبدأ المساومة (وكان ضروريا أن أرفض). حاول (وإن بلطف وأدب) أن يهدد ، كانت آخر قطرات الصبر قد نفذت فارتفع صوتي: «اسمع! نحن نكرهكم بما يكفي ويزيد، فلا تدفعونا إلى مزيد من الكراهية». وانتهت الجلسة وخيل إلي أنه ارتدع، وأغلق هذا الملف نهائيا. وعلى أية حال فالسيدة صوصه وجدت مشترياً، باعت له ورحلت. لكنها كانت فرصة لي وله كي نتعارف، ليس فقط هذا التعارف السطحي والعابر، وإنما عبر احتكاك شديد ومتشدد، فعرف كل منا مذاق الآخر ومزاجه.

.. وأسبوع واحد يمضي، وبعدها يأتيني زميل يقيم في شارع ضيق أنيق من تلك الشوارع التي تتهادى من شارع مراد [أمام حديقة الحيوان] إلى النيل، قال : الأمريكيون يحتلون الآن فيلا في هذا الشارع، يكادون أن يعرقلوا المرور تماما، سيارات ضخمة تحتل الشارع ليلا ونهاراً، لكن أكثرها يأتى ليلا، المارينز يحتلون الحديقة والسطح ليلا ونهاراً أيضا.. أجهزة وأعمدة عملاقة تقام فوق السطح.. وتساءل : ما هذا؟ وتساءلت معه.

بعدها - وبالمصادفة - التقيت زميلا آخر.. مهندس قريبه يعمل في السفارة الأمريكية تحدث معه عن هذه «الفيلا» ذاتها والأجهزة العملاقة التي يجري تركيبها فيها.. وقال له: هذه أجهزه إرسال واستقبال حديثة جداً، وحساسة جداً، لا تستخدمها سوى أجهزة مخابرات متقدمة جداً.

ولم أكن بحاجة إلى المزيد.. وفي صدر الصفحة الأولى من «الأهالي» تمدد خبر على مساحة متسعة «مركز للمخابرات الأمريكية في فيلا بالجيزة».. ثم اسم الشارع.. ورقم الفيلا..

ولم ينتظر المستشار الأمريكي.. أتى صباح ذات الأربعاء الذي صدرت فيه الأهالي. تحدث منزعجاً عن الخبر، حاول في البداية إن يقلل من قيمة الأمر، أكد أن الفيلا مجرد مكتب عادي. قلت: إذن لا مبرر للانزعاج. لكنه كان منزعجاً فعلا.

ثم تلكأ وأنا أودعه تأدباً.. أخذني إلى فوهة السلم حيث لا مجال لتسجيلات.. وقال : هل يمكن أن أسألك سؤالا ؟ قلت: تفضل. قال: أعرف أنك رجل مباشر، وسأكون مباشراً معك . وأحدثك بصراحة ..الخبر بذاته أضر بنا لكنه ضرر يمكن تلافيه ، وقد اكتشفنا أننا ارتكبنا أخطاء فادحة خلال فترة إعداد المكان، ابتسم في أسى وقال: البعض عندنا نسي أنه في مصر. تصوروا أنهم في بلد من بلدان أفريقيا السوداء، وتصرفوا بحرية.. وغباء . وأعترف لك بصراحة أن الخبر الذي نشرتموه صحيح. وأننا قررنا نقل كل هذه المهمة إلى خارج مصر. صمت قليلا ثم قال: ها أنا قد تحدثت معك بصراحة، فهل تجيبني بصراحة؟ واندفع بسؤال أثار ولم يزل حتى الآن يثير دهشتي . قال: غضبنا من نشركم لهذا الخبر، لكننا لم نفزع، ما أفزعنا هو أن السفير يعتقد بل يؤكد ..

أن «مبارك» يريد أن يضربنا من تحت المائدة. وأن الخبر قد سرب اليكم وطلب إليكم نشره كسبيل غير مباشر لإبعادنا .. صمت . ينتظر إجابة.

أدرت السؤال في رأسي عدة مرات. ثم أجبت ضاحكا : لسنا أصدقاء الحكم الى هذا الحد. قال : لهذا السبب يختارونكم أنتم بالذات . قلت: هل ستصدقني ؟ قال: لا حيلة لي غير ذلك . كنت أكسب وقتا كى أفكر في إجابة، ثم أجبته.. جيرانكم اشتكوا . أرسلنا صحفيا تأكد. وهذا كل شيء.

قال وكأنه يريد أن يتأكد .. كل شيء فعلا؟ قلت: فعلا.

قال: ألم أقل لك أن بعض رجالنا يتصرف بغباء.

ثم.. وهو يصافحني قال: تقبل مني نصيحة. أنا أحببت فيك أنك خصم مباشر وواضح وتتصرف كرجل حقيقى.. ولهذا أنصحك: لا تتعمدوا الدوس على الألغام، وبالذات ألغامنا نحن، ولا تستثيروا غضب «المؤسسة» فحتى الكبار فيها قد يتصرفون بحماقة إذ يحاولون الانتقام ممن يتعرض لهم، أو لمشاريعهم..

وظلت علاقتي مع «كروكر» شائكة دوماً، رغم ما يبديه كل منا من مودة متحفظة إزاء الآخر. بعدها غادر «كروكر»، ثم ظهر في الكويت .. ثم سفيرا في بيروت. بما يوحى بأنه واحد من رجال المهام الصعبة في ... «المؤسسة»

البصاصون

.. والبص لغة هو النظر المعن، والبصاص هو الذي ينظر بإمعان.

والبص في حالتنا ليس هواية، لكنه حرفة، وحرفة تتطلب مهارات وكفاءات.. وموهبة. ولقد تواجد البصاصون في كل زمان. لكن أغلبهم يمعن النظر نحوك وهو خارجك يتلصص عليك عبر نوافذك المفتوحة. أما من نتحدث عنهم فهم هؤلاء الذين يوفدون إلينا، يغرسون في صفوفنا، فينمون في تُربتنا كعشب ضار وسط حديقة العشق.

ومنذ تأسيس التجمع تكاثرت عمليات البص عبره و حوله، وداخله، وشغل رجال الأمن أنفسهم بنا، ربما أكثر من اللازم. وتنوعت أساليب البص. فعندما كنا نحبو لم نزل في أيام الولادة الاولى للتجمع، كنا نتأمل أسقف وجدران وتليفونات الدور التاسع بمبنى الاتحاد الاشتراكي ونحن نكاد نوقن أنها مرصعة بأدوات تصنت، وأدمن الكثيرون منا إداره النقاش سيراً عبر الردهة الممتدة طويلا.. وحتى هذه كانت شكوكنا معلقة بسقفها وجدرانها.

وعندما انتقلنا إلى مقرنا الحالي تعايشت معنا ذات الشكوك .. بل وتأكدت.

وازداد التعلق الأمني بالبص علينا مع تزايد حدة خلافنا مع السادات، إذ أصبح إحصاء أنفاسنا أمراً ملحاً..

وانكشفت الألعاب التكنولوجية ذات يوم. فبفعل مطر شديد انهار سقف غرفه الاجتماعات التي اعتدنا على تسميتها غرفة الامانة العامة.

دخلت كعادتي مبكراً جداً لأجد الغرفة مليئة بالركام وألواح من خشب مهمشم، تطلعت لأعلى لأجد الشمس وهي تبتسم في سخرية، تأملت الركام، وكانت قطعة معدنية فضية اللون تلمع في تحد.. قطعة صغيرة أكبر قليلا من بطارية الساعة، التقطتها، عرضتها على خبير من أعضاء حزبنا، قال إنها جهاز تصنت مفرط الحساسية يلتقط حديثنا ليعيد بثه نحو نقطة استماع قريبة. وعندما أتى المهندس وديع ساويرس، وكان مقاولا، ليتولى متبرعاً عملية ترميم السقف،أوصيتة بالركام والبحث الدقيق فيه، وعثر هو أيضا على ثلاث قطع فضية.

والغريب أن الأمن لم يكن ينكر ذلك، فبعد هبوط السقف، سألني أحد ضباط الأمن تلفونيا: ألم تجدوا شيئا يخصنا؟ ضحكت ولم أقل شيئاً، وضحك ولم يزد شيئاً. وذات زياره قام بها خالد محيي الدين وأنا لزكي بدر عندما كان وزيراً للداخلية، احتد النقاش كعادة كل نقاش معه، فقال متحديا: أنا في مكتبي هنا أستطيع أن أسمع كل ما يدور في مقركم..

أردت فقط أن أبدي بعضا ما يبديه الأمن من اهتمام بنا وبمقرنا..

ثم نعود الى البصاصين. فبالإضافة الى البص التكنولوجي كان هناك العشب السام الذي غرس في حديقتنا.

وربما كان مدهشا أن أغلب من اكتشفناهم من هؤلاء البصاصين

كانوا عمالا نقابيين. أدرك الأمن تلهفنا على ضم قيادات نقابية وعلى ترصيع القياده الحزبية بها، فأتانا من عنده بما نشتهي .. وبدأت لعبة القط والفأر بيننا.

* * *

كانت اجتماعات الأمانة العامة تعقد مساء السبت الأول من كل شهر، وكان اهتمام الأمن مركزا على معرفة كل ما يدور فيها وبأقصى سرعة. ولم تكن التكنولوجيا الصماء كافية، فهناك النظرات والهمسات والإيماءات والأوراق والقرارات المكتوبة.. ، وحتى تلك القصاصات الصغيرة التي اعتدنا تبادلها أثناء المناقشات.

وأكثر من مرة نمسك بالمسكينة «أم مصطفى»، التي ترابط طوال حياتها في الشارع أمام مقر الحزب ترتب وقوف السيارات .. وتعيش هي وأولادها من ذلك.. نمسكها وهي تنقض علينا فور انتهاء اجتماع الأمانة العامة قرب منتصف الليل، تشغلنا بإلحاحها في طلب مساعدة من هذا أو ذاك، ثم تلتقط من على مائدة الاجتماعات قصاصات وأوراق دوّن فيها المجتمعون خواطرهم أو اقتراحاتهم أو صياغاتهم أو سخريتهم من متحدث ما، أو رأي ما ،ذات مرة أمسكنا بها والأوراق تتزاحم عبر فتحة جلبابها.. بكت وقالت أن حضرة الضابط هددها إن لم تفعل. وإكتفيت بأن أقوم بتجميع كل الأوراق والقصاصات فور انتهاء كل اجتماع.. وحرقها. ودوما..وما أن أصل الى البيت مرهقاً والنوم يطاردني فيهزمني حتى وأنا لم أزل أصعد السلم، حتى أسمع رنين التليفون،وأعرف من فرط التكرار أن المتحدث هو العقيد ماجد الجمال. كان لطيفا ومجاملا لكنه كان لحوحاً، يسأل عن الاجتماع، وأجيب

بكلمات باهتة خالية من أي معلومات.. لأجد أن معلوماته دقيقة، هو فقط يريد أن يستكملها أو أن يغظيني .. وكان يسأل أسئله محيرة: عندما احتدم النقاش حول موضوع كذا كتبت ورقة صغيرة للأستاذ خالد قرأها ووضعها جانبا، لكنك قمت وأخذتها ومزقتها تماماً.. فهل كان الأمر يستحق كل هذه السرية؟.. تراكمت أسئلة من هذا النوع عقب كل اجتماع، هو يلح موحياً ومؤكداً أنه يعرف كل شيئ، وأنه لا فائدة من إخفاء أي شيئ، وأنا أجيب بضحكات عالية ومفتعلة، أو بالدقة منفعلة ولا أقول شيئا، أو أقول مالا يحمل أي معنى.وبعد فترة تأمل تأكدت أن داخل الأمانة العامة من ينقل المعلومات فوراً اليه. و أمسكت بقائمة أعضاء الأمانة: تعاملت ببرود شديد مع الأسماء .. واحد منها على الأقل جاسوس، فمن هو؟ بدأت أشطب أسماء من لا يمكن الشك فيهم .. واحداً واحداً وبقي اسمان. قلت لنفسي لنحاول أن نتأكد. كلفت زميلين موثوقاً بهما بالانتظار قبيل انتهاء اجتماعات الأمانة قريبا من المقر.. ليقوما بمراقبة الاثنين بعد انصرافهما.

«ش.ع» عامل نقابي. رئيس لجنة نقابية هامة. كان يخرج عقب كل اجتماع يتجه مباشرة الى لاظوغلي وينزلق إلى مبنى أمن الدولة.

أكثر من مرة أتامل الوجه العادي الملامح، أتفرس فيه، بحثا عن أية ملامح ألمح بها أو فيها ما يميز قسمات وجه الجاسوس، كان الوجه بريء الملامح، والقسمات مستريحة بل ومفعمة بمودة دافئة وكأن الضمير ميت تماما.

تداولت الأمر مع الأستاذ خالد. ها نحن تأكدنا فماذا نفعل؟ قال: لا شيئ. نتركه، نحذر منه، نسرب اليه بعض معلومات خاطئة، وننتظر

الى حين. وانتظرنا عامين أو أكثر حتى كانت انتخابات لجنته النقابية فأسقطناه [وكانت دهشة أعضائنا في مصنعه غامرة وسعادتهم متسعة الأرجاء عندما أبلغناهم قرارنا بالتحالف مع الآخرين لإسقاطه، فقد كانوا يحتملونه على مضض، ويهاجمونه بشدة ونحن نكبح جماحهم]. ثم كانت الانتخابات الحزبية وأسقطناه..

وتلاشى .. بعيدا. ولعل من أرسلوه أدركوا أنه لم يعد مفيداً.

والآخر كان أيضا كذلك.. أوقعناه في اختبار أشد مرارة. لاحظت أنه - خلال زيارات متكررة ومفاجئة- يلتقط الأوراق من فوق مكاتبنا ويخفيها، أكثر من مرة تختفي أوراق مهمة بها مشاريع قرارات أو مسودات لبيانات ستصدر أو أصول لمطبوعات، أورسائل..

دخل ذات صباح الى غرفة خالد محيي الدين. لم يكن صاحب الغرفة موجوداً، لكن صاحبنا كان عضوا في الأمانة العامة ويعطي لنفسه الحق في احتلال غرفة رئيس الحزب في غير وجوده.. قررت يومها أن أتاكد. أعددت مظروفا متخما بأوراق لا قيمة لها، أغلقته بإحكام.. كتبت عليه:« د. رفعت السعيد. هام وسري وعاجل». تركت المظروف في غفلة من صاحبنا على مكتب الأستاذ خالد، خرجت وعدت بعد دقائق. اختفى المظروف. سألت، صرخت .. نفي أن يكون رأى مظروفاً.. مددت يدي الى جيبه وأخرجته منه، لم تهتز شعرة في رأسه. جاسوس مدرب تماما.. قال: لي صديق بهذا الاسم طبيب في إمبابه (فعلا هناك طبيب في إمبابه يحمل ذات الاسم) ظننت أن المظروف يخصه. كان ثابتاً تماماً ومستعداً لأن يجادل، ولم أجادله.. وأعملت نصيحة الأستاذ خالد، وعملت بها.إنه «ن».. وهو أيضا نقابي متمرس.. تركناه، لكنه بحس

مدرب أدرك أننا اكتشفناه فاختفى من أمام أنظارنا. فجأة زارني سفير العراق (وكان العراق يضم مصريين بغير حصر، وكان لنا بضعة مئات من الاعضاء أثارت محاولاتنا لتنظيمهم هناك هواجس أمنية) سألني السفير عن «ن»، وقال إنه قدم نفسه هناك على أنه موفد شخصي من خالد محيي الدين، وطلب اتصالا مباشرا ودائما مع القيادة العراقية، وأكد لهم أن مهمته هي التنسيق على أعلى مستوى بين التجمع والبعث العراقي. ولم يكن هناك أي ظل لأيه قطعة ولو صغيرة من الحقيقة في ذلك كله، انتظر السفير إجابتي . تلكأت الكلمات داخلي، فكل حرف يتعين عليه أن يكون محسوباً، أخيرا قلت: «ن» لم يكلف بشيئ من ذلك. ودهش السفير ،أعاد السؤال، وأعدت الإجابة. قال في حسم: هل تثقون فيه؟. ولم أجب. كنت محاذراً فأنا لا أريد أن اتهم من لم يزل ضمن قادتنا، وإلا فلماذا نبقيه معنا؟ ولا أريد كذلك أن أكشف أوراقنا و أسلوب تعاملنا مع من نتشكك فيهم.. إنها أوراق تفسد إن كُشفت، لكنني أيضا لا أريد أن اخدعهم فأكون مسئولا عن خداعه لهم.

بعدها بأسبوع أو أقل عاد «ن» ممزقاً من العراق .كان يسير في أحد الشوارع، انقض عليه أشخاص لا يعرفهم ضربوه ضرباً بعثياً عراقياً.. ألقوه في حفرة قريبة، عاد وساقه مكسورة ووجهه يوحي بأن بقيه الجسد ناله ما نال الوجه من آثار دامية.

طالبنا بأن نرسل احتجاجاً رسمياً .. وعدته ولم أفعل. لكنه أدرك أنه لم يتبق له أية مساحة بيننا.. فانسحب تدريجياً حتى تلاشى.

* * *

لكن أكثر البصاصين شهرة كان «ح.ع»: فجأه صعد في غمار

العمل الحزبي. نشط نشاطاً ملتهباً في حي السيدة. عقد عدة مؤتمرات جماهيرية ناجحة. كانْ بشوشاً ضاحكاً، ولماحاً وذكياً، و.. إبن بلد. وأصبح سريعاً جداً واحداً من ألمع كوادرنا في القاهرة.

ولست أدري إن كان قد أتى مغروساً بأيد أمنية، أم أنهم التقطوه خلال أيامه الأخيرة معنا بسبب أزمة مالية عاتية كان يمر بها.. المهم أنه بدأ نشاطه التجسسي الظاهر في فترة من أصعب الفترات .. سبتمبر١٩٨١ وما قبلها بقليل. كان السادات متوتراً توتره الذي قاده الى اعتقالات سبتمبر الشهيرة. قبيل سبتمبر بعدة أسابيع كان ح.ع .. متوتراً ومنشغلا بأزمة مالية لا حيلة لنا إزاءها. ثم وبشكل مفاجئ زارني مستشار في السفارة السوفيتية سألني عن ح.ع ..وقال: إنه الآن في تونس، ذهب الى السفارة السوفيتية هناك، طالبا حق اللجوء السياسي وأن يرتب له السوفيت عقد مؤتمر صحفي باسم حزب التجمع، ليدين فيه سياسات السادات وجرائمه..و..و. هبط الخبر كالصاعقة على رأسي. تصورت رد فعل السادات المستفز منا أصلا . طلبت منه رفض أي علاقة مع هذا الشخص، وحذرته تحذيراً شديدا منه، قال: نحن قررنا عدم التعامل معه، فقط أردنا ان نبلغكم.

بعدها بيومين ظهر ح.ع في أروقة التجمع، قلت له إن زميلا لنا شاهده على الطائرة المتجهة الى تونس. نفى بشدة أن يكون قد سافر أصلا.

وتراكمت شكوك كثيرة في مخيلتي.

ثم كانت اعتقالات سبتمبر وبعدها بأيام قليلة، وفي غمار الوهج المظلم الذي يحيط بنا وبمصر كلها. زارني شحاته هارون قائلا إن رامزي

كلارك، المدعي العام الأمريكي السابق موجود بالقاهرة، وأنه سيزوره في بيته، واقترح أن أقابله لأشرح له أبعاد حملة الاعتقالات.. وتحمست . كنت في بيت شحاته هارون عندما تحدثت زوجتي تليفونيا قالت: صاحبك بتاع السيدة عايزك ضروري ومصمم أن ينتظرك هنا في البيت، أعطتني تلميحات عرفت منها أنه ح.ع . قلت لها سأنتظره بعد عشرة دقائق أمام عمر أفندي في شارع طلعت حرب (فلم أكن أريد له أن يبقى في بيتي طويلا ومنفرداً فقد يدس شيئا.. أو يرتب مكيدة). خطوتان من بيت شحاته إلى المكان ووجدته واقفا. يلبس جلبابا فضفاضا وعمامة ضخمة.. إنه يتخفي، ألسنا في زمن المطاردة؟ كنت قد هيأت نفسي تماما لمقابلته .. أخذته بأحضان مبالغ فيها، يداي المشتاقتان مسحتا ظهره، تحسست جهازاًسميكاً ومستطيلاً مثبتا تحت الجلباب الفضفاض (كنا نعرف هذه الحيلة وأمسكنا بواحد من الأجهزة مثبت على ظهر شخص كان زميلا لنا بالإسكندرية، كان يحاول أن يسجل به الاجتماعات) أدركت أن الحديث سيكون شيقا.. كان يتكلم بحماس واندفاع وأنا لم أنطق .. هو يسجل لنفسه فقط . ثم بدأ في رواية غريبة. قال إن العقيد ماجد الجمال استدعاه، وهدده، وعرض عليه شقة وعدداً من عشرات الآلاف من الجنيهات مقابل أن يظهرفي التليفزيون ليقول إن التجمع أرسله الى السفير السوفيتي (طرد السادات هذا السفير بعدها بأيام) ليتسلم منه حقيبة مملوءة بالدولارات، وأنه خلال مقابلته مع السفير دخل أيضا مبارك عبده فضل ليتسلم نصيب الحزب الشيوعي.كان يتحدث بحماس منفعل. وكان ممثلا بارعاً، وفي النهاية بكى، قال إنه لا يمكن أن يخوننا، وليس أمامه وأمامنا إلا أن يهرب

خارج مصر حتى لا يتعرض لمزيدمن الضغوط، وقال إن معه تأشيرة لإيطاليا ولايريد سوى عشرة آلاف جنيه ليعيش بها هناك حتى يجد عملا.. وبضعة مئات كل شهر لزوجته.

انتهى من قصته وأنا لم أزل متعلقا بالصمت.. أدركت أو تخيلت أن الشق الأول صحيح .. وأنه بالمرة يريد أن يقتنص بضعة آلاف منا، ومنهم يأخذ ما يجودون به ثم يفعل ما يريدون، وربما يضيف إلى اعترافاته أننا أعطيناه نصيبه مما أحضر من نقود . وفيما كان يطلق حديثه المنفعل والمتقن التمثيل كنت أنا أيضا أرتب نفسي، فيما هو يرتب أكذوبته. قلت كلمات جميلة تشجعه وتثني عليه .. اخترت كلمات دقيقة لا تمتلك أية علاقة بما قال.. بحيث لا تصلح،عند تفريغ التسجيل، أن ترتبط بما قال..

ثم قلت بخصوص الطلبات المالية أنا أقترح عليك أن تزور الأستاذ خالد في بيته وتحكي له القصة كاملة.. وهو وحده من يستطيع تقرير صرف المبلغ لك .. ومنحته بعضا من أمل في الحصول على المبلغ. كان متلهفا، وأكد على ضرورة السرعة في تسليمه المبلغ. طلبت منه أن يزور الأستاذ خالد صباح الغد. طلب مساندتي قلت: علشان خاطرك سأذهب للأستاذ خالد الآن لأوصيه بك. مرة أخرى كنت أختار كلمات لا علاقة لها بالقصة الاصلية.. شخص يريد مساعدة مالية وأنا أرتبها له.

ذهبت للأستاذ خالد، أدخلت فمي في أذنه، حكيت له الحكاية التي توحي بأن السادات قرر العصف بنا عبر أكذوبة كبيرة ومحكمة التدبير، وأن يضرب الجميع: نحن والشيوعيين والسوفيت بحجر واحد .. واقترحت أن يزوره ح.ع غدا.

و أن ينصت للقصة كاملة وأن يسجلها على شريط يكون لدينا لنواجه به أية محاولة لتنفيذ هذه المؤامرة.

في الصباح ذهب ح.ع . حكى حكايته للأستاذ خالد الذي كان متوتراً - وهذا طبيعي- ونسي أن يدير جهاز التسجيل ولم يدرك ذلك إلا بعد انصراف الجاسوس.

لكنني وبرغم إحباطي الشديد من فشل محاولة التسجيل اتفقت مع الأستاذ خالد على أن نستغل الواقعة، فنفسد المحاولة.

اتصلت بماجد الجمال.. قائلا: صباح الفل. دهش الرجل من هذه السعادة التي تغمرني في زمن ملتهب بالصعوبة المريرة، وتساءل عن سر هذه المكالمة، وحكيت له ما يعرفه، مقابلة ح.ع لي، حكايته عن مسألة الإعداد لظهوره في التليفزيون.. والأكاذيب التي طلب منه أن يرددها وكل القصة. وقلت: إن الأستاذ خالد سجل كل هذه الحكاية على شريط، وإننا أعددنا منه عديداً من النسخ وأخفينا كلا منها في مكان آمن، وأنه فور ظهور ح.ع في التليفزيون سيتم توزيع عشرات من نسخ الشريط على وكالات الأنباء..

.. صمت ماجد الجمال طويلا ثم أطلق شتمة كبيرة، قال بعدها أنه يقصد بها ح.ع، لكنه وياللدهشه لم ينف شيئا مما قاله ح.ع.

ولابد أن قصاصاً شديداً قد سقط على رأس ح.ع هذا، لكن إلحاحه على طلب النقود ظل يحركه. أرسل أخوه ليقول ان ح.ع سافر إلى إيطاليا هرباً من ضغوط الأمن، وإنه استدان مبلغا كبيراً يريد بالطبع أن يسترده، وإنه ترك زوجته وهي حامل وتوشك على الوضع، وطلب نقوداً، أعطيته مائة جنيه بأمل أن أمسك بنهاية الخيط. تكرر ظهور الأخ كل

يوم تقريبا، يحكي عن «ح.ع» المسكين المحاصر بلا مال ولا عمل في ايطاليا، وزوجته التي لم تجد بعد مالا يكفيها ويكفي الطفل. وأنا أمهله .. أمهله يوما بعد يوم.

كنت أريد أن أتاكد هل سافر ح.ع فعلا أم لا.. وماذا وراء ذلك كله. وكنت أعرف أن ح.ع يعمل موظفا في شركة مقرها قريب جدا من مقرنا.. انتظرت فترة تكفي أن يكون قد أنهى إجازته. فقد تصورت إنه إمعانا في إيهامنا بسفره للخارج سيأخذ إجازة من عمله ليختفي من مكان نحن نعرفه.. وهو فوق هذا قريب منا ..ثم اخترت واحدة من سيدات الحزب ، إلفت عبد ربه، ذهبت الى مقر الشركة تسأل أسئلة معدة بإتقان.. تجولت في المكاتب .. لمحت ح.ع جالساً.

وفي اليوم التالي حضر الأخ، وكنت قد جهزت له زميلا ضخما، قلت له اذهب معه سيعطيك ما تريد. وعلى عتبات الشركة توقفت أقدام الأخ .. أدرك أننا عرفنا ان ح.ع لم يسافر. وطبعا لم ينله شيئا من الأمن ولا منّا.. وفقد شرفه، وحتى نفسه.

* * *

والبصاصون كثيرون .. وهذه مجرد نماذج لمعاناة التعامل معهم في الزمن الصعب، كشفنا منهم عدداً.. سبعة أو ثمانية .. هل هو الرقم الإجمالي؟ لا أعتقد . وتبقى معركه العشق ضد الأعشاب السامة مستمرة..

ويتعين عليها أن تستمر فلا نحن سنتوقف عن معارضتنا ولا الأمن سيتوقف عن غرس أعشابه في حديقتنا. والشيئ المؤكد أننا نزداد خبرة.. وهم كذلك. لكنا سنبقى الأكثر تفوقا في هذه المعركة المتواصلة، القاسية والممتعة.

والبين بين

.. ولكنك ومهما شحذت قرون الاستشعار لن تكتشف الجميع. وتظل هواجسك معلقة باحتمال أن يكون محدثك بصاصاً. دفعوه نحوك لأمر ما. وآه من هذه الهواجس المحيرة والموجعة معا. فكيف تتصرف، في زمن بالغ الحساسية ومفرط الوجع، مع شخص لا تعرفه، وإن أحاطت به هواجس وشكوك.. هنا الخطأ وارد، ومهما كنت متمرساً فقد تخطئ، لكن الخطأ قد يسبب كارثة للحزب .. ولك.

وتتوافد أطياف مثيرة للدهشة .. تأتي في الزمن الحاسم، تطرح أفكاراً أو معلومات أو اقتراحات متفجرة أو ملغومة وقد تكون مخلصة أو ملتبسة، بريئة أو مدسوسة، ومطلوب منك أن تتخذ موقفاً، وفوراً، وإلا فقد يحسب عليك ما يطلق عليه في القانون « علم ولم يبلّغ » فما بالك لو أن الأمر يتعلق بعملية اغتيال للرئيس او ما إلى ذلك؟ فكيف تحسم أمرك؟ وكيف يكون موقفك؟ الأمر معقد بلا شك، وهو مثير لتداعيات أكثر تعقيدا.

.. ذات يوم تلقيت معلومة من صديق موثوق به أن الأمن المصري رصد في بيروت شخصين مصريين ممن كانوا يسمون «زِلم» أي «رجال»

أبو إياد، وأنهما مكلفان بتفجيرات مدوية في القاهرة وأنهما يدربان على ذلك بينما ينتظرهم الأمن المصري ليرتب فضيحة مدوية هي أيضا. تصورت أن من واجبي أن أبلغ الفلسطينيين حتى يتوقفوا، وكفى الله المؤمنين شر القتال، فلا مصر تضار، ولاهم، ولا العلاقه بينهما، ولا الأوضاع تتوتر، فإن توترت كان رحيق التوتر منصبا فوق رؤوسنا نحن. فتشت في أدراج ذاكرتي عن قائد فلسطيني مقيم في القاهرة حتى أبلغه، وجدت واحداً فقط، وعبر طرق ملتوية طلبت موعداً، من فرط حرصه أرسل لي زوجته وأبلغتها القصة. هي استمعت وشكرتني، هو أقام الدنيا ولم يقعدها، اشتكى لكل من يعرفه ويعرفني أنني أبلغه بأشياء تحاول الزج به فيما لا يعنيه. أنا كنت واثقا من أن الأمر يعنيه، لكنه أرادها هكذا أماناً لنفسه وسط بوم السادات المتربص بالجميع. وبالكاد أرسلت له من يسكته، حتى لا يصل نواحه الى الأمن .. فأضيع أنا، وأنا مجرد فاعل خير. والغريب أنني ما أن زرت بيروت والتقيت أبو إياد حتى احتضنني شاكراً، فصاحبنا كان نواحه الذي كاد أن يطيح بي مفتعلا.. وأبلغ الرسالة، واتضح أن معلومات الأمن المصري كانت صحيحة، ونجا «زِلم» أبو إياد من قبضة كانت تنتظرهم.

* * *

.. وشاب متوتر، ، شديد التوتر، يندفع حاملا تحت إبطه مجموعة من الأوراق، يأتي الينا حاملا أوراقه قائلا إنها كتاب يتضمن وثائق خطيرة تثبت خيانة السادات ويريد طبعه في المطبعة المستقرة في إحدى غرف المقر، ويتعهد بسداد الثمن وبتوزيع الكتاب بنفسه، ويتحمل كل أطراف المسئولية. أنا أتلافاه، أتجاهله، أعتذر له، أمنح الامر صعوبات

صعبة، أزجره، أطرده.. وهو يلح إلحاحا مرضيا (استشرت طبيب أمراض نفسية قال إنه من الطبيعي أن يتوافد على مقر حزب معارض مرضى نفسيون يشعرون بالاضطهاد أو بالغرور مؤملين أن يدمجوا الفردي المريض عبر تحدٍ جماعي).. فجأه ظهر بعد غياب، هذه المرة لم يكن يحمل أوراقاً..

كان هادئاً ، التوتر الذي يكسو قسماته اختفى ، سحبني الى صالة المقر حيث احتمالات التسجيل أقل، همس في أذني قائلا : عايز كلاشنكوف. قلت: ليه؟،قال: علشان أقتل السادات. وبرغم أن عبارة « علم ولم يبلغ» حلقت فوق رأسي ولو كاحتمال .. ولو طفيف ، إلا أنني غالبت هواجسي، وقررت في أعماقي أن الشاب مريض، هدأته بألفاظ محايدة، لكنني ظللت لفترة مرعوباً من أن يظهر هذا الرجل فجأه متهماً، ويعلن أنه أبلغني ، و.. « علم ولم يبلغ»، لكن الشاب المسكين لم يظهر بعد ذلك.

وفي إحدى المرات أتى عضو بالحزب ليبلغ مسئوله أن عمه سيشارك في حملة ضد ليبيا.. قدم تفاصيل كثيرة، أرقام الكتائب وتسليحها ونقطة الهجوم .. وخططه، والمدى الذي ستصل اليه القوات ثم تتوقف . قبلها بأيام كانت رقابة مشددة قد أحاطت بعديد من قادة الحزب .. قلت في نفسي لعل الأمن أراد أن يسرب لنا خبراً كاذبا متوقعا أن نسرع به الى السفارة الليبية.. فنكون «خونة» . احتفظت بالمعلومات ، وتشككت في المصدر .. وبعد أيام كان الهجوم على ليبيا.. من ذات النقطة، ولذات المدى، وبذات الخطط وبذات الكتائب.

* * *

لكن الشئ الذي لم يزل يحيرني حتى الآن .. أن شاباً (كان طالبا

في طب القصر العيني) لا علاقة له بالسياسة ولا علاقة له بأي منا.. فقط أتى، انتحى بي ليبلغني أنه صديق لسيدة متزوجة، وأن هذه السيدة أبلغته أن السادات سيتم اغتياله يوم السادس من أكتوبر كأقصى مدى، وقبلها ستتم محاولات في المنصورة وسيناء، فان لم تنجح ستتم في ٦ أكتربر.

وقال إنه خاف على نفسه، وأتى ليبلغني، لأنه يخشى أن يبلغ الأمن فتنكشف علاقته بهذه السيدة. سألته ما هو المطلوب مني؟

قال: هذه مسئوليتكم. وأرجوكم أن تبلغوا السادات ودون أن تذكروا اسمي (ولم أكن أعرف اسمه)وذهب الشاب.

وقلبت الأمر مرات ومرات ، وتشاورت مع الأستاذ خالد، ثم استقر الرأي أن نبلغ الأمن فنبرئ ذمتنا من « علم ولم يبلغ ».والتقيت بماجد الجمال (همزة الوصل الوحيدة مع الحكومة الغاضبة منا دوماً)، وفيما نشرب الشاي حكيت له القصة، تبدى منذ اللحظة الأولى أنه لم يصدقها، والغريب أنه لم يركز على الموضوع وإنما ركز على الشاب: اسمه، عنوانه، شكله، مهنته، ولم أكن أعرف أيا من ذلك.. فقط أنه قال لي إنه طالب في كلية الطب.

وأنه يسكن في الدقي. حكيت له القصة، وأبعدتها عن دائرة اهتمامي حتى كانت واقعة ٦ اكتوبر واغتيال السادات، وذكّرت ماجد الجمّال بها، امتقع وجهه، ويبدو أنه لم يكن قد صدق الرواية، ومن ثم لم يبلغ رؤساءه .. وعندما نطق .. قال شتيمة كبيرة ضد الشاب مضيفا إليها إنه ولد مجنون إبن. .

وإن ما حدث لم يكن له علاقه بحكايته.

فهل كان هذا الفتى مجنونا حقا؟

عندما تحاصرك عيون .. فتحاصرها.

.. في المنصورة عندما كنا صغاراً، وفي غمار عملنا السري كان رفاقنا الكبار يحذروننا من خطر مراقبة الأمن لتحركاتنا واتصالاتنا. لكن الأمر كان سهلا . البلدة صغيرة، والمخبرون كانوا محدودي العدد. ونكاد نعرفهم جميعا. وهم أيضا مميزون بزي شبه رسمي . جلابية . بالطو. خيزرانة في اليد. وفيما يخصنا كان المكلف بنا .. كونستابل اسمه سعد، ومخبر اسمه عم مصطفى. نعرفهم ويعرفوننا ولا مجال لأن يتعقبونا.. إلا من قبيل التخويف .. أو إثبات الوجود.

وحتى عندما جاءت ثوره يوليو، وأتت بزكريا محيى الدين وزيراً للداخلية، وقرر تحديث، أو بالدقة «اختراع» أسلوب جديد لعمل الأمن. ظللنا في المنصورة نعرفهم تقريبا حتى وإن ارتدوا ملابس متنوعه.

لكن الأمر اختلف تماما فيما بعد . القاهرة أتت، أو أتينا إليها، ومعها تطوير هائل في أساليب المراقبة الأمنية. وتحول الأمر بالنسبه لنا إلى لغز لا حل له، أو إلى قدر محتوم لافكاك منه.

* * *

ثم جاءت فرصة الاكتشاف.

بعد يناير ١٩٧٧ وفيما كنت السجين الوحيد في سجن القلعة، وفيما تعددت أطقم الحراسة.. عساكر عاديون.. ومخبرون من أمن الدولة.. وآخرون ، ولكل طاقم ضباطه.. وفيما الأمور تنفرج قليلا، ويصبح السجن عاقلا ويكتشف أنه هو وسجانيه لن ينالوا مني شيئا عبر الضغط بالحبس الانفرادي، نقلوني إلى جناح آخر.

كان سجن القلعة يتكون من ممر أساسي على جانبيه زنازين، ثم جناح على يسار الداخل وآخر على يمينه في كل منهما عدة زنازين..

ونقلوني إلى الجناح الأيسر.. وفتحوا الباب دوما فأصبح الجناح بأكمله ملكاً لي .. أتمشى، أجري، أدور في دائرة ضيقة لكنها تسمح لي بالجري.. أجلس في الشمس أستمع إلى ثرثرات المخبرين الذين أصبحوا قريبين جداً، فقد تعايشنا زمنا وانا أقتسم معهم كل ما يأتيني من طعام.. وأغدق عليهم لا لشيئ سوى أنني أحسست أنهم مساكين، يجدون بالكاد قوتهم هم وأسرهم.

تغير الطاقم.. إلا عم صالح. كان مخبراً وخبيرا بفنون سجن القلعة بحيث لا يمكن الاستغناء عنه، كان يتأوه من الفقر دون أن يستجدي، وما أن يأتي بعض طعام، وفيما الجميع ينقضون عليه، كان هو يتألم لأن أولاده لا يجدون لا مثيله ولا ما هو أقل منه بكثير، قلت له يوماً : خذ لهم ما تشاء، قال بألم إنه يجري تفتيشهم خروجاً ودخولا. ويوماً ما فعلتها، رتبت أن تنتظره سيارة أسفل القلعة لتعطيه طعاماً وافراً لأولاده.. وبعضا من ملابس . وأصبحنا أصدقاء ولأنني لم أكن أريد منه شيئا، فقد ظل وعلى الدوام ممتنا.

ومع التغيير أتى مخبر، ضخم، طويل، عريض، سميك، ومرح إلى

أقصى نهايات المرح. كان يضحكنا جميعا بحكايات ونوادر يستمدها من عمله الدائم كمخبر. ولما نضب معين حكاياته بدأ يشدو «بقداس» ثم قداس آخر .. كان اسمه يؤكد أنه مسلم. سألته من أين؟ ففتح وإن قليلا صنبور أسرار عمله. قال إنه عمل طويلا في فرع النشاط الديني. وإنه كلف بالحضور الدائم في «قداس» عدد من كنائس شبرا.. واتخذ اسما مسيحيا وتدرب على الترتيل معهم وتناول «المناولة» معهم.. وأصبح واحداً منهم. وتحدث طويلا عن الطقوس المسيحية وكيف أتقنها وعرف مراسمها وكتبها وأعيادها .. وكل ما هو مطلوب من مسيحي طيب.

إلى هنا وكان الأمر مجرد تسلية، وإن كانت مثيرة للدهشة.

ومع تواصل حكاياته التي لا تنتهي، أسكتنا جميعا مستخدماً صراخه ويديه وشتائمه لزملائه فلديه حكاية جديدة.

قال إنه عمل طويلا في قسم المراقبات.. راقب شيوعياً يسكن في حي الوايلى.. المراقبة تبدأ عادة من السابعة صباحاً تقريبا، أو حسب عادات الشخص الذي تجري مراقبته التي يتم التعرف عليها بدقة. قال: رابطت على مرمى البصر من منزل الرجل.. لم يخرج . شباك غرفة نومه فتح في الموعد لكنه لم يطل منه وكوب الشاي في يده كالعادة. وأتت الساعة العاشرة ولم يخرج .. زملاءه في مجموعة المراقبة قلقوا .. اتصلوا عبر أجهزتهم بالمكتب، حذرهم من أن يكون الطير قد أفلت في الصباح المبكر وطالبهم بالتأكد من ذلك.

اختاره قائد المجموعه ليفعلها . صعد. دق جرس الباب. فتحت له الزوجة هو يعرفها، فكثيرا ما شاهدها معه. وتبدى الأمر وكأنها تعرفه. اختار اسماً بعيدا جداً وسأل : هل.. الحاج فلان موجود ؟(كان يتوقع ان

يفتح هو الباب، فلما فوجئ بها لجأ إلى الحيلة المعتادة، أن يسأل عن مجهول) قالت: موجود اتفضل . وفوجئ المخبر المدرب، تردد ، وفيما يوشك أن يقفز ليهبط مسرعاً. أمسكت بخناقه وصرخت بأعلى صوت «حرامي» وأتى الجيران.. وجيران الجيران أمسكوا به، تطوع الجميع - كالعادة - بضربه ضربات موجعة. زملاؤه اختفوا.. هذه هي التعليمات، هو نفسه ممنوع عليه تماما أن يصرح بوظيفته. وهكذا اقتادوه تحت وطأة ضربات المتطوعين إلى قسم البوليس. حكى لنا بلهجة ساخرة وقادرة على إضحاك حتى من يستعصون على الضحك .. كيف أن رجلا يرى الموكب، فيترك ما هو ذاهب اليه، يأتي ليضربه ثم ينسى نفسه ويسير معهم ليسهم في كل لحظة بضربة هنا أو هناك. وآخر يغلق محله مسرعاً ليسهم في هذا الموكب وأطفال كثيرون صنعوا موكبا تنامى مع كل خطوة. أخيراً وصلوا إلى القسم بعد أن كانوا كعادة أبناء الأحياء الشعبية قد ألبسوه في رأسه «حلة من الألومنيوم» أتت بها صاحبة البيت التي أوقعته عن عمد انتقاما منه، ومن الذين أرسلوه لمراقبة زوجها. إنه «حرامي الحلة» أكثر اللصوص وضاعة.. أمام الضابط تطوع كثيرون بشهادتهم، وإن كان متاكداً أنهم لم يكونوا حاضرين، أقسم أحدهم أنه شاهده يشهر سكينا يهدد به صاحبة البيت فلما أحس بوقوعه ألقى به بعيداً.

سأله الضابط فين بطاقتك؟ قال: ليس معى بطاقة...«كمان مفيش بطاقه تبقى سوابق» وانهال المخبرون عليه ضرباً، قال للضابط : معي كرنيه النادي. وأخرج له بطاقته كمخبر في أمن الدولة.. فهم الضابط . شخط في الجميع ونادى على «الصول» آمراً إياه: خذه إلى «الحجز». ومن هناك أخرجوه..

ضحكنا طويلا وهو كان أكثرنا ضحكا. لكنني لاحظت نظرة من عم صالح تأتي نحوي في صمت وكأنه يقول:سأستدرجه لك وأنت تتعلم منه ما تريد. كان عم صالح بخبرته الحكيمه يعرف أنني في غمار عملي السياسي سأحتاج إلى معلومات عن أساليب المراقبة. وكان يعرف أن سؤالا مني سوف يوقظ المخبر النائم في أعماق هذا الذي يحكي باسترسال كصنبور نسيه صاحبه مفتوحاً.

تنبهت ، واستيقظت كل حواسي .. وبدأ عم صالح يوجه أسئلة متدرجة.. ومتصاعدة واستفزازية، وإن تبدت كأنها هادئة ولا مبالية، وكان المناخ جاهزاً والرجل مستعداً. وتدفقت معلومات نادرة .. لم أكن أحلم بها. تواصلت الأسئلة وتواصلت الحكايات، وفي جلساتنا الأخرى كان عم صالح يجدف بالحديث نحو ذات الموضوع ليسأل أسئلة جديدة، وكنت أنا أحتفظ في ذاكرتي بعشرات المعلومات والملاحظات.. وأعود إلى زنزانتي فأسجل في ورقة صغيرة جداً وبخط صغير جداً وبإشارات غير مفهومة ما يعينني على استعادة المعلومات من ذاكرتي..

حكى أن المجموعة تتكون عادة من ثلاث سيارات تضم كل منها ثلاثه أشخاص أو حتى أربعة.. ومعهم موتوسكل .. أو اثنين حسب خطورة العملية.. وأنهم مجهزون بأجهزة لاسلكية تربطهم بعضهم ببعض، وتربط كلا منهم بالمكتب.. وأنهم يحتفظون في السيارات بملابس متنوعة.. بلوفرات، نظارات، لوحات بأرقام مختلفة للسيارات.. لكنه قال إنهم عادة ما يهملون تغيير ملابسهم، فإن فعلوا فإنهم أبداً لا يغيرون الأحذية. قال إن لهم إشارات مميزة.. إن واجهت أحدهم مصادفة دفع وجهه بعيداً، وإن توقع أنك اكتشفته رفع يده إلى رأسه وخبط بها

عليه عدة مرات بما يعني أنه يقول لزملائه إنه سينسحب. (فالتعليمات أن تختفي فوراً مع أي قطرة شك في اكتشاف الشخص الذي تراقبه لك) قال إن جهاز اللاسلكي يوضع في شنطة صغيرة من تلك التي اعتاد الرجال على شبكها في أيديهم يضعون فيها علبه السجاير وبعض أوراق .. قال : إن الكثيرين منهم لا يسمعون الكلمات الآتية إمابسبب ضعف بطاريات الأجهزة، أو بسبب ضجيج الشارع فيقتربون بالحقيبة من فمهم أو من أذنهم.. وإن تأملتهم تجدهم يحدثون لا أحد.. لكنه شفاههم تتحرك (بالمناسبه هم الآن يستخدمون أجهزة صغيرة واكثر حساسية تشبه القلم وتشبك في جيب الجاكت أو فتحه البلوفر، لكن شفاههم تظل تتحرك لمن يلاحظها).. حكى و حكى.. وأسئلة عم صالح تستدرجه بهدوء ماكر، وتستفزه بإغراء أشد مكراً. هو أخذته الجلالة.. وشعر بتفوق على الجميع وأتى بقطعة طباشير وبدأ يشرح لنا .. يرسم خرائط للطرق وكيف تتم متابعة الهدف دون أن يتابع أحد خطاه أو يسير خلفه. المخبر يراقب باب البيت وشبابيكه من بعيد . يختار مكاناً يراهم ولا يرونه. أو مكانا عاما.. محطة أتوبيس، قهوة أو شيئ من ذلك القبيل . المراقبة تبدأ من السابعة صباحا إلا اذا لاحظوا أن المقصود يخرج مبكرا فيبدأون قبله.. ويستمرون حتى يتأكدوا من نومه، ويشاهدوا أضواء الشقة وقد نامت.

عندما يخرج «الهدف» لا يتبعه أحد .. فقط عيونهم تلاحقه، إذا كان طريقه معتاداً يسبقونه إلى كل منحنى.. فهل يمكن ان يسبقك من يراقبك؟ اعتدنا نحن أن الذي يراقبنا يسير خلفنا، هم يأتون من الأجناب، ومن أمام، يمرون سريعا ليتأكدوا من أنك تحت السيطرة،

تتقاذقهم السيارات، وإن تعثرت في المرور كان الموتوسيكل كفيلا بالأمر. وإذا حاولت أن تتأكد من عدم وجود مراقبة، ستلتفت خلفك ولن تجد أحداً . ستمر في شارع ضيق لتتأكد، ولن يلاحقك أحد.. لكن عيناً سترصدك من بعيد بينما يجرى عدد منهم ليسابقك في الشوارع الموازية فما أن تصل إلى نهاية الشارع حتى يمر بك شخص آت من الاتجاه المعاكس أو من شارع آخر .. وهكذا المهم ألا تغيب عن واحدة من عيونهم، دون أن يسير أحد خلفك.

.. تعلمت الكثير وسجلت عشرات الملاحظات والخرائط.. والغريب أننى اكتشفت عندما تعرضت لمراقبه لاحقة أنهم جميعا يتبعون ذات الأساليب. ذات الإيماءات ، ذات الإشارات ، وذات الأخطاء.

*   *   *

وفيما أتيحت لي اكثر من فرصه لتطبيق ما تعلمت تطبيقاً عملياً، ذات يوم - وقد استيقظت قرون الاستشعار بفعل محاضرات صديقي المخبر الذى أرسلوه حارساً، فأصبح مدرساً - شعرت بمراقبة ما. تعلمت الدرس. عندما يشعرون أنك تعرفت عليهم ينسحبون ويرسلون غيرهم. تركتهم يتخيلون أنني مغمض العينين عنهم.

تلاعبت بهم كثيراً وطويلا - قال المخبر، وكان على حق، دورة المراقبة تستمر ١٥ يوما في الأحوال العادية -.. كنت أستيقظ مبكراً ومن فتحة صغيرة في شباك مغلق أتابع حضورهم، وتوزيعهم، ونقاط تمركز السيارات والموتوسيكل.. و مكان وقوف البعض عند محطة الأتوبيس القريبة، وبنظارة مكبرة تعرفت على دقائق ملامحهم، وملابسهم ولون أحذيتهم.. والحقائب الصغيرة التى يحملون فيها أجهزة

التخاطب اللاسلكية، شكل السيارات أرقامها، ماركاتها، علاماتها المميزة، وكل ما هو متاح، ويصبح الأمر سهلا بعد ذلك، فأنت تعرف الوجوه وتعرف كيف ستتصرف، كانوا يأتون تماما من حيث لقنني المخبر..

إنهم يفتقدون موهبة التجديد، وربما ليس مسموحاً لهم بمثل هذا التجديد. تعلمت وتدربت بما يكفي، وتلاعبت بهم كما أردت، سحبتهم خلفي إلى السينما والأوبرا والمسرح .. وإلى رياضات مشي لا تنتهي (كنت أمشي يومياً من بيتي في المنيل حتى مكتبي في الأهرام).. وأخيرا أكملت الفصل الأول من اللعبة. كان العقيد ماجد الجمال يحاول، ويحاول، ويلح في أن يتقرب مني وأنا أصده، وكان هذا الصد طبيعياً وضرورياً لكنني قررت أن أمتع نفسي أكثر. دعوته على فنجال شاي في الهيلتون، أتى متهللا، هم أتوا خلفي لاحظت أن واحدة من السيارات تقف عند حافة الكورنيش المواجهة للفندق.. والأخرى عند مدخل الفندق من ميدان التحرير .. أنا محاصر إذن فلأحاصرهم بالدهشة، بعد فترة لاحظوا أنني سلمت على شخص ينتظرني بلهفة، اقترب أحدهم، صعق، فأنا جالس مع رئيسه نتضاحك ونشرب الشاي في مودة، لاحظت الدهشه تتفجر من قسمات وجه هذا المخبر، ولاحظت نظرات تدوي بالحيرة تنفلت منه بينما تجاوبها نظرات مبتسمة من السيد العقيد.

وذات مرة أدخلتهم في تجربة شديدة الصعوبة، دخلت مطعما فاخراً في فندق غالي الثمن.. دخل «الضابط» صحبة أكثر المخبرين أناقة، لعلهم توقعوا أنني سأقابل أحداً فحاولوا التعرف عليه. جلسا.. أتى الجرسون، طلبا كوكاكولا.. اعتذر الجرسون .. هنا غذاء فقط (من

سيدفع ثمن هذا الغذاء الغالي الثمن جدا؟). خرجا وأنا أتشاغل عنهما.. لكنني عندما خرجت وجدتهما مرابطان بجوار الباب.

وأخيرا، وبعد أن اكتفيت طلبت موعداً لأمر هام مع السيد اللواء مدير أمن الدولة، رتب ماجد الجمال اللقاء متوقعاً مزيداً من التقارب، لكنني جلست وأخرجت من جيبي أوراقاً بدأت أتلو منها أشكال وملابس وماركات سيارات وأرقامها (كان بعضها ملاكي البحيرة وبعض آخر ملاكي بني سويف) ومواعيد حضور المكلفين بمراقبتي، ومواعيد انصرافهم .. وتصرفاتهم وإشاراتهم المتبادلة. وأشكال الحقائب الصغيرة التي قلت إنهم يكلمونها ويستمعون إليها ثم أنهم يحتفظون وبحرص شديد بفاتورة ما يدفعونه من ثمن المشروبات .. حتى يحاسبوا «الحكومه» عليها.. تلوت حصيلة مراقبة دقيقة لهم إذ كانوا يراقبونني، وتساءلت فيم كل هذا الاهتمام بي؟ وطالبت ببعض صور لاحظت أنهم التقطوها بكاميرا صغيرة مثبتة داخل حقيبة سامسونايت وضعها المخبر أمامه وهويشرب الشاي في جروبي، لكن أصابعه ظلت تعبث بشيئ ما، اقتربت منه متجها إلى التواليت فلمحت بريقاً صغيراً ينعكس من ضوء يلتقي مع ثقب صغير في الحقيبة، إنها فيما أعتقد عدسة.. فأين صوري؟ وأبديت دهشتي من أنهم لا ينفذون التعليمات، فلا يستخدمون الملابس المكومة في السيارات، ولا يغيرون لوحات أرقام السيارات، ويتركون في السيارات علامات مميزة.. ثم هاهم يواصلون مراقبتي.. إنهم مرابطون الآن خارج مبنى لاظوغلي في سيارة بيجو بيضاء رقم كذا.. وباختصار لقنتهم درساً قاسياً، كان اللواء يحاول عبثا ضبط إيقاعه الصامت ، فكه الأسفل انحدر إلى مزيد ومزيد من أسفل وعيناه

لا تفارقان ماجد الجمّال الذي تبدى مرتبكاً رغم أن مسئولية المراقبات ليست ضمن حدوده.. وبعد أن انتهيت ، غادرتهم . وبالطبع ذهب المحاصرون. وتوقف الحصار. وأعتقد أنه لم يعد بعدها.

شهر عسل قصير جداً

وماج الدور التاسع في مقر الاتحاد الاشتراكي بشذى العشق،تمددنا من مكاتب محاصرة للمجلس المصري للسلام لنحتوي الدور التاسع بأكمله، في أقصاه النهائي ضجيج متواصل للجناح الشبابي، وصخب أقل قليلا للجنتنا في سيناء. كانت محتلة، وكانوا مهجّرين، وتجمعوا، بأعداد ربما مبالغ فيها، عندنا..

وتبدى الأمر سهلا، فنحن « منبر » داخل الاتحاد .. ومقرّاتنا تمددت عبر مقرّاته حيثما وجدت وحيثما وجدنا ،وهي توجد طبعا في كل مكان.. ونحن في أماكن كثيرة، أكثر بكثير من كل أحلامنا. ولنا أن نطبع أوراقنا في مطبعة الاتحاد، ولهم طبعا عيون تتابع ما نطبع، ولنا شبكة اتصال بكل تجمعاتنا.. عبر شبكة مبرقات [تيلكس] الاتحاد.. ولهم كذلك حق الاطلاع، وتبدى الأمر سهلا، ومريحا ومستريحا.

الألوف أتت إلينا. بغير حصر فعلا. وصلنا لأرقام مذهلة: حوالي ١٨٠ ألفا.

لكن الفارق كبير بين الأرقام والواقع الواقعي. ومع ذلك كان الواقع مترامي الأطراف، وكأن رداءً يساريا قد نجح في أن يكسو مساحات غير

متوقعة من الوطن .. أثار الأمر حماسنا المبتهج، وتبدى لنا كحلم، رقيق وجميل، لكنه - ويا للدهشة - يتحقق.

لكن البعض ممن أتوا لم يكونوا يدركون قواعد اللعبة، وحتى نحن ربما لم ندركها بالقدر الكافي، كان «التعايش السلمي» في هذا المبنى الهائل يقوم على قاعدة خفية أدركناها فيما بعد، وإن كنا توقعنا طرفاً منها في البداية.

« الخيط والعصفور». السادات أطلقنا كعصفور ساقه مربوطة بخيط، أتاح لنا حرية الانطلاق وساقنا مشدودة إلى خيط مشدود في يده. لم نكن حمقى. وكنا نعرف ذلك جيدا، لكننا راهنا - ونجحنا في رهاننا- على أن الطائر إذ يحلق سيكتسب قدرات وطاقات وخبرات ومناعة تزيد كثيراً جداً عما يراهن عليه هذا الممسك بالخيط في يده. كان الطيران المحلق - وإن كان محدوداً ومحدداً - ممتعاً وحافزا على المزيد من التحليق، والتحدي.

لكن البعض ممن أتوا إلينا كانوا يتصورون الأمر بصورة أخرى.. كانوا يتوهمون أننا سنكون مجرد لافتة يزين بها النظام نفسه . أتوا دون أن يستشعروا أي احتمال لأي اختلاف أو خلاف مع «الاتحاد الاشتراكي»: ألسنا جميعا في إطاره؟.

أذكر، ونحن في بداية البدايات أن اثنين من القيادات في الاتحاد الاشتراكي.. أتيا ليعرضا انضمامهما لمنبر اليسار، أحدهما أصبح الآن ركنا مهما من أركان الحزب الحاكم، والثاني كان عم محمد عبد السلام -عضو اللجنة المركزية للاتحاد، ورئيس نقابة العاملين بالمصانع الحربية- ربما أحسا أن مكانهما في منبر الوسط لن يكون كما يطمحان اليه،

فأتيا إلينا. منذ البداية أدركت صعوبة الملتقى . قلت بصراحة : ضعا في اعتباركما أننا سنعارض ، وسنعترض ، وقد .. نتصادم. عم محمد عبد السلام بصراحته المحمودة صاحِ في زميله. «تعالى ياعم ، إحنا كنا حنركب غلط».وآخرون بقوا معنا على حرف. ما أن يطل التصادم، أو احتمالاته حتى ينسحبوا من «أرقام» العضوية، البعض في ضجيج مفتعل، كي يبرئ نفسه أمام النظام، والآخر في هدوء من لا يريد أن يراه أحد وهو يفعل، وكأنه يريد أن يخفي أنه أتى نحونا أصلا، أو ربما لأنه رغم خوفه يريد أن ينسحب دون رغبة في إيذائنا.

لكن هذه العلاقة المثيرة للدهشة بين أرقام العضوية والتصادمات ظلت وثيقة . ورغم أن البعض من اليساريين يظل حتى الآن على قوله بأن التشدد يأتي بمساحات عضوية واسعة، فإن التجارب العملية المتتالية منذ الزمان القديم وحتى الآن، وعبر مختلف المسارات قد أكدت العكس.

ليس لأن «الجماهير» غير ثورية، وإنما لأن الطاقات، والممكنات .. متفاوتة ، واعتدنا دوما أن حالات الصراع الحاد تستبقي معنا فقط الكوادر الأكثر صلابة، والأصلب عوداً.. وهؤلاء بالطبع أقل من «عموم» أهل اليسار،أو المتأهلين أن يكونوا كذلك.

وهكذا كان الامر دوماً.

* * *

ونعود إلى شهر العسل القصير..

ولم يكن شهراً، ولا حتى أسبوعاً.

فما ان بدأ المنبر بدايات تنفسه، حتى عاجلنا موسى صبري بمقال

افتتاحي في مجلة آخر ساعة.. يتحدث فيه عن سيطرة الماركسيين على منبر اليسار، ووضع صورتي واسمي على رأس المسيطرين. هذا الماكر وضع الملح في الجرح مرتين. دس الملح في جرح الرؤية التجمعية التي يتوجس أطرافها من سيطرة الماركسيين، ثم دسه أيضا في جرح الإنتماءات الماركسية وخلافاتها التاريخية.

أفزعني المقال، وأفزع آخرين. ضحك موسى على طرف الحديث التليفوني، قال : هذه قواعد اللعبة، ولابد من تسخين الحياة السياسية كي تنضج على نار الهجوم والهجوم المضاد.

قلت: أي هجوم مضاد ؟ أنت تقول ، فكيف نرد عليك؟ ضحك مرة وقال: استحمل. لكن موسى صبري اعتبرها معركته، ربما لسبب فكريّ قابع في أعماقه، وإن كان قد أكد لي في ساعة صفاء أنه فعلها بإيعاز من السادات.

تواصلت هجمات صحف أخبار اليوم علينا. وكان المايسترو هو موسى صبري.. ثم ألقى هو أيضا بقنبلة صوتية عالية الضجيج. أمسك بعبارة في برنامجنا - الذي قلت أنه أقر دون أن يتمعن فيه أحد، أو حتى دون أن يقرأه أحد ممن أقروه - العبارة تتحدث عن تمسكنا بحق الإضراب.

نفخ موسى صبري في بالون هذه العبارة.. وتحدث عن الخطر «الأحمر» الذي يهدد الاقتصاد القومي، وتساءل .. إذا لم يكن مسموحاً في الاتحاد السوفيتي بالإضراب، فلم تطالبون به هنا ؟ .. وتحدث طويلا.. طويلا حول مخاطر الإضراب، وكأن الطبقة العاملة قد شلت بالفعل، وبسببنا ، أعصاب الإنتاج المصري.. وفجأة امتلك النظام «عيونا حمراء» وأظافر حادة.

وفي اتصال بين السادات وخالد محيي الدين،طُلب إلينا رسميا شطب هذه العبارة من البرنامج.

وأعتقد أن الأمر كان محاولة للتطويع. أو جس النبض، أو التعرف على حقيقة هذا الطائر الذي حلق بحرية أكثر من اللازم، وتطلع أكثر من اللازم، وصدق التعددية أكثر من اللازم.. وبدأت محاولة سحب الخيط.

.. ليسحب الطائر خطوة إلى الوراء.

ورفضنا . عقدنا اجتماعات للسكرتارية العامة.. أذكر أن بعض الحاضرين كانت ترتسم عليه علامات دهشة، وعلامات خوف.. فكيف سنرفض؟ وماذا لو غضب؟ وإلى أي مدى سيكون الغضب؟

المهم رفضنا ، بهدوء، وتركها السادات إلى حين .. ولعله فقط أراد أن يتعرف على حقيقة العلاقة..

وعرف.

لكن موسى صبري تواصل مع رسالته التي كرس نفسه لها: الهجوم علينا.

ولعل ذلك قد أفادنا عند البعض.

بعضُ هؤلاء الذين تصوروا - من أهل اليسار أو من قوى وطنية أخرى - أننا مجرد سكان في «حرملك» النظام. فوجدوا الهجوم المتشدد من كاتب لم يكن جماهيريا في هذه الصفوف كدليل على حسن سيرنا وسلوكنا.. وبعضهم أتى . لكن الكثيرين كانوا يذهبون مع تواصل الهجوم.

* * *

وكان لطفي الخولي قد اقترح فكرة نيرة. أن نشكل «لجنة للمتابعة»

تعقد اجتماعات شبه يومية لتتابع العمل فيما بين فترات اجتماع السكرتارية العامة.

وتشكلت فيما يبدو بالأمر الواقع.. فخالد وأنا مقيمان دوما في المقر بحكم إقامتنا القديمة في ذات المكان [وكان هيكل قد منحني على غير المعتاد في الأهرام تفرغاً لنصف الوقت للعمل في مجلس السلام] وكان هناك المترددون المستديمون، وبشكل شبه يومي د. خلف الله، ومحمود المراغي، و وكذلك لطفي. ومن هؤلاء تشكلت لجنة المتابعة. وكنا نجلس معا تقريبا كل يوم في غرفة خالد محيي الدين.

كان الصراع في لبنان ملتهباً، وأتى لطفي الخولي ملتهباً. وكتب صيغة بيان تضامني. نادى فيه بالتطوع للدفاع عن لبنان. قرأنا البيان بتعجل غير مدرب، ومن ثم غير مدرك للتداعيات، وكتب على الآله الكاتبة، وأرسل فطبع في مطابع الاتحاد بذات المبنى.

لكن العيون المفتوحة دوما كانت تقرأ .. ولعل تسهيلات الطباعة المركزية والمبرقات المركزية كانت تستهدف منح هذه العيون فرصة التلصص.

وأتانا في ذات اليوم خطاب من د. مصطفى خليل الأمين العام للاتحاد الاشتراكي .. ينبهنا بشدة إلى أنه من غير المسموح للمنابر أن تقوم بتشكيل « ميلشيات مسلحة». هكذا ترجمت كلمة «تطوع» التي مرت أمام أعيننا غير المحاذرة في براءة، إلى كلمة كبيرة تحمل في طياتها ما يهدد الطائر والخيط وكامل التجربة.

وجلسنا في اليوم التالي لنناقش الأمر. طلبنا إلى محمود المراغي أن يعد رسالة توضح وجهة نظرنا، وتفرق بين الدعوة للتطوع، والعمل على تشكيل « ميلشيات مسلحة».

وكتب محمود بتعجل الصحفي المدرب على الكتابة السريعة، وقرأنا بتعجل السياسيين غير المدربين على التعامل المعقد مع أجهزة متربصة .. وذهبت الرسالة لتفجر أزمة جديدة،وكبيرة.

عبارة أتت في الرسالة « كما أننا نلفت نظركم إلى أن.. » العبارة مرت أمامنا بريئة هي الأخرى، لكن البعض كان مستفزاً، ولم يكن بحاجة الى مزيد من الاستفزاز . فجاءت رسالة غاضبة وكأنها إنذار عسكري حاسم.

أنتم توجهون للأمين العام للاتحاد « لفت نظر » ولفت النظر عقوبة. وهذا أمر غير مسموح به، ويجب أن تقدموا اعتذاراً كتابياً.

وتلقينا درساً لاينسى. أن تكون الكتابة متأنية. قد تفلت أقوال غير متأنية في الاجتماعات أو اللقاءات، لكن الكتابة يجب أن تكتسي بدقة.. شديدة الدقة.

وبقدر من المرونة. ولأن د. مصطفى خليل لم يكن تصادمياً بطبعه، ولأنه وبرغم صعوبة المرتقى كان يتعامل معنا بترفق.. أمكننا تجاوز المأزق.

* * *

ويواصل الطائر المشدود الى الخيط تحليقه. يمضي في إصرار محسوب حساباً دقيقاً. يتحدى في توازن لا يُفقد توازنات القوى توازنها. يرفض، يعارض ، يحتج، يحتد في كيمياء حاولنا أن نتقن فن التعامل في إطارها، تعطينا مساحات معارضة تتسع بحساب دقيق دون أن يفقد الطرف الآخر توازنه.

إنها حسابات دقيقة تتم يوما بيوم، ولحظة بلحظة، ليست مكتوبة في كتاب، بل هي لا تكتب ولن تكتب، إنها إحساس يحتويك،

يقتادك، يفسح أمامك ضوءاً أخضر، ثم فجأة وفيما تنطلق، يضيء الأصفر، ثم الأحمر.

قلت إنها كيمياء غير مرئية، تدربك على السير فوق الحبال الممتدة، وغير الممهدة.

ثم إنها تشبه عملية «التطعيم» ضد الأمراض. كنا نحاول، ولم نزل، أن « نطعم» الحاكم والمحكومين. نطعم الحاكم بما يعطيه تدريجياً قابلية قبول المعارضة والاختلاف في الرأي، وإن لم يقبل هذه القابلية، نعطيه القدرة على حسابات أكثر حنانا لردود أفعاله .. ونطعم المحكومين بالمزيد من القدرة على تقبل معارضتنا والتفاعل معها . إنها تجربة مثيرة للدهشة. لأنها تولدت دون قرار مسبق، وإنما بإحساس من يريد للتجربة أن تنجح وأن تبقى.

تنجح في أن تكون أداة صراع سياسي يساري قادر وفاعل ومؤثر وجماهيري.. وأن تبقى في ظل ما هو متاح.

أن تعمل في إطار ما هو متاح وأن تتمرد عليه .. أقول تتمرد عليه ولا أقول ترفضه.

مدركين أن ما يتحقق تاريخيا، لا يمكن أن يتغير إلا تاريخيا . وهكذا حاولنا ونحاول أن نمسح عن وجه مصر وسياسييها من مختلف التوجهات، حكاما ومحكومين مسحة الرفض للآخر، والاعتراض المتشدد على المعارضة ..وأن نكتسب وفي كل يوم مساحات جديدة .. للديمقراطية، وحق الاختلاف.

ويختفي شهر العسل

.. وبرغم إتقان فنون كيمياء التعامل المعقد مع الحكم، تكون تصادمات غير محسوبة، لأنها وقفت بنا عند حدود المبدأ، وما كان لنا أن نتخلف، أو نتراجع، أو حتى أن نراجع حساباتنا إزاء ما هو بالنسبة لنا مبدئي.

وبرغم هذه المشاحنات الأولية التى تبدو وكأنها مماحكات بالنسبة للتصادمات الحادة والجادة، والتي استخدم فيها النظام كامل أنيابه ومخالبه.. إعلاماً ومطاردات واضطهاداً، وسجون ومحاكمات، استمرت الحاجة المتجددة لإتقان فنون كيمياء التعامل.

أحيانا يلخصها خالد محيي الدين في ضرورة اختيار كلمات تفي بالمقصود دون تشدد، بينما كان البعض يعتبر أن الثورية لا تكمن فقط في الموقف، وإنما في الكلمات التي تصف الموقف.

وأحيانا كان يعلمنا .. « افتح جرحا في جسد الخصم دون أن تسيل دما » لكن البعض كان يعتبر ذلك إمساكا بالعصا من منتصفها، وأنه موقف غير ثوري وغير مبدئي: فلابد من إدماء الخصم كي يصبح خصما وتكون أنت خصماً له.

المهم مضى بنا الركب..

وكانت أيام يناير ١٩٧٧ نقطة فاصلة. لعل السادات قد أدرك أن الطائر قد قطع ما يصله بالخيط، وحلق كما يشاء. وأنه امتلك قدراً من الحيوية والتفاعل لم يكن مسموحاً به. ثم كان الانفجار المدوي المسمى بانتفاضة يناير.

ملايين الناس خرجت للشارع تهتف فيما هو غير مسبوق من علاقة بين الناس والسلطة. وكان ما كان.. وعرف «التجمع» مفردات جديدة في قاموسه: السجن، الاعتقال، الفصل من العمل. النقل التعسفي إلى أماكن نائية .. باختصار: عرف مذاق الاضطهاد .. وشرب كأسه المريرة، ومعها كانت كأس أشد مرارة، دارت ماكينة الإعلام الساداتي لتسمم المناخ حولنا، وكالعادة تفوق موسى صبري على غيره من الصحفيين في الهجوم علينا. وامتلأت صفحات «الأخبار» بهجمات متشددة ضدنا، وضد «انتفاضة الحرامية».

وفيما كنت أنا في السجن، وفي سجون أخرى، احتشد مئات من أعضاء الحزب.. كانت الاستقالات تتوالى، ومعها أيضا انسحابات صامتة. وأفردت « الأخبار » على مدى أيام عدة صفحات عدة تنشر أسماء المستقيلين، كثير منها كان صحيحاً، لكن عدداً ليس بالقليل لم يكن صحيحاً.. أسماء وهمية واستقالات غير حقيقية.

دارت الطاحونة بكامل قواها لتطحن الوليد اليساري الذي امتلك من العمر تسعة أشهر فقط.. نعم تسعة أشهر لعلها كانت رمزاً موحياً، رمزا لولادة جديدة لليسار، ولادة عسرة، صعبة ، قيصرية، وأكثر من قيصرية ، لكنها منحتنا ميلاداً جديدا، بينما كان الطرف الآخر يحاول إجراء عملية إجهاض.

انفصل الطائر عن الخيط ، تمرد ، حلق عاليا وارتفع تغريده الممتع والقاسي محلقا في آفاق الوطن . قال ما يجب ، كثيراً مما يجب، وبرغم محاذرتنا الحذرة قال في بعض الأحيان أكثر مما يجب . ودفع الثمن ، وتعود وعوَّد أعضاءه على دفع الثمن، كل الثمن، بل ما هو أكثر من الثمن.

* * *

ثم كانت زيارة السادات للقدس.

ضغطوا علينا ضغطاً مضاعفاً . رغب السادات أن يصحبه خالد محيي الدين. ورفض خالد. فطلبوا أن يسافر أحد أعضائنا في البرلمان (كانوا أربعة) ورفضنا. فوجئنا بواحد منهم يقرر السفر (علي جميل من الفيوم، وقيل أن يوسف والي ضغط عليه ووعده وتوعده حتى قبل).. وفصلناه . واعتبر السادات ذلك تحديا. كان الموقف حاسماً.. وصعباً. والبعض من زملائنا استشعر أننا نسبح ضد التيار، تحدث عن الجماهير التي أيدت الرحلة، وعن ضرورة التزامنا برأي الجماهير، وإذا كانت الناس مع الحكومة.. فمع من نكون نحن؟

لكننا صممنا أن نتحدى الحكم، وأن نتحدى تأثيره الطاغي على الجماهير معاً. لكن أغرب أشكال الضغوط أتت من اثنين من قاده المنظمات الشيوعية السابقة: محمد شطا [حدتو] ، أحمد صادق سعد (طليعه العمال). وكان الأول من أهم كوادرنا في المنوفية، والآخر كان كذلك كادراً هاما في الجيزة. الاثنان، وبرغم اختلافهما الأبدي الامتداد، كانا مع الزيارة. ألسنا دعاة سلام؟ وكانت كلمات السادات منسقة ومنمقة بحيث يمكن الاستناد اليها إن أردت.

موقفهما قوبل باستهجان جامح دفعهما هما الاثنين الى مغادرة الحزب.

*   *   *

في هذه الاثناء أخلي مبنى الاتحاد الاشتراكي. كان الإخلاء انفتاحيا وذا علاقة بعلاقة السادات بالشيخ السعودي كمال أدهم. وبدأت عملية توزيع مقرات الاتحاد الاشتراكي علينا.. استحوذ حزب مصر الحاكم على الغالبية من المقرات والإمكانات، وتقرر أن ننتقل الى مقرنا الجديد [١ كريم الدولة - طلعت حرب]. وقصة حصولنا على هذا المقر تستحق أن تروى لأنها كاشفة لنوعية العلاقات المتشابكة، والمعقدة، وأساليب التعامل معها. كان المسؤول عن توزيع تركة الاتحاد الاشتراكي سيد زكي وكان من الضباط الأحرار، وكان يكن محبة يعرف جيداً كيف يخفيها لخالد محيي الدين. استدعاني الى مكتبه .. أخذني الى خارج الغرفة بحجة توصيلي الى الأسانسير في الطريق همس في أذني سأعطيكم هدية.. مقر رائع في ميدان طلعت حرب . قلت: متشكر

قال: عندي شرط. وسألت: ما هو؟ قال: أن ترفض، وأن تحتج، وأن يكون احتجاجك بأعلى صوت. حتى لا يتصور أحد أنني أجاملكم، فأضيع.

وقد كان، أعطانا المقر. ورفضت، وصرخت، وقدمت احتجاجاً مكتوباً، د.مصطفى خليل استدعاه، رفض سيد زكي التراجع قائلا: هم أعداء للمسيرة ولا يستحقون أكثر من ذلك. وحصلنا على أفضل مقر ممكن، لكن استقلالنا بالمقر كان يعني معاناة جديدة.. لم نكن ندرك أبعادها بعد: حصار المقر، الحاجة إلى طبع أوراق ، اقتحام الأمن للمقر، والاستيلاء على محتوياته.. تدمير كل مابه من أدوات .. مصادرة كل شئ فيه.

ومع تصاعد المعارضة لكامب ديفيد، يتصاعد الهجوم علينا. يصل الى آفاق لم تكن محسوبة من جانبنا عند بداية الموقف، لكن كرة الثلج تدحرجت بنا وبالحكم لتخلق حالة من التصادم الشديد، اقتاد المئات من زملائنا الى السجن، وصادر جريدة الاهالي بمتواليات مصممة على إسكاتها، ثم أسكتت، وجرى اقتحام متكرر للمقر.. نعود في الصباح فنجد كل شيئ مدمراً .. والأمن قد استولى على كل ما نمتلك من أدوات كتابة وطباعة وأوراق وأرشيف وأموال.. وكل شيئ.

وقررنا ألا نترك المقر وحيداً أمام التتار، وتطوعت مجموعة من الزملاء بالمبيت دوماً في المقر ليضبطوا ولو بأقل قدر إيقاع التدمير الأمني للمقر: محمود حامد - أحمد سيد حسن - سليمان شفيق - حامد العويضي.. أقاموا في المقر إقامة دائمة.. ولقوا في ذلك عنتاً شديداً، لكنهم قاموا بدور هام، لا ينسى.

وكانت الأهالي قد أوقفت، وأحللنا محلها نشرة أسميناها «التقدم» كنا نطبع منها داخل المقر خمسة آلاف نسخة وأحيانا أكثر، وكنا نرهق المطبعة والعاملين عليها بفيض من النشرات والبيانات لا يتوقف، وكان ذلك كله يزعج الأمن، لأنه يزعج السلطة.. خاصة مع تصاعد حملات العداء ضد كامب ديفيد على الصعيد العربي والتي اتخذت وعلى الدوام من أدبيات حزب التجمع - الوحيد في مصر الذي عارض كامب ديفيد - مادة للهجوم على السادات ولتمجيد دورنا، والدفاع عنا، وعن سجنائنا بصورة مبالغ فيها.. وكانت بالطبع تثير حفيظة الرئيس ورجاله.

وكان المقر المشتقر في أنبوب مفتوح من طرف واحد ينعطف على

بعد أمتار من ميدان طلعت حرب سهل الحصار، وسهل المراقبة.. فقط يقف رجل أمن على فوهة الأنبوب فيمنع كل شيئ، أو هكذا كانوا يتصورون. لكننا كنا وعلى الدوام نستطيع الإفلات بأوراقنا.. ثمة طرق عديدة ابتكرناها.. منها مثلا أن يودع أحد الزملاء سيارته في الجراج المقيم في نهاية الأنبوب المغلق.. وعبر الأمسيات كانت الأوراق تتسلل بكميات محدودة ومتكررة إلى السيارة التي سرعان ما يأتي صاحبها ليفلت بها قبل الصباح. كذلك، كانت في أعلى المقر - ولم تزل - دار للحضانة، دأبت سيدات من زوجات الزملاء على إحضار أطفالهن اليها.. والأوراق تصعد لأعلى لتخرج في حقائب النساء ولفافات الأطفال..

وعلى أية حال لم يحدث أن فشلنا في تسريب أوراقنا، الأمر الذي كان يؤرق الامن، ويدفعه إلى اقتحامات متكررة للمقر ليصادر المطبوعات وحتى الأوراق البيضاء - أليست أدوات للجريمة؟ - وآلات الكتابة وآلات الطباعة.. وكنا قد استمرأنا لعبة التناطح المتشدد مع النظام، فلم نتوقف، نشتري آلات كاتبة جديدة وآلات طباعة جديدة.

ذات يوم فكر أحد المحامين - عبد الله الزغبي - في حيلة تصور أنها ماكرة .. أن يشترى زميل آلة طباعة باسمه ، ثم يؤجرها للحزب. فإن صودرت أمكن لصاحبها أن يستردها باعتباره مالكا لها، وغير مسئول عما فعل بها المستأجر.

قانونيا تبدى الأمر مغرياً.. واشترى محمد الجندي آلة الطباعة ونقلت الى المقر، وفي ذات الليلة أتى الأمن فاقتحم المقر وصادر الماكينة.. وقبض على محمد الجندي.

وفي البداية كنا نحضر في الصباح لنجد كل شئ ممزقاً، والأبواب مدمرة.. وكأن زلزالا وقع، فقامت كتيبة بالمبيت بالمقر. ولفتوا نظر الأمن الى القانون الذى ينص على عدم تفتيش مقرات الأحزاب إلا صحبة رئيس نيابة. وفي المرة التالية حضر معهم رئيس نيابة. فكان الدمار أقل لكنه ظل قائما.

وذات يوم دخلت في الصباح لأجد أكواما من ركام الأثاث وأكواما من الأوراق المتناثرة تغمر صالة المقر. تأملت المنظر، واقترحت على محمود حامد أن ننظف المقر.. كان الوقت مبكراً، وكان عمال النظافة بالمقر يأتون خائفين من فرط الضغط عليهم من الأمن كي يتعاونوا معه لينقلوا اليه أخبارنا وأوراقنا .. وكثيرا ما كانوا يتخلفون عن الحضور في أكثر الأيام صعوبة. المهم انهمك محمود حامد في تجميع ما تناثر من ركام، وأمسكت أنا بمكنسه لأكنس ما تراكم من أوراق.

كان ظهري إلى الباب وأنا منهمك في الكنس بكفاءة لم أكن أتصورها، سمعت صوتا ينادينى « انت يا ولد » التفت، وجدت أمامي رئيس نيابة أمن الدولة يوسف دراز - كان رجلا سمحا ومهذبا وقد أتى ليستكمل محضر المعاينة. فوجئ برؤيتي وأنا أكنس ، ارتسمت على وجهه كل علامات الدهشة، وما هو أكثر من الدهشة، سألني في خجل : بتعمل إيه يا دكتور؟ قلت : أنظف المقر من آثار التتار. تجاوز على لفظ « التتار». وقال : كيف تسمح لك كرامتك بذلك؟ قلت ببساطة: كرامتي أن يكون مقر الحزب نظيفا.

تحولت الدهشة إلى إعجاب . وأدرك يوسف دراز أننا صنف آخر، وتعامل معي ومعنا دوما باحترام كامل..

* * *

وفي ليلة معتمة بظلال حملات القبض الهمجية في سبتمبر ١٩٨١.. أتت طرقات حانية على باب منزلي فيما يقترب الليل من نهايته. الطرقات الحانية جعلتني أتردد.. هل هو الأمن؟ لكن طرقاتهم لا تمتلك هذا الحنان. على أية حال فتحت مسرعاً .. وكان محمود حامد مكفهر الوجه، متعباً إلى حد الارهاق.

كالعادة.. اقتحموا المقر، صادروا كل شيئ.. أغلقوه بالشمع الأحمر. هو لم يكن معه نقود أتى ماشيا من المقر حتى بيتى في المنيل. كنت أغلي غيظا خاصة عندما علمت أنهم وضعوا الشمع الأحمر على المقر..

وكنت، تحسبا للطوارئ، أحتفظ في بيتي بأوراق من التي تحمل شارة التجمع واسمه. أجلست حامد، وفيما ليلى تعد له شاياً كتبت بياناً من عدة أسطر تغلي لهجته بكلمات حادة. هذه المرة سيركب تاكسياً، حمل الأوراق ومعها نص البيان ، وذهب الى منزل شحاته هارون، أيقظه . أخذه الرجل الى مكتبه وكتب البيان على الآلة الكاتبة مستخدما الكربون ليكتب في كل مرة عدة نسخ، وبعد أن أعد نسخا كافية حملها محمود حامد ليوزعها في صناديق بريد أو تحت أبواب وكالات الأنباء الأجنبية.

وعندما أتوا في الصبح وجدوا أوراقنا.

هاج مسؤولون كبار في الأمن . اتهموا رجالهم بالتقصير، كيف، وأين، ومتى كتبت هذه الأوراق؟

في الصباح اتصلت بماجد الجمال لأطلب فتح المقر، كان يغلي غضباً. اشترط لكي يأمر بفتح المقر أن أذهب إليه، ذهبت. سألني

متوسلا: من فعل هذا ؟ كانت معه نسخه من البيان، فقد كان لهم رجال في مكاتب وكالات الأنباء .. قلت مبتسما: لا أعرف . قال سأفتح لكم المقر الآن .. لكن أرجوكم ألا تكرروها فهذا أمر محرج للجهاز ككل.

وفي مساء ذات اليوم أتوا، قلبوا البيت رأساً على عقب ...كانوا يفتشون وأنا صامت، أعرف عن ماذا يبحثون، وأعرف أنهم لن يجدوه هنا.

وفيما هم منهمكون دق التليفون. كان خالد محيي الدين يقول مندهشا إنهم أيضا يفتشون منزله، سألتهم المدام في حدة عن ماذا يبحثون؟ قالوا: عن آلة كاتبة.. ولم يجدوها، وكذلك فعلوا في بيت أبو سيف يوسف.

لكنها كانت المرة الأولى التى يأتون فيها إلى بيتي .. ويخرجون فيها دون أن يصطحبوني معهم.

السادات .. ونحن

.. ولعل الجميع - ونحن في مقدمتهم - تتبدى حيرتهم عند محاولة الحديث موضوعيا عن السادات. ربما من فرط تعقيد هذه الشخصية، وربما من فرط بساطتها وعفويتها، وربما -وهذا هو الأرجح - من فرط بساطتها المعقدة.

شخصية ذات مفردات بسيطة لكنها مدمجة مع دهاء عفوي وبدائي يمنحها تعقيداً تستعصي رموزه على الحل. فهو يهوى تحليل المسائل إلى عوامل أولية بحيث لا تستعصي على الفهم، وهو يتخطى التفاصيل، بينما يحاول إغراق الآخرين فيها.

و ببساطة شديدة أعتقد أنه تأثر أكثر ما تأثر بشخصية عمدة من عمد قرانا في الثلاثينيات، عمدة يعرف كيف يفهم الأمور على هواه، ويطوعها وفق هواه، ويتبدى بسيطا ومعقداً، هادئا وعنيفاً، طيبا وشريراً، وفق مقتضيات الحال، ويدير أموره وأمور قريته بقرارات قد تتبدى متسرعة لكنها ربما - أقول ربما- تأتي عبر تفكير طويل.

وهو يحب نفسه، ولا يحب أن يرهقها، يعمل بقدر، ويستمتع بما أتاحته له الحياة على المدى الأوسع من المتعة. لكن إدارة قرية غير إدارة مصر. ومع ذلك فعلها.

الكل يعرف كيف كانت علاقته بعبد الناصر. لم يكن الأقرب ولا الأقدر، لكنه كان الأكثر امتثالا، ولعل عبد الناصر كان يعرف أنه إزاء من يمثل الامتثال، لكنه - وفي نهاية الأمر- لم يجد غيره، ربما لأن السادات كان الأكثر صبراً، والأطول بالاً، أو إن شئنا سوء التعبير: الأكثر خضوعاً ... أبقى نفسه، بنفس طويل، محاولا أن يبدو أمام كل المتصارعين وكأنه مع الجميع، وأنه غير راغب فى شيئ. ونال كل شيئ.

وبهذه الشخصية المتساذجة والماكرة في آن أفلت من كل مطبات الخلاف، ومغريات الاختلاف، وبقي فى ظل الزعيم، وكظل له حتى أتى رئيسا.

ولقد يجد البعض اختلافا كبيراً جداً بين عبد الناصر والسادات، ويحتارون إذ يأتى الزعيم بالنقيض وارثا له. لكن هل كان السادات نقيضاً؟ أم كان النيجاتيف بالنسبة للصورة تتبدى نقيضا في الظاهر؟.. هذا السؤال المحير يحتاج الى كتب ممتدة الإسهاب كي تفك طلاسمه.

* * *

والسادات بالنسبة للبعض مجرد صورة باهتة - وكأن مصر يمكن أن تدار بصورة باهتة- وهو بالنسبة للبعض مرتكب للمعاصي، لكنه بالنسبه للبعض رجل التعددية- وهذه لابد أن تحسب له - فهو ذلك الرجل الذي يتحدى السائد والمألوف ويخترق حصار الحزب الواحد.. ويفتح ثغرة في جدار مصمت وجرانيتي التكوين، صحيح هي تعددية منقوصة، مهتزة، تعددية الطائر والخيط .. و لكن:

لا يعرف الشوق إلا من يكابده

ولا الصبابة إلا من يعانيها.

فالتعددية حتى في أبسط صورها، أو أكثرها بدائية، يمكنها - وقد حدث فعلا - أن تستدرج بعضها البعض ليتوالد منها كيانات تعتاد على التعدد، وعلى عدم التفرد أو السماح بالتفرد. ولست أشك في أن السادات كان يعرف ذلك منذ البداية، وإن كنت أعتقد أن محاولاته اللاحقة لافتراس التعددية أو المتعددين كانت مصحوبة بحالة من «ألتشدد» المبالغ فيه، لعل مبعثه محبته لنفسه وإعجابه بها وبما تفعل، الأمر الذي يجعل من معارضته أمرا مثيراً لدهشته وغيظه فى آن واحد.

لكنه هو الذي فعلها ولا يمكن للتاريخ، إذ يحاول أن يسطر صفحات هذه الفترة، إلا أن يحكي أن الأحادية - بكل سلبياتها - كانت سمة لعصر، وأن من وضع نقطة الانتهاء في نهاية سطر أحادية العمل السياسي .. كان السادات. ونتكلم بعد هذا الإقرار، ويتكلم من يريد، عن سلبيات أو أخطاء وانفعالات، وعدوانية، وتشدد، وتصلب، وما شئنا من ألفاظ القاموس، دون أن نتجاسر على إنكار أنه هو الذي فعلها .. وأنه كسب بذلك موقعا في سجل التاريخ.

وكذلك .. كان السادات هو صاحب حرب أكتوبر، يقولون إن عبد الناصر بدأ الاستعداد .. لكن السادات هو أيضا الذي وضع نقطة الانتهاء في آخر سطر الهزيمة المريرة المذاق، والكريهة الرائحة.

نعترف بذلك، ثم ننطلق لننتقد ما شئنا من انتقادات عن سياسة الانفتاح، والعلاقة مع أمريكا، وكامب ديفيد، وعشرات من الأخطاء الكبيرة

ألم يقل الجواهري في عبد الناصر:

لا يعصم المجدُ الرجال وإنما

كان العظيمُ المجدَ والأخطاء.

لعل البعض من خصوم عبد الناصر، والكثيرين من أنصاره ، ينكرون هذا البيت من الشعر المتلئ بالحكمة.. والموضوعية. ينكر البعض المجد ، وينكر الآخرون الأخطاء لأنهم اعتادوا النظر بعين واحدة، فماذا لو نظرنا الى السادات بعينين.. هل نقبل هذا التقييم، بل هل يتقبله منا البعض ، أو بالدقة هل يستطيعون ابتلاعه؟.

* * *

وكأي بورتريه، هناك رتوش تكمل الصورة ، فلا تكتمل ملامحها بدونها.

وأمسك بريشة الذاكرة لأخط بعضا من رتوش..

السادات رجل يحب نفسه ولا يحب أن يرهقها .. هكذا أكد الكثيرون، وأكدوا أنه لم يكن يحب التفاصيل، أكثر شكواه من السفير السوفيتى أنه كان دوما يأتيه برسائل مملة ومليئة بالتفاصيل من قادته في موسكو . كان دوما يشكو من هذه الرسائل المملة، الطويلة، كتقليد سوفييتي متمكن لا يمكن لأصحابه الفكاك منه.

عبد الناصر احتملها واحتملهم . هو لم يحتمل، لم يكف عن الشكوى. وغلف رغبات كامنة، لأسباب لم يشأ أن يعلنها ، بغلاف الملل.. وراح يشكو ..ويشكو .. ألم نقل إنه ماكر؟

لكن عشقه للاختصار يحيط به، ويحبط علاقته مع واحد من أمهر وزراء خارجيته - د. مراد غالب - أتى كأول وزير خارجيه في عهد السادات.. ربما ليكمل الرسائل الصامتة التي وجهت للسوفيت ، وكمحاولة للتعادل معهم بعد إبعاد أصدقائهم - أو من كانوا يعتقدون هم انهم أصدقائهم - فى ١٥ مايو . لكنه مضى سريعا ، وتقول

الحكايات المحكية: إن السادات كان يشعر بالملل من تقارير مطولة - وكان لابد لها أن تكون مطولة - عن العلاقات الخارجية ومشكلاتها . وفيما كان د. مراد يستعرض أمام رئيسه هذه الأوضاع والعلاقات المليئة بالتعقيدات ، ومن ثم بالتفاصيل، كان السادات يفقد صبره، ينفخ كل ما في صدره من هواء قائلا: اختصر يا مراد . ويرى مراد أن ثمة أشياء لا يمكن أن تختصر .. ولا يحتمل الرئيس.

وكان السادات قادراً على اختزان رأيه ورؤيته ثم يفجره في لحظة تفاجئ الطرف الآخر فتشل أطرافه . كنت صديقا لمحمود أبو وافيه عندما كان مجرد رئيس لجمعية منتجي البطاطس، تعارفنا وأنا أعد دراسة عن منبر «الوسط» لمجلة الطليعة ، كان بسيطا وسلساً، ورائق البال.. سألته مثلا: هل كنت تستعد منذ فترة لتلعب دوراً قياديا في مجال السياسة؟ أجاب ببساطه : أبداً ، أنا أصلي واد صايع، وابن بلد، ومش بتاع وجع دماغ، لكن هي جت كده.. قلت له: طبعا هذا الكلام مش للنشر؟ فاذا به يفاجأ .. ويسأل: ليه، مش للنشر؟ ولكنى لم أنشره . وأصبحنا أصدقاء ، تلاقينا عشرات المرات . فلما استبانت العلاقات الحميمة المبنية على علاقة القرابة، وتكاثر الكثيرون حول أبو وافيه، تباعدت ، وفترت علاقاتنا . حتى كان يوم سمعت فيه همسات ، ما لبثت أن تأكدت.. أن السادات غضب على « أبو وافيه» .. وأنه تقاعد ، فقعد فى الظل. وذهبت اليه، ربما لأن السطوة قد انحسرت سطوتها ، ووجدته وحيداً - على غير ما كان الأمر في السابق- في مكتبه بجمعية منتجي البطاطس بشارع القصر العيني .. اندفع بعفويته الحميمة والمندفعة الى أحضاني قائلا: كنت أعرف أنك ستكون من القلائل الذين سيأتون .. بعد ما كان

. وفتحنا الموضوع محاذرين ، لم يكن يريد أن يستجلب المزيد من الغضب، ولم أكن أريد ذلك له .. تحادثنا، قلنا عشرات النكت ، ضحك وضحكت بأعلى صوت، وبأقصى مساحة من البهجة، وعندما أتى ليودعني خارجاً .. أقصد خارجاً جداً وبعيدا عن كل احتمالات التسجيل ، سألته هامساً:

« إيه اللى حصل؟ » . ابتسم في حسرة من يتحسر على الصداقة وليس على أي شئ آخر وقال: والله ما أعرف، كل اللي أعرفه أني ذهبت اليه كالعادة في القناطر ، كان مبتهجا أو يبدو هكذا .. إقعد يا محمود وقعدت ، وقال: إيه رأيك يا محمود أني عايز أعمل .. كذا وكذا (لم يشأ ان يذكرها ، ولم أشأ أن أثقل عليه بسؤال لا يريد أن يتلقاه) وتمضي الدهشة لتكمل ملامح حزينة.. «لم أقل إلا عبارة: بس ، ياريس ، فانفجر في وجهي هادراً.. هو أنا كل ما أقولك حاجه تقولي .. بس؟ وأشار بيده بعصبية لا أدري من أين أتى بها صائحاً «إمشي .. إمشي» ومشيت . قلت: وبعدين . صمت قليلا وقال: وخلاص ، كل شيئ إنتهى . وفيما أقترب من فوهة السلم قلت له مندهشا : بس؟ وصرخ قائلا: تاني بس. ومضيت وضحكاته تلاحقني.

* * *

وبعد رحيل السادات بسنوات كنت مدعواً إلى غذاء عند السفير الفرنسي .. كان هناك د. مصطفى خليل ، ولطفي الخولي وعدد من المفكرين ، تفجر النقاش حول الموقف من إسرائيل ، وسهام عديدة وجهت – وإن برقة محسوبة– إلى علاقات د. مصطفى خليل.. ويبدو أن البعض كان يراهن على أن أشتبك أنا أيضا، لكنني كنت صامتاً ،

وبقيت محاذراً من توجيه أي نقد للدكتور مصطفى خليل . لطفي حاول استفزازي بطريقته الساخرة -ولم تكن قصة كوبنهاجن قد أتت بعد- فأجبت بهدوء: أنا مدين للدكتور مصطفى ، ولا أحب أن أبدو كناكر للجميل . الوجه الهادئ لمصطفى خليل اكتسى بحمرة خفيفة ، فيما أنا أستجيب لإلحاح الحاضرين فأحكي قصة يناير ١٩٧٧ ، السجن ، محاولة الزج بي في القضية ، إصرار السادات على أنني المتهم الأول، ثم شهادة د. مصطفى خليل لصالحي التي أدت إلى الإفراج عني (حكيت الحكاية في الجزء الأول من مجرد ذكريات) .. صمت د. مصطفى ، ولم يعلق ، ناله فيض من إعجاب الحاضرين ، وتحول الحديث بعيداً عن الموضوع الشائك إلى موضوعات أخرى.

وفيما ينتهي اللقاء ، وأسلم على د. مصطفى ، جذبني من يدي لينفرد بي ، وقال بصوته الهامس بطبعه: «تعالى أحكي لك بقية القصة» وقال: «الحقيقة أن رئيس النيابة عندما طلب إلي كتابة أن أبعث له بشهادتي وضعني في حرج شديد، فكرت طويلا، واتصلت بالرئيس السادات ، حكيت له القصة كاملة . قصتك يوم المظاهرات ، وأحاديثي معك، ويقيني من أن المبرقة [التيلكس] موضوع الاتهام والتي قيل أنها أرسلت منك لتفجر المظاهرت .. لم يتم إرسالها بناء على اعتراض مني وموافقة منك .. وبهذا تكون التهمة كلها لا أساس لها .. وكيف أنه مطلوب مني أن أدلي بشهادتي .. وأنني لا أحب الا أن أشهد بالحقيقة..

صمت السادات على الطرف الآخر من التليفون .. ثم قال: اسمع يا مصطفى، إنت عارف إن أنا مبحبوش ، وهو مناكف ولسانه طويل

ولكن، احتكم لضميرك وقل ما يفرضه عليك الحق والضمير»

سحبت يدي من يد د. مصطفى خليل، وقد تضاعفت دهشتي.

ولأن هذه الحكاية قد استثارت الدهشة فى نفسي .. احتفظت بها لنفسي ، ولم أروها حتى الآن.

ولعل من حق القارئ أن يضيفها الى بورتيريه السادات أو أن يستبعدها ، فهذه مسألة تخصه ، أما أنا فقد وجدت أنها مسأله تتعلق بالضمير ، وأنه يتعين علي أن أذكرها.

في .. رحاب العرب
من .. رحاب العرب

وكانت زيارة السادات للقدس وما انفرط عنها من تداعيات .. ثم كانت معارضتنا لها.. ولكامب ديفيد، تلك المعارضة التي انفردنا بها في مصر، وحدنا، دون غيرنا.

وكان الرفض العربي العارم.. حكاما ومحكومين، وبقدر ما انصب السخط - الكلامي في أغلبه - ضد السادات، انهمر الاعجاب - الكلامي أيضا - نحونا.

وللمرة الأولى نستشعر دفء التضامن - الكلامي - معنا في معركة كانت قاسية ، وصعبة، وحتى الكلام بذاته كان مطلوبا في غمارها، ربما ليمنح السجناء دفئا معنويا، أو يمنحنا القدرة على نقل صوتنا الذي كان العرب - ربما أغلب العرب - ينتظرونه في انبهار . ليس فقط لمجرد أننا الذين نعارض « الكامب » وحدنا ، ونعارضها في قلب المعترك المصري، وليس من الخارج، وندفع ثمنا غاليا عبر هذه المعارضة، وإنما كان مبعث الانبهار الشعبي، أن حزباً عربيا امتلك القدرة على أن يعارض حاكما عربيا.. بكل هذا القدر من المعارضة ، وبقي مستمراً في المعارضة - وهو أمر غير معتاد في الشأن العربي- من فوق الأرض الملتهبة بنيران انتقام السلطة.

كانت هذه المعارضة موحية . كان الثمن شاقاً ومرهقا، إلى درجة أن البعض من الحكام العرب ، كانوا مع تضامنهم الحميم معنا، يقللون إلى حد كبير من الحديث الإعلامي عن حدود معارضتنا، حتى لا تنتقل العدوى.

[أذكر أنني خلال زيارة لبلد عربي كان يتضامن معنا بصوت عال.. لاحظت أنهم يمتنعون عن توزيع « الأهالي»، التي كانت تتعثر في الصدور بسبب ملاحقات المصادرة . سألت وزير الإعلام، وكان صديقا، ابتسم ولم يجب .. ثم وفي جلسة صافية قال.. نتضامن معكم نعم. أما أن نوزع جريدتكم .. لا. ومضى قائلا: .. ببساطة، ناسنا سيسألون : لم لا يسمح لنا بصحف معارضة كهذه؟]

وكانت المرة الأولى في تاريخ الحركة الوطنية المصرية.. التى تفتح فيها و أمامها الأبواب العربية جميعا.. حتى الأبواب الرئاسية منها. وكنا نحن « الماركة المسجلة» لهذه الحركة.. فتوثقت علاقاتنا العربية عبر مختلف المحاور، واعتدنا على مالم نعتد عليه من قبل، أن نزور بلداً عربياً ما فيتهافت المسئولون على مقابلتنا .. وننعم فوق ذلك بمقابلات حانية مع رؤساء عديدين. يتأملوننا ونتأملهم، ونمتلك صداقات حميمة مع البعض منهم.

* * *

لكن هذا الود لم يكن كله ذا رائحة عطرة كما توقعنا . فما أن شاعت شائعة الاهتمام بالمعارضة المصرية للسادات، حتى تدفقت على الساحة العربية فرق، ومجموعات ، وأفراد .. يوزعون مزاعمهم عن نضالات وهمية أو مزعومة، ويزعمون أنهم يزمعون مزيداً من المقاومة.. إن تلقوا مزيداً من الدعم.

وهكذا تحول عطر التضامن العربي مع من يستحق ، إلى أمطار من دعم مالي لمن لا يستحق .

ولأننا ترفعنا على مثل هذا التدني، فقد ترفعنا على تلقي «النصائح» أو «الاقتراحات» أو «التعليمات» من الغير ، أيا كان هذا الغير .. ولأننا اكتشفنا أن الكثير من الأنظمة العربية كان يمتلك في هذا الصدد قاموساً موحداً يضم مفردتين فقط «عدو .. أو عميل». ولقد يضم مفردات أخرى لكنها وبالقطع لا تتضمن كلمة « صديق» .. «صديق» ، فقط يتفق في الموقف أو في أغلبه لكنه لا يقبض، ولا يتلقى تعليمات أو أوامر، ولأن هذا الاكتشاف كان مريراً وموجعاً فقد بدأت هذه العلاقات الحميمة تتقاطع مع علاقات أخرى ، تتسلق أو تحاول على مواقفنا ، وعلى ما نقول وما نفعل ، وما نتعرض له، لتتزايد وتردد مزاعم حول ما يمكن فعله لولا هدوء ، أو برودة، أو تردد قيادة التجمع.

وتسير في شوارع المدن العربية خاصة بيروت ودمشق وبغداد وطرابلس وعدن، لتدوس فوق أشواك ، بعضها يتحدث باسمك ويقبض باسمك ، وبعضها يقبض لأنه يزايد عليك وبعضها يوافق على ما لايمكن الموافقة عليه .. وبعضها يزعم أنه يمتلك مفاتيح القوة في التجمع (وهو لا علاقة له بنا أصلا) وأنه سيطيح بالقيادة المتهاونة سريعاً، وتستمع في أسى لقصص مثيرة للسخرية وللأسى معا، محتالون زعموا أنهم افتتحوا مقراً في ألمانيا الغربية، طبعوا أوراقاً - مزورة طبعا - باسم « حزب التجمع . المقر الأوربي». وقعوا باسم خالد محيي الدين وباسمى رسائل عديدة تطلب دعماً لمواصلة النضال ضد السادات .. وأتعثر في واحدة من هذه الرسائل خلال زيارة دمشقية. عطية الجودة، أخرجها من

جيبه وتأمل تأملي لها .. ثم إنكاري واستنكاري لها .. وقال إن الساحة العربية امتلأت بنصابين ينصبون ويستفيدون باسمكم . وأنتم وحدكم تدفعون ولا تأخذون .. وقلت : هذا طبيعي . فمن يدفع حريته لا يقبض لها ثمنا.

لكن سوق التسويق لنضالاتنا انفتح على مصراعيه . كل نظام يريد أن يمتلك ولو طرف خيط يزهو به، فيزعم بأنه يحرك المعارضة ضد السادات ، وتداخل في الأمر تدخل المنظمات الفلسطينية الكبيرة والصغيرة، كل منها يشغل نفسه بأحوال مصر، وكأن مصر والمصريين بحاجة اليهم كي ينشغلوا بها وبأساليب النضال فيها.

وفيما نحن نتعرض للإنهاك إلى حد الاعتصار ، تتسرب الينا معلومات مثيرة عن « آنسة» سافرت لتقيم في بيروت فتقيم مع الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين علاقة بزعم إقامه تنظيم يساري مسلح يحارب السادات، بالسلاح وليس بمجرد الأوراق والشعارات والتحركات الجماهيرية كما نفعل نحن .. وتستهوي كلمة السلاح رفاق «الشعبية» ولعل الإيعاز أتى منهم... (الغريب والمثير للدهشة أن بيروت كانت مصفاة للأنباء حتى السرّي منها . فلا أسرار في بيروت ، ولأن الأمن المصري كان مقيماً في بيروت بأكثر مما يتوقع الكثيرون .. فقد ترتب على صفقة كلامية انتهت بدفع عدة من آلاف الدولارات لشراء سلاح لم يُشْتَرَ، وتهريب سلاح لم يهرَّب ، أن قبض على عديد من شبان شيوعيين، سجنوا وعذبوا ولم يعترفوا بشيئ ، فلعلهم لم يعلموا شيئا عما تم الزج بهم فيه) وربما كانت عملية القبض هذه فرصة لقبض أموال أخرى، قبضتها «الآنسة» ثمنا للقبض على آخرين.

وكاتب معروف، كان يتنقل بين دمشق وطرابلس وباريس، أقنع إخوة عرباً بأن يدفعوا له ليؤسس داراً للنشر فينشر كتبا للمناضلين المصريين ضد كامب ديفيد والذين تحاصر سّلطة السادات كتاباتهم. اسمي ورد ضمن قائمة من سيبدأ النشر لهم . الكاتب اختار اسما جميلا لدار نشر وأصدر كتاباً واحداً لنفسه ثم توقف. وسألني من دفع.. لماذا لم ترسل كتبك للنشر؟ ولم أجد إجابة ، فأحداً لم يطلب مني كتباً.

وأذكر أنني التقيت عبد الفتاح اسماعيل [عندما كان رئيسا لليمن الجنوبى]، كان يتحدث بثبات وثقة عن أشياء لم تحدث في مصر و لا يمكن لها أن تحدث، ويؤكد أنها حدثت، وأنا واثق أنها غير ممكنة الحدوث .. جادلته، احتدت المناقشة عندما قلت عبارة، تبدت غير لائقة وإن كان ما بيننا يسمح بذلك ،قلت: «إنك تقع ضحية لمن يوهمونك بأوهام غير حقيقية، فادفع لهم ما شئت ولكن لا تردد أوهاما تثير السخرية» تحمس . وأتاه السكرتير بقائمة أسماء منهم وقائمة ما يقولون إنهم فعلوه أو سيفعلونه. وتبدت الأسماء مثيرة للسخرية، والأفعال التي افتعلوا القول بفعلها أكثر إثارة للسخرية. تأملت الورقة ثم سلمتها له دون تعليق. الخ.. والتزمت الصمت، وأخيرا، قلت له : أنا لا أعترض على أن تدفع لهم .. فقط لا تصدقهم حتى لا تثير سخرية الناس عليك وحتى لا تقلب الدنيا على رؤوسنا . أموالك أنت حر فيها أما أحوالنا فدعها لنا . وفهم. واستمر يدفع لهم. ربما لأنهم كانوا الأقرب إلى طموحات تتأجج في نفوس من يتعجلون تحركا حماسيا.. لكنها على أية حال لا تتحقق في الواقع.

والحكايات كثيرة.. كثيرة لكنها لم تكن كلها كذلك .. بعضها

كان فيه طموح صادق.. وإن كان لا ينطبق مع واقع الممكنات الفعلية، فتبدى الإمعان فيه مماثلا للآخرين، الذين يفتعلون ثم يقبضون.

وينالنا من ذلك كله رذاذ موجع. ليس فقط بسبب هذا البعض الذى بدأ يتحدث عن ممكنات غير ممكنة فيثير شهية أنظمة ومنظمات كي تدس أنفها في الشأن المصري بما يزيده تعقيداً وكأنه بحاجة إلى مزيد من تعقيد . وإنما لأن هذا البعض بدأ يبرر فشله أو عجزه عن تنفيذ طموحاته أو ادعاءاته بالهجوم على قيادة التجمع التي يزعم أنها تكبح جماح الحركة الثورية وتحاذر من انطلاقها، وكأنه يمكن كبح جماح حركة ثورية تريد فعلا أن تنطلق، أو تملك فعلا ممكنات الانطلاق. وتكون النتيجة مثيرة للدهشة ، تضامن عارم مع التجمع، وهجوم شديد على خالد محيي الدين ورفعت السعيد.

وقد حدث أن تبنت « صوت مصر العربية »، وهي إذاعة كانت تبث من دمشق، هذا الخط فكانت تذيع أخباراً حماسية ومبالغاً فيها إلى أقصى حدود المبالغة عن نضالات رجال التجمع، وعما يتعرضون له من عنت واضطهاد وسجن ، وتذيع معها هجوما مبالغا فيه ضد خالد محيي الدين ورفعت السعيد. أبديت دهشتي للصديق الجميل الراحل أحمد إسكندر أحمد .. وكان وزيراً للاعلام، أكدت ملامح وجهه امتعاضه، وألمح إلى أن الامر ليس من عنده.. وقال: ستقابل الرئيس، تحدث معه في الأمر.

وفي اليوم التالي كنت التقي الرئيس الأسد. رجل يعرف كيف ينصت، وكيف يخترقك بنظرات هادئة، ثم يتلوها بأسئلة محكمة التصويب.. وبعد حديث مستفيض وممتع، أثرت الموضوع .. أبدى دهشة

هادئة ، أدار رقم تليفون وبذات الهدوء أصدر أمراً بإبعاد المسئول عن هذه الإذاعة..

بعدها زارني في مقر التجمع د.عصمت سيف الدولة غاضبا؛ كان المعزول واحداً من رجاله، وكان التوجيه توجيهه ، وقال بصراحة .. أردت أن أضغط عليكما حتى ترضخا لفكرة المقاومة المسلحة للسادات، فهي السبيل الوحيد لمواجهة السادات. وكان عصمت سيف الدولة محامياً بارزاً، خاض معاركنا القانونية بكفاءة نادرة، لكنه كان يختلف مع سياسة التجمع، كان رغم سنه يتفجر حماساً ، وفي كل صباح كان وهو في طريقه إلى مكتبه المجاور لمقرنا يمر لننتحي في صالة التجمع الواسعة الى درجة توحي بالطمأنينه للهمس دون خوف من تصنت ، ويعرض في كل حين فكرة جديدة تتبدى وكأنها مغامرة تصلح لرواية بوليسية متقنة. كان فهمه للقانون ، ومتابعته للقضايا يمنحان اقتراحاته مسحة من إتقان ، وكان الحماس يتدفق نحوه من التفاف جماعات من الشباب العربي حول أفكاره وكتبه التى كانت تتدفق بها مطابع دمشق في هذا الزمان. ولقد دهشت إذ قابلت في هذا البلد العربى أو ذاك شبابا يسمون «العصمتيين».. نسبه إليه.

.. هذا الحماس الشبابي لأفكاره كان يمنحه روحاً تتدفق حيوية ، وتنشد الفعل المتعجل النتائج، وكانت الزنازين التي تحتوي خيرة رجالنا، تفرغهم لتحتوي آخرين من رجالنا أيضا، بحيث لم يكن هناك يوم واحد تخلو فيه هذه الأفواه المسعورة من أبنائنا ، كانت هذه الزنازين تحبطه ، ويحبطه أنها ثمن لفعل لا يثمر ثمراً عاجلا.. وباختصار كان يريد نتائج عاجلة .. متعجلة .. وربما فورية.

ذات يوم أتى بفكرة مبهرة: أن نقيم محطة إذاعة.. هنا في مصر.

كانت هناك إذاعات عديدة تتحدث عن مصر أو باسم مصر من الخارج، لكنه أرادها هنا فهكذا يكون التحدي.. كيف؟ الفكرة تبدو سهلة وذكية .. عربة ضخمة من عربات نقل الأثاث تمتلك حجرة صغيرة بداخلها. يغلفها من الخارج أثاث مرتب بإحكام. وبهذه الغرفة محطة الإذاعة.. تذيع على فترات متقطعة وعلى ذات موجه إذاعة القاهرة .. شعارات وبيانات ونداءات تستغرق دقيقه أو دقيقتين . السياره تتحرك من مكان لآخر .. مدينة لأخرى ، وبالطبع لا يمكن لأجهزة الرصد الإذاعي أن تتعقبها أو أن تحدد مكانها.

من بين عشرات الأفكار التي كان يأتي بها، تعلقت بهذه الفكرة الماكرة والممكنة التحقيق فعلا، والتي قد تحدث دوياً مصرياً فعلا .. وفيما نتدارس كيفية التنفيذ فنيا وأمنيا، ترك د. عصمت الاهتمام بها، بل ورفض أن يتابع بحثها معي، ويدأ في حديث متدفق عن عمل مسلح يهز مصر، ويهز أركان حكم السادات ولم يكن يكف عن التفكير في هذا الأمر، ولم أكن أكف عن اعتراضي على الزج بالتجمع في عمل كهذا . كانت مطرقة النظام الساداتي تدق فوق رؤوسنا، ولم نكن بحاجه لأن تطحننا مع أي فعل من هذا النوع. لكن الأهم من ذلك هو تمسكنا بالشرعية واحترامنا لها.. والعمل في ظلها.

وأذكر ذات يوم أنه أتى يطلب مني أن أبحث له عن بطاقة مزورة أو مسروقة .. قلت هذا أمر سهل (كان هناك نشالون متخصصون في نشل البطاقات وبيعها، وكان لنا زميل في المنصورة يعرف أحدهم، ويعرض خدماته) ولكن.. سألته : لماذا ؟ قال سأحتاج لشاب مضمون سيقوم بعمل بسيط . وكانت الفكرة ذكية هي الأخرى. الدكتور عصمت

اكتشف، ولا أدري كيف، أن ثمة بنسيون في الدور الثالث من مبنى يقبع في الشارع الممتد خلف فندق سميراميس والمفضى إلى النفق..

غرفة محددة في هذا البنسيون تطل على مبنى وزارة الخارجية (انتقلت الوزاره الآن إلى مبنى جديد).

فكرة د. عصمت هي أن يقيم الشاب في هذه الغرفة. أن يسجل نفسه في البنسيون ببطاقة مزورة. أن نزوده بقنبلة موقوتة يلقيها في حوش الوزارة مساء. يترك البنسيون ويرحل . ويحدث الدوي المطلوب.

رغم ذكاء الفكرة رفضتها من حيث المبدأ [ولما يئس عصمت سيف الدولة مني ومن إصراري على التمسك بالشرعية، يبدو أنه لجأ الى منظمة فلسطينية لتنفيذها . لكنهم بالغوا في خيالاتهم فحاولوا إدخال مدفع هاون الى البنسيون وقبض على شخص منهم].

ولم يكن عصمت سيف الدولة وحده الذي يلح هذا الالحاح الراغب في دوي يدوي في أرجاء العالم لعله يوقظ العرب ، أو يعطيهم صورة عن رفض مصري صارخ لحكم السادات.

.. كثيرون كانوا يعرضون علينا سلاحا ومالا مرتبطين معاً . وكثيرون عرضوا تدريب رجالنا، وكان رفضنا المتشدد يعطينا صورة الخائفين . وكثيرا ما استمعت لقائد لمنظمة فلسطينية متوسطة القامة كان يتشدد في إلحاحه على الفعل العسكري مؤكدا أنه الشرارة التي ستدفع بالجماهير المصرية الى الاندفاع للإطاحة بالسادات.. وكنت أناقشه... أحكي له تراث العمل اليساري المصري، وخبرات النضال المصري المعارض في إطار شرعي ، ومخاطر استدارج الأنياب المفترسة للنظام .. وقلت : إن المخالب توجع رجال التجمع، وتوجع جسده،

وتخيف أنصارنا، فما بالك بالأنياب المفترسة، قال: أنت خائف . ولم أنكر، رغم أنه قالها كاتهام ، قلت : لا أخاف على نفسي، وإنما على التجمع وعلى مجمل المعارضة المصرية.. وأخاف على شرعية التجمع وعلى آلاف البشر الذين احتشدوا في صفوفه ، ولا يمكنهم احتمال ما هو غير شرعي..

ولم يصدقني ، وتلقف هو نفسه زميلنا ميشيل كامل، ورتب معه من خلف ظهرنا تدريب مجموعة من الشباب ليعودوا الى مصر، فيقوموا بعمل مسلح. كانت النتائج مأساوية . الأمن المصري كان قد اخترقهم في بيروت ، وهم لم يحسنوا اختيار الشباب .. وكل ما تم فعله .. سيارة مرت مسرعة أمام السفارة الأمريكية بالقاهرة وألقت على الرصيف المقابل كيسا من ورق يضم عدة أصابع من الموز وقنبلة صوتية. الأمن كان يتابع السيارة .. التقط الكيس حتى قبل أن تنطق القنبلة، والتقط من ألقاه . وحاولوا حشرنا في الموضوع .. وأفلتنا بأعجوبة.

* * *

ولكن الأمر لم يكن كله كذلك.

كان بالخارج صفوة من كتاب ومفكري وسياسيي مصر. تقطعت علاقاتهم مع النظام وأصبحت عودتهم تعني العودة الى السجن ، فبقوا.

لن أورد أسماءً حتى لا أنسى البعض ، فقط أكتفي بأن أحني رأسي لهم، ليس فقط لأنهم كانوا صوتنا المدوي بالخارج ، وإنما لأنهم كانوا صورتنا التي نزهو بها نضالا ومسلكا ، وترفعا عن المغنم الشخصي.

وفي إطار نضالهم تشكلت « الجبهة الوطنية» في الخارج، وضمت رموزاً مصرية تستحق الاحترام. الفريق سعد الدين الشاذلي ، محمود

أمين العالم، أحمد الرفاعي ، ميشيل كامل.. وتشكل أيضا «تجمع الوطنيين المصريين بالخارج».. وأصبح بإمكان صوتنا ورأينا أن يدوي في أماكن عدة من العالم . وكان السادات شديد التوتر من ذلك، زادت مخالبة حدة، لكن هذا شيئ ، والافتراس الذي يأتي كرد فعل لعمل مسلح شيئ آخر.

وقد نجح رفاقنا بالخارج في إقامة محطة إذاعة خاصة بنا.. في عدن . صحيح أن الصوت كان يأتي من بعيد .. متقطعاً أحيانا، لكن إنصاتنا المنبهر حتى للصوت الخشن والرتيب لزميلنا أحمد مصطفى وهو يقرأ بياناتنا كان يمنحنا دفئا غامراً ، وقدرة على التواصل . كان صوت أحمد مصطفى الخشن أحلى في آذان رفاقنا من أي صوت آخر.

وطمحت ذات يوم إلى أن تصبح هذه الإذاعة مسموعة بوضوح لتدوي في آذان الجميع.

ناقشت الرئيس علي ناصر محمد ، قال إن تقوية الإذاعة تتطلب تقوية المولدات الكهربائية في عدن.. وتبدى الأمر صعبا .

ولقد دفع الإخوة في اليمن الجنوبي ثمنا باهظا لهذه المحطة المنخفضة الصوت.. فما أن حدد الأمن المصري مصدرها ، حتى استشاط السادات غضبا ، وانتهز فرصة محاولة قام بها البعض لاغتيال معارض يمني جنوبي في القاهرة، وقلب الدنيا على رأس سفارتهم بالقاهرة، واقتحم السفارة بأسلوب غاية في الغرابة: سُلّم إحدى عربات المطافئ تمدد الى أعلى وصعد عليه رجال الأمن ليقتحموا إحدى نوافذ السفارة .. وأغلقت السفارة.

* * *

كم كانت الرياح العربية منعشة.. وجميلة وعطرة، وكم كانت شائكة أيضا..

لكنها كانت تجربة مثيرة .. كانت تشكل زمناً غريباً جعلنا بالنسبة لكل العرب « ملح الارض» وكانت كلمة «تجمع» تعني نضالا وثباتاً وتضحية واحتراما بلا حدود من جانب أنظمة وأحزاب وجماهير عربية ذات مساحات شاسعة .

ونبقى.. وتتبقى من هذه الأيام الصعبة ذكريات جميلة، وعلاقات حميمة، والشوك كله تراجع.. تلاشى واختفى ، أليس هذا أمراً مثيرا ، كل الذين تاجروا، وزايدوا وصرخوا بأعلى صوت يمكن أن تطيقه حناجرهم، وادعوا ادعاءات محلقة في خيالات كاذبة.. كل هؤلاء .. كلهم بلا استثناء، انتهوا.

وتأكد القول العربي المؤكد دوما «لا يصح إلا الصحيح».

و.. السوفيت

.. ومنذ بدأت البدايات الأولى للتجمع أبدى السوفيت دهشتهم. ولعلها دهشة سوفيتية المذاق، فالبعض عندما يبدي دهشته فإنها تحمل معنى الرفض. ولعلهم كانوا يعرفون أننا لا نقبل رفضهم، ولن نعيره التفاتاً، ففضلوا أن يترجموا الرفض إلى دهشة، استطالت حولها عشرات الأسئلة، ومهما شَرَحْتَ تزداد الدهشة، ومهما أجبت تتبدى أسئلة أخرى.. وبلا أمل في تفهم أو تفاهم .. عقليتان مختلفتان.

ومع ذلك كان ثمة اتفاق صامت يمكن تسميته احترام التخوم.. أو احترام الحدود، وفي إطار احترام الحدود هذا كانت العلاقة.

ومع زيارة القدس.. وكامب ديفيد، ومع تشددنا في الرفض ازدهرت مكانتنا العربية والسوفيتية أيضا. لكن الدهشة ظلت محلقة فوق الرؤوس التي تعرف كيف تتوازن دون تناطح. لكن الغريب أنهم كانوا كالأنظمة العربية نافذي الصبر، يريدون الإطاحة بكامب ديفيد .. فوراً، ويتصورون أن الأمر ممكن فقط بمزيد من الجهد، وكنا نعرف أننا نبذل غاية جهدنا عملا وصبراً واحتمالا، وأن التغيير هو بالأساس مرهون بتواصل فعلنا مع الجماهير التي نسعى اليها، ونغير مذاق الأشياء في

فمها، خاصة بعد أن تقبلت في بادئ الأمر مذاق كامب ديفيد وتوهمت أنه هو ذاته مذاق السلام الذي نحلم به.

لكن الأساطير المسطرة في الكتب شيئ، والواقع العملي شيئ، وهكذا فإن اللوم الذي وجهناه للبعض المتعجل من العرب، والذي لا يلتفت إلى الجماهير وفعلها، ولا يطمح للتحرك معها أو حتى على رأسها، فيسعى لعمل نخبوي يستدعي العنف المسلح المحدود بحدود من يفعلونه، بدلا من السعي المتواصل نحو فعل جماهيري واسع يتسع حتى يتحرك البحر بأكمله ، هذا اللوم الذي صغناه بشكل مهذب دون أن نصفه بأنه « التسرع الانفعالي للبرجوازية الصغيرة »، لم يتمكن إلا أن ينطبق على رؤية دولة البروليتاريا الأولى.

والحقيقة أن السوفيت لم يتحدثوا أبداً - وربما لم يتجاسروا - عن عمل مسلح ، لكنهم كانوا مستعجلين، ينظرون في كل لحظة الى ساعاتهم كراكب يتعجل الوصول بينما المركبة بطيئة الحركة بطبيعتها وبطبيعة المرتقى الصخري الذي تنحت فيه.. لكنهم وفي كثير من الأحيان كانوا يتحسسون العلاقة فيما بيننا ثم يرشقون سؤالا مدبباً .. عن علاقة التجمع بقوى ما في الجيش؟ وكنت أحكي وأحكي عن الشرعية، وعن حرصنا على المشروعية، وعن موقفنا بعدم التلامس مع الجيش، لكن النظرة الماكرة كانت توحي بأنهم لا يصدقون ، و ربما كانت خبرتهم مع بلاد أخرى أو أحزاب أخرى أو حتى أقاويل أخرى تحفزهم الى ذلك.

وذات يوم ضاق أحدهم ذرعا بإنكاري أو استنكاري فقال، وكأنه يفجر قنبلة موقوتة توقيتا دقيقا: فلان .. (وكان واحداً من قادة التنظيم

الطليعي . وكان مقيما خارج مصر في زمن كان فيه قادة الناصريين في السجن يقضون أحكام قضية ١٥ مايو) فلان هذا اتصل بنا باسم مجموعة تضم ١١ جنرالا (هكذا نطقها) في الجيش ، وهم يستعدون لفعل شيئ هام.. فأين أنتم من ذلك كله؟

دون تردد قلت: «فلان .. يضحك عليكم، وأحذركم من تصديقه» لكنهم، وفق ما تناثر لديّ من معلومات لاحقة، صدقوه.. ومولوه.. ثم اكتشفوا أن لا شيئ معه. لا جنرالات .. ولا أحد على الاطلاق.

لكن السوفيت ظلوا دوما في علاقاتهم مع السادات [بعد تصادمه معهم] نافذي الصبر.. يتعجلون أي شئ ضده . ويخلطون دوما - ويااللدهشة - بين الأمنيات والممكنات.

* * *

ومع المحاذرة المتبادلة من الوقوع في حالة من التصادم .. أتت أحداث أفغانستان.

واكتسى الشارع المصري بحالة من العداء للسوفييت.. وتأسلمت مقولات وتحليلات ومواقف.. وخاض السادات حربه ضد السوفيت حتى أقصى مداها .. وانقلب الأمر على رؤوسنا في التجمع.

.. وفي جلسات الأمانة العامة تباينت المواقف وتفجرت خلافات عديدة.. بل وتحددت معسكرات، فالبعض (كان يتزعمه صبري مبدي) يرى فيها فرصه يجب اغتنامها لنفي « وصمة» أننا على علاقة مع السوفيت، وهاهم السوفيت يرتكبون الخطأ، فلنشدد انتقادنا لهم.. ونكسب مرتين .. مرة لأننا نقول ما هو صائب ، ومرة لأننا ننجو من تهمه ألصقت بنا.

والبعض كان يفسر تردد البعض بأن المترددين مجرد شيوعيين

متنكرين في ثياب تجمعية وأن علينا أن نحدد موقفاً رافضاً للتدخل السوفيتى وساعتها سيكون أمام هؤلاء المتنكرين أحد أمرين : أن ينسحبوا أو أن ينكشفوا، وكان صاحب هذا الموقف [د. رمزي فهيم] .. وإن كان من حقه أن نقرر أنه صاغ رأيه هذا بمفردات هادئة وعاقلة.

والبعض كان يرى أن الاتحاد السوفيتي هو حليف وحصن لكل حركات التحرر الوطني.. ويفتش له عن مبررات تبرر تورطه في أفغانستان..

ودارت رؤوس البعض في الأمانة العامة من فرط تقاذف الحجج والحجج المضادة، ومن فرط تضخيم الأمر، إذ يحاول البعض أن يتحول به من تحديد لموقف ، إلى محاولة لفرز قوى بأسرها من صفوف التجمع أو محاولة لرسم « ماكياج » ما لصورة التجمع..

ويستخدم لطفي الخولي كامل براعته السياسية ، ومقدراته في طرح أفكاره، في صياغه موقف يرضي الجميع، أو بالدقة - اذا ما استخدمنا أقانيم التجمع - لا يرفضه أحد ، أو يتقبله الجميع تقبلا قلقاً، لكنه تقبل على أية حال..

.. صاغ لطفي الموقف على عدة مراحل سأحاول اختصارها، فقد صاغها هو مطولة ومطلية بحجج قوية.

- الحكومة الأفغانية حكومة شرعية، ولها حق استدعاء قوات من دولة أخرى لمساندتها في مواجهة التدخل الاجنبي.

- السوفيت إذن ذهبوا الى أفغانستان بطلب شرعي ووجودهم شرعي.

- لكن وجودهم ليس الحل الأمثل.

- الحل هو أن يكف الغرب وباكستان وإيران عن التدخل.

- والحل اذا احتاجت الحكومة الأفغانية لدعم دولي يحمي حدودها من التدخل أن تستعين بقوات من دول العالم الثالث. طالع لطفي الخولى أطروحته المطولة.. بعد أن نسَّق مفرداتها الى جوار بعضها تنسيقا متقنا.. وتنفس الجميع الصعداء. فقد كان الجميع يتمسكون كل منهم بموقفه، ولكنه - وفي الوقت نفسه - يشفق على مصير التجمع، ويتمنى أن نجد مخرجا.. ووجد لطفي الخولي المخرج.

.. وجاء الرد السوفيتى سريعاً. دعاني أحد أركان السفارة الى غذاء في الهواء الطلق، أي بعيداً عن احتمالات التسجيل، بدأ بأن قال إنه يحمل لقيادة التجمع رسالة من اللجنة المركزية للحزب السوفيتي (كانت الرسالة الأولى .. والأخيرة) .. الرسالة مفعمة بالتحيات والتقدير، وتتجاهل تماماً أي حديث أو إشارة ولو من بعيد الى موقف التجمع، لكنها تحدثت وبتطويل ممل [كالعادة] عن التاريخ والجغرافيا والحدود .. والدور السوفيتي في آسيا.. وتوازنات القوى، وعلاقة ذلك كله بأمريكا وإيران وباكستان.. والصين، وكنت أتابع الرجل مندهشا من هذه الذاكرة الحديدية التي ترتل عبارات يبدو أنها أعدت سلفا وبإتقان شديد .. وأخيرا تنتهي الرسالة بموقف واضح .. لكل هذه الأسباب فإن القيادة السوفيتة ترى أنه من غير الملائم وبعد كل ما حدث، الانسحاب من أفغانستان، لا فوراً ولا حتى في المدى المتوسط.

تلقيت الرسالة .. ولم أعلق. واكتفيت بأن أبلغت خالد محيي الدين ملخصا لها، فما كانت ذاكرتي لتستوعب هذه الأطنان من التفاصيل، ولا هو كان سيحتمل ما احتملت، وأنا أنصت مضطراً.

* * *

ونمضي مع هذه العلاقة المحاذرة ، كل طرف يحاذر من الاصطدام بالآخر.. حتى كان الاتفاق الفلسطيني - الأردني.

كان الحماس يلف غالبية كوادر التجمع ضده، وكنا قريبين جداً من اجتماع دورة اللجنة المركزية، وكان الأمر مطروحاً.

كان خالد محيي الدين متردداً وكنت مثله . لم نكن نرغب في أن نزج بأنفسنا في صراعات لا نعرف حدودها ولا مصدرها .. ثم استبان الأمر.

زارنا دون توقع يفيجيني بريماكوف ، كان في ذلك الحين رئيسا لأكاديمية العلوم السياسية ، ولست أدري هل كان اختياره لهذه الزيارة مصادفة، أم كان اعترافاً من طاقم السفارة بعجزهم عن التأثير فينا.. والمثير للدهشة كان توقيت الزيارة.. اليوم السابق تماما لاجتماع اللجنة المركزية.

وبريماكوف لا يضيع وقته، دخل مباشرة الى الموضوع،.. هم ضد الاتفاق .. ولا يريدون إعلان ذلك، لكنهم يتمنون على كل «الاصدقاء» في المنطقه معارضة الاتفاق.

كانت المرة الأولى التي يطلب الينا فيها السوفييت «كأصدقاء» اتخاذ موقف «ما» وكانت الجلسة ثلاثية .. هو .. وخالد محيي الدين وأنا. فجأة سأل خالد محيي الدين سؤالا يبدو بسيطا لكنه حل كل الألغاز- « لماذا أنتم ضد الاتفاق ؟ ولماذا لا تعلنون موقفكم؟ » وجاءت إجابة بريماكوف حاسمة، بل قاصمة .

هم ضد الاتفاق لأنه تم دون استشارتهم .. وهم لا يعلنون لأنهم قد تتم استشارتهم فيما بعد، أي بعد ضغط الموقف الرافض من جانب القوى الوطنية..

نظرت الى خالد محيى الدين ونظر إليّ ولم ننطق . وانتهى الاجتماع كما بدأ بتحيات وسلامات وضحكات، فقد كان بريماكوف صديقاً قديما منذ كان مراسلا للبرافدا بالقاهرة، ولعل هذا هو سر اختياره لهذه المهمة الصعبة، ودون حاجة الى نقاش متبادل قرر خالد محيي الدين أن نقبل الاتفاق. إن لم يكن من أجل موقف صحيح، فمن أجل تلقين السوفيت درساً يوضح حقيقتنا، وحقيقة أنه لا يمكن إملاء شئ علينا.

وبدأ الجو عاصفاً في اللجنة المركزية .. تزعم د. عبد العظيم أنيس حملة العداء للاتفاق، وكانت كل حججه منصبة على أن القوى اليسارية العربية تعارضه ، ولم نشأ أن نفصح عن.. لماذا تعارضه؟

وصمم خالد محيي الدين على قبول الاتفاق، وصممت معه ومعنا عدد من قادة الحزب ولكن أحداً غيرنا نحن الاثنين لم يكن يعرف أن جزءاً هاما من هذا التصميم كان يمثل رسالة الى السوفييت.

ولعل الكثيرين الذين يتحدثون حتى الآن عن تشبث خالد محيي الدين بموقفه في هذا الاجتماع، هذا التشبث الذي وصفه البعض بأنه استخدام لنفوذه التاريخي لإجبار الحزب على تحديد موقف ما ،لعلهم يعرفون الآن سر تشبثنا بهذا الموقف الذي أغضب البعض.. وأغضب خاصه د. عبد العظيم أنيس الى درجة الاستقالة من الحزب.

لعله لو عرف الحقيقة لمنحنا العذر فيما فعلنا، ولشاركنا في توجيه هذه الرسالة للسوفييت، لكن عالم السياسة يفرض عليك دوما أن تخفي أشياءً .. وأن تصمم على إخفائها حتى عن أقرب الناس..

.. المعبر

وما أن يتألق دور التجمع عربيا باعتباره « ملح الأرض» في مصر. حتى تتوالد من عملية التألق هذه تداعيات عدة من بينها أن تتوثق علاقاتك بقوى وفصائل عربية إلى حد الثقة. وإلى درجة أنهم لا يجدون غيرك في مصر يمنحونه ثقتهم، أو هكذا يقولون إذ يتخذون من القول بهذه الثقة سبيلا لاتخاذك معبراً.. إلى مصر وإلى بعض أطراف سلطتها.

ومع انتهاء عهد السادات، وسكون العواصف التي كانت تعصف بنا في الداخل، وما يتبدى من كوننا نمثل شيئا هاما في هذا البلد.. شيئا قد يكون محدوداً أو غير مقبول من هذا الطرف أو ذاك، لكنه موجود، فاعل ، محترم، ويمتلك مفاتيح علاقات تمنحه القدرة على فتح ثقوب في جدران تتبدى وكأنها صماء.

وهكذا تنشأ حالة من الدفع بك طائعاً مختاراً، أو متمنعا، أو حتى معترضاً إلى حقول ألغام عربية الصنع، ومن ثم تصبح معقدة التركيب، وأحيانا طائشة التصويب.

يتصل بك طرف طالباً منك أن تفتح له ثغرة في جدار العلاقات

المصمت، يلح ، مؤكداً أنه لم يجد غيرك ليثق به، وأن الأمر هام بالنسبة له، ثم.. تفعلها .. كخدمة لزملاء نضال فاذا بك واللغم يتفجر فيك وحدك.. وإذا به يتنصل من فعلته، ويلصقها بك وحدك.

* * *

.. وذات يوم كنت مغادراً مقر الحزب وعلى أطراف الصالة تقدم مني سودانى ذا مقاس كبير جدا ، أكبر من المقاس المعتاد للسودانيين.. سألني بهدوء ، فين د. رفعت السعيد؟ قلت أنا ، واذا به وباللدهشة يغادرني، يهمس في أذن موظف الاستعلامات بالحزب.. فاذا بالرجل يناديني. لقد سأله ذات السؤال ، كأنه لم يصدقني ، أو أراد أن يتأكد تماما من ذلك.

قال: أنا اسمي د « م.أ. » طبيب سودانى، معي رسالة من الصادق المهدي أريد إبلاغها لأعلى المستويات، الصادق (الذي لم أكن حتى ذلك الحين قد قابلته أبداً) أكد على أنني «المعبر» الموثوق به. ومن ثم أرسل رسوله الموثوق به (أصبح د. م.أ فيما بعد، وفي زمن حكومة الصادق محافظا فوزيراً)

سألته في دهشة : لماذاأنا؟ مط شفتيه دون إجابه منطوقة، قلت فقط أستطيع أن أوصلك بفلان (وفلان هو الذى سيتكرر اسمه دوما في هذا الموضوع.. وهو قناة هامة ودائمة وفاعلة بين عديد من القوى وفئات المثقفين والنظام وسوف نرمز له بالدكتور) قال: هذا هو المطلوب بالضبط.

كان يتعمد أن يبقى حوارنا في الصالة. وحتى اطمأن الى موافقتي، قبل دعوته إلى مكتبي. اتصلت بالدكتور . سألني هل تعرفه؟

قلت : لأ. قال: أبلغه أن الأمر بالغ الحرج، فالعلاقات المصرية سيئة مع جعفر نميري ولا نريد لها أن تزداد سوءاً ، وأن المقابلة إن تمت فيجب أن تحاط بسرية كاملة.. نقلت ما قال إلى الضيف الجالس أمامي، فأجاب الإجابة السودانية المفترضة..«جداً». مؤكدا على سرية الأمر سواء فيما يتعلق بالاستعانة بي أو فيما يتعلق بمن سيقابل، وبالطبع تفهمت تماماً وتفهم هو أيضا تماماً حرص الدكتور في تناوله لهذا الامر. فقد طلب اسمه بالكامل ، عنوانه بالقاهرة ثم رقم تليفونه، ثم قال: إترك أنت هذا الأمر، واطلب منه أن ينتظر اتصالا.

تركت الأمر دون أن أنساه ، وإذا بي .. وبعدها بفترة قصيرة جداً أجد نفسي ملوما من أكثر من طرف سوداني، البعض غاضب لأننى فعلتها لحزب الأمة ولم أفعلها له ، والبعض غاضب لأنني فعلتها أصلا.. وكان الأكثر غضبا الطرف المصري الذي وجد نفسه محرجاً بعد تسرب الأمر بتفاصيل تفاصيله ليصبح محلا لحوارات ونقاشات ، وخلافات واختلافات..

* * *

ويتكرر الأمر أكثر من مرة، وبأكثر من صورة.

عندما اختلف أقطاب الحزب الاشتراكي باليمن الجنوبي مع بعضهم حول موضوع « الوحدة مع الشمال» زارني وفد منهم.. كان مكتبهم السياسي على وشك الاجتماع ليدعو اللجنة المركزية لاتخاذ قرار حاسم.

كنت أشعر أن البعض يهرب من صراعات الرفاق.. الى الأمام. وأن البعض يبني طموحاته في الشمال، وأن البعض يتلفت ليجد أن دولته قد باتت وحيدة وسط محيط التراجعات والانهيارات التي غمرت

المنظومة الاشتراكية .. ويجد مخرجه -ربما- في وحدة مع اليمن الآخر، خاصة وأن الخلاف الفكري لم يعد بذاته ذا قيمة عند هذا البعض، لكن البعض الآخر - ومنهم الجالسون معي- يتوجس خيفة من الاندفاع غير المحسوب نحو وحدة غير محسوبة النتائج. تحدثوا .. تحدثوا، تحاشوا إقحامي في الخلافات الداخلية، لكنهم تلمسوها ، وألمحوا الى كونها أحد مكونات مواقف البعض. تحليت بالصمت، لكن عيونهم، ثم ألسنتهم، ثم إصرارهم أصر على أن أقول رأياً .. قلت رأياً، نسبته وباصرار إلى شخصي وليس للحزب، الذي لم يناقش ولا يريد أن يناقش أمراً كهذا، لأنه لا يريد أن يقحم نفسه في خلافات داخلية لحزب آخر.. قلت : أعرف أن الوحدة اليمنية شئ مختلف عن أية وحدة أخرى، وأنها أكثر رسوخاً في وجدان الجميع جنوبا وشمالا، ولكنني ضد أن تأتي الوحدة مع الشمال كي تذهب وحدة الحزب في الجنوب، وضد أن تكون مهرباً من خلافات لم يعتد رفاق اليمن على حلها حلا سليما ، وأن الذهاب الى وحدة مع الآخر .. الأقوى، والأكثر عدداً، والمختلف فكراً، وموقفاً، يتطلب صبراً وتوحداً داخليا قبل الاندفاع غير المحسوب، وعندما أشار أحدهم إلى اتفاق سيكتب ويحدد حدود كل طرف ، وأنهم سينالون بموجبه حدوداً متسعة.. قلت: ومتى كانت الأوراق المكتوبة يجري احترامها، خاصة عندما يشعر الأقوى أنه الأقوى وأن الأخر الأضعف منقسم على ذاته ومخترق، بما يزيده ضعفاً. وفيما يبدو أنني اندفعت في تفنيد حجج المسارعين الى الوحدة.. الأمر الذي نقله الزوار دعما لوجهة نظرهم الداعية الى التأني، واتخذ البعض من موقفي الشخصي سنداً له في اجتماعات القيادة، رغم أن النتائج كانت شبه محسومة أو كانت محسومة فعلا.

وبرغم أنني ترددت في البداية، وأنهم ألحوا في أنهم يريدون التعرف على وجهة نظري، مجرد التعرف عليها ،فاذا بي أصبح - ورغم أنفي - طرفاً في مناقشات حامية حول الوحدة، البعض يستقوي بالموروث وطموحات الوحدة، وبالأقوى . والبعض الآخر يستقوي فيما يستقوي بما قلت من رأي.. ، وإذا بي أجد الكثيرين يرفضون رأيي ، بل ويرفضون كل ما كان من صداقة قديمة، وإذا باسمي يصبح طرفاً في صراع لم أشأ أن أدوس ألغامه التي أعرف مدى قسوة انفجاراتها. وتمضي خطة الوحدة المتعجلة في طريقها.. وتتحقق ، وفي مهرجانات الاحتفالات، وفيما البعض من رفاق الجنوب يعتبر نفسه منتصراً ، ليس فقط على البعض من رفاقه ، وانما عليَّ أنا ، زار خالد محيي الدين صنعاء ليهنئ بالوحدة، واستمع إلى انتقادات عديدة ربما يندم أصحابها عليها الآن.. إذ يندمون على ما فعلوا، لكن الأكثر إثارة للدهشة هو أن كل ما قلته ، إذ نقل عبر أدوات صراع الرفاق المتصارعين، فقد نقل طبعا الى الرئيس اليمني الذي تساءل في غضب هادئ : لماذا يقف رفعت السعيد ضد وحدة اليمن؟

.. ويكون المأزق أكثر إيلاما.. لأنني لا أريد أن أتنكر لما قلت، فقد قلته عن قناعة، لكنني لم أكن أريد أن يستخدم مجرد رأي لي في معركة كبيرة كهذه.. أو حتى أن يفسر على النحو المفتعل.. فيقال أنني ضد وحدة اليمن.

* * *

وكثيرون، كثيرون كانوا يصرخون بكلام يهاجم السياسة المصرية، أو يتباعدون عنها بل ويلعنون كل من يقترب منها، ولكنهم يطلبون سراً أن

نطلب لهم علاقة ما، أو همزة وصل ما. والبعض من هؤلاء يعرف بالطبع مسالك قد تؤدي به الى ما يريد، لكنه - ربما- يريد أن يتحصن بنا، فاذ ينكشف الأمر الذي لا يريد له أن ينكشف، يقول: إننا نحن أصحاب الفكرة أو حتى أصحاب الفعل، وإن طلب اللقاء أو الاتصال تم دون علمهم.

وبين هؤلاء الكثيرين قوى سياسية ذات تنويعات مختلفة، عراقيون من المعارضة أو من معارضة المعارضة، أكراد من مختلف الأصناف، معارضون من بلدان عربية تقيم مصر علاقات حميمة جدا مع أنظمتها ،أشخاص لم نعرفهم ولم نسمع عنهم يقولون إنهم يمثلون قوة ما، أو فعلا ما، أو حتى أشخاص ما وسط فلسطينيي ١٩٤٨.. أو أشخاص تقطعت بهم سبل الاتصال فلم يجدوا غيرنا.

وكالمعتاد تكون الحجة التي يتحجج بها الجميع أنهم يثقون بنا.

وهكذا تكون الثقة بك في بعض الأحيان عبئاً لا يحتمل..

وكان الأكثر تحركا في هذا المجال عدد من المنظمات الفلسطينية التي استقر المقام بقادتها في دمشق، واستقر موقفها السياسي- المعلن على الأقل- في قلب مساحة العداء لعرفات والسلطة الفلسطينية وأوسلو.. وما تلاها، ويتمادى الموقف ليصب جام غضبه على النظام المصري الذي يتهمه هؤلاء بأنه خلف أوسلو وما قبلها وما بعدها، وأنه يضغط على المفاوض الفلسطيني كي يقدم المزيد من التنازلات ، وأنه .. وأنه، لكنهم وفجأة وخلال لقاءات دمشقية أو مقابلات مع مندوبين لهم يزورن القاهرة، بدأوا يلمحون الى رغبتهم في أن أُنظم لهم لقاءً مع السلطة المصرية، يعرفون معارضتنا لها، ويعرفون خلافنا معها، لكنهم

مع ذلك يقدرون أننا نمتلك القدرة على أن نفتح لهم ثقبا ينفذون منه. وبالطبع يبدأ الحديث وينتهي بأن الأمر سري، وأنهم يثقون بنا وحدنا، ولهذا يلجأون إلينا وحدنا..

ومنذ البداية أدركت الخطر واستشعرته، فإقحامنا أنفسنا في ترتيب هذه العلاقه سيغضب طبعا أبو عمار، فهذه المنظمات أعضاء في منظمة التحرير، وإن أرادوا علاقه منفردة فلم لا يرتبوها عن طريق السلطة الفلسطينية أو سفارتها.. ثم ما معنى هذه العلاقة المنفردة ؟ ولماذا ؟

ومثل هذا التداخل قد يعطي الفرصة لطالب العلاقة أن يتكئ على كاهلنا محتجاً - إن أراد - بأنه فعلها عبر حزب التجمع المعروف بمعارضته للحكم ولكامب ديفيد، أو بأنه فعلها بناء على طلب أو حتى إلحاح منا [وقد حدث هذا فعلا من جانب البعض]، أو حتى أننا طلبنا الأمر دون طلب منهم [وقد قالها البعض عندما تسرب عن طريق بعض رجالهم أنهم بصدد مقابلة مسؤول مصري]..

المهم وجدت نفسي في مأزق ملغوم، ولكن هل يمكن أن أرفض؟ ساعتها سيتصور البعض أننا نرفض أن نمد لهم يداً، أو قد يتصور البعض في مصر أننا نحرض البعض الفلسطيني على عدم إقامة علاقة معه، أو حتى نزجرهم ونسد أمامهم الأبواب إذ أرادوا.

لكل طرف حساباته ، فما هي حساباتنا ؟

كنت ولم أزل أعتقد أننا مادمنا نستطيع أن نقدم خدمة لحركة وطنية وتقدمية، أو منظمة أو اشخاص من هذا الرعيل فلا بأس من أن نقدمها.

وكنت ولم أزل أعتقد أننا نتعامل في هذا الصدد مع قيادات راجحة العقل والفكر والموقف، وأنها لابد وأن لها حساباتها التى تبني عليها هذا الموقف أو ذاك . وأن إسهاما من جانبنا في تحقيق هذه الحسابات سيكون مفيداً لها..

.. وتطلب منظمة فلسطينية، لعبت دوراً هاما في تعبئة القوى الفلسطينية المسماه بالفصائل العشر، لقاءاً مع مسؤول مصري، ويطلبون تحديداً لقاء مع الدكتور.

تحدث الأمين العام لهذه المنظمة معي تليفونيا، ألمح بتلميحات فهمتها لأنه كان قد فتح الأمر معي خلال زيارتي له في دمشق، فذكرني بسابق نقاشنا وتذكرت، فما كنت قد نسيت، لكن سهما أحمر مرق أمام عيني وأنا أتحدث اليه، ماذا لو أن ..؟ وطلبت أن يرسل فاكسا يحدد بالضبط ما يريد ، ومن سيحضر؟

وأرسل فاكساً غفلا من التوقيع وعلى ورقة بيضاء بلا أيه اشارة تشير الى الجهة الراسلة.. فقط نقترح أن يحضر اليكم فلان وفلان، حاملي جوازات رقم كذا.

الماكر يريد أن يحتفظ لنفسه بخط رجعة ، وأنا لماذا لا أحتفظ لنفسي بمثل هذا الخط ..؟ ثم، وماذا لو أن..؟

وأرسلت أطلب رسالة رسمية على ورق المنظمة .. موقعة من مسؤول .. وأتت ، أخيراً.

قابلت الوفد الذي تطلب دخوله من المطار ترتيبات خاصة، وكانت موافقة الدكتور هي مفتاح هذه الترتيبات التي تولاها هو، وكان قد ألمح الى سرية اللقاء حتى لا تترتب عليه حساسيات مع أطراف عدة..

ناقشت الوفد ، رتبت له بناء على طلبه لقاءات مع مختلف القوى السياسية . لكنهم ما أن التقوا الدكتور، حتى تحدثوا تلفونيا يعتذرون عن كل المقابلات لأنهم مغادرون.. ذكرتهم بضرورة السرية.. أكدوا عليها .

وفي اليوم التالي تماما كانت جريدة الحياة اللندنية تنشر الخبر كاملا.. فيما بعد عاتبت، فعلمت أن حسابات ما استدعت ذلك، وسألت نفسي كيف يمكن لطرف أن يفرض حساباته وحده على الجميع؟

وكانت هذه الزيارة بداية لإلحاح من منظمة أخرى، تريد لأمينها العام أن يأتي مصطحباً وفداً عالي المستوى..

وأتى مندوب عنهم ظل يتلمس أطراف الحديث حتى أوضح صراحة .. أنهم منظمة أكبر، وأكثر أهمية من المنظمة الأخرى، وأن وفدهم سيرأسه الأمين العام، ومن ثم فإن من يقابلهم يجب أن يكون ذا مرتبة أرفع.

قلت الدكتور قابل الآخرين بصفته مستشاراً.. ولا سبيل الى الأرفع عبر هذه القناة سوى الرئيس ذاته، فانتظروا ، ولكن لا تعتمدوا علي.

وبعدها ، وبعد مماحكات عديدة ومضنية أتى وفد منهم .. وقابل الدكتور، وربما كانت هذه المقابلات هي التمهيد لما حدث بغد ذلك.

* * *

وبعد ذلك يتبقى أن نسأل عن حدود دورنا فيما يترتب على لقاءات كهذه؟

وعن مدى ملاءمة أن نفتح صدرنا كي نفتح لهؤلاء الأخوة قنوات

يريدون هم لها أن تفتح . ويجدون هم أن مصلحتهم تتمركز في أن تفتح؟

ثم ، وبعد ذلك -أيضا- يتبقى علينا سواء، اعتبر البعض أننا نفعلها بحسن نية وبرغبة خالصة في تقديم خدمة لزملاء نرغب في أن نمد لهم يد العون، أو حتى اعتبر أننا مسئولون عما حدث وعما سيحدث كثمرة لمثل هذه المقابلات ، وكأننا نقتاد أناساً بلا إرادة الى حيث ما لا يريدون.. وكأن لنا نحن مصلحة أي مصلحة، في ذلك.. يتبقى لنا أن نتحسس مواقع أقدامنا، فالألغام التي دفعنا البعض دفعا أن نطأها من أجل ما يعتقدون هم أنها مصلحتهم قد تتفجر في أية لحظة.. فينا وحدنا.

فهل هذا قدرنا؟

أعتقد ذلك.

بلا إجابات

وإذ تمضي أمواج الفعل السياسي المعقد في واقع شديد التعقيد، تتبدى في أحيان عدة علامات ورؤى تتبقى في الذاكرة كأحلام بلا تفسير، وتفسيرها يستعصي على التفكير، فهي بلا منطق، أو منطقها غير متقن أو غير متوقع.

وثمه قول فلسفي يقول لنا، « من غير المنطقي أن تستخدم المنطق لفهم مسائل غير منطقية».. ولأن صياغات اللامنطق لا حدودلها، فإن حدود محاولات فهمها أو تفهم بواعثها تبدو محدوده جداً.

وتظل بعض الوقائع والتصرفات والمواقف بلا منطق .. ومن ثم تستعصي على تحديد بواعثها وتفهّم أهدافها.. وأحيانا تتوقع فخاً، في تصرف ما، فترفع قدمك بعيداً عنه، كي لا ينطبق على أطرافك، تفلت مما توهمت أنه فخ، لكن السؤال المعلق في ذاكرتك يتساءل دوما فى وميض قد يتكرر.. هل كان فخاً؟ أم أن توهمك قد أوهمك أنه فخ، ولم يكن كذلك؟

وفي هذا العالم الوغد عالم السياسية، يتوهم الناس الفخاخ في كل خطوة، يتوهمونها أو يتوقعونها، أو يتحاشونها، سيان، فأنت تفتح

المظلة وتسير بها في عز الصيف متوقعاً المطر الذي « قد »، أقول «قد»، يحدث. ويتأملك الناس في دهشة، هل أنت مُتطير؟ أم أنت مفعم بالوساوس؟ أم إنك مفرط في واقعيتك؟ لكنك تمضي حاملا مظلتك صيفا وشتاء، ليلا ونهاراً، وتكاد تنام وأنت ممسك بها مفتوحة، لتتقي ما قد يكون خطراً داهماً، أو وهماً وهمياً.

وتتراكم التساؤلات لتراكم معها اللا إجابات.

وأعود إلى ذكراتي، أو لعلها هي التي تعود إليّ في كل حين أخلو فيه لنفسي، أو تختلي هي بي، لترتسم عبرها حوادث ، تصرفات، مواقف.. تحتاج إلى تأمل، ومهما تأملت يبقى تأملك متأملاً فى الفراغ.

* * *

.. عندما أصدرت كتابي عن «أحمد حسين»، تأملت الكتابة، كانت قاسية جداً، لكن كل حرف فيها كان ملتصقا التصاقاً شديداً بالحقيقة. أدهشتني شخصية هذا الرجل المفعمة بالاندفاع ، الاندفاع في كل اتجاه، وفي كل فعل ، حتى في فعل الكتابة.. فكان كلما كتب وشى بنفسه في أذن التاريخ ، وكأنه نسي أن التاريخ لا ينسى، وأن ما هو مكتوب يبقى فريسة لمن ينقب فيه ويستخرج منه ما قال صاحبه عما فعل بنفسه، أو عما فعلت نفسه به. كتب « أحمد حسين» ما لو قاله خصومه فيه لما صدقهم أحد. لكنه قالها عن نفسه،ونقلتها أنا عنه، تعقبته في كثير مما كتب ، و ربما في أكثره، ووضعت قطع السيراميك إلى جوار بعضها دون تحيز أو انحياز ، فلم أكن راغباً ولا حتى محتاجاً لأي انحياز ، كان الرجل واضحاً، صريحاً، صراحة شديدة الوضوح، بل قل شديدة الفجاجة. وصدر الكتاب ليحدث دوياً في صفوف أنصار مصر

الفتاة القدامى، ودعاة حزب العمل الجدد.. وتحول الأمر إلى أزمة بين حزبين (يبدو أنني كنت دوما مثيراً لمثل هذه الزوابع) وصمم بعضهم على اللجوء إلى القضاء، متهمين إياي بالقذف والسب في حق الزعيم، وتناثرت أنباء عن أن دوائر في السلطة تغري دوائر من الغاضبين من الكتاب بتصعيد الأمر مع وعد بمساندة. وكنا في الزمن الصعب: نهاية عام ١٩٧٩ أو بداية العام الذي أتى بعده حاملا أشد موجات العسف الساداتي ضد التجمع. وفيما أتحسب ، وأستعد لاستعادة كل المراجع التى باحت لي بما كتبت كي أدافع بها عن نفسي، أو أدفع بها أي أتهام بالقذف في حق الرجل، وفيما ينقل إليّ البعض أخباراً عن عريضة دعوى جماعية تعد ضدي، وضد الكتاب ، تلقيت رسالة شفوية من الرجل الراقد في فراشه غير قادر على الحركة، يبلغني فيها استياءه من الحملة ضد الكتاب، وأنه شخصيا موافق عليه، ومندهش كيف نجحت في أن أعرفه أكثر مما يعرف نفسه، وكيف تعرفت على كل هذه المعلومات التي نسيها هو ، ونسي في غمار حياة صاخبة أن يتوقف أمامها ، وأن يتأمل تراكمها، وما يتكون عن هذا التراكم؟ قال إنه ضد أي قضية سترفع ضدي ، وإنه سيزودني بما يحميني. وبعد أيام أتاني رسول يحمل نسخة من مقال كتبه أحمد حسين في إحدى المجلات الثقافية، يعلق فيه على الكتاب، يمتدحه ويؤكد على ماجاء فيه، حتى ما كان مشينا مثل اعترافه فى أحد كتاباته القديمة (١٩٣٧) أنه تقاضى «ملء جيوبه ذهباً» من ملك السعودية، وحتى وقائع غير مقبولة بأي حال أكد هو على صحتها في المقال،واختتم مقاله - فيما أذكر - بعبارة تقول لقد غضب البعض من اتهام المؤلف لي أنني كنت متقلباً، وقال: إنني تقلبت

من الليبرالية الى الفاشية إلى الإسلامية إلى الاشتراكية، وقد كان محقاً في ذلك، ولكنه نسي أنني تقلبت أيضا بعد ذلك فانقلبت ضد الاشتراكية. وحتى ماذكرته عن وقائع تكاد أن تسمى « رشوة » جاءت من سياسيين و رجال أعمال للرجل وحزبه، علق عليها مبتسماً دون أن ينفيها، بل لعله أكدها على أساس أن هذا كان منطق العصر.

.. وفيما استشعر طمأنينة توحي بأن اللغم يجرى تفكيكه جاءني رسول من « أحمد حسين» يقول شفاها: « إن نزعتي الصوفية تأبى عليَّ أن ألاقى ربي كاذباً أو ظالماً . وأنت قلت الحقيقة، ولا أرضى أن تُظلم بسبب قولك الحقيقة» وكتابةً كتب الرجل بخط يده رسالة يشكر فيها المؤلف والناشر والطابع والموزع [إنها عقلية المحامي.. التي تنفي المسئولية عن الجميع] ويؤكد فيها أن كل ماقلته في الكتاب صحيح، وأنه ليس من حق أحد أن يلومني، أو يقاضيني فى شأن هذا الكتاب». ولم أزل أحتفظ بهذه الرسالة.. كوثيقة للغز محير ومتحير.

وتم تفكيك اللغم. فهل تجد معي إجابه عن سؤال مثل: لماذا فعلها الرجل؟ ولماذا تطوع بحمايتي رغم تقييمات شديدة السلبية وردت في الكتاب؟.

* * *

وفيما كانت معركتنا تتصاعد ضد كامب ديفيد، وضد التطبيع، أتى مصطفى بكري (وكان آنذاك أحد كوادر الحزب) محملا بانفعال شديد ضد شخص يمتلك (أوكان) محلا أنيقا في ميدان التحرير لبيع الأثاث والتحف، وقال إنه والد فنان معروف.. وقال إنه قد أسس - أو يوشك أن يؤسس - جمعية للصداقة المصرية - الإسرائيلية . وطبعاً بدأت حملة إعلامية ضد «م.أ» هذا.

كرد على الحملة تلقيت مكالمة تليفونية (كانت التليفونات طبعا مراقبة) «م.أ» هذا أكد - تليفونياً- أنه مصري مخلص لمصريته ، و أنه ليس خائنا.. وأنه.. وأنه، ولكي يثبت نواياه الحسنة فهو مستعد أن يعلن حل «الجمعية» ولكن عبر حالة إعلامية فاعلة. وقال إن هناك حفل استقبال سيقام في السفارة الإسرائيلية، وإن الكثيرين من الدبلوماسيين ورجال الإعلام الأجانب سيكونون هناك، واقترح - عبر التليفون أيضا- أن أرسل إليه شخصاً مأموناً ومضموناً ليتسلم عشرة بطاقات دعوة لهذا الحفل. وأن يحضر رجالنا الحفل ثم فجأة يهتفون ضد إسرائيل وضد كامب ديفيد وضد التطبيع، وفي هذا الإطار يقف هو ليعلن إنهاء مشروع تأسيس الجمعية .. لم أجب بشيئ، فقط تلقيت منه العنوان والموعد.. وشكرته.

وتبدت أمامي القصة كلغم ساذج غرسه الأمن كي يستدرج رجالنا. ثم تساءلت وماذا لو ذهبوا وهتفوا ، وسجنوا؟ نحن معتادون على ذلك . ثم ينمو اللغم في مخيلتي فيتبدى إسرائيليا: ماذا لو اختطفوهم هناك في عمق السفارة، أو ألبسوهم تهمة قاسية : محاولة اغتيال أو تفجير؟.. هنا تصبح المغامرة مقامرة شديدة القسوة، وبالغة الخطورة، ليس على رجالنا فقط، وإنما على الحزب كله. ثم أواصل الانغماس في داخل الفكرة واحتمالاتها لتصفو سماءها أمامي باحتمال - ولو ضئيل - أن يكون الرجل صادقاً فيما يقول وما يقترح ، أليست هذه فرصة لن تتكرر؟

وبين غيوم وصفو، شكوك وتصديق.. تعصف احتمالات اللغم أيا كان مصدره باحتمالات التصديق .. ويتبقى في الذاكرة سؤال بلا إجابة: ماذا لو أن...؟

ماذا لو أنني صدقت وكان لغما؟ وماذا لو كان الرجل صادقا .. وأفسدت أنا صدقه بأوهامي؟

* * *

وفيما كنت يوما فى زيارة بيروتية، وكعادة الفلسطنيين هناك تكون لقاءات القادة [أبوعمار أساسا] في المساء.. تتوهم أن المساء هو المساء فاذا به ما يقارب مطلع الفجر.

وفي جلسة مسترخية تجمع فيها القادة الكبار أبو عمار، أبو إياد، أبو الهول وآخرون ... استرخينا، خلع أبو عمار حذاءه [إنه الرمز عنده للاسترخاء] وجلسنا نمزج الحكايات بالنكت بالتحليل السياسى بالأخبار وأيضا بالأحلام.شكرني أبو عمار على بعض مما فعلت لهم، وقال مازحاً عندما تقوم «الدولة» ستكون وزيراً فيها، انفجر أبو إياد ضاحكاً وقال لا تنخدع بما يقوله « الختيار» (هكذا ينادون أبو عمار، أو كانوا يناودنه قبل لقب الرئيس) فإذ تقوم الدولة.. وتأتي فيها سيكون مكانك، بلسانك الطويل هذا في السجن. وقبل أن تكتمل الضحكة، كان رجل الأمن العالي الكفاءة والشديد الدهاء يلتقط خيطا يبدو أنه انتظره ليقول عبارة كان يتحين الفرصة لتفجيرها.. قال بمناسبة السجن أريدك غداً، فلدي خبر قد يقتاد صديقا لك الى السجن. بعد هذا القول الموجز استمر الضحك أو التضاحك، حتى ذبلت الكلمات وآن لنا أن ننصرف. أبو الهول لم يزد، ولم يحدد موعداً، وأنا طبعا لا أعرف أين يمكن أن أزور رأس الجهاز الأمني الفلسطيني. ابتلعت أسلئتي وانصرفت. فقد آثرت ألا أبدو متلهفا، إنها خبرة التعامل مع مثل هؤلاء القادة، سواء السياسين أو الامنيين، فما بالك بمن يجمع الاثنين معاً؟. ويمضى الغد

أو يوشك، وفيما كنت أمضي السهرة فى بيت مصري وإذ أنصرف كانت سيارة تقبع أمام باب بيت الرجل. أحد ركابها تقدم بأدب ليبلغني أن أبا الهول فى انتظاري، طبعا لم أسأل كيف عرفوا مكاني؟ فقد كانوا تقريبا يعرفون كل شئ. ولم أحاول أن أتاكد هل هم فعلا رسل من عند الرجل أم من عند غيره؟ .. كنت بدفعات مترفقة قد أصبحت في مقعد السيارة الوثير، وكانت سرعتها الجنونية توحي بأنهم فعلا فلسطينيون وأنهم فعلا، رسل أحد المسئولين..

كان أبو الهول محاطاً ببعض رجاله ، صرفهم ثم بدأ يحكي لي وبتفاصيل مفصلة قصة اختراق الأمن المصري لمحاولة تأسيس تنظيم يساري مصري جديد عبر مساندة عراقية.. ذكر أسماء مذهلة (حكيت القصة كاملة فى لوحة سابقة) من بينها صديقه الصدوق لطفي الخولي، بل وذكر اسم رجل الأمن المصري المقيم دوما (وحتى الآن) في بيروت، والذي تلقي هذه المعلومات دون جهد من رجل أمن عراقي (لعلها كانت مغازلة عراقية .. حكومية أو حتى فردية).

.. كنت أعرف أنه صديق حميم للطفي الخولي، ليس فقط على المستوى السياسي والشخصي، وإنما على المستوى العائلي أيضا، وكنت أعرف أنه يعرف أن علاقتي بلطفي الخولي كانت لا تسمح له بأن يعطيني ما قد أستخدمه ضده، فقد كان على علم بخلافاتنا، بل وكان يتخذ موقفاً ضدي تقرباً لصديقه المقرب. وكنت أعرف أنه يعرف كيف يبلغ هذا الامر وأي أمر آخر إلى لطفي، فهو رجل أمن يمتلك كل خيوط التماس التي تمكنه من إيصال أي شئ إلى لطفي .. أو الى من يريد.

فماذايريد هذا الرجل؟ هل يستدرجنا إلى معركه؟ وما هي

مصلحته؟ هل هو على خلاف مع لطفي؟ هل يتخذني أداة ضد أحد ، لصالح أحد؟ أم هي وشاية برجل الأمن المصري؟ أم برجل الأمن العراقي؟ أم وشايه بالعراقيين ؟ أم إحراج لي ؟ أم خدمة جليلة يقدمها لنا كي نتحصن ضد احتمالات اختراق؟ أو ضد تفجيرات قد تفجرها السلطة؟.

ويرحل أبو الهول بأسراره الكثيرة ، ويرحل لطفي وأغلب من ورد اسمهم ضمن قائمة التنظيم المفترض.. وتبقى الاسئلة بلا إجابات.

* * *

هل أكتفي؟

وهل أنا بحاجة الى تأكيد أنها لم تكن سوى أمثلة .. مجرد أمثلة من واقع كانت تتراكم فيه الألغام .. أو الأوهام .. أو المخاوف والشكوك .. أو الروايات والروايات المضادة؟..

إنه قدر السياسي في واقع معقد ، وزمن معقد، وأساليب عربية المذاق ، بدوية الدهاء، غامضة المحتوى بحيث تتبدى وكأنها بلا منطق..

ومن غير المنطقي أن تستخدم المنطق لفهم أساليب غير منطقية..

ولهذا ستبقى تساؤلات كثيرة وكثيرة جداً ..بلا إجابات.

أن تناضل محاذرا
كأنك تسير على أطراف أصابعك

كان السادات يتمادى في ضغطه علينا، وكنا نحن نتمادى في حملة العداء له. تحمسنا في معارضتنا. تفاقم حماسنا ككرة ثلج تستدرج المزيد والمزيد. تتحمس فيزيدك ذلك حماساً، وتصمد في حماسك فتستمتع بالمزيد من الحماس. تتمادى بلا رجوع أو تراجع،

وكان السجن يفتح أبوابه لأعضائنا فيزيدهم ويزيدنا حماساً واندفاعاً. يدخل البعض إلى السجن ليتمادى الآخرون أكثر فاكثر. ثم تكون لعبة الكراسي الموسيقية، يخرج من بالسجن ليدخله من بالخارج.

ونتواصل . ونمتلك القدرة على تواصلنا بعد أن أدركنا قواعد اللعبة: هو لن يستطيع أن يسجن الجميع.. لا يمكنه أن يسجن آلافاً..أو بضعة عشرات من الآلاف، وهو لا يمتلك أكثر من السجن. ونحن لا نرتكب فعلا ما يخالف القانون، فقط نعارض . نوجع بمعارضتنا. ولكن لا نتجاوز عتبة القانون.فيظل السجن مرحلة تنتهي بانتهاء بضعة أشهر لأنه لا جريمة أصلا.. وتستمر لعبة الكراسى الموسيقية.

كان السادات يعرف هو أيضا قواعد اللعبة، لم يكن ساذجاً حتى لا يعرفها. وكان يعرف أنه قد تمادى في لعبة العصفور والخيط.. استجمع

كل أطراف الخيط الذي يربط ساق العصفور به.. لكن العصفور يظل مغرداً وبأعلى صوت حتى وهو في القفص . أو قريب جداً منه. وكان التضامن العربي، يمنح تغريدنا صدى مضاعفاً بأضعاف تدهشنا وتزيد حماسنا، وتغيظ السادات، وتزيده رغبه في افتراسنا.

لكن السادات لم يكن ساذجاً. كان بالضبط كما تحدثنا عنه من قبل. كان يريد إسكاتنا وليس إخماد أنفاسنا. كان يريدنا معارضة هادئة يزهو بها.. ويتزين بمعارضتها التي لا تعدو أن تكون مديحا في إطار مداعبات حميمة.. هكذا كان الآخرون: حزبا الأحرار والعمل.. وحتى عندما زار اسرائيل كانوا في ركابه.

..لكننا لم نكن، ولم نعتد أن تكون معارضتنا للزينة.. تصلح كي يتجمل بها النظام.

وبعد المزيد من محاولات التطويع أو الإسكات بالسجن ، واقتحام المقرات، ومصادرة أجهزتنا ، وإسكات الأهالي.. وسجن الزملاء.. وحملات الصحافة .. اكتشف السادات أنه يحتاج إلى جرعة أزيد من الضغط.

وكان الضغط الجديد على الطريقة الساداتية، تماما كعمدة القرية الذي يريد أن يروع الخصم فيسرق ماشيته، أو يرسل من يدفع بعدة طلقات فوق رأسه .. لعله يرتدع.

وهكذا تماماً فعل.

ألم نقل إنه يمتلك نفسية العمدة الذي يدبر الأمور بدهاء فلاحي ماكر؟

* * *

وكانت البداية بطلب استدعاء لمقابلة وزير الداخلية.. وذهبت لمقابلة الوزير النبوي اسماعيل.

بدأ ودوداً وإن تبدى الأمر وكأنه تمثيل مفتعل، كان يتودد رغم أنفه وكأنه يتجرع دواءً مريراً، تحدث طويلا عما نرتكب من مخالفات، قلت، وأكدت أننا لا نتجاوز حدود القانون. قال: نعم ، هذا صحيح، ولكنكم تتجاوزون حدود المسموح به. سألت في براءة غير مفتعلة: وهل هناك فارق بين القانون، وبين ما هو مسموح به. قال: طبعا. أنتم مواطنون، واحترام الرئيس واجب عليكم. قلت المعارضة شيئ والاحترام شئ آخر.

كنا نتكلم لغتين مختلفتين، لم يفهم أحدنا الآخر. وكان من الصعب أن نتفاهم حتى لو توسط بيننا مترجم.

هو يتحدث عن العداء لمصر، فاذا به يقصد العداء للسادات، معارضة مصر فإذا به يعني معارضة قرارات السادات ، ويتحدث عن ضرورة التوحد حول الأهداف القومية، فإذا به يقصد كامب ديفيد. ويتحدث عن بطل الحرب والسلام والديمقراطية، فاذا به يقصد ما نسميه نحن إهدار ثمار الحرب، وتدمير ممكنات الديمقراطية.

تجادلنا، تجادلنا . شرب عدة أكواب من النعناع. ومع قدوم كل كوب منها، يدق العسكري الأرض بزلزال يصم الآذان: أفندم معالي الباشا. ومع كل « أفندم» من هذه، كنت أتباعد أكثر.و بعد عدة ساعات من خطب مملة، ومقاطعات مني ، كانت هادئة، لكنها موجعة ومثيرة للملله وضجره (ألم أقل أننا كنا نتكلم لغتين مختلفتين) فجأة اهتز كرشه أمامه هزة عنيفة، نهض إلى منتصف مرحلة الوقوف .. وقال: المقابلة فشلت.

لم أفهم ما معنى فشلت؟ ولا ماذا كان يريد منها كي تنجح؟ وفهمت أنه ينهي المقابلة، فوقفت ، سلم عليَّ بغضب، وأحسست أنني قد تلقيت إنذاراً.. ما.

لكنني لم أهتم حتى بالتفكير فيه. فالسجن هو آخر ما بأيديهم.. وهو لم يعد، من فرط استخدامه ضدنا، مؤثراً، لم يعد يخيفنا. أصبح السجن معتاداً، وتكونت آليات لمواجهته، عبد الله الزغبي يحشد أفواجاً من المحامين [وكانت لجنة الدفاع عن الحريات تضم عديدا من المحامين لا يمكن أن أذكرهم جميعا ولكن لم لا نسجل أسماء مثل أحمد الخواجة، عصمت سيف الدولة. أحمد مجاهد ، حامد الأزهري، محمد فهيم أمين، وكثيرين غيرهم]. وبهذه الكوكبة المتحمسة والمتطوعة مجانا كنا نواجه البطش بالقانون أو بالدقة البطش غير القانوني. أما المسجونون وعائلاتهم فيتولى أمرهم لجنة ترأسها أمينة النقاش . آلية العمل منتظمة .. ولا مشكلة.

لكن شيئا ما كان ينمو في داخلي وأنا عائد الى البيت .. أحسست أن ثمة جديداً. وأن السادات قد ضاق بنا ذرعاً فعلا..

* * *

ولم أنتظر طويلا.

سريعا جاءت الطلقات التحذيرية فوق الرؤوس.

كان ثمة مراسل فرنسي لجريدة لوموند ، وكنا نعرف أن الأمن غاضب منه [أو هكذا كان الأمن يتظاهر]. فقد كانت مقالاته عن مصر قاسية إلى حد يتجاوز حدود جريدة وقورة. وكانت «لوموند» تواصل مساندتها لنا [إلى درجة أنها نشرت خبر القبض عليَّ عام ١٩٧٧ في

مكان بارز، واعتبر ذلك أمراً غير معتاد من جريدة محافظة مثل لوموند، لكننا كنا نعرف عن هذا المراسل أنه « فيشه » (تعبير نستخدمه لنصف أشخاصا يستخدمهم الأمن لينقلوا عنه وإن بحسن نية، ما يريد هو أن يصل إلى جهة ما).. وجاءني «بيرانسيل» ليهمس في أذني ونحن في منتصف السلم أن مصدراً مهما أومأ اليه أنه قد تُدبر عمليات اغتيال ضد بعض قيادات المعارضة قد يكون من بينها خالد محيي الدين و أنا. شد على يدي قائلا احترسوا.. ثم عاد بعد أن أبتعد خطوة وقال: أنا آسف. أنا لن أستطيع نشر خبر كهذا. فالذين أبلغوني لا يتوقعون أن أفشي أسرارهم.

.. تأملت الرسالة التي أتت عبر « الفيشه » [اتخذت رمزا لأنها تقوم بتوصيل الكهرباء] ، تساءلت هل هي صحيحة؟ أم.. مجرد محاولة للتخويف؟

قفزت الى الاسكندرية لأبلغ الأستاذ خالد. اتفقنا أن نحذر، وألا نخاف، أو حتى نتظاهر بالخوف، حتى لا يتمادوا.

.. في الصباح كنت معتاداً أن أمشي طويلا بأمر الطبيب الذي يعالج عمودي الفقري.. كنت أمشي من بيتنا في المنيل وحتى مؤسسة الأهرام مستمتعا بالسير على مدى الكورنيش في ساعات الصباح الباكر.. مترصدا في ذات الوقت مقابلة اثنين من أشهر المشائين في هذا الزمان: توفيق الحكيم وجلال الحمامصي، نحيي ونطلق تحية الصباح وجملة أو جملتين، ثم يواصل كل منا رحلته.

وبعد يوم من همسات بيرانسيل، لمحت وجها نحاسيا مميزاً. أنا لا أستخدم كلمة «نحاسي» كتعبير أدبي، كان نحاسياً فعلا، لونا وملامح

وجه مثل وجه الهنود الحمر، ولكن بملامح مصرية، يمسك في يده سلسلة مفاتيح يهزها بعصبية ، وكأنه يقول لي : هذه علامتي، وكلما رأيتني تأكد أنني أراقبك.وكانت ملامحه جامدة لا توحي بشئ.

تجاهلته ومضيت في طريقي.. عند الكورنيش وجدته من جديد آتيا في مواجهتي . ذات السلسلة . ذات الاهتزاز العصبي . أشحت بوجهي كأنني لا أراه . وحتى وصلت إلى الاهرام كنت قد رأيته خمس مرات. كان يمر بي، ثم أجده بعد فترة في مواجهتي، لابد أن سيارة كانت تسرع به لتقذف به أمامي من جديد.

ما هكذا تكون المراقبة. كنت أعرف تماما قواعد المراقبة، وأتقنت إلى حد ما فن التعرف على من يحاولون مراقبتي. هذه ليست مراقبة .. هذا ببساطة: ترويع. طلقات فوق الرأس . كي تخاف.

أما خالد محيي الدين، ففيما كان يغادر بيته في الإسكندرية كي يأتي إلى القاهرة. لاحظ السائق شخصا ينفلت، كان منحنيا بالقرب من إحدى عجلات السيارة [إنها نفس الطريقة ، كأنه يقول لك أرجوك اعرف.. أرجوك حاول أن تراني] طلب الأستاذ خالد الى السائق أن يفحص العجلات، في كل عجلة كانت المسامير الأربعة نصف مفكوكة.. إنه تحذير جديد.

.. وتمشينا خالد محيي الدين وأنا في ممشى نادي الجزيرة . تأملنا الأمر بهدوء بارد.. على طريقة اليوجا.

هم يريدون فقط إخافتنا، يأملون أن نفزع ، فنسكت ، أو نهدأ، لكنها بالقطع ليست محاولات للاغتيال فهم ليسوا سذجاً الى هذا الحد، حتى يرتبوا اغتيالات بهذا الأسلوب غير المتقن.

ولكن كيف نرد؟ قلبنا الأمر أكثر من مرة، واتفقنا على خطة بسيطة: أن نتساذج، أي نتظاهر بالسذاجة، وكأننا لم نلاحظ شيئا. ثم نفسد الفيشه ليعرفوا ولتعرف الفيشه أننا لسنا بسطاء الى هذا الحد.

أن تضع هدفا هذا سهل، لكن كيف تجد أسلوب وأداة تنفيذه؟

بعد تفكير طويل وحوار، ارتسمت الصورة . أن يسافر شخص إلى باريس . أن نسعى كي ننشر خبراً في «لوموند» بالذات. بهذا يعرف الذين يحاولون ترويعنا عبر فيشه خاصة بهم أننا لا نبتلع مثل هذه الأشياء . هذا إن عرفوا أننا وراء النشر، هذا احتمال ، والاحتمال الآخر أن يتشككوا في أن الفيشه قد خانتهم.. وهذا مفيد، لأنه موجع.

وسواء هذا أو ذاك فإن لعبتهم سترتد اليهم، وسيوقفوا هذا العبث. أما بيرانسيل فيتعلم هو أيضا أن القفز على الحبال غير مسموح به معنا.

.. سيدة فرنسية متزوجة من ابن زميل لنا .. قابلتها في نادي الجزيرة .. طلبت منها ببساطة أن تسافر بعد يوم على الأكثر الى باريس.. وأن تحمل معها رسالة. أريتها الرسالة: ورقة بافرة (ورق لف السجاير) واحدة. تكاد لاترى بعد تطبيقها، أخَذتها في يديها .. شبكتها بيدها في «توكه» كانت تزين شعرها. شدت على يدي ببساطة وشجاعة قائلة: «أوكي».

في باريس سلمت الرسالة إلى ميشيل كامل. ومنه الى إريك رولو، ومنه إلى الصفحة الأولى في «لوموند».

.. «علمت لوموند من مصدر مطلع أن نظام السادات يستعد لشن حمله اغتيالات ضد معارضيه، وأن من أهم المرشحين للاغتيال .. خالد محيي الدين ورفعت السعيد».

.. اختفى الوجه النحاسي ..عجلات سيارة خالد محيى الدين توقف العبث بها..

و بيرانسيل أبعد عن مصر.

.. بيرانسيل هل آن لي أن اعتذر لك ؟.. (هذا إن كنت حسن النيه) وهل تقبل اعتذاري؟ ،أما إذا لم تكن فلابد أنك قد تلقنت درساً . أليس كذلك؟

* * *

.. مرة أخرى يضيق السادات بنا، يتصرف وكأنه لا يحتملنا ، يحاول إسكاتنا .. دون أن يخنقنا، كان خالد محيي الدين متجها إلى زيارة لساحل سليم [أسيوط]، هناك أحد معاقل الحزب، ومن هناك سيتبدى ومن جديد قرارنا بأننا نواصل التحدي.. مؤتمر جماهيري في ساحل سليم. النبوي اسماعيل هدد تلفونيا . أمنكم هناك غير مضمون، أنا لا أضمن حياة خالد محيي الدين في بلد كهذه. وتواصل التهديد إلى أقصى مداه..

جاءت فيشه (لكنها هذه المرة صعيدية) همس أحدهم في أذن الشيخ سعيد جمال الدين (مسئول الحزب في ساحل سليم) أن مجرما من المقبوض عليهم في جرائم قتل، جرى نقله الى قسم الشرطة في ساحل سليم وأن هناك اتفاقا يعقد معه .. أن يجرى تهريبه ليطلق الرصاص على خالد محيي الدين ثم يعود إلى الحبس، ولا يمكن أن تثبت عليه التهمة فهو مسجون ولا يوجد أثر لخروجه من السجن، وسيكون الثمن تسوية القضايا المتهم فيها، بهذه القصة حاولوا إخافتنا، لكن الغريب أننا قررنا أن يسافر خالد محيي الدين الى ساحل سليم رغم أننا لم نكن

متأكدين أن الخبر أتى عن طريق (فيشه) أو عن طريق شخص ينصحنا فعلا.. بمعنى أن المحاولة ستتم فعلا.

فقد كان زملاؤنا في قيادة فرع الحزب في ساحل سليم: الشيخ سعيد ومحمود عباس وأبو ضيف عبد الجليل قد اعتبروا الأمر مسألة كرامة.. وأن التراجع سيعني مساً بكرامتهم، وبسمعتهم، وسمعة الحزب في كل أسيوط .. وصمموا على إتمام الزيارة..

ويصل خالد محيي الدين ليجد زملاءنا حاملين رشاشات، يحيطونه برشاشاتهم في تحد لم نعتد عليه.. لكن أكثر ما أثار دهشة الجميع .. «بثينة» إبنة الشيخ سعيد التي كانت تمشي أمام خالد محيي الدين تماما لتحميه بجسدها حاملة هي أيضا رشاشاً. (نالت الآن دكتوراه في الاقتصاد).

.. وكانت رسالة أخرى منا الى السادات.

* * *

ويظل رفاقنا يضغطون علينا بحماسهم ونحن نستجيب لهم بحماس أيضا. وفي رمضان صمم رفاقنا في قرية « النزل» مركز دكرنس على دعوة خالد محيي الدين الى مؤتمر فلاحي.

.. قبل أن نسافر بدقائق اتصل النبوي اسماعيل محذراً الأستاذ خالد من السفر، هذه المرة الحجة أن الجماهير في النزل غاضبة وترفض زيارتنا، وأنهم قد يعتدون عليه، وأن لديه برقيات من الأهالي تطلب عدم زيارتنا وتُحملنا مسئولية هذه الزيارة، لأنهم سيمنعون الزيارة بالقوة.

.. خالد محيي محيي الدين قال ببساطه لقد تلقيت دعوة..

وسأذهب. إلا إذا طلبت قيادة الحزب هناك عدم ذهابي.

وذهبنا بعد أن سبقنا الى هناك من يحملون قصة اتصال الوزير .. وكالعادة جاء الترويع بنتائج عكسية. آلاف من الفلاحين ، خرجوا وعلى رأسهم العمدة [وكان عضوا في التجمع] وأحمد فتيح وكان زعيما حقيقياً للقرية وما جاورها من قرى [وكان مسئول التجمع بالقرية]، حاولت الجماهير المتحمسة أن تحمل سيارة خالد محيي الدين وهي تهتف هتافاً غريباً « الله حي.. الله حي . زعيم الثوره المقبل جيْ»

.. وبعد الإفطار انعقد المؤتمر.

كانت القرية محاصرة تماما بآلاف من قوات الأمن، وانتحى بي مدير الأمن جانباً، كان صديقا حميما لأقاربي بالمنصورة، تكلم بمودة تبدت وكأنها صادقة. قال إن تعليمات الوزير هي أن يفض المؤتمر بالقوة، وأن يستخدم أقصى أشكال العنف ، وقال بصراحة محمودة.. إن حماس الناس يخيفه، لأن هذا يعني أنه ستكون هناك مجزرة . قال: إنه يحترم خالد محيي الدين، ولا يتصور أن يتعرض له باعتداء. وإنه يحترم التجمع وشجاعته ، ولا يريد أن يتصادم معه . وبعدها دخلنا في مساومة صعبة.. طلبت وقتا محدداً وبعدها ننهي المؤتمر ، فلابد أن نعقد مؤتمراً وإلا فان البلدة ستنفجر، ونبدو نحن وكأننا فعلا خائفين.قال: أمامكم ربع ساعة. قلت: ساعتين، ودخلنا في مساومة انتهت بأن نعقد مؤتمراً لمدة ساعة واحدة. كنت أشعر أن الرجل يغامر بمستقبله بهذا الاتفاق . وقررت أن أحترم اتفاقي معه..

قال كما يفعل الطيارون : اضبط ساعتك على ساعتي، وأمامك ستون دقيقه فقط.

وبعدها قواتي ستفض المؤتمر بالقوة. استدعى أحد الضباط وأمره .. بعد ساعة بالضبط إن لم ينفض المؤتمر .. تقوم قواتك بتفريق الحاضرين بالقوة..

وبدأ المؤتمر متوتراً فأنا أطلب الى كل متحدث ألا تزيد كلمته عن خمس دقائق .. لكن زملاءنا لم يعتادوا على مثل هذه الخطب الرمزية.. الزملاء يتكلمون ، يتحمسون، يهتفون ، والدقائق تتآكل .. ولم يبق سوى خمس دقائق .. وأمامنا متحدث واحد أمين الحزب بالدقهلية رأفت سيف .. رجوته أن يختصر ، اختصر ، ولكن مهما اختصرت تحتاج الى ما هو أكثر من خمس دقائق .. وحدثت المعجزة وانتهى قبل أن تنتهي الدقائق الباقية بثوان معدودات.

وفيما أتهيأ لإعلان انتهاء المؤتمر قفز سمير عبد الباقي الذي كان يعتقد أن المؤتمرات لا تكتمل دون قصيدة منه (ثمة أناس يفترضون أن فرض أنفسهم على مؤتمراتنا حق لهم) ، أمسك الميكروفون وقال «بقيت كلمة الشعر» وفيما أصفعه وأنتزع منه الميكروفون كان الضابط يصرخ «إضرب» وانهالت العصي لتفرق المؤتمر..

لكنني صرخت في الميكرفون إننا ننهي المؤتمر .. وانتهى المؤتمر، لكن خطأ فرد كلفنا تدمير عدة سيارات، وكلفنا أكثر من ذلك أن المؤتمر لم ينته بطريقة لائقة.

* * *

وتتواصل الضغوط.. والرصاصات الطائشة - عن عمد - فوق الرؤوس . ونتواصل نحن مع ما نحن منغمسون فيه من حماس..

كان أبي بخبرته في الميكانيكا يقول لا يمكنك أن تضع كرتين فوق بعضهما..

وكان يقول: إطرق السندان ما شئت ، فلا المطرقه ستتعب ولا السندان.

* * *

ولكن وعندما يصدر السادات قانون حماية القيم من العيب .. وإذ نتأمل نصوص هذا القانون نكتشف أنها تقيد أيدينا وأرجلنا وأنفاسنا .. وحتى أفكارنا التي لم ننطق بها.

(أذكر أنني قابلت أحد الذين صاغوا هذا القانون سألته: كيف فعلتها ؟ قال بأسى وقرف: للأسف لقد جعلوا منا مجرد ترزية نفصل القوانين على مقاسهم وعلى ذوقهم .. وذوقهم - للأسف - منحط)..

حزب الوفد واجه الأمر بوجل ماكر: أعلن حل نفسه. (ولعل الباشا كان ماكراً إذ اتخذ قرار الحل من هيئة لا تخولها لائحة الحزب الحق في اتخاذه، كي يترك لنفسه الحقّ في الرجوع بعد ذلك، البعض فسرها مكراً، والبعض فسرها سهواً، ولكن سواء كان الأمر مكراً أو سهوا فقد أتاح ذلك لهم منفذا كي يعودوا) المهم أنه بحل حزب الوفد بقينا وحدنا في المعارضة... وحدنا تماما، ألم أقل أن الأحرار والعمل كانا مجرد كومبارس في جوقة السادات وجوقة كامب ديفيد؟

الوفد حل نفسه ، فماذا نفعل نحن؟

الحل غير وارد .. هناك آلام الحل القديمة، وهناك محاذير عديدة، منها على الأقل أن الوفد كان يمتلك مقراته.. ولعله قد نجح في تسريبها بأسماء أفراد منه، أما نحن فمقراتنا أتت إلينا من الاتحاد الاشتراكي ، وما أن تحل نفسك حتى يتم الاستيلاء عليها.. فما من أحد يمكنه أن يقول إنه اشترى المقر المركزي مثلا.. وكيف يمكنك أن تعود بعد أن تفقد مقراتك، وبعد أن يتفرق رفاقك، ويفقدوا قوة الدفع الذاتي الهائلة التي

كانت تغمسهم في غمار حماس متحمس لا ينقطع؟

.. تأملنا كل الأوضاع، لجأنا الى مدرسة خالد محيي الدين في التفكير.. التفكير على طريقة اليوجا.. وقررنا أن نصرخ بأعلى صوت محتجين .. دون أن نحل الحزب . كيف؟

كان القرار هو تجميد النشاط الحزبي..

استدعاني وزير الداخلية، سألني ما معنى التجميد .. قلت التجميد هو التجميد.. أن تضع شيئا في الفريزر كي تحتفظ به دون تلف، وإن أردته استعدته.

اندفع أصبعه إلى شعره المتبقي، هرشه بعنف حتى امتدت الأصبع الى صلعته .. قال: وما الفارق بين التجميد والحل.

قلت الحل أن تلقي بالطعام .. والتجميد أن تحتفظ به في الفريزر.

قال: وماذا ستفعلون؟ قلت: سنتواجد .. ثم سنفكر، ونخبرك بخطوتنا المقبلة.

وبعد مرواغات لا معنى لها.. انتفض الكرش من جديد واقفاً هذه المرة.. وخرجت.

.. ورغم التجميد كانت مطابع المقر المركزي تتنفس باستمرار، وكان رفاقنا يتنفسون دوما نضالا وعملا ومعارضة..

وكان الأمن يجيبهم سجنا .. ومطاردة..

ويتمادى السادات..

ونتمادى نحن أيضا.

وتنبت من هذه المعادلة فكرة جديدة عند السادات . فاذا كان السجن للبعض يزيد حماس البعض الآخر، وإذا كانت طلقات رصاص

فوق رؤوسنا لا تخيف .. فإن الحل عند عمدتنا الماكر غير الماهر قد ضاقت سبله ، وانسدت منافذه، ولم يبق سوى قرارات سبتمبر التي انتهت بانتهاء كل شيء، بانتهاء عصر بأكمله.

الأهالي
هل يمكن إسكات صوت الرعد؟

قرأت هذا العنوان وأنا شاب صغير: «هل يمكن إسكات صوت الرعد؟» تدفق انبهاري وأنا أتابع مقالا صغيراً عن طائرات الناري وهي تنتقي من بين مباني لندن المحتمية بضبابها الكثيف مبنى جريدة التايمز.

اللهب يتصاعد .. المبنى يدمر، هتلر يهتف في جموع منتشية بالغبار النازي.. معلنا: اليوم أسكتنا صوت الرعد.

وفي صباح اليوم التالي .. في موعدها تماما، ودون أي تأخير كانت التايمز في يد القارئ.

يومها أيقنت أن الكلمة ليست فقط أقوى من السيف .. وإنما هي أيضا أقوى من المدفع .. وأقوى من النازية.

دوما تعلقت هذه الحكاية بذاكرتي ولم تزل، ولعلها هي التي منحتنى قدرة التحدى لدعاة التأسلم وتهديداتهم .

.. ومع صدور « الأهالي»، وصخب المواجهة ، واحتداد الحدة الساداتية ضدنا، ومع الملاحقة والمصادرة، كنت دوما أجد هذه الحكاية تطاردني .. تستحثني أن أتذكرها .. أن أتمثلها .. وأن أسعى مع زملائي لمزيد من التواصل.

* * *

حكينا كثيراً، عما عانيناه من حملات إعلامية تركزت ضدنا، بدأتها الأخبار ثم تسابقت نحوها مختلف الصحف، حتى أن بعض المثقفين كانوا يتندرون بأن السادات سمح بقيام منبر اليسار كي يتخذ منه هدفاً للهجوم.

.. ولم يكن أمامنا من خيار سوى الاستمرار .. دون قدرة على رد العدوان، فلم يكن مسموحاً للمنابر بإصدار صحف، ألسنا أبناء أب واحد هو الاتحاد الاشتراكي المالك لكل الصحف القومية، أي كل ما هو مسموح بصدوره من الصحف؟.. وإذن من الناحية النظرية (في نظرهم طبعا) نحن إخوة، والصحف لنا جميعاً

(أليس كذلك؟) فلماذا نحتاج الى صحف خاصة؟

وتصاعدت الهجمات تصاعداً مبالغاً فيه عندما وجه الاتحاد السوفيتى مذكرة الى الحكومة المصرية، تضمنت انتقاداً لسياسات الرئيس والحكومة.. وهاجت نغمات الأوركسترا، وهذا حقهم، لكن المهندس سيد مرعي وكان آنذاك رئيسا لمجلس الشعب اتصل بخالد محيي الدين طالباً أن يصدر المنبر الحديث الولادة بياناً يدين فيه الاتحاد السوفيتي والمذكرة التي أرسلها.

كنا لم نزل في ٢ أبريل ١٩٧٦ (وافق الاجتماع المشترك لمجلس الأمة واللجنة المركزية للاتحاد الاشتراكي على قيام المنابر الثلاث في ٢٩ مارس).. أي هي بضعة أيام فقط .. ومع ذلك كان رد خالد محيي الدين مؤكداً أنه احتراماً للديمقراطية الحزبية، فإنه لا يملك وحده إصدار بيان كهذا وأن عليه انتظار اجتماع للقيادة حتى تصدر هي قرارها. وكان خالد محيي الدين يضع في اعتباره فصائل اليسار واحتمال اختلافها

حول أمر كهذا ..وهاج الأوركسترا الدائم العزف نشازاً في الصحف القومية.

ولم يكن أمامنا سوى أن نحتمل.

وفي أغسطس ١٩٧٦ ناقشت الهيئه التأسيسية للمنبر الحملة الإعلامية ضدنا، وطالبت رئيس الاتحاد الاشتراكى (السادات) باستخدام سلطاته لتعديل تشكيل مجالس إدارات الصحف اليومية بما يكفل تمثيلا متوازنا للتيارات السياسية والاتجاهات المختلفة. مع المطالبة بتعديل قانون الصحافة ليسمح للتنظيمات السياسية والنقابات والمنظمات الجماهيرية بإصدار الصحف والمجلات.

وكنا في ذلك الحين نصدر نشرة داخلية أسميناها « التقدم»، فقررنا تطويرها.. وإصدارها أسبوعياً.

ولكي ندرك حقيقة الحملات الهجومية ضد منبر اليسار يكفي أن نشير الى أن مركز الدراسات الاستراتيجية والسياسية بالأهرام، وهو أبعد ما يكون عن الانحياز إلينا، قد أحصى الهجمات النقدية المتبادلة في الصحف خلال معركة انتخابات مجلس الشعب [اكتوبر ٧٦] فوجد أننا نلنا بنسبة ٨٤٪من هذا النقد.

ثم حدث التحول الأهم..

السادات أعلن في خطابه أمام مجلس الشعب [١٩٧٦/١١/١١] تحويل المنابر الثلاث الى أحزاب.. داعيا الأحزاب الى التنسيق مع أمين الاتحاد الاشتراكي لبحث مسألة ملكية الصحف القومية، وكيفية اقتسامها..

.. وتفجرت الاقتراحات: بعضها تمادى الى حد الاقتسام.. جريدة

يومية لكل حزب ، والبعض تواضع الى حد الاكتفاء بمنح كل حزب مساحة في هذه الصحف يعبر فيها عن نفسه.. إلى أن حسم السادات الأمر فأخذ لنفسه كل الصحف القومية .. كلها بلا استثناء: يومية وأسبوعية وشهرية.. وكل مطبوع قومي. بالإضافة طبعا إلى الإذاعة والتليفزيون، وأعطى للأحزاب الحق في إصدار الصحف .. أعطاه حقاً «سيادياً» بأن أعلنه دون أن يكون هناك نص قانوني يسمح بصدورها أو ينظم هذا الصدور، فقد حدث هذا فيما بعد.

و بدأ حزب الأحرار رغم صغره ومحدودية عضويته الى حد التضاؤل بإصدار صحيفة أسبوعية مستنداً الى محبة وثيقة ومتبادلة مع السادات.

ثم داهمتنا أحداث يناير ١٩٧٧ وحملات القبض والاعتقال ضد أعضائنا وحملات الهجوم العاصف ضدنا بما جعل من إصدار صحيفة في هذا المناخ أمراً مستحيلا.

ثم هدأت العواصف .. وصدر القانون ٤٠ لسنه ١٩٧٧ المنظم لقيام الأحزاب السياسية وحقّها في إصدار الصحف..وبدأنا نفكر في إصدار جريدة.

.. وبدأت المشكله الصعبة بسؤال تبدى سهلا في البداية..

أي اسم نختار لجريدتنا ؟ .. صلاح حافظ اقترح «المصري» ، حسين عبد الرازق اقترح « اليسار» .. محمد عودة وأنا اقترحنا «الأهالي» (هو من منطلق صحفي، وأنا من منطلق تاريخي، فقد كانت «الأهالي» أول جريدة يسارية أو تتحدث بلهجة يسارية صدرت في مصر سنة ١٩١٨، وتولى رئاسة تحريرها رفيق جبور).ثم تعلقت أبصار

الكثيرين باسم «اليسار»، أليس هذا الاسم المدون في شهادة ميلادنا عندما كنا منبراً؟ . لكن قولا حاسماً من د. محمد أحمد خلف الله أكد فيه أن «اليسار» قد تفهم على أنها جريدة ماركسية .. وطرح استقالته مقابل الاسم.. واخترنا أو بالدقة أجبرنا على اختيار « الأهالي».

ثم .. من يكون رئيس التحرير؟

توجهنا خالد محيى الدين وأنا الى بيت صلاح حافظ ، أليس أشهر الصحفيين اليساريين وأكثرهم كفاءة ومقدرة؟

.. الابتسامة الحلوة والدائمة على وجهه لم تفصح عن شيئ عندما تحدثت أنا طارحاً الأمر عليه.. ثم قال بكلماته الهادئة: «في الحقيقة لو لم تقترحوا هذا الأمر لكنت قد غضبت » وفيما نوشك على الابتهاج، لحقنا بكلمة « ولكن» .. ومضى: «ولكن لست أعتقد أنه من المفيد أن أكون أنا رئيس التحرير.. فلم لا يكون خالد محيي الدين بصفته وجها مقبولا من كل تيارات التجمع رئيسا للتحرير؟ وإذ تحجج خالد محيي الدين بمسئولياته كأمين عام .. قال صلاح بهدوء بسيط.. أنا سأكون معك.. وتحت أمرك..

وإتفقنا هكذا .. خالد محيي الدين رئيسا للتحرير.. المسئولية التنفيذية للتحرير لصلاح حافظ .. عبد الغني أبو العنين مسؤولا عن الإخراج الفني والتنفيذ .. محمد عودة للقسم الثقافي .. فيليب جلاب للقسم الخارجي.. حسين عبد الرازق لسكرتارية التحرير، د. علي مختار مسؤولا ماليا وإداريا. إنها كافة ألوان الطيف اليساري.

ولأننا أدركنا منذ البداية أن الصحفيين منا لن تسمح لهم مؤسساتهم (القومية) بالعمل في الأهالي فقد اتخذنا أسماء سرية..

لكن ما أن بدأنا في الاستعداد الجدي حتى داهمتنا زيارة السادات للقدس.. وتنحى صلاح حافظ عن مسئوليته [لأنه كان في ذلك الوقت يميل إلى إتاحة الفرصة لتحقيق السلام ثم نحكم على النتائج] لكنه وعد بأن يستمر في الكتابة.

وبقي خالد محيي الدين رئيسا (رسميا) للتحرير،ومحمد عودة رئيسا (فعليا)..

وصدر العدد الأول من الأهالي .. الأربعاء أول فبراير ١٩٧٨، من ثماني صفحات .. والثمن ثلاثه قروش .

(كانت كل الصحف تباع بقرشين). وكان المانشيت « مطلوب وقفة حازمة مع «الصديق» الأمريكي» وكان السادات في طريقه الى واشنطن ليقابل كارتر، فاعتبر هذا المانشيت محاولة لإفساد زيارته.

أما كتاب العدد فقد ارتدى أغلبهم أسماء سرية .. صلاح حافظ (دبوس .أو «ص») .. حسين فهمي (حسين العربي) لطفي الخولي (عبده مسعود) سمير فريد(كامل توفيق) فريدة النقاش(سلمى البدري، وأحيانا فريدة عبد الرازق)، رفعت السعيد (مؤرخ وأحيانا اتخذت اسم ابني وكان ما يزال طالبا.. خالد السعيد).

أما أشهر الكتاب المتسترين فقد كان سعد الدين وهبة الذي كان يكتب عموداً موجعاً للغاية ، ونقديا إلى درجة عاتية ووقعه باسم «أبو شادوف».. وعندما توقف صلاح حافظ استمر فيليب جلاب في كتابة «دبوس»، ثم حل لطفي الخولي في تحرير «ابوشادوف» عندما توقف سعد الدين وهبة.

والحقيقة أن هذا الطيف الوطني واليساري كان تعبيراً عن التفاف

قوى وطنية ويسارية عديدة حول التجمع في معارضته لكامب ديفيد.

ولقد تحسبت الحكومة لذلك كله فأعطتنا فرصة الطباعة في مؤسسة ذات ماكينات مهترئة [أو كانت كذلك في ذلك الحين] وذات رئيس مجلس إدارة قريب جداً .. وملتصق جداً بدوائر هامة في الحكم (الأستاذ ممدوح رضا)، هي دار التعاون.

.. أما التوزيع فكان في قبضه مؤسسة الاهرام..

ومنذ العدد الأول نشعر بدفء وحماس كل القوى الوطنية واليسارية .. فما أن تدور المطابع وحتى قبل أن تدور تتجمع أفواج من اليساريين في الشارع المواجه لدار التعاون لتتلقف أول نسخ تفلت من المطبعة، وكان إبراهيم عبد الجابر خلاف، وهو أحد كبار المسئولين في «توزيع الأهرام» (وهو يساري مخضرم)، يحضر بنفسه يقف هو أيضا مع المحتشدين ليطمئن على كل الترتيبات .. وعلى تحرك سيارات التوزيع.أما الزميل كارم هاشم (عضو التجمع)، وكان سائقا في الأهرام، فقد كان مسؤولا عن حشد سائقي الأهرام.. ومنحهم جرعات من الحماس للجريدة .. حتى أننا فوجئنا ذات يوم بمعوقات في المطبعة .. وتلقفت سيارة الأهرام الأعداد بحماس محاولة اللحاق بقطار الصعيد، ومع ذلك وصلت محطة باب الحديد بعد تحرك القطار، فطار السائق بسرعة جنونية، وحقق مالم يتخيله أحد، لحق بالقطار في الجيزة.. وسلم نسخ الأهالي..

لكن لمثل هذا الحماس جانبه السلبي، فقد كان يثير حفيظة النظام والأمن .. وكل الخصوم.

.. وتصاعد توزيع الأهالي إلى أرقام غير متخيلة، وتصاعدت

سخونتها مع تصاعد معارضة التجمع لسياسات السادات، خاصة وأننا كنا نطأ في أحيان عدة حقول ألغام حصَّن بها السادات نفسه مانعاً الجميع من الاقتراب منها..

مثل الهجوم على النشاط الاقتصادي لأبناء الرئيس وأقاربه وأخوته.. هو وكبار المسئولين (دراسة د. جودة عبد الخالق عن «الرأسمالية العائلية») ومانشتات مثل «اتفاقيات كامب ديفيد عدوان على مصالح مصر وسيادتها»

وحديث لخالد محيي الدين عن قصة تأسيس تنظيم الضباط الأحرار .. يحكى فيه كيف أسس جمال عبد الناصر وعامر وكمال الدين حسين وحسن إبراهيم وخالد وحدهم أول خلية للضباط الأحرار، و كان بذلك يدوس على الجرح المؤلم عند السادات، الذي ظل يزعم أنه مؤسس تنظيم الضباط الأحرار.. ومقال لرفعت السعيد بعنوان «آخر ملوك مصر» .. تحدث فيه بشكل ماكر عن لجوء الملك الى تشكيل تنظيم من ضباط الجيش لحمايته من الضباط الأحرار هو « الحرس الحديدي» .. ويتذكر السادات وكل من يعرف التاريخ أنه كان عضوا في الحرس الحديدي.

وتصاعد الغضب الساداتي تصاعداً فاق كل غضب سابق.. وأسرع أنيس منصور ليعبر عن غضب السادات فكتب في مجلة أكتوبر « على الشعب أن ينقذنا من هذه الديمقراطية»، وتابع السادات الطرق بقبضة قوية إذ هاجم في خطاب أول مايو في شبرا الخيمة، حزب التجمع متهماً إياه بالغباء.. مؤكدا أنه إذا لزم الأمر فسوف يواجهنا بجموع العمال والفلاحين، ثم وفي خطاب آخر أمام مجلس الشعب (١٤ مايو) أعلن أنه سوف يحيل حزب التجمع الى اللجنة الخاصة بالاتحاد الاشتراكي للنظر

في تصرفاته .. وكان هذا تلويحا قاسياً بحل الحزب.

وفي اجتماع له مع رؤساء تحرير الصحف «القومية» قال السادات عنا «همه أصدروا كام عدد؟» وأجابه أحد الحاضرين «١٦ عدد» فرد السادات «كفاية عليهم كده».. وكانت إشارة واضحة.

فقد صودر العدد التالي مباشرة (١٧مايو).. بحجة أنه يتضمن «منشوراً مثيراً يتعرض بالهجوم الشديد لخطاب السيد الرئيس .. وتحريضا للجماهير. ومنعا للبلبه والإثارة الضارة بالمصلحة العامة التي تترتب على ترويجه»

وتوالت المصادرات.. المطبعة تقذف بالأعداد ، لتتلقفها أيدي أمن الدولة.. ومنهم الى القاضي أنور أبو سحلي مرفقة بقرار من النيابة العامة بالمصادرة.. وقد تخصص القاضي أبو سحلى في مصادرة الأهالي بصورة متوالية.. وكان السبب المتكرر هو « تلافي الآثار الضارة على المصلحة العامة التي يمكن حدوثها لو طرح العدد في الأسواق».

ونواصل ، فلاحيله لنا إلا أن نواصل . فالمصادرة لا تأتي إلا بعد الطبع والاستعداد للتوزيع، ويستمر النزيف.

.. ويستمر السادات في الطرق بشدة على رؤوسنا، وفي أول يونيو ١٩٧٨ عرض على مجلس الشعب مشروع قانون باسم « حماية الجبهة الداخلية و السلام الاجتماعي» ومر القانون رغم معارضة المعارضة، في اليوم التالي.. صدر ونشر وأصبح واجب النفاذ.

ورد حزب الوفد بحل نفسه بقرار من الجمعية العمومية للحزب.

أما نحن فقد أصدرت السكرتارية العامة في يونيو قراراً بتجميد النشاط الجماهيرى والاقتصار على العمل الداخلي في مقرات الحزب،

وإيقاف قبول عضوية جديدة. وإيقاف صدور جريدة الأهالي. وتوقفت الأهالي عن الصدور اعتباراً من ١٤ يونيو.

ويكون لزاما علينا أن نصدر العدد الأخير، ويكون المانشيت «الأهالي تصدر عددها الأخير بعد أن قررت الاحتجاب» «حزب التجمع يحدد مستقبله يوم الأحد».

.. ويحاول السادات بمكره الريفي أن يلعب معنا أو يتلاعب بنا.. فعدد ٧يونيو يصدر ليصادره الأمن لكن المحكمة تأمر بالإفراج عنه وتوزيعه. ومع ذلك توقفت الأهالي امتثالا للقرار الحزبي.

* * *

لكن من اعتاد على المعارضة الصاخبة لا يستطيع أن يعتاد على الهمس.. وبدأت ضغوط عديدة من أعضاء الحزب، والقراء، والأصدقاء بأن نواصل الصدور مهما كان الأمر..

وعاودنا الصدور.. وتحدد موعد العدد (٢٠) الأربعاء ١٢ يوليو ١٩٧٨ بعد أن توقفنا شهراً .

وتولي لطفي واكد رئاسة التحرير.. وبعد هذا التحدي الجديد أصدرنا عشرة أعداد صودر منها سبعة..

هم يصممون على المصادرة، ونحن نصمم على الصدور .. وبرغم صعوبات شديدة أكثرها مالي بالطبع، وضغوط متشدده أكثرها أمني، قررنا أن ندخل مع الحكم في اختبار أخير.

أصدرنا العدد ٣١ [٢٢ اكتوبر] .. وكان خاليا من أية أخبار أو تحقيقات أو موضوعات: فقط نصوص كلمات عشرة من أعضاء مجلس الشعب يعارضون فيها اتفاقيات كامب ديفيد في جلسة المجلس. وحرصا

منا على التمسك بالدقة، نقلنا الكلمات حرفيا من مضبطة الجلسة..

ودارت الماكينات دورتها المعهودة .. وبعد أن طبعت ألفي نسخة فقط، توقفت المطابع..

وبصراحة شديدة أبلغنا المسئولون في «دار التعاون» أنهم اتخذوا قرار التوقف عن الطبع بإرادتهم ودون طلب من الأمن، لأنهم وببساطة يرفضون طبع كلام كهذا.

.. ثم أتى الأمن وصادر الألفي عدد [كان يخشى من توزيعها] واستصدر قراراً بمصادرتها، لكن القاضي قرر الإفراج عن الأعداد المضبوطة.. فلم يكن ممكنا إيجاد سبب قانوني لمنع نشر ما جاء في مضابط مجلس الشعب حرفيا.

كنا صباح الخميس وأسرعنا إلى دار التعاون التي فاجأتنا بحجة غريبة جداً: إن العمال يرفضون [من فرط وطنيتهم] أن يطبعوا جريدتكم.

وتلقينا رسالة من الأستاذ ممدوح رضا رئيس مجلس إدارة دار التعاون تقول « تلقيت من عمال المطابع عدة مذكرات موقعة منهم جميعا يرفضون فيها طبع جريدة الأهالي، لما تتضمنه من موضوعات تتعارض مع قناعاتهم القومية والتزامهم السياسي، ويلحون في ضرورة الاستجابة لرغبتهم .. لذلك قررت فسخ التعاقد بين المؤسسة وبينكم اعتباراً من اليوم»

.. هل أنا بحاجة الى التأكيد على عدم صحة هذا الادعاء؟ عمال المطابع أكدوا لنا همساً أنه غير صحيح، على الأقل كان لنا سبعة أعضاء في المطابع .. أكدوا لنا أنهم لم يوقعوا طلبا كهذا، لا هم ولاغيرهم..

.. المهم لم يكن مجديا أن نبحث عن طابع آخر .. فالذي أوقفنا هنا، سيوقفنا هناك..

وسكتت الأهالي . .

ولكن هل سكت صوت الرعد ؟

التقدم ..
لا يمكن إسكات صوت الرعد

وإذ يتصاعد الحصار، وتختنق الأنفاس، لم نملك إلا أن نستعيد أبيات شعر لخليل مطران:

كسِّروا الأقلام، هل تكسيرها
يمنع الأيدي أن تنقش صخراً؟
قطِّعوا الأيدي هل تقطيعها
يمنع الأعين أن تنظر شزراً؟
أطفئوا الأعين، هل إطفاؤها
يمنع الأنفاس أن تصعد زفراً؟
أخمدوا الأنفاس هذا جهدكم
وبه منجاتنا منكم، فشكرا

ولم يكن الاستناد الى هذه الأبيات مجرد تذكر لحكمة نضالية.. وإنما فعلناها فعلا.. طلبت الى الزميل حامد العويضي فِنان الخط العربي المرموق، وكان آنئذ متفرغاً في المقر المركزي ومقيما فيه مع من أقاموا حماية للمقر من غزوات التتار الأمني.. أن يكتب هذه الأبيات بخطه الجميل، فتبدت الحكمة أكثر جمالا، والإصرار الكامن فيها أكثر حماساً.

وعلقتها هنا وهناك في أرجاء المقر.. وعندما أتى التتار الأمني في المساء ليقتحم المقر، وجدوها، وياللدهشة فهموها، فصادروها .. فأعدنا كتابتها.. لنشجع بها أنفسنا ولنغيظ بها خصومنا.

كنا نعلم أن إيقاف الأهالي يجب ألا يكون نهاية مطافنا الإعلامي، وكنا نمتلك منذ البداية نشرة داخلية هي « التقدم»، كانت مخصصة للتداول بين الأعضاء تنقل لهم أخبار الحزب ومواقفه..

وقررت السكرتارية العامة في اجتماع يخيم عليه حزن افتقاد الأهالي.. وتغلفه أبيات خليل مطران أن نعوض الأهالي قدر الإمكان عبر تطوير « التقدم» وتوسيع نطاق توزيعها ، وأن يتولى رئاسة تحريرها حسين فهمي(أمين الإعلام في الحزب)، وتشكل مجلس لتحريرها من حسين عبد الرازق (الذي كان يتولى الجزء الأكبر من مسؤولية إصدارها) ومحمود المراغي، سهام هاشم، وجيه الشربتلى، أحمد سيد حسن.. الخ.

.. كنا نطبع «التقدم» طباعة بدائية فتطورت شكلا ومضمونا، كنا نطبع منها ألفي نسخة زادت الى ثلاثة، أربعة... حتى عشرة، وأحيانا أكثر.

وبدأت «التقدم» في إصدار جديد.. تحولت الى جريدة المعارضة الوحيدة. ونشرت ما لا يمكن نشره في أية صحيفة أخرى..

مثلا نشرنا حواراً بين السادات وصلاح حافظ رشحه السادات رئيسا لتحرير روز اليوسف، وفي ذات الجلسة قال صلاح حافظ إن التطورات الأخيرة حولت الصحافة إلى رأي واحد وافتقدت التنوع والاختلاف .. غضب السادات واتهم صلاح بالجمود والدوجما.. وألغي تعيينه.

ومثلا خبراً آخر عن حملة تطهير ساداتية في أحد الأجهزة الحساسة

(المخابرات العامة) فنشرت خبراً عن عملية الاستبعاد رقم ٢ خلال عدة أشهر في هذا الجهاز.

وخبراً عن أسباب إلغاء الرقابة الإدارية.. «قبل الإلغاء .. صفقات مريبة، وتصرفات غير قانونية تكشف عنها الرقابة الإدارية .. الأسرار الكاملة لصدور قرار السادات بالغاء الرقابة الإدارية»، وتتوالى الأعداد لتدوس عن عمد على ألغام تنفجر على الفور في وجه الحكم.. « اتهام عسكريين بإنشاء تنظيم جديد للضباط الأحرار»

.. «صفقة، مالتي تريد» لحوم وجبن فاسد .. المستورد مسؤول كبير شغل مؤخراً منصب رئيس الوزراء».

.. كنا النافذة الوحيدة، فأصبحنا المصدر الوحيد لهذه الأخبار والمصب الأساسي لها، وهطلت علينا الأخبار من مصادر عدة لم نكن نتوقعها، مسؤولين كبار، وكبار صحفيين يهمسون في آذاننا التي تعلمت كيف تنصت، بأخبار بالغة الأهمية تتحول فوراً الى عدد من «التقدم» لتتلقفها وكالات الأنباء التي عرفت وعرفنا طرق إيصال النشرة إليها رغم الحصار الأمني المشدد على المقر. ومسؤولين كبار وصحفيين وكتاب كبار كانوا يلحون في الحصول عليها وكنا نجد سبيلا لإيصالها إليهم.. أذكر أنني كنت أبلغ الأصدقاء من محرري الأهرام بموعد الصدور، وصباح يوم صدورها كنت أفرغ ما يملأ حقيبتي من نسخ.. لتتلقفها الأيدي، النسخة الواحدة يجري تصوير عشرات منها على آلات التصوير في الأهرام [سراً طبعا] .. ويجري تداولها [همساً طبعاً] .. أما كبار الكبار من الكتاب كمال الملاخ، صلاح جلال ، حمدي فؤاد، فكانوا كعادتهم وعادتي يحضرون مبكرا جداً لنشرب القهوة في

مكتب كمال الملاخ... يتسلم كل منهم عدداً يتزايد باستمرار من النسخ ليوزعها على أصدقائه ونتبادل التعليق على ما ورد في التقدم من أخبار، ولأتلقى منهم أخباراً جديدة.. للعدد الجديد.

ولأنني عودتهم على الهمس، فقد كانت الأخبار الأكثر حساسية يهمس بها في الممر، وكان الملاخ يكتب الأخبار في ورقة وما أن أقرأها حتى أجده وقد أشعل ولاعته كي تحتوي نارها الورقة بأكملها، ألم أقل إنهم قد اعتادوا العمل السري؟!

وكان كل عدد من التقدم يثير سخط السادات، فيثير سخط الأمن، فتتوالى عمليات الاقتحام للمقر، ومصادرة كل شيئ ابتداء من آلات الطباعة إلى الآلات الكاتبة ، إلى الأوراق والأحبار وحتى أبيات شعر خليل مطران.

لكننا كنا نتواصل ونواصل. حتى صادروا خزينتنا وبها آخر مانمتلك من أموال .. بضع مئات، وهنا صعد نجم عم بُرق (محمد حسن جاد) ، حكيت لكم عنه كثيرا. على يديه تحول سطح المقر الى مصنع لأدوات خشبية يسهل تضنيعها، وتتكلف قروشاً ويمكنها، إن أتقنت صنعها والعمل عليها، أن تطبع أوراقاً على الاستنسل. كنا نكتب الاستنسل بأيدينا، ونصنع الآلة بأيدينا وبقروش قليلة.. فليصادورها . سنصنع غيرها.. وتتجلى صرخة خليل مطران:

كسّروا الأقلام هل تكسيرها

يمنع الأيدي أن تنقش صخرا؟

ونقشنا بأيدينا على الصخر .. فكان قادراً على النطق، ليس أي نطق، وإنما نطق موجع كمشرط حاد، يوجع الخصم، ويدمي كل جراحه التي يحاول إخفاءها.

.. لكن المشكلة الأساسية كانت في كيفية إخراج هذه الكمية من الأعداد خارج المقر، كي نقوم بتوزيعها على زملائنا في المحافظات.. والأمن يحاصر المقر نهاراً ويهاجمه ليلا.. ولقد تحدثت في صفحات سابقة عن كل الحيل والخبرات التي اكتسبناها في هذه المعركة التي كانت تنتهي دوما بقدرتنا على الإفلات، بعيداً عن أعين البوليس وكان معنا زملاء يتحلون بشجاعة وبساطة وقدرة على الإفلات، وشباب يأتون إلينا يطلبون نسخا لتوزيعها.. ويقومون فعلا بذلك.

أذكر أننا أصدرنا عدداً ساخنا تضمن بياناً للحزب عنوانه «الشاه ضيف مرفوض»، وفيما تجري -وبحماس اعتدنا عليه- عملية تجميع وتدبيس هذا العدد، أتى شاب، أنيق الملبس والمظهر، سنه يكاد يقترب من السابعة عشرة ولايتجاوزها، طلب نسخاً من «التقدم»، أعطيته نسخة، ألح في طلب نسخ عديدة، تأملت مظهره وأسلوبه، لعلها حيلة من الأمن ليعرف ماذا طبعنا، فيستعد لنا، أو يهاجم المقر صباحاً فيحصل على الصيد قبل أن يطير، تأملت حماسه، تأملت نظارته التي يشع من خلفها دفء لا يمكن أن يكون مفتعلا. حذرته من صعوبة الأمر، صمم أعطيته عشرين نسخة، طالب المزيد، قلت وزعها وتعال غداً خذ غيرها.

في الغد كنت أنا في نيابة أمن الدولة.. للتحقيق معي في مسألة «الشاه ضيف مرفوض» (حاول المحقق أن يتهمنا بمخالفة قانون العقوبات الذي يحرم الهجوم على رؤساء الدول التي تقيم مصر معها علاقات دبلوماسية، كان دفاعي أن الشاه طرد من إيران، ولم يعد رئيس دولة، كما أننا لم نهاجمه قلنا فقط لانريد استضافته) وفيما أخرج بعد

أن أخلي سبيلي اصطدمت بهذا الفتى الشجاع مقبوضا عليه محالا للنيابة. كان مبتسما ، أرسل نظره بعيدا ، كأنه لا يعرفني، لعله أراد أن يحميني، تذكرت وما أزال نظراته الهادئة . تساءلت ترى كيف كانت نظراتي أنا .. وأنا أتعرض لذات التجربة عندما كنت في الخامسة عشرة.

ترى أين هذا الشاب الآن ؟ كم أتمنى أن التقي به.

ولم تكن هذه حالة نادرة، تكررت وتعلمنا كيف نميز موفد الأمن وبين موفدي الوطن..

وتعلم زملاؤنا كيف يتعاملون مع الحصار الأمني .. وحتى في الأيام الدافئة كان زميلنا فؤاد ناشد عجمي يأتي من سمالوط (المنيا) ملتفاً بعباءة سوداء ضخمة.. يدخل بها خاوية ، ويخرج وقد حشر تحتها لفافات التقدم لتذهب معه إلى أكثر مناطق الصعيد ...

وزملاء عديدون قبض عليهم لمجرد أنهم حملوا أو وزعوا أو حازوا.. التقدم. أما هو، هذا الصعيدي الماكر، فقد عرف دوما كيف يفلت.

وبرغم الترويع والقبض والمصادرة واقتحام المقر .. واصلت التقدم تقدمها لتصبح جريدة المعارضة الأولى ، بل جريدة المعارضة الوحيدة..

وبقيت ملتزمة دوماً بما أملاه علينا خليل مطران من أبيات شعر.

ويُسدِل السادات الستار .. على نفسه

كثيرا ما يحاول السياسيون والمؤرخون أن يغرسوا خلافات قد تبدو مثيرة للدهشة حول الفارق بين إسدال الستار الإكلينيكى على هذا القائد أو ذاك .. وبين إسدال الستار الفعلي.

أثاروا ضجيجا فرضوه على الجميع أو افترضوه.. متى مات نابليون؟ في معركة واترلو؟ أم عندما تسلل هاربا من مصر بعد الإحساس بفشل حملته عليها؟ .. أم عندما لفظ أنفاسه منفياً.

ومع عبد الناصر أثير ذات السؤال: متى أسدل الستار؟ عقب انفراده منفرداً وحده ودون منازع بكل السلطة كاملة غير منقوصة، بعد أن أطاح بكل زملائه ورفاق دربه.. أم بالإبعاد أو بالتهميش. فأصبح دكتاتوراً مهما كان تقييمنا لما قدَّم وما فعل، خاصة وأنه قد نجح في تهميش دور كل المؤسسات الفاعلة أو التي يفترض أن تكون فاعلة. واستجماع كل سلطة، وكل قرار، وكل فعل في يده وحده؟ أم بعد الهزيمة المريرة [التي أسميت تهذباً بالنكسة] في يونيو ١٩٦٧؟ أم عندما بكته الجماهير مشيعة جنازته؟

أما السادات فقد انفرد، كعادته ، بأساليب أدت إلى تقييمات

متناقضة. فإذ يفترض البعض أن الستار قد أسدل على الزمن الساداتي.. مع بداية تخلصه من منجزات عبد الناصر، أو يفترض آخرون أن زيارته للقدس وما لحق بها من تداعيات كانت موعد النهاية، فإن هناك - وهذا لا يمكن إنكاره - بعضاً ليس بالقليل، وإن كان أقلية ولم يزل، يري أن هذا الفعل أو ذاك، أو هما معاً كانا البداية الناجحة للساداتية.

أرأيتم الفارق - هنا.. ومع السادات وحده تبدو المفارقة فارقة تماماً.. ما يعتبره البعض قمة البدء.. يعتبره البعض الآخر نهاية النهاية.

لكن نسبة كبيرة قد تتفق على أن قرارات سبتمبر والتي أُعتقل بموجبها ١٥٣٦ من أهم السياسيين المعارضين وغيرهم .. من القيادات في مختلف الاتجاهات والتيارات نزولا حتى القواعد، كانت النهاية التي أنهت العصر الساداتي.. وليس طلقات السادس من أكتوبر .. ذلك أن السادات قد خاصم بها الجميع، وعزل نفسه عن الجميع، وكالعادة المعتادة في زماننا الذى يفتقد الشفافية، والتوثيق الذي يمنحنا الثقة في نسبة الأفعال لأصحابها.. ما أن أطلقت الرصاصات .. ورحل «الرئيس» عن دنيانا حتى تنصل الجميع من قرارات سبتمبر .. ونسبوا أبوتها للسادات وحده، دون غيره.

بل لقد جادلت وزير داخليته عن هذه الفتره، بعد أن أصبح وزيراً سابقاً، حول مسئوليته عن القرارات، هو أو غيره من الأجهزة الأمنية فتنصل وبشدة من أي مسئولية .. وأكد، وألح في التأكيد على أن السادات كان صاحب القرارات سواء الاعتقال، أو الإبعاد عن مهنة الصحافة.. وأنه أصدر أوامر بإعداد قائمة من عدة آلاف تمهيدا

لاعتقالهم، لكن القائمة تقلصت لأنهم وجدوا أن أسماءً كثر غير ممكن اعتقالهم، سواء بسبب السعة المتاحة في المعتقلات، أو بسبب إمكانية حصر أسماء سياسية يكون ثمة مبرر لمخاصمتها ،بل إنه قال -وبصراحة- إن القوائم الأولية قد ضمت في بدايتها أسماء مكررة، وأسماء متوفين، وأسماء غير معلوم محل إقامتها..

..وهكذا يكون السادات .. وبنفسه، وبيديه هو الذي.. أسدل الستار.

* * *

ظل رنين التليفون متواصلا وبلا انقطاع ليلة هذه الحملة المجنونة.. عشرات من الأسماء تتراكم حتى سئمت من الكتابة، بعد أن يئست من إمكانية الحصر.. انتظرتهم أن يأتوا.. ولم يفعلوا. (فيما بعد سألت ذات الوزير فقال إن أوامر السادات كانت واضحة، هو يريد إرباك المعارضة، ضربها ضربة موجعة، خنق صوتها.. وليس خنق أنفاسها.. ولهذا استبعد من حزبي التجمع والوفد أسماء قياديين يبقون خارج المعتقل ..).

لكنني ما أن سمعت صوت ارتطام نسخة الأهرام بحائط البلكونة.. (إذ كان موزع الاشتراكات قادراً وبمهارة لا تخطئ على قذفها حتى الدور الرابع حيث كنت أقيم) حتى قفزت، لأجد اسمي ضمن أسماء عديدة جرى استبعادها من مؤسسات صحفية كي تعمل في وظائف إدارية في وزارات وشركات مختلفة. (كان من نصيبي أن أنقل إلى الهيئة العامة للاستعلامات .. وإذ ذهبت إلى هناك استقبلني مدير هام.. رسم ابتسامه ترحيب، سألني عن شعوري إزاء هذا النقل من «الأهرام» إلى الاستعلامات قلت مبتسماً «زي شكّة الدبوس» ضحك أو

تضاحك .. وأفهمني بلباقة أنني غير مطلوب مني الحضور، فلا مكان، ولا مكتب، ولا عمل .. فقط أتقاضى راتبي آخر الشهر، صحيح أن الراتب قد تقلص بالمقارنة بما كنت أحصل عليه من الأهرام، ولكنني استعدت قدراً من حيويتي، فها هي « الحكومة» تعطيني تفرغاً].

.. كنت أتعجل صباح هذه الليلة التعسة، أريد أن أقفز إلى المقر لأعرف الحقائق على حقيقتها.. كم من الزملاء اعتقل؟ وكم بقي؟.

وكان المقر كئيبا ونصف مظلم .. والتليفونات لا تكف، لترسم أمامنا صورة حزينة ومفزعة، يزيد من حزنها أن العائلات بدأت تتراكم، زوجات ، أمهات، آباء، أبناء يسألون عن مصير الزوج أو الابن المعتقل، ونحن لانعرف . من يعرف إذن؟ وينصب لوم كثير على رؤوسنا التي لم تكن تحتمل المزيد.

كانت أسماء زملائنا تصل إلى عدة مئات، فقد نالنا القسم الأكبر من الضربة، وخاصة في بنائنا القيادي.

الأمانة المركزية - المستوى الأعلى للعمل اليومي- كانت تضم سبعة عشر عضواً.. اعتقل منهم ١٤.. هل يكفي هذا الرقم لإيضاح الحقيقة؟ هذا بخلاف عمق الاعتقالات سواء عبر مختلف لجان المحافظات أو حتى في المستويات الأدنى.

قلت كان المقر كئيبا، فباستثناء ضجيج «العائلات» لم يعد يتردد علينا أحد. خاف الناس أو اختفوا. أذكر أن زميلا من القلائل الباقين.. استدعاني مشيرا عبر البلكونه المطلة على شارع محمود بسيوني الى روائي معروف كان عضواً في حزبنا، وكان يقف متردداً على الرصيف المقابل، يكاد يضع قدمه متجاوزة الرصيف ليعبر إلينا.. ثم يستجمعها

مرة أخرى.. ثم أنهى – وبعد فترة– تردده، حزم أمره، وأدار ظهره لنا.. ومضى . ولم يزل مبتعداً حتى الآن.

لكنها فترة وجيزة، يوم أو يومين وبعدها أتى الكثيرون من زملائنا، بدأوا في التوافد .. متسائلين عن : ماذا نفعل؟ وكيف نفعل؟ وأحيانا: لماذا نفعل؟ وفي جلسة صامتة يكسوها ضباب يمزج الحزن بالارتباك اتفقنا على إعادة تحريك الماكينة الحزبية مهما كان الثمن..

..ومن جديد انزوى عم برُّق فوق السطح ليعود حاملا ما يمكن أن يصلح لطبع أوراق.. ومن جديد عدنا الى الحماس المعهود.. وعادت وكالات الأنباء ومراسلو الصحف الى تلقي بياناتنا..

وانتحت أمينة النقاش مع عدد من الزميلات والزملاء لتهتم بالعائلات .. وبالمعتقلين . واتفقنا على تشكيل قيادة جديدة .. وقررنا أن نستعين بعدد من الكوادر الوسطى، لكننا كنا واضحين معهم.. هم مؤقتون في هذا الموقع القيادي وسوف يتخلون عنه فور عودة أصحابه.

ضخ القادمون الجدد الى القيادة حماساً دافقا في الأداء.. أذكر من بينهم محمود حامد، مصطفى عبد المنعم، فؤاد ناشد عجمي.. وآخرون. والحقيقة أنهم قد أثبتوا شجاعة تستحق الإعجاب في تولي المسئولية في زمن شديد الصعوبة،كما أثبتوا فطنة ومقدرة قيادية لم نكن نتوقعها .. ولعلهم قد لقنونا درساً يقول إن الكوادر الوسطى يمكنها إن أعطيت الفرصة أن تعطي ما لم يكن متوقعاً من عطاء..

ومن جديد دارت الماكينة الحزبية، بصعوبة شديدة كانت تدور ، لكنها دارت على أية حال..

وكان خالد محيي الدين قادراً وبمثابرة وصبر على أن يلهمنا جميعا

قدرة على التواصل في شجاعة حكيمة، وحماس منأن.

وعادت راية التجمع لتخفق .. أو بالدقة تواصلت، فهي ما توقفت أبداً.

* * *

.. وانتهزت فرصة أن إجازة ٦ أكتوبر تقترب من نهاية الأسبوع، فسافرت الى العجمي لعدة أيام. عدت من البلاج وجدت أن العرض العسكري ممل.. أو خُيِّل إلي ذلك، فدخلت لأنام لفترة حتى يحين موعد الغذاء. ما أن استلقيت حتى اندفعتْ ليلى: «ضربوا السادات بالرصاص» اندفعتُ وقد تراكمت في ذهني كل الأخبار التي تلقيناها من قبل حول احتمالات اغتيال الرئيس.. (حتى موعد الأغتيال حدثنا عنه هذا الشاب الذي حكيت لكم حكايتي معه من قبل .. ولست أدري حتى الآن كيف عرف؟ولا حتى كيف تنبأ؟ ولا لماذا لم يأخذ رجال الأمن الأمر مأخذ الجد؟.. فاتحتهم بعدها بفترة، وأتت إجابة مرتبكة، وربما مفعمة بالتوسل كي لانثير الأمر.. وكانت الإجابة: ده كان واد مجنون، ولا علاقة لما قاله.. بما حدث.. وأقول أنا «ربما».).

تأملت التليفزيون.. لدقيقة أو أكثر قليلا.. إنها فترة الارتباك ثم عادت الأمور للانضباط .. وبدأت المارشات العسكرية، توجهت إلى الراديو، أتيت بالمؤشر إلى اذاعة «مونت كارلو» كانت تستضيف فنانة فرنسية شهيرة، تُحدثنا لبضعة ثوان عن حادث السادات ثم تعود لأخرى إلى الفنانة، ثم حزموا أمرهم واعتذروا للفنانة، وتفرغوا لنا، وتجمع حولي أصدقاء ومعارف وزملاء كل يريد أن يلتقط خبراً ما. سألنا أنفسنا أكثر من مرة، واستجدينا الإجابة من أكثر من مصدر: هل قتل؟

أم أصيب فقط؟ ولكن و ياللدهشة، وفيما كنت أعالج انفعالاتي محاولا ألا أفصح عن أي شئ، كان الكثيرون من الذين تجمعوا يعبرون عن خشية مفرطة من عودة الرئيس الجريح.. لينتقم من الجميع..

أي جميع .. والجميع تقريبا في المعتقلات .. ابتداءً من البابا إلى عشرات من رجال الأكليروس، إلى القادة السياسيين، إلى عديد من خطباء المساجد .. إلى صحفيين.. إلى .. وإلى؟

أخيرا حسم الأمر . استبان من تواصل ترتيل القرآن الكريم في التليفزيون والإذاعة.. وفيما التليفون - حتى في العجمي - لا يكف عن الرنين كنت وبلا أي تردد أعلن للجميع وكثير منهم صحفيون ومراسلون أجانب اتصلوا بمقر الحزب فأعطوهم رقم العجمي.. أعلن أننا ضد الاغتيالات كوسيلة، وندين عملية اغتيال السادات.

وبناء على اتصال آمر من خالد محيي الدين لململت أشيائي لأغادر إلى القاهرة بعد الاغتيال بساعة أو ساعتين، والحقيقة أنني ومنذ لحظة الاغتيال كنت قد عزمت على العودة، فقط كنت أنتظر انفضاض تظاهرة الضيوف.

كنت فور معرفتي بحادث الاعتداء قد اتصلت بالمقر المركزي، كان هناك عدد من الزملاء المستمرين في الإقامة الدائمة بالمقر، أكدت، وأعدت التأكيد، على إدانة الاغتيال، وأكّدت وأعدت التأكيد على عدم السماح بأي تجمع في المقر، ففي مثل هذه اللحظات الحساسة قد يفلت تصرف ما .. أو موقف، لا يعبر عن رأي الحزب، أو يُساء فهمه. أو قد ينساق البعض في حماسه فيفعل ما لا يمكن قبوله.

.. ورغم كل التحذيرات والتأكيدات أفلت محمود حامد من المقر

ليشتري راديو يتابعون به الأحداث، وفي غمضة عين ألقى بتعليق عما حدث في وجه واحد من رجال الأمن المرابطين دوماً حول المقر.. وأخذوه الى المعتقل.

كنت في المقر حوالي السادسة وأتى خالد محيي الدين ود. رمزي فهيم. واجتمعنا ثلاثتنا.. فجأة جاءت مكالمة تليفونية من مراسل أجنبي يبلغنا أن رئيساً عربياً أصدر بيانا يعرب عن بهجته باغتيال السادات، ويدعو خالد محيي الدين بصفته صاحب مشروعية ثورة يوليو.. إلى قيادة الجماهير، وأن يتحرك فوراً لتسلم السلطة.. وسألني المراسل عن رأيي.. وأجبت بأننا ضد الاغتيال من حيث المبدأ ولم أضف شيئاً.

وفي الاجتماع الثلاثي صدر بيان يدين الاغتيال من حيث المبدأ. وقرار بدعوة الأمانة العامة للاجتماع بشكل عاجل.

وفي اجتماع الأمانة العامة استمعنا الى نقد من واحد أو اثنين من الأعضاء يرفضون إدانة الاغتيال، بل وتمادى أحدهما فطالب بإعلان تأييد الذين اغتالوا السادات.. حاول خالد محيي الدين أن يفترض منطقا عاقلا للنقاش معهما دون جدوى، أذكر أنني قلت عندما أتى دور الحديث ناحيتي: إذا كنا نؤيد الاغتيال فلم لا نفعله بأيدينا ؟ إذا قررتم تأييد الاغتيال، فلنكن رجالا ونعلن تأسيس فرق اغتيال لنغتال خصومنا.

صمت المعارضان، لكنهما ظلا يعربان عن بهجة نصف معلنة بما حدث. ويبدو أن البعض لا يعرف كيف يفرق بين حبه أو كراهيته الشخصية لشخص أو رئيس أو نظام وبين موقف سياسي لحزب.

وكان إسدال الستار على مرحلة السادات.. بداية جديدة تماما لمسيرة العاشقين في موكب التجمع.

ثم أن ..

أية محاولة لاستدعاء التاريخ، أو بالدقة ذهابنا إليه، أو استدعائه لنا تكتسي - وهذا طبيعي - بمهابة خاصة، فها أنت تُقبل نحو هذا النوع من المعرفة، الذي يمتعك بالتجاور مع ما كان، كي تحاول أن تنظر من خلاله نحو الحاضر والمستقبل في رؤية أكثر وضوحاً، وأكثر صفاءً.

لكن جلوسك إلى هذا الكهل المتألق بحيوية شابة ومتجددة، والمكتسي - إن كانت الكتابة صادقة ومتقنة - بوقار دافق، يتطلب منك أن تقوم بعملين متناقضين، ويتعين حتما أن تقوم بهما معا .. وفي آن واحد .. النظرة الشاملة لكل الكتابة، والنظرة الجزئية لكل واقعة. تجميع وتفكيك في آن واحد. ونحن نفعلها دوماً دون أن نقرر ذلك، وربما دون أن ندري، فإذا ما نظرنا برؤية شاملة تبدى التاريخ كهلا وقوراً مهيباً، وإن قمنا بتفكيك المفردات المتجمعة تبدت كل منها - وعلى حدة - بسيطة أو حتى ركيكة، هذا إذا ما استثنينا ما هو حاسم ومحوري من أحداث، وما من حياة تكون كل وقائعها ذات إيقاع حاسم. فنحن نعيش هكذا.. ببساطة وتعقيد مندمجين.

أقول ذلك كي أستحث زملائي ممن عايشوا تجربة العشق التجمعي

أن يكتبوا، أن يسهموا في عملية التأريخ لرحلة العشق هذه. ولقد ينصت الواحد منا إلى ذاكرته فلا يستمع منها إلا الى ما هو عادي. لكنه لا يعرف أن هذا العادي هو ذات الحياة التي عشناها. وأن تجميع وتركيب الأحداث والوقائع العادية .. إن اكتست بالصدق ومحاولة اكتمال الحقيقة يمكنها أن تستقبل قدراً من حكمة ومهابة هذا الكائن الوقور المسمى بالتاريخ.

ومن ثم فإنني إذ أنهى هذه الكتابة، أستدعي بها وإليها كل كتابات مقبلة كي تزداد رؤية القارىء لنا اكتمالا، وكي يتم تركيبها مع ما كتبت، ومع ما سيكتبه الآخرون فتزداد ممكنات التعرف على تاريخنا، وتزداد قدرتنا على الاستفادة من خبراتنا سلبية كانت أو إيجابية.

وبطبيعة الحال .. فإن هناك فارقاً هائلاً بين ذلك الكائن الجمعي، الذي نسج آلاف الأفراد مفردات فعلهم وقولهم وكتابتهم وتضحياتهم ضمن آلاف من خيوط أخرى مماثلة أو مختلفة أو حتى متناقضة ليصنعوا منها ذلك النسيج الخاص جدا .. المسمى بحزب التجمع، وبين كتابة فردية، هي في نهاية الأمر رؤية أحادية. ومهما حاولت أو اجتهدت أو ادعيت أنني قلت الحقيقة، فإن هناك بالتأكيد حقائق أخرى .. حقائق لم أعرفها فليس طبيعيا أن يكون فرد ما هو المحط لكل الحقائق، هذا غير صحيح، وغير منطقي. وبالتأكيد هناك حقائق تختلف مع ماذكرت، فليس شرطاً أن يكون كل ما قلت صحيحاً، هو - بالتأكيد - صحيح في حدود ما أعلم، ولكن من قال أن حدود ما أعلم هي ذاتها حدود الحقيقة فلقد تأتي أشياء مرتدية ثياب الحقيقة لكنها ليست كذلك، ولقد تكون الحقيقة الأخرى، أي الحقيقة الصحيحة أو الحقيقة الحقيقية ما تزال كامنة في صدر واحد من هؤلاء الذين شاركونا ساحة العشق، وأفسحوا

في صدورهم حقائق ومعارف وأسراراً أعتقد أنه آن أوان البوح بها. ولقد تكون معلومة ما قد تبدت لي أو نقلت إليّ على أنها الحقيقة، بينما الحقيقة الفعلية متوارية في صدر لم يبح بها بعد. فليفعل، من أجلنا ومن أجل الحقيقة ذاتها.

فلتكن هذه الكتابة بداية .. مجرد بداية تستدعي معها وبها كتابات أخرى كي تكتمل صورة هذه المرحلة الأولى في رحلة العشق، برؤى نظرت إلى الموضوع من زوايا مختلفة، وبوجهات نظر متنوعة .. وبمفاهيم غير تلك التي فهمت بها هذه الواقعة أو تلك.

ولست أتوقع - بأي حال - أن يتقبل رفاق رحلة العشق هذه كل ما كتبت بموافقة توافق كل ما قلت. فلابد أن للكثيرين تقييمهم المختلف، ورأيهم المخالف، ومعلوماتهم ذات المذاق الآخر. لكن ما أطمح إليه أن يثق كل من شاركوا معي هذه الرحلة، أنني لم أشأ أن أفرض رؤية أحادية، أو أن أفترض صحة كاملة لما رويت، أو أنني تعمدت أن أفسر رأيا، أو موقفاً، أو فعلا لأي زميل تفسيراً يستهدف الإيذاء أو تغيير الحقيقة. فما أنا إلا شخص يحاول .. فلنحاول معا. ومن مجمل محاولاتنا ستأتي الحقيقة.

وفي أحيان ما تكون الكتابة عن الحقيقة أو محاولة الاقتراب منها كعملية التصوير الفوتوغرافي .. فالصورة والنيجاتيف شيء واحد، لكن فصلهما عن بعضهما يجعل أحدهما أبيض والآخر أسود. فلنتلقن درس الكاميرا، فإن رأينا الحقيقة مقلوبة اللون، لنكتب اللون الآخر .. لنطابق الصورة مع النيجاتيف فنأتي معاً نحو معرفة الحقيقة.

.. وأختتم ملحاً على زملائي بأنْ يسهموا معي في البحث عن الحقيقة.

وبعد ..

أتردد أو أكاد إذ أنهي الكلمات. فما من نقطة انتهاء. فالمسيرة والعطاء والعشق يتواصل بتواصل أجيال العاشقين. وسيكتب، بالقطع، العديد .. والعديد من أوراق العطر العاشق عن رحلة التجمع ومسيرته.

لكنني لا أستطيع أن أتوقف عن الكتابة دون أن أعود بالفضل إلى صاحبه الأول والأساسي «خالد محيي الدين» فهو الذي صاغ بهدوئه وحكمته وخبرته واحترامه للآخر، وعشقه العاشق للتجمع، مفردات الحكمة التجمعية، وما نحن جميعا إلا مجرد مريدين، وتلاميذ في مدرسته. وهو الذي كان ولم يزل محط الاحترام من الجميع، ففيما البعض يرفض البعض، أو يناصب البعض الهجوم .. نجد الجميع يتقبلون عطره، ويحترمون مكانته، ويقبلون منه مالا يقبلونه من أي أحد آخر. فكان خالد محيي الدين ولم يزل مانعة الصواعق .. وموئل الجميع. بل إنني وعن متابعة ومعرفة، أعرف تماماً أن كثيرين ممن أتوا إلى ساحة التجمع قد أتوا إليه لأنه حزْب خالد محيي الدين .. وفقط. .

كما أن مكانته التاريخية واحترام الآخرين، كل الآخرين له، قد منحت التجمع وحتى في الزمن الصعب حصنا افتقده الآخرون وكسته باحترام الجميع وتقبلهم لما يقبل.

ويبقى أنني مع ذلك لا أضع نقطة انتهاء. فقد، أقول: قد... إن وجدت مساحة من زمن وطاقة من جهد، قد أستطيع أن آتي بكتابة أخرى إن كان هناك ثمة أيام متبقية.

الجزء الأول

الجزء الثانى

الجزء الثالث